
جدائلك في حلمي
قوس قزح
اشعاع فرح
فرشاتك الخاصة
لترسمي على وجهي
الوان المرح !
جدائلك في حلمي (225) بقلم كاردينيا73
جدائلك .. في حلمي!
بقلم كاردينيا73
الثالث من
سلسلة قوارير العطار
تصميم كاردينيا73
www.rewity.com


جدائلك في حلمي
قوس قزح
اشعاع فرح
فرشاتك الخاصة
لترسمي على وجهي
الوان المرح !
جدائلك .. في حلمي !
بقلم كاردينيا73
الثالث من
سلسلة قوارير العطار
تصميم كاردينيا73

جدائلك في حلمي



القارورة الثالثة

من سلسلة قوارير العطار

بقلم الكاتبة كاردينيا73

حصرياً على منتدى روايتي

www.rewity.com

نزل اعلان الغلاف بتاريخ : 18-12-2015، 10:52 PM

نزلت المقدمة بتاريخ : 08-07-2016، 01:56 AM

نزلت الخاتمة بتاريخ : 6-12-2016، 10:00 PM

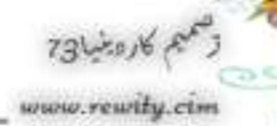
تنقيح : الكاتبة كاردينيا73

تصاميم الغلاف والتواقيع والفواصل ووسام التفاعل المميز : كاردينيا73

تصميم البنر الاعلاني : Omima Hisham

تصميم قالب الصفحات الداخلية : كاردينيا73

تجهيز الكتاب الالكتروني : كاردينيا73



كلمة الكاتبة كاردينيا73

ويفوح عطر بغداد مرة اخرى ومع القارورة الثالثة ... رباب...

سلسلة قوارير العطار هي روح بلدي وهوى العراق ليس ككل الهوى...

قد لااذكر اسم مدينتي بغداد .. قد لااذكر اسم حي ... لكن اعلموا انني اتكلم عنها .. عن شوارعها واهلها وناسها كما عرفتهم..

فعذرا لعنصريتي فالحنين أشد وانا بعيدة عنها من سنوات..

قوارير العطار بين عائلة الصائغ وعائلة العطار

انا لااعرف احدا منهم لكن اعلم عراقتهم فتركت لخيالي بابتداع الشخصيات...

العطارة وصياغة الذهب هما اقدم الحرف وامتهنتها أعرق العوائل التي تمتد جذورها لعشرات وربما مئات السنين..

هذا جزء من مقال رائع عن طب الاعشاب والعطارين والتراث العراقي الاصيل

http://www.rewity.com/forum/t296530-...ml#post9246000

والان سنكمل حكاوي بنات يونس العطار

وقد ابتدأنا بالكبرى سلطانة الحمام آسيا مع رضا القلب في الجزء الاول (أترقب هديلك)

ثم البرية حبيبة التي تاهت بين مهند ويحيى الصائغ لتجد طريقها في النهاية في الجزء الثاني (برية انتِ)

لنصل الان الى صاحبة الجدائل الملونة رباب فماذا ينتظرها من مفاجآت ..

ثم يتبعها ان شاء اللّه رابع القارورات وآخرهن .. رقية كل الرقة ... ولها في رأسي حكاية ليست ككل الحكايات..



المقدمة

في ظلمة غرفته يراقب ومضات يصدرها هاتفه فتومض في عقله اضاءات تلاحقه في صحوه ومنامه ...

اغمض عينيه يعيش حالة لاواقعية طالما راودته وداعبت خياله وهو يقظ تماما ..

طوال سنيّ دراسته في بلد الثلوج كان يلاحق ذكرى خصلات شعرها وهي تتطاير ..

ألوان وألوان ...

اصفر احمر اخضر ازرق ...

تلتف في دوائر لاتنتهي في ذاك الخيال الفتي اليقظ ...

خصل قوس قزح تلك كانت تهويدته السحرية كل ليلة لينام قرير العين مبتسم الشفتين ...

كانت تمنحه بهاء الفرح وانتعاش الحنين و رجفة قلب مشتاق ...

الان... لاتشعره هذه الخيالات الا بالغربة ... غربة داكنة باردة تشقق ملامح وجهه وتعيد رسمها بريشتها الكئيبة ..

غربة تخنقه وتعيده لسنوات اكثر بعدا بكثير ..

الى ذاك الطفل المصدوم الذي لامس اذنيه
حوار عنيف بين اخويه ...

حوار لم يكن يفترض ان يسمعه ..

في عناد متمرد يناقض المعلوم والمعروف أخذ
عبد الرحمن يتساءل بتصلب ..

و لِمَ شعور الغربة البارد هذا ؟ ألم يعد لدفء
جدران بيت الصائغ حيث جذوره وربوع اوطانه؟

تتقبض يداه من شدة العناد .. ثم .. تضحك
منه خيالاته وهي تسحبه دون عناء من تمرده
عليها وكأنه مجرد طفل يغريه صباح العيد
ليصحو باكرا هاجرا سريره المريح فتقود
خطواته رائحة العجين المخبوز بالتمر
لتوصله الى حيث امه تعد حلوى العيد
التقليدية كما تفعل باقي الجارات في الحي ..

اجل .. ها هو يعيش خديعة خيالاته هاربا او
متهربا من غربته فيعود صاغرا لدوائر الالوان
في خياله مستسلما لها وهي تضيق حصارها من
حوله وتتوهج اكثر واكثر فتسطع ببريقها
في عقله بينما يسمع الطبول تقرع فتتسارع
انفاسه في اثارة وكأنه يوشك على امر ما ...
خطيييير ...

تغلبه سنة نوم فينطلق عنيفا في خيالات
لاتحدها حدود .. يندمج الخيال بالحلم ..
يفتح عينيه هذه المرة يبحث عن حد فاصل
بين ظلمة جدران غرفته وبين تلك الالوان
التي تحاوطه من كل جانب ...

الالوان اخذت تتمازج وترتفع وكأنها امواج بحر ثائر.. فيعلو قرع الطبول حتى اوشك ان يظنها جنت من وحشية الاحتدام القادم ...

انشده فجأة وصوت ضحكات انثوية تفيض شقاوة تدحر اصوات طبوله !

يلف يمينا .. شمالا ... يبحث عن مصدر الضحكات والامواج تداهمه وتلفه لفا دون ان يعرها انتباها ...

همس من بين شفتيه " انها ... انتِ "

بينما صورتها تتجسد اخيرا عبر جدار الامواج الشفافة الملونة الذي يفصله عنها ..

يعقد حاجبيه ويكتسحه الغضب فيمد يده نحوها وهو يتمتم بنفس الوقت

" اجل ... انتِ ... تعالي ..."

فتضحك ضحكتها قبل ان تلتف لتوليه ظهرها وتكاد ترحل مبتعدة وهو ينادي بغضب مستعر متزايد " توقفي .. توقفي .."

تزداد الامواج كثافة فتمنعه عنها فيصرخ عاليا " توقفييييييييييييي .."

طبوله تعلو مع صراخه الغاضب فيخرج من حلمه عنوة وكأنه يصارع تلك الامواج منتفضا بجسده ..

ظلام غرفته خنق روح الالوان التي كان يحاول اختراق خياله قبل حلمه ليصل اليها ...

قرع الطبول ينفضح مصدره فلم يكن الا قرع قلبه المنتفض في صدره ...

تمتم شاتما غاضبا من سنة نوم فرضت سلطانها عليه ودمجت خياله بحلمه ...

دفع الغطاء عن جسده غير مبال ببرودة ليلة شتوية تخللت جدران غرفته لتتخلل قماش منامته القطنية الخفيفة...

انزل عبد الرحمن ساقيه ارضا وغادر سريره ناقما على نفسه ليتجه ناحية الشباك المطل على الشارع ...

ليس الشارع فحسب ... انه شباكه حيث يرى بوضوح .. البيت المقابل ...

بيت يونس العطار ...

ملامحه خشنة بتقاسيمها فقد رمت خلفها نعومة المراهقة وهو يتجاوز سن السادسة والعشرين ...

هل هي الوراثة من خشونة ملامح ابيه عقيل الصائغ واجداده من قبله ؟

ام انها خشونة ما يشعره من احاسيس متضاربة تتسلل لتلك التقاسيم وتنحتها كيفما تشاء !

تنفس بعمق وهو يزيح الستارة فيرى البيت المقابل المظلم ...

صكّ اسنانه ونفس الغضب الذي اعتراه في الحلم يعود اليه ويقلق سيطرته على حواسه ومزاجه الحانق ابدا كما يحب حذيفة وصفه ليغيظه ...



احنى عبد الرحمن رأسه ويداه تتقبضان وهو يتمتم " لن اسامحها ابدا ... ابدا ..."

انوار واصوات جذبت انتباهه من الشارع ليرفع نظراته ويحدق في الشارع فتسترخي ملامحه تلقائيا وهو يلمح اخاه الاكبر يصل بسيارته متأخرا للبيت بعد سفر بري طويل لمدينة اخرى كي يحضر عزاء لتاجر يعرفه قرر ذووه وعائلته ان يقيموا العزاء في مسقط رأس الفقيد .. مدينة جنوبية حيث تعود اليها جذورهم ...

رأى اخاه يترجل من السيارة بعباءته السوداء الصوفية على كتفيه .. عباءة تذكر عبد الرحمن بوالده .. عقيل الصائغ .. رضا بات يرتديها على الدوام وكأن روح الاصالة تجد هواها بأن تتلبس عبر قماش ثقيل وخيوط ذهبية تفصلت تفصيلا وخيطت وتطرزت لترسم ملامح عراقة بلاد قديمة .. بلاد عطرها من مسك ودفؤها من عيون رجالها المسبلة .. متحفظين في ابداء مشاعرهم للعلن فيغضون البصر لكن عيونهم في الخفاء تبرق بتلك العواطف المشعة من بين جنبات القلب والروح..

تنهد عبد الرحمن وعيناه تعلقان بذاك الخاتم في البنصر الايمن لكف اخيه وهو يفتح باب المرآب ، فيهمس عبد الرحمن بعاطفة خاصة

" ليتني املك قلبا كقلبك يا أبا جعفر..."

عاد عبد الرحمن لينظر للبيت شبه المظلم امامه فتقسو ملامحه ويطفو على سطحها الكبرياء شاهرا سيوفه ...

عاودته الذكرى قبل عامين .. كان يهرول لاهثا على سلم البيت ورائحة ورق العنب تنبعث من المطبخ لتعم البيت بأكمله ..

قلبه يخفق وابتسامته المتسلية تتراقص على شفتيه ..

كان متعجلا ليلحق برباب وهي تشطف ارضية المرآب كما تفعل كل بضعة ايام ..

اتسعت ابتسامته وهو يتذكر التلاسن الدائم الذي يصل مسامعه بين رباب ورقية حيث ترفض الاخيرة رفضا قاطعا ان تساعد اختها ..

دخل المطبخ يخفي لهفته بشق الانفس بينما يقول لخلود

" هل أعددت طبق بيت الحاج يونس العطار؟"

تلتفت اليه خلود حاملة الطبق المزين باتقان لكنها عاقدة الحاجبين بينما ترد عليه بغير اقتناع " ما زلت لاافهم معنى ان نرسل طبق (ورق عنب) للجيران ! نحن نرسل الحلويات عادة وفي المناسبات التقليدية .."

يرد عبد الرحمن وهو يبتلع ريقه

" انها فرحة عودتي بشكل نهائي للوطن اليس كذلك ؟ انا .. احب ورق العنب .. ثم اننا في رمضان .. نتبادل احيانا اطباق الطعام .."

هتفت به خلود متخصرة وقد ازداد عبوسها

" نحن لسنا في رمضان ..."

يقترب عبد الرحمن منها ويباغتها بخطف
الطبق قبل ان تغير رأيها ثم يمنحها اجمل
ابتساماته وهو يشكرها بالقول

" انت الاروع يا زوجة اخي .. لا احد يحقق
المستحيل لاجلي مثلك .."

ما زالت عابسة غير متأثرة بمديحه بينما تراه
يكاد يهرول ليخرج ..

وقد كان يهرول .. اللعنة .. كان يهرول حقا..

لازال يذكرها ببنطالها الجينز والقميص
الطويل الفضفاض وحجابها تلفه حول رقبتها
لفا بينما تشطف الارضية بهمة ونشاط ..

ضرب عبد الرحمن بقبضته على زجاج النافذة
يتطلع باحتراق لبيت العطار ويتذكر المزيد
من ذاك النهار الذي انتصف وهو يفتح باب
بيته ليتقدم ناحية باب بيتهم حاملا الطبق ..

يسيطر بشق الانفس على ارتعاش كفه التي
تحمل الطبق وعيناه تلتقطان ارتباكها الواضح
وهي تنظر اليه ..

لا .. لم يخطئ احمرار وجنتيها المفاجئ ..

لم يخطئ تألق لون عينيها العسليتين ..

لم يخطئ حشرجة صوتها وهي تحدق فيه
قائلة " مرحبا .. عبد الرحمن ..."

عاد ليضرب بقبضته على النافذة وهو يردد
بقسوة " لم اخطئ يا رباب .. لم.. اخطئ ..!"

ظهر اليوم التالي..

فنجان قهوة امامه على الطاولة الصغيرة
المستديرة يتصاعد بخارها امام ناظريه
ويتمايل برقة كأنه جسد فتاة يافعة ..

يبتسم بعبث رغم شجن النظرات في عينيه
بينما اصابعه تتلاعب فوق سطح الطاولة
بسيجارة لم يشعلها حتى الآن ..

ترتفع نظراته بين الحين والاخر لينظر عبر
زجاج نافذة المقهى المطل على الشارع العام
ثم يعاود الاطراق واصابعه ما زالت على عبثها
اللاهي بالسيجارة ...

تمتم بصوت عابث

" هل تدرك حقا ما تفعله يا مهند ؟!"

يتضاحك بخفة بينما يرتد بظهره للخلف
ساحبا مع السيجارة قداحته الذهبية ..

وحالما اشعلها وتصاعد دخانها امام ناظريه
حتى شخصت عيناه وهو يرى الباص المدرسي
المألوف يقف في محطته ..

اخذ نفسا عميقا وانتظر بصبر عجيب نزول
الطلبة الصغار حتى ... نزلت هي ...

يمج من سيجارته بهدوء لايعكس ارتجاج قلبه
العنيف وعيناه تتفحصان جسدها بانحناءاته
الرقيقة وطولها الفارع ...

لكن... لايهم .. طول القامة هذا وشعرها
الكستنائي الطويل لا يهم ...

انه لاشيء امام ما ينتظره حينما تقع عيناه على صفحة وجهها بتلك الملامح التي تجلده بسياط الذكرى ...

اجل ها هي تبتسم لرفيقتها اليومية التي تشاركها المسير بعد النزول من الحافلة ..

ها هي .. تبتسم نفس الابتسامة بينما هو يمج المزيد من سيجارته ...

وكل هذا .. حتى الآن .. لايهم ...

الآن سترفع عينيها .. الآن سيأتي الاهم ...

ارتعشت يده كما يحصل في كل مرة عندما يغرق في زرقة عينيها العميقة !

همس بضياع وعيناه يشتد بريقهما المصعوق

" حبيبة ..."

ان هي الا لحظات مهما طالت ...

لحظات وتنتهي .. تغرب بغروب الفتاة ...

لحظات لن يمل تكرارها كل يوم دون ان يقدم على خطو خطوة واحدة ...

بنفس الهدوء الظاهري يطفئ سيجارته ويشرب بلا شهية قهوته التي غربت عنها انحناءات بخارها فباتت .. باردة ...

ثم يغادر .. يلازمه خيال تلك الفتاة وطولها الفارع وملامح وجهها التي يحفظها حتى قبل ان يراها وزرقة عينيها الغامقة التي يغرق فيها حتى قبل ان يمر بشواطئها ..

نسخة من (حبيبة) كانت وما زالت حبيبته ..

بعد نصف ساعة كان في طريق عودته للبيت وحالما وصل ادخل سيارته بسلاسة للمرآب لياخذ بضع دقائق من السكون بعد ان اطفأ محرك سيارته قبل ان يترجل منها ..

دخل البيت وشعور بليد ينتشر في اوردته وشرايينه ...

الهدوء والرائحة الزكية تستقبله فلا تحرك فيه شعرة .. ثم خطوات .. خطوات بات يميزها بخفتها المستفزة عبر ثلاث سنوات من العشرة..

" مرحبا مهند .. عدت باكرا ..؟"

ابتسم مهند لوجهها الفاتن .. الفاتن جدا دون ان يفتن قلبه !

وجه كالقمر وعينان واسعتان سوداوان وفم كحبتيّ كرز وشعر ناعم طويل حالك السواد ...

وصف ولا في حكايات الف ليلة وليلة ..

لكنه ينطبق عليها ويجسدها صورة حية امامه .. امامه و .. ملكه ...!

بصوتها الرخيم الهادئ تسأله بنبرة غامضة

" لماذ تتطلع الي هكذا ؟"

لايرد بينما تسرح نظراته بعبث هذه المرة على منحنيات جسدها عبر جلبابها الازرق فيرد وعيناه تحدقان بلا مبالاة في شفتيها

" تبدين جميلة بهذا الجلباب يا جوري .."

ترتعش ابتسامتها .. لكنه ارتعاش يرسل اليه
اشارات من نوع آخر .. نظراتها جامدة كجمود
ملامحها الفاتنة فقط تلك الرعشة الخافته
تواصل ارسال نفس الاشارات ..

اخذ مهند يحدق في عينيها هذه المرة وهو
يتساءل ترى ماذا تخفي خلف سوادهما هذا ..؟

سأل بهدوء وهو يقترب ناحيتها

" اين حـ..."

قبل ان يكمل سؤاله خرجت بصخبها الطفولي
من غرفتها الصغيرة الخاصة تركض ناحيته
وهي تهلل " بابا .. بابا ..."

فيفتح مهند ذراعيه على مصراعيهما ليستقبل
مصدر بهجته الوحيد في هذه الدنيا ..

حالما حاوطت ذراعيه جسد ابنته ذو العامين
رفعها اليه يضمها بابتسامة مشعّة لصدره
هامسا بصوت يفيض عذوبة وشجنا

" حبيبة ... اشتقت لك طوال النهار .."

الفصل الاول

اهتم باناقة هندامه كعادته ... بلوزة صوفيه مرتفعة العنق بيضاء بشكل شاحب ومعرقة بخيطان قصيرة متعرجة متناثرة عشوائيا و بلون رمادي يجانس لون بنطاله الكتاني..

عطر مسكي اهداه له رضا ثم ساعة يده الفضية لتكتمل هيئته الانيقة التي هذبت بعضا من خشونة تعابيره ..

بعد ربع ساعة كان عبد الرحمن يجلس القرفصاء امام اطار سيارته الخلفي ينظر باحباط لشكله الذي بات مفلطحا وقد فرغ من الهواء حتى اخره تقريبا بينما يفكر ببداية نهاره السيئة هذه !

هل عليه حقا تبديل الاطار ..الان ؟!

شتم بهمس وهو ينظر لملابسه وقد كان على اتم الاستعداد للذهاب لعمله في الجامعة ..

صوت اقتراب خطوات من باب المرآب جذب انتباهه وقبل ان يقف على قدميه أطلت كف انثوية من بين الفتحات العليا لزخرفة الباب الحديدي الابيض ..

يعبس وهو يضيق عينيه وقلبه يخفق رغما عنه وتلك الكف بذراعها الرشيق تتدلى اكثر واكثر حتى تصل عتلة الباب من الداخل وتفتحه !

هكذا بكل بساطة و ... وقاحة !

تحرك بخفة وسرعة مع انفتاح الباب ليقف بشكل مباغت في وجه الدخيلة الوقحة التي كانت تخطو للداخل دون استئذان ...

شهقتها المتفاجئة وهي ترفع نظرات عينيها العسليتين اليه ثم ارتباكها الشديد وهي تضع يدها اعلى صدرها حيث تربط طرفي حجابها بعقدة انيقة مميزة يعلوها دبوس ذهبي على شكل ورقة شجرة ..

ردود افعالها هذه ارضت جانبا قاسيا فيه يرغب بشدة ان يجد متنفسا فيها هي تحديدا..

تمتمت وهي تستعيد بعض رباطة جاشها

" صباح الخير عبد الرحمن .."

صك اسنانه بعنف بينما قلبه يخفق بعنف من نوع آخر ...

قال اخيرا ببرود شرس متجاهلا رد تحيتها

" الا يفترض يا رباب ان تعرفي في عمرك هذا ضرورة طرق الابواب والاستئذان قبل دخول بيوت الناس ؟"

شحبت بشرتها الحليبية وبدى لون حجابها المشمشي عاجزا عن منحها دعماً ليبعث في شحوبها بعض الحيوية ..

للحظة فقط داهمه شعور الندم الخانق قبل ان يستعيد ذخيرته من القسوة مع استعادتها لتعابير السيطرة والتحكم فترفع حاجبيها قائلة ببرود مستفز

" اخذت الاذن من كبير هذا البيت .. اخاك رضا .. و زوج اختي اسيا ان كنت نسيت .. فهل يرضيك هذا ويجعلك تسمح لي بالمرور بدلا من ان تقف في وجهي هكذا ...؟!"

بجفنين شبه مرخيين يرد لها التحدي البارد بصمت مطبق وابتسامة صغيرة مستهينة ..

يتلكا قليلا وعن عمد يتأخر وهو يزيح جسده الضخم ليستدير اخيرا موليا اياها ظهره ثم بتجاهل كامل يتحرك عائدا ناحية سيارته وهو يصفر !

لم يغفل عنها وهو يتركها تحث خطواتها (المعتدة) ناحية السلم اللولبي المؤدي لجزء البيت العلوي المخصص لرضا واسيا وولديهما...

ترتقي درجات السلم وعيناه تدققان النظر بتركيز وتقييم عابس لبلوزتها المشمشية كلون حجابها .. فضفاضة.. طويلة تكاد تصل مستوى ركبتيها فوق بنطال بني مستعرض القصات يرف حول كاحليها..

دوما تختار ما يبرز قامتها الرشيقة لتبدو اكثر طولا وجاذبية ..

ترى هل تحاول اثارة اعجاب احدهم في شركتها السخيفة ؟!

هل ستجد من .. يملأ عينيها ؟!

امواج جليدية تتكسر على شاطئ قلبه وتشققه بحوافها المثلمة ...

" عبد الرحمن ..."

مع نداء اخيه حذيفة من عند باب المطبخ المطل على المرآب انتفض عبد الرحمن من تلك الجروح التي تعلّم على قلبه وتنكئ جروحا قديمة ...

بواجهة هادئة رد على حذيفة وهو يقترب منه

" صباح الخير حذيفة .."

ابتسامة حيرى مشاغبة داعبت ثغر حذيفة ثم سأل بتسلية " هل تحتاج .. مساعدة ؟"

رد عبد الرحمن ابتسامة اخيه وهو يتطلع لملابسه البسيطة القديمة التي يخصصها للمعمل فيقول " هل بامكانك اعفائي من تغيير ملابسي ومساعدتي في تغيير اطار السيارة المثقوب ؟"

رأس حذيفة تحرك بشكل جانبي للاعلى متطلعا للسلم اللولبي في الحديقة الامامية ثم يحرك حاجبيه ليقول مدعيا البراءة

" ان كان هذا ما يزعج .. صباحك .. فلا مانع من ان ادللك يا ابن الحاج عقيل ..."

اجفل الاثنان من صوت امهما وهي تردد بحنق وتذمر " اين ذهبت خلود وتركتني انتظر ؟! قالت ستحضر لي شايا اخر قبل ان تذهب لعملها .. هل تتناساني الآن ؟... هذه الفتاة اصبحت مغرورة ولاتراعيني كما يجب .. هل تستغل كوني لم أعد بقوتي كما السابق فتقلل من احترامها لي ؟ "

اخفى عبد الرحمن ابتسامته بينما يتوعده حذيفة بصمت قبل ان يلتفت لامه فيراضيها ويسترضيها وهو ينحني ليقبل يدها قائلا باحتيال " ما عاش من يقلل احترامك .. لقد اربكتها سوسو لانها اضاعت كتاب العلوم فساعدتها خلود حتى وجدته ثم خرجتا راكضتين لتلحقا بالباص .. "

بدت الحاجة سعاد عابسة كطفلة غير راضية رغم كل هذه المراضاة ليستمر حذيفة بمحاولاته وهو يلفها بذراعه ويضيف

" سأحضر لك الشاي بنفسي يا ام حذيفة .. فقط دعيني اساعد صغيرك مع اطاره المثقوب فلا نريد ان نفسد اناقته امام طالباته المفتونات .."

مطّت الحاجة سعاد فمها يمينا وشمالا بينما تتأرجح على عكازها بجسدها الممتلئ لتقول وهي تمصمص شفتيها " انت ايضا لديك عملك فكيف تخرج خلود قبلك.. هه .. عشنا لنرى النساء يسبقن خروج الرجال للعمل..! قلت لك منذ البداية عملها سيلهيها عن رعايتك انت وابنتك .. الا يكفي انها .."

بحزم خاص اوقف حذيفة استرسال امه في احدى نوبات نقمها المعتادة ليقول ببعض البشاشة " لاتبدين مرتاحة هذا الصباح .. فليحترق الإطار المثقوب .. تعالي معي لنتشارك فطورا ثانيا .. ما زال بي شهية لآكل المزيد لكن من يديك انت هذه المرة يا اغلى الناس .."

تراخت ملامح الحاجة سعاد فيضيف حذيفة ممازحا وهو يغمز ناحية عبد الرحمن المبتسم " انظري للمدلل كيف يغار لانك تفضلين صحبتي عليه ..؟! "

تضحك الحاجة سعاد وهي تتكئ على صدر ولدها مدعية تعبا مضاعفا عن حقيقته فيلتفت حذيفة لاخيه قائلا

" إلحق بمحسن قبل خروجه سيوصلك معه.."

هز عبد الرحمن رأسه موافقا وهو ينظر لساعة يده ثم استدار ليتحرك عبر المرآب ويخرج من بابه الحديدي مغلقا اياه خلفه فترتفع عيناه تلقائيا ناحية الشباك العلوي حيث نهاية السلم اللولبي فـ.. يراها ..

تقف هناك تحمل الصغير كاظم بين ذراعيها وتضاحكه.. احنى عبد الرحمن رأسه واحساس مألوف وقاس كالأدمان يعتصر قلبه ويوجعه حتى الصميم...

عابس الوجه مستغرق بالتفكير يسير بخطواته على الرصيف متوجها تلقائيا حتى يصل البيت المجاور الملاصق لبيت (عقيل الصائغ) .. انه البيت الصغير الذي انتقل اليه محسن حديثا مع عائلته بعد ان اشتراه من اصحابه المهاجرين ..

ولحسن الحظ لحق بمحسن قبل خروجه ...

فركب معه بصمت بينما محسن يتولى الثرثرة طوال الطريق ولاكلام له الا عن ابنته منة ..

تسمعه يسعل بخفوت وهي تحمل عباءته من الجانبين مقتربة منه من الخلف ثم ترتفع بكاحليها لتشرأب بقامتها وتضع العباءة على كتفيه وهي تسأل

" هل اكملت شرب منقوع الاعشاب .."

يلتفت رضا برأسه للخلف يناظرها من فوق كتفه الايمن بابتسامته الذائبة الخاصة ثم يميل ليلثم بشفتيه ظاهر يدها قائلا بنبرة رجولة فياضة

" حتى آخر قطرة يا عطارتي.. لاحرمني اللّه من تدليلك لي يا اميرة البنات.."

تتضاحك اسيا وهي تطبع قبلة رقيقة على كتفه قبل ان تبتعد وهي تلملم شعرها الطويل المبعثر قائلة

" لم يعد يليق بي اميرة البنات يا رضا .. لي ولدان اسمهما وحده يهز مسامع الرجال .."

تجلس على كرسيها الخاص امام منضدة الزينة تطالع وجهه عبر المرآة فتراه ما زال يبتسم تلك الابتسامة الخاصة فتتورد طواعية ..

قليل الكلام رائق الطباع مهما كانت حالته..

وان تكلم يتغزل حتى وهو لايقصد الغزل ..

كلما مرّ عام يلحقه عام أدركت اسيا اي نعمة خبأها اللّه لها بزواجها من رضا ...



رأته يقترب بتلك الابتسامة ثم يمد كفيه
ليفك عقدة شعرها برفق ينثره برقة بطريقة
ما تشعرها برجولته بينما يسبل اهدابه وهو
يقول اخيرا

" من تملك تورد حيائك ستظل اميرة لكل
البنات حتى تشيخ ويغدو صغارها رجالا اشداء "

كان يمسد خصلات شعرها فتسترخي تلقائيا
وهي تبتسم بخديها المتوردين فتسمعه يسألها

" هل حضرت رباب ؟"

ردت وهي تطالع انعكاس صورته امامها

" نعم .. حضرت عندما كنت تأخذ حمامك..
انها تلاعب كاظم في الصالة .."

ترك خصلات شعرها تنساب من بين اصابعه
قبل ان يتحرك مبتعدا وهو يقول

" اذن لقد اخرتها كثيرا معي .."

تحركت هي الاخرى لتقف على قدميها بينما
تراه يتوجه لباب الغرفة فتناديه بتردد

" رضا ..."

يلتفت نحوها فتجد نفسها تحدق بتجاعيد
وجهه التي تكاثرت باكرا والشيب الذي غزا
شعره حتى بات فضيا فيتلهف قلبها بل
ويتوجع..

انه لايشتكي ابدا ولايمل حمل المزيد ...

قالت اخيرا " رباب تستطيع تدبر امرها بنفسها.. لست مجبرا لاخذها بنفسك لمحلات الصاغة في السوق الكبير .."

عيناه باتتا محجوبتين عن القراءة بينما يرد عليها " وهل اتركها تلف في الاسواق هنا وهناك بمفردها ؟! تلك الاسواق لم تعد آمنة كما السابق وفتاة شابة حتى وان كانت محجبة فهي عرضة للتحرش دائما.."

اقتربت خطوتين لتفصح عما يقض مضجعها

" انا لااريد ان .. ازعج عبد الرحمن .."

طالت نظراته نحوها قبل ان يقول بهدوء

" رباب تخصني كعبد الرحمن .. وهو رجل بما فيه الكفاية ليدرك هذا ويتفهمه .. وان لم يتفهمه فستكون مشكلته الخاصة لا مشكلتي او مشكلة رباب .."

للحظة صمتت اسيا لتقول بعدها بعينين لامعتين " حفظك الله لنا يا ابا جعفر.."

تبسم قبل ان يمد يده ليفتح الباب ..

تتنهد اسيا وهي تعاود لملمة شعرها بينما تتمتم لنفسها بحيرة حزينة

" فقط لو اعرف لماذا يا رباب..لماذا ؟!"

يقود رضا سيارته بصمت بينما تبدو اخت زوجته اكثر صمتا منه ...

رباب الصغيرة التي تعرف اهدافها باكرا ..

نشيطة مبهجة .. تلتقط كل ما هو جميل

حولها وتضع لمستها عليه لتبرزه بطريقتها ...

فنانة بالفطرة وخلاقة مبدعة ...

موهبتها مختلفة عن موهبة حبيبة التي تميل

للناحية الفنية البحته اكثر ...

فرباب اكثر عملية ومنظمة وتجيد الانتاج

عبر موهبتها .. حتى انها صنعت لنفسها سمعة

طيبة في مجال تصميم الازياء الاسلامية

تحديدا وقد ابهرت الجميع على مستوى

الجامعة حيث كانت تدرس ادارة الاعمال ثم

اشتراكها في دورات تعلم تصميم الازياء

بشكل حرفي فيما بعد...

ظاهريا فقط ... رباب شخصية واضحة !

لكنها في الواقع هي فتاة غامضة مغلقة تماما

فيما يخص انفعالاتها الداخلية التي لاتظهر

منها الا ما تريده هي ...

حتى اسيا لم تستطع الوصول لذلك الجزء

المخفي من اختها بحرص شديد !

تساءل رضا في سره ببعض الحيرة

"ما الذي تخفينه عنا جميعا يا رباب العطار؟!"

لم يكن الامر بسبب موضوع عبد الرحمن

فقط الذي اثار حيرته وحيرة اسيا وسخط

ونقمة عبد الرحمن ..

الامر ان ... الفتاة فاجأته حقا ولم يتوقع ما

حصل .. بل وإصرارها على كتمانه عن باقي

العائلة ..

وجد نفسه يسأل فجأة بعيدا عن افكاره

" متى ستعود حبيبة ؟ احاول مكالمة يحيى منذ يومين ولا اصل اليه .."

بدت له رباب للحظة وكأنها أجفلت ..

وكأنها كانت غارقة هي الاخرى بافكارها الخاصة المحجوبة ..

قالت وهي ترسم ابتسامة حلوة

" كلمتها ليلة الامس .. قالت اسبوع اخر وستكون في الوطن ان شاء اللّه .."

تطلع اليها رضا للحظات قبل ان يسأل

" هل هي جدية بمشاركتك مشروعك ؟"

ردت ببهجة تجعل عينيها تتألقان

" اجل .. انها متحمسة جدا لتكون جزءا من دار العطّار للازياء .."

ثم اضافت بمزيد من البهجة غافلة عن نظرات رضا المتفحصة

" هل تعلم ان يحيى ايضا سيدخل شريكا ؟ بالمال والمجهود .. سيستلم الادارة .."

تمتم رضا وهو يعود باهتمامه للقيادة " حقا ؟"

ردت بحبور وشعور واضح بالراحة

" نعم .. وانا سعيدة للغاية بقراره .. انا احتاج لدعم اداري ويد حازمة خبيرة توجهني حتى لا اتوه .. ما زلت في بداية الطريق والتطبيق العملي لما درسته في الجامعة مختلف تماما عن التطبيق النظري .."

تساءل رضا بهدوء

" ماذا عن رقية ؟ الا تريد العمل معك ؟"

ما ان طرح سؤاله حتى التفت اليها يقرأ ردة فعلها الاولى عبر تعابير وجهها ليراها قد تجهمت قليلا فتتراجع ابتسامتها الاولى وترد ببعض الغموض " رقية لاتهتم بأمر جدي كالعمل .. انها مستمتعة بحياتها الجامعية وصحبة رفيقاتها .. التافهات .."

قالت كلمتها الاخيرة ببعض الحدة مما لفت اهتمام رضا وجعله اكثر تركيزا ليقول مستدرجا اياها بالكلام

" لكنها ستتخرج قريبا .."

ادارت رباب رأسها جانبا وكأنها تخفي تعابيرها عنه بينما لم تستطع اخفاء احباطها وقلقها وغضبها في كلماتها ونبرة صوتها وهي تقول

" اجل قريبا .. ولاتفكير لها الا بكيفية اقناع امي بمنحها الاذن لتسافر بمفردها مع صديقاتها في رحلة خارج الوطن .. البارحة اثارت زوبعة بكاء مصطنع في محاولة لتليين امي وقد كادت تنجح ! "

صمت رضا وهو يحدق امامه في الطريق بينما تتنازعه الافكار المقلقة عن صغرى بنات يونس العطار .. رقية ...



تمتم وكأنه يحاول بث بعض الاطمئنان في قلب رباب وربما بعض الاطمئنان في قلبه هو الآخر

" ستتعلم معنى الحياة الحقيقية يوما ما.. انها مختلفة عنكن لكنها ستبقى ابنة الحاج يونس العطار.."

لم ترد رباب الا بـ " نعم .. اجل ..."

ثم عادت لصمتها واكتفى رضا ليكمل الطريق المزدحم صامتا وهو يعيد تقليب كلماتها في رأسه بينما ملامحه لاتعبر عن شيء مما يعتمل في داخله ..

بعد ثلث ساعة هتفت رباب بنبرة محببة

" ها قد وصلنا ...كم احب هذه الاسواق .."

كان يركن سيارته في موقف خاص وهو يناغشها بابتسامة حانية " لن تكوني انثى ان لم يزغلل عينيك لون المصوغات الذهبية .."

فترد وعيناها تلتمعان بلون الذهب وهما تحدقان بواجهات محلات الصاغة المتراصة

" ليست اللون تحديدا ولاقيمته بل احب نقوشها الجميلة .. اريد احياء النقوش القديمة وعكسها على اسلوب ازيائي.. وقعت في غرام اسورة من عهد حمورابي ... مرصعة بحبات الشذر.."

سألها ببعض العجب " هل تحبين النقوش البابلية للمجوهرات ؟ ظننتك تودين رؤية نماذج حديثة وعصرية.."

تلتفت اليه وهي تقول بحماسة

" اعشق مجوهرات ذاك العصر البعيد يا رضا.."

تتسع ابتسامته وهو يناظرها بمحبة خالصة

" حسنا يا ابنة العطار عرفت مطلبك .. سنمر اولا على بضعة محلات للصاغة وبعدها سنذهب للمحل الكبير لعقيل الصائغ .."

يترجل من سيارته وهو يعدل من عباءته فوق كتفيه ..

اخذ رضا يسعل بقوة بينما يغلق بابه فسألته رباب وهي تترجل من السيارة وتلتف حولها

" هل انت بخير يا رضا ؟"

رفع رأسه ليرد على سؤال رباب عندما لمح من مسافة قريبة ذاك الخيال الاسود .. في نفس المكان تلفها عباءتها السوداء مستندة بظهرها على واجهة احدى المحلات تناظره..

ضيق رضا عينيه وهو ينظر اليها لبضع لحظات قبل ان يطرق برأسه يطمئن رباب بالقول

" انا بخير عزيزتي .. انه اخر اثار الانفلونزا .. سعال مزعج .. ولولا شراب عطارتي اسيا لكان اسوأ .."

ضحكت رباب من لفظ (عطارتي اسيا) الذي يطلقه رضا على اختها ..

اخذ رضا يمشي بصحبة رباب ويلقي التحايا ويردها هنا وهناك دون ان يغفل عن تلك المرأة ..

امرأة بات يراها يوميا في نفس المكان تقريبا..

ترتدي العباءة السوداء التقليدية على الدوام..

عباءة لم تعد ترتديها في معظم احياء العاصمة الا عدد قليل نسبيا من النسوة الكبيرات في السن .. لكن الامر مختلف في بعض الاحياء الشعبية المغلقة ، فالنسوة هناك من كافة الاعمار يرتدينها فرضا عليهن واحتشاما..

رآها كيف تتشبث بطرفي العباءة الواسعة الفضفاضة وتحكم اغلاقها بيدها من الامام لتتستر بسوادها من قمة رأسها حتى اسفل قدميها ولايظهر منها الا جزء من وجهها .. عيناها الكحيلتان فقط .. وتلك العينان لاتملان اخباره انه .. هو .. المقصد و المراد..!

بنظرة جانبية قال محسن وهو يلف مقود السيارة لليسار " هل سأظل اتكلم بمفردي بينما ان تواصل صمتك العابس ؟!"

ابتسامة جانبية بينما يقول عبد الرحمن لاخيه " اسف محسن ... بالي مشغول بعض الشيء .."

فجأة سأل محسن

" لماذا لاتتزوج يا عبد الرحمن ؟"

أرخى عبد الرحمن رأسه للخلف وبجفنين شبه مطبقين تمتم الكلمة بسخرية مبطنة

" اتزوج ..."

لم يفطن محسن لتلك السخرية وظن ان أخاه يستغرب الفكرة فقط فشجعه بالقول

" نعم .. تتزوج لم لا ؟! جناحي القديم اصبح لك الآن بعد الاضافات والتعديلات عليه وضم غرفتك القديمة اليه اصبح اقرب لشقة فاخرة .. كما انك مستقر الآن في عملك في الجامعة وتم تثبيتك كاستاذ وطالب دكتوراه .."

قال عبد الرحمن بهدوء غريب

" سأؤجل رسالتي حاليا .."

ارتفع حاجبي محسن وهي يلتفت جانبا برأسه ليحدق في وجه اخيه ...

ضيق محسن عينيه وهو يرى ذلك الغموض والجمود اللذان يتلبسان وجه اخيه كقناع عازل ...

سأله محسن وهو يركن سيارته جانبا

" لماذا لاتفصح عما يزعجك ويجعلك بهذه الحالة الغريبة ..؟"

تمتم عبد الرحمن بنفس التعابير

" كيف غريبة ؟"

لم يهتم محسن لتلك اللامبالاة الظاهرية ليقول مفسرا بتركيز لاخيه الاصغر

" منذ اشهر طويلة وانت بهذه الحالة .. في البداية السفر والدراسة خارج البلد كان اثره رائعا في شخصك وقد عدت الينا اكثر انفتاحا وثقة واعتدادا .. حتى اكثر مرحا .."

ايضا لم يتلق محسن اي تغيير يذكر في تعابير عبد الرحمن ليواصل محسن تساؤلاته

" ما الذي حصل ليجعلك تعود لحالة غريبة كئيبة سيطرت عليك في مراهقتك .. انه أمر بت لاافهمه ؟! هل تشعر بخيبة الامل في عملك مثلا كاستاذ جامعي ؟ "

بسخرية واضحة هذه المرة وان شابها غموض متناقض محير قال عبد الرحمن

" لم يحصل شيء محسن .. ربما العيش في بلد الثلوج يلائمني اكثر .."

عبس محسن بشدة وبانت صرامة طباعه وهو يقول بنوع من التوبيخ

" لاتنس اصلك يا اصغر اولاد الحاج عقيل الصائغ .. اياك ان تنسى اصلك فتخسر الطريقين .."

ثم فتح الباب يترجل منها وعبد الرحمن صامت جامد المحيا بينما يتلوع من الداخل ...

بيت الحاج عقيل الصائغ ..

ساد الصمت حالما ألقت الحاجة سعاد قنبلتها كما تراها بدرية التي تراخى في يدها فنجان القهوة وهي تحدق في رفيقة عمرها التي لاتعرف كيف تمسكها ان تفعل ما تنتويه هذه المرة ...

تستند سعاد بقبضتها على ركبتها بتحفز تناظر بقلة صبر وجه بدرية وهي تحملق فيها في المقابل ...

كزت سعاد على اسنانها وهي تقول بنوع من الاستهجان " ردي علي .. قولي شيئا يا بدرية .. هل أكلم نفسي ؟!! الامر مهم .. "

زفرت بدرية بقوة وهي تضع فنجانها جانبا وتتذمر بالقول

" هل قهوتك باتت ماسخة ام كلامك من يضفي هذه النكهة عليها ؟!"

شهقت سعاد وهي تهتف بها " كفي بدرية عن تقريعك لي وتكلمي معي بجدية .."

زمت بدرية شفتيها الرقيقتين وهي تقول بضيق " ماذا تريدين مني ان اقول يا سعاد ؟"

تأففت سعاد لتقول بعدها

" قولي لي بالضبط .. بماذا اخطأت ؟!"

عندها تكلمت بدرية بجدية متسائلة

" هل انت واعية لما تطلبينه ؟ "

ردت سعاد بعزم

" نعم .. طلبت منك ايجاد عروس لحذيفة ..
انت معارفك اكثر مني .. انا لم اعد اغادر
البيت بالاشهر ..."

ضيقت بدرية عينيها ثم سألت تضفي نبرة
التأثر على صوتها عن عمد

" وماذا عن خلود ؟ "

ردت سعاد بعفوية صادقة وملامحها تنبئ عن
مشاعرها الحقيقية وهي ترفع قبضتها لصدرها

" خلود قطعة من قلبي وسندي .. انها ابنتي
التي لم ألدها .. يكفي انها من تحملني في
مرضي وتتحملني في نوبات ضيقي .."

تنهدت بدرية وهي تحرك رأسها يمينا وشمالا
وتقول تعرب عن عجبها

" عجيب امرك يا امرأة .."

فأخذت سعاد تفسر نفسها بالقول

" محبتي لخلود امر ورغبتي بتزويج ولدي امر
اخر وهي تحبه جدا وستتفهم .."

راوغت بدرية الكلام لتكسب وقتا في
التفكير بمخرج فتقول مدعية الغيظ

" اقسم بالله نصف شيب رأسي بسببك .."

تشوح سعاد بيدها وهي تقول بتدللها الذي
لايشيخ " انت عجوز يا بدرية فلا تحمليني
مسؤولية ما يفعله الدهر ! "

قالت بدرية ببعض الجدية وهي ما زالت في داخلها تفكر بحل " انت تكسرين قلبها .."

تشبثت سعاد بوجهة نظرها وهي تقول بحزم

" رخصة تعدد الزوجات للرجل جاء لهذه الاسباب .. هل ستحرمين حلال الله ؟"

فتناورها بدرية بالقول الموبخ تذكرها بما مضى " ألم تعتبري مما حصل لابنتك قبل سنوات مع الحاج يونس وما جره بعدها من خرائب ؟"

فتصر سعاد وهي ترد قائلة " الحالتين مختلفتين .. كما ان .. خلود مختلفة عن رفيدة وابتهال .."

لسبب ما شعرت بدرية بمنتهى الاستفزاز فتقف على قدميها وتهدد رفيقة عمرها بالقول

" اسمعيني يا سعاد .. يحرم علي دخول بيتك اذا كلمتني مرة اخرى في هذا الموضوع .."

نادتها سعاد وهي تحاول بجهد مضاعف ان تقف على قدميها " بدرية ... دعينا نتناقش اولا .."

تبتسم بدرية شامته بمحاولات سعاد للوقوف دون نجاح ثم تقول لها

" فلتنفعك العروس الجديدة يا سعاد وتساعدك على تحريك هذا الجسد الثقيل الكسول ..."

نظرت سعاد للاعلى تتطلع لوجه بدرية التي تقف مشرفة عليها فتحاول تليينها بالقول

" انه يحتاج ان يؤاخي سعاد الصغيرة .. الا ترينها كم هي وحيدة .. قد يفسدها الدلال.."

فتتخصر بدرية وتقول بصرامة " كذابة كبيرة انت .. سوسو لن يفسدها الدلال فخلود احسنت تربيتها .."

فترفع سعاد حاجبيها قليلا مدعية البراءة وهي تردد " لكن الصغيرة تشعر .."

قاطعتها بدرية وهي تشوح بسبابتها في وجهها قائلة " بل الكبيرة هي من تشعر ! وبكل انانية تريد ان تنفذ .."

عندها تراخى اسلوب الحاجة سعاد وهي تمد ذراعها لتجر ذراع بدرية وهي تقول لها

" اجلسي واكملي قهوتك .. الا يكفي طول قامتك وقصر قامتي لتكمليها بوقوفك فوق رأسي وانا جالسة ؟! "

اخذت بدرية تنزع ذراعها من قبضة سعاد فبديتا كفتاتين مراهقتين تتشاجران بينما سعاد تحكم قبضتها على ذراع بدرية وهي تصر بالقول " اقعدي يا بدرية السكر مرتفع عندي هذا اليوم .."

هتفت بها بدرية بلؤم

" هذه الالاعيب ليست علي .. اتركيها للمسكينة خلود حتى تبيت ليلتها معك في الغرفة وانت تدعين المرض .."

اخيرا دحرتها عزيمة سعاد وربما بدرية من استعادت هدوئها لتعود وتجلس جوار رفيقتها التي اخذت تتشكى ردا على اتهامات بدرية

" احيانا اشعر بالوحدة والوحشة ... "

فتناكفها بدرية بالقول الحانق " تستطيعين جعل عبد الرحمن ان ينام جوارك.."

فترد سعاد وهي تلتقط فنجان بدرية تعيده لها

" انه ضخم كاخوته وقد لايرتاح في نومه جواري .."

تأخذ بدرية الفنجان بيد بينما ترفع سبابة اليد الاخرى لفمها تعضها من الجانب وتقول وهي تكز " اخخخ منك يا سعاد اخخخخخخ .. الحاج عقيل رحمه الله كان ينام جوارك لاربعين سنة وهو اكثر ضخامة من اولاده .. كل ما في الامر انت لاتريدين ازعاج نوم عزيزك الغالي المدلل عبد الرحمن بينما لاتتأثرين بتعب المسكينة خلود وهي تسهر قربك قلقه على لاشيء .."

شهقت سعاد تعتب على بدرية قائلة

" هل بت الشريرة الان ..؟ اصبحتِ مزعجة جدا بتقدمك في العمر يا بدرية .."

تهتف بدرية وهي ترفع رأسها للاعلى تناظر السقف " اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .."

تبتسم سعاد وتمد يدها لتربت على حجر بدرية وهي تقول بابتسامة عريضة

" اشربي قهوتك وسنتكلم ..."

تهز بدرية رأسها وهي تعاود ارتشاف ما تبقى من قهوتها فيخطر في بالها خاطر لتسأل سعاد

" كيف هي رفيده والغالية شروق .. مضى وقت طويل لم أرها فيه .."

ترد سعاد ببعض العجب لتحول الموضوع

" انهما بخير والحمد لله .. رفيدة تعرفينها قليلة الخروج مثلي والصغيرة السمراء مشغولة بدراستها على الدوام .."

تبتسم بدرية وهي تضع فنجانها على المنضدة امامها بعد ان أنهت شربه لتقول ببشاشة

" انها فتاة حلوة تأخذ بمجامع القلوب .."

عندها قالت سعاد بتلقائية وهي تتنهد راحة

" الحمد لله ان سالم لديه ولد من صلبه .. والا ما كنا سنفتح فمنا لو قرر الزواج على ابنتي.."

صمتت بدرية للحظات قبل ان تقول بنبرة معينة " انه داء مجتمعاتنا التي لاتعرف الرضا الا قليلا ..."

فتعبس سعاد تجادلها " هل اصبحت زينة الحياة الدنيا داء يا بدرية ؟! استغفري ربك .."

فترد بدرية بنفس النبرة " استغفره واحمده على الدوام .. المشكلة ليست في نعمه سبحانه بل التفكير الدائم اننا يجب ان نحصل وبأي طريقة على هذه الزينة الزائلة .. حتى لو حطمنا ارواحا وقلوبا نقية .."

قالت سعاد تواصل جدلها بما تعتقده حجج وبراهين " انها عاداتنا وتقاليدنا وما تربينا وكبرنا عليه .. الولد الذكر عزوة لاهله وامتداد لأسم العائلة من جيل لجيل .. "

ثم تضيف سعاد باسترسال وايمان كامل بما تقول " لو لم انجب الذكور لتزوج علي الحاج عقيل .. ولم أكن سأفتح فمي عندها .. وزوجك ايضا يا بدرية كان لفعل المثل ..."

فقالت بدرية وهي ترفع حاجبيها بعنفوان

" لو فعلها لكنت طلقته ورميت به في الشارع.."

تضحك سعاد من قلبها وهي تقول

" قادرة وتفعلينها يا امرأة ..."

هدأت ضحكات سعاد لتقول بدرية بجدية هذه المرة " سأقولها لك يا سعاد كما قلتها سابقا قبل سنوات ان كنت تذكرين عندما هادنتِ ابنتك في زواجها من الحاج يونس .."

حمرة خجل وشعور بالذنب لونت خدي سعاد بينما تكمل بدرية كلامها وعيناها في عيني رفيقتها " احمدي الله على نعمه يا بدرية .. منحك الكثير فاياك والطمع .. لاتكسري قلبا كقلب خلود .. انها فتاة لاسند لها الا زوجها بعد الله .. فاياك وظلم من يستجير برب العزة ولايستجير بسواه .. اياك والظلم .. والا فربنا سيوجعك بظلم اكبر ..."

بدت ملامح سعاد وجلة فتقول بدرية المزيد

" تذكري كسرة ابنتك وقد فرجها الله عليها .. فلا تنسي النعم فتُبتلين بالنقم .. انت وعيالك واحفادك .."

قالت بدرية قولها هذا وهي ما زالت تفكر بحل حقيقي .. انها تعرف سعاد بما يكفي لتعرف انها قد تتأثر الآن وتصمت لكن التأثر سيخفت شيئا فشيئا لتعاود المحاولة من جديد..

يتطلع لاحدث صور اخته مروة وهو يبتسم بشقاوة.. المجنونة لاتكف عن ارسال صورها مع خطيبها فاروق وهي تسحبه خلفها كل يوم في مكان ..

ساعة في سوق الطيور لتشتري دجاجة وساعة في محل انتيكات لتبحث عن ساعة اثرية منسية وساعة في سوق شعبي تشتري اقمشة لامعة فقط لتصنع ثوبا مبهرجا تتشارك فكاهته مع صديقاتها المجنونات مثلها ..

وفاروق يستسلم لاهوائها وهو يبدو في قمة الارتباك والانصياع والاستمتاع في نفس الوقت ...

اغلق مهند هاتفه وهو يعود بنصف تركيزه مع عمله ..

عيناه ترقبان عقارب الساعة لايبغي الا ان يصل وقت الظهيرة ليغادر الى ذاك المقهى ..

يدّعي انه يحب القهوة هناك ..

يدّعي انه يعشق شرب سيجارة عند منتصف النهار ..

يدعي انه ....

يحب خلوته تلك بمفرده ليجلس على كرسي قريب من الشباك يراقب و... يترقب ..

رن هاتفه وللحظات تعكرت صفحة جبينه وهو يحدق باسم (جوري) ...

رن الهاتف ورن .. وهو لايجد قوة ولا ادنى رغبة باصبعه ليضغط على قبول الاتصال ..

تراجع بظهره للخلف يستند لكرسيه بينما الهاتف يواصل رنينه حتى ... صمت ...

شعر بالضيق وهو يعد الدقائق الخمس عدا حتى رفع هاتفه واتصل بامه ...

" مرحبا امي .. اين حبيبة ؟"

جاءه صوت امه وهي تقول بعجب " مرحبا بني.. الصغيرة تلعب معي هنا في المطبخ لكن لماذا تتصل لتسأل عن حبيبة؟"

فرد كاذبا بنصف كلامه

" جوري اتصلت قبل قليل لكني كنت مشغولا.. خشيت ان يكون الامر يخص حبيبة.. حاولت الاتصال بجوري ولم افلح.. ان كانت جوارك هلا سألتها هل تحتاج لشيء مني .."

فقالت الام " جوري تنشر الغسيل في السطح حيث الشمس مشرقة اليوم وعندما تنزل سأسالها .."

عبس مهند قليلا وقبل ان يقول شيئا جاءه صوت والده فجأة عبر الهاتف

" مهند عاود الاتصال بزوجتك .. امك لن تكون مرسالا بينكما .."

صمت مهند ولم يرد فبادره والده ليقطع الصمت قائلا بنبرة تشع بالندم والضيق

" لاتحملني في شيبتي اكثر مما احتمل .. الفتاة ليس لها ذنب .."

تصلب فكا مهند دون ان ينطق بحرف فيخفت صوت ابيه عن عمد ليضيف

" يكفي انك اسميت ابنتك حبيبة .. يقتلني الشعور كلما ناديتها وكأنك تذكرني دوما بألمك الذي لم يمت .."

بجمود كامل قال مهند

" لم يكن خطأك ابي .. انا وافقتك ورضيت الزواج بأخرى .. انه ليس ذنبك ولا ذنب جوري .. "

قلبه يتمزق في صدره فسارع ليضيف

" عذرا والدي انا مشغول الان .. بلغ جوري لو سمحت ان ارادت شيئا مني .. ان تكتب رسالة نصية .. لن استطيع الرد على مكالمتها .. مع السلامة .."

ثم اغلق الهاتف دون ان يمنح والده فرصة ليعترض ..

ظهرا ...

يرفع ساقه اليمنى ثانيا ركبته بزاوية
مستقيمة مستندا بحذائه اللامع على حافة
المصطبة الخشبية بينما يتابع بشغف مباراة
كرة السلة بين فريق قسم العلوم حيث يدّرس
وبين قسم المحاسبة ..

يبتسم ويشوح بذراعه واحيانا حتى يصفر
بينما يتفاعل معه بعضا من طلابه وتلتهب
حماسة اللاعبين ..

من بعيد وبعيون تلتمع اعجابا متفاوتا تراقبنه
بضعة فتيات .. ثلاثة منهن حديثات التخرج
من قسم الاداب فرع اللغة الانجليزية ..

حسن.. ليس وسيما تماما لكن يكفي طول
قامته وعرض كتفيه واناقة هندامه الملفتة..

اصغر اساتذة قسم العلوم وقد فرض هيبته
الخاصة رغم صغر سنه ..

محبوب رغم جديته بشكل عام ..

وربما جديته الغالبة هذه هي ما تجذب
اكثر.. فتكون مناسبات كهذه يشارك فيها
بحماسة تنفض عنه ثياب الجدية عاملا جاذبا
بشكل ملفت للفتيات .. وكأنهم يرون جانبه
الخفي المبهج ...

والاكثر من كل هذا وذاك.. يكفي اسمه..

عبد الرحمن الصائغ ..

تمتمت سهير بنظرة براقة وهي تتطلع لبلوزته الانيقة المعرقة بخيطان رمادية

" بلوزته الصوفية تحفة فنية .. كم تساوي يا ترى ؟!"

فترد زميلتها رويدة " وهل يهم ثمنها مهما غلا؟! انه ابن اشهر صوّاغ الذهب .. "

عندما يعلو صوت شجي حالم فتقول صاحبته

" لايهم البلوزة ولا يهم الذهب .. يكفي انه عبد الرحمـــــن ..."

تتضاحك الفتاتان وهما تتطلعان لرانية المفتونة فتنغزها سهير بالقول

" ستختطفه منك احدى الطالبات المستجدات يا خريجة قسم الاداب ليغرقها بذهب عائلته.. بينما تقفين انت وقفتك المفتونة الغبية هذه وتكتفين بالتفرج .."

لم تبعد رانية عينيها عنه فتتسع عيناها بمزيد من الفتنة والانبهار بينما تراه يجلجل ضاحكا لنكتته القاها احد الطلبة ..

قالت اخيرا وقلبها ينبض بعنف

" انه فريد من نوعه ... مختلف ..."

في لحظة واحدة وبينما ترتفع ضحكات صديقتيها سهير ورويدة سخرية منها اختفى كل شيء من حولها والحرارة تشع اشعاعا من وجهها ورقبتها حالما ادركت بغير تصديق ان عيناه ... عيناه هو .. الاستاذ عبد الرحمن ..

تستقران على ... وجهها ...!

لايعلم لم ينظر اليها حتى ؟!

قد يكون لانها فتاة جميلة .. بل هي جميلة جدا .. اجمل من .. رباب ...لكن ...

رن هاتفه فأمال راسه للجانب حيث يضع هاتفه في حافظة جلدية صغيرة معلقة بحزامه ..

اخرج الهاتف فتبسم ابتسامة عريضة وهو يفتح الخط ثم يضع الهاتف على اذنه رافعا وجهه ونظراته تعود للفتاة امامه فتلتمع عيناه بشقاوة حلوة غامضة بينما يرد على من يتصل به من كندا

" مع اي حلزونة تتسكع هذه الايام يا دراكولا النساء ؟"

يأتيه صوت صديقه المشاغب ضاحكا وهو يرد عليه " صهباء بعينين زرقاوين وانف منمنم صغير .. صغير جدا لدرجة مغيظة يا رجل !"

ينفجر عبد الرحمن ضاحكا بينما يعلو من حوله صخب التصفير و التهليل بتسجيل هدف جديد في سلة فريق قسم المحاسبة !

بنفس الوجيب بل يتزايد يراقب نزولها من الحافلة المدرسية .. تتضاحك مع رفيقتها المحجبة التي تكبرها في السن ..

نضرة في بداية العشرينات .. مشعة بغواية وبريئة حد الكفر بوجود براءة تضاهيها ..



لم يعرف انه وقف على قدميه ليتابع تحركها الضاحك على الرصيف وبضعة اطفال بزي مدرسي يحومون حولهما ...

يبتلع مهند ريقه بتجرع صعب وهو يتمايل بجسده يمينا وشمالا يلاحق ملامح وجهها التي تتخفى منه خلف المرأة المحجبة..

انضمت اليهما فتاة صغيرة شقراء .. شديدة الشقرة على نحو ملفت باختلافه عن المألوف لشقراوات البلد على قلة وجودهن .. ترتدي زي مدرسي كباقي الاطفال .. تتعلق بذراع المرأة المحجبة وتتمسح برأسها الاشقر على ذراعها!...

للحظة تاه مهند بين الاطفال الذين باتوا يتجمعون ويتعلقون بذراع نفس المرأة التي تضلل الرؤيا بتحركاتها بينه وبين ضالته ...

قدماه قادتاه ليخرج من المقهى لاهثا يراقبها عن كثب وهي تبتعد مع من يصحبها وبعض الاطفال يتفرقون سيرا على الاقدام كل في اتجاه ..

خطى خطوة ثم توقف وهو يراها تسير بعيدا ناحية موقف حافلة النقل العام ثم فجأة بدت على ملامحها التنبه وكأنها تذكرت شيئا ...

تتسع عيناه مشدوها لمرآها وقد عادت راكضة بـ....اتجاهه !

يراها منطلقة نحوه دون ان تكون نحوه حقا ..

وجع ... شوق .. يمزق ... يذبح ... يئد الانفاس .. يحرق الفؤاد ...يعذب الاكباد ...

تساقطت الكلمات من فمه كشظايا تشق صدر خساراته لتبقرها وتخرج ما في بطونها

" يا الهي ... حبيبة .... "

وهو شبه مغيب ادرك انها تجاوزته بنظرها قبل خطواتها ثم اخذت تلوح بيدها للحافلة المدرسية الصفراء التي نزلوا منها قبل قليل وتلك الحافلة تنطلق بعيدا عنها وما تبقى من اطفال فيها يلوحون لها بابتهاج !

تنادي بجزع " توقف ... توقف .. ارجوك .."

تنهدت وهي تتمتم بما لايصل لمسامعه ثم تلتف لتسير بتسارع عائدة ناحية موقف حافلة النقل العام فتلوح عن بعد لرفيقتها ومن معها من الاطفال بحركة محبطة ... شعرها المرفوع كذيل حصان يتأرجح يمينا ويسارا بينما مهند يقف مكانه مسمرا مشدوه الحواس يحاول بشق الانفس ان يفصل بين الواقع والخيال فيدخل في معركة خاسرة ليتحد كل شيء وتتجسد (حبيبته) امامه ..

بشحمها ولحمها .. بطول قامتها الفارع .. وشعرها الكستنائي الذي يميل للشقرة الخافته ..

رسمة فمها .... ارتفاع وجنتيها..

يا الهي ... زرقة عينيها ...

تقتله بتلك الزرقة..

ثم .. حصل كل شيء خلال ثانيتين ..!

تزحلقت قدمها ببركة مياه تجمعت من مطر غزير لليلة الامس ثم اخذت تهوي ببطء للخلف امام ناظريه ولا يعرف مهند كيف ومتى اصبح جوارها يمسك طارف ذراعها يحاول منع سقوطها فلم يفلح الا بتخفيف حدة ارتطام ظهرها ورأسها ...

يجد نفسه على ركبتيه وهي شبه مستلقية على ذراعه التي لفت ظهرها عفويا تسندها ..

يحدق في عينيها اللتين اخذتا ترمشان وكأنها تقاوم فقدانها للوعي وشفتاها تصدران التأوه...

صدره يعلو يهبط .. يعلو يهبط ... كل خلية فيه تستيقظ بعنف بصراخ بحريق !

صوته خرج لاهثا بحشرجة مجنونة

" انت .. بخير .. حـ..بيبة .."

تبدو بعيدة عن سماعه بينما يتراخى جفناها في رفرفة مضطربة وهي تهمس " انا .. اشعر بالـ..دوار.. ارجو..كـ.. اين... ايـ.."

تتراخى كلماتها كجفنيها وهو يحدق فيها وذراعه تتشبث بها في تطويق اقرب لمن يطلب النجاة بنفسه فيها !

ادراكه يتضبب وهو يتساءل مشتتا كمن داهمته حمى حماقة مفاجئة ..

ماذا يجب ان يفعل الان ؟!

هل يحملها بين ذراعيه ويأسرها على صدره بل يسجنها خلف اضلعه تماما ثم يركض بها بعيدا عن كل من يحاول اخذها منه مرة اخرى...

ذبذبات صحوة عقل تعانده وتذكره بما يغيب منه تدريجيا فيرد لتلك الذبذبات عنادها بعناد ليتجاهلها وعيناه يتأجج بريقهما بحاجاته الدفينة من سنوات دون ان تريحه وتموت ! ..

ينفض رأسه يقاوم ولايعرف ما يقاومه حقا !

هل يطيح بكل شيء ويهدم كل شيء ويكتفي بها هي .. هي كل شيء ..

" شذره .. شذره .."

نداء بصوت انثى قلقة جاءه من الخلف وجعله يلتفت بضياع ليرى بتشوش المرأة المحجبة تأتي نحوهما شبه راكضة تلحقها الفتاة الشقراء الصغيرة وطفلين اخرين في اعقابهما..

وبين ضياعه ونداء المرأة كانت الطفلة الشقراء تنادي " خود .. خود .."

الفصل الثاني

خلال لحظات بدت له اقل حتى من لحظات كانت المرأة المحجبة تجثو على ركبتيها جواره وتنتزع منه.. (حبيبة) .. انتزاعا ...

احساس مقيت بارد شلّ ردة فعله فيستسلم لتلاشي احساسه بجسدها مُطوقا بذراعه ...

ألم فظيع لا يحتمل وضربات كالمطارق تدّك خيالاته السابقة دكّا فتحطمها وينتثر ركامها ويتطاير كذرات الغبار مع رياح الواقع..

الألم .. العجز .. الـ .. وحشة !

يتراخى فيه كل شيء وينظر بكآبة لوجه الفتاة التي اسبلت رمشيها وهي تغمر وجهها في صدر رفيقتها ...

اخذ مهند يردد بحزن موحش وصحوة موجعة

" اسمها .. شذره ! .. شذره ..."

يرفع نظراته الكئيبة للمرأة المحجبة فيراها تنظر اليه بعبوس وارتياب بينما تتشبث بذراعها الطفلة الشقراء ويجثو قربهما فتى صغير لايتعد السابعة او الثامنة ربما تجاوره فتاة اخرى من نفس السن تقريبا ويبدوان متشابهين بشكل ملفت حتى ليظنهما الرائي انهما توأمان ..



طال الصمت واربعة وجوه عابسة في وجهه بينما يلقي الفتى تساؤلا خشن النبرات

" هل نتصل بأبي او عمي يا خالتي ؟"

فترد المحجبة تطمئنه

" لا داعي يا جعفر .. انها فقط دائخة وستستعيد نشاطها الآن فنعود للبيت .. "

ثم تعود باهتمامها لـ..شذره .. متسائلة بنفس العبوس " ربما التهاب الاذن الوسطى الذي اصابك قبل فترة لم يشف جيدا حتى الآن .."

ابتلع مهند ريقه وهو يستوعب الحوارات من حوله ليقول بتشبث احمق اخير وهو يطرق بنظراته ناحية وجه شذره

" بامكاني ايصالكم الى حيث شئتم.. ربما الفتاة لاتستـ..."

قاطعته المحجبة بصرامة

" لا داعي شكرا لك .. نحن سنأخذ الحافلة العامة بعد قليل .. ان هي الا محطتين ونكون قرب شارعنا وبيتنا .."

وقبل ان يقول شيئا كانت .. (شذره) تتحرك وهي تهمس ببعض الحرج

" انا بخير الآن .. دعينا نذهب يا خلود .."

لم تكن خلود الا المرأة المحجبة والتي اخذت تساعدها لتقف على قدميها والاطفال الثلاثة يعينونها وهم يسندون جسد شذره

وكأنها ستفقد توازنها وتعاود السقوط مرة اخرى ...

وقف مهند على قدميه ببطء وعيناه تتمليان النظر بملابسها المحتشمة البسيطة ..

بلوزة زرقاء صوفية فوق تنورة موردة فضفاضة من قماش مخمل سميك ..

لا .. لم تكن كنوعية ملابس حبيبة ...

مؤكد ليس هذا ما كانت ترتديه (حبيبته)..

يا الهي .. لكنها .. تشبهها ..

هي كلها تشبهها ..

" شكرا لك ..."

صعقته !

عيناها الزرقاوان في عينيه وتبتسم له بضعف خلاب وهي تنطق بالشكر ..

ملامح ضعفها ذكرته بليلة بعيدة مشؤومة قبل تسع سنوات عندما تذوق شفتيّ حبيبة في لحظة ضعف منها ومنه ...

لم تتنبه لصمته المصعوق بحاضره وماضيه لتلتفت بمساعدة رفيقتها خلود حتى تسير قدما نحو محطة الحافلات العامة ومهند يراقب بعجز اكبر وغضب .. غضب اوجع !

يداه تتقبضان وملامحه تتشنج ليقفز في مخيلته فجأة صورة ... جوري ... !

تفور الدماء في عروقه ويلتهب جسده بحاجة ضارية فلا يتردد لحظة وهو يتوجه ناحية سيارته وعيناه تبرقان بنية واحدة ...

ركب سيارته والبريق في عينيه يشتد ...

لكن بكل سيطرة على النفس اتصل بعمله اولا يعتذر عن العودة بعد فترة الغداء ثم يغلق الخط ويتصل هذه المرة ..... بها ...!

بضع رنات من الانتظار يزداد خلالها فورانا وغضبا حتى ردت عليه " مرحبا مهند .."

سحق اسنانه وهو يشعر بغضبه يضطرم ...

يكره سيطرتها الغالبة على نفسها كما يكره لحظات ضعفها النادرة التي تفلت منها وتنكشف امامه فلا يبالي بها ...

صوته خرج حادا خشنا عنيفا بحاجات ملعونة.. اه كم حاجاته ملعونة ...!

" انا قادم للبيت .. انتظريني .. واتركي حبيبة مع امي ..."

صمت طال وطال من الجانب الاخر وهو انتظر وكأنه في تحفز لان تقول لا او تدعي انها لم تفهم مقصده المعلن ..

ولغيظه وقهره قالت برخامة صوتها المسيطرة

" ستجدني كما تشاء ..."

ثم ببساطة هي من اغلقت الخط !

ثبتت عدة اوراق مستطيلة بيضاء على واجهة لوح خشبي مائل بزاوية 45 درجة ومثبت على سطح مكتبها .. سطح أملس مشع بخطوط متمايلة ذي ألوان متعددة وكأنها تتراقص في دلال على خلفية بلون السماء الصافية ...

لقد اختارت تصميم مكتبها بطلب خاص من صاحب اثاث لديه ورشة حرفيين شرحت لهم رؤيتها وهم نفذوا الطلب بطريقتهم ليكون اجمل حتى مما تخيلت ...

خاصة مع اللمسة الرقيقة التي وضعها احد الحرفيين عندما اضاف شعار (دار ازياء العطار) على احدى زوايا سطح المكتب..

الشعار عبارة عن اسم الدار بخط انثوي متلو داخل دائرة تشع من خارجها خطوطا رفيعة متلوية ايضا فبدت كشمس مشرقة مشاغبة...

كانت فخورة دوما بمكتبها هذا ...

انه اولى علاماتها في دار ازياء العطار ...

اولى الخطوات لتحقيق الحلم بعد طول صبر وتأني ..

اخذت نفسا عميقا قبل ان تبدأ برسم شخبطاتها الخاصة على الاوراق البيضاء.. مجرد خطوط مبسطة تمثل فساتين طويلة بتصميم حيادي .. منسابة على جسد انثوي حتى الكاحلين ...

انها لاتملك موهبة حبيبة على تجميع الصورة كاملة في رأسها وتحويلها لحقيقة .. لذلك تحتاج ان تضع كل شيء امامها كأدوات ابتكار لتبدأ رحلتها بين ما هو خيالي و مادّي ...

التقطت رباب بعض انفاسها (الفكرية) وهي تمعن النظر في اوراقها البيضاء الخاصة وقد جهزت الآن ..

انها ترى خطوط تلك الفساتين الباهتة هي (اوراق عقلها البيضاء) التي سترسم فوقها لوحاتها لتضفي عليها ألق الجمال كما تراه في مخيلتها بشكل غير واضح لتبرزه وتشكله حقيقيا على فساتينها ..

ولوقت طال كانت قد فعلت الكثير فتوقفت لتستريح وهي تبتسم للنتائج ..

تركت اوراقها حيث هي ثم توجهت نحو دمى نسائية متراصة على جانب الغرفة ألبستها تلك الفساتين وقد حان الوقت لاضافة الألق عليها كما خططته ورسمته على اوراقها ..

حدقت في الفساتين للحظات قبل ان تتحرك يمينا لتجثو على ركبتيها قرب صندوق خشبي كبير مليء بالوشاحات الملونة والاكسسوارات المختلفة الاحجام والاطوال والاشكال ..

تلتقط بضع وشاحات تمعن النظر فيها للحظات ثم تربطها بخفة حول رأسها وفوق حجابها ..

ثم ترفع بضع قلائد تضيق عينيها وهي تنظر
بتفكير لتلبس بعضها حول رقبتها وتعيد
البعض الاخر للصندوق ...

واخيرا تلتقط من داخل الصندوق الكبير
صندوقا اصغر مقسما ومصنفا حسب نوعيات
الخرز والازرار والمنمنات الخاصة التي تضيفها
بنفسها على ما تراه يناسبها ...

وقفت على قدميها وهي تبدو كطفلة مبهرجة
لتعود لدمياتها وتبتدأ العمل ...

وشاح طويل شفاف بلون ذهبي باهت ..

ثلاثة وشاحات اخر بنفس الطول تقريبا و بلون
الشذر .. ازرق مخضر ..

اخذت تظفر الوشاحات الثلاث وتحشر بينها
خرزات صغيرة شفافة بنفس اللون الشذري
وعندما انهت تلك الضفيرة باتت مميزة بلونها
الجذاب وخزراتها التي تعكس بنعومة
الاضواء من حولها ..

جمعت الضفيرة الشذرية مع الوشاح الذهبي
ثم اقتربت من الدمية التي ترتدي ثوبا ابيضا
بحواف رفيعة ذهبية ...

رفعت يديها لتضع ما جمعته خلف رقبة
الدمية ثم تمد الطرفين على جذعها
لتربطهما للخلف من جهة الظهر ..

تفرد بحركات بطيئة متأنية حواف الوشاح
الذهبي فيضفي بألقه البراق توهجا ناعما على

خرزات الضفيرة وينعكس الوهج على الفستان وكأنها تضرب بعصا سحرية لتجعله يشع ...

ابتسامة حلوة داعبت ثغرها وهي تسرح بافكارها مطيلة النظر بذاك الفستان وتتخيله عند اتمام تصميمه وخياطته كفستان عرس آشوري ...

تراخت ابتسامتها ونهرت قلبها المبتسم وهي تهمس له " مؤكد .. ليس لي ..."

" هل هذا دار ازياء ام رياض اطفال ؟!"

استدارت بعنف مجفلة لتراه امامها شاخصا متعاليا مبتسما وهي يستند بكتفه على باب مكتبها ..

اطبقت اسنانها بتوتر وهي تقاوم تراقصات القلب ... ان تلتقيه مرتين في يوم واحد فهذا كثير .. كثير جدا ...

تقدمت نحوه ترسم ملامح الجدية والهدوء مع ابتسامة مجاملة تدربت عليها كثيرا لاجل زبائنها وهي تقول له

" مرحبا عبد الرحمن ... شرّفت دار ازياء العطار بزيارتك الاولى ..."

عيناه تبرقان وسط وجهه ...

وكم تحب عينيه هاتين .. اللعنة !

لم تكونا حتى مميزتين .. لا لونهما البني غريب ولا استدارتهما ملفته ولا رموشهما كثيفة تضفي جاذبية ولا اي شيء ..!

لكنهما بطريقة ما .. بنظراتهما هذه ...

تحبهما .. تحبهما جدا..

قاومت بجزع ان تبتلع ريقها لانها تعرفه يتتبع

بلا هوادة كل سكناتها يبحث بشراسة

صامتة عما بات يعرف انها لن تعطيه اياه ...

كسا البرود الثلجي محياه وهو يتقدم نحوها

بمشية متراخية قائلا ببساطة وعيناه في

عينيها " الواقع لم آتي في زيارة مباركة .."

ضيقت عينيها صامدة بصمت ثم يبتسم

بطريقة غريبة تظهره مختلفا مشاغبا شقيا

وهو يدور بنظراته حول رأسها

" ولا لأشهد احدى ألعابك البناتية مع

وشاحاتك وقلائدك الملونة حتى تملئين

فراغ المكان من حولك ..."

للحظة لم تستوعب ثم توردت وجنتيها

ويتزايد التورد شيئا فشيئا حتى تحول لحمرة

مخضبة وهي ترفع يدها لتلامس رأسها مدركة

صورتها المضحكة التي تؤكدها لها عيناه

بخبث ولؤم ...

ردت له اللؤم والخبث وهي تقول باستهانة

" ومؤكد لم تأتي لتلعب العابا ولادية مغيظة

تناسب المراهقين السذج خاصة وقد كبرت

عليها كثيرا ! "

قدحت عيناه شررا وتحجرت ابتسامته ليقول بقسوة " عليك ان تتعلمي الكثير من المداهنة في الكلام حتى تبيعي ... سلعك..."

اطبقت فكيها بقوة قبل ان تقول من بين اسنانها " ماذا تريد يا عبد الرحمن ..؟"

رد بنبرة غامضة وبصوت رخيم" رقية ..."

ضربة مباغتة منتصف القلب ...

وجيعة لم تخطر ببالها شطرت الجدار الصلد لذاك القلب لتصل بشظاياها النيرانية حتى عمقه ..

حتى قلب القلب ..

وهل تحتاج لمزيد من اسباب الألم والوجع ؟!

لم تدرك رباب وهي تتصدى بضراوة لتلك الضربة المفاجئة ان وجهها شحب تماما وان عبد الرحمن كان يتشرب ردة فعلها بخليط منفعل ما بين رضا وغضب و ... وجع ....

رفعت وجهها قليلا تنظر اليه بقناع من الجمود لتتساءل بتأن

" رقية ؟! تقصد .. انك تريد رقية ؟"

لم يخدعه ابدا ذاك القناع ليمعن في قساوته عليها وهو يتشدق بالقول

" هل يزعجك ان اطلب رقية للزواج يا رباب ؟"

رآى عينيها العسليتين كيف اتسعتا وقد بدت كلها مضحكة جدا بطريقة ... مؤلمة...

ما بين تناقض تعابيرها الصامدة في جمودها مع الوشاحات الملونة المربوطة حول رأسها بعفرته وتلك القلائد السخيفة المبهرجة حول عنقها ...

وجد في تلاعبه هذا متنفسا لكل الغضب الذي يكبته في داخله منذ اشهر فيقترب منها تكاد انفاسه تلفحها وهو يضيف بابتسامة شرسة " ربما افعلها .... لم لا .. "

تراجعت رباب خطوة للخلف وهي تلهث وتهتف به " إلزم حدودك يا عبد الرحمن .. ليس من مقامك ولا مقامي ان نجري حوارا ممجوجا كهذا .. ان كنت تريد ... رقية.. اذهب لاخيك الاكبر واطلبها منه .."

تلاشت تعابيره الساخرة لحظة وتوقفت ساعة الزمن بينهما وهما يمعنان النظر في بعض بصمت ..

اسئلة لاتجد اجوبتها الصريحة وجدران ترتفع عاليا بينهما دون اسباب منطقية ..

عقد عبد الرحمن حاجبيه الكثيفين وهو يفكر ... هل يعقل .. بسبب ان رفيدة تزو......

لم يتم الفكرة لينفضها من رأسه .. رافضا اي محاولة للوصول الى اي تكهنات صحيحة .. لقد وعد ...

وعد نفسه بوعد انه لن يبحث لها عن مبررات لكسرها قلبه وكبريائه قبل ان يعد رضا انه سينسى كل شيء وكأنه ما كان ...

لقد كان هذا مطلبها ورضا اوصله وعبد الرحمن نفذه ..

كسر عبد الرحمن تلك المواجهة الصامتة المحتدمة بينهما ليطرق برأسه وهو يقول بهدوء شديد

" اتيت لاكلمك عن ... رقية .."

سمع صوتها تخونه .. عثرة ... وهي تسأل باختصار " ماذا بها ؟"

اخذ يتساءل في غيظ هذه المرة ...

ما الذي اتى به ؟! لماذا جاء لرباب الآن ؟

ألم يكن يفترض ان يذهب ليحدث رضا عن الموضوع او ربما حتى اسيا ...

امسك بزمام سيطرته وهو يرفع لها وجهه خاليا من اي تعبير ليسأل بنفس الهدوء

" هل لديك معرفة بمن تصاحب في الجامعة؟"

للحظة مرت تعابير المفاجأة على وجهها وكأنها لم تتوقع للحظة ما سيقوله ..

ثم في ثوان كانت بقمة السيطرة والشموخ وهي ترد عليه " لا احتاج لاعرف فأنا أثق برقية .. قد تراها اجتماعية جدا وتحب ان تتمازح وتتباسط مع الاخرين لكن هذا لايعني انها تسيء اختيار صحبتها .. "

كان يعلم ان رباب كبرياؤها عال جدا وكرامتها لاتمس .. وامها و اخواتها خط احمر لتلك الكرامة ..

لذلك مؤكد لن تُظهر اختها رقية بمظهر المخطئة حتى وان اعتقدتها مخطئة ...

كانت ما تزال تحمل تعابير التحدي والشموخ لكن نظراتها العسلية سرحت بعيدا عنه وقد شابها بعض القلق ..

ما الذي يجعلها مميزة بحق الله ؟ انها مغرورة بنفسها وباحلامها التي تشكل جلّ اهتمامها ..

كما انها ليست بارعة الجمال حتى بعينيها العسليتين هاتين .. وقد رآى جمالا ابهى ونضارة اشد وحلاوة تذيب قلوب الرجال ..

اللعنة .. اللعنة ...

رباب العطار فتاة عادية .. عادية جدا ...

اذن لم تؤثر به بهذه الطريقة ؟

لِمَ تسكن بل تحتل قسرا كل احلامه وتقبض بيد واحدة جلّ خياله وتشع حوله بوهج بهجة براقة كلما التقى بها ...

ما سر ابنة العطار ؟!

عاوده الغضب المقيت القاتم فتتجهم ملامحه وهو ينظر لوجهها فيقول بخشونة

" انا اردت تحذيرك لا اكثر لاني اعلم انك الاقرب اليها ... اراها كثيرا داخل اسوار الجامعة او في مطاعم الوجبات السريعة المقابلة لبوابة الجامعة مع مجموعة فتيات

وشبان من اقسام مختلفة وكلهم مريبين

وسمعتهم ليست بالجيدة تماما ..."

اشتدت ضراوة التوهج في تلك العينين

الناريتين فيبتلع عبد الرحمن ريقه ويعقد

حاجبيه بعنف وللحظة تقدم خطوة متهورة

ناحيتها هامسا بخشونة اشد

" هذا ما اردت قوله عن .. رقية .. هل ظننت

حقا اني قد اطلبها للزواج ؟! هل ترينه فعل

منطقي يا (منطقية) ؟! ثم الا يوجد غير

بنات العطار في هذا البلد ؟! "

جحظت عينا رباب وهي تحدق فيه بصدمة ..

لم تبتعد حتى عنه وهو يقف قريبا جدا منها

يشم عطرها ويدقق في تفاصيل وجهها ..

لديها شامة !

شامة داكنة واضحة اسفل نهاية فمها من

جهة اليسار ...

لم يرها يوما ... لم يتنبه لوجودها ...

فارت دماؤه وهو يقاتل بضراوة لكي لايبدو

ضعيفا متأثرا هكذا ...

وكم اراد ان يتنفس الصعداء وهو يراها تطرق

برأسها وقدماها تأخذانها بعيدا عنه بخطوة ..

على الاقل ابتعدت عنه قبل ان تفلت الامور

منه..

قالت بعدها ببرود شديد " بنات العطار قوارير

الحاج يونس لايقدرن بثمن وأسأل اخاك رضا

وابن عمكم يحيى ..."

سحق اسنانه وقبل ان يرد عليها كانت تتحرك بخفة قامتها المتوسطة الطول ومشيتها الجدية فتنزع وشاحاتها المبهرجة عن رأسها لتتقدم من صندوق كبير مفتوح فتضع فيه الوشاحات وهي تقول بنبرة غريبة موسيقية " شرفتنا يا ابن الحاج عقيل .. دار العطار نورت بزيارتك .."

لاتنظر اليه بينما تنزع قلاداتها ايضا فتحرك عبد الرحمن ليغادر مارا بقربها باشعاعات ما يعتمل في صدره فيقول بصوت رجولي ثابت فيه لمحات واضحة من تملك صرف

"الشرف لنا والدار ... دارنا ..."

في سريرهما المعطر برائحة البخور كما اعتاد منها ان تفعل منذ زواجهما كان مهند يعاني تشتتا واهتياجا ..

يا الهي انها جميلة ... جميلة جدا ...

بيضاء .. شديدة البياض ... لكن لا ..

هو يريد بشرتها برونزية حارة .. يريد خصرها اهيفا رشيقا تنساب اصابعه عليه بشغف وشهوة العشق...

عطر البخور يثير حواسه لكنه لايريد هذا ..

ليس هذه المرة ..يريد عطرا اخر..عطرا اخر..

اخذ يشتم ويلعن فتلهث هي بين ذراعيه تسأله بهمس انثوي " ماذا ... بك ؟"



يرفع وجهه فوق وجهها يحدق بلهاث مجنون في بشرتها المحمرة من اثار قبلاته الخشنة ثم شفتيها المكتنزتين وعينيها الواسعتين الجبارتين .. ولتكتمل الصورة بشعرها الاسود المنثور على خديها ..

ربااااه ... انه يريدها ولا يريدها ...

يرغب في اتمام ما يفعله حتى اوج جنون الشغف ولا يرغب بفعله معها !

عادت جوري لهمسها وعيناها تبديان التوتر

" هل هناك ... نقص ما ؟"

عندها فقط اظلمت عيناه فيهدر مهتاجا

" لايهم .. لايهم ..."

يغمض عينيه وتنغمر حواسه في خيالات اخرى فتتحرك يداه ببطء على خصرها و.. فجأة يشعره غدا أهيفا ! ويكاد يقسم لو فتح عينيه سيرى بشرتها بلون لفحته الشمس ...

ابتسم بحرارة وعيناه مغمضتان ودون كلمات كان يضيع معها ويضيعها معه وهي تتخبط لتنجو ...

بعد ايام ... الجمعة بعد الصلاة

عابسة شاردة بتفكير عميق وهي تعتصر بين اصابعها بهمة حبات الطماطة مع حبات تمر الهند..

رائحة الباميا مع اللحم الضأن تعم ارجاء المطبخ فتجتذب شهية زوجها لتقرقر بطنه وهو يقترب منها من الخلف وتعلو ابتسامة الخبث شفتيه ... غافلا عما يتردد في عقلها..

(انت غالية جدا خلود .. تعرفين هذا .. انت اغلى عندي من رحاب واسيا بكثير .. بل انت ابنتي وسندي .. وما اطلبه منك عشما بك انك ترينني غالية وتقدرين احساس الام ورغبتها برؤية ابن ابنها ...)

كلمات حماتها ترن في اذنيها منذ الصباح بل منذ الفجر بعد ان ساعدتها لتؤدي الصلاة ..

خلود لم تكن غبية حتى لاتفهم تلميحات الخالة سعاد منذ سنوات ..

وما لاتعرفه الخالة سعاد انها سبق وطلبت من حذيفة ان يتزوج لكنه رفض بشكل قاطع ومنعها تكرار الحديث في الامر ..

" انا جائع ..."

اجفلت شاهقة وهي تشعر بجسد زوجها الضخم يلتصق بها من الخلف بمشاكسة حميمة ..

التفتت اليه وهي تترك ما تعتصره وتلتقط منشفة المطبخ لتمسح يديها فتعبس وهي تدفعه في صدره العاري الرطب الظاهر من قميصه المحلول الازرار رافعة نظراتها لشعر رأسه المبلل فيشتد عبوسها وهي تقول باسترسال موبخ وتشوح بيدها يمينا وشمالا

" زرّر قميصك والبس بلوزة سميكة فوقه .. هناك واحدة طويتها للتو في غرفة المعيشة مع باقي الملابس النظيفة .. يا الهي ماذا افعل معك ؟! كيف خرجت من الملحق الى هنا وانت عار هكذا ؟! ستصاب بذات الرئة يوما ما بسبب افعالك الصبيانية هذه .. رجل لايسمع الكلام اسوأ من ابنته ..."

يرتد رأس حذيفة للخلف وهو يقهقه من قلبه فتتنهد خلود وهي ترمي المنشفة جانبا وتتقدم منه تزرر له قميصه بنفسها بينما تتمتم بحنق اومومي

" اجلس سأعد لك بعض الشاي ليدفئك بعد الحمام ..ثم احضر لك البلوزة بنفسي .."

كانت تبتعد وهي تطرق بنظراتها عندما سحبها حذيفة من ذراعها ليشدها اليه وهو يمازحها بالقول

" هل وضعت تمر هند كفاية في قدر الباميا ؟ الحاجة سعاد ستنتف ريشك هذه المرة اذا لم تضعي كمية ترضيها .."

اخذت خلود تتهرب من مواجهة عينيه بينما تقول بحشرجة غلبتها " لا تخف .. انا اجيد ارضاءها مهما غضبت مني .."

ثم دفعته مرة اخرى و انتزعت ذراعها منه ببعض الخشونة وكأنها .. تريد الفكاك من امساكه بقلة صبر ..

تضايق من شعوره انها تنبذه !

قد يكون شعورا طفوليا منه حتى وهو يعلم انشغالها الشديد يوم الجمعة تحديدا لانها المسؤولة عن اعداد طعام الغداء للتجمع العائلي الاسبوعي ..

لكن ... لايعرف لم يشعر انها .. تدفعه عنها لسبب اخر ...!

رآها تتحرك ناحية صنبور الماء برشاقة .. فستانها البيتي يغطيها تماما و حجابها مرخى على كتفيها وقد جمعت شعرها المشعث للخلف في لفة دائرية ..

مدت يدها لتلتقط ابريقا معدنيا ملأته بالماء لتعود ناحية الطباخ بنفس رشاقة حركتها الطبيعية ... لكن رشاقتها لم تخفِ توترها ...

يكاد يشعر بهذا ..

عبس حذيفة قليلا مفكرا وهي يسحب كرسيا ليجلس عليه ثم سألها بخاطر مر في ذهنه " هل سيأتي خليل اليوم على الغداء ؟ "

ردت وهي تضع الابريق المعدني على النار

" انت تعرف خليل وعزة نفسه .. لا يحب ان يتناول الطعام هنا .."

ازعجه انها توليه ظهرها فتخفي وجهها عنه فلا يرى تعابيره ..

قال حذيفة يحاول استفزازها لتستدير اليه

" شاب عنيد ... يتكابر علي وقد ربيته مراهقا ... "

نجح في مسعاه فتلتفت اليه وشفتاها تتحركان في اغراء طبيعي يحبه فتدافع عن اخيها بالقول " لا تقل يتكابر يا حذيفة .. تعرف انه طيب ولا ذرة كبر في قلبه .."

تلكأت تلكما الشفتان قليلا وكأنهما ارتعشتا قبل ان تضيف بتأثر

" انه فقط طيب ووحيد ..."

عيناه ارتفعتا بتنبه لعينيها فرآهما لامعتين بدموع لم تهطل ..

نظرتها كانت .. غير مفهومة تماما ..

ثم تغيرت تعابيرها وبدت حائرة وهي تثرثر

" منذ زواج امي قبل ثلاثة اعوام من العم عبد المنعم وتركها العاصمة لتعيش مع زوجها في بلدة (....) وخليل اشعره يتغير .. فيه شيء يتغير ولا استطيع تفسيره او فهمه .."

استدارت خلود سريعا وهي تسمع أزيز فوران الماء في الابريق فالتقطت علبة الشاي لتضع ملعقتين فيه بينما يقول حذيفة

" انه مشغول فقط يا خلود .. لاتكبري الامور بالله عليك .. انت تعرفين انه المسؤول بالكامل عن المحل الذي افتتحناه في سوق العاصمة الكبير لتصريف بضاعة المعمل .. انا أكاد لاصل هناك واترك فوق رأسه كل التعاملات وامور البيع والشراء ..."

خفضت النار تحت الابريق لتعاود النظر نحو زوجها ترفع قبضتها ناحية قلبها وهي تقول بملامح قلقة

" لا حذيفة .. الفتى يشكو من شيء غير العمل .. قلبي متلوع لاجله ... وانا قلبي لايخطئ .. انه يصدقني القول دوما .. "

ابتسم حذيفة ابتسامة شريرة وهو يشاكسها بالقول الساخر

" اول مرة اعرف ان للقلوب ألسنة تتكلم ! "

عقدت حاجبيها بحنق وهي تلتفت لتصب له الشاي ثم تقترب وتضعه بحركة عنيفة على المائدة امامه وهي تقول من بين اسنانها

" اشرب شايك يا حذيفة .. مزاجي متعكر ولا اتحمل مشاكساتك .."

ارادت الابتعاد فيمسكها من معصمها وهو يكتم ضحكته بشق الانفس ليدعي الجدية في ملامحه وهو يسأل ببراءة

" حسن سأتوقف لاتغضبي .. اممممممممم فقط سؤال مهم واحد .. هل لقلبك اسنان تعض ايضا ؟!"

زمجرت خلود بصوت متوحش وهو يضحك من قلبه .. تحاول تحرير معصمها دون فائدة ..

قال اخيرا وهو مستمتع بمحاولاتها للتحرر

" اعترفي انك بمزاج متعكر لانك افتقدتني ليلة الامس جوارك .. كان عليك التسلل من جوار والدتي حالما غفت فأنت تعرفين يقينا انها تتدلل عليك لتؤنسيها حتى تنام .."

فجأة توقفت عن محاولاتها المجنونة التي تبهجه وعادت تلك النظرة لعينيها وهي تحدق في وجهه !

حسنا ... الامر بات مقلقا !

اوشك ان يسألها بشكل مباشر عندما استغلت ارتخاء قبضته عن معصمها لتسحب يدها وتبتعد وهي تقول بنبرة باهته

" ساذهب لاحضر لك البلوزة .. ما زال امامي ان أعد بعض الكباب المقلي .. ابو جعفر يحبه.."

ثم تركته ومضت مغادرة المطبخ بينما الافكار المتوجسة تتلاعب بعقل حذيفة ..

جاثيا تقريبا وهو يربط حزام الامان لابنته التي تحتضن دميتها لصدرها واذناه تطربان لصوت دندناتها الغنائية لبرنامجها المفضل ...

قبّل خدها بخشونة كما يفعل معها دوما وهي تضحك وتنكمش برأسها على كتفها الايمن متشككة من لحيته النابته الخشنة ...

وقف مهند على قدميه واغلق الباب فتنظر اليه صغيرته بعينيها الجميلتين ثم تخرج لسانها الاحمر له فينفجر مهند ضاحكا ثم يعض شفته السفلى متوعدا اياها بنظراته الشريرة..

من يرى ملامحه العابثة الشقية المرحة مع ابنته لايصدق انها تعود لنفس الوجه الذي استدار في اللحظة التالية ليتحرك ناحية مقعد القيادة ..

الكآبة .. الموت البطيء .. الانتحار روحيا !

لم يشعر حتى باقتراب والده الذي وقف في طريقه قبل ان يفتح باب السيارة ..

وقف الاب مواجها لولده الوحيد بجلبابه الرمادي السميك الذي يرتديه خصيصا للصلاة في الجامع يوم الجمعة ..

لم يرفع مهند رأسه وعضلة في خده الايسر تنبض بقوة بينما عيناه جامدتان لاتفارقان حافة الجلباب الرمادي عند القدمين ...

سأله الاب بهدوء " الى اين ستذهب يا مهند ؟!"

رد مهند بصوت أجش وهو يرفع نظراته ببطء لوجه ابيه

" سأخرج مع حبيبة لاشتري لها سريرا لدميتها.. لقد وعدتها بها منذ ايام ..."

حوار عادي بين اب وابنه .. لكن لا النظرات ولا النبرات تحمل اي شيء عادي ...



يحدقان ببعض احدهما ينظر ببعض الاشفاق

والثاني ينظر كمن ينتظر الخلاص ...

سأل الاب " ألن تأخذ جوري معكما ؟"

بحدة ضارية شرسة هتف مهند " لا ...."

عينا مهند تشتعلان بالرفض .. بالغضب .. بما

يتخبط غريقا في بحور ضياعه الهائجة ....

تتسع عينا الاب في ذهول وهو يتمتم اسم ولده

" مهند ..."

همس مهند بعذاب صرف " اتوسل اليك ابي ..

انا .. تعبان .. تعباااان .. "

لم يستطع الاب تركه وهو يلح في الاستفسار

" فقط اخبرني بما يحصل معك ؟! ما هو

الجديد الذي طرأ على حياتك وألهب العذاب

في قلبك .. "

تقبضت يدا مهند حتى ابيضت مفاصله ..

ماذا عليه ان يفعل ... ؟!

كيف يواجه مصيبته ..؟

كيف يخبر والده بخزيه الاكبر ؟

يخبره انه اكتشف ببساطة انه ... عالق..!

سجين ذليل خلف قضبان حبيبة العطار ...

ما حصل قبل ايام بينه وبين جوري لايصدق ..

حتى الان هو نفسه لايمكنه ان يستوعب كيف عاشر زوجته وهو فعليا كان يعاشر حبيبة بكل عاطفته ...!

مجرد فتاة تشبه حبيبة قلبت كيانه واحيت اوجاع جراح ظنها برأت ...

لسنوات وهو يجاهد ليبرأ من حبيبة العطار ..

ثم تزوج جوري .. ولم يتحرك قلبه نحوها ..

خدع نفسه لثلاث سنوات ان لاكيمياء بينه وبين زوجته .. انهما لم يكونا محظوظين كفاية ليمتلكا ما يؤجج مشاعر احدهما نحو الاخر ..

هي امرأة باردة مسيطرة وهو رجل شغوف .. شغوف جدا ..

يحب ان يفقد نفسه في امرأته ...

لكن لا ... لا .. لقد كان جبانا .. جبانا ليعترف بالحقيقة ..

جوري اشجع منه لانها عرفتها دون ان تعرف تفاصيلها ... مؤكد هي تشعر به ..

كل تلك الاشارات منها كان يتجاهلها بحمق..

" مهند ! جبينك يتصبب عرقا !! ادخل للبيت فالجو بارد و ستمرض .."

دون وعيه وبعنف دفع مهند يد ابيه التي كانت تتحسس حرارة وجهه ليقول هاذرا

" دعني ابي .. استحلفك بالله دعني .. ان بقيت في البيت اليوم سيحصل لي شيء .."

ابتعد الاب للخلف خطوة وكأن ابنه صفعه
بالكم الهائل من المعاناة التي طفحت على
وجهه قبل ان يقولها لسانه ..

فتح مهند الباب وركب في سيارته ليخرج بها
من المرآب بحركة سريعة متهورة ...

نكس الاب رأسه ليتحرك بخطى ثقيلة ..
ثقيلة بثقل الهموم التي يحملها ..

حالما اغلق باب البيت خلفه واستدار رآى
جوري تقف على بعد بضعة امتار ..

وجهها جامد لايعبر عن شيء ابدا ...

كم تحيره هذه الفتاة ..

ناداها الاب بلطف " تعالي يا ابنتي .."

بطاعة هادئة دوما تثير دهشته اقبلت نحوه
وهي تقول بذاك المحيا المحير

" هل تؤمرني بشيء عماه ؟"

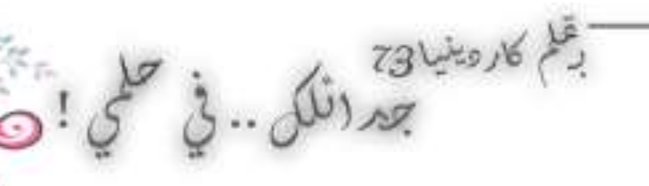
سألها دون مواربة وعيناه تمعن النظر لوجهها

" هل حصل بينك وبين زوجك امر ما ؟ اقصد
هل تشاجرتما ؟"

لم يهتز لها جفن وهي ترد بثبات " لا عماه ..."

ازدادت حيرة الاب لتسطع نظرات جوري
السوداء فجأة وهي تقول بنفس الثبات

" في الواقع منذ ايام وهو يكاد لايوجه لي
كلمة ولاينظر الي على الاطلاق ..."



اراد ان يقول شيئا .. ان يواسيها ..

او يحثها على الصبر لكن تلك النظرة في عينيها اخرسته..

اعتذرت جوري منسحبة وهي تقول بصوت انثوي مميز

" اعذرني عماه .. لدي بعض العمل على الحاسوب يجب ان انهيه .. بالاذن منك .."

ثم تركته واستدارت لتتحرك ناحية الدرج تتسلقه بتأن .. درجة درجة .. تاركة حماها خلفها يضرب اخماسا باسداس ..

في بيت بدرية ..

وضع فنجان القهوة الفارغ جانبا بينما بدرية تربت على ظاهر يده الاخرى قائلة بحبور

" هنيئا يا ولدي .."

فيرد رضا وهو ينحني ليقبل يدها التي تحتضن كفه " هنأك اللّه بماء الكوثر .."

طالعته بدرية بذات الفرح الذي يملأ القلب كلما سمعت صوته او وقعت عيناها على محياه الحبيب .. ولدها وقطعة من روحها وقلبها ..



قالت تشتكيه كأي أم تشتكي لبكرها

" عرس ابنة ثريا تريد ان تقيمه في احدى القاعات الفخمة لفندق الشيراتون ... لا افهم ما الخطأ اذا اقمناه في حديقة بيتي ؟! "

فيرد رضا بابتسامة تسامح قائلا " اننا في الشتاء يا امي .. لن ينفع في الحديقة.."

فتوضح بدرية حجتها بالقول

" لكنهما يستطيعان الانتظار لبداية الربيع .. لن تنقلب الدنيا اذا تأخرا شهرين او ثلاث .."

فقال رضا " دعيهما يفعلان ما يشاءان .."

لترد بدرية " العريس حالته المادية اقل من متوسطة يا بني وانت تعلم هذا .. "

عندها ابتسم ابتسامة عريضة ليقول بمحبة خالصة " اذن قاعة العرس هدية مني اليهما .. ألست خال العروس ؟ "

ترفع يدها تحاوط جانب لحيته وتقبلها من الجانب الاخر وهي تقول " فداك قلبي ما اروعك من ولد وأخ و خال ... لكن لا يا حبيب أمّيك .. المشكلة ليست في المال .. انا اريدهما ان يتعلما العيش بما تسمح به قدرتهما فلا يبذران دون معنى "

عندها قال رضا بروية " كلامك كله حكم .. لكن البعض لايتعلم الا بالتجربة... فدعيهما يفرحان بعرسهما .. وانا موجود دوما اذا احتاجا ... لأي شيء "

كانت تنظر في عينيه وهو يتكلم للحظة عندما تاهت النظرات في تلكما العينين في اللحظة التالية ..!

استغربته بدرية ثم رأته يشرد اكثر واصابع يد اليسرى تلامس خاتمه في البنصر الايمن ..

سألته بدرية بتركيز واهتمام

" ما بك يا رضا ؟"

تنبه رضا لشروده لينظر لوجه امه بالرضاعة وكاتمة اسراره منذ الصغر ..

أطال النظر وكأنه يراجع نفسه هل يفصح ام لا ...

وكان بدرية شعرت به لتشجعه بالقول

" افصح بني .. هل هناك ما يقلقك ويشغل بالك ولم تخبرني عنه ؟"

عندها أسبل رضا اهدابه ليقول

" انا بخير الحمد لله لاتقلقي أماه .. مجرد .. امر عابر لكنه يلفت نظري منذ مدة ويثير حيرتي وفضولي .. واحيانا ارتيابي .."

ما ان ناداها (أماه) حتى استنفرت حواسها وهمت ان تسأله المزيد عندما وقف على قدميه يعيد عباءته فوق كتفيه وهو يقول

" يا الله بك نستعين .. يجب ان اذهب .. مؤكد ينتظرونني على الغداء .. وهذا الاسبوع اسيا ستكون في بيت عائلتها ..."

وقفت بدرية هي الاخرى بينما يضيف رضا

" عندي صديق يستطيع التوسط لحجز احدى قاعات النادي الترفيهي باسعار مخفضة .. صحيح ليست بفخامة قاعات الفنادق لكنها جيدة .. اعرضي الامر على ثريا وابنتها .."

اخذت بدرية تهز رأسها ثم تناديه باستدراك لأمر ما " رضا .."

فيلتفت اليها بملامح منشرحة يرد عليها

" عيون رضا .."

تؤكد عليه بالقول " سلمتَ وسلمتْ عيناك .. فقط اذكرك ان لا تنس التحدث مع سعاد عن موضوع خلود .. انها تسمع لك .. كلمة مني وكلمة منك نجعلها تبتلع افكارها الجهنمية في جوفها ..! "

يضحك رضا وهو يتحرك ليغادر قائلا

" سأكلمها .. وليفعل اللّه ما فيه الخير.. "

تلاحق خطواته وهي تقول المزيد وبنبرة حانقة " قل لها ان تتقي اللّه في المسكينة.."

يضحك مرة اخرى فيودعها عند الباب وهو يقول " في امان اللّه ..."

تلوح له وهي تراقب خطواته ناحية باب المرآب وقلب الام يدعو له بالسلامة في كل خطوة بينما لسانها يلهج بالمحبة

" في امان اللّه بني .."

بعبوس ينظر عبد الرحمن كل بضعة دقائق لساعة يده .. وما زال على نفس وقفته امام الشباك ينتظر .. عودتها ..

بحنق شديد تمتم من بين شفتيه

" ما معنى كل هذا التأخير ؟! اين ذهبت ؟ مصففة الشعر لاتبعد الا بشارعين ... عشر دقائق ذهابا وايابا اكثر من كافية .. وقد مضت نصف ساعة كاملة ...! "

زفر بقوة وحنقه يتصاعد ..

ما معنى ان توصل اختها كل اسبوع للمصففة؟! الا تستطيع رقية الاعتناء بشعرها بمفردها في البيت ؟

لايحب ان تخرج رباب بمفردها بالسيارة .. يشعر بالـ .. بالـ .. إغاظة !

خاصة يوم الجمعة .. يريدها ان تظل تحت ناظريه .. من السخافة ان يفكر هكذا لكنه ترك منذ زمن التفكير بشكل عقلاني في أي شيء يخصها ..

تبخر حنقه حالما لمح السيارة البيضاء وهي تعود اخيرا مقتربة من باب بيت الحاج يونس ..

ابتسامة متسلية داعبت ثغره وهو يراها تنزل بحركات حانقة لتتجه ناحية باب المرآب وتفتحه .. بدت غاضبة حقا وعابسة الوجه على غير طبيعتها الحلوة المسترخية ..

حسن انه سعيد لان رقية .. تأخذ بثأره !

سأل حذيفة وهو يلتهم الكعك المغمس بالشاي " اين سوسو ؟ لم أرها منذ ساعات "

فترد خلود وهي تضع قطعة جديدة من عجين الكباب في الدهن الحار

" في بيت محسن .. ستأتي معهم وقت الغداء .."

توقف حذيفة عن الاكل بينما يلتفت لزوجته وهو يقول عابسا متجهم الملامح

" لايعجبني ذهابها هناك .. ابن عمها مراهق.."

بينما تفرد على راحة يدها قطعة كباب جديد من العجين الذي اعدته منذ ساعة التفتت اليه لتقول باستهجان

" اولاد محسن مؤدبون .. كيف تقول هذا عن ابن اخيك ؟! "

زفر حذيفة وهو يوبخها بالقول " افهمي يا امرأة ! عقيل في السادسة عشرة وهورموناته تحكمه اكثر من اخلاقياته .. متى تستوعبين هذه الامور ..؟ "

تضع القطعة الاخرى في المقلاة بينما تبرر

" انت تعرف ان عقيل يقضي وقته مع اصدقائه خارج البيت يوم الجمعة .. وسعاد اصلا لاتحبه.. هي تذهب لتلعب مع منة واحيانا تشارك سامي ألعابه الالكترونية "

ما زالت ملامح حذيفة لاتبدي اقتناعا فيقول

" منة ليست من عمرها .. بينهما اربع سنوات .. لاينبغي ان تظل سعاد على سذاجتها هذه وكأنها طفلة صغيرة .. "

مسحت خلود على جبينها بظاهر يدها وهي تطمئنه بالوعد " سأكلمها لا تقلق .."

عاد حذيفة ليغمس الكعك في الشاي فيسأل هذه المرة عن أخيه الاصغر " اين عبد الرحمن؟ ألم ينزل من جناحه حتى الآن ؟! "

جاء صوت عبد الرحمن مرحا مشاكسا من عند باب المطبخ الداخلي

" ها هو عبد الرحمن .."

اخذ حذيفة يهز رأسه ساخرا بمشاكسة بينما يقترب عبد الرحمن من زوجة اخيه يتشمم أكلها وهو يقول مناغشا

" رائحة طعامك تذيب المقاومة.."

تضحك خلود بابتهاج حلو وترد عليه وهي تدلله " سيجهز بعد قليل يا أبودي ..."

جاءه صوت حذيفة يضرب على الوتر الحساس " لقد تأخرت هذا اليوم وانت تراقب ..الطيور .. من شباكك ؟"

التفت عبد الرحمن يحدج اخاه بتحذير بينما تتساءل خلود بحيرة بريئة

" اي طيور ؟ تقصد حمام آسيا ؟"

لم ينقذ عبد الرحمن الا طرق خافت معلوم من باب المطبخ الخارجي جعل خلود مباشرة ترفع حجابها لتغطي شعرها قبل ان يدخل رضا مطرق الرأس غاض البصر وهو يلقي التحية

" السلام عليكم .."

رد الجميع عليه

" وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .."

رحبت خلود به وهي تقترب منه قائلة

" أنرتَ بيتك يا ابا جعفر .. الغداء سيكون جاهزا خلال دقائق .. والخالة سعاد تنتظرك في غرفتها .."

يبتسم لها رضا وهو يمتدحها بالقول

" سلمت يدا راعية هذا البيت .. لا طعام اشهى من طعامك .."

لو منحها جبلا من ذهب لما اسعدها اكثر ..

تطلعت اليه وهو يغادر المطبخ والدمعة تكاد تفر من عينيها تأثرا ...

لم تكن تدرك ان حذيفة يراقبها ويكاد يجف ريقه وهو يقرأ محياها ..

لايعلم هل يفترض ان يشعر حقا بالغيرة من رضا وهو ينشر تأثيره الخاص حتى على خلود ام يتقبل المزيد من الافضال ليردها له يوما ما ويا ليته يستطيع ان يردها...

اخذ عبد الرحمن ينقل نظراته بين حذيفة وخلود .. وقد اشفق حقا على احساس حذيفة الواضح بالغيرة ..

فيما مضى كان عبد الرحمن اصغر من ان يفقه مشاعر حذيفة نحو رضا ..

لكن الذكريات البعيدة تعيد تشكيل نفسها في ذاكرته فتتفسر باشكال جديدة لم تخطر في باله بوقتها ...

ان يتذكر تلك الغيرة الشرسة التي تتقافز في عيني حذيفة المتمردتين ووالدهم يوبخه بعنف ويشير لرضا كمثل يجب ان يقتدي به ليفلح في حياته ...

وكأن حذيفة كان يفعل عن عمد كل ما يجعله مخالفا لشخص رضا .. عندا ومكابرة واحتجاجا على رفض والده لرؤيته كما هو ..

هو ... حذيفة الصائغ بعيوبه وحسناته ...

اشفق عبد الرحمن عليه وهو يرى نفس الغيرة تطل الآن من عيني حذيفة لكنها غيرة مهذبة بالقناعة والتقبل وحتى الامتنان !

الامتنان لوجود رضا في حياته ...

اراد عبد الرحمن ان يشغل حذيفة في تلك اللحظات فاخذ يناغش خلود بالقول

" انا جائع جدا .. ماذا ستطعميني ؟"

عبس حذيفة وهو يميل ليلتهم ما تبقى من الكعك قائلا لخلود " لماذا ترتدين الحجاب امام رضا ومحسن وتستثنين عبد الرحمن ؟ لاافهم منطقك ..!"

فتقول خلود باستغراب وهي تشوح باصابعها

" هذا أبودي!! .. انه كخليل بالضبط .."



بغيظ صبياني ينهرها حذيفة " لاتناديه كما تفعل سوسو ! الا يكفي انها ما زالت تناديكما كما كانت تفعل وهي طفلة في الثالثة ؟! عجزت عن جعلها تترك عاداتها الطفولية تلك.. وكله بسببك انت لانك تشجعينها وتريدينها ان تبقى طفلة للابد .."

تضحك خلود بينما يغيظه عبد الرحمن اكثر قائلا " لاتستر غيرتك خلف طفولية ابنتك الميؤوس منها .. ولا تدعها تسيطر عليك يا اخي لتفتعل ما يفرق بيني وبين خوخة "

يضرب حذيفة بيده على المائدة حتى ارتج فنجان الشاي هادرا بصوت خشن جهوري

" اسمها خلود يا فتى .. صديقك الحميم دراكولا الذي لم نحظَ بشرف لقائه حتى اللحظة افسد اخلاقك من كل النواحي خلال سنين دراستكما في الغربة ..."

ينفجر عبد الرحمن وخلود معا بالضحك بينما تدفعه خلود ليجلس على كرسي مجاور لكرسي حذيفة وهي تقول

" اجلس أبودي سأصب لك الشاي ..."

فيقول حذيفة بنزق " وانا اريد شايا اخر ايضا"

بأموميتها التي تشمله بها احيانا تقول بحزم

" لقد شربت ثلاث وأكلت الكعك بالسمسم الا يكفي ؟! ستسد شهيتك وتحرم نفسك من الغداء ؟"

يكتم عبد الرحمن ضحكته وهو يقول بتدلل " اريد الكعك بالسمسم مع الشاي خوخة .."

فترد خلود بعفوية " من عيون خوخة .."

ثم تتحرك مبتعدة فيلكم حذيفة اخاه في كتفه وهو يتوعده بالقول

" ستدفع الثمن غاليا يا ابن والدي .."

غرفة الحاجة سعاد ..

تطرق برأسها وهي تشعر ببعض الخجل امام بكرها الذي كان يضيف مزيدا من الكلام مترفقا بأمه جهد الامكان

" حذيفة لن يحتمل مزيدا من الكبوات في حياته أماه .. اللّه رزقه بنعم الزوجة التي تسعده وتحافظ عليه وتمنحه ما يحتاجه من سكينة بعد سنوات طويلة من التشتت والعذاب والغربة ... ان تزوج بأخرى قد يتحطم استقراره هذا واستقرار ابنته ... الزواج بإمرأتين ليس هيناً فلا تحملينه ما لاطاقة له به .. لذلك ولاجل خاطري انا .. اتركي هذا الموضوع ولاتثيرينه اكثر .. وهما ما زالا صغيرين وربنا قادر على ان يرزقهما بالاطفال ان شاء ... "

رفعت الحاجة سعاد نظرها لولدها وهي تقول بتردد " كل ما أردته ان يحظى بالولد الذي يقر عينيه .."

عندها قال رضا بهدوء بارد " والحاج يونس اراد فعل الامر ذاته فماذا جنى من فعلته ؟! "

شحب لون الام وهي تضرب على صدرها بلوعة قائلة

" اسم الله الرحمن الرحيم على ولدي .."

فيرقق رضا من صوته ويقول

" ارجوك اماه .. دعيه لحاله مع زوجته، دعيه يعيش براحة بال، يكفي ان ترينه كيف ينظر اليها .. خلود ليست زوجته فحسب، بل مصدر راحته النفسية ووجودها حوله يمنحه كل ما يحتاج .. هو وابنته متعلقان بها بشغف فلا تدخلي امرأة جديدة بينهما تتعس حياتهم جميعا .. "

صمتت سعاد وعيناها تترقرقان بالـ.. ندم .. فلم تجرؤ على مصارحة رضا بما قالته لخلود فجر اليوم وكيف طلبت منها ان تبحث عن زوجة لـ.. زوجها ...

بيت يونس العطار

بينما تخيط ابتهال احد ازرار قميص ابنتها رقية قالت لرباب التي تتحرك امامها ذهابا وايابا في حنق شديد

" هلا افهمتني لم كل هذا الغضب ؟!! "

توقفت رباب مكانها لتلتفت وتواجه امها تتساءل بغيظ

" امي انا لاافهم تدليلك السافر لرقية ؟ "

ارتفع حاجبا ابتهال دهشة وهي تحدق في رباب لترد عليها بالقول المتعجب " انا ادلل رقية بشكل سافر ؟! كل هذا لاني سمحت لها ان تخرج مع صديقاتها ؟! "

تكتم رباب انفعالها بشق الانفس وكلمات عبد الرحمن ترن في اذنيها فتضيف مزيدا من حطب القلق على اختها لترد على امها بالقول

" امي انها تخرج كل اسبوع تقريبا مع صديقاتها ... تتوسل الي لاخذها لمصففة الشعر ثم ترفض بشدة ان اعود لاخذها .. لماذا لاتعود للبيت وتغير ملابسها هنا ثم اوصلها الى حيث تريد .. "

ردت ابتهال وهي تعود بتركيزها للازرار التي تثبتها " الجواب تعرفينه .. لان احدى صديقاتها لديها سيارتها الخاصة فتأتي لاصطحابها .. ليس ذنبها انها لاتحب تعلم قيادة السيارات .."

عندها قالت رباب والغيظ والانفعال والقلق يتكالبون على ذهنها المرهق

" امي .. هلا اخبرتني باسم صديقتها تلك ؟! انا اكيدة انك لاتعرفين .. كما لا تعرفين اسماء كل صديقاتها التافهات ..."

رفعت ابتهال وجها عابسا لابنتها لتقول بانتقاد

" ما بك اليوم يا رباب ؟! تبدين متشددة الافكار بشكل غريب .. ثم منذ متى تحاسبينني كيف اتعامل مع اختك ؟! "

تنهدت رباب ورفعت يدها تمسد على جبينها بعجز لتقترب وتجلس جوار امها تميل مقبلة كتفها ثم خلعت حجابها وهي تقول بصبر

" انت تعرفين اني لااجرؤ على محاسبتك .. كل ما في الامر اراك تعاملينها بشكل مختلف وتتساهلين في كثير من الامور التي لم تكوني تتساهلين فيها هكذا معنا .. كنت تسألين دوما من اصاحب ومع من اذهب واعطيك مواعيد محاضراتي لتعرفي متى اغادر .. وقبلها حبيبة كنت تفعلين اكثر من هذا معها .."

رفعت ابتهال وجها يحمل بعض الشعور بالذنب مختلطا بالشجن فتعترف وتفسر

" ربما كبرت يا بنيتي ولم اعد كما السابق وقد ثقل علي الحمل الذي تركه والدكن على كاهلي لسنوات فاصبحت اعول على ثقتي بكن اكثر مما عودتكن عليه وربما لان رقية حرمت من تدليل يونس ولم تعي خسارته.. كانت صغيرة جدا .. انها ليست مثلك ومثل اخواتك .. انتن اكثر سيطرة واكتفاء ونضجا .. بينما هي طفولية وعاطفية جدا .."

تمتمت رباب بتفكير داخلي " ويا خوفي أماه اننا نخطئ جدا بالتعامل معها انها ما زالت تلك الـ رقية الطفولية العاطفية .."

قبل ان تسألها ابتهال عما تعنيه اطلت قريبة زوجها الغالي والتي ضمتها تحت كنف بيتها قبل اربع سنوات لتقول الفتاة باحترام

" لقد جهز الغداء خالتي "

ابتسمت ابتهال لها وهي تقول " سلمت يداك .. سننتظر اسيا حتى نتغدى سويا .."

هزت الفتاة رأسها قبل ان تستدير لكن سرعان ما نادتها رباب " شذره ..."

التفتت شذره لترد " نعم ..."

وقفت رباب مقتربة منها بابتسامة متآمرة

" احضرت لك بالامس القلائد التي طلبتها.. انتظرت ان تخرج رقية حتى لاتتدلل وتبدأ بابتزازك انت وامي لاخذ ما يعجبها "

اسبلت شذره رمشيها وهي تضحك بخفوت وبعض الحرج فتتقدم منها رباب وهي تهمس بألفة محببة وكأنها تكتم اسرارها عن امها " رأيت خلود صباحا وهي تشطف ارضية المرآب واخبرتني انك تزحلقتِ قبل ايام ووقعتِ على رأسك في الشارع .. لماذا لم تخبرينا يا فتاة ؟! ومن هذا الذي تطفل عليكما واثار حنق خوخة ؟! "

للحظة ارتبكت شذره قبل ان تستعيد هدوء ملامحها وهي تقول " مجرد رجل اشفق علي لاني وقعت وعرض المساعدة بتوصيلنا فأغضب خلود بعرضه ..."

لاتعرف رباب وهي تحدق في وجه شذره الهادئ لم شعرت بغرابة وغموض في ردها !

غادر رضا غرفة والديه وهو يسند امه التي بدت بملامح اقرب لمن يشعر بالذنب ..

ذنب لم تعترف به ...

طوال الوقت الذي كان يحدثها به عن حذيفة وخلود وكيف ان الاطفال رزق ونعمه من اللّه يمنحها لمن يشاء ...

كل هذا لم يجعلها ترد عليه بل بدت كمن يسعى لكتم فمه حتى لا تتسربل منه الكلمات رغما عنه ..!

عندها فقط علم ان امه لم ترتدع من كلام رفيقة عمرها بدرية قبل ايام .. وانها مؤكد قد حدثت حذيفة او خلود بشكل صريح ..

ورضا يرجح انها كلمت خلود حيث تستطيع السيطرة عليها واثارة شفقتها اكثر من ابنها حذيفة الحاد المزاج احيانا ...

وحالما دخل المطبخ مع أمه تأكد من صحة تخميناته عندما التقط تلك النظرة التي مرت كسحب غيم حزينة في عيني خلود سرعان ما اعتصرتها المسكينة وخبأت امطارها عن الجميع وهي تستدير لتوليهم ظهرها وتتلاهى بقدورها على الطباخ ...

عندها علم رضا ان امه بقصر بصيرتها احدثت الشرخ ولايعلم الا اللّه كيف سيترمم دون خسائر ...!

الفصل الثالث

العصر ..

يسير على قدميه الهوينا قاطعاً الرصيف ،
يداه في جيبي بنطاله الجينز القديم و عيناه
لاتعرفان نظرات الفضول بل يطرق بهما في
حياء عفوي لايتجزأ من شخصه وعقيدته ...

ليس ضخما ولا طويل القامة لكنه عريض
المنكبين بشكل ملفت جدا فتكاد سترته
الجلدية تنشق عن كتفيه ..

وسيم المحيا بعينين واسعتين ورموش كثيفة
سوداء ..

شقوق عرضية صغيرة كندوب خفيفة اسفل
خده الايمن لكنها لم تشوه وسامته ..

تابع طريقه حتى وصل باب بيت الصائغ ...

ضغط على الجرس وانتظر ... عيناه افلتتا منه
للحظة وبعثتا بنظراتهما للبيت المقابل ...

شوق .. لهفة .. و... يأس ...

ليسبل اهدابه وصوت اخته يأتيه من خلف
الباب الحديدي متسائلا

" من بالباب ؟"

فيرد بصوت رجولي أجش هادئ

" انا خليل ..."

تتلاعب بخصل متدلية من تسريحة شعرها فتلفها حول اصبعها وهي تقول بميوعة انثوية لاتخلو من القوة والسيطرة والثقة

" حارث لا تكن لجوجا .. قلت لك لن ينفع ان توصلني ابعد من المكان المعتاد.. على بعد ثلاث شوارع من بيتنا لا اقل من هذا.."

نظر اليها حارث بعينيه الجريئتين فيقول بنبرة صوته الوقحة المتطلبة

" اغلب الوقت قضيته مع صديقاتك في ذاك الحفل ونصف الوقت المتبقي تمنحينه لي نقضيه في الذهاب والاياب بسيارتي .. الا ترين كم تظلميني وتضطهدين حقوقي عليك ؟"

ردت رقية العطار ببرود يشعله وتحد يوقظ فيه كل اسلحته " ليس لديك حقوق بعد .."

رد بعنف أهوج وهو يضغط على دواسة الوقود

" رغما عن أنفك لي كل الحقوق عليك .. اياك ان تكرري هذا الكلام مرة اخرى .. لن تعجبك افعالي عندها .."

باستخفاف متعمد ترد رقية

" تعلم كم انزعج من نوبات غضبك .."

ألتمعت عيناه وهو يحدق في الطريق امامه الذي يقطعه بسرعة مجنونة لاتحرك شعرة في بدن رفيقته التي تثير كل غرائزه ومشاعره ليمتلكها ...

قال حارث بنبرة محذرة

" رقية لاتتلاعبي معي .. انت تعرفين عندما اغضب لاارى امامي .. واكثر ما يغضبني ان اشعر بأن احدهم يحاول التذاكي علي .."

التفت اليها بوجهه مع اخر كلمة وكأنه يثبت جديته فيما يقول فابتسمت له وبدت كقطة لعوب غامضة بعينيها الزرقاوين اليقظتين وهي تقول له ببرود قاتل " من يتذاكى على من ؟! تقول حقوقا يا حارث ؟ واين حقوقي انا ؟ الا ترى اني اتنازل بخروجي وحيدة معك في سيارتك ؟ الا يفترض ان تضع على الاقل خاتم خطبة في بنصري الايمن لتثبت .. حقوقك امام الناس ؟"

ضرب على مقود السيارة بعنف وهو يهدر فيها

" قلت لك ظروفي لاتساعد الان .. افهمي ام ان عقلك مملوء بالحجر .."

اشتعلت عيناها بالغضب فهدرت به هي الاخرى

" اوقف السيارة حارث .. "

لم يلتفت اليها فهدرت مرة اخرى بنبرة قاطعة

" اوقفها ...الان .. فورا.. والا ..فأنت تعرفني ..."

بحركات رعناء اخذ يتمايل بالسيارة يمينا وشمالا يحاول تجاوز السيارات وهو يقول بانفعال " سأوقفها ... ليس لاني انفذ طلباتك ولكن لاني مللت تدللك .."

دخل شارعا فرعيا ليوقف السيارة في اوله وهو يسمعها تقول ردا عليه بحدة

" وانا مللت مزاجك هذا ولسانك الطويل وكلماتك المقرفة .. عندما تملك الشجاعة لمواجهة ورفض رغبات ابيك بتزويجك من ابنة عمك عندها تعال وافرض شجاعتك علي ..."

ألتف بجسده ليستند بظهره على الباب المجاور له بينما يحدق فيها في جلستها المتصلبة وملامحها الجميلة الغاضبة..

تراخى في انفعاله العصبي ليقول بتفكه والابتسامة الوقحة تعلو ثغره " ليست كل كلماتي تقرفك اليس كذلك؟ تحبين كلمات الغزل بجنون .. فقط لو اني اغازلك في مكان منعزل لاريتك افعال الغزل كما لم تحلمي بها يوما في خيالك العاطفي الصاخب "

نظرت اليه رقية دون ان تتأثر بتلك الوقاحة لترد بسخرية لاذعة " هل تعلم ما يجذبني اليك اكثر من غزلك؟ ثقتك الشديدة بنفسك ..!! "

امسكت عتلة الباب لتفتحها عندما تشبث بذراعها يناديها همسا حارا خشنا

" رقية .."

لم تلتفت نحوه ولم تنزع ذراعها منه ليأتيها صوته الهائم بكلمات تتفجر بالوله

" احبك يا مجنونة ... ابي سيحرمني من كل شيء ان لم أنهي دراستي المتعثرة واتزوج ابنة عمي وانا لا افكر الا بك وبارضائك حتى أكاد افقد عقلي بسببك .."

عندها فقط وبـ(رقتها) الخاصة سحبت ذراعها من بين اصابعه وكأنها ألقت سحرا على تلك الاصابع الخشنة لترتخي رغما عنها ..

ثم فتحت الباب لتترجل ثم تستدير وقبل ان تغلق الباب خلفها قالت بثقة وهي تبتسم بشقاوة في عينيه المدلهتين فيها " مؤكد تحبني وتفقد عقلك لاجلي .. فانا الخلطة السحرية من قوارير العطار .."

بيت محسن الصائغ.....

دخلت رحاب لغرفة ابنها البكر وهي توجه له بعض التوبيخ " لماذا لم تأتي معنا لغداء العائلة ..؟! "

تنهد عقيل وهو يخفي ضيقه بغضبه المفتعل ليقول بحدة وهو يرمي ملابسه هنا وهناك

" امي ارجوك انا لست بطفل .. لست مضطرا لحضور هذا الغداء كل جمعة .."

تمالكت رحاب نفسها حتى لاتفقد اعصابها معه لتقول بحزم " عمك رضا سأل عنك يا عقيل .. بدا منزعجا لعدم حضورك .. هذه ثاني جمعة لاتحضر ..."

أطرق عقيل ووجه يتورد قليلا .. دوما يشعر ان عمه رضا رجل لايريد تخييب ظنه فيه ابداً ..

تمتم عقيل بضيق متزايد

" سأذهب اليه .. واعتذر .."

جاءه صوت والده من عند باب الغرفة " قد لايكفي الاعتذار يا حفيد عقيل الصائغ .."

تحركت رحاب لتغادر الغرفة وهي تقول بضيق

" اتركه لك .. انا اعجز عن فهمه منذ الصغر فكيف به وقد غدا مراهقا عنيدا .. سأعود للبيت الكبير مع منة اللّه لا بد انها أنهت الآن تغيير ملابسها التي اتسخت .."

اعترض عقيل بالقول الانفعالي

" امي .. لاتقولي عني .. مراهق .."

هدر فيه ابوه " اذن لاتتصرف كمراهق .."

ليرد على ابيه وهو يتوسله التفهم

" ابي .. ارجوك لاتوبخني انت ايضا .."

أمعن محسن النظر في ولده البكر قبل ان يسأله بهدوء واسلوب مباشر

" اخبرني بالسبب الذي يجعلك تتهرب من الغداء العائلي.."

ابتلع عقيل ريقه وهو يرد بمراوغة

" الا يكفي اني اشعر بالملل .."

ضيّق محسن عينيه من خلف نظارته ليرد على ابنه بفصاحة المنطق

" انه مجرد غداء .. تستطيع حضوره لتأكل لاكثر ثم تغادر .. المهم ان تتواجد مع اهلك ولو لساعة زمن .."

أشاح عقيل بوجهه جانبا ويده تتأرجح بانفعال متوتر على جانب جسده ..

سأله محسن وهو يحاول تجميع عدة خيوط تدور في رأسه منذ فترة

" من يزعجك يا عقيل ..؟ "

يزداد توتر عقيل دون ان يتكلم فيدفعه محسن اكثر بالقول الذي يخفي ابتسامة

" هل هي جدتك التي تلمح دوما ناحية .. سوسو .."

عندها انفجر عقيل بشكل مدو صعق محسن وهو يرى ابنه يكاد يصرخ بالقول الحانق

" انها لاتتوقف عن تلك التلميحات .."

هدر الاب بعنف وهو يقترب من ابنه قائلا

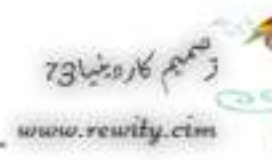
" تأدّب يا ولد وانت تتكلم عن جدتك .."

كما ارتفع انفعال عقيل فجأة هبط فجأة ..

حاله كحال المراهقين المتأرجحين في دومات انفعالية لاتعرف الهدوء او الاستقرار ..

تمتم عقيل معتذرا ومتشكيا بنفس الوقت

" انا اسف ابي .. لهذا السبب لااريد الحضور .. لااريد ان تفلت اعصابي واخطأ .."



للحظات صمت محسن وهو ينظر لابنه وكأنه يتردد في قول ما يريد قوله او كيفية صياغته ليتخذ قراره في النهاية متسائلا

" هل جدتك من يزعجك ام.. سوسو نفسها ؟"

ارتفع حاجبا محسن بشكل طفيف وهو يرى التورد الخافت يضيء على وجنتي ولده بينما يتساءل بانفعال من نوع آخر

" انها طفلة .. فلماذا .. تزعجني ؟! "

رد الاب ببساطة " لانها لاتطيقك .."

فيرد عقيل على رد والده بعنف منفلت " وانا لااطيقها ولا اطيق تدللها السخيف على ابيها والخالة خلود وعمي رضا وحتى عمي عبد الرحمن .."

انفاس عقيل ترتفع وتنخفض ووجهه الصبياني محتقن كاحتقان انفعالاته ...

أشفق عليه محسن وهو يتذكر مراهقته البعيدة والتي تبدو هذه اللحظة وهو ينظر لابنه قريبة .. قريبة جدا ..

وكأنها حدثت بالامس فقط ..!

كان انفعاليا بنفس الطريقة رغم رزانته الفطرية .. لم يكن يتسبب بالمشاكل كاخيه حذيفة فالدراسة كانت تهمه اكثر من العبث مع اصدقائه ..

عقيل يشبهه تماما .. رزين وهادئ وغامض ..

لكن في داخله تدور زوابع مكتومه ولانه مراهق فالزوابع تغلب رزانته ..

تبسم محسن مما جعل ولده يطرق برأسه خجلا وهو يتمتم " آسف ابي .. انا احيانا .. لااشعر كيف .. أتكلم .."

رد محسن بهدوء وغموض

" تعلم كيف تمسك بزمام انفعالاتك يا عقيل .. انت رجل والرجل الحق هو من يتعلم كظم غيظه ويستوعب افراد عائلته مهما كانوا مدللين ... فاتنين ..."

تحرك محسن ناحية الباب يخفي ابتسامة تسلية مشاكسة نادرة منه وهو يضيف اخيرا بنبرة آمرة جدية

" اذهب لتتناول الشاي مع العائلة .. ابو جعفر قال لن يشربه دونك ..."

بيت يونس العطار

اخذت ابتهال حفيدها جعفر من يده تحايله حتى يرضى الذهاب لغرفتها لتريه صور جده يونس العطار ..

كان الفتى الصغير الذي قارب الثمانية اعوام يحاول اقناعها انه سبق وأرته كل تلك الصور بل وكل الحاجيات القديمة لجده المتوفي لكن جدته تلح وتزيد في ألحاحها وكأنها تجد سعادتها بوصل من رحل عن الدنيا بمن تجري دماؤه في عروقهم ولم ترهم عيناه ...

خرجت ابتهال من الصالة و اسيا ما زالت تربت على ظهر الصغير كاظم الذي يكاد ينام على كتفها متشبثا بها بينما تسأل رباب التي لاتفارق الشباك " متى قالت ستعود ؟"

ردت رباب بضيق قلب " قرابة العصر .."

ثم تلتفت لاختها الكبرى وتتكلم بجدية وقلة صبر " اسيا ... الا ترين ان رقية تحتاج لمتابعة أشد صرامة ؟"

تكلمت اسيا بصوت خفيض

" امي تأبى الاستماع الي .. اخر مرة عنّفتُ فيها رقية اتهمتني امي اني قاسية معها ولا يحق لي معاملتها هكذا .."

تأففت رباب وهي تعاود النظر عبر الشباك لتقول بصوت يفيض بالحنق " انها تسحرها بطفوليتها المفتعلة ودموعها القريبة .."

علقت اسيا بنبرة عميقة ومنطقية

" امنا تتأثر بها بشكل خاص .. ربما لانها آخر العنقود وحرمت من حنان ابينا باكرا .. "

اسندت رباب جبينها على الزجاج البارد وهي تقول بشجن ونوع من الحزن " رقية تغيرت يا اسيا.. لم تعد طفلة عاطفية نضحك من اقوالها الرومانسية المبكرة .. انها حتى لم تعد تدعي انها تنصت لما اقوله لها .. انها تنصت لنداء رغباتها وافكارها المخفية فقط..."

وضعت اسيا ولدها الذي غفا تماما في سرير صغير من خشب قديم كان لها يوما ما ثم غطته جيدا قبل ان تقف على قدميها لتتحرك نحو المدفأة النفطية فتفتح كيس الكستناء الذي احضرته معها وتضع بضع حبات فوق الجزء الملتهب الناري من المدفأة لتشويها ...

قالت اسيا اخيرا وهي تراقب تلك الحبات البنية " اخبريني بصراحة يا رباب .. هل تعلمين امرا محددا مقلقا عنها ..؟ "

ردت رباب ببعض التلكؤ الخفي " للاسف لااعرف اي شيء .. لكني سمعت .. مؤخرا .. ان من تصاحبهم ليسوا مريحين .. هذا اضافة لامتعاضي الشخصي من تصرفاتها العامة التي تعرفينها.."

اخذت اسيا تقلب حبات الكستناء باطراف اصابعها وهي تقول بتفكير " المشكلة انها متفوقة بدراستها وهذا يطمئن امي ويدحض اي مخاوف .."

فتقول رباب بغيظ

" لانها تجيد تنظيم وقتها .. وتعرف اهدافها .."

تتبسم اسيا وهي تلتفت لاختها وتقول

" الستِ مثلها تعرفين اهدافك ..؟"

ردت رباب بنفس الغيظ " انا و رقية نملك اهدافا على طرفي نقيض.."

عادت اسيا لتقلب الكستناء وهي تقول بروية
" هل تعلمين رباب .. اشعر ان رقية تنصت
اكثر مما تتصورين .. فلا تجزعي هكذا .."

قالت اسيا كلامها هذا وقلبها ينقبض وهي
تتذكر اياما صعبة عاشتها مع حبيبة ..

تمتمت اسيا بتساؤل " اين شذره ؟ لم أرها الا
وقت الغداء ثم اختفت تماما بعدها .."

قالت رباب وعيناها لازالتا ساهمتان عبر
الشباك " انها في غرفتها .. قالت ستنام قليلا
لانها تشعر ببعض التوعك .. ربما وجع اذنها
عاد.. لكن في الواقع منذ ايام تبدو شاردة
البال وتفضل الانفراد بنفسها في غرفتها ..
سأذهب اليها بعد قليل واطمئن عليها .."

ردت اسيا بتعاطف " انها ما زالت تحن لبلدتها
وتشعر ببعض الوحشة في العاصمة ... وربما
اشتاقت لعمتها وبنات خالها .."

تمتمت رباب " ربما ... هو الاشتياق .."

تنهدت اسيا وهي تهمس " اشتقت لحبيبة .. "

فتحاكيها رباب اشتياقها وهي تقول

" وانا ايضا .. لا اطيق صبرا بانتظار عودتها هي
وسكينة .."

ثم تضحك رباب بخفة وعيناها تلمعان بفخر
" تلك القوية الصعبة المراس سكينة ..
نسخة مصغرة عن امها .. الا ترينها كذلك ؟"

ردت اسيا وهي تنظر بتمعن للكستناء التي نضجت " اتمنى ان تتربى بشكل مختلف عما تربت عليه حبيبة .. لانريد فتاة اخرى تفقد هويتها وتتوه في الازمات ..."

الحديقة الخلفية لبيت الصائغ الكبير

مقابل باب الملحق الخاص بحذيفة وخلود

هتفت خلود وهي تقترب من اخيها الجاثي على ارضية الحديقة جوار سامي

" ما الذي تفعله هنا يا خليل ؟ حذيفة يبحث عنك وابو جعفر سأل اكثر من مرة اين اختفيت ؟ ساقدم الشاي والكيك بعد قليل "

رفع خليل وجها ضاحكا لاخته وهو يقول بنظرة حلوة " ليس لي شهية ثم اني ارتب مع سامي للالعاب النارية.."

تطلعت خلود باحباط لتلك الصواريخ الصغيرة الملونة التي يثبتانها على ارضية الحديقة ثم تسمع اخاها يقول لسامي

" اذهب واحضر الباقي .. ستجده في المطبخ ايضا ولاتنس علبة الكبريت .."

يهز الفتى المتحفز دوما رأسه ليركض مسرعا منفذا الطلب ..

جلست خلود على الارضية المعشوشبة جوار اخيها تسأله برجاء

" لماذا لاتجلس مع العائلة .. ؟"

اسبل خليل اهدابه وهو يحرك يده يدعي الاهتمام بتلك الالعاب النارية قبل ان يقول

" تعرفين خلود .. لا احب فرض وجودي .."

اخذت تلامس كتفه وهي تحاول اقناعه

" ابو جعفر يرحب بك دوما في بيت الصائغ .."

فيرد خليل بهدوء " ان كنت اريده دوما ان يرحب بي فالافضل ان لا اكثر من مجيئي .. رحم اللّه امرئ عرف قدر نفسه .. وقدر من حوله .."

سألته بصوت متحشرج وكأنها تعرف مصدر ألمه الذي يخفيه في حشاشة قلبه

" هل ذهبت لزيارة امنا ؟"

رد باقتضاب " نعم ..."

نادته بجزع قلب يحبه " خليل ..."

يرد على جزعها العاطفي وهو يدير وجهه اليها فيبتسم ويقول " لاتقلقي علي .. انا تعودت .. المهم انها سعيدة وراضية اخيرا في حياتها .."

تمزق قلبها عليه تريد احتضانه ولاتعرف كيف ؟! هذا الفتى الذي غدا عريض المنكبين شكّل اقوى نقاط ضعفها .. فنطقت خلود بما ينطقه قلبها بعفوية صادقة

" انا .. امك .."

فينفجر خليل ضاحكا لتهزه خلود من كتفه وهي تقول بحنق " لاتضحك .. انا جادة .. انا أمك رغما عنك وعن .. عن ..."

لم تحتمل ودموعها تسيل فتحتضن جسده الكبير كيفما ارادت ذراعاها وهي تهتف بحنان يسع العالم اجمعه

" انا احبك يا فتى .. احبك لدرجة لا تتصورها .. لو طلبت روحي لن أتردد لحظة في اهدائها لك .."

يلف ذراعه حول جذعها النحيل ويهمس قرب رأسها

" لانك هبلاء كما يصفك زوجك دوما .."

فتتمتم خلود بقناعة راسخة كقناعة ام ترى ولدها الافضل دائما

" واي هبلاء لاتقع في غرامك هكذا ..؟!

انفقأت عين تراك ولا تصلي على النبي .."

فيضحك خليل مرة اخرى واخته الضئيلة تتشبث باحتضانه ..

في صالة المعيشة الكبيرة ببيت الصائغ

قدمت خلود الشاي في الاقداح التقليدية التي تراصت فوق صينية كبيرة فضية ... اقداح صغيرة زجاجية شفافة بحواف وزخرفات اسلامية مذهبة ولكل قدح صحن صغير يستقر عليه بنفس الحواف المذهبة ...

تدور خلود في همة بين افراد العائلة فتبتسم بخجل وفرح والكل يمتدح طعام الغداء من يديها ... واولهم حماتها ...

تلحق بها سوسو وهي تحمل صحنا دائريا كبيرا تراصت فيه قطع كيك البرتقال في شرائح ذهبية كشمس الغروب ..

وصلت خلود الى رضا فرفع كفه ليضعه على صدره في حركة شكر واكتفاء قائلا

" سلمتِ يا ام سعاد .. سأنتظر عقيل اشرب شايي معه ... محسن ذهب ليناديه قبل قليل .. "

ارتجت الصينية بين يدي خلود وهي ترفع وجها مبهوتا اليه بينما تسارع يد رضا لتثبت الصينية وهو يقول بحنانه الطبيعي

" انت تعبت اليوم .. آسيا قادمة الآن من بيت عائلتها وهي من ستتكفل بالباقي واعداد القهوة .."

اخفت عينيها الدامعتين عنه وهمست بحشرجة

" لاعدمنا مروءتك يا ابا جعفر ..."

تحركت تكاد تترنح والدموع تعميها عندما اوقفتها ضخامة زوجها الذي قاطع طريقها ويمد يديه يأخذ الصينية منها عنوة هامسا قرب مسامعها " ولايليق بك الا اما لسعاد .."

سلمته الصينية وهي تكاد ترتعش وكم ودت لو ترمي نفسها .. كل نفسها ... على صدر حذيفة ..

كانت المرة الاولى التي يناديها احدهم ب

(أم سعاد) ..

حتى سعاد نفسها ما زالت تناديها بنفس الاسم الذي اطلقته عليها منذ رأتها (خود) ..

شاكسها حذيفة بالقول الهامس الوقح المعاني

" امرأة لاتجيد الكلام الا في .. الليل .."

تحمر خلود وهي تتجاوزه لتغادر غرفة الصالة بينما يتحرك حذيفة ساهما ليضع الصينية جانبا على اقرب منضدة ثم يختار كرسيا قريبا من عبد الرحمن فيجلس جواره بصمت وعيناه شاردتان بتفكير غامض ...

خلال لحظات دخل عقيل وهو يلقي السلام على الجميع متوجها اولا ناحية جدته ليقبل ظاهر يدها ...

وعندما تحرك ليحيي عمه رضا ارتطم بسوسو التي كانت تحمل صحن الكيك فعبست وعبس هو .. واشتد عبوسه عندما تضاحكت جدته وهي تقول بنبرتها التي تحمل معان باتت خانقة بازعاجها له " خذ من ابنة عمك يا عقيل .. الا ترى كيف تسعى لارضائك ؟!"

يحمر عقيل بشدة فيتحرك بحدة ليتجاوز سوسو متجاهلا اياها دون ان يلقي عليها حتى التحية فيسلم على عمه رضا قبل ان يجلس على يساره ..

تبرطم سوسو بطفولية ولم تشعر الا بعمها عبد الرحمن يسحبها من الخلف حتى جلست على حجره فيقبل خدها ويلتقط قطعة كيك من الصحن وهو يقول في اذنها

" لقد نسيتني يا حلوة ..."

تميل برأسها على صدره وهي تنظر بنفس العبوس وبرطمة الشفتين لابن عمها الذي يتجاهلها ويسلم على الجميع دونها ..

لكنها سرعان ما نسيت كل شيء بعودة خالتها رحاب مع منة الله تتبعهما الخالة اسيا تحمل الصغير كاظم ويسابق جعفر الجميع بخطواته النشطة ..

وبين التحايا تهب سوسو من حضن عمها وتضع صحن الكيك في حجر عمها ثم تركض ناحية منة الله فتجرجرها من يدها مع جعفر وهي تقول لهما " سامي مع خالي خليل في الحديقة الخلفية يعدان لنا مفاجأة .. كنا بانتظار عودتكما لنبدأ .. هيا هيا ..."

تتراكض سوسو مع منة وجعفر للباب الخلفي من البيت فتمط الجدة سعاد فمها في استهجان بينما يناظر عقيل ابنة عمه باستخفاف وسخرية وشعور بالتفوق !...

تجلس رحاب جوار حماتها بينما عينا رضا تناغشان زوجته المقبلة نحوه في لمحة خفية فتسبل اهدابها وتكتم ابتسامتها فلا تظهر الا ظلالها الناعسة على شفتيها ...

تتقدم نحوه تحمل كاظم فيمد رضا ذراعيه لتنحني اسيا نحوه ويلتقط منها الفتى النائم هامسا قرب اذنها " قهوتك يا ام جعفر .. "

تهز اسيا رأسها بـ(نعم) قبل ان تلتفت لحماتها التي تجلس على يمين رضا

" امي والبنات يسلمن عليك خالتي .."

فترد الحاجة سعاد بمحبة عفوية تلقائية وهي تجلس على يمين رضا

" سلمهن اللّه من كل سوء .."

اراد عقيل ان يقف ليفسح المكان حتى يجلس والده الذي دخل للتو لكن رضا وضع كفه فوق ركبة عقيل يمنعه الوقوف بصمت ..

دخل محسن وجلس جوار حذيفة ويميل نحوه يسأله عن أمر عابر فيسبل حذيفة اهدابه وهو يهز رأسه نفيا بنفس الصمت .. وبدا مشغول البال...

يراقب عبد الرحمن اخوته الثلاث وهو يقضم من قطعة كيك جديدة التقطها من الصحن الذي تركته سعاد في حجره ..

رضا يتحاور مع عقيل فيُشعر الفتى انه رجل ..

فيتملك عبد الرحمن العجب والحسد لتلك القدرة المتفانية لدى اخيه الاكبر على احتواء الصغير قبل الكبير ...

محسن يبدو هادئا مستقرا يمضي في حياته راضيا عنها وان كان يزداد هدوءا ورزانة ... ودور المعلم اصبح طاغيا عليه بشكل مزعج احيانا ...

حذيفة ... يصمت اغلب الاحيان بحضور رضا وينكمش تماما اذا تواجدت اسيا وكأنه يتلاشى كضباب اشرقت عليه شمس الصباح ..

رغم هذا يشعر عبد الرحمن ان صمت حذيفة الآن لاعلاقة له برضا او اسيا .. هناك ما يشغله ولايعتقد ان الامر يتعدى زوجته خلود وموضوع الانجاب المتعسر .. وربما يشمل امهم ايضا الحاجة سعاد التي لاتكف عن مصمصة شفتيها وهي تنظر بحسرة لاحفادها الذكور من ولديها رضا ومحسن بينما لا حفيد ذكر لولدها حذيفة ..

أمه لن تتغير .. لن تستطيع ان تتغير وكل خلية فيها خلقت ونمت وكبرت على تمجيد الابن الذي يحمل اسم العائلة .. واي عائلة ؟!

عائلة الصائغ .. اعرق عائلات البلد باصولها وجذورها العميقة ..

كم يشفق على حذيفة وهو يتعامل بحكمة –حتى الآن- مع تلميحات امهما المبطنة ..

عقد عبد الرحمن حاجبيه وهو يدس مزيدا من الكيك في فمه ..

حتى الآن انه لايعرف كيف يصف شعوره العميق بوجهه الحقيقي نحو حذيفة...

هل يحبه ليغفر له خطيئته ام اصبح ناضجا كفاية ليتفهم ما حصل بالماضي ويتعايش معه ؟

هو وحذيفة يتضاحكان .. يتشاكسان ..
يتبادلان اسرار العائلة الطريفة واحيانا
يفتعلان المقالب بالصغار والكبار ..

لكن لسبب ما .. عبد الرحمن لم يخبره بما
حصل مع ... القرفة العسلية !

ترى ... لماذا لم يفعل ؟!

حذيفة كان اول من التقط ما يحصل بينه
وبين رباب ..

منذ سنوات كان يشاكسه حول الامر ..
ويشجعه ليتمادى ..

اذن لماذا أخفى عنه انه طلب من رضا يد رباب
للزواج ؟!

لماذا لم يخبره بما حصل ؟!!

وضع عبد الرحمن صحن الكيك جانبا وهو
يقف على قدميه ليفرد عبوسه قائلا

" انا استئذن .. علي ان استحم واغير ملابسي ..
اصدقائي ينتظروني في المقهى.. "

وبينما يتحرك عبد الرحمن مغادرا كانت
رحاب تسأل حماتها " ألن تحضر رفيدة ؟! لم
نرها منذ فترة طويلة.."

ردت الحاجة سعاد " ابنتها تتحضر لامتحانات
مهمة الاسبوع القادم وانت تعرفين شروق كم
هي حريصة على تفوقها ورفيدة لا تدخر
جهدا لتوفير الاجواء المناسبة لها .."

أطرق رضا واذنه تلتقط كلمة (ابنتها) من فم

أمه فيدعو لها بالغفران لانها لم تفكر يوما

بخلود كما فكرت برفيدة ...

لم يقطع عليه افكاره الا رائحة القهوة بالهيل

فرفع رأسه يناظر سلطانته فيتبسم وهو يقول

لابن اخيه " لم نتشارك الشاي لكن

سنعوضها بالقهوة ... واي قهوة يا فتى .. اي

قهوة ..؟! فقط لو تعلم تفرد مذاقها ..."

فتح عبد الرحمن باب المرآب ليخرج عندما

رآها تقف قبالته عبر الشارع .. تلف ذراعيها

حول جسدها والهواء البارد يتلاعب بحجابها

البني ...

تتجاهله بنظراتها وهي تحدق يمينا بعيدا عنه

ولايعلم ايهما يغضبه اكثر تجاهلها السخيف

هذا ام وقوفها بمفردها والشارع شبه خال !

ماذا تنتظر ؟ غبي من الاغبياء يتحرش بها ؟!

كز على اسنانه وهو يقترب منها عابرا الشارع

بخطوات واسعة ليسألها دون مقدمات

" ماذا تفعلين بوقوفك هكذا في الشارع ؟"

ببطء أدارت وجهها اليه فتنظر اليه بثبات وهي

تقول بتجاهل لسؤاله

" مساء الخير عبد الرحمن .. "

عابس الوجه حاد التعابير وهو يقول

" الشمس بدأت تغيب والجو يزداد برودة..

ادخلي للبيت فالشارع خال تقريبا ووقوفك

هكذا غير مناسب .."

اشتعلت عيناها وزمت شفتيها قبل ان تقول

بصوت متماسك " الا ترى انك ..."

يقاطعها وداخله تأجج في لحظة مباغته

" اني ماذا ؟ اني اتصرف كـ(أخ) مزعج لك ؟"

توترت ملامحها كما تقلصت ذراعاها حول

جذعها ليضيف عبد الرحمن بنبرة ساخرة

تطعمت بالمرارة

" هذا دور ألعبه كان ... من اختيارك ... "

بدت كمن يناضل ليجد ما يرد به فلم تنطق

الا باسمه وكأنها .. تعاتبه " عبد الرحمن ..."

أسبل اهدابه وهو يشعر بالضيق يجثم فوق

صدره .. غباء انه يقترب منها حيث لايفترض

ان يقترب .. لماذا يصر على الاستمرار بهذا

الغباء ؟! الا يفترض ان يحمي كبرياءه وقلبه

من مزيد من الضرر ؟!

همس عبد الرحمن بخشونة لم تخلُ من

السخرية " ادخلي رباب قبل ان تجدي مغرفة

الحي في وجهك ليتهمك بابشع التهم أهونها

انك تثيرين الشغب في شارعه ! "



ثم التفت ليسير بنفس الخطوات عائدا لبيته وخلال لحظات كان يخرج بسيارته من المرآب دون ان يمنحها حتى نظرة ...

حزن دفين يستوطن قلبها ...

حزن لايموت ابدا ولايكف عن تلبس صور جديدة ملازمة لكل مرحلة من حياتها ...

حزن هو مصدر قوتها وثبات قراراتها ومنبع احلامها بالاستقلالية والاكتفاء ..

غارقة فيما يستوطن قلبها ليمر الوقت وهي لاتشعر به ولا بالبرودة التي تشتد فتصل عظامها عبر قماش ملابسها السميك ...

لم تتنبه رباب لسماع صوت طرقات كعب الحذاء العالي على الرصيف ولم تتنبه لمن أتت تسير برشاقة مدروسة على القدمين من اول الشارع حتى سمعت صوت رقية وهي تسأل بقلق ودهشة " لماذا تقفين هنا يا رباب ؟"

بقدرتها الدائمة على عزل نفسها عن الاخرين بل عزل الاخرين عن نفسها اغلقت ابواب الحزن ليرتع في موطنه بعيدا عن الاعين ثم وجهت كل انتباهها لاختها الصغرى فتناظرها من قمة رأسها الى اخمص قدميها في نظرة شمولية ذات معنى جعل رقية تشعر بالتململ ..

ثم تعود رباب لتدقق النظر في تسريحة شعر اختها الجذابة التي تحاوط وجهها الرقيق بالخصل المتلوية الشقية ..

ذاك الوجه الذي تحددت ملامحه بتبرج متقن خفيف ظاهريا.. حاجبان سميكان مرسومان بعناية وعينان بظلال لامعة ابرزت زرقتهما العميقة تحيطهما رموش كثيفة ... اكثف كثيرا من حقيقتها ..

انف جميل وفم رقيق بشفة سفلى متدلية في اغراء كاغراء احمر الشفاه اللامع الذي تستخدمه ...

هتفت رقية بضجر " لماذا تدققين النظر في وجهي ؟! لاتبدأي الانتقاد ارجوك .. دعينا ندخل البيت على الاقل .."

لم ترد رباب وهو تهبط بنظراتها للملابس ما بين البلوزة الهفافة الصوفية بلونها الليلكي فوق بنطال انيق جدا يضيق في نهايته عند منتصف قصبة ساقيها فيلتصق بهما مبرزا نحولهما الجذاب ..

فتقول رباب وعيناها تثبتان على حذاء رقية ذو الكعب العالي " كيف وصلت هنا ؟ لماذا لم توصلك .. صديقتك .. حتى باب البيت ؟"

لم تظهر إمارة واحدة لارتباك رقية فقط بدت متضجرة من الحوار وهي ترد " لم آتي مع صديقتي .. كان لديها امر مستعجل فاخذت سيارة اجرة ولكن السائق الكريه رفض ان يدخل شارعنا وانزلني على الشارع العام بحجة انه متعجل العودة لبيته .."

بسخرية واضحة ونظرات حادة قالت رباب

" لا اصدق ان سائق اجرة لم يستمتع بصحبة فتاة مثلك خاصة وانت تبدين ... هكذا .."

ردت رقية على اختها بمرح خبيث " ربما ببساطة لم أعجبه .. الآن هلا دخلنا قبل ان يأتي ..."

فتقاطعها رباب بابتسامة ساخرة

" مغرفة الحي ؟ ستجدينه يتجسس علينا غالبا من شباكه .. "

فتلومها رقية بالقول " هذا بسببك .. لماذا تقفين في الخارج وتنتظريني ؟!"

بنظرات غامضة ونبرة باردة ردت رباب

" لأرى كيف عدت للبيت .. يا كل الرقة .."

ثم تحركت رباب ناحية باب بيتهم وخطواتها الثابته تسبق خطوات اختها المتراخية التي التمعت عيناها الزرقاوان ببعض التوجس ..

عينان صغيرتان حالكتان وسط وجه متجعد تراقبان كغراب مترصد لالتماعة (نميمة ثمينة) مصدرها اي حدث في الشارع فيسارع لسرقتها وكنزها في دفتره ...

يتخذ من شباك غرفته العلوية كمنارة مراقبة لاتفلت تفصيلة منه او هكذا يتوهم !

وكل ما يلتقطه يدونه في دفتره .. وحسب اهوائه ورغبات خيالاته ...

جلس على كرسيه المنجد بقماش ثقيل من عهد قديم وامام منضدة مكتبه ذو الطراز الملكي او الرئاسي التقط (مدونته) الجلدية وفتحها على اخر ما كتب ..

بابتسامة فخورة يقرأ اخر تدويناته قبل ان يلتقط قلمه الحبري العتيق ويبدأ بكتابة المزيد بتاريخ اليوم والساعة !

(رباب العطار تقف امام بيتها في الجو البارد دون سبب وجيه ... ثم تتشاجر في الشارع مع عبد الرحمن الصائغ .. يبدو شجار حبيبين او ربما يدعيان الشجار للتغطية على علاقتهما السرية !)

(رقية العطار تعود بهيئة فاضحة ووقت متأخر للبيت واختها رباب توبخها .. والام ابتهال غافلة عن حال البنتين !)

وضع سعدون القاضي جانبا قلمه الحبري ثم اخذ يمرر يده فوق رأسه يتحسر بغرور على قدراته التحليلية في المراقبة التي تم الاستغناء عنها باكرا كما يتحسر على شعره الذي تساقط .. باكرا جدا..

منذ ست سنوات جاء ليسكن هذا الحي بعد ان باع بيته القديم في الحي الذي كان يقطنه سابقا وقد ابتدأ يضج بسكان جدد رعاع..! فهجر الحي القديم ليأتي هنا ويشترى بيتا صغيرا مجاورا لبيت يونس العطار.. حي ما زال يحافظ على رقيه واصالته..

وقد كان سعدون يشعر بالزهو انه يثير فضول سكانه وتساؤلاتهم حول تاريخه الغامض ومزاجه المتقلب المشاكس ..

يحب مشاكستهم واثارة غيظهم واحيانا سخطهم بوقاحته وسلاطة لسانه ..

لكنهم طيبون ويتسامحون معه ويقدرون شعوره بالوحدة ...

نعم هو رجل وحيد .. لكن هذا افضل من عشرة اولاده الجاحدين الناكرين للجميل الذين يتهمونه انه كان السبب بمرض امهم ووفاتها !

الا يعرفون كم كانت تحب النكد والتشكي ؟!

بيت طارق النعماني

على مكتبها الصغير في زاوية الغرفة تجلس امام شاشة الحاسوب تلبس نظارتها الطبية لتعديل البصر ويفترض انها تركز في عملها لتسلمه لصاحب المطبعة ...

لكنها منذ الصباح تتشبث بواجهتها الباردة المسيطرة وكأنها قشتها حتى لاتغرق بينما في داخلها ... حريييييق.....

نظرت للساعة على جانب صفحة شاشة الحاسوب لتراها تشير للخامسة مساء ..

الشمس تغيب تماما و مازال هو بالخارج مع .. حبيبة ..

آآه .. الحريق يلتهب .. يذيب جدران روحها
فتكاد تصرخ دون وعيها لما تفعل ..

لكن ابدا ...! لن تستسلم ..

وما تجرعته لثلاث سنوات لن يذهب هباء ..

اصوات تأتيها من الطابق السفلي حيث يعيش
حمويها ...

لا بد ان مروة حضرت بصخبها مع خطيبها ..

يا الهي .. انها تحتاج للخلوة ...

تحتاج ان تعالج تلك التصدعات التي تهددها
بالانهيار ...

لن تنزل .. ستدعي انها ...

" مساء الخير .."

جملة كحد السكين الحاد شقت سكونها
الخارجي مع انفتاح باب الغرفة ..

ردت تحيته بشكل آلي وهي تدعي التركيز
في عملها ... تشعر بحركات جسده وهو يخلع
ثيابه ويرميها باهمال ثم يرتدي ملابسه ببطء
وتكاد تشعر نظراته منصبة على ظهرها ..

تحافظ على رتابة انفاسها بعذاب مضن
ليتفاقم العذاب وهي تشعره يقترب منها من
الخلف ..

ويبلغ العذاب أشده عندما شعرت بكفيه
تتسللان لكتفيها ...

يمررهما ببطء وهي يقول بصوت أجش

" آسف لاني لم أكن .. طبيعيا .. الايام الفائته .."

ارادت للحظة ان تهد المعبد على من فيه وتتقيء في وجهه كل ما يسمم انوثتها بسببه...

ارادت ان تخبره انها .. تعلم ..

تعلم انه اخر مرة بينهما .. لم يكن يعاشرها هي ... بل كان يعاشر .. يعاشر من تسكنه وتشاركه انفاسه لحظة بلحظة ..

حتى وهو لايعترف لنفسه بهذا ...

سخرية باردة جرحتها ... وماذا فعلت هي بالاعتراف لنفسها بما يحدث بينها وبين زوجها... ؟؟

منذ سنوات وهي تعرف وتحتمل ..

في البداية كانت تقاتل بهمة لكي تفوز به بعدها .. بات القتال باهتا موجعا ..

لم تستسلم صحيح لكنها فقدت ايمانها..

وربما اوجعها انها بمفردها من تسعى .. حتى وهي تتلقى منه الطعنات ... كانت تسعى ..

اشتعل سواد عينيها وهي ترفع وجهها اليه وببرود ذو انتقام مبطن يجهله

" لاعليك .. لابأس ..."

ثم بنفس البرود عادت لتحدق بشاشة الحاسوب وهي تشعر باصابعه تتقلص على كتفيها وتكاد تحفر حفرا في لحمها الحي..

في بيت يونس العطار

غرفة حبيبة

تجلس شذره على السرير تدثر ساقيها بالغطاء الصوفي بينما عيناها الزرقاوان تطالعان القلائد الجديدة التي احضرتها لها رباب ..

قلائد بألوان متعددة يتداخل معها معدن الفضة ...

الى متى يجب ان تتقبل هذا ولا تستطيع قول لا او حتى نعم !

الى متى ستظل تقنع نفسها بخدعة انها كواحدة من بنات الحاج يونس العطار وهي ليست كذلك ..

انها فقط قريبتهم المسكينة التي آووها ..

ارتعش جسد شذره فترفع طارف الغطاء حتى كتفيها ..

اغمضت عينيها وهي ترجع رأسها للخلف تستند لوسادتها ..

وخلف جفونها المغلقة تعود اليها صورته ..

فتنفجر نبضة عذرية في قلبها ...

ما الذي فتنه فيها هكذا ؟!

انه لايعرفها .. مؤكد لايعرفها ...

هي مجرد فتاة بسيطة المظهر لا شيء مميز فيها حتى وان حباها اللّه بالجمال ..

بينما هو رجل مكتمل الرجولة ..

جذاب انيق الملبس وواضح انه من مستوى اجتماعي جيد ...

اذن .. لماذا نظر اليها وكأنها هي وحدها التي يراها موجودة ..

مشدوها مصعوقا من وجودها امامه ...

ذلك الرجل الغريب ..

من .... يكون ؟!

الملحق الخاص بـ خلود وحذيفة.. اخر الليل ..

خرج من الحمام يجفف وجهه ويديه بمنشفة صغيرة .. عاري الصدر لايرتدي الا سروالا قطنيا مخططا فتدفئة الغرفة تكفيه ..

نظرة واحدة منها نحوه فالتقت عيناهما قبل ان تشيح بعينيها بعيدا وهي تتحرك ناحية السرير تعيد ترتيب غطائه بحركات حمقاء لامعنى لها ...

نظرتها مرتبكة مترددة ..

مخنوقة بمشاعر جمة ..

رمى حذيفة المنشفة جانبا بينما تحرك ناحية منضدة الزينة المرتبة بعناية يلتقط فرشاة الشعر فيمشط شعره وعيناه تواصلان مراقبتها في حركاتها العنيدة مع غطاء السرير ..

يقسم بالله لن ينام الليلة حتى يجعلها تبوح..

رمى الفرشاة ببعض الحدة على المنضدة فأصدرت صوتا جعل خلود تجفل فترفع وجهها المرتبك الحائر لتحدق في وجهه عبر المرآة..

تنظر اليه بطريقة لاتوصف ..

وهل يحتاج لتوصيفها ؟!

يكفي انها نظرة تحييه .. في كل مرة تتعلق نظراتها به بهذه الطريقة يشعر انه ... كل شيء ..!

يدها تشد بجانب فستانها البيتي المورد ذي الكمين الطويلين لتزداد هيئتها الهشة تأثيرا فيه وشعرها بات شبه مربوط للخلف وبضع من خصله أفلتت وتشعثت حول وجهها النحيل ..

نادته اخيرا بصوت ناعم مرتعش

" حذيفة ..."

يرد وهو يلتفت نحوها متكتفا " نعم ..."

للحظات طالت تحدق فيه جاحظة العينين ويدها تكاد تمزق فستانها الشتوي وكم يتمنى لو تفعل فتمزقه ويرتاح هو فيريحها هي ايضا ...

قالت بنفس الارتعاش " لاشيء ..."

همس في سره " جبانة ..."

تحرك نحو السرير دون ان ينظر نحوها لكنه لمحها كيف تبتعد خطوتين ..

اضطجع على السرير ثم رفع نظراته اليها وهو يرخي رأسه على الوسادة قائلا بصوت أجش

" عندي صداع .. تعالي ..."

مع كلمة (تعالي) كان يرفع يده وسبابته
تتحرك في دعوة لها لتقترب ..

عادت لتشد فستانها قبل ان تحرك قدميها
مجبرة لتقترب من السرير وتجلس على الجهة
الثانية حيث تنام كل ليلة جواره وبين ربوع
احضانه ..

دون تردد رفع رأسه ليضعه فوق حجرها وهو
يرخي اجفانه ..

لم يحتج لاكثر من هذا ليشعر بعدها
باصابعها تتخلل خصل شعره تشده في حركات
متتابعة تتبعها معه لتخفف وجع رأسه ..

يتمتم حذيفة بتأوه الراحة

" اجل ..آآآه .. شدّي اكثر .. "

تابعت عملها المتقن بصمت حتى امسك
معصمها وقرب يدها من فمه ليقبل راحة كفها
ويقول بعدها

" لقد تعبتِ اليوم وهو يوم اجازتك .."

رفع عينيه اليها وهو يشد بقوة على معصمها
في استنطاق صامت ..

عندها عضت شفتيها المغريتين لتقول بعدها
في كلمات متدفقة وكأنها تخشى التراجع

" انا اريد ان اكلمك بموضوع لايحتمل
التأخير.."

ضيق حذيفة عينيه قليلا قبل ان تضيف
خلود بتوسل

" استحلفك بالله لاتردني فيه .."

سأل بهدوء " ماذا هناك ؟"

شحبت ثم تعاقبت الالوان على وجهها وهي تتلعثم بكلمتين

" انت ... انا ... انت .... انا ..."

ابتسم بشقاوة تخفي توتره وهو يتساءل بسخرية " حددي يا امرأة .. انا ام انت ؟!"

هتفت به وتوترها على عكس توتره .. ظاهر وواضح وجارح لقلبه ...

" لاتربكني .. انا اجمع افكاري .."

استجمعت كل شتات شجاعتها امام ناظريه لتقولها اخيرا

" باختصار ودون مقدمات .. انا لااستطيع الانجاب وانت يجب ان تتزوج وتنجب ولدا ذكرا كاخويك .."

اسبل حذيفة اهدابه وهو يرفع رأسه ليستقيم جالسا وما زال معصمها في يده الضخمة الخشنة فينظر اليها ببرود شديد قائلا بحزم

" اخبرتك سابقا ان لاتفتحي هذا الموضوع .."

ليراها تقع في الدور الذي رسمته لنفسها فتعيشه بصدقها الخاص .. بصدق قلبها وتفانيه لاجل من تحب ...

قالت بجزع " هذا خطأ يا حذيفة .. انا قلبي يتفتت ألما كلما رأيتك تلاعب اولاد محسن او اولاد ابي جعفر .."

احتدت ملامح حذيفة للحظات قبل ان يقول باصرار و هو يكنيها باسم ابنته " انا لااريد مزيدا من الاولاد يا ام سعاد.. لكن يبدو انك من لاتكتفين بسوسو..."

وجع قلبها اطلق سهمه لقلبه وهي تهمس بنبرة مجروحة " لاتعذبني يا حذيفة .. اريد ان اناديك ابا زيد .. "

يهز معصمها في يده وهو يقول بوجه حانق الملامح " انت من يعذب نفسه .. وزيد سيأتي من رحمك اذا شاء اللّه له ان يأتي .. "

تميل بفمها لتقبل اصابعه التي تعتصر معصمها وهي تقول بعبرة مخنوقة

" استمع الي يا حذيفة .. الطبيبة قالت اخر مرة ان مرور السنوات ليس من صالحي ولا تحسن ملحوظ في حالتي .."

يقبض على معصمها الاخر ويهز كل جسدها النحيل وهو يقول من بين اسنانه " خلود .. انا لم أكن افكر اني سأتزوج على الاطلاق .. والزواج منك حصل لظروف انت تعرفينها .. لولا هذا لكنت ما زلت اعزبا حتى اللحظة .."

وبكل براءتها التي لاتشيخ قالت وعيناها تنظران اليه كله بافتتان متحيز " ما هذا الكلام السخيف ؟! مؤكد كنت ستتزوج امرأة ما .. رجل مثلك مفعم بالرجولة لا يبقى دون زواج لاخر عمره .."

ابتسامة حارة تشق فمه فتبدو ملامحه اكثر خشونة وجاذبية بينما يقربها منه وهو يقول بصوت مبحوح

" اخيرا ابتدأ كلام الليل الذي احبه .."

عيناه على شفتيها المميزتين واوشك ان يصل اليهما عندما ابعدتهما عنه وهي تهمس بتسارع

" ما رأيك بشذرة العطار ؟ جميلة جدا وفي الثانية والعشرين ويكفي انها من عائلة العطار .."

تجمد حذيفة وتجمدت هي معه بينما تضيف بانفاس متقطعة " فتاة رائعة .. عزيزة النفس ... داخلها اجمل من .. خارجها.. وانا وهي متقاربتان ..."

اخيرا اطلق حذيفة نفسا عميقا لاتعلم خلود متى سحبه بهذا العمق لرئتيه ... ثم قال بسخرية لاذعة مستهينة " ماذا افعل بهذه الطفلة ؟! اعلقها خرزة زرقاء على صدري ؟! "

ليعود الى تقريبها بخشونة منه وهو يرفع كفيها لكتفيه العاريين يهمس لها بصوت شغوف مشتاق " انا لدي خرزتي الخاصة في كتفي ام هل نسيتِ ؟"

فيضيف وفمه يهبط نحو عنقها

" هل كانت في الكتف الايمن ام الايسر ؟ هلا بحثتِ عنها من جديد "

ابتعدت بحزم وهي تعبس بقوة ...

شفتاها ترتعشان لكن الاصرار يتقافز في عينيها البنيتين لتقول ما يعكس اصرارها

" انا اتكلم جديا حذيفة .."

نظر في عينيها ليهادنها قائلا بلامبالاة

" وانا لااحب الشقراوات .."

عندها ابتلعت ريقها وهي تحاججه بالقول

" هي ليست شقراء تماما ثم ان زوجتك الاولى كانت شقراء .."

فيحرك رأسه مبررا ببساطة

" وكانت سببا وجيها لاغير رأيي في شبيهاتها من النساء .."

عندها حررت نفسها منه في لحظة وبدت كمن اصيب بنوبة هستيرية وهي تتقافز من فوق السرير ثم تهبط ارضا لتخطو سريعا ناحية منضدة جانبية بادراج صغيرة فتفتح احداها وتستخرج دفترا وقلما ثم تستدير نحوه وتقول بمنتهى الجدية والاخلاص وهي تدون في الدفتر " حسن .. حسن سأبحث لك عن اخرى .. اذن لاتريدها شقراء .. ولا تكون بداية العشرينات .. اذن هل تريدها بعمر لايقل عن السابعة والعشرين مثلا ؟ هل هذا عمر يناسبك ولاتراها صغيرة عليك ؟"

يرفع حذيفة حاجبيه عاليا وهو يحملق فيها لايستطيع استيعاب ما تفعله بينما يتمتم

" هل ستكتبين مواصفات ضرتك ؟!"

فترد وهي ترفع عينيها اليه " اجل .. سأكتب حتى لانسى .. الان .. ابدأ بتحديد المواصفات التي تريدها .."

تراخت ملامحه ثم اخفى تعابيره ليقول بصوت هادئ ثابت " اريدها عاشقة للنظافة .."

فتكتب خلود وهي تتمتم بعبوس

" لن احتمل عشرتها ان لم تكن كذلك .."

انزل ساقيه ارضا ليجلس على حافة السرير وهو يقول بتفكير والضحكة الرقيقة تتراقص على حبال صوته

" امممممممم .. نحيلة بخصر ضيق .. عينان بنيتان بلون القهوة التي تصنعها امي .. شعر داكن اشعث مجنون وفم كبير ذو شفتين مرتفعتين وكأنهما مستعدتان للقبل "

ما زالت لاتلتقط تلك الضحكات المخفيات بينما تدون وهي تفكر بصوت مرتفع حانق لاسبابها الخاصة " نحيلة وخصر ضيق .. سهلة هذه .. شعر اشعث؟! ما الذي يعجبك فيه ؟! لكن لايهم كثيرات يعانين من نوعيات شعر كهذه .. فم كبير وبشفتين مرتفعتين وكأنهما .. حسن ..."

مطّت شفتيها اللذيذتين بامتعاض وهي ترفع نظراتها اليه لتقول بهمة " سأتصرف في هذا واخذها لطبيب تجميل مختص يحقن شفتيها بتلك الحقن .. ماذا بعد ؟"

وقف حذيفة على قدميه فيقترب منها وهو يقول بصوت مغو " الاهم .. ما يثير مشاعري كرجل .. رائحتها .."

يقف قبالتها وهو يهمس مضيفا بنفس النبرة

" اريدها برائحة صابون الاطفال الذي تستحم به سوسو .."

حدقت فيه والغيرة بدأت تخترق غيوم اخلاصها لسعادته التي تنشدها فتهمس

" سأعطيها من صابوني ... أأ.. انه .. من نفس النوعية .."

ما زالت لاتلتقط ما يفعله بها ليرفع كفيه ويحاوط وجهها هامسا بصوت أجش " واريدها هبلاء تتكلم وتتصرف قبل ان تفكر..."

ترد على عجل وقلبها ينبض في عنقها تقاوم اغراء الضعف امامه

" ما اكثرهن ! أ... حذيف .. "

لم يحتمل وهو يقتطف شفتيها في قبلة طالت وطالت حتى تقطعت انفاسهما معا فيبتعد لاهثا وهو يقول بصوت يحترق بالشوق " اريدها في لحظاتنا الخاصة ان تهتف بالحب لي وكأني كنزها السري ثم تتبع كلمة احبك بـ.. جدا جدا ...جدا ..."

همست بضياع وهي تشعر باحدى يديه تسحب منها الدفتر والقلم يقع ارضا طواعية

" حذيفـــة .. لاااا ..."

ابعد يديه للحظات وبينما هي تهمس بجزع

" لاتمـ...زقهـ...ا ..."

كان صوت التمزق يسبق قصاصات الورق التي حلقت فوق رأسيها بعد ان رماها حذيفة ليلف ذراعيه بخشونة حول خصرها هامسا بضجة مشاعره ضاحكا من براءتها المستحيلة

" لااحتاج لهبلاء اخرى في حياتي فقد حظيت بالافضل .."

فقدت اي رغبة للـ(اخلاص) او (التفاني) لتملأها رغبة واحدة .. رغبة انانية بحته ..

ان تكون مع رجلها الذي تعشقه جدا ..جدا ..

لم تشعر بفمها الذي يهمس بين قبلاته

" جدا جدا .. جدا ..."

بعد منتصف الليل في حي فقير شعبي .. مدقع بالفقر .. ينادونه بحي الشيخ نسبة لشيخ جليل سكنه قبل عشرات السنين ...

امرأة وحيدة تسكن في مساحة ضيقة من الطابق الاول لمبنى متهالك تلتصق بظهرها للحائط تحتمي بستر عباءتها والرعب يملؤها ان ستر بابها لن يصمد وسينكشف خلال ثوان..!

عيناها تفيضان بدمع الرعب وقلة الحيلة وهي تحدق في باب مأواها الفقير يرتج تحت قبضة طامعة لاحد الرعاع المخمورين على الجانب الآخر من ذاك الباب ...

لا تملك الا ان تستمر بالدعاء لله ان يصمد
بابها اكثر ولا يخذلها ...

قرع الباب يرتج صداه في نبضات قلبها
فيمسك بتلابيب الروح الجزعة ويخنقها
بالقهر .. انه الانتظار ... انتظار قاتل لآدمية
اي بشر ضعيف لاحول له ولا قوة ...

ومر الانتظار ..... ولم تشعر هي الا بالدموع
تفيض راحة اخيرا حين سترها الله بستره
لييأس المخمور ويبتعد بخطواته الثقيلة
هاجرا بابها تاركا اياها تسقط ارضا ساجدة
هي وعباءتها السوداء تبكي ضعف حالها
وتشكي لله ما جار عليها الزمن ثم هدأ
البكاء وما زالت على نفس السجدة لتردد
بصوت هامس تذله عبرات القهر

" يجب ان افعـ...ـلها .. يجب ... ان أفـ...ـعلها ..
يجب ان أجد... الشجا...عة .. "

الفصل الرابع

في وقت باكر مع شروق فجر اليوم التالي

كانت تقص بحذر جانب شعره الاشيب فوق اذنه بينما يستسلم لها رضا وعيناه تنظران للاعلى حيث وجهها يعلو رأسه ...

نظراته كانت غريبة وفيها شيء ما جعل اسيا تتراجع للخلف قليلا تسأله باستغراب

" لماذا تنظر الي هكذا ؟! "

فاجأها وهو يرد مباشرة وعيناه تتأملان وجهها

" اريد طفلا اخر يا اميرة البنات ... لا اريد الانتظار لعام اخر كما اتفقنا سابقا .. "

ارتفع حاجبا اسيا وهي ترفع يديها للاعلى ببطء .. المقص في اليمنى والمشط الصغير الاسود في اليسرى..

كان حقا ينظر لها بجدية والطلب في عينيه بات واضحا جليا ... وجديا للغاية ..

تساءلت اسيا " هل اشتقت للاطفال ؟ لكن كاظم ما زال صغيرا ... "

فرد رضا وابتسامة خاصة تعلو ثغره

" بل اسأل نفسي ان كنت كبرت لاحظى بطفل ثالث .."

وضعت المقص والمشط جانبا لتميل نحوه تقبل لحيته المشيبة هامسة بصوتها العذب

" لاتقل هذا .."

يسحبها ليجلسها على حجره قائلا بضحكة رجولية خافته

" هل لديك وصفة للشيب عطارتي .."

يده تمسح فوق بطنها ثم خصرها ليصل ظهرها وكأنه يتلمس روحه هو من خلالها لترفع اسيا كفها وتلامس لحيته المشذبة قائلة

" لكن القلب ما زال نضرا بمصادر المحبة واسعا بالاحتواء .. واسعا جدا يا رضا القلب ... ألست اكثر النساء حظا بقلبك هذا ؟

حنانك.. رقتك .. قوتك.. والاهم .. نخوة الرجال الاشداء فيك..."

للحظة خاطفة شردت نظراته بعيدا الى حيث.. لاتدري !

فجأة سأل وهو يسبل اهدابه

" هل سيوصلك عبد الرحمن للسوق ؟ "

هناك ما جعله يشرد منها وهو بين يديها ..

وبينما يشتتها التفكير ردت بشكل آلي

" اجل .. وسأذهب لازور امي قبل ان اخرج معه فربما تحتاج لبضعة امور من السوق الكبير .."

ما زال مسبل الاهداب وهو يعود لسؤاله الاول

" اذن .. هل اتفقنا يا ام جعفر ؟ طفل اخر ؟ "

ردت اسيا وهي تلامس كتفه عفويا

" كما تشاء ولن يكون الا ما يشاؤه اللّه.."

ثم اسبلت رمشيها وهي تقول بتورد

" لو اراد لنا اللّه ولدا ثالثا سنسميه .. يوسف "

ذراعاه تعانقان جسدها حتى التصقت بصدره الذي يشع دفئا ثم تسمع صوته الاجش يلامس اذنها " لكِ هذا .. ولي ان اختار اسمها ان رزقنا اللّه بنتا .."

وبين ذراعي رجولته كانت تذوب اسيا حُسنا وجمالا ....

وفي رحاب روحها كانت تفيض جوارح رضا بينابيع السعادة ...

بيت يونس العطار

تحتسي اسيا قهوتها في غرفة المعيشة بينما تسمع صخب رقية المألوف وهي تنزل الدرج وتنادي على رباب بتدلل تحثها على الاسراع ...

ألتزمت اسيا الصمت بينما تدخل رقية وهي تدندن باغنية شعبية وتتراقص عليها تشوّح باصابعها لتتلاعب بشعرها المحلول حتى ما تحت الكتفين بتموجات خاصة ...

أجفلت رقية وتتسع عيناها تلقائيا وهي ترى اختها الكبرى تجلس باسترخاء على الاريكة وسط غرفة المعيشة ...

ابتسمت شفتا اسيا بينما عيناها تلتقطان أحمر الشفاه اللامع بشكل ناري يلون شفتي اختها الصغرى فتداريه رقية وهي تمسح بلسانها فوق شفتيها تدّعي تأثرها من الاجفال قائلة

" لقد أرعبتني اختي .. منذ متى انت هنا ؟ الساعة ما زالت السابعة والربع صباحا .. اقصد.. متى حضرتِ ؟ لم اشعر بمجيئك .. حتى لم اسمع صوت الجرس ..! "

ردت اسيا وهي تعاود الارتشاف من فنجانها

" امي كانت تنتظرني عند باب المرآب فلم أدق الجرس ... تعرفين انها تقلق على كاظم من برد الصباح فانتظرتني مع غطائها الصوفي لتلفه به .."

تبسمت رقية وهي تبدو مرتبكة بشكل طفيف .. رقية تحسب الف حساب لاختها الكبرى وتتحامى بامهما عندما تشعر ان اسيا توشك على توبيخها ومحاصرتها ...

اخذت رقية تتحرك بتململ وهي تشعر بنظرات اسيا التقيمية لما ترتديه ..

حسن هي محتشمة جدا .. ومن لايستطيع الاحتشام في هذا البرد ؟!

بنطالها الداكن فضفاض نوعا ما كما هي الموضة هذه الايام .. وبلوزتها بتدرجات الفضي مع خطوط بيضاء لاتلتصق بجذعها ...

" الى اين تذهبين يا كل الرقة بكل هذه الاناقة المفرطة ؟"

اخذت رقية تتلاعب بعقدها الفضي الطويل فيتراقص السوار الفضي ذو الاجراس في معصمها مصدرا اصواته المغرية بينما ترد بابتسامة مرسومة بعناية توحي بكل البراءة والحلاوة

" لدي مراجعة هامة مع بعض الصديقات في مكتبة الجامعة .."

أمالت اسيا رأسها قليلا وهي تتساءل

" انت لاتذهبين للجامعة عادة يوم السبت .. بما ان لا محاضرات لديك فتفضلين الكسل والاعتناء بنفسك "

هزت رقية كتفيها وهي تستعيد سيطرتها على نفسها لتتبسم بشقاوة غامزة وهي تقول

" غيرت رأيي هذا السبت .."

صمتت آسيا للحظات قبل ان تتساءل بفضول

" الا تفكرين بأعادة محاولة تعلم القيادة ؟"

ردت رقية بلامبالاة وهي تسخر من نفسها في ذات الوقت

" لا .. فمرة واحدة في حائط بيت (مغرفة الحي) تكفيني .. ثم ان لدينا سيارة واحدة قديمة ولانستطيع اقتناء سيارة اخرى .. انت تعلمين محل العطارة لم يعد مثل السابق .."

لم تعجب اسيا تلميحات رقية حول السيارة التي تستخدمها رباب وقبل ان ترد على اختها جاءت الام من جانب الممر المؤدي لغرفتها،

هرولت رقية نحو امها وهي تهتف بطفولية متدللة " ها قد جاءت اجمل النساء .."

تضحك ابتهال وهي تمسك وجه صغيرتها بين كفيها تقبل خديها وتدللها بالقول

" قارورتي الصغيرة الحلوة ..."

فتضع رقية رأسها على صدر امها وهي تقول بما يشبه الغرور " بل انا الاكثر حلاوة يا ابتهال ... لاني اشبهك .."

تضحك ابتهال من قلبها واسيا تراقب بجذل دون ان يخفى عليها مكر رقية المحبب ..

جاء صوت رباب من عند الدرج وهي تغيظ اختها بالقول " محتالة كبيرة .."

تحرك رقية حاجبيها صعودا ونزولا ترد الاغاظة لاختها وهي تخرج لسانها نحوها وتقول " لماذا تغارين ؟"

تتحرك رباب لتقترب من اختها الكبرى تقبل وجنتيها محيية اياها ثم تلتفت لرقية لتعاود النقار معها قائلة

" انت تعرفين انك لاتشبهين امي بشيء .. فقط اسيا من تشبهها حقا .."

فتتشبث رقية بأمها وكأنها تتشبث بدميتها المفضلة لتواصل تدللها الطفولي المفتعل

" انا قصيرة القامة مثلها .. كما ان شعري بلون شعرها ..."

اخذت ابتهال تدفع رقية عنها وهي تعبس ضاحكة وتقول " اذهبي مع اختك يا فتاة ... ما هذه المناقشة العقيمة ..؟! "

صوت خطوات اخرى تهبط الدرج جعل ملامح رقية تتغير فتهمس بامتعاض

" ها قد أتت طويلة القامة كالنخلة التي لاتطرح بلحاً مزروعة وسط البيت ..! "

حدجتها اسيا بنظرة نارية جعلت رقية تتورد بينما الام تكتفي بنظرات التوبيخ الامومي لتقترب منها رباب تهمس بصوت خافت وهي تبتسم في وجهها بخبث

" هذا ما اسميه بالغيرة القاتلة يا قصيرة .."

قبل ان ترد رقية على اختها جاء صوت شذره ثابتا حلوا وهي تلقي التحية " صباح الورد .."

يرد الجميع ويعلو صوت ابتهال بتحية امومية اكثر دفئا " صباحك معطر حبيبتي .."

نظرات رقية تحوم فوق قامة شذره التي تقدمت نحو اسيا لتلقي التحية فتبتسم رقية باستهانة وكأن شذره تجيد التزلف !

اخيرا قالت شذره بلطف وملامحها لاتعبر عن شيء " سأخرج لعملي خالتي .."

تتحرك شذره لتغادر غرفة المعيشة فتناديها ابتهال قائلة " تعالي شذره .. سأعد لك شطيرة في المطبخ تأخذينها معك .."



لكن شذره ترفض بنوع من الاصرار وهي تقول بأدب " لاداعي خالتي .. لقد تأخرت .. مؤكد خلود تنتظرني خارجا مع الاطفال .."

غادرت شذره بينما تبتسم رباب وهي تتطلع لعبوس رقية فتجرها من ملابسها وتشاكسها بالقول " هيا بنا ... ليس لدي اليوم بطوله انتظرك .."

ازداد عبوس رقية وهي تتهم اختها " لو كنتِ ستوصلين طويلة القامة ذات الذوق الشنيع بالملابس لكنتِ انتظرتِها اليوم بطوله ..؟"

ما زالت رباب تجرجر رقية وهي تقول لها بتأفف " أف من غيرتك .. انت تعرفين انها ترفض ان اوصلها لأي مكان .. هيا تحركي ... كفاك هذرا .. لقد بدأت افقد صبري .."

جاء صوت اسيا منفعلا بعض الشيء وهي تقول

" اذهبي رقية الان لكن لي كلام معك عندما تعودين .. تعاملك مع شذره اصبح لايطاق ولايليق بالنضوج المفترض منك .."

تمتمت رقية بأسف يخفي بعض الحنق الطفولي بينما تواصل رباب جرها ..

غادرت الفتاتان لتتساءل الام بعجب وهي تتنهد

" لماذا رقية تضطهد شذره لا اعلم ..؟ الفتاة نكاد لانشعر بوجودها معنا .."

ردت اسيا بغموض " لانها تغار منها ببساطة .."

اتسعت قليلا عينا ابتهال فتقترب لتجلس جوار ابنتها وتقول كمن لايفهم المعضلة

" الفتاة يتيمة مسكينة فما الذي يثير غيرة رقية منها ..؟! "

ابتسمت اسيا وهي ترد على امها " امور اتفه من ان تثير انتباهك امي .. طول قامة شذره مثلا الذي تتعمد رقية الاستهزاء منه بمناسبة او دون مناسبة .. شبهها الكبير بحبيبة وانت تعرفين كم هي معجبة بجمال حبيبة ودوما كانت تتمنى لو كانت تشبهها .. طول شعرها الذي يميل للشقرة بينما رقية شعرها داكن ولايستطيل بسهولة منذ صغرها ..."

تمتمت ابتهال بتفكير " حقا الشبه بين حبيبة وشذره عجيب .. تكاد تكون توأمتها لولا فارق السن بينهما ... "

لتضيف ابتهال بتحيز فطري ونظرة امومية غير واقعية " لكن كل الرقة لاتقل جمالا عنها .. بل اجمل منها بكثير ..! "

استغلت اسيا منحى الحوار لتعاود التطرق لرقية بشكل آخر فتقول بترو " امي .. رقية تحتاج منا لانتباه اكبر .. هي لم تعد فتاة صغيرة نتسامح مع افعالها .. انت تغرقينها دلالا وهذا يضرها ..."

انزعجت ابتهال فتقول ببعض الحنق



" لا احب ان تشكي بتصرفات صغرى اخواتك يا اسيا .. لقد تكلمنا مرارا حول رقية .. وقلتها لك وساقولها مرة اخرى ..انا ربيتها كما ربيتكن .. لكن ماذا اقول .. لا بد انها طويلة اللسان رباب من شكتها اليك من جديد .."

ردت اسيا بصبر " انها تخاف عليها امي .."

فترد ابتهال بغير رضا

" فلتخف على نفسها هي.."

ارتفع حاجبا اسيا وهي تتساءل

" ومِمَّ تشكو رباب ؟! انها فتاة بعشرة رجال .."

تنهدت ابتهال وبدت محبطة وهي تقول

" هل علمتِ ان استاذ شاب كان يدرسها في الجامعة تقدم لخطبتها وهي رفضته ؟!"

صمتت اسيا تخفي حيرتها وأساها بينما تتمتم الام بقلق وحيرة تماثل حيرة ابنتها الكبرى

" هذا ثاني عريس خلال هذا العام .."

همست اسيا في سرها " بل هو.. الثالث ..."

ثم فاجأتها الأم وهي تقول باستدراك

" انها تذكرني بك عندما كنت ترفضين العرسان الواحد تلو الآخر .. هل تذكرين ؟"

احساس غريب داهم اسيا وهي تتذكر تلك الفترة من حياتها ..

بدت وكأن دهورا مضت مذ كانت تعيش

اسبابها السرية القاتلة وهي ترفض العرسان ..

رسمت اسيا ابتسامة مطمئنة على فمها وهي

ترد على امها بالقول الممازح

" ربما رباب تنتظر رجلا كرضا .."

عندها قالت الام بملامح متشككة حائرة

" وربما لاتنتظر اي رجل يا اسيا .. وهذا ما

يقلقني .."

تنبهت اسيا لتعابير امها وتلك الجملة التي

قالتها وقد حملت معان مقلقة حقا ...

تساءلت اسيا " ماذا تقصدين يا اماه ؟"

ردت ابتهال وعيناها تغرقان في الحيرة

" لا اعلم بالضبط .. لكنه مجرد (حدس أم)..

فهذه الفتاة تجيد الكتمان .. واشعر انها ..

لاتريد الزواج بشكل مطلق .. "

قلب اسيا انعصر بقوة وخنقتها غصة قاتمة

لكنها تحاملت على نفسها لتقول بإيمان

حقيقي

" عندما تأتي قسمتها ستلجم الألسن وأولهم

لسانها .. اليس هذا كلامك يا اجمل

القوارير.."

تبسمت الام ببعض الاطمئنان وهي تقول

" مع كل صلاة فجر ادعو اللّه من قلبي ان

ينلجم لسانها قريبا .."

في مرآب بيت يونس العطار

تأففت رقية وهي تقول بضجر

" منذ ثلاث دقائق كاملة وانت تنتظرين محرك السيارة يدفأ حتى ننطلق بها .. الا ترين انك تبالغين ؟ يا الهي .. كم اكره قطعة الخردة هذه !"

تتطلع رباب عبر المرآة الامامية تعدل من حجابها الابيض المورد فتسحبه من مقدمة الرأس وتعيد ترتيبه بينما ترد على تضجر اختها بالقول

" لهذا لاتتعلمين القيادة اليس كذلك ؟ تشعرين بالخزي منها ولاترينها تليق بك .."

فترد رقية بمراوغة " بل لأني اصبت بفوبيا القيادة .. هل نسيتِ اني اصطدمت بحائط بيت العم سعدون مغرفة ؟! "

نظرت رباب بطارف عينها لاختها التي تجلس جوارها بينما ترد على حجتها ببساطة

" احتيالاتك هذه لن تقنعني ابدا .. ألم أرك بنفسي تقودين سيارة صديقتك تمارا؟ "

تأففت رقية مرة اخرى وهي تتمتم

" انت لاتطاقين ...! "

تنفجر رباب ضاحكة بمرح وهي تقول من بين ضحكاتها " لانك تعرفين اني اعرفك "

تزفر رقية بقوة بينما عينا رباب الضاحكتين تلمحان خيالا ضخما في المرآة الامامية ...!

عيناها في عينيه وهو يقف خلف باب المرآب من الخارج يتطلع لوجهها كما تتطلع لوجهه..

بدى جامد الملامح وكأنه .. صاعقة أحرقته!

لا .. ليس شبحا .. بل رأى وجهها الضاحك ..

احمر وجهها وهي تتذكر انها ليست المرة الاولى التي ينظر اليها بهذه الطريقة عندما يراها تضحك ..

(ضحتك مشعة بالألوان يا رباب وكم أعشق الألوان ..)

اغمضت عينيها و الجملة تخترق ذاكرتها كما اخترقت مسامعها قبل قرابة العامين لتصل من فورها لقلبها وتكون شعلة بداية حقيقية شبه صريحة بينهما ..

وقبل هذه الشعلة كان يجيد التحضير للاشتعال .. يجيد توريط قلبها لتكون نبضاته المسروقة وقودا لايخطئ الانسكاب فوق الحطب المشتعل بنيران الهوى ...

انها تتحمل الذنب .. اجل ..تتحمل الذنب ...

صوت قرع حاد على الباب الحديدي أجفلها واخرجها من لحظة الماضي فتفتح عينيها لتطلع لوجهه مرة اخرى فتراه خشن التعابير بينما تفتح اختها رقية باب السيارة لتترجل منها فيلفح رباب الهواء البارد ويوقظها تماما..

ترجلت رباب هي الاخرى بينما ترى اختها تتقدم للباب تفتحه لعبد الرحمن وهي تقول ببشاشة " مرحبا عبد الرحمن .."

رد عبد الرحمن وعيناه تعبران من رقية لرباب

" مرحبا رقية .."

ثم يركز نظره الحارق على رباب وهو يقول

دون ان يلقي عليها التحية

" جئت لاجل اسيا .. هلا اخبرتها احداكما

رجاء اني جاهز وبانتظارها "

لفّت رباب ذراعيها حول جسدها والبرد يخترق

اكثر من ملابسها الصوفية .. انه يخترق قلبها

فتقول بهدوء ظاهري " سأذهب انا .."

واوشكت ان تتحرك عندما سبقتها رقية

الخطوات لتعود ادراجها فعلا ناحية باب البيت

الداخلي وهي تقول بابتسامة عريضة

" لا انا سأذهب .. تذكرت اني نسيت امرا يجب

ان احضره معي .."

كزّت رباب على اسنانها وهي تتوعد رقية في

سرها بينما تسمع صوت عبد الرحمن وهو

يسألها بنبرة غريبة " هل تذهبين لعملك ؟"

ردت وهي تتحاشى النظر مباشرة لعينيه

" نعم ..."

ليفاجئها بقول جعلها تحدق مباشرة في تلك

العينين " الا ترين اللون الكرزي لملابسك

ملفت اكثر مما يناسب اجواء العمل ؟"

للحظات طالت بينهما كانت رباب ترتعد

داخليا وتجاهد حتى لاتظهر ارتعادها امامه ..

يا الهي .. متى يتوقف عما يفعله بها ؟!

الارتعاد ولّد الغضب فتقول رباب بعبوس بارد

" لو كنت اخي حقا لرددت عليك بـ... (امر لايخصك واهتم بشؤونك) "

يبتسم عبد الرحمن بخيلاء ازعجتها بينما يرد بسلاسة اكثر ازعاجا " لكني لست أخاك فلا تستطيعين قولها لي.."

كان يتسلى على حسابها !

في السابق وقبل ان ترفض طلبه للزواج كان مبتغاه مختلف وهو يحاصرها بطريقته هذه يذيب الحواجز بينهما .. حاجزا حاجزا ..

لكن بعدما حصل وصدمتها له اخذ وقته في التباعد الشرس والتجاهل القاسي ثم ...

عاد مرة اخرى ... عاد ليقترب برعونة واستهتار من قلبها غير آبه بأي شيء ...

رفع حاجبيه قليلا ليفاجئها هذه المرة وهو يقترب بقدميه منها .. وكأنه يعكس افكارها حول ما يفعله بالاونة الاخيرة ..

عيناه تتربصان بخلجاتها دون ان تفلتا التمعن بتفاصيلها الخارجية التي لايخفي انجذابه لها فيسألها بنبرة اقلقتها اكثر من اقترابه

" هل ما زلت تحبين ورق العنب رباب ؟"

شتمت في سرها لان لعابها سال تلقائيا في جوف فمها لمجرد ذكره لـ(ورق العنب) !

اللئيم ... وبابتسامته اللئيمة هذه ايقنت انه يعلم ما يدور بخلدها الان .. على الاقل يعلم بتأثير ورق العنب ...

قال ببراءة مفتعلة وهو يقترب خطوة اخرى

" كنت سأرسل لك طبقا .. خلود اعدته منذ البارحة لغداء اليوم .."

خطوة تراجعتها للخلف لترفع رأسها بعنفوان قائلة " شكرا لك .. لا داعي .."

نظراته وابتسامته اللئيمة تلك تتلاعب بأوتار اعصابها دون ان تعتق اوتار قلبها وبدى هو مستمتعا للغاية بما يحصل فيرد عليها بشقاوة مغيظة " وانا لن افعل .. لن ارسل لك ولا حتى اصبعا واحدا .. بل سأجلس مع صحني الكبير امام باب بيتي فيمكنك التفرج والتشمم و .. الحسرة .. وحتى ألوان ضحكاتك لن تؤثر بي او تدفعني لـ... اضعف .."

دون اي مواربة كان يغازلها ..

دون ان ألتباس كان يناغشها ..

دون اي رحمة كان يعاود سحبها مرة اخرى لمنطقة اقسمت منذ مراهقتها انها لن تدخلها ابدا ...

الا يكفي انها اخطأت سابقا وخطت بـ(حمق) عتبة اسوارها !!

ماذا يريد منها الآن ؟؟!

ماذا تقول له اكثر مما قالته في السابق لتجعله يبتعد وينساها ...

عندما رفضت طلبه للزواج عن طريق اسيا واجهها عبد الرحمن بجنون غضبه وطالبها بمعرفة الاسباب ..

فما كان منها الا ان تلبسها قناع اللامبالاة والهدوء لتحطم قلبها قبل ان تحطم كبرياءه فترد عليه ببرود انها اعطت ردها لاسيا فلا داعي ليحرج نفسه ويحرجها اكثر !

لاتزال تذكر كيف انصعق اولا ثم زحف ببطء ذاك الجليد الصلد القاسي ليكتسح نظراته ..

اجل كانت تدرك انها آلمته بشدة ودون رحمة .. لكنه لايعلم بألمها المضاعف !

عادت رباب لواقعها وهي تقف بمواجهة حاضرة اشبه بتلك المواجهة الماضية قبل اشهر طويلة حيث تقف بقناع الهدوء الذي يقتات من اعصابها ...

كل ما اختلف في المواجهتين ملامحه هو ..

فلاغضب ولا جليد الآن ...

فقط استفزاز جارح احيانا لايخلو من نيران عاطفته التي ما زالت متأججة نحوها رغم كل شيء ...

يا الهي ماذا تفعل ؟ ماذا تفعل ؟!

ابتلعت رباب ريقها وهي تقول بنبرة خاصة

" عبد الرحمن .. اتفقنا ان ..."



قاطعها والابتسامة على فمه تتغير فيقول

" ليس بيننا اتفاق يا ... قرفة ! انا اتكلم كما أشاء ولو لديك الشجاعة والجرأة اذهبي واشكيني لمن تشائين ..."

كان يتحداها .. يستفزها .. يثير غضبها ..

ولاتعلم رباب كيف توقفه ؟!

كيف ستنهي هذا الاشتعال بينهما ..؟؟

اشتعال تتحمل ذنبه ...

لم ينقذها الا خروج اسيا مع الجلبة التي تثيرها رقية فعفويا تراجعت للخلف بينما عبد الرحمن ثابت مكانه يضع يده اليمنى في جيب بنطاله ..

خلال لحظات غادرت اسيا مع عبد الرحمن دون ان تبدي اي اشارة لرباب ..

بصمت وهدوء تحركت رباب لتفتح باب المرآب على مصراعيه ثم عادت لتجلس جوار رقية التي سبقتها في الجلوس في السيارة انطلقت رباب بالسيارة للخلف لتغادر البيت دون ان تنظر ناحية السيارة البيضاء الحديثة التي يقتنيها عبد الرحمن ..

خرجت بسيارتها للشارع العام عندما صدمتها رقية بالقول " انت غبية يا رباب .."

شعّت عينا رباب بالغضب فتعنف اختها بالقول

" تأدبي رقية ... انا اكبرك بثلاثة اعوام ..

لست احدى صديقاتك التافهات وانتن تتبادلن الشتائم للمزاح ! "

ردت عليها رقية بطريقة لاذعة

" انت لست عجوزا ! فكفي عن التصرف باخلاقيات وافكار عفا عليها الزمن .."

لاتعلم رباب لم ارتفع صوتها بعنف مبالغ فيه وهي تقول لرقية " انت بلا ادنى مبادئ .."

كانت تعلم انها تبالغ ..

كانت تعلم ان رقية لاتستحق منها هذا الرد..

لكنها كانت .. كانت غاضبة ..

غاضبة من عبد الرحمن .. غاضبة من نفسها ..

غاضبة من ... من ...

جاء صوت رقية الثابت الواثق ليقطع عليها شحنات الغضب المتدفقة المكتومة قائلة

" أ لاني اواجهك بالحقيقة ..؟! "

لهثت رباب رغما عنها وهي تهمس بحدة

" اي حقيقة ..؟! "

فترد رقية بما يشبه الاشفاق والتآزر

" انت تعرفين كما اعرفها انا .."

حركت رباب رأسها للحظات فتنظر لوجه اختها فتراها جادة تماما وملامحها توحي انها تعرف اكثر بكثير مما تظن ..

لكن ... ما الذي تعلمه بالضبط ؟!

اضافت رقية اخيرا وبدت غريبة الاطوار

" هل تعلمين الفرق بيني وبينك يا رباب ؟
انك تجعلين الماضي يجرك للتعاسة
والحرمان بينما انا اواجهه واجعله قوتي
الدافعة لاحكم سيطرتي على سعادتي داخل
قبضتي هذه ..."

قالت اخر كلمات وهي ترفع قبضتها
المضمومة بتصميم ...

للحظة تاهت رباب فيما تقصده رقية فتتساءل
وهي تحاول استعادة تركيزها

" انا لاافهم ما تقصدينه ..؟! "

تنهدت رقية ثم تحرك يدها لتشير لمكان
يبعد بمسافة قصيرة قائلة بغموضها الغريب

" انزليني هنا .. سأركب هذه الحافلة توصلني
مباشرة لبوابة الجامعة .. لاداعي لتدخلي في
الزحام .."

بصمت وصلت رباب للنقطة المعنية وحالما
ركنت السيارة ترجلت رقية وقبل ان تغلق
الباب انحنت لتقول لاختها بمعان مبطنة وهي
تشدد على اولى الكلمات " الاستاذ عبد
الرحمن الصائغ ... سيأتي يوم قريب ويعلن
خطبته على احداهن .. طالبة من طالباته
المفتونات الطامعات باسم عائلته وتراثهم من
الذهب الخالص ... وعندها ... لااعلم ما
سأفعله بك ..! "

اخذ قلب رباب يخفق بعنف وارتعاب فتبتسم رقية ابتسامة جانبية وهي تقول بدهاء

" اجل انا اعلم .. لاتظني سرك مع اسيا فقط.."

جحظت عينا رباب وهي تحدق بملامح اختها الشقية وضربات قلبها تصل عنان السماء ..

همست رقية اخيرا وكأنها تلقي بكل ما في جعبتها " عبد الرحمن (لقطة) يا رباب .. (لقطة) لن تنتظر اكثر من هذا ليتم ابتلاعها .."

هدرت رباب بانفعال وهي تشعر انها محاصرة بما يفوق ادراك رقية ودهائها

" لماذا لاتبتلعينها انت وتريحينا ؟ "

هزت رقية رأسها يمينا وشمالا لتعتدل بجذعها وتتمتم بغيظ واحباط قبل ان تغلق الباب

" ألم أقل لك انك غبية ؟ "

حالما ابتعدت رباب بالسيارة عن ناظري رقية كانت رقية تخرج هاتفها الخلوي لتتصل وخلال لحظات جاءها صوت حارث الأجش وهو يقول بعذوبة " قادم في الطريق ..."

في سيارة اخرى وطريق آخر ..

لايفارق خياله وجهها متورد من البرد بلون الورود في حجابها لتنعكس على بلوزتها الكرزية فتبدو منعشة جدا ..

بل.. جميلة جدا .. قلبه الغبي يراها جميلة جدا .. اجمل مما يريد ان يشعرها به ...

وتلك الشامة اسفل فمها اصبحت تشتت تركيزه .. اللعنة .. لايفترض ان ينظر اليها هكذا .. لايفترض ان يشعرها هكذا ..

" عبد الرحمن .."

شعر بوجهه يتوهج احراجا بينما يعيده نداء اسيا للواقع ... رد وهو يدعي التركيز في القيادة حتى لايفضح نفسه اكثر من هذا

" نعم اسيا ..."

بدى صوت اسيا مترددا قليلا وهي تقول

" لقد جمعنا وعد ان لانفتح الموضوع مرة اخرى لكن .. اريد ان افتحه معك فهل تسمح لي .. ؟ "

اصابعه تقلصت حول المقود بينما يسأل بتشنج " ما الذي تريدين قوله يا اسيا ؟"

ردت اسيا بتلطف " هل تسمح لي ان افاتح رباب مرة اخرى .. ربما غيرت رأيها .. ربما راجعت..."

دون ارادته قاطعها بحزم والنار تشب فيه قائلا " لا اسيا ... انا نسيت الموضوع ورباب ليست من نصيبي .."

ثم التفت برأسه يؤكد كلامه بنوع من القسوة الباردة

" انا غضضت النظر عن الارتباط بها ..."



ملامح اسيا باتت لاتعبر عن شيء فتسأله بثبات
هذه المرة وكأنها اخر المطاف

" هل انت واثق ...؟ "

صدى ضحكات رباب يرن في اذنيه لكن
سرعان ما تلاشت الضحكات المبهجات
المتملكات للقلب لتدحرها بضع كلمات ..
بضع كلمات لااكثر ترن في اذنيه من شهور

(عبد الرحمن كأخ لي .. ليس لدي اي ميل
نحوه .. لااريد الزواج به .. انه ليس الرجل
المناسب لي ...)

يكز عبد الرحمن على اسنانه قبل ان يرد
على اسيا اخيرا بكلمة لا رجعة فيها

" نعم ... واثق ..."

على ناصية الشارع ..

عيناه لاتفارقان من يهبط من الحافلة البيضاء
الكبيرة..

هذه ثالث حافلة نقل عام تصل لهذا الموقف..

وما زالت (هي) لم تظهر ...

اخذ يبحث عن وجهها بين الوجوه التي
اجتمعت وبدأت تتفرق لتتوقف انفاسه تماما
عندما ... رآها ...

اخيرا ... وصلت ...

السيجارة وقعت من بين اصابعه لتسقط على
حجره فشتم مهند وهو ينفض بيده السيجارة

بعيدا عن ملابسه ثم يعود بعينيه المتلهفتين
حاملا وجيب القلب الذي ينهكه منذ ايام
ليمعن النظر ... ملء عينيه .. فيها ...

منذ الصباح وجد نفسه كالمسير في طريق
محتوم صارعه لايام قبل ان يفقد ارادته على
الاختيار فيتخذ هذا الطريق بدلا من طريق
عمله ..

يرابط هنا داخل سيارته يقف على جانب
الطريق قريبا من موقف حافلات النقل العام
الذي تنزل فيه مع رفيقتها المحجبة
وصحبتهما من الاطفال الثلاث ...

همس بصوت محطم وهو يتشرب وجودها
وهيئتها وكل ما فيها " ربااااه ... لايعقل هذا
الشبه ! لايعقل .. انها ليست هي ..!! "

لا .. انها (حبيبة) .. نضرة .. صغيرة .. شابة
يانعة.. يبدو جليا انها لم يمسها رجل ..

ولم يملكها رجل ...

تتهادى في مشيتها وتبدو ساهمة بينما رفيقتها
خلود تثرثر والاطفال من حولهما ...

منذ قرابة الاسبوع وهو يحارب هوى نفسه ..

منذ ان تعثرت وسقطت شذره لتتلقفها ذراعه
وهو في حرب شعواء .. لقد جن !

حقا بات مجنونا ...



لم يعد يطيق النظر لجوري ولا سماع صوتها الرزين البارد .. تعذبه ببرودها هذا ..

تعذبه كل صباح بعينيها السوداوين كحجرين لامعين بغموض حاد قاتل يعريه ...

يعريه حتى بات لم يعد يطيق حتى النظر لنفسه في المرآة ..

يريد ان يضيع .. ان يتوه .. ان يفقد نفسه ..

اللعنة .. ما الذي يفعله بنفسه ؟!

ما الذي يفعله هنا من الاصل ؟!!

يجب ان يغادر .. يجب ان يبتعد قبل ان يفقد الفتات المتبقي من تماسكه وسيطرة عقله..

شغّل محرك سيارته وعيناه تفيضان تصميما حراقا كحرقة قلبه التي عادت تتأجج وكأن لم تمر اكثر من ثماني سنوات على خسارته...

يده التي تتحضر لادارة المقود ترتعش وهو يحدق فيها تكمل طريقها بضعة خطوات حتى أتى الباص المدرسي الاصفر الصغير فتسمح بابتسامة فتّانة لرفيقتها ان تصعد قبلها مع الاطفال وحالما جاء دورها رفعت قدمها لاول درجة ولذهوله تلكأت ثم نكّست رأسها قليلا فتدلى على كتفها شعرها الكستنائي المرفوع للاعلى برباط كذيل حصان بسيط ثم ... التفتت ..التفتت برأسها فقط للجانب ...

ومن فوق كتفها الايسر كانت تحدق فيه !



بضعة ايام مرت ثم .. قرابة نهاية الاسبوع ...

يخطو بهيبته داخل السوق ويلقي التحايا او يرد عليها كما يفعل كل يوم ..

" سيدي رضا ..."

الصوت نفسه بنفس استغاثة الملهوف التي لاتخطئ عمق رجولته... لم يناديه احد يوما بـ (سيدي) قبل هذا الصوت .. الكل يناديه بـ(ابي جعفر) او (الحاج رضا) ...

التفت رضا وهو يتوقع تلاشيها كالعادة ليتفاجأ بها تقف مكانها وجسدها المكلل بالسواد يختض ..

انها المرأة نفسها .. لايظهر منها الا عيناها !

اذن حدسه لم يخطئ الربط بين النداء الخفي المتوسل النبرات و بين المرأة التي يراها تنظر اليه تلك النظرة ...

لم تكن اوهاما انها صاحبة نفس الصوت الذي يناديه كل يوم وسط الزحام وما ان يلتفت حتى يضيع النداء وسط اصوات المارة ..

سأل رضا بصبر وهو يلملم عباءته حوله

" هل تناديني اختاه ؟"

تهز رأسها وهي تقول بنفس الارتجاف

" نعم ... سيدي .."

يطرق برأسه فيسأل بهدوء " ليست المرة الاولى التي تناديني في السوق اليس كذلك ؟"

ليسمع صوتها المضطرب يرد " اعذرني سيدي
رضا .. كل مرة اتردد و.. اخاف .. لكني
لااملك الا ان آتي كل صباح انتظر وصولك
وانا عاقدة العزم لاكلمك فينعقد لساني
وانت تمر بي مبتعدا ليدفعني يأسي اللحاق
بك داخل السوق .. اناديك وسط الزحام وما
ان اناديك حتى اعود واتخاذل متراجعة
مكسورة بضعف الحيلة.."

بعض المارة يلقون نظرات فضولية يتنبه لها
رضا من طرف عينه فيحثها قائلا

" أؤمريني اختاه .."

فتقول بحشرجة باكية تفيض جزعا " لايأمر
عليك عدو يا افضل الناس .. اريد ان ..
اكلمك على انفراد سيدي .. هلا سمحت لي ..
ارجوك الموضوع هام ولم يعد يحتمل الصبر
او الانتظار .."

بعد دقائق كان رضا داخل المحل في مكتبه
الكبير بينما يشير لها ناحية الاريكة
لتجلس قائلا " تفضلي اجلسي اختاه .."

لم ينظر ناحيتها بينما يلمح طيفها الاسود
يستقر قبالته على الاريكة ..

رن الهاتف الارضي فمد يده تلقائيا فيبتسم
عفويا وهو يلتف جانبا ويرد على صوت اسيا

" لقد وصلت بالسلامة يا ام جعفر .. "

ثم أخفض صوته وهو يناغشها بالقول الخافت

" حفظك الله لي يا اميرة كل البنات .."

لم يكن يدرك ان من تجلس قبالته حتى وان كانت لاتسمع كلامه الا انها كانت تتأثر بنبرة صوته التي تدفقت بشعور خاص جدا وهو يكلم زوجته ..

اجل كانت تعرف انها زوجته السيدة آسيا العطار .. لقد رأتها مرة تحضر للسوق بصحبة ولديها لتزور زوجها الصائغ في محله .. كما رأته هو كيف ينظر اليها وكأن دنياه فيها ..

قد تكون جاهلة وليست من مقام الفهم الواسع لكن لها قلب يشعر ويدرك ويقرأ ما لايحتاج للحروف ...

فلا تستطيع منع قلبها ان تتعلق به ..

فتخجل وتتجاهل هذا التعلق الخفي لتركز على مكمن بلائها وتجد منفذا تنقذ به نفسها..

أنهى رضا مكالمته سريعا ليعود مطرقا برأسه وهو يقول بلطيف النبرات " اسمعك اختاه .. "

ثم منحها الوقت لتبدأ الكلام وصبره أتى بثماره وهي تقول بتماسك

" انا اسمي حسناء.. ابنة رجل فقير كان يعمل في السوق كعتّال في سوق الاقمشة القريب .. انت لاتعرفه لكنه كان يعرفك جيدا ولم أره يصف انسانا كما يصفك.."

ما زال رضا على صبره وهو يقول بنفس الاطراق

" اؤمريني وانا بعون اللّه عند حسن الظن .. هل لك او لوالدك حاجة عندي؟"

ردت وهي تتأرجح بين التماسك والعودة للارتجاف " نعم لي ..ولوالدي ايضا.. حاجة .."

عندها رفع رضا رأسه قائلا بنخوة تلقائية

" قولي حاجتكما وبأمر اللّه مقضية .."

رمشت عيناها فبدت وكأنها ستبكي قبل ان تهمس بصوت متحشرج

" والدي توفي ... قبل اشهر .."

ردد رضا والحيرة تعاوده

" رحمه اللّه وغفر له واسكنه فسيح جناته .. لكني لم افهم .. لقد قلتِ ان الحاجة لك ولوالدك فهلا اوضحتِ ... "

بدأت تتكلم بتعثر " انا ترملت .. قبل وفاة والدي ... تعرض زوجي لحادث اودى بحياته وهو يقود سيارة النقل التي يعمل عليها .. انا يتيمة الام .. والدتي متوفية منذ طفولتي وليس لي احد .. لا اخوة ولا اخوات .. ولااقارب يهتمون لشأني .. انا اقول .. كل هذا .. فقط لتتوضح امامك ... الصورة ..."

شعور غريب يتسلل لرضا وهو يحدق في المرأة..

حدس غير عادي يجعله يشعر بالقادم دون ان يحدده بتفاصيله ...

لم يجد ما يرد به ولا هي بدت كمن ينتظر ردا ..

لتقدم على القول بتوسل يقطع القلب

" سيدي رضا .. مطلبي ومطلب والدي في قبره ان .... تسترني ..."

ما زال يكذب حدسه فيعرض المساعدة بالقول " هل تحتاجين لسكن او عمل ؟"

هزت رأسها وهي تقول " لا .. انا اسكن في شقة والدي القديمة تسترني جدرانها الاربعة.. واعمل في السوق الشعبي بحينا .. افترش الارض وابيع الخضراوات .. راضية بنعمة ربي .."

عندها سأل رضا بشكل مباشر

" اذن ماذا تحتاجين ...؟"

لم ير في حياته انسانا يختض بتأثر هكذا ..

جسدها يكاد ينهار من شدة الاضطراب والاختضاض قبل ان تهمس بنفس التوسل

" احـ... احتاج .. رجل احتمي خلفه .. احتمي خلف.. اسمه .. رجل ازوجه ... نفسي ... بعينين مغمضتين اطمئنانا ..."

يدها ترتعش بشدة وهي ترخي طرفي العباءة فينكشف شيئا فشيئا امام ناظريه المذهولين المخفي من وجهها ..

وجه آية من آيات الحسن .. !

تميزه وشم على الذقن مرسوم من ثلاث نقاط زرقاء متراصة عموديا ، انه وشم التجمل حيث

كانت النسوة يضعنه في عهد سابق فيرسمْنَه على عدة اماكن من الوجه والجسد ..

وقد انحسرت هذه العادة التجملية لتتركز غالبا في بيئات ريفية او شبه ريفية واخرى في احياء شعبية في قلب العاصمة ...

عيناه جامدتان على النقط الزرقاء التي رصعت الذقن الابيض وصدمة متأخرة- متقدمة في الآن ذاته بما بات يعرف يقينا أنه .... قادم ... !

بينما أتى صوتها يكاد يتلاشى وهي تهمس باضطراب شديد " احتاج أأ..أسمك .. انت بالذات ... سيدي ... رضا .."

وعندما أتمت نطق أسمه بذاك الضعف المؤثر.. أرخت العباءة اكثر لتسقط عن رأسها مع الوشاح المجعد الاسود الذي ترتديه تحت العباءة وتكشف هذه المرة عن شعرها البني اللامع والمجدول في ضفيرتين طويلتين منسابتين بأنوثة طبيعية على كتفيها ..

هبّ رضا على قدميه وهو يغض بصره ويطرق بوجهه عابسا بشدة ليقول بحزم وصرامة

" اعيدي العباءة حيث كانت.. الآن في الحال.. ان كنت ترتدينها احتشاما حقيقيا وسترة كما ظننتك أول الامر .."

وقفت هي الاخرى على قدميها باضطراب وشعر بها رضا تعيد عباءتها فوق رأسها ثم تستر حتى وجهها فلا تظهر الا عيناها الكحيلتان بكحل عربي لتهمس له بارتجاف مبررة " مؤكد

سيدي .. ظنك في محله اقسم لك.. لا رجل غير زوجي رآني.. لكن يحق لمن..أأ.. أعرض عليه.. الزواج مني ان .. أن .. يرا.. يراني .."

ما زال لاينظر نحوها .. اصابع يديه متقلصة وهو يردد بنبرة قاطعة حازمة

" اخطأتِ العرض والمطلب .."

عندها صدمته بالقول الصريح الواهن

" انا اعلم انك متزوج بالسيدة اسيا .. واعلم انك ... تحبها ... ولك منها ولدان .. روحي فداء لاسميهما .. جعفر وكاظم ..."

رفع رضا عينيه لها يكاد لايصدق ما تقوله بينما تتقدم المرأة نصف خطوة وهي تقول بترج مذلل مهين لآدميتها

" اتوسل اليك .. اقبل يديك واتشبث بعباءة كرمك وجودك .. انا لااريد منك شيئا سيدي.. فقط ان تمنحني اسمك الغالي ... درع لي .. احتمي به من الرعاع القذرين ولن ازعجك بأي شيء اخر او ازعج سيدتي اسيا .."

ثم تفيض بالتوسل حد التوجع والانكسار الكامل وهي تضيف " استرني سترك اللّه سيدي ابا جعفر .. اني استجير بك فهلا حميتني ...؟! "

حدق فيها رضا ولم ينطق بكلمة بينما يلمح آثار الدموع التي بللت طرفي العباءة...

الفصل الخامس

حدق فيها رضا ولم ينطق بكلمة بينما يلمح آثار الدموع التي بللت طرفي العباءة...

سألها اخيرا " اين تسكنين ؟"

ردت من بين شهقات بكائها

" في ... حي الشيخ .."

عقد رضا حاجبيه وهو يقول بتفكر

" انه الاسوأ في العاصمة .. حيث لايتدخل في شؤونه حتى رجال الشرطة .. "

رفعت طرفي العباءة لتخفي وجهها بالكامل وبدى واضحا انها تمسح دموعها من تحت القماش الاسود ثم ترد بارتعاش البكاء والقهر

" بل باتوا لايدخلونها من الاصل سيدي .. يهابون الرعاع واللصوص اكثر منا نحن الضعفاء ... ! حسبنا اللّه ونعم الوكيل .. منذ ان حكم بالسجن على فتوتنا تحسين قبل خمس سنوات والحال من سيء الى اسوأ .. ظلمه وجبروته كان افضل بكثير مما نعانيه الآن بدون وجوده والرعاع يأكلوننا أكلا .."

استمع لكلامها قبل ان يسألها

" كم سنة حكم على فتوتكم ؟"

ردت وقد استعادت سيطرتها على ارتعاشها



" خمسة عشرة عاما .."

عاود رضا الجلوس وهو يعيد عباءته الرجولية البنية فوق كتفيه ويقول بعينين مطرقتين

" سأتدبر لك مكانا اخر مناسب للسكن في حي اخر افضل .. ما رأيك بالحي الصناعي ؟ اخي يعمل هناك وسنجد لك شقة جيدة ولاتفكري بالمال انا أسده عنك .."

جرح شقّ نبرات صوتها وهي ترد عليه بقهر اكثر وجعا

" جازاك اللّه خيرا سيدي رضا وجازى أخاك لكنني ... لست ممن يقبلون بالصدقات .. ابي وزوجي علماني هذا .. علماني ما دمت بصحتي واكسب لقمتي بعرق جبيني وقد سترني اللّه تحت سقف بيت لايتعد الأربعة جدران لكنه آواني منذ ولادتي .. انا .. انا ... انا ..."

تلكأت الكلمات وبدت كأنها توشك على البكاء مرة اخرى ليرفع رضا وجهه اليها فيراها تطرق بسكون وكأنها انهكت...

انها ضائعة تائهة راضية بالقليل والقليل يبخل بنفسه عليها ! ثم اضافت فجأة وهي ترفع ما يظهر من وجهها اليه

" انا لااريد ان اغادر حينا سيدي رضا .. حتى لو اصبح اسوأ من هذا..! نحن اناس تعلمنا ان السيء الذي نعرفه افضل من الجيد الذي لانعرفه .. وانا ولدت وكبرت ..ثم تزوجت وترملت وتيتمت كله في هذا الحي .. انه

مكاني الذي لاعرف سواه واتوه بعيدا عنه ...
وكأنك تخرج السمكة من نهرها لتستنشق
الهواء ! كما ان ابي اوصاني بتشدد ان لاغادره
الا الى بيت زوجي ... او ... القبر ..."

ارتفع حاجبا رضا وبدت عيناه متسعتين اكثر
فسارعت لتوضح بخزي وخجل وهي تواري
تأثرها الهائم به

" انا لا... اقصد .. طبعا .. بيتك سيدي ..
حاشاني ان اتجرأ حتى في لمحة خيال ... ابي
كان يأمل ان اتزوج برجل يصونني ويحميني ..
رجل مثل زوجي رحمه الله .. رجل منا ومن
ثوبنا ... لكن لم يعد لي أمل بالزواج وقد
ادركت اني مجرد ارملة اقصى ما يبتغيه
الرجال منها ان تقابلهم في الحرام ..."

ثم عادت لنقطة البداية وهي تقول بأمل بل
بايمان فيه وفي مروءته " لااريد منك الا ان
تعقد قرانك علي امام الناس .. ومرة واحدة
بالشهر تأتي.. لزيارتي.. امامهم.. حتى يعلموا
ويتأكدوا اني في حماك .. "

رفعت كفها الايمن فوق رأسها وهي تقول
باخلاص ساذج " احملك هنا فوق رأسي ضيفا
عزيزا اقوم بواجبك كيفما ترتضي لساعة
من نهار.. ضيفا او ... زوجا ... كما تأمرني
سأنفذ.. وترحل بالف سلامة لبيتك واهل
بيتك .. "

سكنت ملامح رضا وهو ينظر اليها بتفكر في
معضلتها يحاول ايجاد طريقة لاقناعها بحل

وقد تملكته الشفقة عليها وغارت مروءته
على ضعف حالها واستنجادها به ..

هتفت حسناء بجزع وهي تقترب حتى ارتطم
جسدها بحافة مكتبه

" نخوتك يا ابا الجود والكرم .. حلّفتك
باللّه لا تردني .. "

لتضيف بمزيد من الجزع والسذاجة

" انا أزوجك نفسي.. أرضَ الزواج بي يا سيدي
ابا جعفر ..."

أطرق رضا مسبلا اهدابه يتلاعب بخاتمه
يحاول ان يهدئ اعصابه ويكبت انفعاله
اللحظي حتى لايظلمها بردة فعل غاضبة
تأججت بداخله لجرأتها الساذجة هذه ...

واخيرا قال ببطء وتركيز وباكثر ما يستطيع
من رفق ولين

" اجلسي اختاه .. سأساعدك .. لكن انصتي
لي جيدا.."

في بيت الصائغ ..

اغلقت اسيا الهاتف مبتسمة بجذل بعد ان
اطمأنت على وصول رضا لمحله في سوق
الذهب..

انه من ضمن طقوسهما اليومية.. يجب ان
تطمئن عليه وكأنه مرسال حمامة عشق بينها
وبينه ..

سرحت قليلا وابتسامتها تتراجع بينما تفكر به وبشروده في الاونة الاخيرة ..

هناك ما يشغله ويثير قلقه ..

هل يا ترى له علاقة بحديثهما قبل ايام وطلبه ان يسعيا لانجاب طفل ثالث ؟

هل يشعر رضا انه كبر حقا ؟

توجع قلبها لاجله ..

تشعر انها بطريقة ما السبب في تأخر حصوله على الاطفال بسن اصغر .. لكنها ارادة اللّه ان يتعثر لقاء روحيهما لسنوات وسنوات ...

" سنرى من سيضحك على من يا شقي .. "

تناهى لمسامع اسيا صوت رباب الضاحك التي تلاعب الصغير كاظم .. تطلعت اسيا لاختها بابتسامة رائقة وهي تراها بشعرها المشعث المجدول في ضفيرة تتدحرج معه على السجاد ويضحكان من لبة القلب وكأنهما طفلان من نفس العمر ..

كم تحب هذا الجانب الحيوي منها ..

عاودتها كلمات امها عن رباب فاخذت اسيا نفسا قبل ان تتقدم لتبدأ محاولة جديدة في استكشاف اختها الغامضة ..

قالت اسيا وهي تجلس على الاريكة باسترخاء تتابع بنظراتها ذاك التدحرج المرح



" متى ستذهبين لعملك ايتها الطفلة الكبيرة ؟ الساعة قاربت التاسعة والنصف وانت ما زلت هنا .."

تتمدد رباب على ظهرها وهي تنهت ضحكا وكاظم يتسلق فوقها ليربض فوق بطنها بينما ترد رباب بشقاوة محببة " قررت ان اخذ اجازة مرح لبضع ساعات مع هذا الشقي اللذيذ "

ترفع رأسها قليلا وتحشر وجهها في رقبة كاظم تقبله وتدغدغه في نفس الوقت ...

همست اسيا بهدوء " انت تحبين الاطفال .."

تواصل رباب ما تفعله وهي ترد بنفس البهجة

" ومن لايحب قطع السكاكر هذه .."

عندها ألقت اسيا بجملة ذات معان جدية محددة رغم نبرتها المتسلية " لااطيق صبرا لاتذوق طعم سكاكرك الخاصة .."

تجمد وجه رباب المغمور في رقبة كاظم ثم ابتعدت عنه ببطء ترخي اهدابه وهي تقول بغموض " يفعل اللّه ما يشاء .."

لم تجد اسيا بدا من المواجهة لتقول بصبر

" امي اخبرتني عن الاستاذ الجامعي .."

اتسعت عينا اسيا اجفالا من ردة فعل رباب التي هبت جالسة وكاظم في حجرها شفتاها ترتعشان وبشرة وجهها شاحبة لتقول بما يشبه الهلع " هل اخبرتِ رضا عن هذا ؟"

ارتفع حاجبا اسيا الداكنين وهي تتساءل بعجب ودهشة بالغة " ما بك رباب ؟! لماذا شحبت بشرتك بهذه الطريقة ؟ وماذا يعني ان اخبرت رضا عن شاب تقدم لخطبتك ؟"

تسلل كاظم من حجر رباب ليسير ناحية ألعابه على الارض بينما رباب ساهية عنه ترد في ارتباك شديد " لااريد ان ينتشر ... الامر.. لااريد ان .. يعرف احد .."

ضيقت اسيا عينيها بتركيز على وجه اختها وقد دحر التورد شحوب وجهها لتقول لها

" هل تقصدين لاتريدين لعبد الرحمن ان يصله الخبر .. ان يعرف ان هناك غيره يتقدم لخطبتك ؟ هل تخشين ان يجن جنونه ويفتعل لك المشاكل ؟ "

اشاحت رباب بنظراتها عن تدقيق اختها الكبرى لتقول بمزيد من الارتباك

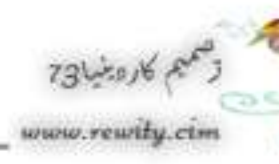
" اسيا لقد اتفقنا اننا .. لن نتكلم في عبد الرحمن .."

تمتمت اسيا بمعنى لايخطئ

" لااعلم لِمَ كل الطرق تؤدي اليه ..؟!! "

وقفت رباب على قدميها تعيد ترتيب شعرها وهي تقول باضطراب واضح " اظنك تفكرين كثيرا والموضوع بات منتهيا .."

لم تعطها اسيا الفرصة لتتهرب لتصر بالقول



" اتركي عبد الرحمن الآن .. دعينا نعود للاستاذ .."

مالت رباب بجذعها لتلتقط حجابها من على ظهر الاريكة وهي تقول بضيق لايخلو من المراوغة

" اسيا ارجوك ! الا يحق لي التروي باختيار .. شريك حياتي .. ما زلت في الرابعة والعشرين.. انت وامي تشعرانني انني ..."

كانت رباب تلف حجابها حول رأسها عندما صارحتها اسيا بالقول المباشر

" هل تتروين حقا في طريق الاختيار يا رباب ؟ ام انك تسلكين طريقا اخر كلنا نجهله ؟!"

تجمدت اصابع رباب على حافة الحجاب بينما تتهرب هامسة " لم .. افهم .."

وقفت اسيا على قدميها لتواجه قامة اختها المطابقة لطول قامتها فتقول بمزيد من الاصرار " اخبريني رباب عن فتى احلامك .. "

تمالكت رباب نفسها لترد بهدوء " انت تعرفين اني لست من هذا النوع .."

ثم تبسمت لتضيف بشقاوة مفتعلة

" اسألي المجنونة رقية هذا السؤال وستصدمك بشكل مؤكد هو فارس الاحلام الجامح الذي سيختطفها عنوة .."

لم تيأس اسيا وهي تواجهها بالقول " انا اسألك انت ولا تتهربي كالعادة وتراوغي .."

تنهدت رباب قائلة بجزع من هذه المحاصرة

" اسيا .. دعيني اختار .."

ردت اسيا بتساؤل حازم " تختارين ماذا ؟

العريس ام فارس الاحلام ؟"

عندها اشتعلت عينا رباب العسليتين بما لم تستطع اسيا فهم ابعاده بينما تهدر رباب بالقول " دعيني اختار حياتي .. وانا اتحمل مسؤولية الاختيار مهما كانت نتائجه .. هل صعب لهذه الدرجة ان تمنحوني الحرية في اختيار مستقبلي ؟! "

امسكت اسيا بذراع اختها تعتب عليها قائلة

" الا تثقين بي لتفضحي اكثر ..؟! "

تراجعت رباب خطوة للخلف وهي تسبل اهدابها بينما تفلت ذراعها تلقائيا من امساك اسيا لها لتقول رباب بعدها بنبرة آلمت قلب اختها

" ارجوك لاتخنقيني اسيا .. ارجوك دعيني اخطط لحياتي كما احبها ان تكون .."

نادتها اسيا " رباب .."

شمخت رباب وهي تقول بثقة كاملة " لاتقلقي علي اختي .. سأتدبر نفسي بنفسي .."

تراجعت رباب ناحية الباب بينما تتقدم اسيا وهي تناديها مرة أخرى وكأنها تناشدها الاستجابة " رباب .. دعينا نتكلم .."

ابتسمت رباب ابتسامة واهنة ويدها على مقبض الباب قائلة ببشاشة وهي تلوح بيدها الاخرى ناحية كاظم

" اظن يكفي لعبا لهذا اليوم .. يجب ان اسرع لاغير ملابسي وانطلق لعملي .. العمل لن يصبر علي أكثر .."

ثم فتحت الباب وخرجت واسيا تحدق في إثرها باحباط ...

لم تستطع كالعادة ان تسبر اغوار رباب ..

وقد ابتدأت توقن ان حدس امها صحيح والمشكلة اكبر من رفض غير متوقع ولا مقنع باسبابه المعلنة لعبد الرحمن ...

الجامعة ..

اوشك ان يرتطم بها وهي تخرج عبر باب غرفة رئيس القسم الدكتور محسن الصائغ ..

جمالها عن قرب اكثر نعومة خاصة وهي ترفع عينيها اليه وتتورد وجنتاها بجاذبية..

ابتسم عبد الرحمن وهو يقول بجدية تغلفها شقاوة غير ظاهرة تماما " مرحبا ..."

الاحمرار ضج من وجنتيها وهي تهمس بتعثر كمن قبض عليه بالجرم المشهود

" مرحبا .. استاذ .. كنت ..مع الدكتور محسن .. أأ .. أأ ..."

تتسع ابتسامة عبد الرحمن لتعثرها ويتفاعل جانبه كرجل معها فيشعر حقا انها تعجبه ...

وكم يريحه شعوره هذا !!

شعور يرفع كفة الكبرياء مقابل كفة القلب فيعيد اليه اتزانه ...

بل انه بات يمنحه لذة من الرضا ومذاقا ناريا للانتقام .. الانتقام لقلبه وكبريائه معا..

كم يودّ لو كانت رباب هنا فيشعرها بما ينتابه اللحظة فيؤلمها كما آلمته ...

وما زالت تؤلمه !

أطل من خلفها خيال اخيه محسن قائلا برزانته المعهودة " الانسة رانية كانت تطلب مني مقالا علميا لجريدة الجامعة الاسبوعية .."

رفع عبد الرحمن حاجبه وهو يقول بمشاكسة " حقا ؟ الانسة .. مسؤولة عن تلك الجريدة الطريفة التي ارى منشوراتها في كل شبر من اقسام الجامعة ؟"

تمتمت رانية بخجل وحرج فظيعين " نعم استاذ .. انا اديرها .. مع بعض الزملاء .. اعتذر انا .. تأخرت .. عن .. عن اذنكما ..."

ضحكة خافته أفلتت من عبد الرحمن حالما ابتعدت رانية بخطواتها المتعجلة ...

سمع صوت اخيه يقول

" لم يكن يجدر بك احراجها هكذا ... خاصة وهي .. تحوم حولك ومؤكد داخلها يشعر بالخجل لما تفعله بالخفاء ..."

التفت عبد الرحمن متسائلا بعبوس طفيف وهو يدخل لغرفة اخيه

" تحوم حولي انا ؟! بالله عليك يا محسن .. انها مجرد فتاة تشعر بالخجل كلما رأتني صدفة .. وهذا يحدث ببساطة بين اي اثنين دون ان يعني شيئا .. وحتى ان كانت معجبة بي بشكل خاص هذا لايعني انها تحوم حولي.. اليوم مثلا انا قررت المرور بك بقرار فجائي لذلك من المستحيل انها تعرف مسبقا انني قادم هنا لتحوم حولي ..بل ربما حتى لاتعلم انك اخي .."

قال محسن بنبرة غامضة وهو يعود للجلوس على كرسيه الجلدي خلف طاولة مكتبه

" بل تعرف .. واختارتني خصيصا لاكتب المقال لانها تعرف انك اخي الصغير .."

اتسعت عينا عبد الرحمن قليلا من اصرار اخيه وهو يتقدم ليجلس على كرسي قبالة طاولة المكتب ويسأل باستغراب

" وكيف عرفت انت؟! اقصد كيف عرفت انها.. تعرف اننا شقيقان ؟ فنحن نعمل في قسمين مختلفين والمباني متباعدة نسبيا وسط جامعة شاسعة بمساحتها ، كما لم يمض الا عام واحد على عملي هنا .."

حدق محسن في اخيه لبضع لحظات وكأنه يفكر بما سيقوله قبل ان يبدأ الكلام

" اسمها رانية حامد الطائي .. عاشت في الخارج لسبع سنوات مع عائلتها في بلد اسيوي .. والدها دبلوماسي لكن ليس بمركز مرموق .. مجرد موظف عادي كان يعمل في قنصليتنا هناك ثم في وزارة الخارجية حاليا منذ عودتهم جميعا للوطن العام الماضي لتكمل ابنته سنتها الجامعية الاخيرة هنا .."

تمتم عبد الرحمن وعيناه تفيضان عجبا

" ما هذا ؟! هل تترصدها وتبحث في تاريخها العائلي ؟!! "

استمر محسن وكأنها يلقي محاضرة علمية بحته " لديها اخ متزوج واخت صغيرة في الثانوية اما والدتها فهي ربة بيت .. العائلة تبدو بسمعة جيدة ومن طبقة متوسطة .. لاغبار عليهم .."

بدا عبد الرحمن مذهولا ليبدد محسن ذهوله بالقول " و... نعم .. انا سألت عنها لانها ببساطة تسأل عنك وعن عائلتك ..."

عقد عبد الرحمن حاجبيه الكثيفين وهو يتساءل بحذر " عني انا ؟! كيف عرفت هذا؟"

رفع محسن نظارته ليضعها امامه على الطاولة ويدلك أرنبة أنفه قائلا " الاخبار وصلتني .. من استاذة تعمل في قسمنا وصديقة لرحاب .."

ما زال عبد الرحمن عاقدا لحاجبيه بينما يكمل محسن وهو يعاود التقاط نظارته الطبية ليضعها فوق أنفه

" انها معجبة بك جدا وتبدو مناسبة لك ..
حتى رحاب رأتها مناسبة جدا وتليق بك .."

كانت نبرة محسن عملية جدا لكن نظراته
كانت تدرس الانفعالات الغريبة على وجه
اخيه الاصغر ..

يشعر ان هناك ما يخفيه عبد الرحمن عنه
ولايعرف محسن بالضبط ما يحاول اخفاءه ...

تمتم عبد الرحمن بغموض ساخر وكأنه
يغطي على تلك الانفعالات التي يستشعرها
محسن منه " هل امي من شحنتكما انت ورحاب
لايجاد عروس لي ..؟"

هز محسن كتفيه ليقول ببساطة " لن أنكر
انها طلبت مني حثك على ايجاد عروس ..
لكن انا ايضا ارى وجوب زواجك الآن .."

توقف للحظة قبل ان يضيف وعيناه في عيني
اخيه " خاصة بعينيك الزائغتين هاتين هنا
وهناك على الفتيات .. ام تظن هالة الجدية
والرزانة تخدعني انا الآخر وتنطلي علي ؟!
الفتيات يعجبن بك طواعية وان اختلفت
اسباب الواحدة عن الاخرى ولكنك في
المقابل تعجب بهن لسبب واحد قديم قدم ادم
وحواء.. (انهن أناث).. وهذا يعني امرا واحدا لا
التباس او شك فيه .. ان التعجيل بزواجك
بات ضرورة .."

اسبل عبد الرحمن اهدابه بينما انامله تتلاعب ببضعة اوراق موضوعة بترتيب على سطح الطاولة التي تفصله عن اخيه ليسأل محسن بجدية وباسلوب مباشر " هل لديك اي فتاة محددة تفكر فيها للزواج ؟ "

لاحظ محسن توتر انامل اخيه ثم استرخاءها وهو يرد بلا مبالاة " لا ...."

عندها قال محسن ببعض الحزم

" اذن فكر برانية الطائي .. انها مناسبة لك من كل النواحي .. "

ليضيف بحنو " لو كان ابي على قيد الحياة لزوجك بنفسه حتى لاتقع في الخطأ .. حصّن نفسك فمثلنا لايليق به الا حسن السيرة والسمعة ... والانتظار لا معنى له .."

لم يرد عبد الرحمن للحظات طويلة ثم فجأة وقف على قدميه وهو يقول بهدوء

" رحم اللّه والدنا .. ربما انت محق في أمر واحد.. الانتظار لامعنى له .. أعدك ان أفكر بالامر.."

بيت طارق النعماني

تفرست الحماة ببعض العبوس في ملابس كنتها الانيقة المحتشمة المكونة من طقم جمع اللونين الكحلي والاحمر ثم سألتها بنفس العبوس

" الى اين ستذهبين ؟ "

بنظرة هادئة لاتشوبها شائبة الغليان الذي تعيشه من ايام على نحو خاص ردت جوري

" الى مطبعة العباسي خالتي .. سأسلمهم العمل المطلوب مني .."

طفح الغيظ في عيني ام مهند .. وجوري تعلم لم هي مغتاظة هكذا ..

انها مجرد (أم) متحيزة بشكل غريزي وغير منصف لسعادة ابنها ... وهي تشعر به غير سعيد مع زوجته التي اختارتها بنفسها له ..

وكأي ام متحيزة وغير منصفة تحمّل زوجته المسؤولية .. حتى وهي تعلم يقينا في قرارتها ان سبب تعاسة ابنها نابع من قلبه هو ...

تمتمت الام بتضجر

" لماذا تجهدين نفسك دون داع ؟ زوجك لم يقصر معك في شيء .. قد لانعيش مترفين لكننا مستورين والحمد للّه "

ثم تضيف بقساوة متهورة " ولااظنك قد أتيتِ من بيت اعلى مستوى من مستوانا ... انا اخترتك خصيصا لترضي بعيشتنا كما اعتدتها في بيت اهلك ..."

للحظات تحدق جوري بملامح جامدة في وجه حماتها التي سرعان ما كسا ملامحها الندم لكل السخافات التي تفوهت بها للتو دون وجه حق ...

لكن جوري وبابتسامة تعلقت باستهانة على شفتيها ردت

" العمل فسحة راحة للنفس .. خاصة لمن يحتاج لراحة نفس مثلي خالتي .. وانا لااقصر مع زوجي ولا مع ابنتي.. وعملي هذا انجزه في البيت و لااخرج الا لاسلمه لاصحابه و.. مهند يعلم بهذا وراض به .. هذا كان اتفاقنا مذ حملت بـ .. حبيبة .."

اشواك انغرزت في قلب الام كما انغرزت في قلب جوري ..

وكل واحدة لها اشواكها التي تدميها ...!

حزن وقلب ام موجوع فاض من عيني حماتها بينما تكتم جوري كل احساس وتختزنه في قلبها ثم تسمع حماتها وهي تسألها بعينين تتحاشى النظر لكنتها

" هل ستأخذين حبيبة معك ؟"

فترد جوري وهي تتشبث بيد ابنتها الواقفة جوارها بتململ تحمل دميتها " اجل .."

ظهراً ....

يرابط الجلوس ها هنا ... ككل يوم .. في سيارته .. في نفس الموقف .. نفس المحطة .. محطة حياته الاكثر ارباكا وارتباكا ..!

اصابع يده ترتخي قرب فمه وهو يستند بكوعه لحافة الشباك ...

تتهادى امامه وعيناه تمعنان النظر فيها ببطء بات يستلذ به كل يوم ..

كل صباح وهو يهفو اليها لينتظرها ثم يعاود الرجوع وقت الظهيرة لينتظرها .. مرة اخرى..

منذ ان منحته تلك النظرة من فوق كتفها وقد اطلقت عليه رصاصة اخترقت غيوم التشتت فأصابته بمقتل ليهوى الى قاع الخيال المربك..

لم يعد يفكر الا بها ..

لم يعد يستطيع محوها من رأسه ..

ورغم هذا كان مكبلا بشيء غامض لايستطيع تفسيره ..

مكبل فلا يخطو خطوة واحدة اكثر من انتظارها في هذا الموقف حيث تستبدل الركوب ما بين حافلة النقل العام والحافلة المدرسية ..

لم يلحق الحافلة البيضاء لبيتها ولم يلحق الصفراء للمدرسة التي يبدو جليا انها تعمل فيها ..

انه هنا .. في قاع الخيال يرتعد ارتباكا !

لماذا يقف مكانه هكذا ؟! لماذا لايفعل شيئا لينال فيها ما يهواه ؟!!

هل هو الاحساس انه يخذل نفسه بعد سنوات من ضبطها ؟! ام انه الصراع الابدي بين ما نريده وما نستطيع الحصول عليه ؟!

ام انه خائف من حقيقة ما سيحصل عليه !

ام ... ام ان هناك امرا اخر تماما يجهل كنهه.. لكنه يضج في اعماقه ويعذبه ؟!!

ضاع كل شيء في اللحظة المرتقبة ...

تلك اللحظة التي تسبق صعودها لاول درجة في مدخل الحافلة ..

عندها فقط تتقلص اصابعه برغبة وحشية لامتلاكها ما إن تمنحه تلك النظرة المنادية...

ضجيج عنيف يصم اذنيه فلا يستمع لأي منطق ... واي منطق يبقى حيا راسخا في العقل والوجدان عندما تناديه عيناها هكذا؟!

مطبعة العباسي وسط المدينة ...

دخلت جوري عبر الباب الزجاجي وهي تمسك بيد ابنتها وتقول لها بحنان امومي فياض

" لاتفلتي يدي يا حلوتي .. ماما ستنهي العمل ونخرج سوية لمحل الالعاب ..."

تتضاحك حبيبة وهي تتشبث بيد امها بقوة مست قلب جوري فيتفتت هذا القلب المشبع بالجراح وهي تتطلع لوجه ابنتها التي تشابه اباها في كل ملامحه ولون بشرته التي تميل للسمرة الخفيفة ... وكم يخونها القلب بعشقه لهذا التشابه ...

اخذت نفسا عميقا بينما تخطو للداخل اكثر فتضع ابتسامة عملية لطيفة وهي ترى صاحب المطبعة يقترب باتجاهها مبتسما ...

رجل اربعيني بملامح مألوفة تعكس ملامح معظم الرجال في بلدها ..

مربوع القامة في امتلاء ... بشوش الوجه مع لمحة غامضة حسية قد تكون غير مريحة لأي انثى..

هذا ما يبدو للوهلة الاولى ثم تكتشف فيما بعد انها لمحة طبيعية عفوية منه لا يتعمدها فعليا وقد ادركته جوري لاحقا من تعاملاتها معه لتلمس كم هو محترم ولا يحاول حتى ان يتجاوز اي حدود معها ...

تقدم وكفه تسبقه للترحيب بمصافحة

" مرحبا سيدة جوري ..أنرتِ المطبعة .."

فتصافحه جوري وهي ترد على ترحيبه

" مرحبا سيد عباس .. شكرا لك .. "

ثم أفلتت يده لتخرج من حقيبتها الكبيرة ملفا ورقيا وقرصا دائريا مدمجا وهي تقول بنفس الاسلوب اللطيف العملي

" لقد جئت لاني انهيت العمل المطلوب والبيانات تم تثبيتها بالاسلوب والجدولة التي طلبتها .."

اخذ منها الملف والقرص دون ان يطلع عليه فقط يقول بتلك الابتسامة الغامضة

" سلمت يداك ..."

اوشكت ان تنسحب عندما اتسعت ابتسامته لتشمل ابنتها وهو يسأل " هل هذه ابنتك ؟"

فترد جوري بابتسامة فخر امومية عفوية وهي تتطلع لصغيرتها " نعم .. انها حلوتي حبيبة .."

عينا عباس ارتفعتا لجوري فيقول بابتسامة غريبة " ما شاء الله .. جميلة جدا .."

رفعت جوري عينيها في نفس الوقت الذي اطرق فيه عباس وجهه فتشعر للحظة عابرة بحدس غريب لكنها تتمتم تأدبا " شكرا لك .."

فجأة رفع وجهه قائلا ببشاشة طبيعية

" حفظها الله لك يا ام حبيبة ..."

ارتفع حاجبي جوري قليلا فيكمل عباس كلامه قائلا " اسمحيلي اناديك باسم ابنتك.. هذا ايسر في التعامل بما اننا سنتعامل مستقبلا ايضا .."

فتبتسم جوري وتقول " مؤكد ابو ....؟ "

تركت جملتها معلقة بانتظار ان يخبرها بإسم اول ابنائه لكنها لاتحصل الا على ابتسامة شجن ثم يقول بصوت أجش

" ليس لي اولاد ... حتى الآن .. لم يقسم لي الله بنصيب الزواج .. لكن الناس يكنونني باسم ابو فاضل "

ردت جوري وهي تعود لواجهتها العملية المتحفظة في لطف " عوضك الله خيرا يا ابا فاضل .. بالاذن .. علي ان اغادر .."

بهزة من رأسه يودعها وهي تتحرك مستديرة امامه فتسمعه يقول بدفء

" في أمان الله وصحبتكما السلامة يا ام حبيبة ..."

تسير الحافلة البيضاء بهم وتنام سوسو على صدرها بتدللها المعتاد فتحيطها خلود بذراعها في حنان فطري بينما تسرح بعيدا تفكر بكل النساء المحتملات كمرشحات مناسبات لـ... زوجها ...

نعم .. الامر موجع حد القتل لكن حذيفة يستحق ان تغرز بيدها خنجرا مسموما في قلبها .. فقط لاجله..

ليلة الامس غضب منها بشدة كما لم يغضب منها يوما عندما احضرت له صورا لـ(مرشحات) وأخذت تلح عليه بالتفكير في احداهن وبعد صواعق غضبه التي انهالت فوق رأسها ألتزم الصمت والتجاهل ثم أدار لها ظهره في السرير..

تنهدت في سرها وعيناها تحيدان ناحية جعفر وهو يتحدث بانطلاق مع منة الله .. فتصلي على الرسول في سرها وتدعو لهما ولاخوتهما بالعافية ثم تدعو من عميق قلبها ان ترى اولادا ذكورا لحذيفة ..

تريد ان ترى (زيد) .. ان تأخذه معها للمدرسة كما تفعل مع اولاد عمومته ..

تنهيدة اخرى وهي تحود هذه المرة الى جهة اليمين حيث تجلس شذره صامته جوارها ..

بدت الفتاة سارحة ويدها تتلاعب بشعرها الكستنائي الجميل ...

فقط لو يوافقها حذيفة الرأي ..

وماذا ان كان يكبرها بثمانية عشرة سنة ؟!

فجأة لمحت شذره تبتسم ووجنتاها تحمران !

سألت خلود تلقائيا " ما بك شذره ؟! "

أجفلت الفتاة واحمر خداها اكثر بينما تتمتم

" انا ؟! لاشيء ..."

عبست خلود وهي تسأل بفضول

" انت تبتسمين بطريقة غريبة .."

ارتبكت شذره بوضوح ثم اخذت تحرك نظراتها يمينا وشمالا لتقول بتسارع

" لقد وصلنا محطتنا .. هيا خلود .. انا جائعة اليوم ولااطيق صبرا لآكل من طعام خالتي ابتهال ..."

تحرك الجمع ليترجلوا من الحافلة العامة بينما تعترف خلود في سرها ان هذه الفتاة حقا لاتناسب حذيفة ..

حذيفة يحتاج لامرأة ..

امرأة وليس مجرد فتاة غرّة ...

كان يتجه ناحية مرآب الجامعة الخاص بالهيئة التدريسية عندما سمع صوتا انثويا لاهثا يناديه من الخلف ...

التفت للنداء وابتسامة تمر بغموض مستمتع على شفتيه " استاذ عبد الرحمن ..."

كانت ما تزال تلهث باسمه وهي تقترب منه ..

تنورتها ضيقة نوعا ما تصل لما تحت الركبتين بقليل فتظهر نحول ساقيها اللتين كانتا تناضلان في قطع الخطوات الواسعة التي كانت صاحبتهما تجبرانهما عليها ...

أمال عبد الرحمن رأسه وهو يرفع نظراته بخفة لوجهها الجميل فيقول بابتسامة جذابة

" مرحبا ... مرة اخرى .. "

بدت عيناها ملتمعتين بشدة كمراهقة وهي تحدق فيه بانفعال وتمد يدها اليه وهي تقول بارتعاش ذاك الانفعال

" لقد ... سقطت منك ميدالية مفاتيحك ..."

ببطء انزل نظراته ليدها اليمنى الممدودة له بالقرص المعدني الذي يحمل ماركة سيارته والتي كانت معلقة بحلقة مفاتيحه ..

التقطها من يدها دون ان يمس بشرتها ثم يشكرها وهو مسبل اهدابه " شكرا ..."

شيء ما في صدره جعله يتمادى في حوار عادة ينهيه ببراعة خاصة مع (المتلهفات) نحوه ..

تمتم بسؤال يبدو عفويا وهو يحرك المفاتيح بين اصابعه

" ظننتك طالبة عندنا هل تعلمين ؟ تفاجأت عندما اخبرني اخي محسن انك خريجة .. "

عيناه التقتا عينيها اللامعتين وبدت للحظة مصدومة متوردة متقطعة الانفاس وهي ترد بتلعثم " انا .. انا ...محاضرة مبتدئة ...الان فقط اعطي محاضرات للمرحلة الاولى من قسم اداب ... الفرنسي .. اقصد ..الانجليزي ... لقد تخرجت العام الماضي .."

وبتمادٍ اكبر منحها ابتسامة اخرى وهو يقول بجذل " هنيئا للمرحلة الاولى من قسم اداب الفرنسي..."

ثم يصحح بفكاهة مشاكسة

" اقصد .. الانجليزي .. "

تخضبت وجنتاها ليستدير عبد الرحمن وهو يودعها بسلام خافت دون ان يحاول التقاط المزيد من ردود افعالها ..

راض عن نفسه وغير راض في نفس الوقت ...؟

غاضب حانق لكنه مستمتع بما يفعل بلذة الانتقام والثأر الذي يتسع اكثر واكثر بداخله ..

بعد عشر دقائق

يسير في شوارع شبه مزدحمة وعيناه ساهمتان وعقله شارد ..

رذاذ حبات مطر خفيف يتناثر على زجاج النافذة الامامية فيجعله يتساءل

" متى سيأتي الربيع ؟!"

ومع بداية الربيع ... ازهار الجاردينيا تفوح من بيوت الحي .. وخاصة بيت يونس العطار ..

لا بيت في الحي ينافس انتاجه من تلك الازهار الفواحة بعطرها القوي ...

بعينين شبه مغمضتين تذكر ذلك العصر ..

قبل اكثر من عام وهو يفتح لها باب المرآب فيستمتع بردة فعلها المجفلة .. كمن يتلقى قدرا كان يخشى مواجهته..

قلبه يجن في صدره بينما يفيض عليها بنظراته التي يخصها بها قائلا بنبرة مناغشة

" مرحبا رباب .."

تركها تستعيد رباطة جأشها وهي تتمتم "مرحبا" بينما يحدق هو في الوعاء الزجاجي العميق الشفاف الذي تحمله بين كفيها ..

تتراقص زهور الجاردينيا التي تراصت فوق سطح الماء الذي ملأ الوعاء حتى منتصفه .. زهور خلابة تفترش بتلاتها البيضاء بدلال على وريقاتها الخضراء وتنشر عبق عطرها الفواح كالسحر بينهما ..

بابتسامة مشاكسة جانبية سأل وهو ينظر في عينيها العسليتين " هل هذه لي ؟"

عبست في وجهه وهي ترد بخشونة " مؤكد ليست لك .. انت تعرف انها عادة امي في ارسالها زهور الجاردينيا لخالتي سعاد في نفس الوقت من كل عام .. "

يتمسك بباب المرآب فلا يسمح لها بتجاوزه والمرور الذي بدت توشك على الاقدام عليه لتتجاهله لكن كان يعرف انها ببساطة .. خجلة .. انه يلمس فيها اكثر من مجرد خجل فتاة .. انه يلمس فيها التأثر .. يلمس قلبها الذي يغوي قلبه ويفرض عليه سلطانه من سنوات... ويكاد يختنق من فرط البهجة..

فرباب ليست من الفتيات اللواتي يتأثرن باهتمام اي شاب .. وهي تعجبه هكذا وتزيد من رغبته فيها ... فلا يجد حرجا او مانعا من ان يتلمس طريقه لامتلاك قلبها بالكامل .. يريدها عاشقة مثلما هو .. عاشق ...

رباب له .. له ...

رمقته بنظرة حنق وهي تقول بجفاف يفضحه بعض الارتعاش وقليل من التورد الحلو على الوجنتين " هلا افسحت الطريق حتى اسلم الزهور لخالتي بنفسي لانك كما يبدو ليس لديك نية لاخذها مني.."

يبتسم وقلبه يضج سعادة ويهزج بالفرح وكأنه في عرس !

قال بصوت أجش و بنفس الابتسامة

" اممم ... سآخذها منك لاتقلقي .. لكن هل استطيع الاحتفاظ بواحدة خاصة لي في غرفتي ؟"

تأففت وهي تحرك رأسها بتململ لتقول بخشونة تقريبا " خذ ما شئت .. انها لكم .."



لكنه يطيل وقوفها امام ناظريه المشتاقين

قائلا بنبرة متدللة مغيظة

" اذن اختاري انت لي .."

هتفت باستهجان " ماذا؟!! "

عيناه سرحتا على حجابها قبل ان تعود لعينيها

فيقول ببساطة " اختاري لي انت اكثرها

عطرا لان امي لن تسمح لي بالاختيار .."

ثم يداعبها بالقول " غششيني بافضلهن .."

بدت غاضبة .. ليس منه .. بل من نفسها ..

رغم غموضها الا انه احيانا كان يستطيع

التقاط بعض ما يجول بخاطرها ..

هتفت بمزيد من الحنق " كفّ يا عبد الرحمن

عن هذا العبث وخذ الوعاء مني لاعود للبيت.."

بدى التصميم في عينيه وهو يقول بصوت

خافت " اقسم باللّه لن اخذه حتى تختاري

افضلهن لاسرقها من امي .."

زمّت شفتيها ويكاد يسمع صوت احتكاك

اسنانها ببعض من شدة غيظها ...

اخيرا هادنته فالتقطت زهرة كيفما اتفق

واعطتها له قائلة ببعض الحدة

" حسن .. هذه ..."

تعمد ان يلامس اناملها وهو يأخذ الزهرة

فتسحب يدها بخشونة وهو يرفع الزهرة قريبا

من انفه وفمه ويهمس لها بنظرات شقية حارة



" مقبولة منك يا قرفة ..."

فما كان منها الا ان دفعت الوعاء نحوه بعنف حتى ارتطم ببطنه وتناثر بعض قطرات الماء على ملابسه فأمسك الوعاء وهي تتركه له وتستدير مغادرة دون ان تلقي السلام ..

فتتعالى ضحكاته المستمتعة ..

عاد عبد الرحمن لحاضره وهو يضحك كما ضحك عصر ذاك اليوم وهو يراقب رحيلها الغاضب ...

اخذ يطرق باصابعه على مقود السيارة وابتسامة الذكرى تخدر عقله بلذة الفرح ... ولايعلم ماذا بعد هذا ؟!

الى متى هو تائه بهذا التلذذ تارة والغضب تارة اخرى .. ؟! متى سينساها او ربما يختقنها ويرتاح ..

ما زال رذاذ المطر خفيفا لكن الزحام ازداد كثافة فاخذ عبد الرحمن يتطلع بتضجر لجانبي الطريق في ذهابه وفي ... إيابه ...

فجأة اتسعت عيناه وتحجرت نظراتهما وهو يلتقط رباب واقفة قرب سيارتها المركونة على جانب طريق الاياب المعاكس له ...

ولم تكن بمفردها .. كان معها .. شاب يبتسم لها بتودد يبصره الاعمى !

ثوان فقط وهو يحيد بصعوبة ورعونة بين زحام السيارات حتى وصل لجانب الطريق فيركن سيارته ويترجل منها وهو ينفث انفاسا كاللهب ولم يكن هناك الا وجهة واحدة يريد الوصول اليها في التو واللحظة واحراق اخضرها قبل يابسها ..

" هل تحتاجين لخدمة اخرى يا انسة ..؟"

تطلعت رباب بملامح حازمة فيها بعض الصرامة وهي ترد عليه " شكرا لك .. يكفي ابدلت الاطار المثقوب.."

فيتبسم الشاب ويشملها بنظرات سخيفة يظنها بحمق انها مؤثرة وهو يقول بصوت يحمل دعوة

" الوقود يوشك على النفاد عندك والمطر سيزداد غزارة ؟ هل انت واثقة سيوصلك للبيت ام ربما تحتاجين ان آخذك بنفسي لاقرب محطة وقود نحضر بعض البنزين ثم نعود ونعبأ سيارتك .. اسف كنت سأعطيكِ من وقود سيارتي لكني لا املك الكثير في الخزان وما زال طريقي طويلا .."

فتحت رباب فمها لترد عندما هدر صوت شديد الخشونة باسمها من خلف ظهرها " رباب ..."

كانت لحظة ما بين استدارتها بوجهها ومروره بحركة حادة من جانبها حتى ارتطمت وجنتها بكتفه !

تأوهت بخفوت وهي ترفع يدها لتلامس خدها الموجوع بينما يقف بضخامته بينها وبين الشاب الذي ارتبك ...

تلفظت باسمه عفويا " عبد الرحمن .."

التفت بوجهه فقط ناحيتها ليهدر فيها من بين اسنانه " ادخلي سيارتك فالمطر يزداد .."

عبست في وجهه المتجهم ثم ارتعدت اوصالها وهو يمنحها نظرة كالصاعقة جعلت قلبها يتقافز بحمق في صدرها ...

آثرت الابتعاد بينما تراه يكلم الشاب بخشونة

" نشكرك للمساعدة .. وتفضل امضي في سبيلك .."

انسحب الشاب من فوره وقد تلبست ملامحه (نخوة ظاهرية) و(احترام مدع) ليسلم مبتعدا ويستقل سيارته مغادرا ...

عاد اليها عبد الرحمن فوجدها ما زالت مسمرة قرب باب سيارتها تنظر اليه بما يشبه التحدي..

اقترب منها والشرر يترامى منه في كل اتجاه..

الغيرة .. الغيرة بنيرانها الوحشية التي لاتفهم اي عقل تتلبس روحه وتفتك بكبرياء رجولته ..

وقف قبالتها تماما يحدق بنظرات غيورة مجنونة بتفاصيل وجهها وقد تناثرت على بشرتها قطرات المطر ...

اجفلها وهو يرفع يده فجأة ليضرب بعنف على سقف سيارتها هادرا

" عندما تحتاجين لمساعدة في الطريق اتصلي بواحد منا نأتيك خلال دقائق ... وقوفك وسط الشارع واستعراضك لـ (محنتك الانثوية) يعرضك لكل حثالة متفكه "

جحظت عينا رباب وكأنها تلقت اهانة فتردد

" محنتي الانثوية ؟!! "

ثم تقسو ملامحها وتقول " لا حاجة بي لاتصل بأي شخص .. انا اتصرف بطريقتي .. وليس لك ان تحاسبني على اي شيء يا عبد الرحمن.."

هتف والغيرة تتآكله أكثر ورذاذ المطر يتسارع فوق رأسيهما

" اخرسي رباب .. هل فهمت ؟ اخرسي .."

جن جنونها هي الاخرى فصرخت فيه في المقابل " من أنت لتقول لي اخرسي هكذا ؟!! من تحسب نفسك .. انت مجرد ابن الجيران الذي تقدم لخطبتي ورفضته .. لا سلطة لك علي .. هل فهمت ؟! لا سلطة على الاطلاق .. وابحث لك عن (انثى) تفرض سلطاتك السخيفة هذه على (استعراضاتها) .. واحدة من تلميذاتك السخيفات مؤكد ستستمتع بكل هذه التفاهة وتتنهد في سعادة الجاهلات ..."

كانت تلهث انفعالا والمطر يغرق وجهها كما يغرق وجهه الذي تحجر بالكامل ...

لحظات مرت مرعبة وهي تستعيد بغباء كل الكلام الذي تفوهت به للتو وبعد ان مرت لحظات الرعب مرت رعدة خاطفة في جسدها وهي تسمعه يقول ببرود ثلجي واقتضاب غامض

" انت .. محقة ..."

قلبها يموت بخفقاته المتباطئة وهي تراه يستدير جانبا ليعبر الشارع في خطوات ثابته واسعة .. واسعة جدا وكأنه لايطيق صبرا لفعل امر ما ...

ما الذي سيفعله ؟!

الابتعاد عنها .... نهائيا هذه المرة ؟

قرابة الغروب في حي الشيخ

مسحت دموعها وهي تجلس قرب الشباك المفتوح المطل على احدى الطرقات الضيقة لحي الشيخ حيث لاتدخلها السيارات ...

فقط المارة والدراجات الهوائية المتعبة وبضعة عربات تجرها الحيوانات او البشر !

اخذت تعيد الكلام في رأسها فلا تقوى على محاولة مراجعة نفسها فيما تتشبث به ...

اخذ الظلام يرخي سدوله فينقبض قلبها انقباضا وهي تلتفت ناحية باب الشقة والترابيس التي تزداد يوما بعد يوم ...

من سيحميها لو قرر احد الرعاع ان يكسر الباب عليها ليلا ليغتصبها ؟

من سيقف بوجهه ويتمكن من ردع انسان وضيع لايخاف الله وذهنه مغيب بالكحول والمخدرات و.... الجشع ...؟

ربما ما قاله سيدها ابو جعفر صحيح ..

والدها ليس راض عن بقائها هنا .. اجل .. لقد حلمت قبل بضع ليال وكان وجهه عابسا رغم انه التزم الصمت ..

تنهدت حسناء والحيرة تغلف عقلها المحدود التفكير .. فيزيدها تشوشا وخوفا وتشتتا ..

هل يعقل ان تترك بيت والدها ؟ ان تترك المكان والحي الذي عاشت فيه عمرها كله؟

وان ذهبت للحي الصناعي وباعت شقة والدها هذه لتشتري غرفة جديدة هل ستجد مكانا لها في ذاك الحي لتعمل في سوق الخضار عندهم؟ ام سيعادونها ويرفضونها خشية ان تأخذ من رزقهم القليل ...؟

سيدها رضا عرض عليها ان تعمل عند اخيه كعاملة مصنع لكنها لاتفقه شيئا في المكائن ولا الاسلاك الكهربائية كما .. لاتستطيع الاختلاط بالعمال ...

تنهيدة هم ثقيل خرجت من بين شفتيها وهي تفكر .. فقط لو يرضى سيدها بمنحها اسمه لن تحتاج لكل هذا ..

فقط لو يطاوعها فتقسم انها حتى لم تعد تريد منه الزيارة ..

ستجد كذبة تقنع بها اهل الحي هنا عن اسباب عدم حضوره ..

دمعت عيناها بعجز عن اتخاذ قرار ...

مسحت حسناء دمعة انحدرت على وجنتها ثم تحركت لتربض فوق الاريكة مستندة عليها بركبتيها وتسحب طارف وشاح رأسها لتغطي نصف وجهها ثم تشرأب بجسدها قليلا للامام تمد كفها الحر لتسحب ضلفتي الشباك الخشبيتين بالتناوب وقبل ان تفعل جذبت مسامعها اصوات رجولية خشنة ثم بعض الهوجاء ..

اتسعت عيناها بتوجس قلق وهي تلمح جمهرة من الناس تتحرك من الجهة البعيدة واغلبهم من الرجال والمراهقين يهللون ويهزجون بكلام وهتافات غير مفهومة..

اقتربت الجمهرة على بعد عشرين او ثلاثين مترا من موضع شباكها المحاذي لمستوى الطريق الضيق وما زالت الاهازيج والهتافات مستمرة بصخب مريع ثم فجأة عم الصمت ليظهر من بين الجموع من يحمل شعلة في يده!

رجل ضخم مخيف بعينين صارمتين ولحية مشعثة تحيط بملامحه الخشنة تزيد خشونتها خطوط عشوائية مشطبة ملأت وجهه فتعكس هيئته رحلة طويلة من معاشرة الاجرام والمجرمين ...

تمتمت حسناء بذهول وقلبها يرتجف ما بين راحة وخوف " تحسين ! "

اخذ تحسين يحرك شعلته وهو يهتف بصوت يفيض عنفا وارعابا لكل نفوس السامعين..

" منذ اليوم اعلموا ان قانون تحسين قد عاد ..
لا سرقة ولا قتل ما دام تحت طوع تحسين ..
فكل من يريد ان يأمن على نفسه ويصبح مسؤولا مني ان يدفع المال المطلوب ...

كل صاحب محل او ورشة عمل او حتى عربة بقالة.. كل بيت وجحر في هذا الحي هو مسؤول مني .. ومن هو مسؤول مني يجب ان يدفع لي لأحميه ..."

ثم اخذ يصرخ بهتافات والجمع يردد خلفه وحسناء تحدق بجحوظ وارتعاش ..

وفي لحظة وسط الضوضاء التفت تحسين ونظر اليها مباشرة ...!

بيت يونس العطار

غرفة رباب ...

تضع وسادتها فوق رأسها تختبئ في ظلمتها المحدودة وبصيص ضوء خافت يعبر اليها ..
تكاد تشعر ببكائها فتحتار عيناها اين الدموع ؟! انه بكاء القلب .. بكاء الروح ..

واي بكاء اقسى من هذا ؟!

انه البكاء الذي لايريد مواساة .. ولا يخفف الألم .. انه بكاء العمر على احساس بالغدر قتل داخلها احاسيس اخرى كانت شفافة ومنفتحة للحياة ...

مقلتاها مشدوهتان على خيط الضوء الخافت الذي يصلها من تحت الوسادة وذاكرتها تعود لايام خوال حيث يشع بيت العطار بهجة بروح والدهن المحببة ..

في ماض يبدو بعيدا جدا ..

قبل سنوات وسنوات ...

في جلسة عائلية عند العصر غابت عنها اسيا وقد كانت تدرس لسنتها الاخيرة في الجامعة وبينما الاب يجلس جوار الام بجلبابه البيتي وطاقية رأسه المخرمة البيضاء ثم يميل نحو امها مبتسما ملتقطا يدها في غفلة منها ليدس خاتما ذهبيا اشتراه جديدا لها كان قد اخفاه في جيب جلبابه ثم يناغشها فتضحك متوردة و يتشبث بيدها يأبى اطلاق سراحها...

تتضاحك رباب في خجل مدعية التفرج على التلفاز بينما ترى بطارف عينها اختها رقية تحدق في والديهن بانشداه مضحك جعل حبيبة ترمي عليها قشور الفستق الذي احضره والدهن هذا اليوم من السوق و كانت حبيبة تحتكره لنفسها تقشره وتلتهمه بمفردها...



لم تستطع رباب مجاراة حبيبة كعادتها في مشاكساتها مع الصغيرة رقية لانها كانت هي الاخرى منشدهة تماما مع والدها وهو يناغش أمهن التي تبدي خجلا فاتنا امام بناتها وزوجها..

الواقع انه كان يتغزل بكف امهن وهو يقلبه بين كفيه يستعجب بغزل قائلا

" ما هذه الكف يا ربي ؟!! لا اصدق ادعائك انك لم تستخدمي يوما في حياتك كريما منعما لتبدو هكذا .. "

تضحك الام هامسة في خفر" يا حاج ! "

فيرفع وجها متبسما ويقول ممازحا بصوته الحنون

" وهل ابقيت ليونس العطار هيبة الحجاج ؟!"

تضحك ابتهال وهي ترفع يدها الحرة لوجهها وكأنها فتاة غر تخفي ابتسامتها وتورد خديها ثم تقول تدعي التوبيخ الرقيق " يا حاج توقف .. صغيراتك يحدقن ويتضاحكن علينا .."

تتغير ملامح الرجل الوقور الاشيب ليبدو كملامح مراهق متذمر وهو يرد " وماذا افعل بهن ؟! انا في معضلة لم احلها من سنوات .."

تنفجر حبيبة ضاحكة وتتسع عينا رقية وهما تلتمعان بشدة اما رباب فتخفي ابتسامتها بشق الانفس وهي تحسد حبيبة على قدرتها

المرنة للتصرف كـ(فتى) لايهتم بشيء بينما
تسمع والدهن يقول بتنهيدة

" هذه الكف .. لهف قلبي كلما لمستها
اتذكر ملمس القطن في موعد قطافه .."

تلتفت رباب لتنظر لوالديها فتنبهر عيناها
ويخفق قلبها وهي ترى تلك النظرة الجدية
في عيني والدها الزرقاوين ..

نظرة لن تنساها ابدا كما لن تنسى تعابيره
الرجولية وهو يقول بصفاء نفس " لو عشت
عمرين فوق عمري يا ابتهال لما اكتفيت من
وجودك جواري .. جعل اللّه يومي قبل
يومك.. ورأسي لايفارق رأسك الا للقبر "

اخذت رباب تعتصر حافة الوسادة بين اصابعها
والتفكير بكل الماضي يخنق انفاسها ...

التساؤلات المؤلمة لاتموت من سنوات ...

كيف استطعت ابي ؟! كيف ..؟

كيف استطعت ان تحبها هكذا ثم .. ثم ...

علا همسها الداخلي ليخرج على لسانها بهمس
مسموع باكٍ .. بكلمات طال كبتها

" لقد قتلت بفعلتك مع امي شيئا في داخلي
لن يعود .. لن يعود ابدا.. ابي ..."

عندها اطبقت جفنيها لتسري الدموع حارة من
بينهما ...

في البيت المقابل يتحرك عبد الرحمن في ظلمة غرفته ذهابا وايابا .. الشرر في عينيه لايعبر حتى عن جزء ضئيل من نيرانه ...

كلما تذكر وجهها .. نظرات عينيها وهي تنطق بتلك الكلمات من فمها يجن جنونه ..

لم يضع لقمة في فمه منذ عودته ويحتجز نفسه هنا ومغلقا عليه جناحه بالمفتاح رافضا كل محاولات خلود ليتناول العشاء على الاقل..

لن يهدأ حتى ينفذ ما خطط له ويعد لتنفيذه منذ صباح الغد .. لن ينتظر اكثر ...

يقسم بالله سيذيقها المر الحنظل الذي حشرته حشرا في فمه !

سيريها فداحة الذي فقدته للابد وهي تركله خارج حياتها وكأنه ... هم ثقيل ..!

ان لم يجعلها تندم لن يكون عبد الرحمن الصائغ ...

صباح اليوم التالي .. الخميس ..

اخر ايام الاسبوع

تحضر حسناء لنفسها الشاي فتبحث عن قليل من السكر فلا تجد .. ترتشف الشاي مرا غير مستساغ فترتضيه بقناعة ...

ابدلت ملابسها البيتيه بجلباب بسيط صوفي بلون يميل للخضرة الداكنة ثم وضعت الوشاح المجعد فوق رأسها لتتبعه بالعباءة .. تلملم اطراف عباءتها وهي تتجه ناحية باب شقتها وتضم تحت ابطها لفافتها من القماش التي تفترشها للخضار ...

فتحت ترابيس الباب المتهالك وهي تحمد اللّه ان ليلة الامس كانت هادئة تماما ولم تسمع قرعا على بابها كالمعتاد ...

يبدو ان عودة تحسين لها اثر ايجابي ...

تمتمت في سرها " اذا استمرت الامور على هذا المنوال فربما لن أحتاج اعادة التفكير بعرض سيدي ابي جعفر بل .. ولن أزعجه مرة اخرى .."

خرجت حسناء عبر الباب وحالما اغلقته تنبهت بانشداه لما كتب على ذاك الباب باحد الاصباغ الحمراء !

(تحسين) .. هذا كل ما كتب !!

شهقت عفويا وهي لاتعرف ما معنى هذا ؟!

منكسة الرأس تخفي معظم وجهها بطرفي العباءة كما تفعل بالعادة اخذت حسناء تسير في طرقات الحي تتجنب جهدها تجمعات المياه من اثر مطر الامس ... شاردة محملة بالهموم والافكار التي تعلم جيدا انها لاتتمتع بالذكاء لاستيعابها او التصرف فيها ..

ومن بين الهموم لايبرز الا وجه سيدها رضا فكأنه واحة من ماء عذب وسط الصحراء ..

فجأة ناداها صوت جهوري " حسناء ..."

تجمدت خطواتها واوشك ان يسقط منها ما تحمله عندما التفتت للخلف فتراه هو بخشونته المنفرة التي بدت اكثر بروزا في وضح النهار ...

ابتسامته الصغيرة جعلتها تختض في داخلها وقلبها يقرع بعنف في صدرها بينما تعتصر باناملها طرفي العباءة فتكاد تخفي حتى عينيها دون ان تشعر ..

همست بسذاجة والرعب يجفف الدماء في عروقها " كيف ... عرفتني..؟! "

يبتسم بتسلية وهو يرد

" لم اعرف ... جربت حظي فقط .."

اقترب منها و تشققات شفتيه الجافتين تضيف مزيدا من الخشونة لابتسامته بينما يتجاهل سؤالها ليطرح هو سؤالا بتشدق وقح " منذ متى تتشحين بالسواد وتخفين وجهك هكذا ؟"

ذاكرتها تعيدها لايام مراهقتها حيث كانت تهاب وتخاف تحسين المراهق الذي لايكبرها الا بأربعة اعوام... شرسا عنيدا عنيفا .. لايهاب الموت ...

ولايردعه عن فعل شيء ... اي شيء..!

مع هذا كان يحسب حسابا لوالدها ويكن له احتراما نسبيا لايبديه لاحد غيره .. ربما لان والدها كان يجيد معاملته .. فهل الماضي يجعل تحسين يحميها الآن ولا يمسها بسوء ؟

ردت حسناء بارتعاش الخوف وعيناها تزوغان بالنظر في كل اتجاه " زوجي .. كان متدينا.. كان مؤذن الجامع .."

ليواصل تحسين تشدقه واقترابه حتى اصبح لايفصلهما الا بضعة سنتيمترات

" اكثر تدينا من والدك ؟! عجيب .. لكني اظنه كان لديه اسباب اخرى .. كأن لايضمن تأثير حسنك على المارة .."

ابتعدت حسناء للخلف وهي تهمس باضطراب وخوف مريعين " بـ...بالاذن ....."

اوقفها بالقول الصارم واللهجة الجافة

" هل هناك من يضايقك بشكل خاص ؟ عدا زوار اخر الليل ممن يطرقون بابك طمعا فيك .. سكيرا او مخدرا او ... لاهثا لشهوته ..."

تسمرت حواسها تحدق فيه بوجل بينما يضيف بقساوة وعنف

" كل شيء سيتغير ... اعدك يا حسناء .. لن يقربك رجل في حرام او ... حلال ! "

كانت تختض وهي تحدق في جدية نظراته وتهتف في سرها بلوعة

" دخيلك يا ابا جعفر .. اغثني ..."

بيت الصائغ

التزم رضا الصمت وأطرق برأسه بينما تزغرد امه وهي تحتضن اصغر اولادها ويقف حذيفة على بعد خطوات عابسا !

بينما عبد الرحمن بملامح وجهه الجامدة يستسلم لقبلات امه ..

حتى خلود اخذت تزغرد وسوسو تحاول تقليدها باطلاق اصوات مشابهة للزغرودة..

لم يحتمل عبد الرحمن اكثر فقال وهي يسحب نفسه من احضان امه " يجب ان أذهب امي .. تأخرت على محاضراتي .."

اخذت سعاد تدعو له " في حفظ اللّه يا عريس.. اللهم صل على محمد وال محمد .."

تبسم مجبرا في وجهها ليضيف بقساوة مبطنة وعيناه تخطفان ناحية اخاه الاكبر رضا

" فلننتظر ونرى رأي العروس فربما .. لاتقتنع بي .."

شهقت سعاد وهي تضرب بكفها على صدرها لتقول بعبوس وتحيز امومي

" من هذه التي تتجرأ وترفضك ؟!! هل تحلم فتاة بشاب افضل منك؟! هذه امها قد دعت لها في ليلة القدر لانك اخترتها .. بل قل ربما لن تعجبنا نحن ..."

رد عبد الرحمن بمناغشة تخفي نيرانه التي لم تهدأ منذ البارحة " ستعجبك يا سعاد .. انها جميلة جدا وتدّرس في الجامعة مثلي .."

قبل رأس أمه قبل ان يتحرك ناحية رضا ليقول له بصوت ثابت النبرات

" سأكلمها قريبا وأخبرك بما سيحصل مباشرة .. واذا شاء اللّه ان يكون هناك نصيب سنتقدم دون تأخير لطلبها بشكل رسمي من والدها .."

رفع رضا عينيه لاخيه الصغير الذي رباه فيمعن النظر فيه وكأنه يسأله

(لماذا الآن ؟ اصبر اكثر ..)

لكن يقول بدلا من هذا

" اريدك ان تمر علي في المحل الكبير هذا اليوم .. لاتفاتح الفتاة قبل ان نتكلم .."

فيرد عبد الرحمن بصوت ثابت وعينين عازمتين بعناد لايقبل التفاوض " سأحاول رضا لكني لاأعدك اني سأستطيع زيارتك نظرا لجدول محاضراتي المزدحم هذا اليوم .. في مطلق الاحوال التفاصيل ليست مهمة لي .. اريد فقط ان اتزوج باقرب وقت .. الخطبة والزفاف خلال شهر لااكثر .."

ضيق رضا عينيه ولم يعقب بكلمة بينما استدار عبد الرحمن وهو يغادر مغمغما بالسلام..

ناداه حذيفة وهو يخرج للمرآب خلفه

" توقف عبد الرحمن ..."

رفع عبد الرحمن رأسه لاخيه وهو يفتح باب سيارته ليقول بهدوء " نعم حذيفة .."

قال حذيفة عابسا " ما معنى ما حصل للتو ؟! لماذا تريد الزواج من فتاة غريبة ؟"

بابتسامة ساخرة يخفي مرارتها سأل عبد الرحمن " وهل عندك عروس .. قريبة ؟"

رد حذيفة وحيرته تكاد تقفز من نظراته

" اجل عندي .. هناك خلف الباب المقابل لبابنا يا ابن والدي .."

تصلبت ملامح عبد الرحمن قبل ان يقول بجمود " لارغبة لي باحدى بنات العطار.."

هتف به حذيفة وهو يضرب بقبضته على حافة باب السيارة المفتوح

" ليس (بنات العطار) .. انها ابنة واحدة انت تهواها منذ مراهقتك .. العسلية رباب ان كنت نسيت الاسم .."

رد عبد الرحمن بنفس الجمود وهو يحاول ان يدخل السيارة " لااعرف عما تتكلم .."

امسكه حذيفة من كتفه يمنعه الدخول والجلوس بمقعده وهو يهزه قائلا

" ماذا حصل ؟! انا استشعرت وجود امر غريب بينكما منذ اشهر .. لكني لم أفهم .. وقلت ربما خصام المحبين .. لكني لست غبيا حتى لافهم كل الاشارات الجاذبة التي تجمعكما.."

عندها فقد عبد الرحمن سيطرته ليهتف به

" يبدو اننا جميعا التقطنا اشارات جاذبة خاطئة ..! هل تفهم يا حذيفة ؟ كلنا فهمنا خطأ ..!"

اتسعت عينا حذيفة وهو يرى هذه المرارة .. هذا الألم .. هذه النيران التي تشتعل في قلب اخيه ..

تمتم حذيفة " ماذا حصل ؟ اخبرني فقط ماذا حصل ؟ لاتتعجل الارتباط باخرى وقلبك مع رباب .."

هدر عبد الرحمن بعنفوان وهو ينفض عنه ألمه ويطفئ نيرانه " كل ما حصل لايهم .. المهم ما سيحصل .. وانا سأتزوج واستقر وانجب الاطفال .. الكثير من الاطفال .. كلها سأفعلها هنا .. في بيت الصائغ ..."

ارتفع حاجبا حذيفة بينما يفلت كتف اخيه ليتركه يستقل سيارته ويغادر ...



كان ينطلق بسيارته بسرعة مبالغ فيها مثيرا
تراب الشارع من خلفه بينما تفتح رباب باب
المرآب وتحدق في اثره بوجوم ..

انها متأكدة بأنه رآها كما رأته ..

لكنه تجاهلها .. لا .. لم يتجاهلها تماما بل
رماها بنظرة خاطفة .. اقرب للتوعد !

أجفلت وصوت شذره يأتيها من الخلف

" هل كان هذا عبد الرحمن ؟! لماذا يقود
سيارته بهذه الطريقة المخيفة ؟!"

هزت رباب كتفيها بصمت ثم عادت لسيارتها
وقبل ان تفتح بابها عرضت على شذره ما
تعرضه دوما وترفضه شذره بأدب

" أستطيع ان اوصلك لمحطة الحافلة
المدرسية .."

فتبتسم شذره بتلك الطريقة التي تعبر عن
حاجتها للحفاظ على كينونتها وتقول بمحبة

" شكرا لك انا تعودت استخدام الحافلة
العامة التي توصلني للحافلة الاخرى .. كما
ان طريق محطة الحافلة المدرسية معاكس
لطريق جامعة رقية .."

قالت رباب بتنهيدة خافته " الاميرة المبجلة
رقية قررت ان لاتذهب للجامعة منذ الصباح
الباكر وفضلت تفويت المحاضرة الاولى
لتحظى باحلام سعيدة قرب بيتها الخشبي ذو
القلوب ومع دمياتها الصغيرة القطنية.."

ضحكت شذره بخفة وهي تقول

" يحق لها ان تحب ذلك البيت المميز .. انه حلم اي فتاة ان تحظى ببيت مماثل في طفولتها ..."

قالت رباب بشجن وهي تشرد بعيدا

" ابي طلب صنعه من احد النجارين بشكل خاص لرقية .. كانت في السابعة ورأت بيت باربي في التلفاز فارادته بشدة ليعدها ابي ان يمنحها بيتا افضل واكثر ثباتا ..."

تمتمت شذره وهي تسبل اهدابها

" رحم اللّه عمي يونس .. كان رقيق القلب ولا ازال اذكر زياراته لنا في مدينتي .. "

فرددت رباب وهي تستقل سيارتها " رحم اللّه والديك ايضا يا شذره .. جيل الطيبين نحنّ اليهم دوما ولرقة قلوبهم وصفاء نفوسهم .."

هزت شذره رأسها بصمت تخنق تكتم عبرتها..

وبينما تتحرك رباب بسيارتها للخلف هلت خلود عبر الباب المقابل تسبقها الصغيرة سوسو التي تطلق اصواتا اقرب للزغاريد وخلود تضحك ..

اخرجت رباب ذراعها عبر الشباك تداعب خد سوسو الناعم وهي تضاحكها بالقول

" يا قطعة المثلجات الملونة هل تتدربين على الزغاريد لاجل عرس حفيدة الخالة بدرية ؟"

تتقافز سوسو بطفولية لاتتناسب مع سني عمرها الحادية عشرة ولا تتلائم مع نضوج جسدها المبكر الذي يسبق نضوج اجساد قريناتها من الفتيات لتهتف بفرح وابتهاج

" أبودي سيتزوج .. أبودي سيتزوج ..."

وبينما تعلو اصوات المباركة من شذره تشاركها ابداء الفرح خلود ويزداد تقافز سوسو بحماس اكبر كانت رباب مصعوقة الملامح عيناها كلوحي زجاج براقين يوشكا ان يتحطما ويتناثرا شظايا !

يسير على جانب الرصيف يتخفى عن اثارة الانتباه تحت اغصان الاشجار المتدلية ..

لايظهر الا نصف وجهه من ياقة معطفه الاسود كجناح غراب ..

يغطي رأسه بسدارة بنية عفا على طرازها الزمن وعيناه تلمعان من تحت حافة تلك السدارة..

يدفع باب البيت الصغير الموحش ليدخله وهو يلتفت يمينا ليلقي نظرة اخيرة من فوق كتفه على ما يجري في الشارع ... هناك .. ما بين بيت العطار المجاور لبيته وبين بيت الصائغ المقابل..

يبتسم سعدون بطريقته التي تزعج الاخرين دون ان يتعمد ازعاجهم ثم يكمل طريقه

للداخل ليبحث عن مصدر دفئه الذي يبدد
وحشة جدران عقله وبرودة روحه القاتلة ..

يجد ضالته ويحقق هوى نفسه بين طيات
دفتره الخاص ...

يلتقط القلم ويكتب ..

" عجبا .. عجبا .. عبد الرحمن الصائغ سيتزوج
من فتاة اخرى غير رباب العطار ..!!! هل تراني
كنت مخطئا وانا اراقب من سنوات اهتمامه
بها؟ ام انه شعر بالملل منها وهجرها ؟ او ...
ربما .. ببساطة تعالى عليها وفضل اخرى
ليربط اسمها باسم عائلة الصائغ ؟ "



الفصل السادس

في محل صغير نسبيا لبيع اسلاك كهربائية محلية الصنع و بسعر الجملة ..

تبسم خليل وهو يرد على زوج اخته

" هل حقا صنعته لها بنفسك ؟ لن تصدق فرحتها من هديتك هذه .."

يرد حذيفة وهو يتنحنح

" انها ليست هدية يا فتى .. فقط هي تحب الطبخ واعداد الخبز بنفسها وأراها تتعب وهي تستخدم القرص المعدني المحدب فوق الطباخ.."

يضحك خليل بخفوت وهو يقول له

" وربما انت طماع ذو بطن تحب الاكل وتستذوقه بمزاااج فتتدلل على اختي .."

عاد حذيفة للتنحنح وهو يغير الموضوع

" هل هناك طلبية اضافية للاسلاك هذا الاسبوع ..."

يرد خليل على احدهم ممن دخل المحل ويسأل عن سعر لفة الاسلاك ليخرج المتسائل ويعود خليل لحذيفة قائلا

" منتصف الاسبوع اتوقع سنحتاج لخمسين لفة جديدة .. لذلك اظن يجب ان تحسب حسابك لوردية اضافية للعمال ..."

غمغم حذيفة وكأنه يفكر " يجب ان اذهب لابو اسماعيل ليجهزنا بمزيد من النحاس .."

أغلق خليل الخط مع حذيفة ثم اطرق برأسه قليلا وهو يفكر للمرة العاشرة ربما .. لماذا لم يخبر حذيفة عن .. اشجان ؟!

ما زالت عيناها كزجاجتين براقتين وحالة الجمود مستمرة تشل قدرتها على الاحساس وابداء ردة فعل ...

لاتعرف كيف قادت سيارتها ووصلت لدار الازياء .. لاتعرف كيف ردت على بعض العاملات الجديدات هنا وتعاملت معهن بحرفية وديناميكية و .. جمود !

حدقت في ذلك الفستان ..

فستان عرس خاص وفكرت ببلاهة ربما سيليق بعروس عبد الرحمن !

اختضت داخلها المشاعر ومن حيث لا تدري حاوطتها عيناه وذكريات تلكما العينين بتاريخهما الطويل معها ... فتبدأ بذكرى عودته للوطن بشكل نهائي ...

(بعينين لاتعرفان حدودا للنظر يلقي السلام وهو يقف قبالتها حاملا صحنا فاحت رائحته بما تشتهي " صباح الخير يا قرفة .."

تنكس رأسها عن تعمد لتتحاشى النظر لعينيه فترش مزيدا من المياه المتدفقة من الخرطوم وتشطف في نفس الوقت بماسحة مطاطية ذي

اليد الخشبية الطويلة كالعصا بينما ترد عليه بانزعاج " فقط لو أعرف من اخبرك ان ابي كان يسميني بـ(قرفة) ؟!"

تسمع صوته يتضاحك وهو يغيظها بالقول

" لاتنزعجي يا قرفة .. انت الافضل نكهة بين كل البهارات .. يكفي اني لااطيق أكل الهريس دون ان يتغطي وجهها ... بكِ ..."

سقطت الماسحة من يدها فانحنت باضطراب حانق لتلقطها عندما كان هو أسرع لينحني هو الاخر ويمسك الماسحة بتشبث مثلما تمسكها هي فترفع وجها عابسا له ليلتقي بوجهه عن قرب شديد ...

تراخى عبوسها طوعا واصابعها تتقلص حول اليد الخشبية للماسحة فتشعر برغبة عارمة ان .. تهرب ...!

لكنها بكل غباء تتسمر مكانها لتتساءل بغباء اكبر .. ماذا يسكب في عينيه لتتدفق تلك النظرات منهما نحوها ؟!

قال لها بهمس مبحوح وهو يطالعها بغيرة لايخفيها " لا احب ان أراك تشطفين خارج باب بيتكم .. هناك عيون وقحة تهوى التلصص ..."

ابتلعت ريقها ثم في غفلة تسحب الماسحة بعنف من يده لتقف منتصبة الظهر وتقول



" اتركني انهي عملي يا عبد الرحمن .. ليس لدي اليوم بطوله .. "

يقف على قدميه مبتسما بحرارة مغيظة ثم يمد يده بصحن ورق العنب قائلا

" هذا حلاوة عودتي للوطن لاستقر فيه .. قد لاتكون الحلاوة المعتادة التي يفترض ان تعدها خلود لاجلي في مناسبة كهذه .. لكن ليس بيدي حيلة وانت مغرمة بها ..."

تقسم بالله ان النار اشتعلت بخديها وهو يشاكسها بتلك النظرات التي تواصل تدفقها من منبع تجهل سره !

اوشكت ان ترفع الخرطوم لترش الماء على وجهه تحديدا عندما ضحك عبد الرحمن وقال بتفكه " اياك ان تفعليها يا قرفة .. خذي الصحن مني ودعينا نبدأ .. بالسلام ..")

مضى عامان كاملان على ذلك اليوم ..

عامان دأب فيهما عبد الرحمن ليتواجد حولها يفرض عليها اهتمامه واحيانا تحكماته غير المباشرة وهي بكل ضعف غبي لم تستطع قول (لا) حقيقية لكل ما يفعله .. بل تواصل الادعاء انها لاتفهم .. وانها لاتأخذ الامور على محمل الجد ..!

كان قد تغير عن عبد الرحمن الذي عرفته منذ طفولتهما ..



وكأنه كان مقيدا بأمر ما جعلته حبيس زنزانة كئيبة .. ثم .. فجأة تحرر وانطلق ..!

والتغيير حصل منذ اول سفره وتزايد بتسارع شديد خلال سنيّ دراسته في الخارج .. وقد لاحظت هذا بوضوح خلال زياراته لاهله كلما حصل على اجازة دورية من الجامعة ..

لم يعد الكئيب المنطوي العابس .. بل بات حيويا جريئا احيانا لكن دون ان يتجاوز حدوده معها ...

لاتعلم كيف اصبح متلاعبا هكذا ومؤثرا في انثوتها التي ارادتها ان تظل نائمة في غرفة مقفلة لاتعرف حتى هي اين ضاع مفتاحها ..

لكن عبد الرحمن وجد المفتاح ويناور ويغافلها في كل مرة ليفتح الباب متسللا فيناغش تلك الانوثة ويقلق منامها ...

" انا وصلت يا صاحبة دار العطار للازياء.."

شهقت رباب بقوة على صوت اختها حبيبة القادم من خلف ظهرها فالتفتت اليها شبه مصدومة فتراها امامها مبتسمة بجمالها المميز.. ضفيرتها الكستنائية الطويلة تدلت سارحة على كتفها الايمن ويدها تسترخي على وركها فيبرز تلقائيا ودون مجهود قوامها الممشوق واناقتها في بنطال كتاني ازرق تعلوه بلوزة صفراء فضفاضة متراخية في دلال على جذعها لتقول بحلاوة لاختها الاصغر المبهوتة الملامح

" هل افتقدتني لهذه الدرجة يا شريكتي ؟ "

في لحظة تهشم الزجاج البراق في عيني رباب ليتناثر كقطع مثلمة من الألم المبرح وتشرق من خلف الشظايا سيول الدموع وهي تركض ناحية حبيبة وبين احضان اختها اطلقت العنان للتعبير عن عذابها المكبوت وشقائها الخفي عن العالم أجمع ..

احتضنتها حبيبة تلقائيا وبدت للحظات مصدومة بردة فعلها لكن في النهاية استطاعت القول بهدوء وبعض الفكاهة

"لحسن حظك يا قرفة اني تسللت وحدي من البيت تاركة يحيى نائما مع مدللته .. الان.. اخبريني بكل شيء .."

عند الظهيرة

منتظرا في المقهى ...

يشرب سيجارته باضطراب وينفض رمادها في المنفضة المعدنية امامه التي عبّها عبّا بالسجائر منذ اقل من ساعة ...

ما يفعله خطأ .. خطأ ..

خطأ في حق جوري وخطأ في حق صغيرته حبيبة وخطأ في حق والده الذي انقذه قبل سنوات وأخذ بيده .. وخطأ في حق فتاة كـ... شذره ...

يا الهي .. لماذا لاتفارقه الاخطاء ؟!

لماذا كلما سلك دربا وجده محفوفا
بارتكاب الاخطاء الشنيعة ...؟!

(" هناك اخطاء الاعتذار لايصححها ! ")

رفع يده اليسرى ليضغط على صدغه وصدى
جملة حبيبة في اخر لقاء وحوار بينهما تنبض
في رأسه كما ينبض ألم الصداع المزمن ..

لاكثر من ثماني سنوات وهذه الجملة تنبض
مع قلبه حتى ادمنها كما أدمن صاحبتها ..

لكن ان هي الا لحظات .. مجرد لحظات من
الزمن مرت حين لمح عبر زجاج النافذة اللون
الاصفر للحافلة المدرسية وهي تتوقف في
مكانها المعتاد ... فتلاشى.. كل شيء !

وأهم ما تلاشى احساسه بوجود الـ..خطأ..

ومعه تلاشى الصداع و الحوارات المنهكة ..
تلاشت اي صور اخرى عدا صورتها هي ...
شذره.. شبه مستلقية فوق ذاك الرصيف..و ..
مستندة بظهرها على ذراعه هو ..

التقط مفتاحه وعلبة سجائره والهاتف النقال و
لم ينسَ ورقة صغيرة كتب اسطرها القليلة
منذ الصباح الباكر وبخط مرتبك كمراهق
يصارح محبوبته للمرة الاولى ..

تحرك ليغادر المقهى فتتسمر خطواته بعد
خروجه من الباب وهو يراها ...

تسير بخطواتها الهادئة .. تتلفت في خفية
يرتعش لها قلبه وهي تنقل نظراتها على طول
الناحية الاخرى من الطريق ...

انها تبحث عنه ... !

ولاتعلم انه جاء هذا اليوم مبكرا جدا وعاد لعادته الاولى ليجلس في المقهى..لكنه هذه المرة يجلس في انتظارها هي تحديدا دون حتى ان يطلب قهوته ..

ابتلع مهند ريقه وقلبه يقصف قصفا وعيناه تتجرآن التمعن والتدقيق فيها ...

كالعادة ملابسها بسيطة .. لاتزيد عن تنورة طويلة للكاحلين وبلوزة عادية جدا باهتة...

رغم هذا يراها جميلة جدا..ولاتحتاج للتأنق..

انثى تضج بانوثة مخفية خلف حشمتها ...

تتسع عينا مهند ونظراته تنحدر على انحناء وجنتيها فيختض في داخله هامسا دون ان يشعر

" يا الهي .. كم تشبهها ! "

عقله شبه مغيب وهو يفكر بتملكية تربط الماضي بالحاضر بالمستقبل .. انه سيكون ملعونا ان لم يكن هو الرجل الوحيد الذي سيعرف الانثى فيها ...

تحرك بعزم وهو يرمي وراء ظهره اي تفكير يزرع العوائق في طريقه اليها ...

اعترض طريقها بشكل فجائي أجفلها بشكل واضح وقد كانت تنظر في الاتجاه المعاكس، تتسع عيناها وتبرز الى حد الجحوظ بينما رفيقتها خلود التي تقف الى يسارها تبدي ردة فعل عابسة حمائية وهي تتقدم لتقف بينهما تقريبا وتقول بجفاف شديد

" هل من خدمة ؟"

فيلقي مهند تحية هبلاء وعيناه تسترقان النظر لوجه شذره المتورد وقد أسبلت اهدابها

" مرحبا ..."

سمع تمتمتها وهي ترد السلام بينما خلود تلك تقول ببعض الحدة وواضح انها تمسك اعصابها بشق الانفس

" مرحبا بك .. هل من خدمة ؟"

الطفل ذو السابعة بدا عابسا وللحظة غريبة شعر مهند انه رأى هذا الفتى في مكان ما او ربما في هيئة ما .. اين رآه ؟!!

سأل الفتى بجدية وعيناه تحدقان في مهند

" هل هناك مشكلة خالتي ؟"

سارع مهند ليتنحنح ثم قال باحترام

" أردت ان أطمئن على صحتها .."

ليبتسم بعدها بلطف وهو ينقل نظراتها من شذره المسبلة الاهداب لخلود الحانقة للفتى العابس في حمائية رجولية مبكرة للفتاة الاخرى التي تشبهه وتبدو من سنه ثم تستقر نظراته على الصغيرة الاخرى التي تكبر الطفلين ببضع سنوات .. بل تبدو اقرب لمراهقة منها لطفلة .. شقراء بشعر كالذهب الخالص ذات عينين زجاجتين .. الفتاة تبدو كقطعة اوربية خالصة !

و اجمل ما فيها هذه الابتسامة الطفولية فيبتسم مهند طواعيا بشكل خاص لها وكأن ملامحها الاوربية تصيبه بدهشة وجودها هنا في عمق بلاد الشرق ...

ردت خلود بتماسك اعصاب واقتضاب محذر من التمادي " انها بخير .. بالاذن .."

كانت خلود تمد يدها لتسحب شذره من ذراعها عندما سارع مهند ليناور في الاقتراب بتعمد من شذره وعيناه على حقيبتها الجلدية الكبيرة وهو يقول متصنعا البراءة

" هل استطيع تقديم اي خدمة .."

فترد خلود من بين اسنانها وهي توشك على الانفجار

" قدمت ما فيه الكفاية ذلك اليوم.."

ثم تلتفت لشذره لتعاود سحبها وهي تقول بحزم " هيا بنا شذره .. فاتتنا الحافلة .."

اراد مهند ان يستغل الفرصة ليعرض توصيلهم بأي حجة فخانته الاعذار بينما تتجاوز خلود مع صحبتها قائلة ببرود هذه المرة

" اسعدني لقاؤك .. دمت بخير .."

كان قد تحرك فعليا ليكون الى الجانب الايمن من شذره حيث تحمل حقيبتها على كتفها وبينما يفكر في طريقة لاعطائها الورقة دون ان يحرجها .. تفاجأ بها تتعثر فتحرك غريزيا ليمسك بذراعها بينما يسمعها تردد بخجل وحرج " عفوا .... اسفة .."

لم يتردد لحظة وهو يضع في خفية الورقة

الصغيرة في الجيب الخارجي المفتوح لحقيبتها

هامسا بقلب مرتجف قريبا جدا من اذنها

" انا .... احتاجك ..."

قرابة العصر

بيت العطار ...

خصل شعرها الملفلفة ترفعها بمشبك بينما

تدخل المطبخ قائلة بتذمر " انا جائعة ..."

ردت ابتهال وهي تصب الشاي لها ولرباب

الجالسة قربها على الطاولة المستديرة

" لم تتناولي غدائك مؤكد جائعة .."

تخصرت رقية لتقول بمزيد من التدلل والتذمر

" لا احب الثريد باللحم .."

تنهدت الام وهي تتعجب بالقول

" لكنك كنت تحبينه قبل شهر ! "

ابتسامة لعوب تراقصت على فم رقية وهي

تقترب من امها تحاوطها من الخلف بذراعيها

وهي تقول قرب اذنها

" اصبحت لا احبه يا ابتهال .. اللحوم الحمراء

تؤثر سلبا على البشرة .."

عبست ابتهال وهي تلتفت برأسها لصغرى بناتها

واكثرهن تدللا وهي تتساءل

" من اين لك هذا الكلام يا كل الرقة ؟!"

تضحك رقية ثم تطبع قبلة خشنة على خد امها قبل ان تبتعد وتقول

" قرأته في مكان ما... ربما على الفيسبوك او التويتر او ربما الانستغرام .. لااذكر صراحة.."

اخذت رقية تدندن وهي تفتح البراد تبحث عن اي شيء تأكله بينما تتنبه ابتهال لصمت رباب الذي طال ولم تشرب شايها حتى لتسألها باهتمام حنون " ما بك رباب ؟ هل ما زال الصداع مستمرا ؟ "

أسبلت رباب اهدابها وهي تقف على قدميها لتقول بهدوء وملامح لاتعبر عن شيء

" لاتقلقي امي اصبحت افضل الان .. سأخرج للحديقة قليلا وانتظر حبيبة .. قالت ستعود عصرا او قبيل المغرب مع يحيى وسكينة .."

ثم تحركت حاملة قدح شايها الزجاجي بينما تلاحقها كلمات امها القلقة

" الجو بارد يا ابنتي .. سيعاودك الصداع مرة اخرى .."

فترد رباب وهي تلتقط سترتها الصوفية من المشجذب المجاور لباب المطبخ المطل على المرآب

" لاتقلقي حبيبتي .. اذا بردت سأدخل من فوري .."

راقبت رقية بصمت الحوار بين اختها وامها وما ان خرجت رباب واغلقت الباب حتى اقتربت رقية تحدق عبر زجاج النافذة وتسأل امها بغموض غير محسوس

" ما اخبار الحي امي ؟ وكيف هم بيت الصائغ؟ مضى زمن لم اسمع اخبارا جديدة "

عندها تقول ابتهال ببهجة " آآآ .. نسيت ان اخبرك .. عبد الرحمن سيخطب فتاة يعرفها من الجامعة .. اظنها طالبة او متخرجة حديثا وتعمل هناك مثله .."

غامت ملامح رقية وهي تراقب خطوات اختها ناحية الحديقة بينما تسمع امها تضيف ببعض التحسر " كم تمنيته لاحداكما .. انت او رباب .. لكنها قسمة ونصيب .."

همست رقية " بل هو الغباء امي ..."

لم تسمعها ابتهال عندما رن هاتف البيت فذهبت للرد عليه بينما تقسو ملامح رقية في حنق وهي تتمتم " ايتها الغبية .. الغبية ..قلت لك ستخسرينه وتندمين .."

على الارجوحة الحديدية البيضاء المثبته في اخر الحديقة تجلس شذرة وفي راحة يدها يستقر جهاز الهاتف تدّعي امام نفسها انها تقرأ رواية على الانترنت لكنها في الواقع لاتركز بما تقرأ وكل بضعة دقائق تعود لفتح قائمة الاتصال تريد اضافة رقم هاتفه ...

(هذا رقم هاتفي .. اتصلي بي رجاء متى ما استطعتِ .. اريد ان اتكلم معك بأمر هام..)

رسالته الورقية المختصرة ربما كانت مريبة وتعلن عن النوايا السيئة لكنها لسبب ما تراها ابعد من هذا ..

تراه يحتاجها حقا ...

(انا احتاجك) ..

توردت وجنتاها وهي تتذكر همسته الصغيرة بعد ان اوقع رسالته خفية في حقيبتها .. قلبها يطرق بقوة كما يفعل في كل يوم عندما تراه بانتظارها على الجانب الاخر من الشارع ... انها تتعلق به ولاتكف عن التفكير فيه ....

الان ... ماذا عليها ان تفعل ؟! هل تتصل به لتسأله ماذا يريد منها ؟ هل ربما يود .. الزواج ؟

لكنه يكبرها بالكثير .. قد يكون مجرد متلاعب وغير جدي ..لكنها تشعره حقا جاد.. ويريدها هي تحديدا.. يريدها ويحتاجها..

لكن .. لماذا هي ؟!! لماذا هي بالذات ؟

" انت هنا شذره ؟"

أجفلت شذره قليلا وهي ترفع نظرها عن الهاتف وتحدق في وجه رباب ..

تبتسم لها بارتباك وهي تشد طرفي الشال الصوفي الاحمر حول كتفيها لتقول لها بلطف " نعم .. اقرأ رواية ..."

جلست رباب جوارها على الارجوحة وبيدها قدح الشاي لتقول باعتذار

" عذرا لم أكن ادري انك هنا والا كنت سأحضر لك الشاي معي .."

دون ارادتها ينتاب شذره نفس الاحساس .. ان وجودها باهت في عيون الاخرين ..

لا عمق فيه ولا روابط قوية تشده لبعضه ..

انها الفتاة (المعطوف عليها) ...

تمتمت شذره بهدوء " لابأس .. لم يشعر بي احد عندما خرجت للحديقة .."

تساءلت رباب وعيناها تبدوان غريبتين مطفأتين على غير طبيعتهما الحيوية النابضة " هل حقا تقرأين رواية من الهاتف ؟"

ردت شذره وهي تمعن النظر فيها " اجل .. تنشر فصولها اسبوعيا على منتدى روائي .."

صمتت رباب وبدت مغلقة تماما وبعيدة جدا فتسألها شذره باهتمام واندفاع عاطفي

" ماذا بك يا رباب ؟ لاتبدين بخير .. في الواقع اشعر انك .. كنت تبكين في وقت ما هذا اليوم .."

نظرت رباب طويلا في عيني شذره فترى فيهما غرابة ايضا فتسألها بنوع من المراوغة " وانا اشعر بك مرتبكة في سعادة هذا اليوم .."

تضرج خدا شذره بالحمرة وهي تهمس " انا ؟!"

حدس رباب كان مرتفع جدا وشديد الحساسية فتقرأ على وجه شذره علامات معروفة فتقول لها

" صارحيني شذره .. تكلمي معي كأخت .. ربما احتاج ان تتكلمي معي اليوم عما يخالجك اكثر من اي يوم اخر .."

بدت شذره اكثر ارتباكا وهي تبتلع ريقها وتقول " ليس هناك .. شيء .. انا فقط اشعر بالتفاؤل..والفرح .. وربما هذا يقلقني .."

عقدت رباب حاجبيها متسائلة

" يقلقك ؟ وما المشكلة في شعور كهذا ؟!!"

غامت عينا شذره وهي ترد بشجن " لاني اخاف من اي شعور كهذا .. "

اسندت رباب رأسها للخلف لتقول بنبرة هادئة

" كمن يضحك من قلبه ويقول (اللهم اجعله خير) .. الا ترين اننا شعوب تعشق الشجن ؟"

ردت شذره بلهجة عكست اصول مدينتها الاصلية التي عاشت فيها طوال حياتها

" ربما لان عواطفنا قوية اكثر مما يجب .. نتعلق بالارض والاهل بحماسة مفرطة ... ثم يقتلنا الحنين ونحن نسلخ عنها اجباريا .."

التفتت لها رباب لتسألها بتعاطف

" هل اتصلت بك عمتك ؟"

توترت شذره وهي تسبل اهدابها وتقول

" لا .. لم تتصل منذ الشهر الفائت .."

فتسألها بلطف " الن تذهبي لزيارتها ؟"

تقلصت اصابع شذره لتعتصر طارف ردائها البيتي بينما ترد باحساس موجع لايخلو من القهر " اشعر انها تستثقل مبيتي عندها .. وان ذهبت سيأخذ الطريق اغلب النهار ولن استطيع العودة للعاصمة الا بعد منتصف الليل .."

عرضت رباب المساعدة بالقول

" استطيع ان اسافر معك ونعود سوية في نفس اليوم .. يمكننا اخذ القطار "

فتبتسم شذره ابتسامة حزينة وترفع نظراتها لرباب وترد عليها بامتنان ضمني

" لايوجد قطار يصل لبلدتي وبالسيارة لااستطيع تحميلك هذه المشقة كما لايمكننا السفر والعودة بمفردنا .. شكرا لك لهذا العرض .. دوما تحاولين المساعدة .."

اخذت رباب تحدق في شذره لتسألها بغرابة

" هل غفرت لعمتك ؟"

للحظات قست ملامح شذره فتخرج الكلمات من فمها تفيض بالسخرية الباردة " غفرت لها ؟ تقصدين لانها رفضت ايوائي بعد ان اصبحت يتيمة وحيدة ؟ "

كانت لحظات اثارت في نفس رباب مشاعر مختلفة .. انها المرة الاولى التي ترى شذره تبدي نوعا من القساوة ..

اللحظات سرعان ما ولت لتستعيد شذره بساطة التعبير وهي تضيف بهدوء

" الجواب هو .. لاادري .. احيانا اشعر بالغفران والتسامح وحتى التفهم واحيانا اشعر ... بالغضب .. بالقهر .."

سألتها رباب باهتمام شديد لمعرفة الاجابة

" ألست مرتاحة معنا هنا ؟ صارحيني شذره .."

بدت شذره مترددة قبل ان تحزم امرها وترد بصدق " لقد جئتكم غريبة يا رباب .. لم نر بعضنا قبلها الا مرة او مرتين .. والدك رحمه الله هو من كان يزورنا مع خالتي ابتهال في كل عيد فطر غالبا .. واحيانا عيد الاضحى.. فهل تستوعبين مقدار حرجي من فرض وجودي على حياتكم هنا .."

عبست رباب وهي ترد عليها بنفس الصدق

" لاتقولي هذا شذره انت ابنة عمنا .. هذا بيت عمك اي انه بيتك .."

فترد عليها شذره ببعض البرود غير المقصود

" والدك ليس عمي حقا وانت تعرفين .. انه قريب لوالدي من بعيد نسبيا.."

لتصر رباب بالقول " وان يكن .. انت تحملين اسم العطار .. انت من دمنا ولحمنا .. وهذا البيت بيتك كما هو بيتي بالضبط .."

أطرقت شذره ولم ترد ثم تنبهت الفتاتان لصوت بوق السيارة لتقفز رباب في فرح قائلة

" ها قد أتت حبيبة مع سكينة ... اخيرا .. "

بيت الصائغ .. (الملحق)

في غرفة الغسيل بينما تفرز الملابس المتسخة على حسب ألوانها دخلت سوسو حاملة دفترها وهي تتدلل بالشكوى

" خود .. تعالي وساعديني في الرياضيات .."

التفتت خلود نحو الصغيرة التي تكاد تصل لكتفها " يا فتاة اني اغسل الملابس وعندي مكوى ايضا يجب ان انجزه الآن .. ادرسي شيئا اخر حتى انتهي .."

التصقت سوسو بها وتناديها بتدلل

" خووووووووود .."

تركت خلود ما في يدها لتحاوط الفتاة بذراعها ثم تقبلها فوق شعرها الاشقر المميز الذي تضفره بضفيرتين طويلتين براقتين لتقول بعدها " توقفي عن مناداتي (خود) يا سوسو .. والدك يزعجه هذا ويتهمني دوما اني اشجعك لتتصرفي كالاطفال الصغار .."

توقع سوسو دفترها ارضا ثم تلف ذراعيها بقوة حول جذع خلود تهمس بحرارة وحنان مميزين

" انا احبك خود ..."

تتنهد خلود وتشدد من احتضانها مستسلمة لاصرارها على مناداتها بنفس الاسم وتهمس لها

" وانا احبك يا روح خود .."

خيال ضخم سد باب غرفة الغسيل فالتفتت الاثنتان اليه لتريا حذيفة يقف هنا متكتفا يحدق فيهما بنظرات عميقة...

ركضت سوسو ناحية والدها ليلتقطها بين ذراعيه ويحملها لصدره يعانقها بعاطفة اب شغوف هامسا في اذنها بكلمات بلغة امها مما كان يغيظ خلود احيانا رغم قناعتها ان من حق الفتاة معرفة هوية امها ومن اي اصل جاءت..

اقتربت خلود بتوجس وهي تنظر اليه يضاحك سوسو ويدغدغها فتسأله وهي تحاول ان تبدو الامور طبيعية " لقد عدت باكرا جدا ... ما زلنا العصر .."

نظر اليها من فوق كتف سوسو التي يحتضنها ثم يقول بجفاف " احضرت تنورا غازيا .. وضعته في زاوية مخفية من الحديقة الخلفية حتى لاينزعج احد من منظره .."

انتشر الفرح في كل خلاياها لتقترب منه تهمس كطفلة " اشتريت تنورا لاجلي ؟"

عبس حذيفة ثم تنحنح وهو يرد

" لم اشتريه بل صنعته بنفسي في المعمل.."

اصبح فرحها الآن كمفرقعات العيد يتطاير بعشوائية في كل اتجاه فلم تشعر بنفسها الا وهي تحتضنه كما يفعل هو لسوسو هامسة بتحشرج وتأثر " صنعته .. لاجلي ؟!"

ذراعه ترددت ان تحاوطها ثم تصلب وهو يرفض الانصياع لرغبته في احتضانها ليقول بنفس الجفاف " اريد خبز العروق باللحم الضأن .."

الدموع تلألأت في عينيها المختبئتين في صدره وهي تفكر بخصامه الذي طال ..

همست وهي ترفع وجهها له " هل صالحتني ؟ "

بتعنت رد وهو يبتعد عنها وينزل سوسو ارضا لتركض خارج الغرفة لاهية عنهما بطفوليتها

" لا ... لكني اريد خبز العروق باللحم .."

تلاحقه وهي تقول بفرح منقوص

" بعد المغرب سيجهز ومع الشاي المُهيل .."

توقفت خطواته قبل ان يغادر الغرفة الصغيرة المربعة ليلتفت اليها بوجهه قائلا بتشدد

" حضري العجين وانتظريني لأكون قربك عندما تعملين على التنور .."

كان سيبتعد عندما نادته بتضرع يمسه في الصميم " حذيفة .."

لم يلتفت هذه المرة وانتظرها تتكلم لتسأله بنفس التضرع " صالحتني اليس كذلك ؟"

ابتسم رغما عنه وقد كان يوليها ظهره فلا ترى تلك الابتسامة ليرد بعناد " لا .. "

ثم تحرك ماضيا ناحية باب الملحق ليخرج للحديقة بينما خلود تمسح تلك الدمعة

اليتيمة التي هطلت على خدها فتبتسم بفرح غامر وتهمس بنفس العناد

" بل صالحتني .. وسأقنعك يوما ان هذا كله لمصلحتك .."

قاد عبد الرحمن سيارته بتمهل في شوارع العاصمة ... جاب الاحياء الشرقية والغربية .. الجديد المبهرج منها ببيوت حديثة الطراز والقديم المتهالك الآيل للتداعي والسقوط .. دخل أزقة لم يفكر يوما بدخولها .. ورآى اماكن لم يزرها منذ وفاة والده ...

والساعات تمر بطيئة منذ انتهاء جدول محاضراته لهذا اليوم ومغادرته الجامعة ظهرا..

يشعر بحجر ثقيل مكان قلبه والهلاوس تتلاعب بعقله بصور متفرقة لوجه رانية وهو يفاجئها بطلب الزواج !

الصدمة تلتها الفرحة الغامرة حد الانهيار العاطفي وتسارع انفاسها حد اللهاث الحار ..

بدت طفولية بطريقة محببة وهي تتلقى عرضه المقتضب بالزواج ثم وعدته انها ستتصل به مساء بعد ان تخبر والديها بالامر .. وبكل بساطة دونت رقم هاتفه واعطته رقم هاتفها دون ان تواري تنهداتها ...

ردة فعلها ارضت جانب الرجل فيه .. لكن لم تستطع المساس بقلبه ..

شتم عبد الرحمن بعنف وهو يوقف سيارته جانبا ثم يترجل منها لتقوده خطواته التائهة هذه المرة في شوارع متلألئة باناراتها ومحلاتها التجارية المتنوعة ... شوارع لايعدو عمرها العشرون عاما ، فلا هي معتّقة بالماضي الاصيل ولا خلعت ثوب اهل البلد لترتدي ثوب الحداثة العصرية وتدخل حلقة (العولمة) حيث يتشابه كل شيء وفي أي شيء ليكون العالم (قرية واحدة) لاتحمل اي خصوصية ...

انه شارع حيادي يحمل رائحة اهل البلد ..

المارة يكتظون فيه مع اقتراب غروب الشمس وكأنهم يجدون في تلك الانارة الخافتة الربانية أنسا وحلاوة تناديهم ليسرحون في تلك الشوارع الاليفة الزاهية ..

برد الشتاء يحلو مع الرائحة المنبعثة من عربة خشبية بسيطة بائعها ينادي المارة ليتدفؤوا بصحن بقوليات مسلوقة .. فينادي بصوته المرنم (باقلاء .. حمص .. مع الحامض او الخل ..) ..

اشترى عبد الرحمن صحن حمص منه و رشّ عليه الخل ثم انزوى قريبا يأكل بشهية مفتوحة ...

اللقيمات تتسلل لفمه بشرود وهو يغرق بافكاره .. كم يحتاج في هذه اللحظات لـ (دراكولا) كما ينعت صديقه الحميم رعد..

صديقه الذي ساعده دون قصد منه ليشعل فتيلا خامدا فيه ..

لسنوات مراهقته كلها قضاها يبتعد عن جنس الفتيات ولايثق بنفسه في حضورهن ..

لم يكن يفتقد الثقة بنفسه ليثير اعجابهن بل كان يحتاج لثقة انه لن تفلت الامور منه ويؤذي احداهن كما فعل ... حذيفة... من سنوات ..

لسنوات طويلة لم يكن يفهم ولايريد ان يفهم .. لانه كان يخشى ما سيوصله اليه هذا الفهم ...

ان تكون العلة فيه وفي جيناته التي ربما ورثها عن اخيه او ربما تطبع بها بحكم الاعجاب المفرط ..

ثم عاد حذيفة من نفيه الاجباري في بلاد الغربة حاملا على كتفه صغيرته سعاد فانتفض كل شيء داخل عبد الرحمن مرة واحدة وعاش ثورة عارمة من التخبط والغضب واللوم وحتى الحقد ولم ينقذه الا سفره لكندا ..

وهناك في بلد الشتاء الدائم والثلوج الكثيفة تعرف على (دراكولا النساء) ..

رعد شاب خفيف الهموم واضح وغامض في الآن نفسه .. يحب فصيلة الاناث حتى جذور شعره.. يدعوهن بالحلزونات لاسبابه المضحكة الفكاهية .. فيراهن ناعمات ملساوات بطيئات في التحرك بغية الدلال ثم يدعين الخوف والحشمة فيختبئن في بيوتهن الواهية ..



ربما جاراه قليلا بعبثه مع الفتيات لكنه لم يتمادى وكانت له حدود دوما يتوقف عندها..

ارتج جيب عبد الرحمن قبل ان يرتفع صوت الرنين .. تنهد وهو يدس في فمه اخر لقمة قبل ان يعيد الصحن لبائع البقوليات ويخرج هاتفه فيميز الرقم ويرد على .. المتصلة ...

" مرحبا رانية .."

صوتها الذي تنبعث منه نفس موجات الانهيارات العاطفية استجلب ابتسامة لفمه وهو يسمعها ترد عليه بارتباك " مرحبا .. عبد الـ..رحمن"

للحظات لم يشعر بأي ثقل في قلبه فيماشيها في عاطفيتها " ظننتك لن تتصلي حتى المساء .. فحديث المساء يليق برومانسيتك .. الشمس حتى لم تغرب بعد .. "

اخذت تتلعثم اكثر واكثر وهي تتمتم

" انا .. انا كنت .. بابا .. "

همس بصوت أجش " دعينا حاليا نتكلم عن (بابا) فقط .. هل وافق على اعطائنا موعدا للقاء ؟"

فترد ولهاثها الممتع يتصاعد " نعم .. نعم .. غدا الجمعة .. اذا .. ناسبكم ..ويقول .. لك ان .. تتصل به بنفسك لو .. سمحت.."

فيرد بمناغشة " اسمح ... ولماذا لا اسمح ..؟!"

تضحك ضحكة مرتعشة وهي تهمس بتسارع

" سأبعث لك رقمه ... الى .. اللقاء .."

وقبل ان يرد عليها كانت تغلق الخط

فيضحك عبد الرحمن وهو يعيد الهاتف

لجيبه ...

رفع نظراته تجذبه شرائط ملونة معلقة بزاويا

العربة الخشبية لبائع البقوليات ...

فيعود نفس الحجر الثقيل مستقرا في عقر

قلبه ..وللحظات مسروقة يرخي اهدابه ويتوه

في حلم جدائلها الملونة الهاربة من اصابعه..

رافقته تلك الجدائل طويلا جدا لكن حان

الوقت ليقصها ! حان الوقت ليمضي قدما

ويتناساها تماما ...

لهذا السبب تهرب من رضا هذا اليوم ...

لهذا السبب صارح رانية برغبته بالزواج منذ

رآها صباحا في الجامعة ..

كان يجب ان يفعلها .. حتى لو كان يموت

وجعا وهو يفعلها ..!

تحرك عبد الرحمن عائدا بخطواته الى حيث

ركن سيارته ..

لقد حان موعد العودة للبيت ..

لكنه ما أن دخل سيارته حتى فتح هاتفه

ليتصل برضا ...

يجب ان يخبره قبل اي شخص اخر ...

عند المغيب ...

عائدتان من السوق القريب في الحي تحمل رباب الصغيرة سكينة وتدلك ذراعيها حتى تدفأ.. تضحك من قصصها الطفولية عن زيارتها لامريكا فتشجعها رباب لقول المزيد وهي تتلاعب بضفيرتيها الكستائتين كلون شعر امها ..

قالت سكينة وهي تتشبث بعنق خالتها

" اريد ان آكل البطيخ .."

تضحك رباب من قلبها ثم تقول

" البطيخ في الصيف فقط يا سكينة "

كانتا توشكان على الوصول لباب البيت عندما شعرت رباب باقتراب سيارة من خلف ظهرها ثم تهدأ اناراتها لتتوقف السيارة عند الباب المقابل لباب بيتهم ..

تعثرت رباب واوشكت ان تفقد توازنها وهي تشعر به يترجل من سيارته فتتحامل على نفسها لتسير باعتدال حتى تصل مبتغاها ..

يا الهي بضع خطوات فقط وتصل باب المرآب ...

" رباب ..."

اغمضت عينيها لثوان فقط تشجع نفسها بالهمس الداخلي (انها فرصتك .. دعيه يقتل ما تبقى .. دعيه يقولها لك وجها لوجه .. وعيناه في عينيك انه .. سيتزوج بأخرى ..

ستكون له حياته .. زوجته واولاده .. بعيدا .. عنك .. ألم تسعي بنفسك لتحقيق هذا الهدف ؟! اذن ساعديه اكثر وساعدي نفسك .. اجل .. حان الوقت لك ايضا لتكملي مشوار حياتك كما خططتها من سنوات ..)

فتحت عينيها اخيرا قبل ان ترسم ببراعة فنانة ابتسامة خلابة على فمها المرتعش ثم تستدير اليه بانضباط نفس يكلفها الكثير الكثير من ... الألم... قائلة ببشاشة توجعها حتى الموت " مرحبا عبد الرحمن .."

لو لم تبكي بخزي امام حبيبة صباح اليوم فلربما كانت ستنفجر الان بالبكاء امامه وعندها لن تتوانى عن قتل نفسها من شعور الخزي المضاعف ..

اقترب عبد الرحمن ليقف قبالتها عيناه للحظة خطفتا مرورا على ابتسامتها قبل ان تتجاهلان النظر لوجه رباب الشاحب رغم الابتسامة الخلابة فيحيد ببصره ويمعن النظر في وجه سكينة الصغيرة ، ثم تجذبه اظافرها المطلية بألوان مختلفة .. كل اظفر صغير يشع بلون من ألوان قوس قزح ..

لا بد انها فعلة ... رباب ...!

كم يتمنى لو يخنق رباب بيديه فيبرحها ألما مما يعصف به من ألم ..

يمد يده بألفة ليلامس اصابع سكينة قائلا بنبرة غامضة " طلاء اظافر .. مضحك ..! تذكرينني بفتاة حلوة مثلك يا سكرة .."

سحبت سكينة يدها وهي تعبس بوجهه قائلة ببعض الوقاحة

" اسمي سكينة وليس سكرة .."

توبخها رباب وهي تلهث من شدة تحاملها على ألمها الداخلي المكتوم بعناية وصلابة ..

" سكينة .. تأدبي في الكلام ! "

تدير سكينة رأسها جانبا بعيدا عن الرحمن ليظهر جليا جانبها المتمرد بينما يقول عبد الرحمن بتفكه " الصغيرة لاتحبني حقا ! رغم انها تحمل نفس دمي .. دم ابن عمنا الصائغ .. ترا .. الا يحن الدم ؟!"

ردت رباب بنفس التصلب " انا اسفة .. انها تحب اسمها وترفض ان يدللها احدهم بأسم اخر .."

يدور بعينيه فوق وجه الصغيرة كأنه فتى شقي متلاعب ليقول بصوت أجش وابتسامة اكثر تلاعبا

" ملامحها تشبه ملامح يحيى لكن عندما تعبس هكذا تبدو كحبيبة بالضبط .. وللحظات .. لحظات فقط .. تبدو شبيهة بك.."

عيناها اصطدمت بعينيه وتلك الابتسامة الشامتة الصفراء على شفتيه سحقت قلبها سحقا ...

يلقي نحوها عبد الرحمن نظرة مترفعة هازئة قائلا بابتسامة

" كيف حالك اليوم ؟.."

ورغم جزع الروح لرؤياه متفاخرا مهاجما بضراوة قاسية هكذا ورغم الألم الذي ينبض في الشرايين كالوباء الذي اكتسح.. شمخت رباب بذقنها لتقول له

" بخير الحمد للّه .. وانت كيف حالك ؟ سمعت انك توشك على خطبة فتاة .. مبارك لك عبد الرحمن .. وليتمم لك اللّه على خير .."

تحجّرت ملامحه الخشنة وبدى موشكا للحظة على فعل متهور احمق ثم في اللحظة التالية كان يسترخي تماما وعيناه تتركزان على ابتسامتها التي تتراقص بارتعاش شفتيها قائلا

" شكرا لك ... العرس قريب ان شاء اللّه و.. يهمني حضورك .."

اذن ... فعلها حقا .. لاتراجع !

لم يُطل الوقوف امامها .. وربما بقي في قلبه ذرة رحمة ليلتفت ويرحمها فيتركها تستسلم لطاقات الألم التي تدوي في الشرايين ...

التفت عبد الرحمن وقد اصبح الامر لايطاق وبينما يوشك على التمتمة بسلام عابر سمع صوت يحيى من عند باب يونس العطار وهو يقول بنبرة حلوة محببة للسامعين

" اين اختفيتما يا عسلية ..؟ منذ العصر وانت تتسكعين مع سكينة ..."

نظرات شرسة اخفاها الظلام قفزت من عيني عبد الرحمن وهو يلتفت لابن عم ابيه .. يحيى العطار ... ذلك الرجل المتجدد بشباب روحه..

تقدم يحيى بابتسامة واسعة يلتقط ابنته من بين ذراعي خالتها ثم يمد يدها مصافحا ليسلم على عبد الرحمن قائلا

" مرحبا بعريسنا .. قل لي .. من المحظوظة التي وقع اختيارك عليها ؟ رضا بدى متكتما بطريقة مغيظة ولم يخبرني بالتفاصيل .."

رد عبد الرحمن ببعض الخشونة وهو يطرق بنظراته وقبضته تتشنج

" لاتقلق ... ستعرفها قريبا جدا ..."

وجّه يحيى نظرات مباشرة لعبد الرحمن وبدا غامضا وهو يمعن النظر في ملامحه الخشنة ثم يلتفت لرباب فيقول بنبرة بدت لوهلة عادية جدا " لا اطيق صبرا لاراك عروسا انت الاخرى يا عسلية .. سيكون محظوظا من يحظى بحلاوتك .."

لم يعد الامر قابلا للاحتمال ..

لم يعد على الاطلاق ..

استأذنت رباب لتستدير عائدة للبيت بينما يناديها يحيى ببشاشة وهو يقول

" اخبري خالتي ابتهال اني سأقضي بعض الوقت مع رضا ثم أعود اليكم مع حبيبة وسكينة لتناول الحلوى .."



كان عبد الرحمن اثناء هذا قد تحرك بخطوات واسعة وداخله ينبض كقنبلة موقوتة بارودها غيرة تقطعه إربا إربا ..

تراخى يحيى في مشيته وهو يتبع خطوات عبد الرحمن النارية المتباعدة والذي سبقه الخطوات ليفتح باب مرآب بيت الصائغ ثم عاد لسيارته فيدخل بها البيت بينما كانت رباب تتلاشى هي الاخرى خلف الباب الحديدي لبيت يونس العطار ...

ارتقى يحيى درجات السلم المؤدي لبيت رضا الخاص وهو يهمس في اذن ابنته " هناك امر مريب ومثير يحدث يا سكينة .."

فترد الصغيرة وهي تعبس بتركيز

" اممممم .. اظن رباب لاتحب ان يناديها احدهم بـ(عسلية) ..."

يضحك يحيى ملء شدقيه وقبل ان يرفع يده ليطرق الباب نهاية السلم قال

" بل اظن (غيرها) لم يعجبه الاسم ... لكن ما ذنبي انا ؟! اخاه حذيفة من اطلق عليها هذا الاسم ... ! "

وبينما يسمع صوت خطوات تقترب من الجهة الاخرى للباب كان يحيى يفكر

(ترى هل هذا له علاقة بتردد رضا لاطلاعي عن الخطبة المرتقبة لعبد الرحمن ؟؟)

مرت دقائق طويلة جدا وعبد الرحمن جالس في سيارته تملؤه القسوة ورغبة مريرة ان .. يحطمها ..

للحظة خائنة اوشك ان يصرخ فيها ويقول

(قولي شيئا يا حجر .. اصرخي في وجهي .. ابكي دموع الغيرة لابكيها معك لو شئت ..)

اخذ يضرب بقبضته على مقود السيارة وهو يغلي ويغلي .. يقسو ويقسو .. ويحلف مجددا انه سيجعلها تندم وتتحسر ...

ثم اخرج هاتفه ليفتحه ويكتب رسالة نصية باصابع متشنجة من الغضب المتفاقم ..

(قطع يحيى حديثنا فلم اذكرك اني سبق و حذرتك من مغبة الخروج عند مغيب الشمس.. الطرق غير أمنة لاتكرريها مرة اخرى .. ليس معنى اني سأتزوج ان تتصرفي على هواك .. سأظل موجودا دائما .. اراقبك..) ارسل الرسالة وصدره يعلو ويهبط وحرارته ترتفع من شدة الانفعال ...

لم يتلق ردا منها فعاد وكتب رسالة اخرى وهو ينفث انفاسه وكأنه ينفث اللهب

(بالمناسبة ليس من اللائق ان تسمحي لأي رجل حتى وان كان زوج اختك بمناداتك "عسلية" .. تحرره وانفتاحه ليس لزاما علينا ان نتقبله ونتهاون في تقاليدنا واعرافنا ..)

عاد ليضرب بقبضته على المقود بينما قبضته الاخرى تعتصر الهاتف اعتصارا ...

بيت رضا الصائغ بعد ساعة ..

على سرير جعفر تجلسان متجاورتين تغلق اسيا على افكارها بينما تعبس حبيبة وهي تحدق فيها وتقول بحنق وغيظ " بربك اسيا قد يعود يحيى في اي لحظة.. تكلمي .. لماذا تصمتين هكذا ؟! اخبريني ماذا يحصل لرباب ؟ لا احد غيرك يعرف انا واثقة .. "

ردت اسيا بتفكير " لقد وعدت يا حبيبة .. وعدتها ان لااتكلم.."

بدت حبيبة حمائية وطفا للسطح طبعها الناري المتهور وهي تقول " ماذا تعنين (وعدتِ)؟! انها اختي كما هي اختك .."

نظرت اليها اسيا بتوبيخ هادئ قائلة

" أتظنين اني لااريد اخبارك ؟! الامر لايتعلق بك حبيبة فانظري اليه بمنظار صاحبته .."

زفرت حبيبة قبل ان تتكئ بظهرها للخلف وتقول ببعض القلق والحزن والحيرة " لو رأيتها كيف بكت على صدري كما لم تفعل يوما في حياتها لادركتِ اني لااستطيع الصمت .. لم اصدق كل ترهاتها عن تأثرها بعودتي من السفر وانها كانت تحلم بأبينا منذ عدة ليال في حالة شوق اليه مما جعلها بتلك الحالة العجيبة .. رباب مختلفة عنا جميعا .. انها قوية ايجابية وتعرف ما تريد وتسعى اليه بادارك كامل لخطواتها .. لذلك عندما

تنهار هكذا وتبدو بلا حول ولا قوة فهذا يعني انها.."

توجع قلب اسيا وكأن وجع رباب سكن قلبها هي ودون قصد منها قاطعت جملة اختها وأفلتت منها كلمة واحدة

" تحبه ..."

التقطت حبيبة الكلمة لتهتف بلا تصديق

" تحبه ؟! رباب .. تحب ؟!!"

التفتت اسيا لتنظر في وجه حبيبة المذهول المصدوم فلم تستطع مواصلة الكتمان .. ليس امامها الا حبيبة لتصارحها .. فأمها بعد تقدمها بالسن اصبحت اقل تفهما لهذه الامور ويكفي رقية المتلاعبة و مشاكلها الغامضة التي عجزت اسيا عن تحديدها ..

قالت اسيا وقد عزمت على فعل أمر ما لتعبر بحيرة لاتقل عن حيرة اختها " كم يؤذيني هذا يا حبيبة .. لاعلم لماذا فعلت هذا بنفسها وبه هو ايضا ... اكاد لاافهم وهي تتهرب بذكاء من التفسير.. ألححت عليها كثيرا بالسؤال حتى جفّ ريقي وهي أبت ان تنطق بجواب مقنع.. رباب المرنة العملية تتحول لحجر صوان عندما تشاء ..."

زمت حبيبة شفتيها ثم تحركت فجأة لتطوي ساقيها وتتربع على السرير تواجه اسيا باصرار قائلة وهي تشير بسبابتها ناحية الباب " لن اغادر عتبة هذا الباب قبل ان تخبريني .."

ترددت اسيا للحظة فشجعتها حبيبة وهي تقسم قائلة " واقسم لك بالله العظيم كل ما ستقولينه سيكون بيني وبينك فقط .. وان ذُكر يوما امامي سأدعي اني لااعرف شيئا .."

اطلقت اسيا تنهيدة طويلة قبل ان تهمس بحزن

" الامر يخص ... عبد الرحمن ..."

وخلال دقائق كانت اسيا تسرد باختصار كيف طلب عبد الرحمن الزواج من رباب قبل قرابة العام ورباب فاجأتهم بالرفض ...

ارتفع حاجبا حبيبة حتى كادا يصلان مقدمة شعرها لتقول بنبرة تعكس تخبط افكارها

" انا احترت ! هل تقولين ان هذا الانهيار منها لان عبد الرحمن سيتزوج فتاة .. غيرها ؟ رغم انها ترفضه كزوج !! "

ردت اسيا وهي تعقد حاجبيها " انها تأبى توضيح السبب الحقيقي .. تدعي انها لاتراه الرجل المناسب لها .. لكن .. احساسي لايخطئ حبيبة .. وما يحدث الان يثبت هذا .. رباب تحبه كما هو يحبها .. وأظن هذا ما ادركه عبد الرحمن ويثير جنونه لانه لايفهم سبب رفضها له .."

تصلبت ملامح حبيبة لتقول بنبرة لم تسمعها منها اسيا منذ سنوات

" الا تظنين ان السبب واضح يا اسيا ؟"



استغرقها التعبير على وجه حبيبة قبل ان ترد اسيا بتفكير " تقصدين موضوع زواج ابي من رفيدة ؟ لقد فكرت بهذا منذ البداية عندما رفضته لكن رباب اصرت انها نسيت هذا الموضوع القديم و ببساطة سببها الوحيد للرفض ان عبد الرحمن لايعدو ان يكون ابن الجيران واقرب لأخ ولا ترى فيه الزوج .."

لتضيف اسيا تدعم تفكيرها المتأرجح

" ثم لاتنسي ان الموضوع مر عليه سنوات وقد تجاوزناه كلنا الى حد مقبول وعادت المياه لمجاريها بيننا .. امي نفسها تجاوزته وتتصرف بشكل طبيعي نسبيا منذ زواجي من رضا ثم زواجك انت من يحيى الذي قوّى الاواصر بين عائلتيّ العطار والصائغ من جديد .."

بدت حبيبة مقتنعة بمنطقية الكلام من اسيا لتعود للمربع الاول حيث الحيرة فتتساءل " اذن ماذا يجري معها ؟ ان كانت تحبه فلماذا رفضته ؟"

رددت اسيا وهي تشعر بالضيق في صدرها

" لا ادري حبيبة .. لا ادري .. وكم يؤلمني انها لاتثق بنا كفاية لتفصح .."

فعلقت حبيبة ببعض الشعور بالذنب

" ربما ترانا انشغلنا بانفسنا وحياتنا ..."

تحركت اسيا في جلستها لتقابل جلسة اختها على السرير وقالت لها بنبرة عملية

" دعينا ننسى عبد الرحمن الآن .. لقد علمت قبل قليل من رضا ان عبد الرحمن اخبر الفتاة فعلا برغبته في الزواج وغدا سيذهب رضا مع اخوته وخالتي سعاد وخالتي بدرية للتقدم رسميا لوالدها .. الامر انتهى معه وليوفقه اللّه.. المهم الآن هي اختنا رباب ..."

هزت حبيبة راسها وهي تتساءل بقلق و ارتياب

" ماذا يفترض ان نفعل معها ؟ لايعجبني ان اترك الموضوع هكذا دون ان نفهم السبب .. اخشى ان يكون لديها مانع لانعرفه وهي لاتجيد التعامل معه .. مانع يتجاوز كون عبد الرحمن اخا لرفيدة كما شككنا بداية .. ربما هي تعاني .. تعاني من امر ما لاتجيد التعبير عنه او حتى لاتريد الخوض فيه .."

اشفقت اسيا على تلك النظرة التي اطلت من عيني حبيبة .. انها لم تنس الماضي وما عانته من تخبط وصراعات بعد وفاة والدهن ...

ابتسمت اسيا في وجه حبيبة لتقول لها بحنو

" لاتقلقي .. سنجد طريقة لنجعل الحجر الصوان ينطق .. انت ستبدئين العمل معها اليس كذلك ؟ كوني اقرب لها .. سايريها .. حاولي ان تجعليها تتكلم عن نفسها بطريقة مختلفة عن المعتاد .. اقصد ليس فقط الكلام في العمل والطموحات .. بل كلام عن نفسها .. عن مشاعرها .. لكن لاتضغطي عليها.. دعيها تسترخي لتنطق .. اجواء العمل ستمنحها هذا الاسترخاء .. رباب تذكرني

بنفسي احيانا .. تحب الاحتفاظ بمكنوناتها لنفسها .."

سرحت حبيبة بتفكيرها بينما تسألها اسيا وهي تغير الموضوع

" الآن اخبريني .. كيف هو يحيى معك ؟ ثم اين ذهب وتركنا فجأة ليخرج مع المتمردة سكينة ؟!"

ضحكت حبيبة بخفة وقالت " المجنون همست له بمزاح اني اشتهي أكل حلوى (زنود الست) فترك زوجك على الباب وهرول ليشتري ..."

تمتمت اسيا وهي تنظر في عيني اختها

" هل قلت .. زنود الست ؟!"

تنحنحت حبيبة لتفصح عن مفاجأتها قائلة

" حسن .. نعم انا اتوحم .. حاااامل في الشهر الثالث .. وصامدة لم اخبر امي حتى الآن كي لاتصاب بالهلع باكرا .."

احتضنتها اسيا وتكاد تزغرد وهي تقول لها

" الف مبارك لك حبيبتي .. اخيرا حصل الحمل .. سعيدة لاجلك وان كنت اظن ان يحيى لم يعجبه الامر وسيعاني كثيرا ويجعلك تعانين حتى موعد الولادة .."

ردت حبيبة بتذمر حانق

" لو تعلمين ماذا فعل في امريكا عندما علم .. اجبرني على الخضوع لفريق اطباء متخصص ولم يترك سؤالا لم يطرحه عليهم و

يناقشهم في كل تفصيلة.. اظنه يستطيع الان تحضير رسالة ماجستير في حالتي وينال درجة امتياز !.."

ردت اسيا بمودة " من حقه ان يقلق حبيبة .. كان رفيقك الوحيد خلال ولادة سكينة وقد عانى الكثير بتعسر الولادة "

ما زالت حبيبة تبدو طفلة عنيدة بتذمرها وهي تقول " وكم ندمت لاني لم اتصل بأمي ليلتها... ! مرت سنوات حتى رضي ان نحاول انجاب طفلا آخر .. وانت تعرفين اني كأمي .. لايحصل الحمل عندنا بسهولة.."

سألت اسيا باهتمام

" ماذا كان رأي الاطباء بامريكا ؟"

فردت حبيبة دون ان تعطي اهمية حقيقية للموضوع

" ضيق الحوض عندي أمر وارد مع كثير من النساء .. العملية القيصرية هي الحل الوحيد والانسب في حالتي .. الامر بسيط حقا .. هل تعلمين .. الاطباء هناك اصيبوا بالذهول والصدمة وهي يتساءلون كيف انجبتُ سكينة بشكل طبيعي ..! "

هزت اسيا رأسها وهي تقول

" للاسف كانت غلطة طبيبتك التي اشرفت على حملك .. لااعلم لماذا تركتك تعانين آلآما مبرحة افقدتك الوعي تقريبا وعرضت حياتك وحياة الطفل للخطر.."

استعدلت حبيبة في جلستها لتمد ساقيها امامها وهي تقول " الحمد لله ان الامور سارت على خير .. هذه المرة يحيى مصر ان أنجب الطفل في امريكا لاحصل على العناية اللازمة .."

ثم ابتسمت قليلا وهي تضيف بشقاوة

" اتمنى ان ارزق بـ .. ولد .."

ذهلت اسيا وهي تهمس " ولد ؟! "

عندها قالت حبيبة وابتسامتها تتراجع " ليس كما تظنين ويحيى بعيد جدا عن التفكير كما يفعل الاخرون في تفكيرهم بالولد الذكر الذي يحمل اسم ابيه .. كل ما في الامر .. اريد ان اسميه يونس .. اشتقت لابي واريد ان اشبع شوقي بمناداة اسمه في طفل من رحمي ويحمل دمه ..."

رددت اسيا بحنو وتفهم

" فليرزقك الله بما هو خير ..."

لتتمتم حبيبة " ان شاء الله ..."

على السجادة الفارسية التي غطت ارضية غرفة المعيشة حتى زواياه الاربع يشارك رضا ولديه الجلوس ارضا..

يطوي ساقه اليسرى تحته والساق اليمنى يطويها بشكل عمودي امام صدره فيستند بذراعه الممدود فوق ركبته ..

الى جواره جعفر المنبطح على بطنه يكتب واجبه المدرسي و يتلاعب حوله كاظم الذي يضايقه احيانا بمحاولاته المستمرة لأخذ اقلامه او كتبه وجعفر يمنعه زاجرا ثم يعانده الصغير لينجح في اختطاف ممحاته فيغضب جعفر ويوشك ان يهب واقفا وهو يوبخ اخاه بغضب عندها يميل رضا ويحمل الصغير المشاكس فيجلسه على حجره وبسلاسة يطلب منه الممحاة فيمتثل الاصغر ويعيدها للاكبر الحانق ..

يسترضي جعفر ببعض الحزم حتى لايتمادى في حنقه ثم يتضاحك مع كاظم الذي اختبأ في صدره وكأنه خجل من فعلته ..

لحظات وعاد السكون فيسرح تفكير رضا بعيدا عن صغيره الذي توسد صدره ...

يصل لمن استغاثت به وما زال صدى استغاثتها يتردد في اذنيه .. تلك التي تحمل بساطة وسذاجة تجعلها تقارب عمر ولده جعفر ادراكا ! امرأة وحيدة منكسرة ظهرها مكشوف بلا سند يسترها في بيئة قاسية تجعلها هدفا بخسا وسهلا ومباحا..

تضيق عيناه قليلا وهو يفكر..

تُرا ماذا تفعل تلك المسكينة الآن ...؟

ليتها فقط ترضى و... تريحه من حمل ثقل ذنبها ...

خرجت اسيا بصحبة اختها من غرفة نوم ولديها تتضاحكان بخفوت وحالما دخلتا غرفة المعيشة تسمرت ابتسامة اسيا على شفتيها وهي ترى رضا في جلسته على الارض وعيناه تضيقان قليلا ونظراته شاردة بعيدا جدا ..

قلبها اوجعها لانها ليست المرة الاولى التي تراه هكذا ....

وربما هي .. عاطفة النساء تغلبها وتجعلها تشعر بالضيق ورغبة عارمة لمعرفة السبب لهذا الشرود المتكرر ...

سبقتها حبيبة وهي تتقدم نحو زوج اختها تهتف بضجة محببة وهي تسأله ان كان (ابن عمه) قد عاد فتسحبه من تباعده الذهني ليعود بتلك الابتسامة التي تنشر الـ (رضا) من حوله ...

لكن الرضا يأبى ان يشع في قلب اسيا فقد غلبها احساس النساء المتشائم ...

بيت طارق النعماني ..

ها قد حل المساء والاحساس بالندم يتصارع مع احساس غامر باللهفة والاثارة و.. الشوق..

صلى العشاء وامسك المسبحة يستغفر كما علمه والده يوما ... يستغفر ولا يعلم لم هو حقا يطلب الغفران من اللّه !

الهاتف جواره على الارض قريبا من حافة سجادة الصلاة يطالعه بين الفينة والاخرى وكأن الشيطان يتلاعب به وهو يتعبد ويلتجأ للّه حتى يغفر له ما لايفهمه من ذنب ...

خرجت جوري من الحمام ترتدي منامتها القطنية وهي تجفف شعرها بمنشفة ..

جلست امام منضدة الزينة والتقطت فرشاة الشعر بصمت واخذت تمشط خصل شعرها الاسود ..

لم يرفع عينيه نحوها بينما يغرق بمزيد من الشعور بالذنب وهو يدّعي تسبيحا انهاه قبل قليل و لازال شيطانه يسحب انظاره لهاتفه الصامت ...

فاجأته زوجته بالقول " يبدو انك تنتظر مكالمة مهمة .."

عندها فقط تجرأ ليرفع عينيه نحوها فيرتعش جسده في استجابة فورية جائعة وقد مضت ايام دون ان يقربها ...

نظراتها اليه شديدة البرود وكأنها تدرك ضعفه وتقرأ ذنوبه و تسخر من تخبطاته ..

تمتم مهند " ما ادراك ؟!"

جميلة .. امرأة بمعنى الكلمة ... على الاقل هذا ما تحمله مما اعطاه لها اللّه من نعمة ..

لكن هل الجمال وحده ما يملأ روحه ويشبعها؟

جوري لم تصل اليه يوما .. لم تستطع اذابة الجليد الذي خلفته حبيبة في ربوع روحه..

لم يعد يعرف هل هي فشلت ام هو من فشل !

لم يعد يعرف ما حاجته لشذره وسط هذه المعمعمة العاطفية التي يعيشها في حياته ..

وما ذنب جوري يا ربي ؟ وما ذنب صغيرته حبيبة ؟ وما ذنبه هو فيما يشعر ولا يستطيع كبحه ..

سمع صوت زوجته وكأنه آت من بعيد وهي تقول " بالاضافة لمراقبتك شاشة الهاتف بعبوس كل بضع دقائق فأنت في العادة تعطي هاتفك لحبيبة لتلعب به حتى تغفو في سريرها وانت منعته عنها الليلة حتى انها بكت احباطا واتعبتني حتى غفت .."

ادرك انها كانت ترد على سؤاله ...

ابتلع ريقه وهو ينظر مرة اخيرة للهاتف ثم يقف على قدميه ليقترب من جوري يتحدى فيها هذه المواجهة الباردة الكريهة التي تتبعها معه منذ فترة فيتساءل بتمرد ساخر

" وهل يزعجك اني انتظر مكالمة ..؟"

فترد له الصاع صاعين .. مزيدا من البرود

" يزعجني ؟ ... لا .. لكن لا بأس من بعض الفضول .."

الغيظ تملكه وهي يحدق في شفتي جوري يبحث عما لايعرفه .. اعصابه مشدودة من الاصل من الانتظار ومع برودة جوري الساخرة اصبح الامر لايطاق ..

اجل فليقلها في نفسه على الاقل ... فليعترف
بما فعله اليوم بدلا من المراوغة حوله ..

انه ينتظر مكالمة ... شذره .. ينتظر
مكالمة شابة يافعة تحمل وجه حبيبة
العطار .. شابة سحرته وايقظت فيه هوسه
القديم وبجوع مضاعف .. وكأن السنوات التي
أخمد فيها عن ادراك وعمد ذاك الجوع
كانت سنوات مخادعة لئيمة .. تغذي جوعه
ليكبر في الخفاء بدلا من ان تقتله كما
يفترض بها ان تفعل !

كل هذا وزوجته لاتعرف شيئا لكن مؤكد
تشعر ان حياتهما الزوجية منقوصة بشكل
فاضح وموجع ..

تنبه على ارتعاش شفتيها .. يا الهي تلك
الرعشة التي .. تأسره وتجعله يشعر بشيء ما ..
فتجذبه طواعيا لجوري رغم كل شيء ...!

لم يعد يحتمل وهو يميل بشفتيه لتلك
الشفتين .. انها حلاله .. حلاله ...

فلم يمنع نفسه؟! ما ان لامس الشفتين
النديتين حتى علا رنين هاتفها فشتت اللحظة
بينهما لتبتعد جوري بخفة للخلف وعادت
واجهتها المتقنة من البرود وكأن شيئا لم
يكن ! راقبها بانشداه كيف تتحرك ناحية
هاتفها النقال على المنضدة الجانبية للسرير
تلتقطه برشاقة اناملها فتبتسم تلقائيا
وباسلوبها العملي وهي تفتح الخطأ وترد على
المتصل ..

" مرحبا سيد عباس .. عفوا .. اقصد ابو فاضل.. لا ابدا الوقت مناسب .. نعم .. اجل .. لاتقلق .. سأستلم الملف .. شكرا لك .."

يدها اليمنى تحتضن الهاتف اما اليسرى فتمرر اناملها على حافة المنضدة بحركة شبه شاردة .... يستوعب مهند نبرة صوت جديدة لم يسمعها من زوجته سابقا وهي تكمل حوارها مع .. ابي فاضل ذاك قائلة

" سعيدة ان عمل الاخير نال رضاك .. شكرا لك .. حسن سأنهي العمل خلال يومين ان شاء اللّه وأمر كالعادة بالمطبعة لاسلمه .. نلتقي قريبا.. مع السلامة .."

ما ان انهت المكالمة حتى سأل مهند بعبوس وهو يقترب بخطواته منها

" من ابو فاضل هذا ؟"

أعادت هاتفها على المنضدة كما كان وهي تتجاهل وجود مهند بوقفته شبه الحانقة جوارها لترفع طارف الغطاء في استعداد واضح للنوم فأمسك مهند كتفها يديرها اليه وهو يهتف بعصبية وانفعال

" جوري انا أكلمك ..."

رفعت ملامحها الهادئة الغامضة اليه لتقول بنبرة برود لاتمت بصلة للنبرة التي كلمت بها ذاك الرجل على الهاتف

" ماذا تريد مهند ؟ منذ ايام وانت لاتفعل .."

بدا مهند مشتت التركيز تكتنفه كل انواع المشاعر وهو يتساءل

" ماذا تقصدين لا افعل ؟! انا ..."

قاطعته بحشرجة صوت قاسية صدمته

" انت .. تقول ... صباح الخير .. كيف حبيبة.. الطعام كان جيدا .. شكرا لكِ .. ثم.. اين حبيبة (مرة اخرى) .. لننتهي ننام كغريبين على سرير واحد بهمسة باردة منك (تصبحين على خير) ..."

كان داخله يلتقط اشارات غريبة مريبة توتره اكثر واكثر فيعاود السؤال بنبرة قاطعة لاتحتمل مزيدا من النقاش

" من ابو فاضل ؟"

تلاشت القسوة لتعاودها السخرية وهي ترد عليه " انه صاحب المطبعة التي أنجز لها بعض الاعمال المكتبية .. مؤكد انك نسيت هذه التفاصيل القليلة البسيطة التي تخصني .. "

كان يحدق في عينيها يريد سبر اغوار ما يحصل من خلف ظهره وسر تلك الذبذبات الغريبة الجديدة التي يستشعرها للمرة الاولى منها لتضيف جوري بسخرية مريرة متحدية

" هل اصبحت تغار على عرضك الآن ... ام ربما هو .. الشك ؟! "

هتف بها واصابعه التي لازالت تمسك بكتفها تنحفر في لحمها عبر المنامة

" ما هذا الكلام السخيف ؟!"

الجرح ! جرح عميق .. عميق ناري سافر أطل كوحش من عينيها الواسعتين فتقول بهمس اكثر غرابة " حقا هو منتهى السخف ..! "

شيء ما جعله يبعد اصابعه عن كتفها فتمد هي يدا ثابته لتعاود رفع الغطاء وتتسلل تحته فتفوح رائحة البخور فيرخي اهدابه كمن يستنشق مصدر ادمانه ولايصحو الا على صوتها الهادئ وهي تقول

" بالمناسبة .. سأعطي ابو فاضل دعوة لحضور عرس مروة ..."

فتح عينيه ليراها متمددة تحت الغطاء ترخي شعرها على وسادتها وتغمض عينيها وكأنها (تغمض) الحياة بينهما ...

اصبح كل شيء صامتا من حوله ..

صامتا كصمت هاتفه الذي لم يرن ....

الصمت حوله يكاد يشتته عن فتيل باهت في اعماقه تقدح فيه شرارات عجيبة ليشتعل ...

الفصل السابع

بعد منتصف الليل ...

جناح عبد الرحمن ..

أطفأ عقب سيجارته ثم أرخى رأسه للخلف على ظهر الاريكة ...

لم ترد على رسالتيه ..حسن هذا افضل ..

كان تهورا سخيفا منه ... ومؤكد اشتمت رائحة الغيرة المذلة له عبر كلماته الحانقة الحمقاء !

ماذا تقول عنه الآن ؟!

لايستطيع نسياني ؟

لايكف عن التفكير بي ؟

يا الهي .. هو حقا لايستطيع نسيانها ولايكف عن التفكير بها ...

هو المريض المعلول بهواها .. جريحا نازف القلب والكبرياء يكاد يموت على حدود اسوارها ..

تلك المخادعة .. القاسية ..

لكن .. يقسم برب العزة سيُشفى ..

نعم سيُشفى .. ويعيش حياته ...

صوت خطوات يسمعها في الرواق جعلته يرفع رأسه منتصبا وملامحه تشي بالتعجب ..

الطابق الثاني ليس فيه الا جناحه هو ..

فجناح رضا معزول تماما كشقة منفصلة عن البيت ... اذن من يزوره في هذا الوقت ؟!

كان يقف متحركا ناحية الباب عندما سمع من يطرق بقبضته ..

فتح الباب ليحدق مباشرة في وجه اخيه رضا يقف قبالته بملامحه الهادئة ..

تمتم عبد الرحمن متسائلا

" رضا ! هل حدث شيء ؟! هل امي بخير ؟! "

تبسم رضا فشع الارتياح في نفس عبد الرحمن بينما يسمع اخاه الاكبر يؤكد له

" تنام كالاطفال تحتكر خلود جنبها هذه الليلة فتنام المسكينة بحجابها .."

خطا رضا للداخل فيتشمم الرائحة ويسأل بخفوت " هل كنت .. تدخن ؟ "

أطرق عبد الرحمن وهو يغلق الباب ويقول بحرج ونوع من الخجل لايستطيع التخلص منه في حضرة رضا " كانت .. سيجارة واحدة.."

تقدم رضا ليجلس على الاريكة وعيناه تلتقطان مطفأة السجائر وقد حوت اعقاب اربع سيجارات .. لم يعلق على الموضوع واكتفى بأن قال بنبرة حازمة

" يجب ان نتكلم عبد الرحمن .."

جلس عبد الرحمن جوار اخيه ملتزما الصمت ويكاد يعلم عن يقين عن اي شيء يريد الكلام عنه ..

يد رضا اليمنى وقد حمل خنصره الخاتم الاصيل قد استقرت على ركبته فشعر عبد الرحمن باحساس غريب وكأنه في حضرة والده .. عقيل الصائغ ...

قال رضا بشكل مباشر " لم اظنك جادا ومتعجلا لدرجة ان تذهب للفتاة تصارحها صباحا ثم تأخذ موعدا من ابيها مساء .."

توتر عبد الرحمن وشعر فجأة بالاختناق ليقول كاشفا عن بعض توتره " ولماذا لا اكون جادا؟ وما الذي يمنع تعجلي؟! "

عندها خرج صوت رضا آمرا في لطف

" انظر في عيني واخبرني لماذا ؟ واياك ان تنسى اني من ربيتك يا فتى وسأعرف صدقك من ادعائك .."

رد عبد الرحمن وهو يرفع عينيه الجريحتين لاخيه ليقول بانفعال " ربيتني وتعرفني اكثر من نفسي .. هذا صحيح .. لكني لم أعد فتى يا رضا .. انا .. احتاج زوجة لاستقر .. محسن ايضا شجعني اكثر من مرة على هذا الموضوع وانا .. اقتنعت بوجهة نظره .. كما اني.. لن اوقف حياتي لاجل.. لا شيء ..! "

ضيق رضا عينيه قليلا قبل ان يقول



" (رباب) ليست (لاشيء) يا ابن الصائغ .. لقد كنت تستطيع الصبر اكثر .. كنت تستطيع المحاولة من جديد معها .."

هبّ عبد الرحمن ليقف على قدميه وهو يقول بعنفوان " انا لااملك قلبا كبيرا كقلبك يا ابا جعفر لأتسامح وأغفر .. كما انك انت نفسك لم تحاول مع اسيا قبل سنوات عندما كانت هناك ظروف .. تمنع زواجكما.. فتزوجت من زبيدة .. ولو كانت زبيدة امرأة مناسبة لك فربما كنت احببتها واستقريت معها حتى اللحظة .."

صمت رضا للحظات قبل ان يقول " نعم .. تزوجت زبيدة وندمت ولا اريدك ان تعيش لحظة من ندمي ذاك .."

أصر عبد الرحمن ويداه تتقبضان الى جانبيه

" ما منع اسيا عنك كان الظروف المفروضة عليكما معا .. لكن ما يمنع رباب الان هي رباب نفسها.."

تنهد رضا قبل ان يجادله بالقول شبه الحانق

" انت عنيد متهور كالثور يا فتى ! ماذا جرى لك ؟! الا تعقل ما انت مقدم عليه ؟"

اخذ عبد الرحمن يتحرك بتوتر متزايد وجسده يبث امواجا من التوتر والحنق فيردد باندفاع " اشعر بي .. الامر يقتلني يا رضا .. يجب ان اتجاوزه بدلا من هذا الغضب الذي يتآكلني .. من حقي ان اعيش حياتي بشكل طبيعي .. ام تريدني ان اتوسلها لترضى بي ؟! "

قال جملته الاخيرة وهو يتوقف عن خطواته المتوترة ليواجه رضا بها .. فما كان من رضا الا ان تطلع اليه طويلا قبل ان يقول باستدراك " كم تشبه محسن في هذا .. ! حدّي جدا في تحديد ما يمس كرامته كرجل .."

تحجرت ملامح عبد الرحمن وقال بشموخ ونبرة قاطعة " اجل انها كرامتي وقلبي ايضا .. الاثنان على المحك ولن افقدهما بسبب رباب .. الامر انتهى رضا .. والد رانية ينتظرنا غدا مساء .. لقد كلمته بنفسي كما سبق و اخبرتك.."

فقال رضا معقبا بتأنيب حازم " لو كنت أتيت الي اليوم كما طلبت منك لتناقشنا بالامر قبل ان تخطو بمفردك هذه الخطوة الانتقامية التي تظن انك بها ستسترد كرامتك وتطبب قلبك من هواها .."

بنفس الملامح يعترف عبد الرحمن

" كنت ستوقفني .. انا اعلم .. لكنك لاتعلم كما احتاج ان امضي قدما .. ربما الغضب ورغبة الانتقام لنفسي جعلتني اخطو بقرار فجائي لكن ثق يا رضا .. انا احتاج ان اخرج من دائرة رباب .. احتاج ان .."

قاطعه رضا بالقول

" وهل تظن ان زواجك من رانية سيخرجك؟!"

فيرد عبد الرحمن بتصلب

" سأفعل المستحيل لانجح ..."

اسبل رضا اهدابه مدركا ان لافائدة مرجوة بعد كل هذا الكلام ليتمتم

" يفعل اللّه ما فيه الخير ..."

كان ما يزال عبد الرحمن يقف متحجر الملامح امامه بينما طال صمت رضا بعض الشيء قبل ان يقول بهدوء ويده تتلاعب بخاتمه

" هل تعلم يا عبد الرحمن انت لا تعي كثيرا على الحاج يونس العطار .. كان رجلا فصيح اللسان حلو الكلام والمعشر ضاحك السن .. البشاشة تعشق ملامحه فلا تفارقها ... انه ذاك الزمن الجميل برجاله الذين رحلوا فلم يعد الزمن كما كان ..."

توتر عبد الرحمن اكثر وهو يدير وجهه جانبا بينما يسترسل رضا بكلامه وهو يحكي عن الماضي " في احد الايام قبل سنوات بعيدة كنت في بداية العشرينات .. اقف في المحل الكبير اتعامل مع الزبائن .. يطرق مسامعي اطراف من الحديث الدائر بين الحاج يونس و ابينا رحمهما اللّه .. وكأنه حدث بالامس فقط! يتسامران بالكلام ويتضاحكان وقد كان الحاج يونس مؤنسا بطبيعته .. وفي ذلك اليوم كان يتحدث بفكاهة لاتخلو من الفخر عن صغرى قواريره كما يحب ان يناديهن وبوقتها كان قد انجب اسيا وحبيبة فقط .. فينقل لوالدي كلمات حبيبة الطفولية الغاضبة وكيف الكلمات تتكسر

حروفها على لسانها الطفولي بينما يشاكسها والدها بمناداتها قارورة الشطة الفلفة الحمراء الحارة.. لم يتوقف ابي عن الضحك حتى استكانت ضحكته ليصمت هنيهة ثم يسأل الحاج يونس بفضول عن سبب تسميته لاهل بيته بالقوارير ؟ هل هو اقتداء بحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وصحبه وسلم ؟ "

في نفس اللحظة التي كان عبد الرحمن يعيد نظراته لاخيه الاكبر كان رضا يرفع عينيه اليه ليكمل كلامه

" جاء رد الحاج يونس بما ترك أثره في نفسي.. قال بعد الصلاة على النبي .. رسولنا هو قدوتنا بلاشك لكني اراهن بعيني يشبهن القوارير... الاناث مخلوقات قلوبهن تتسع في قعر تلك القوارير وكلما دخل الرجل للعمق غمره فيض من العاطفة والاخلاص .. لكن الحذر كل الحذر من ارواحهن ... لانها متعلقة في الجدران .. سهلة الشرخ فتتشوه دون اصلاح وان انكسرن ضاع الفيض هباء منثورا .."

بدى عبد الرحمن وكأنه يستوعب المعنى فوقف رضا على قدميه ثم تحرك ليمر قرب اخيه الاصغر فيرفع كفه الايمن ويربت على كتفه قائلا

" منذ اليوم .. منذ هذه الليلة .. هناك فتاة اصبحت ملزمة منك ومن ... قلبك ... قد لاتحبها الآن لكن لا تظلمها ..فإياك والمساس بروح انثى لا ذنب لها الا انها تعلقت بالأمل منك ورأت فيك الرجل الذي تنشده.."

ثم انزل رضا كفه وتركه ومضى ليسرح عبد الرحمن بخياله و دون ارادته في وجه واحد لا غير ..

مليح .. محبب .. وبشامة اسفل الفم ..

اغمض عينيه هربا من خيالات وجهها لترتفع اصوات ضحكاتها الرنانة وخصل شعرها الملونة تلف وتلف و.. تلف ..

اخذ يتمتم بكلمات تحرق قلبه

" كفي .. كفي .. ابتعدي .. ملعون انت يا قلب لتذلني كل هذا الذل فيها ..."

ثم التقط احدى وسادات الاريكة بعنف ليوجه لها اللكمات الضارية بقبضته حتى اخذت انفاسه تتقطع ...

في نفس الوقت في حي آخر ... حي الشيخ

تنام على الاريكة المهترئة التي تتخذها سريرا وقد كانت (سريرا) لوالدها قبلها بينما هي تفترش الارض جواره ..

اربعة جدارن هي كل ما تركه لها والدها يقيها حر الصيف وبرد الشتاء ويظلل عليها بسقف الستر ...

تغرق في سبات هادئ خال من الاحلام .. كما هي حياتها .. تخلو من نفحات الامنيات ...

ضجة مكتومة خارج باب شقتها المختصرة بجدرانها الاربعة تجعلها تتقلقل في نومها وتتقلب على الجانبين تنشد سكونا جديدا

يعيدها لغفوتها .. ينتثر شعرها البني الداكن على وجهها فتبعده بهمس متذمر ثم تجفل فجأة وصوت طرقات على الباب تطرق ذهنها الغافي بحدة ..

تهب جالسة وهي تضم قبضتيها لصدرها بتوتر وعيناها تتسعان في وجل وهما تحدقان بباب البيت ...

لحظة .. لحظتين وتعود الطرقات ...!

تقوقعت حسناء على نفسها وقلبها يختض كاختضاض جسدها ...

لسانها يلهج بقراءة كل ما استطاعت حفظه من القرآن الكريم وقد كان اليسير القليل الذي اسعفها عقلها لتحفظه ...

انكمشت تماما والتصق ظهرها للخلف وهي تسمع صوت رجل يناديها من خلف ذلك الباب الذي لن يصمد هذه المرة اذا حاول احدهم كسره ...

" افتحي الباب ... انا تحسين .."

تجمدت الدماء في عروقها فابيضت شفتاها وبردت اطرافها حد الشعور بالشلل !

عاود النداء بخشونة ارعبتها

" افتحي الباب يا امرأة .. الدم ينزف مني .."

صوته كان كحكم بالاعدام لاتملك ان ترفضه او حتى تؤجله ..

عقلها الذي اعتاد الخنوع والخوف كان هو من يسيرها لتجد نفسها تتحرك بشكل آلي

تشغل الانارة الوحيدة في المكان ثم تلتقط وشاحها وعباءتها السوداء فترتديهما بارتجاف وهي تلملم شعرها كيفما اتفق تحت الوشاح ..

فتحت الباب والرعب ما زال يشل تفكيرها فتخترق برودة الشتاء عظامها دون ان تشعر باختراقها حقا ! فقط تحدق في هيئته الضخمة المخيفة التي ملأت المكان لتشعر بالتنمل التام في اطرافها وحتى لسانها الذي همس باسمه بتخاذل " تـ..تـ..تحسين ؟! "

ابتسامة متلاعبة على شفتيه المتشققة في جفاف وهو يقول بسخرية " مرحبا حسناء ..."

ثم ببساطة تقدم للداخل وهي تتراجع في عجز عن صده او الاعتراض ...

على الضوء الفقير الذي أنارته قبل قليل ميّزت ما يحمل في كفه الايسر وقد كانت زجاجة لكحول رخيص معروف في الحي بينما كفه الايمن يرفعه الى كتفه الايسر الذي تغطيه الدماء وقد تمزق جزء من .. قميصه .. يا الهي الا يرتدي الا القميص في هذا البرد القارص ؟!

العرق كان يتصبب من جبينه بوضوح وبعض اثار عراك على جانب صدغه ...

لم تكن تستوعب وهو يفرض خشونة وجوده القسري على ملجأها الصغير الذي تحتضنها جدرانه بينما تتمتم في هلع " ما هذا الدم ؟!"

نظرت لعينيه فرأته يحدق فيها بخشونة من نوع آخر ليقول بنبرة خافتة أرعدتها

" لاظنك تقلقين علي .. حسناء ..."

ثم تحرك نحوها وشعور تلقائي برغبة في الصراخ انتابتها ولخزيها وضعفها ورعبها الخالص فأن صوتها أبى ان يخرج الا بهمس متحشرج غير مفهوم ..

كل ما حصل خلال ثوان انه تجاوزها ليجلس على الاريكة حيث تنام فيحرك بيده المدماة غطاءها ويقلبه بابتسامة مستهينة وغامضة في نفس الوقت ...

التفت اليها فيجدها ما زالت مسمرة حيث هي على بعد خطوة ونصف منه .. لايظهر منها الا عيناها ليتغطى الباقي بسواد عباءتها..

قال بلهجة آمرة جافة " تعالي وطببيه .."

تعثرت الكلمات وقلبها يكاد ينخلع هاربا من صدرها وهي تهمس

" ليس.. لدي معـ...ـقم تطهيـ...ـر .."

تذمر شاتما وهو يقول " ومن طلب منك معقما؟! خذي .. ضعي من هذا ..."

ومد نحوها قنينة الكحول الرخيص ..

تراجعت نصف خطوة وهي تتمتم تلقائيا

" استغفر الله العظيم .."

هتف بها بغضب ساطع وعيناه الجاحظتان تبرقان " ضعي منه يا امرأة ليتعقم الجرح ... لم أطلب منك ان تشربيه معي ؟! هيا ولا تختبري صبري الليلة .. يكفي الاشقياء الذين طعنوني غدرا فلقنتهم ما يستحقونه .."

يدها ترتجف وهي ترفعها لمكان فمها فتهمس بارتعاد " لكنه .. سيحرقك ...جدا .."

ان كان غضبه يرعدها فتلك النظرة من عينيه تسلبها انفاسها وكأنها تمتص الحياة منها ...!

قال بنبرة عابثة " الحرق منك .. متعة ..."

ما زالت عاجزة عن التحرك ليصرخ فيها

" كفاك غباء وطببي الجرح لأرحل .."

وكأنه قال كلمة سحرية ..(أرحل) .. كانت القشة التي تعلقت بها وهي تبتلع ريقها بصعوبة وتتقدم نحوه ..

الاستغفار لم يقع من لسانها ويدها ترتجف وهي تأخذ القنينة من يده ثم تغمض عينيها لحظيا

وهي تراه يفك ازرار قميصه ليكشف عن كتفه المصاب ويوليها جانب ظهره الايسر سامحا لها بفعل ما طلبه منها ...

الجرح لم يكن عميقا حسبما ترى والنزف قليل نسبيا فسكبت بحذر قليل من الكحول فوقه لتشعر بتحسين ينكمش للحظة خاطفة قبل ان يسترخي ... ليبدأ في ثرثرة غريبة

" هذا الجرح لا شيء امام ما تعرضت له في السجن .. لقد كدت أموت في احدى الشجارات العنيفة خلف القضبان .. لكني جعلت الجميع يدرك هناك من هو تحسين .. حتى آمر السجن كان يحسب لي ألف حساب ويخشى اغضابي .."

ثم يضيف بهذر وقح " ربما بسببي اطلقت الحكومة العفو العام عن المساجين .. حتى يتخلصوا مني ومما كنت افتعله من معارك دامية ..."

الدم اخذ يسيل ببعض الغزارة على ظهره فتسارع حسناء مرتعبة لالتقاط قطعة قماش بيضاء تستخدمها احيانا كغطاء للرأس عندما تصلي فتضعها فوق الجرح وتضغطه لتشهق مجفلة بقوة وكفه من حيث لاتدري اصبحت فوق كفها الذي يضغط جرحه ..

حررت يدها سريعا وتراجعت مرتجفة وهو يعود ليستدير اليها ضاحكا شامتا بوضوح من خوفها ...

لاتعرف كيف خرجت الكلمات من افكارها لتتشكل على لسانها فتهمسها بجزع

" ماذا تريد مني ..؟"

ضحكاته الشامتة الساخرة تلاشت تدريجيا لتطل تلك النظرة المخيفة في عينيه ويقول بصوت خافت خشن المعاني

" اريدك في .. الحلال ..يا حسناء "

قنينة الشراب التي كانت ما تزال في يدها سقطت ارضا وتحطمت على الارضية القاسية لثلاث قطع وانسكب الشراب كله كأنه نزف من الخطايا ..

لم يتحرك ايا منهما وبينما نار تتوقد جذوتها في تحسين كان التحطم يكسر ما تبقى من ارادة حسناء وصمودها ..

مرت اللحظات طويلا بينهما لتقول حسناء بضياع وتوسل

" انا لااريد .. اتوسل اليك .. دعني لشأني .. "

ثم تضيف بغباء " انا سأترك الحي قريبا .. لذلك لاانفعك زوجة .. صدقني لاانفعك.. جد لك فتاة بنت بنوت .. تعوضك خيرا .."

هبّ تحسين على قدميه والقساوة الشرسة تغزو ملامحه المرعبة وهو يقول بنبرة قبيحة

" لن تخطي خطوة واحدة خارج هذا الحي .. الحلال بارداتك يا حسناء ... فلا تدفعيني لاخذه رغما عن تلك الارادة .."

دموعها تنسكب وقد طال تحجرها في مقلتيها فتبلل وجهها وطرفي العباءة عند خديها وهي تستجمع ما تبقى من شتات ارادتها لتقول باختناق وتوسل ضمني

" تحسين .. ارحمني .. ابي كان صائما مصليا وزوجي رحمه اللّه كان .. مؤذن الجامع وحافظا للقرآن.. رغم انه لم يكن يجيد القراءة والكتابة .. لكنه حفظه محبة في اللّه وتقربا اليه .. نحن بسطاء فقراء... لكننا من طريق اخر غير طريقك "

صرخ فيها بملامح اشتدت قباحتها بالغضب البدائي الوحشي " اذن ترين نفسك التقيّة وانا الفاجر فلا اصلح لمقامك ! "

تتراجع حتى ارتطم ظهرها بالباب الذي ما زال مفتوحا لتهمس وهي توشك ان تلطم على الخدين " لم اقل هذا .. ارجوك .. انا.."

اقترب منها يحاصرها بجسده يهدر فيها ورائحة الكحول مختلطة برائحة العرق من جسده

" انت مجرد ساذجة غبية تظن نفسها فقيهة بالدين.."

رددت وهي تتشبث بشجاعة هبطت عليها من حيث لاتدري

" ربما أكون ساذجة .. وانا لست فقيهة بالدين لكني .. ارضي اللّه بما اعرف انه يرضيه وبما يسعفني به قصور عقلي لافهمه من شرائعه .."

ضرب بكفه على الباب صارخا بقسوة

" كفي هذرا .. صدعتِ رأسي بكلامك التافه الذي لاتفهمينه حتى انت .. "

ثم فجأة تسارعت انفاسه العابقة برائحة الخمر فيقترب من وجهها وهي تحيد جانبا ترتعد فيقول همسا رجوليا خشنا جدا

" سأحضر لك امام الجامع بنفسه ليخبرك انك ستدخلين الجنة بزواجك مني ... فما رأيك ؟ هل سيطمئنك هذا ؟ "

تمتمت وهي تكاد تختنق من رائحته فتقول بتقطعات بكائها المكتوم

" اتوسل .. اليك .. اتركني .. لحالي .. "

هدر صوته قريبا جدا من اذنها متخللا قماش الاسود الذي تتلحف به

" فات الاوان حسناء .. انتظرت لسنوات ان امتلك فرصة امتلاكك وها قد أتت .. انتِ لم يعد لك غيري .."

ثم بحركة واحدة مفاجئة حادة.. ابتعد ! وكأن صعقة كهربائية ضربته على حين غرة ...

ليتحرك بخطوات متسارعة شبه مترنحة فيغادر عبر الباب وهو يشتم ويسب بافظع واقذع الشتائم ..

الارتعاد رعبا يهز جسد حسناء وهي تجر قدميها جرا ناحية الباب فتغلقه اخيرا ويعود الهدوء الرتيب المألوف للمكان الضيق

وعندها... تركت لجسدها متنفس الانهيار فتنثني ركبتاها وتتكوم كلها جالسة على الارضية تتشبث بعباءتها بيد وتضرب بيدها الاخرى على فخذها وهي تجهش بالعويل والبكاء...



قرابة الفجر .. بيت يونس العطار

في الظلمة .. تجلس على سريرها تسند جبينها لركبتيها المضمومتين قريبا من صدرها ينتثر شعرها العسلي

" اصمدي رباب .. هو ايضا يحتاج ان يتحرر منك .. يحتاج ان يعيش حياته .. يحتاج ان .. ينساك ... انه خطؤك لأنك لم توقفيه باكرا .. لم تجدي القوة لتوقفيه .. فادفعي الثمن .. ادفعيه كاملا من هذا العذاب .."

رفعت وجهها وتنطبع في ظلمة غرفتها كلماته التي ارسلها في رسالتين عبر الهاتف .. حانقا غيورا متملكا .. مُعذبا لها ..

لم تجد القوة لترد عليه بقسوة فتضع له حدا كما يفترض ان تفعل ...

كما انها حكمت عقلها وادركت ان عبد الرحمن يستفزها ايضا ودون ان يشعر لتغضب هي الاخرى ..علّها .. تفصح عن ... السبب ..

لكنه لايعرف انه لن يفهم مهما شرحت له ذاك السبب .. اذا كن اخواتها لن يفهمن فكيف به هو ..؟!

لا احد يستطيع ادراك عمق جرح الخيانة ..

اجل هذا ما تشعره .. تشعر ان اباهن قد خانهن جميعا .. هن قواريره .. لم يخن امهن فقط ..

لقد خان ثقتهن ثم تركهن وحدهن ليواجهن نظرات الاشفاق واحيانا التشفي في عيون الاخرين ..

وكل واحدة منهن جرح الخيانة طالها لتعبر عن ألمها بطريقتها ..

امها انكسرت وظلت لاشهر طويلة لاتغادر البيت وهي تلتزم جدرانه التي تستر انكسارها عن عيون الناس ... ثم وجدت فجأة القوة لتستعيد نفسها وتلملم انكسارها بشجاعة تثير العجب وعادت كما كانت .. مرفوعة الرأس تحاوط بناتها الاربع بأمومتها ...

ربما اسيا الوحيدة التي لم تنكسر فتقبلت الامر بتفهمها اللامحدود وقدرتها على التعاطي بروحانية خاصة لايملكها كثير من البشر فكانت الصخرة التي استندن اليها جميعا بمن فيهن أمهن المغدورة ..

أما حبيبة فقد اخذت دورا طويلا من التمرد .. تتقلب في أتون الغضب لكنها نجت اخيرا كما ينجو طائر العنقاء فحرقت غضبها بدلا من ان يحرقها ثم وُلدت من جديد من رماده ..

ثم هي .. رباب .. قارورة يونس العطار الثالثة ..

فتشعر انها علقت في فخ !

لا تتقبل فعلة ابيها كآسيا ولا تملك وسيلة كحبيبة حتى تنفض الغضب عنها ..

انه ليس بغضب .. لا .. ليس الغضب ..

الخيانة تجعل العالم يهتز من حولك ..فتتغير ملامحه الى الابد ...

العالم الجديد يشبه ظاهريا العالم القديم لكنه باساسات مختلفة ..

(لا أمان) .. هذا اهم اساس يرتكز عليه عالمها الجديد ...

لايوجد أمان ابدا ...

ان تتوقع كل شيء وتكون مستعدة لمواجهة ألمه بل .. والوقاية من ذاك الألم ...

ان تضع حدودا بينها وبين الاخرين ولا تسمح لهم بالاقتراب كفاية حتى يؤلموها ...

لن تعيش الخذلان مرة اخرى .. لن تشعر بالخيانة مرة اخرى .. لن تنكسر هامتها مرة اخرى ..

وسيأتي يوم لتخرج بنفسها من الفخ الذي علقت فيه لسنوات مع عبد الرحمن ..أجل .. ستنسى عشقه كما سينساها هو ..

وستتشبث بحلمها الاهم الذي تبنيه ..

الحلم الذي قررت ان يكون ركيزتها في هذه الحياة ..

وعندها فقط .. ستخرج .. سترفس فكي الفخ المسننة وتخرج .. وحتى ذلك الوقت .. يجب ان تقاوم ضعفها وتسكّن انوثتها فلن ترضى بمزيد من الافخاخ !



طرقات خافته على الباب جعلت رباب تنتفض في خلوتها المظلمة .. لاشعوريا همست

" رقية ..."

ثم غامت عيناها وهي تحرك ساقيها لتنزل من السرير على عجل وتتحرك ناحية الباب تكاد تتعثر ... وكأنها استفقدت اختها الصغرى وسط زحام افكارها المتشعبة ..

رقية المحظوظة التي لم تشعر بأي جرح ..

وكأن صغر سنها ذلك الوقت وتدللها الطبيعي وانانيتها المحببة قد حموها من الاوجاع ... فمرت تلك الاوجاع بها مرورا عابرا ثم ارتحلت الى غير رجعة ...

فتحت رباب الباب وهي تهتف بحماسة

" كل الرقة .."

ثم رغما عنها شعّت من ملامحها الخيبة وهي تحدق في ملامح وجه شذره هامسة باسمها في احباط " شذره ..."

بدت شذره كمن اخذ على حين غرة !

تمتمت بارتباك وهي تنكس رأسها وتتراجع للخلف " اسفة .. اظنك بانتظار .... رقية .. انا ... بالاذن .."

نادتها رباب وهي تجاهد حتى تتشبث بقشرة التماسك " توقفي شذره .. تعالي لنتسامر ونتحدث حتى ... شروق الشمس .."

لكن من نبرة صوت رباب بدى واضحا انها دعوة مجاملة لاتعنيها اطلاقا ..

تبسمت شذره تخفي خلف ملامحها الهادئة
احساسا مريعا متزايدا بالوحشة والوحدة
وحتى النبذ ثم قالت ببشاشة كلفتها
الكثير من الضغط على محنتها

" يجب ان أصلي الفجر اولا .. ربما بعدها
سآتيك لنتسامر .. لكني لاعدك اني لن
ألبي نداء سريري لأعود اليه ..."

ثم انسحبت شذره لتعود لغرفتها بينما تتراجع
رباب منحسرة لغرفتها هي الاخرى وتغلق
الباب..

وخلف باب ثالث مغلق لم يفتح كانت رقية
مستلقية على سريرها تدعي البهجة
والضحك الخافت وهي تكلم حارث على
الهاتف بينما عقلها وقلبها يشردان منها ..

انها تعلم ان رباب تعاني الليلة وكم تتمنى ان
تجد طريقة لتخفف عنها او ربما تصفعها
لتفيق ! .. يا الهي انها لاتطيق الاغبياء !

الجمعة .. مساء ..

علت زغاريد والدة رانية تشاركها بدرية
وسعاد بينما يبتسم عبد الرحمن ابتسامة آلية
تارة يفيض منها الرضا وتارة يغزوها الشرود
وكأن الابتسامة تائهة على ملامح وجهه
لتتعلق بشفتيه تنشد الانقاذ قبل التلاشي !

الكل يبارك له حتى اسيا التي اصرت ان تحضر الخطبة مع خلود بينما اعتذرت رحاب لأزمة حساسية موسمية أتتها باكرا هذا العام..

كان شبه مغيب عن كل الاتفاقات التي تمت بين رضا ووالد رانية ..

كان مغيب حتى عن حلاوة رانية الخاصة هذه الليلة بفستانها البديع البنفسجي وقد بدت به كقطعة حلوى ملفوفة ..

كان مغيبا حتى عن نفسه ... وكأنه دخل متاهة عويصة .. لكنه مستسلم كالمُخدَّر ..

وقد بدت رانية محبطة بحلاوتها تلك وهي ترى عبد الرحمن يبتسم بشرود نحوها ..

غادر الجميع اخر الليل والفرح يعم الوجوه ما بين صدق و... ادعاء ...

تم الاتفاق على منتصف الاسبوع .. يوم الاثنين تحديدا لزيارة (الرجال) كما تجري العادة لشرب عصير الفرح كأعلان رسمي عن الخطبة .. فيحضر لفيف من رجال عائلة العريس الى بيت اهل العروس ويجتمعون بلفيف مماثل من رجال عائلتها ويطلبوا الفتاة رسميا ليعطيها والدها بكلمة منه ... وهكذا يُربط الرجال بـ .. كلمة ..

مجرد طقوس تحببية للتعارف وبداية تلاحم جديد وتثبيت ارتباط ... فتأخذ هيبة الرجال مكانتها وتأثيرها في نفوس الطرفين ... فتكون البداية ..

بعد نصف ساعة في بيت الصائغ ...

عند شباكها تقف اسيا تتطلع لشباك غرفة اختها المضاء في البيت المقابل ... بينما خيال اختها يتحرك كأنه ظلال روح معذبة ..

انكمش قلبها في صدرها في توجع ...

ترى هل تنطفئ تلك الشابة النضرة ام انها تتعلم معنى القوة ومجابهة الحياة بكل وجوهها المظلمة الخفية ؟

الليلة تمت (خطبة الاهل) بين اهل العريس واهل العروس واصبحت رانية الطائي خطيبة فعلية لعبد الرحمن الصائغ ولم يتبق الا الخطوات الشكلية لاتمام الزواج ...

اهل العروس كانوا اقل تزمتا عن المعتاد في الاعراف واعلنوا موافقتهم مباشرة وقرأوا الفاتحة ..!

لم يطلبوا مهلة حتى للتفكير او السؤال كما جرت العادة ..

خاصة ان لا علاقة سابقة تربطهم بعائلة الصائغ لكنهم اكتفوا بسمعتهم الطيبة وموافقة ابنتهم (المتلهفة) على العريس..

لاتعلم آسيا لِمَ لم تتوقف عن التفكير بذاك التعبير الذي مر على وجه والدة العروس وهي تحدج زوجها بنظرة بدت تحذيرية !

لاتدري عمّ كان يتحدث به الرجل الذي بدى مهتما بنفسه واناقته على نحو خاص .. لكن ذاك التعبير على وجه زوجته استرعى انتباه اسيا للحظات ..

شعرت برائحة المسك تقترب منها قبل ان تشعر بلمسة الرضا على جانبي خصرها ..

رسمت ابتسامتها تخفي وجع قلبها بينما تستدير اليه لتضع كفها الايسر على كتفه بينما يحل كفها الايمن عقدة شعرها حتى اسدلته ...

يتبسم لها رضا وعيناه تبحثان ما وراء دلال انوثتها هذه الليلة ...

تميل اليه تغمر وجهها في رقبته تتشمم عطره هامسة " مبارك خطبة عبد الرحمن .."

تنهيدة تسللت كزغرودة سعادة من رئتيها وهو يحاوطها تماما بذراعيه يشدها لصدرها حتى شعرت بالـ(انغمار) ...

الانغمار التام في رضا يشبه دخول حكايات سحرية بغدادية من عهد علاء الدين ...

انها حكايات هواء الشرق المعبئ بالعشق وانهار من الحنان هي عطايا الواحد المنان وغيوم مرسلة من النعم والرزق الذي يشبع الارواح لا البطون ...

رضا .. هو كل الحكايات وإلهامها ... ومصدر فخرها وارض كنوزها ...

دمعت عيناها رغما عنها وقبل ان تخفيهما عنه كانت شفتاه تسحبان من شفتيها شهقة بكاء مكتوم ...

ابتعد للحظة ليهمس لتلك الشفتين الباكيتين " لا عشت ولا كنت ان اوجعك شيء وانا اتنفس الهواء يا اميرة البنات .."

همست لهمس شفتيه " ربا...ب .."

فيرد بثقة واصابعه تنغمر في خصل شعرها

" دعيهما يخوضان التجربة .. نحن لن نصحح دائما ولن نمنع الاخطاء .. هو مكتوب على جبينهما منذ الولادة ... ولا احد يعلم اين سيكون نصيبه ..."

غرفة عبد الرحمن

ممدد على سريره يحدق في سقف غرفته ...

ذراعه يمتد للجانب حيث اصابعه تتلاعب بالانارة الجانبية على المنضدة بجانب السرير..

يطفئ .. يشغل .. يطفئ .. يشغل ...

نور .. ظلام .. نور ... ظلام ...

رباب .. رباب .. رباب ... رباب !

في النور والظلام تتجلى صورها على جدران روحه فيشتاق لمسها قلبه وتهفو لخطوط وجهها عيناه ...

كم سيأخذ وقتا ليشفى من عشقها ؟

كم سيحتاج من قوة لينساها ويبدأ مع رانية من جديد ..؟؟

رانية تلك الحلوة المتلهفة اليه هل يظلمها معه ام ربما ستفتح له باب الخلاص ...

يرن هاتفه باستمرار لكنه لايرد ..

لقد كان رعد يتصل به من كندا... لكنه لم يكن حقا مستعدا للرد عليه الان ...

لايعرف لم ارسل له رسالة هذا الصباح يخبره انه سيخطب فتاة تعرف عليها بالجامعة ..

لايعرف لم اعطاه التلميحات الكافية ليعرف انها ليست نفس الفتاة التي سكنت خيالات غربته ..

خيالات مسكية من عطر تراب الوطن ..

لم يخبر رعد يوما باسم (رباب) .. اسمها كان اغلى عليه من ان يفلته لسانه ... هي كلها اغلى على قلبه من قلبه ...

كان يكتفي ان يعطيه تلميحا ان هناك فتاة من الوطن هي فتاته الفريدة ... فخره ...

المختلفة عن بنات جنسها على ارض الوطن ..

فتاة ملكت قلبه بكل تلك القوة التي تشع منها كألوانها ... بكل طموحاتها واهدافها ونجاحها في كل خطوة تخطوها ...

ربما في لحظات الغضب ينتقم منها بالسخرية الحمقاء مما انجزته في حياتها العملية حتى الآن ..

لكنه في الواقع فخور .. فخور حتى عنان السماء ... فخور حد العشق الذي يكنه لها ..

شتم بعنف وهو يهب من سريره ليقف على قدميه ويتحرك جيئة وذهابا بينما يهدر مع نفسه " غبي يا عبد الرحمن .. اي عشق واي فخر هذا ؟! انتهى الامر .. كفاك عيشا خلف احلام ملونة نسجتها من خيالك وحدك .. رباب كانت دوما بعيدة بقلبها قريبة بانتقامها منك ومم حصل في الماضي ..."

أجفل بحركة عنيفة وهاتفه يرن مرة جديدة ليزفر بقوة وهو يتقدم ملتقطا الهاتف مقررا ان يرد اخيرا على صديقه وحالما فتح الخط كان صوت رعد الضاحك بصخب يقول

مباشرة " اذن تهرب مني كي لاتخبرني لماذا لم تخطب حلزونتك السرية "

اوشك عبد الرحمن ان يحطم الهاتف بينما يرد من بين اسنانه " قلت لك الف مرة لاتنادها هكذا .."

ارتفع صخب ضحكات رعد ثم قال له يشاكسه " ما زلت تغار عليها كالجحيم يا صديقي .."

ليستجمع عبد الرحمن كل بروده ويقول بتجاهل تام لاشارة رعد حول غيرته

" بارك لي خطبتي على رانية .. انها جميلة كقطعة حلوى سويسرية فاخرة .."

لم ترتفع ضحكات رعد هذه المرة بل قاله بسلاسة ساخرة محببة " سنرى تأثير الحلوى السويسرية عليك .. لكن احذر ان تقضمها قبل ان تتأكد انها ... ستعجبك .. "

رد عبد الرحمن بتصميم

" ستعجبني ... صدقني ستعجبني .."

بيت العطار ... غرفة رقية ..

يأتيها صوت حارث المبحوح عبر الهاتف وهمساته بالعشق المحموم تؤثر فيها بطريقة مختلفة عن السابق ...

في السابق كان يخطف نبضات قلبها .. الآن تشعر انها تستمتع بالسيطرة عليه وخطف ما هو اكثر من النبضات منه .. تختطف قلبه..

في اول معرفتها به كانت مصدومة بتجسد كل ملامح فارس احلامها فيه ...

لم يكن وسيما تماما لكن هيئته وتصرفاته توحيان بالجاذبية الحارة .. لم يكن يعرف حلولا وسطا في التعبير عن مشاعره ..

وقح اذا اعجبته فتاة واشد وقاحة اذا لم تعجبه وتصر هي على رمي نفسها عليه ..

لكنه .. اختارها ... اعجبته واختارها ..

وقد كانت هي لاترضى الا بالمميز ..

بل كانت تنتظر فارسها المختار بصبر وتراقب الشباب من حولها ..

كانت تعرف انها ليست تلك الفاتنة المبهرة التي تجذب الاعين لكن هذا كان افضل .. لاتريد اجتماع كل من هب ودب حولها .. وقد كان حارث هو الافضل الذي اختارها لحسن الحظ واعجبته ربما لانها ليست من النوعيات التي تقيم علاقات عاطفية رغم شعبيتها بين الطلبة عموما .. كما انها لم تظهر اهتماما بثرائه ... رغم انها في دخيلتها كانت ..تهتم..

لقد اجادت التعامل معه فمنحته ما يحتاج غروره من التجاهل ليمنحها ما تحتاجه من اهتمام متلهف ... ناري ..

اخذ يلاحقها يغازلها بوقاحته يحاصرها هنا وهناك وهي تجيد الصد وتحرص على بقاء الباب موارب ...

" ايتها المجنونة اين تسرحين مني وانا احترق هنا بمفردي أكلم نفسي ...؟"

تعود بتركيزها اليه عبر الهاتف فتبتسم رقية وهي تتلاعب بخصلة من شعرها قائلة بتضجر مدروس

" انت لاتجيد الا الاحتراق بمفردك .. سيأتي يوم ويصيبني الملل من كل هذه النيران .."

رد حارث بغضب متفجر مفاجئ

" يوما ما سأعلمك الادب وانت تكلمين زوجك ..."

ضحكت رقية بخفوت بينما تغيظه بالقول

" الا ترى كم هو مضحك قولك

(زوجك)؟! كم مرة قلت لك لاتعطي

نفسك هذه الحقوق ؟! لاتنس نفسك يا

حارث .. انت حتى لست بخطيبي واهلي

لايعلمون شيئا عنك .. وان جاءني بالغد

(خطيب مناسب) لن أتردد بقول (نعم) له "

هدر فيها وغضبه يتفاقم

" سأقتلك قبل ان أقتل (الخطيب المناسب) ..

اغلقي الهاتف رقية والا اقسم بالله ستجديني

عند باب بيتكم اثير لك فضيحة .. "

لاتعلم ما أصاب قلبها ؟!

لماذا لم يعد ينفعل كالسابق مع جنونه هذا ؟

لماذا لم تعد تشعر بالاثارة لجرأته ووقاحته ؟!

همست رقية تسترضيه فقط حتى تنهي

المكالمة " انت لاتتحمل المزاح ابدا ... حسن

سأكون فتاة مطيعة وأغلق الهاتف ولن تسمع

صوتي حتى نهاية الاسبوع او ربما اسبوعين

فإياك والاتصال لاني .. لن أرد ... فاكتفِ

برؤيتي في الجامعة .. عزيزي ..."

سمعت صراخه الغاضب يعلو حتى قطعت الخط

واغلقت الهاتف تماما وهي تضحك بشقاوة ..

لكن تلك الضحكة لم تصل قلبها لتتلاشى

ببطء بينما تزيح عنها غطاءها لتنزل قدميها

ارضا تبحث عن خفيها الصوفيين وتهمس بحنق

" لم أعد اطيق ترك رباب اكثر .. انها تحبس نفسها في غرفتها منذ العصر مدعية التفرغ لعملها المهم !..."

قرب غرفة رباب وجدت رقية انارة الغرفة مضاءة وقد تسرب بعض النور من تحت الباب المغلق فاخذت نفسا عميقا قبل ان تطرق وتدخل دون انتظار لاذن اختها ...

لكن ما رأته مؤكد لم يكن يحتاج لأي اذن حتى تدخل ...

لم تشعر رباب حتى بدخولها بينما تحدق فيها رقية ببعض الذهول ...

بدت رباب في عالم آخر وهي تجلس على ركبتيها وسط الغرفة بقميص نومها القطني السميك وشعرها العسلي منثور وشبه مشعث يكاد يغطي وجهها .. صدرها يعلو ويهبط بتسارع ملحوظ وبدت في عالم اخر وقد تناثرت اوراق رسومات لفساتين من حولها ودبابيس واوراق التفصيل الخفيفة وغيرها من ادوات الخياطة التي لاتفقه منها رقية شيئا ..

ووسط كل هذا سطع اللون الكرزي لقطعة قماش فاخر فاتن امسكتها رباب بين يديها تقصها في جانبها بمقص كبير ...

همست رقية تنادي اختها بحذر حتى لاتجفل

" رباب ..."

لكن رباب كانت تقص القماش بتركيز وكأنها انعزلت عن العالم اجمع فلم تعد تسمع

الا الصوت الخافت للمقص وهو يشق طريقه المستقيم في القماش ...

عبست رقية وقد تملكتها موجة غيظ وهمت ان تفتح فمها لتعنف رباب لكل ما تفعله بحياتها وخسارتها الغبية لعبد الرحمن عندما جاءها صوت رباب الهادئ رغم ذبذبات لهاث انفاسها

" تعالي يا كل الرقة .. احتاج معونتك .."

لاتعرف رقية لماذا شعرت فجأة برغبة في البكاء !

ليس البكاء فحسب بل ان تركض لغرفة امها تغرق وجهها في حضنها تلتمس فيها الدعم والسند والاحساس بالامان !

لكن رقية شمخت و تحاملت على ضعفها اللحظي هذا لتقترب من اختها التي توليها ظهرها وتقول برعشة تأثر خفية

" بماذا اساعدك .."

التفتت رباب اليها بوجهها الذي بدى موردا كمن به حمى خاصة مع هذه اللمعة الساطعة في عينيها العلسيتين لتقول ببشاشة تمس نياط القلب " اذا ساعدتني بخياطة فستاني هذا اعدك بفستان اجمل منه لحفل عرس حفيدة خالة بدرية .."

بملامح مسيطرة تقدمت رقية اكثر ثم جثت على ركبتيها جوار اختها وتصنعت التأفف وهي تقول

" اخبريني بالمطلوب وسأوافق ان تخيطي لي فستاني ..."

ضحكت رباب عاليا لكن ضحكاتها لاول مرة توجع رقية ..

ضحكات رباب التي ترن دوما كاجراس الفرح بدت الآن كعزف على اوتار الألم ...

صباح السبت

يكز مهند على اسنانه بينما يطالع زوجته وملامحها الفاتنة تحددها خطوط العناد ويبدو جليا انها لن تتراجع عن قرارها ...

انتقلت نظرات مهند لصغيرته حبيبة التي تقف جوار امها تحمل دميتها معها والنعاس يغشى جفنيها الحبيبين ...

يذوب قلبه وهو ينحني حتى جثا على ركبتيه امامها ليحاوط خصرها ويميل برأسه يقبل خدها ورقبتها وهو يقول لها بهمس رجولي أبوي

" ساشتاق لك حبيبة قلب مهند .."

لم يشعر بتشنج الألم الذي ضرب مواطن الضعف في زوجته .. لم ير ملامحها كيف خانتها بالعشق الذي تكنه لزوجها وتكتمه .. بالغيرة الوحشية التي تنهشها كل يوم .. كل ساعة .. بالـ... الذل والهوان وهي مذبوحة في انوثتها ...

على بعد خطوات كانت مروة تتخفى خلف باب المطبخ الموارب تراقب اخاها وزوجته ...

تعضعض شفتها السفلى بندم واحساس مريع بالذنب .. فلولا لسانها الطويل .. لولا غيرتها من عروس اخيها قبل ثلاث سنوات لما اقدمت على فعلتها الطفولية التي لاتقبل الغفران ... لما اقدمت على البوح بما لايفترض البوح به... وكم هي جبانة لانها حتى اللحظة لاتجد اي شجاعة لتخبر مهند بما باحت به لزوجته جوري ...

وقف مهند على قدميه بينما انسحبت مروة بدون دون ان يلحظها احد ليقول مهند ببرود ظاهري فقط " كما تشائين .. لكن صباح الخميس اريدك هنا مع حبيبة .. انه عرس مروة وامي مؤكد ستحتاجك .."

ابتسامة باهتة فيها لمحة سخرية لامست شفتيّ جوري وهي ترد على زوجها بالقول

" اختاك الكبيرتان موجودتان وستسدان الحاجة لأي مساعدة .. مع هذا انا سأقوم بواجبي كأي .. كنّة .. أصيلة ! "

يحدق مهند في عيني زوجته الباردتين المستهينتين ويكاد يحترق غيظا وتتأجج فيه مشاعر متهورة رعناء قديمة تذكره بـ(مهند) الذي كانه يوما ...

مشاعر يراها اليوم .. انانية بحته يقاومها .. وهو لايريد العودة لما ..(كان) .. يكفي انه عالق حتى اللحظة بمشاعره التي (كانت) ...

دس يده اليسرى في جيبه .. يده التي خلا بنصرها من حلقة زواج رفض ارتداءها منذ اول يوم لزواجه بحجة انها تضايقه .. ومع هذا يشعر بوجود ظلال قاتمة لتلك الحلقة الفضية المفترضة .. لذلك الرمز الذي بات يخنقه ويدمر سيطرته على نفسه ...

واصبح لاشعوريا يخفي يده اليسرى في جيب بنطاله وكأنه يخفي الظلال التي يكرهها ولا يراها سواه ...

قال اخيرا ويده اليمنى تتلاعب بخد ابنته عفويا " هل ستذهبين بسيارتك ؟"

عيناه انحدرتا عفويا لفتحة قميصها الابيض تحت سترتها الخضراء الموردة فتعلقت عيناه بالسلسلة الذهبية التي تزين رقبتها وتبهج النظر لجيدها الابيض ...

احساس بالتوتر جعله يعبس بينما يسمع ردها بتشتت ذهني " نعم .. سأحتاجها في بضعة مشاوير انجزها ..."

رفع عينيه لعينيها ليسألها بضراوة

" هل يجب ان تذهبي لبيت والدك ؟ اعطني سببا واحدا مقنعا لاصرارك .. كما ان



ملابسك مثيرة اكثر مما يجب لتخرجي بمفردك .."

تلك الارتعاشة في شفتيها كم ترضيه !!
تجعل غيظه يخفت ورجولته تثأر لنفسها ...

على الاقل يشعر انه يؤثر حقا في .. زوجته ..

حتى وقلبه يتعلق بفتاة اخرى .. فتاة صغيرة هيفاء القامة تحمل وجها يشتاق اليه بجنون .. يكاد يهيم بها دون ان يقوى على المقاومة اكثر ، لقد قضى الليل محموما بالتفكير متى ستتصل شذره .. ماذا ستقول له .. ماذا سيقول لها ...

ومع كل هذه الحمى تبقى جوري زوجته ..

عبس مرة اخرى وهو يفكر جديا بالذهاب لشيخ الجامع .. سيسأله .. سيسأله ويتأكد ..

لكن اولا يجب ان يرى شذره ويكلمها ..

يجب ان يعرف ان كانت هي ضالته ...

رغم ان قلبه يخبره .. ان شذره ستنقذه .. بل وستنقذ حتى زواجه البارد من جوري ...

سمع عندها صوت جوري يقول بغموض

" نعم مهند .. يجب ان اذهب لبيت والدي .. ولديّ كم من الملابس المناسبة فلا تقلق .. بعض صديقات امي سيأتين اليوم لزيارة صباحية على الافطار ولذلك أتأنق بشكل خاص .."

عاد ليحدق في زوجته فيرى واجهتها الباردة الجامدة قد عادت لكن هذه المرة لم يتضايق بل شعر وكأنه يتشبث ببرودها هذا ليكون وقوده حتى ينطلق بالاتجاه الذي يرى فيه خلاصه ..

اجل .. لن تستمر حياته بهذا الشكل ..

يجب ان يفعل الامور بشكل صحيح هذه المرة.. لامزيد من الاخطاء ..

لا مزيد من التيه والتخبط ...

لامزيد من تدخل والديه ليرسما له كيف يتخذ قرارات حياته ..

لامزيد من الشعور بالذنب والرغبة بالتكفير عن كل شيء بابداء الطاعة لقيادة الاخرين لخطواته ...

لقد عاش طويلا مع ذنوبه حتى نسي من يكون .. حتى نسي قلبه كيف يكون ..

سيستعيد ثقته بنفسه وسيفكر مليا ويأخذ كل وقته ليخطو الخطوة التالية ..

وبينما يرفع نظراته ليكلم جوري رآها قد تحركت مبتعدة كضباب متلاشٍ توليه ظهرها وتخرج عبر باب المطبخ المطل على المرآب دون ان يسمع صوت خطواتها ولا همسها وهي تودعه بصوت خافت غامض ..



فقط ابنته تلتفت اليه تلوح له بكفها الصغير فلا يملك قلبه الا ان ينعصر وهو يلوح لوجهها الصغير الناعس حتى اختفت مع والدتها في السيارة الصغيرة التي تستخدمها...

مضت دقائق وهو يقف مكانه بعد رحيل جوري مع صغيرته حبيبة قبل ان يومض في رأسه خاطر مفاجئ كالبرق ليرفع معصمه ناظرا لساعة يده فشهق وهو يتحرك بسرعة مدركا انه سيتاخر على موعد الحافلة !

ركب الاولاد الحافلة المدرسية تتبعهم خلود بينما ظل شذره لم يتحرك من امام باب الحافلة المفتوح ...

استدارت خلود لتعقد حاجبيها بعجب وهي تنظر لشذره التي تتسمر مكانها وتبدو نظراتها وكأنها شاردة في مكان آخر مجهول ..

اظهر سائق الحافلة تململا وهي يتساءل بجفاف

" لقد تأخرنا .. متى سننطلق ؟! "

حدجته خلود بنظرة اخرسته وجعلته يحني رأسه وهو يمد يده للمذياع يبحث عن محطة محلية تبث اغاني الصباح ...

عادت خلود بنظراتها لشذره فتسألها باستغراب وهي تراها ما زالت على حالها

" ما بك شذره .. لماذا لاتصعدين .. "

للحظة أجفلت شذره ثم رمشت وانغلقت تعابيرها تماما وهي تتراجع خطوة للخلف قائلة

" انا .. سأعود للبيت .. لا اشعر اني بخير .."

نادتها خلود وحاجباها يرتفعان " شذره ! .."

كانت تتقدم ناحية باب الحافلة بينما شذره تتراجع خطوة اخرى على الرصيف وهي تقول

" اذهبي خلود... لاتقلقي .. ربما مجرد بداية انفلونزا خفيفة .."

عند باب الحافلة تقف خلود عاجزة عن التصرف وضوضاء الاطفال تتصاعد مع تململهم من الانتظار كتململ سائق حافلتهم..

رسمت شذره تلك الابتسامة الخاصة التي تجيدها من سنوات لتختبئ خلفها ثم تقول ببشاشة وهي تلوح لخلود وتشير للخلف

" سآخذ شايا من هذا .. المقهى ثم ... أعود من فوري للبيت .."

تطلعت خلود ببعض العبوس لذلك المقهى ثم استرخت قليلا وهي تراه مقهى محترما ويكاد يخلو من مرتاديه فقالت وهي ترد لها بابتسامة صافية محبة

" حسن حبيبتي .. طمئنيني عنك عند وصولك ..في أمان اللّه .."

الحافلة المدرسية تتحرك وشذره تلوح لخلود وهي تتشبث بتلك الابتسامة الواهية على فمها ..

وفي نفس اللحظات التي كانت فيها الحافلة تأخذ طريقها في الشارع كانت سيارة مهند تسير بمحاذاتها وعيناه تبحثان بتلهف عن وجه شذره ..

لكن تحركات الاطفال وهم يبدون وكأنهم يتراقصون بتشابك مع بعضهم شتت الوجوه وزحام الشارع منعه من البحث بتمهل ..

عندها لم يفكر مرتين وهو يقرر لاول مرة اللحاق بالحافلة حتى مبنى المدرسة ...

هذا اليوم يجب ان يكلمها ...يجب ...!

في السوق الكبير وسط العاصمة

باكرا على غير عادته وصل للسوق .. يلقي تحايا السلام على كل من يمر به فيتلقى التهاني والتبريكات بمناسبة خطبة اخيه فيردها رضا بالشكر والابتسام بحبور بينما قلبه لايشعر بذلك الفرح ...

عقله مشغول للغاية بما يحدث لعبد الرحمن وعواقب زيجته المرتقبة من رانية ..

الفتى يعاني .. يشعر به ... ويقدر ما يواجهه من شعور العجز في هوى قلبه ...

ألم يعاني هو من نفس الشعور بالعجز ناحية
اسيا قبل سنوات ؟ مع اختلاف الاسباب
والظروف لكن الشعور واحد ...

وإن آلمه هو شعور الاحتقار من اسيا الذي استمر
لأعوام فعلى الاقل كان يفهمها بصمت
ويمنحها الاعذار وقلبه مشتعل بالنيران ..
لكن عبد الرحمن امره مختلف ... لانه
لايعرف اسباب رباب لنبذه.. ولا احد يعرف
حتى تلك الاسباب غير المعلنة ...

اسبل اهدابه وفكره يغرق اكثر باسيا ...

كان نومها قلقا ليلة الامس تهمهم بما هو غير
مفهوم لمسامعه .. فيكتفي ان ينظر اليها في
نومها محتضنا جسدها بين ذراعيه بحمائية

يريد منحها ما هو اكثر من عشقه السرمدي
لها ... يريد منحها الاطمئنان ومزيدا من الثقة
ان القادم فيه كل الخير ان شاء اللّه ..

قلبه لم يطاوعه ليوقظها على صلاة الفجر
فتركها نائمة ليؤدي هو صلاته وبعد
التسابيح كان يعتني بالحمائم التي تجمعت
على شباكهما ..

ثم غادر باكرا وهو يهمس لاذنها مداعبا
نعاسها بالقول " تدللي اليوم في سريرك يا
اميرة .. "

تبتسم لصوته في منامها فيرفرف قلبه ..

كم يحب ان يشعر بفرحة يغرسها بكفه في
ارض احلامها ...

" السلام عليكم يا حاج رضا .."

تنبه رضا من استغراقه على صوت رجل قارب الستين يتجاوزه المسير بهمة وهو يدفع عربة خشبية مما يستخدم عادة لنقل الاحمال الثقيلة بين فروع السوق المتنوعة ...

تذكر حسناء ووالدها الذي كان يدفع عربة مماثلة في السوق ..

لم يعرف والد حسناء كما لم يعرف هذا الرجل الذي ألقى عليه السلام بمحبة وألفة ..

رد رضا السلام وهو يناديه ليتوقف

" تمهل يا حاج ..."

فيلتفت اليه الرجل يعيد ترتيب لفافة عقاله فوق رأسه ضاحكا باسنان نصفها مصفر ونصفها الآخر متثلم .. لكن رغم هذا كانت ابتسامته تشع دفئا وهو يرد على رضا بالقول

" سمع الله منك يا ابا جعفر .. وكتبها لي حج لبيته الحرام ..."

تبسم رضا وهو يقترب منه ويلف عباءته بعفوية بينما يدعو له بالاستجابة ثم يسأله

" بعون الله تحج هذا العام .. أردت ان اسألك في اي حي تقطن من العاصمة ؟"

بدت ملامح الرجل متعجبة بينما يرد على رضا

" انا اسكن في الحي الصناعي .. هل من خدمة يا ابا جعفر ؟"

فكر رضا للحظة قبل ان يرد

" هل تعرف احدا يسكن حي (الشيخ) ؟"

فيرد الرجل وهو يعبس بنفور

" هذا الحي موبوء .. كنت اسكنه مع اهل بيتي قبل ان يسوء وضعه فانتقلنا للحي الصناعي قبل ثلاثة اعوام .. لكن يقال ان خروج الفتوة تحسين من السجن قد يحسن الامور هناك ..."

ارتفع حاجبا رضا وهو يتساءل

" متى خرج تحسين هذا ؟ وكيف عرفت ؟"

رد الرجل وهو يحرك لفافة عقاله مرة اخرى

" مع العفو الحكومي العام يا ابا جعفر .. ألم تسمع به ؟ لقد صدر قبل بضعة ايام فاطلقوا الجميع للشوارع والله يرحمنا مما سيحدث من أرباب السجون هؤلاء ! لكني أظن ان تحسين سيكون وجوده أفضل لذلك الحي البائس .. على الاقل الرعاع يهابونه وينحنون لسطوته.."

شعر رضا بالارتياح فشكر الرجل الذي تمتم ببضع كلمات لينسحب بينما لسان حال رضا يردد الحمد لانه اطمأن الى حد ما ان المرأة المسكينة ستكون بخير ...

في المقهى ..

تجلس بمفردها .. كوب الشاي امامها على الطاولة المستديرة يكاد يبرد وهي تحدق فيه دون ان تراه ... تتكالب الدموع الحبيسة

في عينيها وتحتشد العبرات الثقال ما بين قلبها وحنجرتها ...

الشعور باليتم بشع .. ان تنظر لمن حولك فترى الاشفاق اكثر مما ترى المحبة ..

عجز .. قلة حيلة .. احتياج خانق ... بكاء مقتول في مهده ...

" انت تجلسين على مائدتي .."

صوت غريب لكنه لم يكن غريبا ابدا ..

خفقات لهفة وعطش جعلتها تلتفت جانبا وهي ترفع عينيها اللامعتين بدموع حبيسة اليه ..

بدى جذابا جدا عن قرب بسمرته الخفيفة وعينيه الغامضتين وابتسامته المرتعشة بتأثير رجولي مباشر ....

شعور مهول لايوصف بقوته خالجها وهي تحدق فيه دون ان تعرف ما فعلته به في المقابل !

عيناها تفضحان احتياجها .. فتغذي احتياجه هو بعد طول جوع ...

حمرة قانية شعت من خديها المائلين للسمرة الملوحة بالشمس بينما تعبس في توبيخ ذاتي للنفس وهي تدفع كرسيها لتقف على قدميها تهمس " انا .. اسفة .."

كانت ستتحرك عندما تحرك يسد طريقها وانفاسه تكاد تلفح وجهها وهو يقول بصوت أجش ونبرة جريئة " اجلسي بالله عليك .. لقد دخلت هنا يائسا من ايجادك لاراك تجلسين مكاني .."

رفعت عينيها اليه لتدرك لاول مرة فارق الطول البسيط بينهما وهي تتساءل بقلب مرتجف " ايجادي ؟! "

الجرأة تطل بجاذبيتها من عينيه وشيء ما مشتعل وحي توقد فيهما وهو يقول بمزيد من الجرأة والصراحة " لقد لحقت بالحافلة المدرسية .. وانتظرتك تنزلين منها امام باب المدرسة لكن .. لم تنزلي .. راقبت رفيقتك مع باقي الاطفال وهم يدخلون عبر البوابة وانت ... لم تكوني معهم .."

عيناها في عينيه تعبّدان طريقا خجولا من روحها لروحه .. هكذا دون تفسير دون شرح .. تمتمت وهي عاجزة عن ازاحة عينيها عن عينيه " كيف عرفت... اني هنا ...؟ "

رد بخفة ظل وانفاسه تتسارع اثارة وذاك الشيء الحي في عينيه يزداد توهجا

" لم أعرف .. ألم اقل اني كنت يائسا من ايجادك .. سائق الحافلة الممل اخبرني انك.. لم تصعدي معهم وانك كنت .. متوعكة وقررتِ العودة للبيت .."

تساءلت وهي ما زالت على ذاك الطريق المعبد بينها وبينه " هل سألت سائق الحافلة عني ؟!"

نظراته تشع اكثر واكثر وهو يطوف في تقاطيع وجهها هامسا بصوت متحشرج

" لاتقلقي شذره .. اوهمته انك معلمة لطفلتي وكنت اريد سؤالك عن بعض الامور المدرسية .. وهو صدقني .."

ثم يبتسم بشقاوة محببة مضيفا " مضى زمن طويل لم أفعل امرا مخزيا للمبادئ ! "

توردت وهي ترد عليه وكأنها تعرفه من سنوات

" المجتمع لايستحق دوما ان نكون صادقين معه لانه غير منصف في المقابل .."

صمت آخر وللحظات ليقول مهند بعدها بنبرة غريبة

" هل تتخيلين سلاسة الحوار الطويل الذي دار بيننا للتو رغم اننا لم نتكلم معا في السابق الا بضع كلمات ..."

ما زالا واقفين امام بعض يجريان حديثهما العجائبي لتسأله هي مسبلة اهدابها

" هل تريد سؤالي لماذا لم أتصل ؟"

جاء صوته همسا حارقاً

" لا ... يكفيني اني هنا معك دون سابق موعد .. نتكلم هكذا .."

هذه المرة الخجل جعلها تطرق برأسها فتوسلها مهند بالقول " فقط اجلسي .."

بتردد لحظي أطاعته وجلست في صمت يحتضنه الخفر ليجلس هو الآخر على الكرسي المجاور متسائلا بخفة وصوته تخونه الرعشة اللذيذة

" تحبين الشاي ؟"

ردت بابتسامة " نعم .."

رد ببساطة " انا افضل القهوة .."

همست وهي تحرك رأسها وكأنها تستغرب ما يحصل لها وعاجزة عن رده " يجب ان أرحل .. جلوسي هنا معك ليس لائقا ولا محترما .."

فقال بهدوء ومنطقية مقنعة

" انه مكان عام وفي هذه الساعة من النهار لن تجدي احدا .."

ثم لم يحتمل وهو يرى بوادر تصاعد في توترها ليقول بصراحة صادمة حتى له

" انا احتاجك شذره .. باللّه عليك فقط امنحيني فرصة لاجد ما يحيي نفسي من جديد .. انت فقط من يستطيع فعل هذا .."

عندها رفعت وجهها اليه تحدق فيه وكأنها لاتفهم حقيقة ما يحصل لتسأل

" لماذا انا ؟! انت لاتعرفني وانا ..."

قاطعها بصوت عاطفي متلهف " الا نستطيع ان نعرف ما يربطنا ونحن نتعرف لبعض ؟ اقسم لك باللّه لا أنوي بك شرا ابدا .. "

اخذت تعض شفتها السفلى ولا تعلم بم يجب ان ترد .. ذابت نظراته فيعيش في ملامحها الحبيبة قصة اخرى هامسا بجذل

" انت صغيرة جدا .. كم عمرك ؟"

تمتمت " ثلاث وعشرون ..."

فابتسم بتلك الشقاوة التي تزيد جاذبيته

" وانا في السادسة والثلاثين ..."

ابتسمت له عفويا وهي تتورد ليضيف بنفس النبرة الحلوة الرجولية " اسمي ... مهند ..."

فردت بارتباك منحسر تجاري فكاهته وهو يعرف بنفسه " وانا ... شذره .."

أمال رأسه ليقول ببشاشة غامزا بعينه اليمنى

" عاشت الأسامي يا انسة شذره .."

اربكها اكثر وهو يدغدغ انوثتها بطريقة لم تشعرها يوما بينما تسمعه يقول بصوت مؤثر

" كلميني عنك .."

نظرت اليه تسبر اغوار ما يجذبها فيه حقا ..

الحياة لم تمنحها الفرصة يوما لتكون رومانسية او حالمة فتتأثر ببساطة بجاذبية رجل مهتم بها .. رجل يكبرها بكل تلك السنوات ... لا .. ليس هذا مكمن جاذبيته بالنسبة لها ... بل يجذبها اليه ذاك الشيء الغامض التفسير المتوهج في عينيه ...

انها تحتاجه .. تشعره يخصها .. يسد جوعها .. يقتل بؤسها واحساسها المريع باليتم .. هذا الذي يتوهج طلبا لها على نحو خاص ومتفرد يشعرها بالكمال ..

يكفي انه يجلس قبالته الآن وينتظر منها ان تتكلم !

منذ زمن طويل لم تشعر بأي انسان يريدها ان تتكلم حقا ... يريد ان يراها هي عبر كلماتها ...

ارادت ان تبدأ الحكاية .. اي حكاية ...

فأخذت تتمتم وكأنها تبحث عن أول الخيط

لتمسكه " انا ... انا ..."

سألها بصوت أجش وهو يحدق في عينيها

" انت ماذا ايتها الشذرة الزرقاء ؟"

لم تشعر الا بالدموع تبلل وجنتيها تتذكر

تدليل والدها لها (شذرتي الزرقاء) لتبوح

بوجع " انا ... اشعر بالوحدة .. بالبرد ..."

عندها انعكس ما تشعره في قلبه هو ليبوح

هو الآخر

" وانا أكاد اتجمد من صقيع حياتي .."



الفصل الثامن

يوم الاثنين

دار العطار للازياء

تراقب حبيبة اختها بطارف عينها بينما تراها تتحرك كنحلة نشيطة بشكل مفرط بين زوايا غرفتها تكاد ترتطم بجدرانها !

ترتب .. تنظم .. تضع خطوطا جديدة في رسومها المثبته وبنفس الوقت تضحك بنبرة مرتفعة وهي تلقي بملاحظات مغيظة عن العاملة الجديدة المعجبة بيحيى..

تبسمت حبيبة بينما تقترب من احد التصاميم الجديدة تنظر اليه بتمعن وعين خبيرة ...

قالت رباب فجأة وانفاسها تلهث بعض الشيء

" هل جهزّتِ ما ستلبسينه لعرس حفيدة الخالة بدرية ؟ استطيع ان اخيط لك ثوبا كالمدللة طويلة اللسان رقية .."

التفتت حبيبة لاختها تحدق في وجهها الذي نحل كثيرا خلال بضعة ايام فتسألها بجذل

" متى سيكون العرس بالضبط ؟"

ردت رباب وصدرها يعلو ويهبط بتسارع انفاسها

" اخر يوم من شهر شباط .. لم يجدوا حجزا اقرب من هذا الموعد .."

اسبلت حبيبها اهدابها بينما تستدير جانبا لتقترب من ذاك الفستان الذي ترتديه دمية عرض ...

فستان ابيض بوشاحات شذرية وذهبية مجدولة مع بعض وخرز محشورة بين الجدائل .. رسوم احترافية لنقوش تم تطريز بعضها على شكل كفوف متراصة على جانب ضفيرة الاوشحة .. انه الكف الذي يرسم عادة في الفنون الفلكورية القديمة ويتم استخدامه حاليا بكثرة حتى في صنع المصوغات الذهبية ..

ما اثار اهتمام حبيبة ان الفستان الرائع كان شبه مخفي خلف باقي الدمى البلاستيكية ..

اقتربت منه تتطلع لتفاصيله ونقوشه عن كثب ..

اتسعت عيناها قليلا وقد شعت نظراتها بوهج الاعجاب فتقول بافتتان وهي ترفع اناملها لتلامس النقوش التي لم تكتمل على القماش الابيض" هذا الفستان فاتن ومميز للغاية ..."

جاء صوت اختها مختلفا .. متقطعا بارتعاش خائف " انه .. فستان عرس ..."

تسمرت انامل حبيبة للحظة وقد التقطت ردة فعل رباب فتستدير اليها بحركة مفاجأة تحدق في ملامحها الجامدة وعينيها الغائرتين من انهاك واضح لتسألها بخفة ومزاح يبطن معان اخرى " هل تجهزين نفسك يا عروس من خلف ظهورنا ؟ .. اعترفي يا كتومة "



جاءت ردة فعل رباب بكلمة واحدة اطلقتها بعنف كالنار " لااا ..."

بدت رباب مصدومة من عنفها اكثر من حبيبة نفسها لكن حبيبة لم تبدي تأثرا لتقول بتفكه رقيق

" انت ما زلت صغيرة لنتعجل تزويجك الان يا قرفة لكن لاتدعي استقلاليتك تأخذك بعيدا نريد ان نفرح بك وبرؤية اطفالك المشاغبين مثلك "

هذه المرة لم تستطع حبيبة التغاضي وهي ترى يدا رباب ترتعشان ووجهها يشحب تماما لتقترب منها وتمسك يديها قائلة ببعض القلق

" يداك ترتعشان ووجهك شاحب جدا .. هل انت بخير ؟"

سحبت رباب يديها من بين يدي اختها لتنغلق ملامحها تماما وهي ترد بهدوء

" مرهقة فقط .. منذ ايام وانا اسهر لتجهيز فستاني وفستان كل الرقة .."

اغتاظت حبيبة من سرعة رباب في التحول .. من قمة الضياع والتشتت الى منتهى السكون والهدوء فتحاول اثارتها بالقول

" انت تشغلين نفسك تماما هذا الاسبوع .. عمل دؤوب بالنهار ثم تمضين المتبقي في تجهيز الفستانين .. وجهك حقا يبدو .. منهكا ..."

اخذت رباب تتحرك مرة اخرى لكن بخطوات هادئة خفيفة كفراشة وهي تردد ببساطة

" انا احب العمل ... "

فتلاحقها حبيبة بنظراتها وهي ترد عليها

" وانا ايضا احب عملي لكن ..."

تقاطعها رباب وهي تسأل بابتسامة لامعنى لها

" لم تخبريني هل تريدين ان ... اجهز لك فستانا ؟"

ردت حبيبة وهي تمعن النظر بابتسامتها تلك

" لابأس حبيبتي..لدي ملابس مناسبة للعرس.."

ثم تضيف بعند تدحرج به عند رباب " لكن ربما سأحتاج لخدماتك في عرس عبد الرحمن ... اسيا اخبرتني انه سيكون في الصيف ..."

ما زالت رباب تنظر بنفس الابتسامة وتلتزم الصمت لتتساءل حبيبة وهي تقترب منها مرة اخرى " هل تعتقدين انهم سيقيمون قبلها حفلا كبيرا لعقد القران ؟ "

همست رباب عندها " لااعلم ..."

كانت حبيبة تدرك انها تضغط عليها لكنها تشعر انها اقتربت كثيرا من فتح تلك الابواب المغلقة فتقول بتركيز وهي تحدق في عيني رباب اللتين انطفأ لونهما العسلي

" حفل الخطبة يوم الخميس لكن عقد القران ربما بداية آذار مع بزوغ الربيع ..."

عندها رفرفت رباب برمشيها وتمايلت قليلا هامسة " حبيبة انا دائخة قليلا ..."

شتمت حبيبة نفسها في سرها لتاخذ بذراع اختها وتقود خطواتها لاقرب كرسي وهي تقول " اجلسي حبيبتي .. سأحضر لك بعض العصير ... لابد ان ضغطك منخفض قليلا بسبب التعب في العمل .."

تركتها حبيبة للحظات على ذلك الكرسي رأسها محني وقلبها ينبض ببطء حتى وكأنه يبتلع دقاته فتهمس رباب همس التضرع

" ساعدني يا رب .. ساعدني ..."

الخميس .. يوم عرس مروة ..

و... خطبة عبد الرحمن !

منتصف شباط..صباحا ...

" كيف هي العروس ؟"

أطل وجه جوري من عند باب غرفة مروة بسؤالها البشوش ووجهها المشرق بابتسامة حلوة لتجد مروة تجلس شاحبة الوجه امام منضدة الزينة خاصتها ...

وقفت مروة على قدميها تتنهد براحة وتقول

" صباح الخير جوري .. اخيرا عدتِ .."

تقدمت جوري لتدخل الغرفة تنظر بتدقيق لملامح مروة المرتبكة فتشفق عليها داخليا وتقدر ارتباكها كعروس فتعقب على كلام مروة بالقول " للتو دخلت البيت ..."

انحنت مروة قليلا لتمسك كف جوري بامتنان قائلة بارتعاش رقيق

" شكرا لتواجدك .. كنت تائهة خائفة بينما امي واخواتي تخلين عني و يضحكن علي ويهزأن من ارتباكي ولايتوقفن عن السخرية مني بالقول (اين شقاوتك؟) .. لايعلمن اني على وشك القفز من شباك غرفتي والهرب لانفذ بجلدي.."

شدت جوري على كف مروة الذي يتشبث بكفها لتشجعها بالقول المبتهج الفكاهي

" لاتبتئسي هكذا .. انه شعور كل عروس في يوم زفافها.. لن اخبرك بشعوري يوم زفافي .. امي كانت تبحث عني في كل غرف البيت لتجدني اخيرا مختبئة في الحمام ابكي من شدة توتري .."

تفاجأت جوري بالتماعة عيني مروة وكأنها توشك على البكاء لتقلق جدا عندما همست مروة بحشرجة " جوري ... أأأ ...انا.... آسفة ..."

ارتفع حاجبا جوري الاسودان عاليا في حيرة وتساؤل لتفسر مروة بالقول ومشاعر جمّة تشع من عينيها الدامعتين

" آسفة لما فعلته معك وانت في أول زواجك من مهند ... كنتُ .. انانية غيور .. وتافهة .. لاخبرك عن .. عن ..عنها .. عن اسمها ومن تكون وكيف تعذب مهند بفقدانها .. لم احتمل ان تأخذي مني اخي بعد ان اعتدت على تدليله لي .. كانت أسعد ايام حياتي عندما عاد الينا مهند بعد تجربته القاسية تلك ... لكن .. كل هذا لايغفر لي ما فعلته معك ..."

تمسكت جوري بواجهة اللطف ورباطة الجأش لتقول بابتسامة مرسومة بعناية

" هوني عليك مروة .. ما الذي ذكرك بهذه السخافات الآن ؟! اليوم يومك يا عروس.. "

هتفت مروة بحرقة

" لا جوري .. انا اموت من الشعور بالذنب .. لقد افسدت حياتك وسعادتك .. وقد كنتُ في العشرين .. ناضجة كفاية لادرك الخلل والشقاق الذي احدثته بينكما بغبائي وانانيتي .. حتى اني جبانة ولم اجرؤ على الاعتراف امامه بذنبي حتى الآن .. عندما ولدت ابنتكما تحطمت وهو يختار اسم حبيبة دون سائر الاسماء "

تجمدت ملامح جوري وزحف برود تلقائي ليمحو ابتسامتها وجذوة الفكاهة من صوتها لترد على مروة بهدوء وهي تفلت يدها

" لم تكوني تعرفي انه سيفعل .."

اخذت مروة تهز رأسها نفيا بتأكيد شبه هستيري والدمعات تتناثر على خديها كرذاذ مطر حزين " اجل.. اقسم بالله لم أكن أعرف.. صدمت كصدمة ابي .. لكن لو لم اخبرك بالاسم لما كنت ستتألمين .. لما كنت تتوجعين كلما ناديتِ ...ابنتك .."

قست ملامح جوري بشراسة اذهلت مروة وجعلتها تخرس تماما فتهمس جوري بصوت رهيب أرعد مروة " هل تظنين انك السبب حقا؟! اذن فأنت تفترضين اني لا اشعر .. اني عديمة الاحساس .. غبية ولاادرك ان زوجي ليس معي ..."

ارتفعت يد مروة لفمها وكأنها تكتم شهقة بكاء هامسة باسم زوجة اخيها " جوري .."

ليرتفع صوت جوري وهي تقول بمزيد من القسوة الباردة " لم يكن يوما معي مروة .. حاولت وعافرت وبذلت كل ما استطيع لارضيه.. لاجذبه لكنه .. جرحني مرارا .. وجرحُ انثى مثلي لايُغتفر ... "

حاولت مروة ان تتماسك وتهدئها بالقول الواهن " جوري اسمعيني ارجوك .. مهند .. طيب القلب .. لكنه غير جيد في التعامل مع الخسائر .. لقد حصل سابقا عندما أحب تلك الفتاة في الجامعة واهلي رفضوا تزويجها له .."

بابتسامة ساخرة تساءلت جوري بنفس القسوة " ما اسمها ؟! اذكر انك اخبرتني عنها ايضا.. لينا اليس كذلك ؟ الفتاة المسيحية .. ربما علي ان احاول انجاب طفلة اخرى لأرى ان كان

سيطلق اسم لينا عليها فاعرف مدى تأثيرها المتبقي هي الاخرى في قلبه ...! "

اخذت مروة تمسح خديها وتحاول مرة اخرى فعل اي شيء لرأب الصدع الكبير الذي شاركت باحداثه فتقول بعفوية اي شيء يخطر ببالها " صدقيني هو فقط عاطفي اكثر مما يجب .. قلبه متعنت وعنيد في الاعتراف بالخسائر .."

عندها تلاشت كل التعابير من وجه جوري وانغلقت ملامحها على الفراغ !

ابتلعت مروة ريقها بينما تقول جوري بنبرة غامضة

" اذن فليتحمل مسؤولية عناده وتعنته .."

قلب مروة يقرع في صدرها لسبب مجهول فتسألها بخوف " ما .. ما..ماذا تقصدين ؟!"

لانت ملامح جوري واستعادت حلاوة ملامحها الرائقة فتبتسم فجأة وتقول " هل هذا الحديث يناسب عروس ؟!! "

وقبل ان ترد مروة بشيء اخذت جوري تدفعها من كتفيها وتقول ببشاشتها الاولى التي أطلت عليها " هيا تحركي امامي .. صالون الحلاقة اتصل بي اكثر من مرة يؤكد على الموعد .."

حاولت مروة لملمة شتاتها لتتكلم لكن جوري منعتها باسلوبها الحازم غير المباشر وهي تفتح خزانة الملابس وتقول على عجل

" يجب ان اذهب ايضا للقاعة اتأكد من سير الاعمال هناك ثم أعود اليك لازين نفسي انا الاخرى .. لقد تأخرنا جدا .."

قاعة العرس

بينما تراقب جوري العمال يعدون المنصة الخاصة بالعروسين وقد تم تزيينها بالازهار بشكل فني يحيط بالمنصة بشكل متمايل كامواج بحر رائق سرحت بعيدا عن ضوضاء العمال لتعود لمحطة حياتها المتوقفة عند مهند .. وتذكرت كل لحظة منذ رأته لاول مرة عندما تقدم لخطبتها ...

لقد خطف قلبها من النظرة الاولى ...

وهو رجل يتمتع بنظرة تؤثر في الانوثة مباشرة ..

وقد أثر ..

ودخل ...

ليلة زفافها كانت حلم .. رجل حار دافئ بمعنى الكلمة ... عاطفيته دحرت خجلها العذري لتتفتح انوثتها بتعطش على يديه..

كانت ساذجة بالطبع في امور كهذه ولم تتنبه انه حار بطبعه لكن روحه لم تكن معها بل لم تكن حتى معه هو ... ضباب كثيف يحول بينها وبينه .. فتتوه روحه وسط ذاك الضباب ..

ووسط هذا التوهان كانت تشعر بشرارة بينهما.. شرارة غريبة تنطلق منه اليها ... ربما توهمتها وربما هي موجودة حقا لكنه دوما يطفئها بعناده وكأنه يرفض وجودها ...

ورغم كل هذا احبته .. عشقته ..

اغمضت جوري عينيها بألم ...

لم يكن ما اخبرتها به مروة بعد شهر من العرس ذا شأن كبير بل زادها حماسة لتكسب قلب زوجها ..

فعلت كل شيء لارضائه .. قرأت الكتب وتابعت مناهج عن الحياة الزوجية ودرسته هو شخصيا لتحقق له كل ما يجذبه اليها ..

عيناه برؤيتهما الضبابية نحوها لم تُخمِد سعيها اليه بل كانت دافعا لتقاتل لاجله ...

فيه شيء يحركها ويجعلها تخوض هذه الحرب..

يا الهي .. ثلاث سنوات تحارب بمفردها و..

عجبا انها ما زالت تفعل .. !

في البداية كان الامر تحديا وهي امرأة تعشق التحديات ولم تدرك انها تفعل كل هذا لانها.. عشقته.. اغرمت به وعشعش فيها كـ... المرض المزمن..

حملها جاء منذ ليلة زفافهما .. سريعا مباشرا مشرقا .. فرأته (بغباء) اشارة تفاؤل ...

كم كانت واهمة وسخيفة ...

كانت قد نسيت تماما اسم (حبيبة العطار)

الذي اخبرتها به مروة في لحظة غيرة طفولية

على اخيها .. ولم تتذكره الا بعد ولادة

طفلتها عندما اخبرها حماها برأس منكس

وهي تسأله عن مهند .. اخبرها انه يسجل اسم

الطفلة .. وانه اختار الاسم .... حبيبة ....

طعنة نجلاء كسرت ظهرها وأحنت هامتها

لتتوالى الطعنات في صمت ..

" سيدة جوري..ما رأيك ؟ هل المنصة جيدة؟"

فتحت جوري عينيها ببطء لتحدق في وجه

صاحبة محل الزهور والمشرفة على اعداد

المنصة فتقول لها بقناع من الهدوء

" انها خلابة .."

عصرا .. بيت العطار ..

تتطاول بقامتها قدر المستطاع وتمد ذراعها

عاليا لتقطف من ثمر اشجار النارنج المزروعة

قرب سور البيت من الداخل في احدى زوايا

الحديقة بينما لسانها يتذمر بالقول الموبخ

لاختها المحتالة

" قصر القامة اصبح عذرك الأبدي لتتخلصي

من هذه المهمة ! لااعلم ما تفعلينه بأمي

لتقنعيها ببراءتك المزعومة .."

تهز رقيّة رأسها بلا مبالاة فتهتز معها بضعة

خصلات من شعرها افلتت من الاسطوانات

الدائرية التي تلفها بها بينما تجلس متربعة

فوق الارجوحة الكبيرة تغمس قطعة البسكويت في كوب الشاي بالحليب ثم تلتهمه ببطء وتلذذ واستمتاع ...

تحنق رباب وهي تشوح بيدها التي تجرّحت راحتها قليلا من خشونة الاغصان فتؤثر رقية الانسحاب وهي تلتهم اخر قطعة بسكويت ثم تشرب بجرعة واحدة ما تبقى في كوبها لتهب قافزة من فوق الارجوحة تتمطى بدلال قائلة بتثاؤب " سأخذ قيلولة متأخرة .. لدي تحضير لامتحانات مهمة ..."

ثم تلقي بفكاهة غامضة لاتنتظر ردا فعليا " كنت اظن جلبابك هذا أعز من ان ترتديه في البيت ! ماذا جرى اليوم لتقطفي به ثمار النارنج ؟! "

لم تلتفت رباب لاختها بينما تحدق في بضع قطرات دم تنساب اسفل سبابها ...

الدموع تجمعت حتى كادت تنزف من عينيها كنزف هذا الدم البراق في حمرته ...

متى ستعتاد الوجع وتئد الألم وتقف على قدميها شامخة بنصرها على ذاتها ..؟؟

ان تتجاوز وجع قلبها هو اهم اهدافها الآن لتكمل مسار حياتها كما خططت .. لايكفي ان يتزوج عبد الرحمن بأخرى .. انها مجرد معركة كسبتها في حرب لم تنتهي .. ومعركتها الاخيرة تخوض غمارها الآن تقاتل غيرتها .. تقاتل قلبها الذي ينزف قطرة قطرة دون ان يشعر بها احد ..

لقد ارتدت هذا الجلباب خصيصا ليكون سندا لها بما يحمله من ذكريات ..

واليوم احد الايام العصيبة التي انتظرتها وتجهزت بكل ما تستطيع لتحتمل ...

بطارف حجابها الاخضر مسحت دمعات تعلقت برموشها ثم انحنت لتحمل بهمة صندوق الورق المقوى حيث تجمع ثمار النارنج وتتوجه ناحية باب المرآب تنوي اكمال قطف باقي الثمار التي استعصى عليها الوصول اليها فآثرت قطفها من الجانب الخارجي لسور البيت..

منذ ان رآها عبر شباك شرفته ترفع ذراعها وتقطف الثمار البرتقالية اللون من داخل حديقة بيتهم وقد تسمّر مكانه منهارا بعد طول صيام عن النظر ...

انهار غير راغب على الاطلاق بأفلات النظر اليها ..

ايام الاسبوع مرت سريعة مزدحمة بشكل عجائبي من يوم الجمعة ليصل الخميس !

لم ير رباب الا كلمحات خاطفة وهي تغادر صباحا وتعود ظهرا ...

لم تكلمه .. لم تنطق بحرف .. لم تلقي تحية ولو باشارة من رأسها او كفها .. وهو لم يفعل ايضا !



طوال تلك الايام كانت وكأنها احتجبت عنه لتمنحه مزيدا من الفرص لنسيانها ..

لكنها لاتعلم انها جننته اكثر بهذا التخفي عنه واصبح متلهفا اكثر بل متشبثا في عقله الباطن برؤيتها في احلامه ..

لقد مر اسبوع صعب ... من اصعب ما مر عليه ..

هو ايضا كان يتعامى كأحمق عن رؤيتها ..

لم يتعود ان يمنع نفسه عن ملاحقة وجودها حوله .. كان دوما يبيح لنفسه النظر اليها كما يشاء ومتى ما يشاء ..

ايام هذا الاسبوع امتدت طويلا كالدهور وهو يمتنع .. يعاني الامرين وهو يفعل ...

يكاد لايأكل ويعيش على تدخين السجائر بافراط ...

محسن يناغشه بالقول انه فقد بعضا من وزنه لانه يسهر الليالي شوقا لعروسه ..

لكنه في الواقع ... لم يكن يعاني فقط من غض بصره عن رباب فقط بل يعاني من شعور جديد قاتل لم يحسب له حسابا ....

انه ... خائف ...

قلبه ...خائف ...

اجل .. ان قلبه .... مرتعب ...

الآن وقد ارتبط برانية فقد منح رباب تلقائيا حرية ان تكون لـ...غيره ...

يكاد يصاب بالعته لهذه الفكرة المجنونة التي دسها الشيطان في رأسه ويغذيها كل ليلة..

يغار عليها بجنون مطبق ... مرضي !

هل ستفاجئوه يوما برغبة في ارتباط بـ..آخر ؟

التفت برأسه لينظر ناحية البدلة الزرقاء المرمية على سريره ...

بدلة اختارتها له خلود وكوتها بنفسها واحضرتها له قبل قليل وشددت عليه ان يعلقها بترتيب داخل الخزانة .. لكنه لم يفعل !

ومن يد خلود رماها هنا على سريره وكآبة باردة تزحف فوق صدره تخنق انفاسه ...

الليلة حفل خطبته على رانية بشكل رسمي حيث سيحضرها الاهل المقربون ومنتصف شهر اذار تم الاتفاق مبدئيا على عقد القران باحتفال مبسط في النادي الترفيهي ثم التحضير لعرس ضخم بداية العطلة الصيفية..

كل هذه الاتفاقات تجري على مرمى سمعه وبصره بينما هو صامت يكتفي بهز رأسه والابتسام كأبله .. والغريب ان رانية ترد ابتسامته بابتسامة فرح مشع ! وكأنها تعيش فرحتها معه وبدونه في نفس الوقت ..

كل ما يدور في فكره الان ان الليلة يفترض ان يطوي صفحة رباب الى الابد..

و... الليلة ... سيفتح الباب على مصراعيه امام رباب لتختار من تشاء زوجا لها ... رجل آخر تكون له ويكون لها .. و .....و...

زفر بعنف وانفاسه تتلاشى منه فيلتقطها بصعوبة بينما يسند جبينه على الزجاج ليعاود تعذيب نفسه بالنظر اليها عبر الشباك...

تشوشت افكاره ونسي البدلة الزرقاء ونسي حفل الليلة ليتركز كل ذهنه معها وحدها منعزلا بها عن اي شيء اخر ..

كانت تشوح بيدها وكأنها تتوجع ثم تحدق في راحة تلك اليد لتطرق برأسها للحظات طويلة.. طويلة جدا ...

قلبه ينبض بعنف وعيناه لاتلمحان الا اياها غافلا تماما عن خيال رقية التي تركت الارجوحة لتتجه ناحية باب البيت الداخلي وقبل ان تدخله ألقت نظرة غامضة ناحية شباكه قبل ان تهز رأسها باستخفاف !

كل هذا لايراه .. فقط هو مغمور في رؤية رباب تحدق في راحتها وكأنها تبحث عن رد لسؤال غامض بينما عبد الرحمن يحدق فيها بكل تفاصيلها ... برأسها المطرق والحجاب الاخضر يزهو حول وجهها .. بجلبابها الملون ذو النقوش من لوحات (بغدادية) وقد توسط الجلباب من الامام صورة امرأة بالعباءة التقليدية السوداء ... انه يعرف هذا الجلباب ويحفظ تفاصيل خطوطه وتدرجات ألوانه ..

لقد صممته هي بنفسها العام الماضي لترتديه في صبيحة عيد الفطر ...

عندما رآها ترتديه في ذلك الصباح للمرة الاولى كانت تخرج من باب بيتها حاملة صحنا كبيرا من حلوى العيد (فطائر التمر) و تذهب به لبيت الخالة بدرية كانت كلها بكليتها لوحته الاثيرة .. شعور جارف انتابه انها خاصته وحده .. رُسمت بريشة القدر لتكون له .. لطالما استوطنت رباب روحه وتربعت داخل قلبه واحتلت يقظته قبل منامه لتكون حبله الموصول لكل جمال يشده للوطن ...

انه جمال من نوع آخر .. وبمقياس اخر لاتضاهيها باقي المقاييس والمعايير ..

تذكر وجهها المرتبك وهو يلحقها في الشارع ويفاجئها مناديا من الخلف .. توردها وعبوس محياها الحلو وهو يسرق من صحنها فطيرة حارة كحرارة مشاعره الذائبة في تلك اللحظات ...

لقد اعتاد ان يتحين الفرص بانتظارها دوما .. يراقب تحركاته وعاداتها اليومية ..

كان يلاحقها كعاشق مدله ويحاصرها كمتملك غيور ويتغلغل لقلبها كمخطط يعلم جيدا خارطة الفتاة التي يريد او .. هكذا ظن نفسه !..

وهي لم تكن تقول لا .. كما لم تقل يوما.. نعم ..

حياها وهو يتلاعب بالفطيرة الحارة في يده

" عيد فطر مبارك يا قرفة .."

فترد عليه وهي تعض طارف شفتها

" و عيدك مبارك عبد الرحمن .. "

عيناه تشاكسان عينيها اللامعتين بالعسل ثم تسرحان على جلبابها بغزل شبه صريح ولسانه ينطق بما هو اكثر صراحة " لماذا اشعر ان هذا الجلباب من صنع خيالك..؟ "

ما زالت عابسة تدعي الجدية وهي ترد عليه

" لقد أصبت .. انا من صممته .. عن اذنك يجب ان احمل الصحن لخالتي بدرية .."

تحركت فتحرك معها ليسد طريقها بضخامته يقضم من الفطيرة و يقول بجذل

" انا احب فطائر التمر كحبك لورق العنب .. هل تجيدين اعدادها يا رباب ؟"

فما كان ردها الا ان تخضبت وجنتاها ووبخته لانه يعترض طريقها وسط الشارع كأنه طفل صغير لجوج ثم تركته ومضت حانقة بينما ضحكاته تعلو كعلو هدير القلب الذي يغرق بأمواج العشق ...

عاد عبد الرحمن لحاضره المر ليتمتم بحرقة وقبضته تتكور ضاربا بها على الزجاج

" آآه يا رباب .. آآآآه..."

نبضة من قلبه سقطت منه وهو يراها ترفع طارف الحجاب لتمسح عينيها !

انفاسه تهدر وقبضته المتكورة اخذت ترطم اكثر على الزجاج ويكاد غضبه يتفجر ...

كان يفترض ان تكون معه الآن ..

كان يفترض ان يمسح هو عينيها .. يملكهما ويذوب فيهما ويغرق شفتيه باهدابهما ..

رآها تتحرك وهي تحمل الصندوق الصغير .. قلبه يتبع خطواتها بلهفة عذاب خائنة .. ليراها تخرج عبر باب المرآب بدلا من ان تتوجه للباب الداخلي للبيت ..

لم يشعر الا وهو يغادر جناحه مهرولا ينزل درجات السلم لاهثا عابرا كل سلمتين او ثلاث معا ...

كل عروقه تنبض بالدم الثائر ...

لايعلم اي جنون هذا الذي يشعره ان رباب ملكيته .. عرضه الذي يجب ان يحجبه ويحفظه.. انها .. انها فتاته ... وهي ليست كذلك في واقع الحال .. لا قلبا ولا قالبا .. لكن هذا ما يشعره على الدوام نحوها .. حتى بعد كل ما حصل لايزال يشعرها هكذا ...

يا الهي .. ماذا عن رانية ؟!

رانية رانية رانية ... اللعنة ..



يفترض بعد بضعة ساعات أنه سيذهب مع كل أفراد عائلته ليلبسها خاتم خطبة مرصع وطقم من الذهب الابيض كما طلبت امها ..

رانية ستكون خطيبته رسميا الليلة.. وسيعقد قرانه عليها خلال بضعة اسابيع ..

ما الذي يفعله بحياته ؟!

ما هذه الدوامة التي تتسع حلقاتها التي تجره لمزيد من متاهات الغرق ...

تذكر وجه رانية كيف بدى مشرقا متلهفا خلال الايام الماضية ..

جميلة جدا .. مشعة بجمال محبب ملفت ..

تغرق بالاحمرار كلما رأته فتلقي السلام ثم تتهرب خطواتها منه في خجل يرضيه ..

وكلما رآها بعيدا عن محيط يجمعه برباب شعر انه أقدم على الخطوة الصحيحة لبدأ حياته بشكل صحيح ..

كان يجب ان يخطو خطوة كهذه ..

لا احد يفهمه الا رضا ... رغم التزام اخيه الاكبر بالصمت الا انه يفهمه ويدرك احتياجه ليخرج من حلقة التفكير العقيم برباب ...

محسن يشجعه وحذيفة عابس في وجهه غير راض ... لكن الاثنان لايعرفان ما يعرفه رضا..

كان عبد الرحمن يفتح باب مرآب بيتهم وقد تباطأت خطواته ثم اخذت تخفت وتخفت كلما اقترب من رباب ثم عادت لتتلاشى كل

افكاره عن رانية وهو يحدق فيها توليه ظهرها و تتطاول بذراعها لتشد احدى الاغصان العالية وتبدأ بقطاف ثمارها ..

عيناه حارتان حاميتان بالملكية لها وهما تمران فوق جسدها المختبئ باغراء مضاعف تحت جلبابها الملون الفضفاض ..

كيف تخرج هكذا للشارع ؟!!

صوت ساخر من اعماقه يذكره انها ليست المرة الاولى التي تخرج بنفس الجلباب ...

لكن الذي اختلف انه في السابق ظن قلبها سيكون معه اما اليوم فقلبها حق مشروع لأي رجل بمحاولة امتلاكه ...

نار تخرج من اذنيه فيعقد حاجبيه هادرا بالصوت الصارم " رباب ..."

أجفلت فأفلت الغصن من يدها ليرتد بقوة لموضعه مرتطما بوجهها وجارحا جفنها ..

هرول عبد الرحمن ناحيتها وصوت تأوهها يسرق من نبضات قلبه ..

وقف امامها بقامته وهي تمسد جفنها وتهدر به بصوت مكتوم

" الا تستطيع ان تكف عن عادتك هذه بمناداتي من الخلف بهذه الطريقة المفاجئة؟!"

لم يهتم كعادته بغضبها وحنقها من افعاله ليمد يده فيمسك معصمها مبعدا اصابعها عن عينها المصابة هامسا بصوت خشن

" اصابعك ليست نظيفة .. دعيني أرى جرحك .. لقد آذيت عينك .."

عاجزة عن فتح جفنيها المطبقين بتوتر والدمع يسيل بغزارة من عينها اليسرى المصابة بينما تناضل لتحرر معصمها من قبضته وهي توبخه بارتعاش

" اترك يدي .. اتركها عبد الرحمن .. "

كانت تعاني وهي غير قادرة على فتح عينيها حتى اللحظة بينما تشعر بانفاسه تلفح وجهها ليهمس بضحكة ساخرة لاهثة

" تقاتلينني بشراسة يا قرفة .. حقا انت لاسعة بطريقتك .."

هتفت به وصوتها يكاد يضيع في اخره

" ابتعد قلت لك .. اوووه ..."

اجهشت في بكاء مرير جعل عبد الرحمن يتصارع مع ردود افعاله المتذبذبة لينهار في همس حارق حائر

" لماذا تبكين هكذا ؟! هل تتوجعين لهذه الدرجة ؟! سآخذك للمستشفى حالا .. "

فاذا بها تهدر بشبه هستيرية

" دعني .. دعني ..."

توحشت نظراته بالقسوة والاصرار وضغطت

انامله بشدة على معصمها الذي ما زال يعتقله

فاقترب براسه قليلا منها ليقول من بين اسنانه

بصوت خشن هامس متوعد

" لن أفعل ابدا يا رباب .. ابدا ! "

كانت ما تزال عاجزة عن فتح عينيها والدموع

تنسكب في صمت بينما ترتعش كلها امامه

تتلقى شظايا نارية من غضبه المكتوم ..

" عبد الرحمن ...! ماذا تفعل عندك ؟!"

على صوت الخالة بدرية تهشمت الجدران

الواهية التي عزلته برباب عن العالم لتطرق

رباب بينما تحرر يدها من انامله التي تراخت

لكن دون ان تتراخى القساوة في صوته وهو

يرد بهدوء عجيب على الخالة بدرية

" رباب آذت نفسها بغصن شجرة النارنج وتكاد

لاتستطيع فتح عينيها .."

اقتربت بدرية شبه عابسة لتقف جوار رباب

تتطلع لعينها المصابة وهي تقول لعبد الرحمن

بغموض " اتركها لي ... سأعتني بها بنفسي

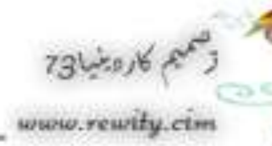
واقودها للداخل .."

رآها تحاوط رباب بذراعها وتسير بها فتمتم

عبد الرحمن بتصلب

" قد تحتاج للذهاب للمستشفى .."

ردت بدرية وهي تصل لباب مرآب بيت العطار



" كمادات دافئة من الشاي ستكفي وان لم تتحسن سنتصل برضا او يحيى .."

ثم نظرت اليه فرأته حيث هو يقف هناك مشرقا باشعاعات من القسوة التي تنبع من عاطفة جامحة فضيقت بدرية عينيها وهي تستعيد من ذاكرتها بعضا اللمحات ...

قالت بدرية بهدوء وحزم امومي " احضر الصندوق فقط وادخله للمرآب .. الفتاة تعبت بجمع الثمار على الاقل دعنا لانضيع تعبها هباء.."

دخلت بدرية عبر الباب برفقة رباب تناظر هدوء الفتاة وصمتها بحيرة ما بعدها حيرة

بينما تشعر بعبد الرحمن يلحق بها حاملا الصندوق ..

وضع الصندوق على الارض حيث باب المطبخ الذي تفتحه بدرية فتقول له بابتسامة خاصة

" اذهب واستعد يا عريس .. اليوم خطبتك على الفتاة التي اخترتها اخيرا .. اليس كذلك..؟.."

عينا عبد الرحمن لم تطرفا حتى وهو يرد بسلاسة " نعم .. هو كذلك خالتي .."

ثم استدار ليغادر بخطوات واثقة قد تخدع ايا كان لكن ابدا لن تخدع بدرية !

تمتمت بدرية متفكرة في سرها وهي تساعد رباب على الدخول

" يا لهف قلبي على من اختارها قلبك حقا يا اصغر اولاد الصائغ ! اقسم ان خالتك بدرية ستحلق شعرها الاشيب وتكشف رأسها امام الناس ان لم تكن تتعذب في عشق بنت العطار.."

ثم عبست بدرية وهو تتمتم بصوت خافت

" اي غباء هذا .. اي غباء ...! "

وكأن الفتاة لم تسمع تمتمتها لتقول لها بهدوء يوازي هدوء الفتى ابن الصائغ قائلة

" اشكرك خالتي .. هلا ساعدتني بتنظيف عيني ؟ لا اريد ان اقلق امي اذا رأتني لااستطيع فتحها هكذا الان .."

هزت بدرية رأسها واجلستها على اريكة صغيرة في المطبخ بينما تحركت لتحضر ما تنظف به عيني رباب ...

جلس سعدون على كرسيه .. حواسه (الاستطلاعية التجسسية المرتابة دوما) في حالة تأهب واستنفار..

اخذ يكتب بيد ترتعش اثارة

(الامر اصبح مثيرا اكثر ... ! الفتى عبد الرحمن اوشك على تقبيل رباب وسط الشارع بينما الفتاة تنهار بالبكاء ! ولولا ظهور تلك المرأة القوية الشكيمة بدرية لكان قبلها دون رادع .. انه يلهو جيدا ولايضيع وقته ..

ترى .. هل سيستطيع استرضاءها وامتصاص
غضبها ونقمتها لانه سيتزوج بغيرها ؟ و ما رأي
خطيبته الموعودة بلهو غير بريء كهذا ؟!!)

رن هاتف سعدون لكنه لم يبال به .. عيناه
تقرآن ما كتب للتو باثارة الرضا هذه المرة
وكأنه يعرف ما لايعرفه سواه من الخفايا..!

بيت الصائغ ... غرفة الجلوس ..

بوجه عابس اخذت رفيدة تقول بحنق لامها

" لااعرف لماذا لم تنتظروا عودتي من السفر
وتؤجلوا طلب يد الفتاة .. انه عبد الرحمن
الذي ربيته كيف يتزوج وانا غير موجودة .."

ترد سعاد على ابنتها وقد فقدت صبرها

" رفيدة كفي عن تذمرك هذا .. أكلت رأسي
أكلا منذ عودتك .. اخبرتك مرارا اخوك
عبد الرحمن من أصر ومن اتفق مع والد رانية
على زيارتهم الجمعة الماضية لطلب يد ابنته..
لقد حضر زوجك جلسة الرجال يوم الاثنين
والليلة الخطبة الرسمية ستحضرينها انت
بنفسك وتلبسين العروس شبكتها بيديك
فماذا تريدين اكثر ..؟! "

تأففت رفيدة وهي تلتقط فنجان قهوتها ترتشف
منها وتقول بمزيد من التذمر المتهكم
"زوجات الاخوة يحضرن خطبة عبد الرحمن
وينتقون عروسه وانا على بعد اميال في مدينة
اخرى مع ابن سالم ! هل هن اخواته ام انا ؟! "

تنهدت سعاد يأسا من ابنتها لتحاول تغيير الموضوع وهي تسألها ببشاشة

" كيف هو ابن زوجك ؟هل انجب طفلا اخر؟"

ردت رفيدة بمزيد من التهكم تخفي غيرتها بشق الانفس " نعم .. زوجته كالارنبة ! لديهما الان ثلاث اولاد وابنة واحدة .."

رددت سعاد وهي غافلة عن غيرة ابنتها

" ما شاء الله لاقوة الا بالله .."

شعرت رفيدة بضيق الصدر فأخذت تتلفت وهي تتساءل " اين شروق ؟ ألم تعد بعد ؟"

تساءلت سعاد ببعض العجب " اين ذهبت ؟!"

ردت رفيدة وهي تضع فنجانها على الطاولة الخشبية امامها " انها في بيت خالها محسن .. ارادت ان تتكلم مع رحاب حول بعض المواد الدراسية .."

ثم ترددت قليلا وهي تضيف بغيرة من نوع اخر يشوبها شعور ببعض الحرج والاحساس بالنقص " لقد احتاجت مساعدة ..ولم .. استطع تقديمها لها .."

ما إن أتمت جملتها حتى جاء صوت شروق وهي تقول بصوتها الموسيقي بنبراته " اماه .. ابي سالم اتصل وقال انه في الطريق .."

انشرح صدر رفيدة وهي تتطلع لابنتها ..



سمراء بشعر اسود مجدول .. من يراها الآن بطولها الممشوق لايتصورها هي نفس الفتاة القصيرة التي كانتها بعمر السادسة ..

عيناها مكحلتان كحلا ربانيا يجعلها مميزة بنظرة ساحرة ذات شجن ..

انها فخرها وقد غدت اليوم قرابة الخامسة عشرة .. هادئة مطيعة قليلة المطالب حد الزهد ..

تمتمت رفيدة " تعالي حبيبة امك .."

جلست شروق جوارها فتنحني رفيدة لتقبل وجنتها وتسألها باهتمام

" هل ساعدتك الخالة رحاب ؟"

هزت شروق رأسها وهي تقول " نعم .. لقد شرحت لي درس الفيزياء بسلاسة "

فتربت رفيدة على حجر الفتاة وهي تطمئنها بالقول " لاتقلقي .. ستأخذين علامة ممتازة .."

عندها رفعت شروق عينيها لمن ربتها وآوتها لتطلب منها بعاطفة صادقة تكنها لها

" ادعي لي فقط اماه .. "

احتضنتها رفيدة لصدرها وهي ترد عليها بتأثر " ادعو لك دوما يا ابنتي .. "

فجأة اطلت سوسو بصوتها العالي تتراكض وهي تدخل غرفة الجلوس بصخبها الطفولي

" شروق .. شروق .. تعالي لتلعبي معي .."



تضحك شروق بينما تسحبها سوسو عنوة من بين احضان رفيدة التي اخذت تقول بتذمر

" دعيها يا فتاة .. شروق كبرت كثيرا على ألعابك الطفولية هذه .."

لكن شروق تنهض مستسلمة وهي تقول

" لابأس أماه .. سألهو معها قليلا .."

غابت الفتاتان بينما تقول رفيدة بعبوس

" ابنة حذيفة هذه لن تكبر ابدا .. ما زالت تتصرف كطفلة وقد غدت صبية .."

وقبل ان ترد سعاد جاء صوت بدرية هذه المرة التي دخلت للتو وهي تقول ردا على كلام رفيدة

" لاتبالغي رفيدة .. انها لم تبلغ الثانية عشرة حتى .. دعيها تعيش حلاوة الطفولة كما تشتهي .. ماذا ستكسب من النظر للعالم بجدية ؟! "

تبسمت رفيدة تلقائيا وهي تقف على قدميها لتحيي الخالة بدرية وهي تعانقها وتقبلها على الوجنتين قائلة بمحبة خالصة " مرحبا خالتي بدرية .. اشتقت اليك كثيرا.."

فترد بدرية بنفس المحبة " وانا ايضا اشتقت يا من نستنا وغائبة عنا على الدوام ولاتتذكرنا الا في المناسبات الرسمية ..."

تضحك رفيدة بعفوية وهي تحكي عن رحلتها مع زوجها وابنتها لمدينة (....) ..

مساء .. قاعة حفل عرس مروة..

يتحرك بقلب ينبض سريعا فتلهث انفاسه من سرعة تلك النبضات .. يغادر عبر باب قاعة الحفل ليخرج للممر الاكثر هدوءا بينما بضعة مدعوين يتحركون بالاتجاه المعاكس ليدخلوا القاعة ...

يكاد يخفي وجهه حتى لايراه احد المعارف ويوقفه ليسلم عليه بينما يهمس بصوت رجولي يفيض انجذابا لمن تفتح الخط معه على الجانب الاخر

" ما الذي أخرك عن الاتصال .. لم أعد أطيق النظر لعقارب ساعة يدي ..."

بينما مهند لاه فيما يخطف قلبه مر به رجل غريب والتقط همساته ليبتسم الرجل بخفة وهو يتخيله حوار ساخن بين حبيبين ..

تركه الرجل لحاله ليمضي مع اتجاه دخول المدعوين بخطواته الجذلى الناعسة .. رجل مربوع ببدلة بنية اكثر بساطة واريحية من اناقة ما يرتديه الرجال في الاعراس .. حتى انه لم يضع ربطة عنقه بل ترك الزرين الاولين لقميصه مفتوحين فهكذا يحب راحته..

لم يكن يهتم انه لايعرف احدا هنا سوى امرأة واحدة ينكر على نفسه انه منشد اليها ..

كما ينكر انه لولا انشداده هذا لما فكر اطلاقا بقبول دعوتها لحضور عرس اخت زوجها..

وقف عند باب القاعة يطالع الحضور وعيناه الناعستان كخطواته تبحثان عنها ...

حتى رآها ...

ارتعش كله لمرآها الذي يخلب اللب ..

همسة حارة شقت عنوة شفتيه المطبقتين

" جوري ..."

ثم تقدم ورجولته تنتفض رغم ارادته في اعجاب صرف متجدد بهذه المرأة الغامضة الخلابة ..

تألقت بثوبها الاسود وشعرها الفاتن تموج على ظهرها وكأنه كرنفال انوثة ...

التقطت وجوده وهو يوشك ان يصل اليها فابتسمت له وتقدمت نحوه فاظلمت عيناه وشعر بالهواء الساخن يخرج من جلده ...

" مرحبا يا ام حبيبة .."

ردت بابتسامة مجاملة فيها لطف حلو

" مساؤك سعيد يا ابا فاضل .. ممتنة لتلبية الدعوة .."

بصوت أجش ونظرة لاتعبر عما يعتمل في عمق رجولته قال " انا الممتن ... لدعوتك .."

اراح مهند كفه على الحائط المعرق باللون الصحرواي وقد تداخلت معه الواح خشبية مزخرفة بطابع اسلامي كالارابيسك ليعكس طابعا عربيا قديما يميز هذا الفندق في العاصمة ..

همس والابتسامة الرقيقة لاتفارق شفتيه

" ماذا كنت تفعلين ؟"

بصوتها الخافت ردت ببعض الشرود " كنت افكر بالاتصال بعمتي.. لكني مترددة ... حتى الان .."

ناغشها بشقاوة هامسا بصوت أجش

" وانا الذي ظننت انك قضيت الوقت تفكرين بالاتصال بي أنا .."

ارتبكت وهي ترد عليه " اليوم ... عرس اختك .. مؤكد انك مشغول .."

ارتباكها ينعشه بشكل لايوصف .. كأنه يسترد شيئا ما .. شيئا ضاع منه في الماضي ثم عاد ليتجسد في الحاضر فانساق اكثر لتلك المناغشة البريئة التي تروي عطشا محيرا فيه

" ووسط هذا الحشد لم أكف عن انتظار مكالمتك .."

هذه المرة لم ترد .. فشعر بالغيظ لانها ليست امامه ليرى وجهها .. ملامحها التي يحفظها .. زرقة عينيها التي تتغير كالامواج .. اجل انه يحفظها .. وكيف لايفعل وقد سكنته لسنوات .. عشعشت في روحه حتى امتلكتها..

ناداها وغيظه هذا يتحول لاختناق مفاجئ

" شذره .. لم تصمتين ؟ الا يكفي اني لااراك واكتفي مرغما بسماع صوتك ؟! لاتتوقفي عن الكلام .. قولي المزيد .. كلميني عنك اكثر .. اخبريني عن عائلة اقاربك التي تسكنين معهم .. ما اسماؤهم ؟ ماذا يعملون ؟"

قالت بحذر ونبرة تشي بضيقها هي الاخرى

" مهند لقد اتفقنا .. ارجوك .."

عقد حاجبيه بشدة وتملكه شعور غريب مزعج وهو يذكرها بالقول " لم كل هذا التكتم ؟! لم تخبريني الا باسمك الاول مجردا و كنت حذرة جدا فلا تتطرقين لاي اسم اخر وكأني ساستغل الامر وافضحك بطريقة ما او أفضح احد افراد عائلتك .."

ردت ووتيرة ضيقها ترتفع " ليس هكذا ..."

تصاعد ذلك الشعور المزعج بداخله وقد بدأت تتضح ملامحه ... انه شعور العجز !

العجز عن الإتيان بأي فعل قد يكون ثمنه ان يخسر حبيبة من جديد ..

اللعنة ... ليست حبيبة بل .. شذره ..

شذره .. شذره ...

بثبات هذه المرة وعزم لايلين قال ردا على كلامها المتوتر وهو يشدد على ذكر اسمها

" اذن كيف ... شذره ؟! كيف تثقين بي لتكلميني عن ادق مشاعرك ولا تثقين بي لتخبريني عن اهلك .. عن عنوان بيتك .. ألم تفكري للحظة اني استطيع الوصول اليك بسهولة ؟! استطيع ان اعرف بيت عمك الذي تسكنينه بالعاصمة بل حتى استطيع بقليل من الجهد ان اصل لعمتك في بلدتها ... لكني لاافعل ببساطة واترك لك الحرية لتثقي كفاية وعلى مهل وتخبريني بكل شيء بنفسك.."

جاءت تنهيدتها لتجعله بطريقة ما يسترخي قبل ان تقول بتردد " انت لاتفهم .. اذا اخبرتك بكل هذه المعلومات ساشعر اني .. "

تلكأت كلماتها فأكمل عنها بتساؤل

" انك اقرب لي ؟!"

عندها جاء صوتها هادئا بشكل غريب وهي ترد عليه " انا اكلمك وكأننا غريبان التقيا ببعض صدفة في الطريق فيشكو كل منهما همه للاخر .. لاتعريف هويات ولا ماض ولا مستقبل .. فقط لحظة نلتقط فيها انفاسنا دون احساس بأي ذنب ..."

ارتفع حاجبا مهند وجف ريقه فجأة وهو يردد الكلمة " ذنب ؟!"

فكانت هي على ثباتها وترد بصراحة تامة بما يعتمل في نفسها " نعم مهند .. ذنب ... حتى اللحظة انا اعتبر الامر مجرد خيال .. وان كشفت هويتي وهوية اهلي امامك سأشعر اني

اعيش واقعا حقيقيا ارفضه بطبيعتي وتربيتي.. ساشعر اني ارتكب اثما بمكالمتك كل ليلة.. وان ما يحدث بيننا خطأ ولايجوز ..وعندها .. ساتراجع تحكمني اخلاقي ومبادئي .. "

نواقيس الخطر تقرع في رأسه بجنون ...

كلمة (تراجع) اعتصرت قلبه عصرا ...

استعاد كلمات شيخ الجامع (توكل على الله بنيّ.. الدين يحلل لك الزواج بأكثر من امرأة ما دمت قادرا على كفالة بيتين ولو بالحدود الدنيا .. حصّن نفسك بالحلال ما دمت ترغب الفتاة)

اخذ ينفض رأسه ويحاور ذاته

(لاتتعجل مهند .. غدا ستلتقي شيخ الجامع الاخر ليطمئن قلبك اكثر .. لاتريد ان تظلم احدا اليس كذلك ؟)

قال بهدوء وسيطرة على النفس

" حسن .. لاتراجع الان .. دعينا فقط الان انا وانت .. مهند وشذره .. يلتقيان على قارعة الطريق .. يتحدثان كغريبين وجدا الالفة الفورية .."

يشاغل ويراوغ ذهنها وهو يفتح ابوابا اخرى للكلام

" اخبريني لماذا لم تتصلي بعمتك ؟"

عادت لتنهيدتها تلك وهي ترد عليه

" سيؤلمني الامر .."

صمت يريدها ان تبوح على مهل فلم تخذله وهي تواصل كلامها الموجوع

" انا لم أعد اجيد الادعاء امام نفسي .. الامر مؤلم جدا كلما استشعرت تلك النبرة في صوتها .. في كل مرة تخشى ان اخبرها اني .. اريد العودة لمدينتي لاسكن معها .."

سألها باهتمام " ماذا عن خالك ؟ ألم تقولي ان لديك خال ايضا في بلدتك ..؟ "

فردت " نعم .. لكن خالي لا اتصل به الا في الاعياد .. لايهمه الا زوجته وبناته .. على الاقل عمتي تسأل عني وتطمئن من الخالة ابتهال بين فترة واخرى .."

ابتسم مهند قائلا بعاطفة حانية نحوها

" زوجة عمك امرأة طيبة .. "

بدا صوت شذره متأثرا وهي تقول" وعمي رحمه اللّه كان رجلا طيبا ايضا .. كان دوما يزورونا.. و.. ابناؤهما .. طيبون ايضا.."

فسألها بفضول

" شذره .. لماذا اذن تشعرين هكذا معهم ..؟ "

العبرة خانتها وهي ترد عليه بأسى " انا لست في بيتي .. انا سأظل دوما دخيلة .. عطفوا عليها وأووها في بيتهم .. "

شعر بالضيق من شعورها هذا وكادت الامور تفلت منه ليخبرها ان تتزوجه الليلة فيأخذها لبيت يكون لها.. ملكها ...

لكنه تماسك وبدلا من ذلك قال بمنطق عملي يشجعها " انت فتاة عاملة وتعيشين من كدك وتعبك.. لاتحتاجين لشيء من احد.."

وكأن الغصة تبتلع كلماته وهي تقول بصوت خافت متعثر " الامر ليس في المال .. انا .. انا لااشعر اني في بيتي .. كل شيء افعله بحساب .. كل أمر اشعر اني بحاجة لاستئذن .. هم لايمانعون لكن انا من اشعر بوجوب فعل هذا.. والاكثر .. ايلاما لي .. اني .. اني .. اني .."

شهقة بكاء افلتت منها فتقطع الكلام ويده تتقبض بمزيد من العجز فيهمس

" انك ماذا...شذرتي ؟"

اشرق صوتها بما يشبه البكاء هامسة بنشيج مكتوم تبوح بما لم تبح به لاحد من قبل

" اريد حضن عائلتي انا ليحتويني .. اريد ان اشعر باحساس رقية عندما تتدلل على امها وتنام على صدرها .. انا .. اغار من هذا مهند .. وقلبي يتوجع في صدري ... اقسم بالله رغما عني اشعر بهذا .. لست جاحدة لانكر فضلهم وحسن معاملتهم لي ..."

لم يتنبه كلاهما لاسم (رقية) الذي أفلت من لسان شذره .. هي كانت غارقة باحساسها الموجع وهو كان غارقا في ذلك الاحساس الرهيب الذي تصفه ...

دون شعوره همس بحشرجة " انا افهمك اكثر مما تظنين .."

ولم يستغرب ان يسمع صوت بكائها يتسلل لاذنه .. اغمض عينيه يصبر نفسه حتى همس

" صدقيني ليس اليتم وحده من يشعرك انك خارج المكان ولا تنتمين اليه .. احيانا نتوه عند مفترق طرق وكل طريق مضبب امامك لاتعرفين ايها تختارين ليكون فيه خلاصك.. لذلك انا افهمك رغم اختلاف احوالنا عن بعض .."

هدأ بكاؤها الناعم ويظنها خجلت من نفسها لهذا الانهيار العاطفي فأرادت ان تداري خجلها بالقول الرقيق

" الا تلاحظ انك فقط من يفهم .. ؟! منذ ايام وانا اتكلم وانت تستمع وتفهم .. لكنك لاتخبرني عن نفسك شيئا ابدا ! "

عاد لواقعه .. وتفاجأ بالاصوات من حوله فجأة! كم مضى من الوقت وهو يقف هنا تاركا عرس اخته ؟!

شعّ العزم على ملامحه فقال بنبرة قاطعة

" غدا الجمعة سأتصل بك مساء واخبرك .."

سارعت شذره لتقول بخوف وارتعاب " لا ارجوك .. انا فقط من اتصل .. اياك مهند .. اياك ان تفعلها وتتصل بي .."

ابتسم بحلاوة مستمتعا بحالتها تلك ليقول

" طلباتك اوامر انسة شذرة .."

بعد دقائق عاد للقاعة مشغول البال يفكر بما عليه فعله في الغد ..

بعد ان يتكلم مع شيخ الجامع سيخبر اباه أولا بما ينتويه .. ثم ...

توقف فجأة سيل افكاره بل فرغ رأسه من كل شيء بينما يحدق بالمشهد امامه ..

جوري تقف بجانب رجل اربعيني يبتسم لها وهي تتكلم بجاذبية كعادتها ...

لايعلم لماذا التقط حدسه امرا ما جعله بهذه الحالة ولم يشعر الا بخطواته تمتد ليصل الى حيث يقفان فيلقي التحية وعيناه تلتقيان بعيني زوجته ..." مرحبا .."

بهدوء قاتل ارتفع حاجباها بلطف .. لطف مخادع حمل بين طياته التحدي !

سمع الرجل يرد عليه بنبرة غريبة اثارت ريبته اكثر " اهلا بك .. أظنني رأيتك في الخارج قبل دخولي للقاعة .."

انتقل بنظراته لذلك الرجل الذي بدت ملامحه متسلية على نحو اغاظ مهند للغاية ثم فجأة اشرقت صدمة على تلك الملامح عندما قالت جوري وهي تعرفها به

" هذا زوجي مهند يا ابا فاضل .. "

لم يفهم مهند ما جرى ..!

لماذا انصدم الرجل لهذه الدرجة عندما عرفته جوري انه (زوجها) ؟!!

تمالك الرجل نفسه وهو يمد يده بابتسامة متصنعة قائلا

" تشرفنا ابا حبيبة .. معك عباس الجميلي ويكنونني بابي فاضل .. انا صاحب المطبعة التي نتشرف بالتعامل مع خدمات ام حبيبة .."

صافحه مهند محتفظا بكفه اكثر مما تستدعي العادة يشد عليها وعيناه تلتمعان باشارات التحذير التلقائية التي لايعرف لها اسبابا واضحة ثم قال بسلاسة

" اهلا ابا فاضل .. شرفتنا بحضورك .."

وخلال لحظات كان الدم يجري ساخنا في عروق مهند وهو يعيد نظراته لزوجته يدرس فتنتها الخاصة جدا هذه الليلة !

ولم يكن مهند يدرك ما يجول في خاطر عباس وهو ينظر اليه باحتقار خفي متمتما في سره بحسرة

(اي مجنون جاحد بنعمة ربه هذا الذي يملك امرأة كهذه ويبحث عن غيرها ؟! هل امرأة مثلها تُخان ؟!)

آخر الليل ... غرفة نوم رباب ..

رن هاتفها على المنضدة جوار سريرها فتطلعت جاحظة العينين متحجرة الدموع فترى اسم عبد الرحمن وهو ينبض على شاشة الهاتف ..

ينبض ينبض وقلبها يتصاعد في نبضاته ...

حتى شعرت ان طبلتيّ اذنيها ستنفجران ..

انخرس الهاتف فجأة فشعرت وكان قلبها

توقف ! ثم هبّ بعد لحظتين لااكثر ليرن من

جديد ويضخ نبضاته لنبضات قلبها .. من

جديد ...

كالمسحورة بل.. كالمغيبة.. التي انهكها

طول الاستسلام للخدر التقطت الهاتف بكف

ترتجف ارتجافا حتى اوشكت ان توقعه وما ان

فتحت الخط حتى جاءها صوته يترنم باوتار

العذاب متسائلا باهتمام حارق أجش

" كيف هي .. عيناكِ ؟"



الفصل التاسع

كالمسحورة بل.. كالمغيبة.. التي انهكها

طول الاستسلام للخدر التقطت الهاتف بكف

ترتجف ارتجافا حتى اوشكت ان توقعه وما ان

فتحت الخط حتى جاءها صوته يترنم باوتار

العذاب متسائلا باهتمام حارق أجش

" كيف هي .. عيناكِ ؟"

هطلت دمعة .. تتبعها اخرى .. تسابقها

اخريات......تتدحرج على الخدين تحكي

حكايات القلب ...

يدها التي تمسك الهاتف اناملها تنكمش في

وجع حول الجهاز بينما ترتفع يدها الاخرى

لتغطي فمها حيث ترتعش الشفتين في بكاء

مكتوم ..

" هل تؤلمك ؟ .... توجعك ؟ "

صوته كان هو العذاب بتلك النبرة .. بتلك

الكلمات التي يختارها بلهفة ...

اغمضت رباب عينيها والدموع تنهمر تناديه

ليتوقف " عبد الرحمن..."

فيواصل ذبذبات قلقه دون ان يستمع لتوسلها

عبر حروف اسمه

" هل تورمت ؟ الجرح هل تقيح ؟ "

قالت بنبرة شبه ثابتة .. شبه هامسة ..

" انا .. بخير .... عبد الرحمن .. "

ما ان تعاود نطق اسمه حتى يعاود مقاطعتها فيقول بهذر لاهث " طوال الامسية كنت قلقا عليك.. اعرفك عنيدة ولاتخبرين احدا اذا تألمتِ او ساءت حالتك .. ماذا قالت الخالة ابتهال ؟"

عيناها تدوران في فلك زوايا غرفتها فتكاد تصرخ من شدة الوجع !

" رباب ... اين انت ؟!"

صوته كان حانقا بقلة صبر ..يائسا .. ثائرا !

صمتت .. وهو صمت ...

على الجانب الآخر في بيت الصائغ يتحرك عبد الرحمن في غرفته دون هدف ، سترته ملقاة بعشوائية على الارض .. ربطة عنقه تتزحلق من بين اصابعه لتتكوم كجريحة حرب وعلى بعد سنتيمترات من تلك السترة...

يفتح ببطء زرين علويين من قميصه الابيض المنشى وعيناه لامعتا النظرات كمن يعاني الحمى ليقطع الصمت و يواصل حماقاته وهذره

" لم استطع التركيز بشيء هذه الليلة من شدة القلق .. لم أشعر الا وانا اطلب العودة باكرا فبدوت كـ...."

صمت وهو يشعر بالغليان فجأة ليقول بلهفة

" اخبريني انك لاتتوجعين .. اخبريني بالله عليك .. كنت غبيا لاناديك فجأة واجفلك واتسبب بكل هذا الغباء .."

نادته لمرة اخيرة وتكاد تشفق عليه اكثر من اشفاقها على نفسها

" عبد الرحمن .. هلا سمعتني ... "

همس بصوت مبحوح وهو يفك اخر زر من قميصه ليكشف عن صدره الذي يضج منتفضا بانفاسه " من غبائي ايضا ... اني ما زلت اريد ان اسمعك .. "

الدموع تهطل من عينيها وتتقاطر فوق منامتها القطنية .. همست بعذوبة حزينة

" عيناي بخير .. امي قالت الجرح نظيف وعقمته لي بنفسها .. لاداعي لتؤنب نفس..الخطأ ليس خطأك .. هل تفهمني عبد الرحمن .. انه ليس خطأك على الاطلاق .. "

جف فمه وهو يسمع جملتها الاخيرة وشعر بالاحجار تتراص رصّا فوق قلبه وقبل ان يجن ليصرح بما يشتعل في فؤاده تنبيه صوتي صغير في الهاتف يشي بمكالمة اخرى تنتظر الرد منه ...

أبعد عبد الرحمن الهاتف عن اذنه فحدق في اسم (رانية) ينبض ... في لحظة تجسدت له بثوبها الذهبي الذي تألقت الليلة فيه ونظرات الهيام والسعادة تشع من عينيها ..

ثم شع في عينيه الخط الفضي الذي بات يتوهج حول بنصره الايمن .. تلقائيا همس ببرود وهو يعيد الهاتف على اذنه " معذرة منك رباب.. هذه رانية ... ترن علي .. الحمد لله اطمأننت انك بخير ... "

تتمزق إربا وهي ترد ببشاشة مفضوحة بالغصة

" سلم لي عليها ومبارك .. خطبتكما .."

ثم اغلقت الخط مباشرة وقد فاض طوفان الألم

بينما عبد الرحمن في الجهة الاخرى يحدق

كالصنم في الشاشة الصغيرة التي ما زال اسم

(رانية) فيها ينبض ينبض ينبض ...

حتى ... مات النبض ..

ليت قلبه كهذا الهاتف ..

ببساطة يلغي اتصال ويتقبل اتصال ..

يمنع اتصال ويسعى لاتصال ...

ليت قلبه يعرف من يختار ...

في بيت النعماني

تحركت على مهل .. بقصد ودون قصد ..

كانت مرهقة حقا .. جسديا ومعنويا ..

لكنها في نفس الوقت كانت تتمهل بخيلاء

انثى لامبالية وهي تدرك ان عينا رجلها

تتابعانها بشراسة ..

لحظة ضعف تتمكن منها ونزغة شيطانية

تسخر وهي تهمس في اذنها " هل تتابعانك

عيناه حقا ام ربما هذا ماتأملين ؟!!"

ابتلعت جوري ريقها علّها تبتلع تلك الغصة

القاتلة فتمد يدها لتفتح خزانة الملابس ...

عدت حتى الثلاث وهي تحث نفسها للمجازفة ..
للاقدام على فعل الخطوة التالية وهي تراهن
على الكثير هذه الليلة ...

انها في الرمق الاخير من انعاش علاقتها
بزوجها .. علاقة باتت باردة مبتورة ...

مدت كفها للخلف تتلاعب اناملها بحثا عن
قفل السحّاب في اعلى الفستان فارتعش كلها
وسمعها المرهف اليه يلتقط اقتراب سريع
لخطواته من خلفها ثم غزو لانفاسه و...
يديه..

بصمت تركت له الحرية ليفعل او ربما مبادرة
من نوع مختلف ...

انزلت يدها جانبا بينما تشعر بيديه تلامسان
كتفيها ثم تزيحان شعرها الطويل جانبا
لتمسك انامله الخبيرة بقفل السحّاب وتسحبه
للاسفل ..

انفاسه تشتد وهي ترتطم ببشرة عنقها من
الجانب فتشعر بالنار تندلع منه لتصل اليها..

اسبلت اهدابها وكل حواسها تتنازع بين ترقب
العقل لردود افعاله وترقب القلب تلهفا لتلك
الردود ...

ازاح عن كتفيها جانبي الفستان وهو يسألها
بصوت أجش غير عادي" من ابو فاضل هذا ؟"

ابتسامة خفية تراقصت على شفتيها وهي
تتماسك امام ترقب القلب لتقول بنبرة هادئة
متلاعبة بعض الشيء

" تقصد عباس ؟"

يداه بعنف اكملتا تجريدها من فستانها
ليتكوم عند قدميها ثم يديرها بنفس العنف
لتواجهه حتى تناثر شعرها حول جسدها
الابيض شبه العاري امام عينيه النهمتين ...

يحدق فيها بضراوة وهي تدرسه بضراوة ايضا ..

يا الهي .. هل ما تراه في عينيه حقيقي ؟!

هل تتوهم ام انه يشتعل غيرة ؟!

اصابعه تنحفر في لحمها ومشاعر هائجة
تكتنفه ...

لم يشعر يوما بكل هذه الغيرة ..

بكل هذا الشوق الغريب لجوري ...!

لماذا عيناه تسافران حتى شواطئ شفتيها
وكأنه بحّار طال سفره لاعوام واعوام قضاها
يشق عباب بحور الحيرة ولم يعد يطيق صبرا
ليرسو ...

ماذا يحدث له ؟!

يحدق في عينيها فلا يفهم ولايجد جوابا ..

هاتف في داخله يخبره ان الجواب عنده هو
لكنه يتخبط في الامواج وما زال يهفو لذلك
الرسو..

لم يطل التفكير ولم يطل التحليل...

الهياج في داخله اقوى واعتى من اي حاجة للتفسير ...

سحبها لصدره بعنف يهتف من بين شفتيه قريبا جدا من شفتيها

" لن تستمري بالعمل معه ..."

وقبل ان ترد كان يصل لتلك الشواطئ او .. ربما هو يعتقد انه وصل .. او ... ربما .. جوري منحته وهم الاعتقاد انه ... وصل ...

لوقت طويل لم يعشه مهند من قبل كان يبادلها مشاعر عجيبة جامحة غير مألوفة ..

شعر بانقلابات وثورات تحدث في داخله وتذيب فيه اسوارا وتقتلع ابوابا ...

لوقت طويل .. تاهت منه الذكريات وظهرت ملامح جوري من خلف ضباب كثيف .. ملامح نابضة كالاعاصير وشواطئ ثرية حارة مشتعلة ...

يا الهي ... ماذا ... يحدث .. له ؟!

اذان الفجر (الجمعة)

حي الشيخ

تحمل صرّة صغيرة من ملابسها وبعض اغراضها وتتسلل بحذر شديد وقلب مرتجف رعبا وهي تقرأ الايات الكريمة للحفظ ..

الرعب بات يسكنها ..

جزء لايتجزأ من تفاصيل حياتها ..

وكيف لاتعيش هذا الرعب وتحسين بات

يراقبها عن بعد بشكل يومي .. تجده دوما في

طريقها بابتسامة لاهية عابثة وعيون

حالكة مصرة عازمة و.. قليلة الصبر ..

لاتعلم ما الذي يمنعه ليقدم على اجبارها على

الزواج .. ربما بسبب ما يحدث في الحي من

حروب واقتتالات لاثبات من هو المسيطر بين

المتنازعين .. وحتى اللحظة كان تحسين

اكثرهم سطوة وقسوة ...

امّا هي فلم تكف عن الدعاء بكف اذاه عنها

ثم الدعاء ان تخرج من هذا الحي سالمة على

نفسها وعرضها قبل فوات الاوان وقد قررت انها

لاتملك الا القبول بعرض سيدها رضا ...

ليس امامها الا ان تهرب لحي آخر ...

لقد حاولت مغادرة الحي قبل ايام لكنها

وجدت تحسين يقف بوجهها وسط الشارع

ويأمرها بشكل صريح ان تعود لبيتها وحذرها

بلهجة أشد ان تفكر مجرد تفكير بمغادرة

الحي .. حاولت التحايل عليه فأخبرته كاذبة

انها تبغي شراء بعض الحاجيات من السوق

الكبير للعاصمة فصدمها وهو يقترب بشدة

منها حاشرا اياها بين جسده واحد جدران

الازقة القذرة هامسا قرب اذنها

" خارج هذا الحي لاتخرجين الا معي يا .. عروس .. قولي نعم وسآخذك بنفسي .."

كانت تلتصق بالجدار تقاوم احساسها بالغثيان من انفاسه المعبأة برائحة الكحول الرخيص..

دمعة فرّت من عيني حسناء وهي تتذكر حالها ظهر ذلك اليوم وهي لاحول لها ولا قوة ترزح تحت وطأة جبروت تحسين ..

وكل ما فعلته بوقتها ان رجته بتوسل مرير ان يبتعد عنها قبل ان يراهم سكان الحي ويرمونها بالباطل ..

ولعجبها ابتعد وهو ... يلهث ..

عيناه تشتعلان برغبات لايخفيها ...

عادت حسناء لحاضرها ومسحت دموعها وهي تلملم عباءتها حولها وتضم صرتها لصدرها من تحت العباءة ..

تسير على جانب الطريق وتختار ازقة فرعية صغيرة لايستخدمها المارة عادة عند الفجر ..

لقد اختارت الجمعة خصيصا للهروب .. ووقت اذان الفجر هو الانسب فمن لايزال يلتزم بالصلاة هو في قلب الجامع الان يؤدي صلاته ومن لايصلي فأنه يغط بنومه ..

صباح الجمعة اكثر هدوءا من باقي الصباحات حيث الناس لايستيقظون باكرا بشكل عام والسعي للعمل اقل ..

من زقاق صغير لاخر .. تختبئ من خيالها
حتى.. تدعو من صميم قلبها المرتعب ان
يكمل خروجها من هذا الحي على خير ..

لقد باتت موقنة ان اتباع تحسين يراقبونها
ايضا ويعرفون خطواتها ...

العرق يتصبب من جبينها رغم برودة الجو
وركبتاها تتخبطان حتى تكاد خطواتها
تتعثر من شدة الخوف ..

تضببت عيناها بالدموع وهي تصل اخيرا
لمواقف الباصات فتتهدج انفاسها وهي تنادي
على احد السواق تسأله متى ينطلق ..

دموعها انسكبت براحة وهي تحشر نفسها في
مقعد اخر الباص تنزوي قرب الشباك تخفي
وجهها بالكامل خلف عباءتها ..

لاتعلم كم بكت بصمت وهي تضم صرتها
كما تضم ارتعاش جسدها لتجفل فجأة وهي
تشعر بالباص يتحرك اخيرا ...

عندها مسحت وجهها لتطل بعينيها من فتحة
عباءتها فترى اكتظاظ الباص بالراكبين
فألقت نظرة سريعة وجلة لتتنفس الصعداء
وهي لاتتعرف على وجه مألوف ممن تراهم قرب
تحسين ويأتمرون بارادته ...

مدت يدها داخل صرتها واخرجت ورقة صغيرة
مجعدة بعض الشيء ..



لم تكن تجيد القراءة والكتابة لكنها تعلم ما هو موجود في هذه الورقة ..

انه عنوان سيدها ابي جعفر .. لقد تقصّت عن عنوان بيته فوصفه لها احد العتالين من اصحاب والدها .. لم يكن يعرفه بالتفصيل بل وصف الحي والشارع فطلبت منه حسناء ان يسجل ما يعرفه في ورقة ...

انها تعلم ان سيدها رضا لايذهب للسوق يوم الجمعة لذلك ليس امامها الا ان تذهب اليه في بيته ..

الباص الصغير يتحرك بهم ببعض البطء ويقف في محطات ومحطات .. فينزل بشر ويصعد بشر جديد وحسناء تغطي وجهها تقاوم نعاسا يهاجمها وقد اخذت تسترخي مع كل مسافة يقطعها الباص مبتعدا عن حي الشيخ ..

غلبتها سنة نوم ولامس احلامها طيف .. مظلم.. طيف يهمس في اذنها بقسوة

" أتكسرين كلام زوجك يا حسناء ؟ ألم احذرك من الخروج بمفردك من الحي ؟ "

في لحظة تهشمت جدران الاحلام الواهية وانكمش القلب في صدمة رعب لايوصف لتفتح عينيها على وسعهما فتحدق في حقيقة وجود تحسين ... جوارها ...!

الرعب شلّها بالكامل وهي تحدق في ملامحه المخيفة .. ملامح ساخرة مدركة تماما لما يجول بسريرتها ...

كفه لامست صرتها يهزها وهو يتساءل بتبجح

" وما هذا ؟ صرة ملابسك اليس كذلك ؟!"

ما زال شلل الرعب يطغى على كل حواسها ولم تدرك ان عباءتها تراخت فظهر معظم وجهها امام عينيه النهمتين ...

لاتعرف كم كان جائعا لرؤيتها .. حتى وهذا الشحوب الكثيف يكتسحها ...

رغم نهمه هذا الا ان قسوته غلبت فأمسك بذراعها من خلف قماش العباءة هادرا

" هيا .. انزلي معي .. "

تركته يسحبها خلفه ليغادرا الباص وهي مذهولة مصعوقة وعقلها متوقف تماما على التفكير ...

وجدت نفسها داخل سيارة اجرة وتحسين جوارها مرة اخرة يحدق في وجهها بتلك النظرات كالسكاكين بينما يقول بخفوت بنفس القسوة والنبرة المتوعدة

" اجل... دعي الفزع يتآكلك ويطل من عينيك هاتين ... هل تتخيلين بغبائك انك تستطيعين الهروب مني ؟ انظري كيف تركتك تسرحين وتلهين قليلا بعيدا عن الحي ثم ببساطة وجدتني جوارك .."

عيناها لاترمشان بينما يواصل كلامه الساخر الخافت

" كنت استطيع منذ اول خروجك المتسلل مع اذان الفجر ان اعصرك بقبضتي .."

رفع قبضته امام وجهها وهو يحدق بضراوة ليفتح قبضته فجأة ويكمل " لكني .. تركتك .. فقط حتى تعرفي اني استطيع ارجاعك الى حيث تتمنين متى ما شئت انا .."

كمن يساق لحكم بالاعدام عجزت حتى عن الشعور بشيء .. فعادت تضم صرتها لصدرها واليأس رفيقها السري الصامت ..

عادا لحي الشيخ وطلب منها ان تسير لبيتها امامه ففعلت دون النطق حتى بكلمة ..

وعلى باب بيتها خياله خلفها ثم اوقفها بصوته الحاد وهو يلقي بسؤال لم يخطر ببالها ان يسأله ولم تحسب له حسابا

" هل تسللك هذا له علاقة بترددك على سوق العاصمة الكبير ؟"

سقطت صرتها لتتدحرج ارضا قريبا من قدميها بينما تنظر حسناء بملامح مصدومة ليتضاحك تحسين بشكل بشع وهو يقول مستهزئا " لاتنظري بصدمة هكذا ... لقد تقصيت اخبارك جيدا وقد رآك البعض هناك وعرفك واستغرب وجودك ..."

عقلها لايسعفها واحساس مريع ان امرا مرعبا على وشك الحصول فتهذر بالقول التلقائي

" كنت ..كنت التقط بعض رزقي .. هناك .."

شعّت عينا تحسين بالتهديد وهو يقول لها بنبرة قاطعة " رزقك ؟ حسن يا حسناء .. لم يعد لك رزق خارج حي الشيخ .."

ثم احنى رأسه وهو يرفع يده لجيب قميصه يخرج حفنة من المال ثم ببساطة يمد يده اليها يمسك معصمها ويفتح كفها ليضع فيه المال وهو يقول بنفس النبرة " خذي .."

لم يفلت كفها وهو يغلق اناملها حول المال بيده الاخرى لتصارع هي وهي تقول بارتجاف

" ما هذا .. دع كفي ..ارجوك.."

صرخ فيها بعنف " اخفضي صوتك يا امرأة .."

قلبها سيتوقف من شدة النبض الذي يقرع خلف اضلعها وكفاه لا تحرران يدها المأسورة التي تقاتل كطير جريح يحتضر فيعتصر تلك اليد التي تقاومه بضراوة وهو يؤكد لها

" هذا مال حلال .."

ما زالت تصارع ولم تعلم ان دموعها تنسكب بغزارة دون ان تشعر لتهدر فيه بصوت متقطع

" مالك ..ليس حلالا ...وانت تعرف.."

اوشك ان يكسر اصابع يدها وهو يقول من بين انفاسه " هل نسيتِ اني حدّاد بالاصل ؟ لقد عملت جاهدا خلال الايام الماضية لاكسب لك بعض المال الحلال .."

أفلتت يدها اخيرا فسقط المال ارضا وهي تردد بجزع وتلطم على خدها " لااريد .. لااريد .. "

هتف بها بوحشية رهيبة

" بل ستريدين .. جبرا واكراها سترضين .."

تراجعت لباب بيتها تتشبث بها وكأنها تبحث عن حماية والدها فيها بينما انحنى تحسين ليلتقط المال وصرة ملابسها ثم يحشر المال في الصرة وهو يقول كحكم نهائي لايعرف الرحمة

" شهران لاغير يا حسناء وستكونين امرأتي .. لولا اني اخشى انتقام الرعاع فيك لكنت فعلتها في التو واللحظة .. لكني سأنتظر حتى احكم سيطرتي على المنطقة .."

دفع الصرة اليها وهو يرفع عينين مهددتين بما يمكن ان يقدم عليه دون ادنى تراجع ليعبر عنه بالقول

" واذا عاودت الهروب ...... سترين وجها قبيحا مني لم تري ببشاعته في حياتك "

اخذت يداها تختضان وهما تبحثان عن المفتاح لتفتح الباب اخيرا تهرب منه وقبل ان تغلق الباب في وجهه كان يدخل ويتقدم نحوها ثم بغتة كان يمد كفيه ويزيح عباءتها بحركة عنيفة واحدة فيسقط وشاحها ايضا وهي تتأوه بصدمة " آآه ..."



عيناه جحظتا تماما وهو يحدق فيها ويهمس بصوت خشن " تبارك من خلقك ... كيف تخفين كل هذا ؟! "

تحركت حسناء كالمجنونة تنحني لتلتقط عباءتها تغطي نفسها وهي تقول بلهاث مخنوق

" حد اللّه بيني وبينك .. لاتقترب .."

ما زال ينظر اليها بنفس الجحوظ المتملك وكأنها ما زالت مكشوفة امامه لم تحجبها عباءتها عنه ليرد بنفس الخشونة

" وبحد اللّه سأقترب يا حسناء ..قريبا جدا سأفعلها .."

تراجع للباب مرة اخرى وهو يرمي لها تحذيره النهائي " اياك ان تحاولي الهروب مني مجددا .. ليس فقط لاني سأجدك واعيدك من اي مكان تلجئين اليه ولكن لانك ستجدين رعاعا يأكلونك حية لا قبل لك بصدهم وانت امرأة ... وحيدة ..."

بعد صلاة الجمعة

تمسك بطارف أذنه وكأنه مراهق او حتى طفل تجرها ببعض القسوة الامومية وهي تقول له بتأنيب صريح " كيف يا ولد تخفي عني موضوع عبد الرحمن ورباب ؟"

يتوجع رضا ضاحكا " آآآخ اماه .. اذني ..."

ما زالت تجرها وتجرها وهو يتوجع ويضحك
في نفس الوقت بينما تردد بدرية بحنق

" لم افعلها معك منذ كنت طفلا لكنك
استحقيتها اليوم بجدارة .."

تعالت ضحكات رضا وهو يمسك بيد امه
بدرية التي تجر اذنه ليقرب يدها تلك عنوة
من فمه يقبلها وهو يتساءل بحيرة

" من اخبرك ؟ كيف علمتِ ؟"

بهتت ملامح بدرية بالاسى وهي تقول

" اذن الامر صحيح ...؟"

ناظرها رضا ببعض اللوم المحبب وهو يسأل

" لم أفهم .. هل تعرفين ؟ ام كنت تخمنين
وتسرقين الكلمات من فمي .."

امسكت كفه تربت عليه وهي تحثه بالقول

" احكي لي يا حبيب اميّك .. "

تنهد رضا وعيناه تسرحان بحفل الخطبة ليلة
الامس وكيف كانت حالة عبد الرحمن
المشوشة .. الامر بات يقلقه بشدة ولايعرف
ماذا سيحدث مستقبلا ...

المؤكد انه لن يسمح لعبد الرحمن بعقد
القران على الفتاة قبل ان يجده مقتنعا فعلا
بالزواج منها ...



قال رضا اخيرا " ليس هناك الكثير لاحكيه لك امي بدرية .. عبد الرحمن كان متعلقا برباب منذ عودته من كندا وربما قبلها وبدت له ان رباب متعلقة به بالمقابل .. طلبها للزواج مني قبل قرابة الثمانية اشهر وفرحنا انا واسيا كثيرا بطلبه لكن فاجأتنا وصدمتنا رباب بأن رفضت بشكل قاطع وقالت ان عبد الرحمن لايناسبها كزوج وانها لاتراه اكثر من اخ ..! "

بنظرة فطنة من بدرية علقت " والعاشق الولهان الذي تصب كبرياؤه مع مصب هوى قلبه غضب كالجحيم .."

رد رضا وهو يهز رأسه ضيقا " عجزت انا واسيا عن فهم ما يحدث لرباب .. وعبد الرحمن بطبعه الحانق لايساعد .."

عقدت بدرية حاجبيها لتؤنب رضا بشكل جدي هذه المرة " كيف وافقت ان يتزوج تلك الفتاة المسكينة ؟! رانية لاتبدو اكثر من بلهاء عاطفية منبهرة به .."

نظر اليها رضا وهو يقول

" لم يمنحني الوقت لارفض .. لااعرف ما جرى فجأة ليتأجج غضبه بشكل فظيع فيصدمني بقراره الزواج من رانية ثم سارع لطلبها من والدها دون ان يرجع لي ووضعنا جميعا امام الامر الواقع .."



رددت بدرية بامتعاض " كنت اعرف ان صغير بيت الصائغ عنيد متهور لكني لم أظنه ابدا سيظلم فتاة لاذنب لها ..."

تمتم رضا باشفاق " الفتى يعاني أماه .. يريد الخروج مما هو فيه وليس بيدي ان اساعده بشيء .."

غلبها قلب الام وهي تواسيه بالقول المتفهم

" انه ولدك .. انا اعرف كيف تشعر نحوه وقد ربيته على يديك .. هذا ما كان يجعلك تسرح كثيرا في الاونة الاخيرة واخبرتني ان هناك ما يشغل بالك ويثير فضولك اليس كذلك ؟"

رفع رضا نظراته لأمه قائلا

" لا .. ليس عبد الرحمن .."

عندها عبست بدرية مرة اخرى وحدجته بنظرات صارمة فيضحك رضا وهو يضيف

" لاتناظريني بسخط هكذا .. سأخبرك .. الموضوع لايستحق غضبك علي لاني لم اخبرك سابقا مثل موضوع عبد الرحمن .. انه موضوع ابسط بكثير .. مجرد امرأة مسكينة كان تحتاج ليد العون .."

لكن بدرية أصرت بالقول الفضولي

" احكي من البداية وبالتفاصيل يا فتى .."

يضحك رضا مرة اخرى ويرد مناغشا اياها

" من البداية يا ام رضا .."

حدثها عن كل شيء .. من اول ظهور المرأة بعباءتها السوداء وهي تنتظره في السوق وحتى اخر يوم قابلها فيها في محله ...

تمتمت بدرية بتفكير عميق

" ألهذه الدرجة يائسة ؟!"

رد رضا بتعاطف شديد

" تقطر يأسا اماه .. امرأة مطحونة بظروف صعبة في زمن سيء وبيئة اسوأ .."

بنظرات ثاقبة امعنت بدرية النظر في وجه رضا .. تحدق بملامحه المهيبة التي تفيض قوة وحنانا بشكل عفوي.. قد لايكون وسيما لكنه ينضح رجولة لاتخفى على اي امرأة ..

قالت بهدوء وهي تتطلع لملامحه الهادئة

" لقد اثارت فضول حميتك ورجولتك .."

رد ببساطة دون ان يلتقط ما ترميه اليه امه بدرية " نعم اثارت حميتي لأمد لها يدي .. لقد وقعت في عرضي تستنجد .."

عندها قالت بدرية بكلمات مباشرة صادمة تقطع اي شكوك في قلبها

" أنظر في عيني واخبرني .. هل أثرت في قلب الرجل فيك يا رضا ؟"

ارتفع حاجبا رضا عاليا من صدمته بما تسأله... ولوهلة ظنها تمزح او تشاكسه لكن ملامحها كانت غاية بالجدية فتبسم تدريجيا ليقول برقة لاتليق الا برجل مثله

" قلبي .. انا ؟! أو تسألين أماه ؟! وهل قلب رضا معه ؟!.. النساء في حياتي لهن اسم واحد منذ الازل .. اسيا .. ينبض قلبي هذا الاسم فيتدفق في شراييني ..."

تراخت ملامح بدرية وشعت ابتسامة الارتياح على محياها فلعنت الشيطان الذي اقلق ثقتها للحظة ثم مالت نحو رضا تقبل لحيته كما تحب ان تفعل وتناغشه بالقول

" حظكِ ذهب خالص يا ابنة ابتهال ..."

يسبل رضا اهدابه والابتسامة الرجولية تضيء على وجهه وكأن اسم (اسيا) يزيده وسامة ورجولة ..

لكن بدرية لم تغفل عن نزغات شيطان اخر قد يتسلل لمن ضعفه يقهر عقله ويغري قلبه لدخول المتاهات ... قالت

" دعنا اذن نتكلم عن تلك المرأة وحسب .. اسمعني يا رضا .. قد تملك قوة ويقينا لاتجعلان قلبك يميل لغير زوجتك .. لكن تلك المرأة حسناء لاتعرف من هي اسيا بالنسبة لك .. وقد تعرف .. وهذا ربما يجعلها أشد لهفة لتجد مكانا في قلبك المميز المملوك لاسيا .."

بدى رضا غير مقتنع ليعبس وهو يقول

" ما هذا الذي تقولينه امي بدرية .."

فتحاول بدرية التوضيح اكثر ليستوعب تماما الحالة لتلك المرأة من وجهة نظر امرأة اخرى

" انت نجم عال في ظلماء حياتها فكيف لاتعشقك ؟! قد تكون قليلة الحيلة مستضعفة وصادقة تماما وهي تنشد حماية اسمك .. لقد سمعت سابقا قصصا عديدة عن نساء مثلها استجرن برجال ذوي مكانة وهيبة بين الناس وربما هي بتفكير محدود قديم فكرت ان تتمثل بهن .. لكن ان تختارك وتعرض نفسها مكشوفة امامك فهذا (بادراكها او عدم ادراكها) يدل انها تنظر اليك كامرأة .. ومؤكد ترغب وتفكر بك كرجل.. "

اظهر رضا مزيدا من عدم الاقتناع ليقول لها

" اماه انت تبالغين .. انها لاتفكر هكذا .. المسكينة كانت ترتعد امامي وكأنها توشك على الموت .. اي عشق واي غرام ؟! "

تأففت بدرية يائسة ان تقنعه فتتمتم بنبرة حانقة تستخدمها مع زوجها عندما يناكفها ويعاندها الرأي قائلة

" الرجال الرجال ... عقولهم اصغر من حبة رز احيانا فيما يخص النساء "

ينظر اليها رضا وبدى في عينيه بعض التفكير والشك لتسقي بدرية مزيدا من شكوكه وهي تضيف بدهاء

" اسمعني يا عيون امك بدرية .. امرأة قليلة الادارك مثلها وسط البيئة التي تعيشها ومع الجهل والتخلف ستتعلق بك كقشة وما دمت فتحت لها الباب بطيبة قلبك ونخوتك ستجدها عندك في اي لحظة تتعلق بعباءتك تستجيرك .. تطلب حمايتك .. او حتى قد تطلب سترك مرة اخرى بالزواج منها.."

رد رضا بنبرة قاطعة صادقة " لكني لم امنحها اي أمل بهذا الموضوع .."

فترد بدرية بصبر " هذا صحيح .. لكنك لم تكن حازما كفاية معها وامثالها لايفهمن الا ان الباب ما زال مواربا "

قال رضا مؤكدا لما قاله سابقا " كل ما فعلته اني اتيتها باللطف واللين .. افهمتها ان موضوع منحها اسمي غير وارد على الاطلاق واني استطيع مساعدتها بطريقة اخرى .. بالسكن في حي اخر ومساعدتها في ايجاد عمل .."

ثم اضاف بعد لحظة صمت

" وفي كل الاحوال فتوتهم قد خرج من السجن كما اخبرتك ولم أرها منذ اكثر من اسبوع واظن الامور استتبت هناك .."

قلب بدرية لم يكن مرتاحا ابدا فلم تملك الا ان تقول " احذر يا رضا .. تلك البيئة تعج بالمصائب التي لاتخطر على بال الغافلين .. احذر ان تصل باذاها اليك ولاهل لبيتك .."

ثم اضافت بتحذير من نوع آخر " واحذر .. من قلب امرأتك .. اسيا .. اذا تملكتها الغيرة وربما .. الشك .."

للحظة بدى رضا قلقا ليفصح بالقول الرقيق

" لذلك لم اخبرها عن تلك المرأة .. حتى لاتقلق ويدخل قلبها ريبة تمسه بنسمة ألم .."

تبسمت بدرية وعيناها تفيضان محبة له لتقول مؤيدة لقراره

" احسنت فعلا انك لم تخبر اسيا.. مهما بلغ عقلها تظل امرأة .. وربما موضوع والدها القديم سيفتح بابا للشيطان في قلبها فتشك انك قد تفعل فعلة ابيها .. "

ثم تضيف بتحذير جديد " لكن كن حازما اكثر مع تلك المرأة حسناء اذا عادت اليك.. وقلبي يقول لي انها ستعود .. "

مساء ... بيت يونس العطار

نظرت شذره للهاتف فتشعر بقلبها ينقبض

كلما ارادت ان تفتح الخط لتتصل بمهند اصابعها لاتطاوعها ...

احساس كريه انها تفعل خطأ جسيما بتلك الاتصالات ...

منذ ذلك اليوم في المقهى الذي قضت فيه قرابة الساعتين تتكلم معه للمرة الاولى ثم عودتها بالحافلة العامة للبيت لتواجه نظرات خالتها ابتهال القلقة فتكذب عليها لاول مرة وتخبرها انها كانت تلف في الاسواق ...

واستمرت الاخطاء وهي تنزوي كل ليلة في غرفتها تتحدث معه حول اي شيء ولا شيء ..

الحديث معه سلس وعفوي ويفتح عقدة لسانها لتبوح بكل شيء ..

لتبوح باشتياقها لبلدتها .. لبيت والدها وحضن امها .. لتبوح باشتياقها ان تكون مرفوعة الرأس شامخة في بيت يعترف بها عنصرا اساسيا لا عنصرا مضافا وربما فائضا عن الحاجة ...

مهند يمنحها هذا الشعور انها العنصر الاهم الذي انتظره طيلة حياته .. حتى وهي لاتعرف شيئا عنه تستشعر اهميتها الخاصة عنده ..

حدسها يخبرها ان هناك خلل ما لكنها تتجاهل ذلك الحدس ...

وكل هذا لايهم .. لايهم .. ما يؤرقها اكثر من كل شيء انها تخون ثقة البيت الذي استقبلها وآواها .. تخون ثقة خالتها ابتهال التي عاملتها بكل انسانية حتى وان عجزت عن منحها احساس الام والابنة ...

اجفلت وسقط الهاتف من يدها ارضا على السجاد عندما سمعت طرق الباب يتبعه صوت الخالة ابتهال وهي تناديها

" شذره .. تعالي واجلسي معي لنتفرج المسلسل.. رباب ما زالت في حالة هستيرية خياطة للتحضير لعرس حفيدة بدرية والمدللة رقية تدرس .."

انحنت شذره لتلتقط الهاتف وترد بصوت مرتعش قليلا " حاضر خالتي .. انا قادمة.."

ردت ابتهال من خلف الباب دون ان تفتحه

" بانتظارك حبيبتي .. سأعد بعض الشاي والكعك بالسمسم .."

ابتعدت خطوات الخالة ابتهال وللحظات قصيرة حدقت شذره في الهاتف قبل ان تحرك اصابعها على زرين محددين وتطفئه تماما ...

مر اسبوع ...يوم الخميس ...

الشارع العام قبالة الجامعة..

لسبب ما كان عبد الرحمن قد ركن سيارته على جانب الطريق وبمسافة تبعد عن بوابة الجامعة الرئيسية بعشر امتار تقريبا ...

يعاني من شعور كئيب لايوصف يقاتله بشراسة كما يقاتل كل مشاعره الاخرى...

الايام الماضية كان أشد شراسة مع نفسه وهو يتجاهل تماما وجود رباب حوله ..

لم يعد ينظر .. لم يعد يسمع .. لم يعد يفعل اي شيء الا الذهاب للجامعة نهارا ثم قضاء باقي الوقت مع رانية حتى المساء ..

كل هذا جعله في حالة لامبالية بشيء !

وكأنه مخدر وقد استسلم لهذا التخدير ..

كان يسير بصحبة رانية متوجها لسيارته بينما يخدره هذرها وثرثرتها التي بات يألفها منها " عبد الرحمن ارجوك .. دعنا نذهب لمحل الاثاث الذي اخبرتك عنه .. صدقني سيعجبك .."

امتعض عبد الرحمن من مشوار ثقيل كهذا فحاول ان يتحجج بأي شيء ليتهرب بينما تتوقف خطواتها قرب سيارته

" انا مرهق رانية .. كما اني اخاف ان يتضايق والدك من كثرة خروجنا بمفردنا ولم نعقد القران بعد .."

اتكأ بظهره على السيارة بينما يحدق بشرود في ملامحها الحلوة التي عبست وهي تقول بدهشة " لكن بابا لايمانع على الاطلاق .. "

تنهد وهو يحاول مجددا " رانية انا ..."

قاطعته وهي تتشبث بكم بلوزته لتقول بإلحاح مزعج " ارجوك عبد الرحمن .."

تمتم بتضجر " حسن ..."

اخذت تهتف بحبور ضايقه بعض الشيء وهي تكاد تتقافز كطفلة !

" شكرا شكرا ..شــ..."

لايعرف ما جرى لها عندما شحب وجهها فجأة وذبلت ملامحها واتسعت عيناها بنظرة جامدة وهي تحدق في الشارع خلفه !

التفت عبد الرحمن جانبا ليحدق من فوق كتفه للشارع الذي ازدحم بالسيارات والباصات والطلبة الذي يعبرون من جهة لاخرى ... لم يستطع ان يرى اي شيء غير طبيعي او يثير الاهتمام ..

سالها باستغراب شديد

" ما بك رانية ؟! وجهك شحب تماما .. هل رأيت شيئا ازعجك ؟"

سارعت رانية لتظهر بشاشة سريعة وهي تقول بخفة وبعض التعثر

" لا .. لاشيء .. اشعر ببعض الدوار .."

لم يكن في حالة تجعله يلح بالاستفسار منها بل تشبث بما حصل علّه يقنعها بالعدول عن الذهاب لذاك المحل

" اذن دعينا نؤجل الامر .. انت متعبة .."

تعابير غريبة لفت محياها الجميل وهي تقول بإصرار " لا .. لا بل دعنا نذهب .. لن نؤجل شيئا .."

استسلم لاصرارها ومعدل الكآبة يرتفع ...

فتح لها الباب لتصعد ثم اغلقه خلفها ليلتف حول السيارة ويصعد هو الاخر لمقعده ويشغل السيارة وينطلق ...

تنهد سريا ... رانية متعبة بطريقتها ...

اسبوع مرهق له جسديا وكل يوم في مطعم شكل وقبول دعوات من معارف عائلتها حتى شعر عبد الرحمن بالاختناق !

يعترف لم يحبب الاجواء .. فيه الكثير من الترفع والتزلف والتزييف ..

معارفهم من نوعية محددة .. ممن يطلقون على انفسهم (الطبقة الراقية المثقفة) ...

اغلبهم من عوائل الدبلوماسيين وموظفي الدولة المرموقين و مجموعة من الاطباء المشهورين في العاصمة ..

طبقة تتمتع بأنفة وغرور فارغ .. واهتمامات تافهة لاتتعد الجلسات التي يتخللها مباريات التنافس عمّن يتمتع برفعة مقام اعلى !

لم يكونوا من الاثرياء بل اناس وصلوا لمراكز منحتهم اهمية من نوع ما ...

ورانية بشخصيتها لم تكن تساعد ليتجرع تواجده مع هذا النوع من البشر ...

رانية تبدو طفولية بل اقرب لهوائية ..

اجل انها حقا هوائية متقلبة فساعة تحب شيئا ثم في اليوم التالي تكرهه !



كذاك الفيلم الذي اصرت على حضوره معه وبدت متيمة بالبطل كمراهقة ثم في اليوم التالي عندما سألتها اختها امامه عن الفيلم فردت بلا مبالاة ان لا بأس به ...!

ثم المطعم الذي توسلته ليذهبا اليه وعندما فعل بدت محبطة وهي تقول انها ندمت ولو اختارت المطعم الآخر لكان افضل ...

كثير من هذه الملاحظات شغلت باله وهو يتعامل معها لكن الخدر يمنعه التفحص في شخصيتها اكثر ...

تطلع للشارع المزدحم فاختنق ....

حقا ايامه كلها باتت متشابهة بطيئة مختنقة .. مخدرة تماما !

دار العطار للازياء ..

تجلس ارضا على ركبتيها تحجز جهاز الهاتف بين اذنها وكتفها بينما تتحرك اناملها ببراعة لتكمل رسم الاعلان الجديد لدار العطار ...

كانت سعيدة كطفلة مشاكسة لانها قررت استخدام ثوب العرس الابيض السري الذي تصممه رباب خفاء في هذه الدعاية ...

رسمته بعناية شديدة يتطاير بحوافه البيضاء واوشحته الزرقاء والذهبية فتتوهج خرزاته وتحلق بعيدا عن الثوب تلك الكفوف الذهبية التي تضعها رباب على الثوب ..

وخلف الثوب المتطاير رسمت ظلالا لعينين

رجولتين مشعتين تحت حاجبين كثيفين ...

بدا الرسم حيا ... حيا جدا لدرجة خطفت

انفاس حبيبة نفسها ...

ورغم هذا كانت حبيبة عابسة تكز على

اسنانها غيظا وهي تقول لاسيا عبر الهاتف

" هل كان انتِ ام انا من وصف رباب مرة

بالحجر الصوان ؟ اقسم باللّه ان حجر الصوان

منتهى الليونة مقارنة بها !"

جاء صوت اسيا متمهلا بتفكير

" اذن لم تفصح .... رغم انها تتألم .."

رمت حبيبة القلم الذي كانت تستخدمه

وبحدس غريب اختارت عدة اقلام بالوان

مختلفة .. ازرق .. بنفسجي .. وردي .. اصفر ..

لترسم اشعاعات فرح سريالية تحيط بالثوب

وتنعكس قرب العينين الرجولتين ...

وبينما هي تفعل كانت تستمر بهذرها مع

اختها الكبرى قائلة بحنق

" الغبي فقط من لايرى ألمها .. يحيى بات قلقا

عليها هو الآخر .. ويخبرني على الدوام ربما

هناك قصة حب فاشلة تخفيها عنا جميعا ..

انها تهزل وتشحب كل يوم .. وتصر انها مرهقة

بالعمل لاكثر .. ولا اعلم لماذا تصر على

خياطة فساتين سهرة لنا جميعا لعرس حفيدة

الخالة بدرية .. لم تكن محبة للخياطة قدر

اهتمامها بتصاميم الفساتين .."

جاء رد اسيا منطقيا

" انها تشغل عقلها بأي عمل يستهويها فقط لتجعل الوقت يمضي كما انها ذريعة ممتازة لتحجب نفسها عنا جميعا بعذر مقبول .. خاصة امي .."

تنهدت حبيبة وهي ترمي كل الاقلام وترفع الرسم امام عينيها لتهمس " اود لو اخنق عبد الرحمن بيدي هاتين .."

تمتمت اسيا " وما ذنبه .. هي من ترفضه ..."

فتصر حبيبة بحمائية " لكنه يؤلمها .. "

وقفت حبيبة على قدميها وهي تحمل الرسمة بينما تسمع اسيا تقول ببعض التوتر

" الموضوع اصبح مقلقا حقا يا حبيبة .. لقد بدأت اعيد التفكير .. لااعلم .. هل تظنين انها ترفض عبد الرحمن لاجل ما فعله ابي ؟"

ردت حبيبة باحباط وهي تخفي الرسمة في درج كبير خاص بها " لقد تحدثنا بهذا اسيا .. وحسمنا موضوع رفيدة .."

عندها قالت اسيا بنبرة غريبة " ربما فكرنا بالموضوع من الجهة الخاطئة ... فكرنا في رفيدة نفسها وكونها اختا لعبد الرحمن لكننا لم نفكر بأبانا وتأثير ما فعله ..."

اقفلت حبيبة الدرج بالمفتاح وهي تتساءل باستغراب " ماذا تقصدين بالضبط ؟"

ردت اسيا بنوع من التساؤل المتفكر

" لماذا نفكر ان رفيدة هي السبب ؟! لماذا لانفكر ان ابانا هو السبب .. ! ماذا لو كانت رباب لاتريد الزواج ابدا ؟ ماذا لو كانت تأثرت بزواج ابينا على امنا بشكل لم نفكر بابعاده تماما .."

تنبهت حواس حبيبة لتركز في الكلام وتعيده " لاتريد الزواج ابدا ؟! "

فأكدت اسيا بالقول " اجل حبيبة .. جربي واخبريها عن اي عريس حتى ولو كان وهميا .. فيه كل المواصفات .. اجزم انها سترفضه حتى قبل ان تعرف اي شيء عنه .."

صمتت حبيبة تفكر للحظات قبل ان تقول بحيرة " المشكلة اننا لن نستطيع ان نعرف الان مدى صحة هذا التخمين .. لانها تعاني حقا .. ولن نحصل على الجواب الصحيح وهي بهذه الحالة ..."

فتح باب غرفة مكتب حبيبة بشكل فجائي لتظهر رباب مبتسمة ببشاشة تسلب القلب وتقول بفرح غامر

" حبيبة انهيت فستانك .."

اخذت رباب ترفع ذراعها عاليا تلوح بفستان من دون اكمام قماشه من الشيفون الازرق الداكن وبين طيات الشيفون الشفاف تظهر بشكل غامض متوار على طبقة داخلية نقوشات كطبعات من رسومات اشبه برسومات الحناء على اليد ...

بتأثر وانبهار همست حبيبة عفويا " واااااااو .."

ضحكة رقيقة أتت من اسيا وهي تتساءل

" هل فستانك حلو لهذه الدرجة ؟"

ردت حبيبة وهي تحدق في وجه رباب بنظرة تآمرية وتحرك حاجبيها صعودا ونزولا باغاظة قائلة

" رقية ستقتلني غيرة من فستاني .."

يقود بسيارته حتى البيت وعقله يدور في افلاكه ...

منذ اسبوع لم تتكلم شذره وهو لم يبادر ان يكلمها ... لم يكن السبب انشغاله مع والد جوري فقط الذي تعرض لوعكة صحية مفاجأة دخل على اثرها المستشفى في اليوم التالي لعرس مروة ...

الحقيقة انه لم يبادر لان ذهنه كان وما زال في حالة تشوش وتخبط قصوى ...

ويداهمه شعور عجيب غامض ..!

منذ تلك الليلة مع جوري وداخله يموج في هذا الاحساس العجيب ...

كانه يغرق في لجة بحر لم يخض فيه يوما ولايعرفه ولايفهم كنهه فيتخبط في سباحته والامواج ترفعه ثم تهبط به وهو عاجز ..

عاجز تماما ان يقاوم او حتى ان يفهم ما يقاومه...

ارتعش داخله وهو يتذكر تلك الليلة قبل اسبوع .. مشاعر عاطفية عنيفة غير اعتيادية مزقته أربا بلهيبها فتمنحة احساسا باللوعة والشبع في نفس الوقت ..

عقد حاجبيه وهو يحاول ان يتذكر هل كانت جوري في اي وقت تشبه جوري تلك الليلة ؟

أوقف السيارة على اشارة المرور الحمراء فتشرد نظراته وهو يضيق عينيه بتركيز ويستعيد ذكريات مرات لاتحصى عاشر فيه زوجته ورائحة البخور تغرق حواسه بالنشوى ..

اتسعت عيناه قليلا وارتفع حاجباه شيئا فشيئا لتأخذه الذكريات لزوايا منسية او مهملة او ربما متروكة عمدا في عقله المشوش ..

تذكر جوري اول زواجه بها .. تذكر افعالها .. حركاتها .. حتى طريقة مشيتها أمامه فقط !

تذكر لمسة سبابتها لاذنه صباحا تداعبها بخفة وهي تبتسم بانوثة قائلة بصوت مغو

" صباح الخير .. تعال لنفطر معا.."

جلبابها الشفاف وهي تقف امامه في مطبخهما الصغير العلوي تتمايل له على اصوات اغنية شعبية تضحك ضحكة كلها حلاوة وهي تقطع الخيار لتعد السلطة فترفع قطعة



وتضعها في فمه ثم تميل لتمس بشفتيها شفتيه ...

وبكل سلاسة تعود لتمايلها الخفيف الراقص وتضحك على كلمات الاغنية الهزلية ...

تذكر عندما اصابته حمى .. حمى شديدة لم تصبه يوما في حياته وكيف سهرت الليل بطوله ترعاه وتلثم جبينه وتضمه لصدرها تهمس لاذنه بكلمات لايذكرها !

لايذكرها ابدا !!

اجفل مهند بقوة وصوت الابواق يعلو من خلف سيارته فادرك ان الاشارة باتت خضراء ..

انطلق والعبوس يعاوده ...

انه .. انه مغتاظ من نفسه لانه لايتذكر شعوره الشخصي حيال كل ما كان يستعيده من ذكريات عن جوري...

وكانه كان مغيبا ! يتلقى بجسده لكن روحه في مكان اخر لاتستقبل شيئا على الاطلاق ...!

وصل لبيته اخيرا ليدخل سيارته المرآب وبدلا من ان ينزل احتضن المقود بذراعيه واستند بجبينه وشعور بالانهاك والارهاق يسيطر عليه ..كان يحتاج لنوم عميق عل افكاره ومشاعره تنجلي عن حقيقتها ..



ربما اخذته سنة نوم فيرى صورة جوري تارة ثم صورة شذره ثم تتلاشى الصور ليغرق في الظلام ! استيقظ مرة واحدة عندما انفتح الباب المجاور ليطل وجه ابيه القلق وهو يسأله " ماذا بك بني ؟! انك تجلس منذ نصف ساعة في السيارة ... هل والد جوري بخير ..؟"

اخذ مهند نفسا عميقا وهو يستعدل بجلسته ثم يقول بهدوء وهو يتمطى قليلا " اجل ابي انه .. بخير ... لقد خرج من المستشفى .."

فيحدق ابيه في وجهه هنيهة قبل ان يسأل بنبرة مختلفة هذه المرة " هل ستبيت زوجتك ببيت عائلتها هذه الليلة ايضا ؟"

غامت عينا مهند وهو يرد ببعض التردد والتوتر " نعم .. ستعود غدا مساء ..."

ظل الاب وابنه يحدقان ببعض وكل واحد منهما يريد ان يقول الكثير فلا يعرف هل حان الوقت ام لا ....

اختار مهند ان يبوح هو ليقول برجاء " ابي ... ادخل واجلس بجانبي .. اريد ان اخبرك عن امر مهم ..."

فعل الاب ما طلبه وهو يخفي الهم الذي يحمله في صدره لحال ولده الوحيد ..

سأل الاب بثبات وهو يلتفت لابنه

" خيرا ان شاء اللّه... اخبرني بني .."



أراح مهند رأسه للخلف وهو يتطلع جانبا لابيه قائلا بشكل صريح مباشر

" انا .. لست سعيدا تماما مع جوري .. "

بنفس الثبات سأل الاب

" وماذا تريد ان تفعل حيال هذا الامر ؟"

لحظة صمت ثم قال مهند باهتزاز خفي

" انا ..." ليصمت لحظة متعثرة ثم يضيف

" انا.. اظنني... وجدت ضالتي ..."

ما زال الاب صابرا ليحثه بالقول

" ماذا تقصد بني ؟ افصح ..."

عندها لم يشعر مهند الا والكلمات تنساب دون تفكير على لسانه " لقد قررت الزواج بفتاة تعرفت عليها مؤخرا .."

للحظة اتسعت عينا الاب بذهول شديد ثم تمالك نفسه وهو يقول بتأن واستفهام " تتزوج ؟! وماذا عن جوري وماذا عن ابنتك ؟ هل ستهدم حياة اسرتك لتبني اسرة جديدة ؟! "

تمرد في داخل مهند ارتج بعنف داخله ليقول بنبرة دفاعية " انا لن اهدم شيئا ابي .. الشرع يحلل لي الزواج باخرى .. وانا لن اتخلى عن جوري وحبيبة .. لقد سألت شيخا في احد الجوامع وقال لي يحق لي الزواج ما دمت اشعر بحاجتي لامرأة اخرى وانوي ان اسأل في الغد شيخا اخر ايضا .."



ثم يزداد تمرده وهو يضيف بتشبث وعناد

" شذره ستعيش في شقتي القديمة .. اظن عقد الايجار سينتهي بعد ثلاث اشهر اليس كذلك؟ نستطيع التفاهم مع المؤجر ليعجل الامر .."

أرخى الاب نظراته ثم تمتم بنبرة يائسة

" لاحول ولا قوة الا باللّه ..."

ليعاود رفع عينيه لولده يواجهه قائلا

" مهند .. هل تدرك ما تقوله وما تنوي فعلا الاقدام عليه ؟"

فيرد مهند بنبرة اشد تمردا وكأنه يتمرد حتى على نفسه

" انا تعيس ابي .. تعيس وتائه تماما .."

ثم اغمض عينيه وهو يضرب برأسه للخلف على مسند الرأس لمقعده مرددا باحباط شديد

" تائه .. تائه .. تائه ..."

لم يشعر الا واناما ابيه تضغط على ذراعه ثم يقول بصوت مؤثر هادئ

" غدا سآخذك بنفسي للملا صالح .. انه شيخ جليل وانا واثق انه سيقول لك الكثير مما يجب ان تسمعه وتفهمه لتدرك ما انت مقبل عليه ..."

اليوم التالي (الجمعة)

في زاوية الجامع يجلس رجل ضرير في اواخر الستينات .. يقرأ القرآن بصوت خفيض وهو يحرك رأسه وجذعه في حركة رتيبة يمينا وشمالا ..

رجل ضعيف البنية بملابس شيوخ الدين الرمادية وتلك العمامة التي تميزهم وقد برز الشعر الاشيب من تحتها ...

من يقترب منه يقشعر جلده لصوته الخفيض وهو يقرأ القران بعشق !

اجل .. انه يوحي لك انه يعشق تلك الحروف الربانية فتلتحم بنياط قلبه وتستجلب ابتسامة خفية محببة على فمه ...

اقبل طارق النعماني على الشيخ فيلقي التحية والسلام وهو ينحني ليتربع ويجلس جواره ..

" السلام عليكم ايها الملا صالح "

يقول الشيخ منهيا قراءته (صدق الله العظيم) ثم يرد التحية وبابتسامة مختلفة تلوح فيه بشاشة القلب الروح

" وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. كيف كيف حالك يا ابا مهند .."

يتبسم والد مهند وهو يرد على الشيخ

" الحمد للّه انك عرفتني يا شيخ .. هذا سيسهل علي كثيرا ... "

رد الملا صالح " انت رجل طيب يا ابا مهند وفيك الخير كل فترة تأتيني زائرا وتسلم علي وتتسامر معي .. فكيف انسى صوتك .. اخبرني بما تحتاجه وحاجتك مقضية بإذن المولى .."

فقال والد مهند والهم ينضح من كلماته

" هل تذكر يا شيخنا عندما جئتك قبل سنوات استشيرك بحال ولدي ..؟"

تمهل الشيخ قبل ان يقول " نعم .. كان يمر بفترة عصيبة وتباحثنا حول كيفية مساعدته ليهتدي ..."

هز والد مهند رأسه عفويا ثم قال

" انه معي اليوم .. فقط اراد ان يصلي ركعتين لوجه اللّه ثم سيأتي ملتحقا بنا .. اريدك يا شيخنا ان تستمع اليه وتعطيه رأيك .."

رد الملا صالح " خيرا ان شاء اللّه .."

لم تمر ربع ساعة حتى كان مهند جالسا قبالة الشيخ الضرير يحكي للشيخ انه يبغي الزواج للمرة الثانية واخبره عن زواجه من جوري .. كيف تم وكيف هي حياته معها ..

كان مهند يهذر قليلا .. وجهه مرهق وصوته اكثر ارهاقا ..

لم ينم الليل بطوله يفكر ويفكر ..

لقد اتصل بشذره .. خالف وعده لها واتصل !

لم ترد عليه بل ارسلت رسالة نصية تخبره انها لاتستطيع مكالمته الان وترجوه ان لايعاود الاتصال ...

لم تقل انها ستتصل لاحقا وهذا ... جعله يخوض نوعا مريعا من خليط متفجر منهك من الغضب والخوف !

هل قررت ان تبعده شذره ؟!

اسبوع باكمله لم تكلمه وعندما اتصل ترفضه وتتحجج انها لاتستطيع الرد او الكلام!

الملا صالح كان مطرقا يسمع ووالد مهند قرر التزام الصمت التام وعدم التدخل ..

تفاجأ مهند عندما سأل الملا صالح بصوت رخيم النبرات

" لماذا تريد الزواج على زوجتك ؟"

ارتبك .. ولايعلم لماذا ارتبك حقا !

شيخ الجامع ذاك لم يسأله لماذا يريد الزواج على زوجته .. لقد اخبره مباشرة انه يحق له الزواج من اخرى ما دام يريد ويستطيع كفايتهما الاثنتين معا ..

ابتلع مهند ريقه وشعر بارتفاع حرارة جسده ليرد على سؤال الشيخ بدفاعية تلقائية رغم التشوش الذي تملكه

" انا يا شيخ لست سعيدا .. احتاج لامرأة تدفئ مشاعري كرجل.. زوجتي تقف على باب قلبي ولم تستطع الولوج له ... ربما حاولت لكنني لم اشعر بها .."

رفع الشيخ عينيه الضريرتين اليه يحدق في وجه مهند مباشرة وكأنه يراه ليسال بنبرة هادئة تحمل شيئا ما يخترق شعور مهند للعمق

" وهل فعلت انت ؟!"

رمش مهند متسع العينين ليرد ببلاهة

" ماذا فعلت ؟!"

بنفس النبرة سأل الشيخ " هل حاولت .. ؟ "

عرق بارد تصبب من جبين مهند هامسا بحشرجة " احاول ماذا ؟!"

ملامح الشيخ رهيبة .. وكأنه يخترق دواخل مهند بكل حواسه ليقول بعدها

" تحاول مواربة باب قلبك المغلق عسى ان تجد زوجتك طريقها لقلبك .. "

ما زال العرق البارد يتصبب منه فيردد بحيرة من نفسه وما يحصل له " انا ... انا .."

عندها بدت عينا الملا صالح مشعتين بقوة غير عادية وكأن نور البصيرة يتجسد فيهما ليقول بنبرة شبه صارمة " اجل هذه هي مشكلتك بني .. هذه الـ (أنا) تؤرقك فلا تشعر بغيرك .. هل فكرت للحظة بزوجتك؟ هل حاولت ان تكسب قلبها ؟ هل أشعرتها انها محبوبة مرغوبة لتتشجع اكثر

حتى تصل لقلبك كما تقول وتريد ؟ ام ان هذا واجبها بمفردها لارضائك .."

تراخى فم مهند ولهاث انفاسه يتسارع ..

كان مصدوما .. مصدوما مما يسمعه ..

لا .. بل كان مصدوما وهو يرى نفسه ببصيرة الملا صالح .. يراها عارية و .... قبيحة ..

لم ينتظر الملا صالح منه ردا بل اضاف بسلاسة والكلمات ترن في روح مهند

" قبل اسبوع جاءني رجل يسألني نفس سؤالك وله زوجة صالحة كزوجتك انجب منها ابنة واحدة ثم حصل لزوجته مشاكل جعلتها تجهض كل جنين تحمله .. الرجل يملك مالا وحسبا ونسبا .. يملك صحة وعافية .. يملك زوجة صالحة وابنة بارة ... لكنه طمع بالمزيد ! يريد ولدا ذكرا .. يريد ذرية اكثر واكثر ... فجاءني طالبا النصيحة وربما طالبا لمن يقول له (نعم تزوج) حتى يفعلها بضمير مستريح ... وانت تريد نفس الشيء .. "

صمت الشيخ لحظة قبل ان يتم كلامه

" ساخبرك ما اخبرت به ذاك الرجل ... انا لااستطيع ان اقول لك لايجوز لك الزواج بامرأة اخرى فهذا شرع الله .. رخصة اعطاها للرجل .. لكن ليس لديك سبب حقيقي لتفعلها وتؤذي مشاعر زوجتك التي من الاولى بك ان تراعيها .. خاصة زوجة تقول بنفسك ان فيها كل مواصفات الزوجة الناجحة .. و تذكر كل رخصة لها مسؤولياتها وعواقبها

في الدنيا وعواقبها في الاخرى لانك ستحاسب كيف استخدمت رخص اللّه .. "

يحدق فيه مهند والكلمات تموت على شفتيه ويبدو ان الملا صالح كان مدركا لحاله فواصل الكلام ينهي به (كل الكلام)

" التعدد بالزواج ليس ان تتخذ امرأتين وتعدل بالمبيت هنا ليلة وهناك ليلة او ان تنفق النقود بشكل متساو ... التعدد في روحه أتى للضرورة وتيسير الامور وتقوية اواصر الاسرة لا زعزعتها وقهر قلوب افرادها .. وضع في بالك ان ما ستكسبه بيد قد تخسر غيره باليد الاخرى.. هذه هي الدنيا... لا احد يحصل على كل شيء .. "

عصرا ..

ابتسمت لوجه حماتها التي اخبرتها انها ستعتني بحبيبة وتستطيع جوري ان تاخذ حماما وتنام لساعة او ساعتين ...

شكرتها بصدق ثم تسلقت درجات السلم الى حيث جناحها الصغير في الطابق العلوي ..

حماتها اخبرتها ان حماها مع مهند وقد عادا قبل قليل من صلاة الجمعة ..

استغربت قليلا ان يتأخرا في الصلاة للعصر !

لكن يبدو انهما يقضيان بعض الوقت سويا ..

تحتاج فقط لبعض الاسترخاء لترى خطوتها القادمة مع مهند ..

وعكة والدها المفاجئة أجلت كل ما كانت تخطط له بعد النصر الصغير الذي حققته ليلة عرس مروة ..

ابتسامة حلوة ناعسة ارتسمت على شفتيها وهي تمد يدها لمقبض باب الجناح عندما تشوهت تلك الابتسامة ولمعت العينان بالصدمة وحديث مهند مع أبيه يصلها واضحا !

" ابي .. كلام الملا صالح اني لااملك حجة مقنعة بالزواج شتتني اكثر و لم يقنعني .. انا احتاج حقا لشذره .. الامر ليس نزوة .. انا .. احتاجها وهي تحتاجني وكلانا وجد في الاخر ضالته .. لاانوي ابدا ظلم جوري .. ستأخذ حقها كما شذره سيكون لها حقها .. فأين الخطأ باللّه عليك ..؟"

يد جوري ترتعش بقوة وقد جفت مشاعرها بالكامل وكلمات مهند عبر الباب تصلها بكل اللهفة والحاجة التي تغلي فيه ...

الامر لم يعد يحتمل ...

لقد انتهى كل شيء ....

*توضيح للقراء كلمة المُلا (للمذكر)
والمُلايّة(للانثى) تعني من يعلم الصغار قراءة
القران وحفظه وهي كلمة يستخدمها
البغداديون من عشرات السنين

حاليا الملاية هي المرأة التي تحضر جلسات
نسائية خاصة لذكر الرسول في المولد
النبوي او تأتي في العزاء تقرأ مناقب..

الملا صالح شخصية حقيقية وكما وصفته
بالفصل وقد توفي قبل بضع سنوات فأرجو
قراءة الفاتحة على روحه



الفصل العاشر

الامر لم يعد يُحتمل ...

لقد انتهى كل شيء ....

اتسعت عيناها بطريقة مرعبة لمن يراها ويشعر بذاك الغضب المدمر الذي يملك ان يحرق الاخضر قبل اليابس ...

إرادة .. كلمة واحدة .. وهي تتمتع بالكثير من معناها ...

وهذا وقت احدى صولاتها لترفع رايات الارادة الحرة والانتقام الاسود ....

يدها التي كانت ترتعش قرب المقبض ... ثبتت !

عيناها المتسعتان المتحجرتان بجمرات الغضب انطفأتا وعادتا لحجمهما الطبيعي ودكنتهما الحالكة ...

القلب ؟! ... القلب هناك .. بعيد .. متوار بخزي عشقه المذل المهين .. فلتدعه ينازع في الظل وتبا له ان حطمها الآن !

رفعت يدها الاخرى لتفك ربطة شعرها وتحله من عقدته ثم تنثره وتنثره فتشعر بمزيد من السيطرة ...

شمخت بذقنها ورسمت ابتسامتها بإتقان ثم .. أدارت مقبض الباب ...



" مساء الخير ..."

جملة قالتها ببشاشة وهي تنظر لوجه حماها الذي شحب فجأة وهو يجلس جوار ولده على الاريكة الصغيرة ...

تجنبت النظر مباشرة لعيني مهند لكنها لن تتنازل عن الابتسام في وجهه الاشد شحوبا من وجه ابيه ...

ساد صمت مربك ليقف الاب على قدميه ببطء وهو يقول ببعض التلعثم بينما عيناه تحدقان بجوري في استفسار حرج " مساء الخير يا ابنتي ... متى وصلتِ ؟ مهند قال ستعودين اخر الليل .. تعالي ... تعالي واجلسي جوار زوجك .. انا كنت مغادرا للتو .. حمدا لله على خروج والدك بالسلامة .."

تحرك الاب فعلا ليقترب باتجاهها وهي ما زالت تقف مكانها قرب الباب المفتوح صامتة لاتعلق بشيء ولا ترد بكلمة .. لكن لحظة اصبح حماها على بعد خطوة من الباب سبقته جوري لتغلقه بحركة سلسلة وهي تقول بلطف شديد " لحظة من فضلك عماه .. اريدك ان تشهد على كلامي مع .. مهند "

تلقائيا وقف مهند على قدميه يمتص صدمته وعقله يستوعب تماما ان جوري ... سمعت كلامه مع ابيه ...

احساس موحش جدا تسلل ليقبض قلبه بخوف لم يعرفه يوما ...

ابدا لم يشعر بهذا من قبل ...

الاب صامت وهو ينقل نظراته بينهما لتسأل جوري زوجها بنبرة شديدة الهدوء والثبات

" تريد الزواج باخرى مهند ؟ اجبني بشكل مباشر لو سمحت ..."

تمتم مهند وهو يقترب " جوري .."

رفعت يدها لتوقفه بحركة كفها الذي تفرده بوجهه ثم تسبل اهدابها وتبتسم ابتسامة صفراء اكثر اتساعا وبرودا

" من فضلك ابق مكانك وانا انتظر ردك على سؤالي وليس النطق باسمي ... الجواب سهل .. لايحتاج الا كلمة واحدة .. من ثلاث حروف او .. حرفين ..."

تسمر مهند وهو يحاول جمع شتات افكاره وقلبه ينبض بعنف في صدره فيقول بتأن وحذر " نحتاج ان نتكلم جوري .."

رفعت نظراتها اليه تملؤها قسوة غريبة رهيبة وهي تعيد سؤالها بنوع من الصرامة

" هل تريد الزواج باخرى ؟ أجب ..."

علم انها تلك اللحظة التي تحتاج منه كل الثبات فرد وعيناه في عينيها " نعم ..."

لانت كل ملامحها بغتة وابتسامتها بدت ذائبة بسخرية رقيقة وهي تتمتم

" الحمد للّه ..."

عيناها الحالكتان تلمعان بشدة ومهند لايفهم معنى هذا الالتماع كما لايفهم ردة فعلها .. لكن شفتاها ترتعشان رعشات تكاد تكون غير مرئية .. لكنها مرئية جدا لعينيه اللتين اعتادتا البحث عن تلك الرعشات ..

اضافت اخيرا بلطف شديد مغيظ " انا ارتحت الان من الشعور بالذنب نحوك .."

احتدت نظرات مهند لسبب يجهله .. فقط يشعر ان القادم سيفلت منه بطريقة ما ...

لايعرف لماذا انجذب لحركة كفها وهي تشوح بخفة وتشير بسبابتها وتقول " انت غير سعيد وانا غير سعيدة .. واضح اننا لم نخلق لبعض ..."

اذناه تطنان وقلبه سيختنق من الشعور الذي يعتصره بينما تضيف جوري بسلاسة " انت وجدت الحل بالزواج من اخرى وهذا حقك وانا وجدت الحل بالطلاق منك ...وهذا .. حقي.."

هدر فيها وهو يتقدم خطوات منها حتى بات على بعد بضعة سنتيمرات " ماذا تقولين ؟ اي طلاق ؟!! هذا لن يحصل ابدا ..."

انفاسه تلفح وجهها وهي ترفع عينيها اليه تبتسم بتلك الطريقة القاسية لتقول وهي تتجاهل تماما اعتراضه الهادر

" كنت انوي مفاتحتك في الغد لكن احيانا تحصل امور مفاجئة تفتح لنا ابواب الفرج من حيث لاندري .."

خناجر تطعن صدره وجنون يكاد يفقده صوابه .. اوشك ان يصرخ عندما سارع الاب ليتقدم خطوة ويمسك ذراعها يدعوها بهدوء مضطرب " ابنتي .. ارجوك تعالي واجلسي دعينا نتفا.."

التفتت لوجه عمها وللحظة اشفقت عليه .. لكنها أكملت ما بدأته لتقول بنفس اللطف البارد " عفوا عماه .. هذا هو الحل الامثل صدقني .. هو سيجد سعادته وانا ..."

توقف للحظة قبل ان تعود بوجهها لزوجها تنظر في عينيه وتمعن بطعنه بتلك الخناجر هامسة بجذل و بوعد صريح

" اقسم بالله سأجد سعادتي ..."

امسك مهند بذراعها الاخر يغرز اصابعه في لحمها يهزها وهو يهدر من بين اسنانه

" اذا كنت تتخيلين اني سأطلقك فأنت تحلمين جوري .. انت زوجتي وستظلين .."

بعنف شديد افلتت ذراعها من اصابعه تقارعه بسيطرتها على نفسها قائلة بتحد

" انا عائدة لبيت والدي .. مؤكد لن اخبره الان ولن اخبر عائلتي .. ننتظر اسبوعان او ثلاث ونتكلم في التفاصيل ثم نعلن الخبر.."

ثم قست عيناها بشكل لم يره منها يوما لتضيف بتهديد " ان حاولت اخبار عائلتي الآن وابي طريح الفراش في فترة نقاهة فاقسم يا مهند اني استطيع قتلك اذا فعلتها و آذيته ..."

والد مهند يقف بينهما بعد أن افلت ذراع جوري.. لسبب مجهول لايتدخل الاب اكثر بل يترك لابنه خوض هذه المعارك ليتحمل هو وحده النتيجة النهائية لافعاله وقراراته...

تحركت جوري متراجعة ناحية الباب وهي تتمتم بخفة " نسيت ان اقول لك .."

ثم وقفت لتستدير نصف استدارة تبتسم لمهند الصامت بجمود لتقول له بحلاوة

" مبارك زواجك .. زوجي العزيز ..."

مساء ... على قارعة طريق مظلم ..

اخذ عبد الرحمن يسكب في المكان المخصص من ماكنة سيارته بعضا من الماء المقطر من القنينة المطاطية التي اشتراها للتو من محطة البنزين بينما يرتفع البخار الحار في وجهه فيزيد مزاجه سوءا وصدره ضيقا .... مزاجه كمزاج سيارته حاليا ولايملك ما يطفئه به ..

لقد ذهب مشيا على الاقدام للمحطة تاركا رانية تتذمر بمفردها بالسيارة .. لا هي رضت ان تأتي معه ولا تقبلت بقاءها بمفردها !

لم يعد الجو بادرا جدا وهم مقبلون على اواخر الشتاء لكنه يشعر بحرارة غضب مشتعل بين جوانحه ...

لايعرف ما سبب اصرار والد رانية المفاجئ على عقد القران نهاية الاسبوع !

ولايعرف ما سبب الحفل المفاجئ الذي اقامته احدى قريبات رانية هذا المساء احتفالا بعقد القران المرتقب ... وقد شعر انه تم باتفاق مسبق مع حماته العتيدة !

يشعر بالغرابة من كل شيء ...

لقد اتفقوا منذ البداية ان يكون العقد منتصف اذار فما الفرق عندهم ليقربوه الى الاول من الشهر بدل منتصفه ؟!

ليس هذا فقط ما يضايقه ..

لكن ذاك الاسلوب من التجاهل المؤدب الذي تنتهجه عائلة رانية مع عائلته !

رانية نفسها رفضت بحجج واهية دعوة لزيارة بيت عائلة الصائغ مما جعل خلود تفغر فاها دهشة وامه تعوج فمها يمينا وشمالا في امتعاض ..

عبس عبد الرحمن بتفكير مرتاب .. هناك أمر يحدث منذ البداية وهو كان يلتقطه دون ان يركز به ..

فقد كان يعيش معاناته الخاصة مع قلبه ..

فكان يقول نعم لكل شيء واي شيء ..

لكن اليوم .. الليلة .. امور كثيرة بدت غير طبيعية .. والافدح تلميح ام رانية بضرورة شراء بيت منفصل له ولرانية مما جعله يرد ببعض الخشونة انه لن يغادر بيت عائلته وهذا كان الاتفاق منذ البداية ...

اغلق عبد الرحمن غطاء المحرك ثم تحرك
ليعود لمقعده حيث تجلس رانية وهي تستمع
لاغاني من هاتفها او تدخل لحسابها على
الفيسبوك وتضحك على ما تقرأه هناك
بضحكة تستفزه ...

جلس على كرسيه ثم اغلق بابه وللحظة
تمسك بمقود السيارة بكلتي يديه ..
يستعيذ بالله من الشيطان ليستعيد هدوءه ..

لقد وعد نفسه انه سيحاول بكل ما يستطيع
انجاح زواجه برانية .. وعد نفسه انه لن
يذكر رباب ابدا ولن ينظر اليها حتى ..

خفقة خفقتان ثلاااااث ضاعت منه وهو يمر
بروحه على من اسمها رباب ...

يكز على اسنانه ثم ياخذ نفسا عميقا
ويلتفت ناحية خطيبته ..

تفاجأ بها تنظر اليه بتدقيق وعيناها تبتسمان
بلمعة حلوة مغوية جعلته يسترخي طواعيا ..
وكأن ردة فعلها هذه هي ما كان يحتاجه
ليتجاوز ضياع خفقات قلبه منه ..

ابتسم لها ثم اظهر بعض الدهشة وهي تقترب
منه بتردد خجول وقبل ان يفقه ما ستقدم
عليه كانت ترمي نفسها على صدره وهي
ترتعش ....

جسده انفعل لحظيا وليونة جسدها الغض
تلتصق به فيشعر حتى بمفاتنها وظلمة
المكان شبه المهجور تجعل الاغواء أشد ..

ثم تهمس باسمه وهي ترفع وجهها قليلا اليه تلامس بطارف شفتيها ذقنه

" عبد الرحمـــــ.......ــن ....."

لايعرف ما حصل ..!

في لحظة ارتفع انفعاله كرجل ليضمها بعنف اليه ثم يميل بوجهه اليها حتى اوشك على تقبيلها لكن في اللحظة التالية كان يدفعها بقسوة ورفض ...

التصقت بظهرها على الباب المجاور لمقعدها انفاسها تتسارع بارتباك شديد وهي تهمس بذهول " هل... اخطأت ...في شيء ؟!"

هدر عبد الرحمن بانفاس خشنة

" انا الذي اخطأ لاني لم ادفعك بوقت ابكر مما فعلت .. لقد كان تهورا غير مقبول .."

رددت وهي تحرك اصابعها بحركة مرتبكة فوق حافة فستانها الانيق

" تهور ؟! هل تسمي ما ... حدث .. تهور ؟!"

فرد وهو يعبس بغضب

" رانية انت خطيبتي ولست زوجتي بعد .."

فترد عليه بنبرة بدت ساخطة بعض الشيء

" لكننا في حكم .. المتزوجين .. الاسبوع القادم عقد قراننا .."

رد بحزم وهو يدير المفتاح ليشغل السيارة قائلا

" لم نتفق اننا سنغير الموعد و ايا يكن...

لاتفعليها مرة اخرى ..انا احب ان تكوني

اكثر حشمة واكثر التزاما .."

انكمشت اكثر على نفسها وهي تهمس

باحباط شديد " حا..حاضر..."

ثم اضافت فجأة " عبد الرحمن انا ...

احبـبــ..ـك .."

شعر كمن ضربه احدهم بقبضة حديدية

وسط معدته مباشرة ...

شعور اقرب للغثيان تملكه فينبض رأسه في

صداع وهو يرد بنبرة مراوغة

" اذا كنت تـ.. حبينني .. حقا .. فلا تفعلي

هذا مرة اخرى .. ليس ..قبل عقد .. القران .."

سار في الطريق وقلبه يسخر منه ..

يذكره باللحظة التي مال بوجهه ليقبلها

كان..يريدها ان تكون ... رباب ..

ومر اسبوع اخر .. يوم عرس حفيدة بدرية ..

عصرا.. بيت العطار

أنهت قراءة الجزء الاخير من القران لتختمه ..

ضمت القران لصدرها وهي تشعر بالسكينة ..

الايام الماضية كانت تعيش مخاضا عسيرا

لآلامها .. فالتجأت للقرآن بعد طول إنهاك

جسدي في الخياطة لتنتج خمس فساتين

خلال اسبوعين لا غير !

فكان في القرآن نجاتها لتهدأ آلامها

وتستكين روحها بالرضا والقناعة ..

انها الآن مستعدة .. مستعدة لتواجه عبد

الرحمن مع خطيبته للمرة الاولى ..

مستعدة بقبس من شجاعة تتمنى انها بالقوة

الكافية لتصمد ..

تشعر ان الليلة ستكون مخرجا اخيرا ونهائيا

من هذا النفق المظلم الذي طال وطال ...

وضعت القران في مكانه ثم تحركت لتقف

قبالة فستانها الكرزي المعلق على حافة باب

الخزانة ...

ابتسمت بشجن ... مؤكد هي مستعدة ...

مساء حفل العرس ...

فستان كرزي ... يلتصق بجذعها وينحني مع

خط انحناء خصرها ثم ينساب كالشلال

المنهمر بثنيات طولية حتى الكاحلين ...

زهرة جوري بنفس اللون تزين الفستان مكان

القلب ..

حجاب حريري ملتف بطرفيه حول رقبتها

ويبرز نحول وجهها الذي بات يمنحها هالة من

رقة وانوثة ...

لم يعد يرى شيئا على الاطلاق الا ايّاها ...

لم يعد يسمع ثرثرة رانية ولا تباهيها الطفولي

بفستانها الجديد الفضي ..

لسانه ثقل وعضلات جسده بالكامل تشنجت..

انامله كفيه تتقلص حول ذراعي الكرسي الذي يجلس عليه ولم يعد يشعر بانامل رانية التي تصر على التشبث بذراعه منذ جلوسهما جوار بعض ..

قلبه ... لم يعد في صدره !

قلبه ضاع .. او ربما ذاب .. او ربما تلاشى وكأنه لم يكن هناك خلف اضلعه يوما..

تسير بابتسامة مرفوعة الرأس بثقة ، تسابق خطواتها الرشيقة خطوات امها واختها رقية وابنة عمهم شذره ..

ما زالت رانية تثرثر وهو بعيد.. بعيد.. يشرب ويتشرب وجود رباب بعد طول قحط ..

اجل لقد كان يعيش قحطا ينكره .. يبحث عن ارتواء من واحة وهمية ...

رباب .. رباب .. رباب ...

يناديها علّها تنظر اليه .. لكنها ... لاتفعل..

مشغولة عنه وهي تسلم على اختيها حبيبة واسيا ..

تضحك ! اجل انها تضحك وعيناها تبرقان بوهج خافت عسلي ...

اللعنة .. هو يموت ببطء ويعاني انفصاما مدمرا بين روحه وعقله.. يعيش عذابا ما بين بعدها وبين الشعور بالذنب ناحية رانية ...

هو يتعذب وهي .. تضحك !

اتسعت عيناه وهما تقدحان نارا بل نيرانا من الشوق الذي لاقبل له على اطفائه هذه اللحظة ...

تصلب كل شيء فيه وهو يراها تلتفت وتعبر بنظراتها حتى وصلت اليه ... فابتسمت !

انفاسه تضطرب بالكامل وهو يراها تقترب منه وفستانها يبدو ابهى وابهى و..ابهى كلما اقتربت خطوة تتبعها خطوة ...

رغم ان عينيه لاتفارقان عينيها وهي تقترب منه لكن غريزته الحمائية الغيور تتحرك بعنف ليتابع بحدس رجولي كل من يلتفت نحوها ... كل من تثير اهتمامه فيستكشفها ويبحث ما خلف كينونتها كانثى ...

نفض انامل رانية عن ذراعه وهو يقف على قدميه بحركة عنيفة عندما رآى احدهم يوقفها .. كان شابا يعرفه من الحي ..

انفاسه باتت تخرج كالنار تحرق رئتيه وهو يراه يسلم عليها باهتمام وابتسامة تشق فمه وهي ترد له الابتسام بأدب ..

اللعنة .. كان سيتحرك نحوهما عندما شعر برانية تقف جواره تتشبث بذراعه من جديد..

تسمّر مكانه يحاول السيطرة على تلك النيران بينما يرى رباب تنسحب من حوارها القصير مع الشاب لتعاود .. الاقتراب ...

كل شيء بات مشوشا بغيمات دافئة تحوم حول مرآها تزغلل البصيرة قبل البصر ...

تتهادى بل يراها تتمايل ..

تتلاعب تبتسم تتحايل ..

اللعنة اللعنة على لون ثوبها هذا !

لم يعد يعي ما يحصل وهو يسمعها تلقي السلام وتقدم مباركتها للخطبة بل تقبل رانية على الوجنتين ثم ... تمد يدها تصافحه !

كفها في كفه فيعتصره والاشتعال ينتقل منه اليها لتسارع بسحب يدها بسلاسة ثم تواجهه بنفس الابتسامة قبل ان .. تبتعد ..

تبتعد لكنها في الواقع لا تبتعد ..

انها ها هنا ما زالت بين انفاسه ...

بدت بدرية عابسة وهي تحدق بجارهم المزعج الذي كان قد اتخذ مكانا حيويا يراقب المدعوين بعينين متلصصتين وابتسامة صغيرة مستفزة ...

كم تندمت لانها اشفقت عليه وعلى وحدته لتدعوه الحضور الى عرس حفيدتها ..

رجل كريه ومنفر دون ان تعرف تحديدا لماذا يثير في نفسها هذه المشاعر السلبية ..

ثم فجأة تغيب ابتسامته وهو يتطلع بلهفة لاتُخفي لزاوية نظر محددة ...

اثار اهتمام بدرية وهي تلتفت لتكتشف انه يحدق في عبد الرحمن وخطيبته بينما اقتربت منهما رباب لتسلم عليهما ..



حدس سيء انتاب بدرية وهي تعاود النظر لوجه سعدون القاضي وهي تراه يهز رأسه بغرور وعيناه تلمعان بالخبث ..

" ما بك بدرية ؟! اثرثر وحدي وانا اشكوك من خطيبة عبد الرحمن المتعالية هي واهلها وانت في وادٍ اخر ولاتردين بشيء .."

بدت بدرية غير مرتاحة على الاطلاق وبالها مشغول بما رأته للتو من سعدون القاضي لكنها حاولت التكلم بتركيز وهي ترد على رفيقة عمرها سعاد بالقول المؤيد " صراحة يا سعاد .. الفتاة لاتليق به .. اشعرها تافهة وغير راكزة ابدا .. فيها الكثير لايعجبني .. "

تنهدت سعاد كمن يحمل الهم الثقيل ثم ردت " اهلها ايضا متعالون ورغم هذا متعجلون لعقد القران وكأنهم لم يروا عريسا لابنتهم من قبل! هل تعلمين .. لقد ارادوا ان يقربوا الموعد لولا ان عبد الرحمن رفض وأصر على الموعد الاولي منتصف آذار.."

هزت بدرية رأسها بلا معنى بينما تحدق في عبد الرحمن وتلك النظرات التي يلاحق بها طيف رباب بلا هوادة ...

اقتربت خلود من اخيها الذي تألق ببدلته الكحلية رغم بساطتها فبدا محط انظار الفتيات وقد منحه الخالق وسامة رجولية طبيعية بشعره الاسود ولحيته المميزة ...

كان يقف وبيده كأس عصير في احدى الزوايا المخفية ولم يتنبه لاقتراب اخته بينما عيناه تلاحقان رغما عنه صاحبة الفستان الارجواني ... يا الهي حتى عيناها بدتا ارجوانيتين ...

قفز قلبه وصوت اخته يأتيه بغتة بسؤال اخترق غيمات مشاعره المتأججة ...

" هل عينك على رقية ام شذره ؟"

تقمص دور اللامبالي وهو يرتشف من عصيره ويقول بسخرية محببة مصطنعة

" ايتها الهبلاء عم تتكلمين ؟!"

عبست خلود بشدة وهي تنظر للجهة التي كان اخاها ينظر اليها حيث مائدة مستدير توزع حولها الكراسي فتجلس شذرة على يمين الخالة ابتهال بينما على يسارها تجلس رقية المدللة التي تحتضن ذراع امها وتضاحكها...

تمتمت خلود باحباط وهي تنظر لرقية التي تجذب النظر بثوبها المشمشي بينما شذره بدت بجمال طبيعي هادئ بثوبها ... الارجواني ... المحتشم ..

" ارجوك لاتقل ... رقية .. "

تضاحك خليل وهو يسألها باستفزاز " من باب الفضول فقط .. لماذا لاتحبذين رقية .."

ردت خلود وهي تميل قريبا من اذن اخيها

" لانها من طينة اخرى غير طينتنا يا خليل .."

فيبتلع خليل ريقه بصعوبة واخته تضع يدها دون ان تعلم على الجرح .. بل وتضغط بتلك اليد اكثر واكثر فتوجعه ..

حتى وهي تتكلم عن رقية فما الفرق عن ... شذره ...؟!

ردد بغموض " وشذره من نفس الطينة اختي .. ابنة عمهم ويكفي حسبها ونسبها لاعرق العائلات واكثرهم اصالة "

بدت خلود بعيدة عن فهم اخيها وهي تثبت حجابها الحريري الذي يتزحلق كل دقيقتين قائلة " انا لم أكن اتكلم عن العائلات .. انا كنت اتكلم عن الطباع .. لم أكن اقصد ابدا ان .."

قاطعها خليل ليقول بلمحة سخرية من نفسه

" لاتشرحي وتفسري خلود .. رحم اللّه امرئ عرف قدر نفسه .. انا وانت من عائلة فقيرة مالا وحسبا ونسبا ... وعائلة كالعطار لن تناسب الا عائلة كالصائغ .."

عبست خلود بشدة وهي ترد عليه بحنق

" ما هذا الكلام خليل ؟! لاول مرة اسمعك تتكلم هكذا .."

تطلع اليها ثم يبتسم ويقول ببساطة " انه كلام الواقع اختي .. ما انا الا شاب مكافح يعيش بحي شديد التواضع واعمل لدى زوجك ادير له المحل لقاء أجر .. وعندما أبغي الزواج سأختار فتاة من ثوبنا و .. طينتنا .."

رمشت خلود وهي تقول بإلحاح " لكن شذره مختلفة .. انها بسيطة ولطيفة و ... "

ليقاطعها مرة جديدة مضيفا " و.. جميلة جدا .. متعلمة وبأصل عريق وتنتمي لبيت يونس العطار .. ولن استغرب يوما ان تتزوج بشاب من مقامها ويعرف قيمتها .. ربما احد اقارب بيت الصائغ او معارفهم .."

بدت خلود متألمة وحمائية جدا وهي تقول بلهفة " وانت ايضا وسيم ومتعلم و ...."

ضحكته ارتفعت وهو يمد يده يقرص خدها ويقول بصوته الخشن " من يشهد لي غير اخت حمائية متهورة بعاطفتها ..."

كانت خلود تنظر اليه بعجز .. تريد اقناعه ولاتعرف كيف .. قلبها يرفض ما يقول لكن .. عقلها ... عقلها يؤيده ...

اصابعه التي قرصتها قبل لحظة لامستها بحنان وهو يضيف بصوت أجش " لاتأخذك العاطفة اختي .. لولا دعم زوجك لكنت ضعت وربما كنت ادمنت المخدرات او اصبحت هجّاما على البيوت .. وقد كنت على الحافة لاقع في تلك الهاوية لولا ان حذيفة شدني وانقذني ..."

دمعت عينا خلود وهي تقول بغصة

" لاتقل هذا الكلام ... انت خير الشباب .. "



رد باشفاق على قلبها المتلوع لاجله

" حسن لاتحزني .. لن اقوله .. هل تتخيلين لو افترضنا وطلبت رقية او شذره للزواج .. هل تتخيلين كيف سينظرون الي ؟ بيت العطار سيرونني اقل مقاما بكثير و عائلة الصائغ لن ينظروا الي الا كطامع او متسلق يريد ان يضع رأسه برأسهم ويطلب فتاة للزواج من نفس البيت الذي تزوجوا منه .."

اخذت تهز رأسها وتقول " هذا غير صحيح ..قل انك تريد شذره وسأخطبها لك منذ الغد .. بل الليلة ..."

رعدت عينا خليل بتحذير شديد

" اياك خلود .. اياك .. ان فكرت حتى بالتلميح لموضوع سخيف كهذا لايوجد له اي جذور الا بعقلك انت فأني سأحرجك وانفي رغبتي بالزواج اصلا .."

زمّت خلود شفتيها وكأنها تقاوم دموع بكاء بينما يضيف خليل بصوت اقل صرامة يحاول مواجهتها بما تنكره " شذره لن تترك بيت العطار لتأتي وتعيش حياة متواضعة في شقة صغيرة بحي فقير نسبيا و انا لن أرضى على كرامتي ان تهان ولو بلمحة عين مستهينة او متهمة بالطمع والوصولية .. هل فهمتني اختاه؟ لاتهيني كرامتي ابدا وتقللي من شأني في عيونهم ..."

رمت نفسها عليه تغرق في عريض صدره الرحب لتسمع بعدها صوت زوجها من الخلف يتهكم برقة " حجابك سيتزحلق تماما وانت تتعلقين بأخيك هكذا .."

التفتت لحذيفة ودمعة من عينها تتدحرج رغما عنها فتمسحها سريعا وهي تضحك فلا تعلم ان تلك الدمعة تشق صدر زوجها ويتمنى ان يفعل اي شيء حتى لايراها ..

تأرجح رانية ساقا فوق ساق والملل يتملكها من جو العرس الذي لم يعجبها .. ثم تمط شفتيها بضيق وهي تنظر الى عبد الرحمن الذي يجلس جوارها بملامح متصلبة لا تفهمها اطلاقا ..

ارادت ان تفتح اي موضوع لتبدد الوقت فقالت اول ما خطر ببالها

" اذن هؤلاء بنات العطار ... ظننتهن اكثر جمالا من تفاخر خالتي سعاد بهن طوال الوقت وكأنهن بناتها !! "

لم تتنبه لردة فعل عبد الرحمن المتوترة بينما تواصل هذرها وعيناها على حبيبة العطار التي تألقت بشكل مبهر جوار زوجها الوسيم لتعترف ببعض الغيرة

" اعترف ان حبيبة فقط مميزة بينهن وتليق بزوجها الوسيم .. انها مبهرة جدا لكن اخواتها

كلهن عاديات الجمال او حتى متوسطات ..

حتى قريبتهن تلك التي تشبه حبيبة بشكل

كبير لاترقى لمستوى جمال حبيبة

وجاذبيتها المتوهجة .. "

تمتم عبد الرحمن وهو يكز على اسنانه كزا

" ألن تكفي عن هذه الثرثرة ..؟"

كانت تحدق بنظرة تقيمية لرقية لاهية عما

يعانيه عبد الرحمن لتكمل ثرثرتها

" امممممم رقية لابأس بها .. تجيد الاعتناء

بنفسها لكن دون ذاك الاعتناء لا اظنها

ستبدو ملفته كما الآن .."

عينا عبد الرحمن حادتا بعيدا الى حيث تقف

رباب على بعد مسافة بسيطة من اسيا ورضا ..

كانت .. كانت تكلم شابا اخر !

جاء صوت رانية كهمس بعيد

" اقلهن جمالا هي رباب ... الا تظن ؟ "

عيناه تتسع كالجحيم وهو يرى الشاب اكثر

من مهتم وهو يضاحك رباب وهي تستجيب !

وهمس رانية مستمر " رباب عادية جدا رغم

لون عينيها الجميل الا انها عادية .."

فجأة رأى عينا رباب تجمدان بنظرة رهيبة وهي

تحدق ناحية اسيا ورضا !

لم يفهم ما يجري ليراها تبتعد بخطوات

متعجلة تاركة ذاك الشاب ينظر في اثرها

بتعجب مماثل لتعجبه ...

" من اين لهن بتلك الألوان ..؟ "

كانت رانية تهز ذراعه كي يرد عليها وهي تسأل اسئلتها السخيفة .. بينما هو في حالة ذهول مما رآه .. وجه نظراته لاسيا ورضا فوجدهما على طبيعتهما ولم يحدث شيء ..

اذن ماذا يحصل لرباب ؟ ما الذي جعلها تحدق في اختها الكبرى وزوجها بهذه الطريقة ؟!

هل .. ترفض سعادتهما ؟

هل .. تكره .... سعادتهما ؟!

هل حقدها على رفيدة لانها رضيت ان تتزوج والدها يجعل رباب تكره هذا الارتباط القوي المتفرد بين اسيا ورضا ؟

" اجبني يا عبد الرحمن .."

التفت ببطء الى حيث وجه رانية التي تنظر اليه بفضول مزعج فيرد ببطء وعقله شبه شارد

" عائلة العطار معروفة بأصولها من بلدة تشتهر بالعيون الملونة والشعر الفاتح .."

تتنهد رانية بحسرة وهي تقول " لو كنت املك عيني رباب لكنت ..."

وقف عبد الرحمن على قدميه ليقول بضيق شديد وافكار سوداء تتدفق على رأسه كالمطارق " انا لم أعد اطيق الجلوس .. سأذهب لادخن سيجارة .."

سألت بلهفة وهي تقف على قدميها جواره

" هل اتي معك ..؟ "

كان سينفجر صارخا وسط القاعة لكنه تماسك بشق الانفس ليقول من بين اسنانه

" لا ابقي.. اذهبي وجالسي خالتك سعاد .. ثرثري معها وبادليها الاهتمامات .. واخبريها برأيك عن بنات العطار.."

هتفت به بنبرة عاتبة وهو يبتعد

" عبد الرحمن ! لاتتركني .. دخن سيجارتك هنا .. لااصدق انك حقا لاتدخن امام اخيك الاكبر وانت بهذا العمر ! ما هذه الافكار الرجعية البالية .. ؟!"

" لاتتكلمي بامور لاتفقهي فيها شيئا ... "

ودون ان يهتم بمراعاتها اكثر وقد فاض به اشار ناحية امه وخالته بدرية ويضيف

بسخرية " اذهبي وجالسيهما قليلا .. ومارسي بعض العادات والافكار الرجعية من باب التغيير !"

قبل لحظات او .. دقائق ..

بلون الحناء وتصميم اقرب للقفطان بطبقتين من الستان اللامع وفوقه القفطان كعباءة شفافة بكمين طويلين وحزام يلف الخصر وقد تطبعت العباءة برسمات من نقوش الحناء..

تختلف عن النقوش المتوراية في فستان حبيبة ... فالنقشات في فستان اسيا اكثر ميلا للرسم العربي الاسلامي ...

يمسك رضا يدها ويحرك ابهامه فوق ظاهر كفها يلامس نقوش حناء حقيقية اصرت رباب ان ترسمها على كفيّ اسيا فقط ...

تبسم وهو يرفع يدها قليلا وكأنه يود لو يلثمها بفمه لكن يتراجع حياء فيلثم عن بعد عينيها بنظرات عينيه ويقول بصوت أجش وهو يتطلع لجمال حيائها الذي يعشقه

" اميرة لكل البنات ..."

تضحك اسيا بخفوت وهي تتهرب من حرارة خفية في عينيه فتعتب عليه برقة

" توقف رضا .. لم تتوقف عن النظر الي هكذا .. واللّه بت اخجل من خجلي منك .. كف يا رضا .. ارجوك .. "

يضحك وما زالت عيناه تغازلانها بغزل سري ..

لا .. لم يكن سريا ...

كانت رباب هناك قريبة الى حد كاف لتشعر بكل الغزل بين اختها الكبرى وزوجها..

تجمدت ملامحها وهي تتذكر غزل والدها بامها .. نفس النظرة .. نفس اللمسة باليد ..

نفس الابتسامة المناغشة السرية ...

لم تشعر الا بيدها ترتفع لتلامس عنقها فوق الحجاب الملتف بعناية واناقة ..

انها .. تختنق .. انها ... تحتاج للهواء ...

اعتذرت من زميل دراستها حاتم الذي كان
يثير ضحكها كما ايام الجامعة بفكاهاته
ثم سارت بخطوات حثيثة لتغادر القاعة ومرت
جوار امها التي تجلس مع شذره الساهمة ورقية
المتألقة بشقاوتها ..

نادتها امها لكن رباب لم تستطع التوقف
فاستمرت في طريقها تخوض بين المدعوين
وتقطع صخبهم بصخب افكارها ومشاعرها
المتلاطمة ..

في اخر الممر الطويل حيث تقع قاعة
الاحتفال في بدايته كانت تقف رباب مستندة
بكفيها للجدار وهي تلهث ودمعات ترطب
رمشيها ...

يقترب ويقترب وقلبه يكاد ينفجر..

وقفتها تلك وهي تستند للجدار لم تثر فيه الا
مزيدا من الحاجة اليها ...

الاقتراب منها متعة سادية !

عذاب مبهر للحواس ...

الاقتراب منها تملك وحرب ضروس ليبني
اسوارا واسوار يمنع الاعين عنها عنوة ...

غارقا في حروبه وهو يقول بخشونة والغيرة
تتقافز في مهرجان مشاعره تلك



" كم مرة قلت لك اختاري ألوانا مناسبة ..
هذا الثوب لايصلح الا لجلسات نسائية .."

ابتلعت ريقها واغمضت عينيها لثوان وهي
تهمس في سرها بعذاب يضاهي عذابه

" يا الهي .. ليس الآن .. يا الهي امنحني القوة
لاواجهه حتى نهاية هذا الحفل ..."

حزمت امرها وتشبث بحبل ارادة جاءها من
حيث لاتشعر لترد عليها بخشونة مماثلة

" توقف عن ابداء رأيك بأمور ليست من
صلاحياتك .."

يهدر فيها بما يفوق الغيرة بمراحل

" رغما عنك سأبدي رأيي .. رغما عنك
امنعك ان تتكلمي مع الشباب وتتضاحكين
معهم .. "

كانت في حالة لاتوصف من الغضب والضعف
والذكريات القديمة عن والديها تمزقها أربا...

ردت بهدير غاضب وعيناها تلمعان كالزجاج
البراق " وما دخلك انت ؟! انا حرة .. اضحك
.. اتكلم .. اعشق .. اتزوج .. انا حرة .. الا
يحق لي ان اتزوج كما ستتزوج انت .."

لم يشعر الا بكفه تلتف حول مرفقها بشراسة
كشراسة نظراته يقول بنبرة مجنونة " على
جثتي رباب ان تتزوجي .. لن أموت قبل ان
تعترفي .. قبل ان تصارحيني بكل شيء .."



اخذت تحاول تحرير مرفقها بحركات اشد جنونا وهي تكاد تصرخ

" اترك ذراعي هل جننت ؟"

اخذ يسحبها عنوة ليخرجها من الباب القريب ناحية الساحة الخلفية للنادي .. حيث ساحة مربعة مخصصة لالعاب الاطفال وقد كانت مهجورة في هذا الظلام ..

كان عبد الرحمن يتهمها بنفس الجنون

" ظننتك دوما شجاعة .. لكنك أجبن من ان تخبريني بالسبب .."

هدرت وهي تكاد تنهار بعد طول صمود

" اي سبب ؟ انت مجنون .."

شهقت وهو يلفها لتواجهه ويمسكها من كلتي مرفقيها .. انفاسه المتسارعة تصب فوق وجهها وهو يهمس بحرارة عنيفة

" سألتك مرة واحدة .. لماذا ؟ لكنك لم تعطني ردا صادقا ثم تركتني ومضيتِ .."

حدقت فيه في تلك الظلمة حيث انارة بيضاء واحدة مشتعلة .. ضعيفة .. ضعيفة جدا وهي تنظر لعينيه .. آآآاه كم تحب عينيه تنظران اليها .. آآاه لو يعرف انها تتعذب ضعف عذابه ..

همس وصوته يتقطع بالعواطف المستعرة المتناقضة " هل كنت تريدين مني التوسل اليك لتخبريني ؟! ان أهين كرامتي أكثر .."

اخذت تهز رأسها نفيا والعبرة تخنقها وجسدها يختض فيهمس بنبرة تذيب عظامها

" لكني اعرف السبب .."

همست بوجل واذناها تطنان " تـ..عرفه ؟! "

رد بلوعة وغضب في ان واحد وهو يهزها هزا

" اجل .. انت لم تغفري .. لم تغفري ان رفيدة اختي أنا .. لم تغفري لاختي انها تزوجت بأبيك يوما وكسرت قلب امك .."

شهقة بكاء افلتت منها وهي تتذكر مشهد اسيا ورضا وكيف تداخل مع مشهد قديم لامها وابيها ...

لقد تعبت .. تعبت ولم تعد تريد المزيد ..

همست بارهاق " هذا ..غير صحيح .."

يعاود هزها ويقول من بين اسنانه " بل صحيح.. في البداية ظننت ان السبب حذيفة وما فعله في الماضي .. قلت ربما علمتِ بالامر .. لكني رأيتك تتعاملين معه بشكل ودود وطبيعي .. "

بدت مشوشة وهي تنظر اليه وتتساءل بهمس

" عمّ تتكلم ؟! ما علاقة حذيفة ؟!!"

كان هو الاخر يعيش جحيمه فيهز رأسه ويقول بانفعال " لايهم .. لايهم .. المهم انه ليس هو .. وان السبب ببساطة هي رفيدة ..لقد فكرت وفكرت وفكرت .. لم استطع منع نفسي التفكير .. وفي النهاية لم أجد اي سبب اخر .. تذكرت كيف تتجنبينها بأدب"

اخذت تحاولت تخليص مرفقيها المحتجزين
وقد احمر خداها للوضع الذي هما فيه فتهمس
بجزع واضطراب شديد " انت تعقد الامور يا
عبد الرحمن وترفض الاعتراف اني .. لم اشعر
نحوك بما يكفي لاقبل بك زوجا .."

كانت كذبة مفضوحة وهو ببساطة فضح
كذبها قائلا بعنف

" لست جبانة فحسب بل وكاذبة رباب .."

رفعت عينيها اليه تود لو تقول ما يقنعه فرأته
ينظر اليها نظرة اخرستها .. نظرة فيها من
اللوعة كما فيها من الاحساس بالغدر ..

همس وهو يسكب نظراته في قلبها ويوجعه

" هل تظنيني كنت اتوهم استجابتك لي ؟
لقد تلاعبت بي حرفيا .. جعلتني كأحمق
امام رضا واسيا وانا أؤكد لهما انك لي ...
واقسم بالله ان أنكرتِ استجابتك لي خلال
العامين الماضيين .. ان أنكرت تورد خديك
وارتعاش يديك كلما نظرت اليك .. ان
أنكرت اضطرابك كلما تغزلت بك بشكل
مباشر او غير مباشر .. ان أنكرت ان ورق العنب
الذي كنت اسرقه لك من بيتنا كان
كرسائل غرامية تردينها لي بالتماعة
عينيك والبوح العسلي فيهما .. اقسم بالله
مرة ثانية ان أنكرتِ كل هذا سأفعل توا ما
سنندم عليه معا "

لاتعرف كيف تستطيع الصمود حتى اللحظة ولاتنهار بالبكاء ؟! ربما هي دعوة دعتها لرب العباد ان لايخذلها الليلة ويتركها تنهار ..

استجمعت كل قواها لتقول له بنبرة حاولت جعلها منطقية عملية

" عبد الرحمن .. الا ترى اننا نقف اليوم في المكان الخطأ ؟! انظر لبنصرك الايمن .. سيذكرك بفتاة جميلة جدا تنتظرك في قاعة العرس .. مكانك هناك الى جانبها هي لتتحكم بطريقة لبسها وتصرفاتها كما تشاء .. "

للحظات طالت كان يحدق في عينيها ليقول بعدها بحزم غيور " لاتتحركي كثيرا داخل القاعة .. اثبتي في موقع واحد متدار قدر الامكان .. "

حرر مرفقيها اخيرا وهو يضيف بتملك صرف

" واعلمي اني اراقب مهما بعدت عن ناظري ساظل الاحقك .. واتمنى يا رباب .. اتمنى حقا ان اراك تكلمين احد الشباب المتوددين.. عندها ستحصل فضيحة مدوية.."

ثم امرها اخيرا وهو يطرق برأسه

" عودي الآن .. سأدخن سيجارة ..."

انسحبت وحفيف ثوبها يمزق اعصابه ..

اخرج سيجارته يشعلها بيد مرتعشة انفعالا ومرت لحظات عندما جاءه صوت اخيه حذيفة ليشاركه ظلمته ...

" لابد انك فقدت عقلك كليا يا فتى .."

لم يستطع عبد الرحمن ترك سيجارته الآن بل اخذ يمج منها وهو يسأل بصوت أجش

" ماذا تريد حذيفة ؟"

وقف حذيفة قبالته عابس الوجه يوبخه بالقول " لقد تركت خطيبتك مع امك لتذهب خلف رباب تتشاجر معها هنا في ظلمة حديقة خلفية .. لم اسمع ما قلتما لكن من الواضح انه شجار عشاق ! هل جننت يا عبد الرحمن ؟! ماذا ان رآكما احد ؟ ماذا ان لحقت بك رانية ؟ "

لم يرد عبد الرحمن بشيء وهو ينفخ دخان سيجارته فيمسك حذيفة كتفه ويسأل باهتمام وتعاطف شديد لايخلو من الغيظ

" اذا كنت ما زلت متعلقا بها هكذا فلماذا تسرعت بخطبة رانية ؟! لماذا لم تصبر اكثر وتحاول معها من جديد .."

قال عبد الرحمن اخيرا وهو ينظر لعيني حذيفة " اشعر ان الدم سينفجر من اذني ! .."

بدا حذيفة قلقا للغاية فقال بانفعال

" عبد الرحمن .. لاتكن عنيدا كالثور .. اياك التسرع بالزواج من رانية .. لاتظلم نفسك وتظلم الفتاة ... افسخ خطوبتك



الفاشلة هذه وحاول ان تعالج الامور مع رباب ..
انت .. انت غارق في غرامها حتى قمة رأسك"

ينفخ عبد الرحمن مزيدا من الدخان بصمت
فقط يده ترتعش ..

في القاعة كانت رباب تجلس قرب شذره ..

جسدها هنا وروحها تنازع في مكان آخر ..

اما رقية فكانت مشغولة بتركيز شديد
تكتب رسائل نصية ...

سألتها امها بفضول " مع من تتكلمين يا فتاة ؟
ارمي هاتفك واستمتعي بالحفل .. "

تضحك رقية وهي تغلق هاتفها وتقول

" معك حق يا ابتهال .. الهاتف اصبح لايجلب
لي الا وجع الرأس ! "

شذره تبتسم بشرود وهي تنظر للعروس غافلة
عن عينين رجوليتين تشتاق دون أمل ان تراها
عروسا .. عروسا له ...

عم القاعة بعض الصمت وفجأة أجفلت رباب
واغنية كاظم الساهر تصدح ...

رفعت وجهها وللحظة لمحت عيني اختها
حبيبة تنظران اليها بما يشبه الاشفاق ثم
ابتسمت لها وكأن حبيبة تمنحها دعما غير
مشروط ..

مع كلمات الاغنية كانت رباب تشعر بقلبها
يحتضر ..

قلبها يموت ثم يموت ثم يموت ...

عيناها اشرقتا بسيل العسل الدامع لتلتقي فجأة بعينيه..

آآه من عينيه وما تسكبانه وهو يحدق فيها هكذا غير مبال لشيء !

وما زال صوت كاظم الساهر الشجي يصدح من جهاز موزع الاغاني في شقاوة الكلمات الولهانة .. وكأن عبد الرحمن يحاورها عن بعد .. وما يسكب من عينيه يتفسر في كلمات الاغنية ..

ماريدك بعد روح ماحبك بعد روح

ماشيلك وسط عيني .. بس بالقلب والروح

ما ألمسك ولا لمسة .. ولا أهمسلك ولاهمسة

لسّا ماشفت لسّا .. شمخبيتلك الروح

لاتزعل أنا أمزح

الشوق اللد بالقلب يفضح

أنا مثل الطفل أفرح

اذا تضحك يامحبوبي

تعال واغفى في صدري

أشمّ عطرك تشمّ عطري

حلاة الهوى ياعمري

لمّا اثنينا نذوب

ياللي نارك الجنة ياالله الليلة نتهنّى

خلّ الكحل والحنّا والحُمرة على الشفة

ياويلي يانظراتك .. يابسماتك ياهمساتك

شقد حلوة يالمساتك لما ع الصدر تغفى

عينا عبد الرحمن لم تفارقا عينيها وكلمات

الاغنية تجعل اصابع كفيه تتقلص حتى

ابيضت مفاصله والقلب أعلن استسلامه للابد ...

استسلامه للمحبوب ....

بعد ساعات وانتهاء الحفل وعودة الجميع ..

منتصف الليل ... بيت سعدون القاضي

عبر شباك غرفته العلوية يكاد يجن وهو

يتطلع لحديقة بيت العطار ..

لايمكن ان يكون اخطأ !

لقد رآى خيالين .. لفتاة ورجل ... بدا واضحا

انهما يتكلمان .. ثم اختفى الخيالان فجأة !

لايصدق انه فاته رؤية واضحة لعبد الرحمن

ورباب .. مؤكد هما عبد الرحمن ورباب قد

التقيا سرا بعد حفل العرس ..

عبد الرحمن كان مفضوحا جدا الليلة ..

تأفف سعدون متضايقا وذهب ليفرغ شحناته في

دفتره

(احب ان اكون دقيقا .. ورغم اني واثق تماما

اني رأيت عبد الرحمن ورباب سويا الا اني لم ار

الا خيالهما ...)

اغلق دفتره ثم عاد للشباك عسى ولعل يلمح
صورة اوضح لما رآه .. لكنه تأفف مخذولا
ليذهب ناحية سريره يقنع نفسه انه راض
بحصيلة مراقباته لهذه اليوم ...

تسحبت رقية على اطراف اصابعها تحمل
حذائها بيدها وهي تتوجه خفية لغرفتها ..
كانت عابسة متضايقة غارقة بالتفكير فلم
تتنبه لشذره التي لمحتها وهي تسير بالممر ..
عقدت شذره حاجبيها بعجب وارتياب ..
لماذا ما زالت رقية بفستانها وقد عادوا من
الحفل منذ قرابة الساعة والكل توجه
لسريره مرهقا ..

لاتعرف لماذا لاترتاح لرقية ولا لتصرفاتها ..
اين كانت بالضبط ؟!
اغلقت شذره باب غرفتها لتغرق بهمومها ..
انها رغم كل شيء .. تفتقد .. مهند ..

اليوم التالي .. السبت...
منتصف النهار ..

صداع فظيع يطحن رأسه .. لكنه لم يستطع
البقاء في البيت اكثر ...
منذ الصباح اتصل بالقسم واعتذر عن كل
محاضراته لهذا اليوم ..

حتى رانية لم يتصل بها واكتفى برسالة نصية يخبرها فيها انه يعاني صداعا شديدا وسيغلق هاتفه وينام طوال اليوم ولن يحضر للجامعة ..

ثم بعد لحظات أقدم على ارسال رسالة اخرى لها ...

الامر لم يعد يحتمل مزيدا من الادعاء ..

لقد انتهى كل شيء وهو غير قادر على الاستمرار معها ..

لم يكتب في رسالته الثانية الا جملة مبتورة

(احتاج ان اتكلم معك عندما نلتقي)

ركن سيارته في المرآب الخاص لاساتذة الجامعة وترجل منها وهو يدعك صدغيه ..

اتخذ مسارا مخفيا ليصل القسم دون ان يراه احد ويضطر للسلام والتعامل معه ...

ليلة الامس كانت مريعة ...

اخذ حماما لثلاث مرات .. طوال الليل لايستكين وكأن الاشواك سكنت سريره..

الامر الوحيد الجيد الذي خرج به بعد هذه الليلة المضنية التي لاتنسى انه سينهي ارتباطه برانية ..

الاحساس بالذنب نحوها يقتله ...

الاحساس انه ظلمها وكذب عليها ولو بشكل غير مباشر او واضح يجعله يشعر انه خسيس !

صوت رجولي منفعل يأتيه من خلف احدى الاشجار اثار انتباهه للحظة خاصة وهو يستشعر ان الرجل يخاطب فتاة ...

(لقد كذب علي والدك .. اقنعني ان افسخ عقد قراننا بهدوء واتركك لتشعري بحريتك وتكملي دراستك في الوطن .. وانا الاحمق ابعد عنك الآف الاميال ولا أكف عن التفكير فيكِ)

صوت فتاة باكٍ لم يفهم منه عبد الرحمن شيئا لكنه عقد حاجبيه وهو يقترب من تلك الشجرة الكبيرة التي تخفيهما معا بينما يصله بوضوح اكبر المزيد من غضب ذلك الرجل وهو يرعد بالكلمات

(ثم استغفلني ثانية وهو يترجاني ان اتركك تعملين لسنة او سنتين حتى تحققي ذاتك ... كم كنت مغفلا .. كم كنت احمقا وانا اعتقدك ما زلت صغيرة وتحتاجين لتتنفسي حريتك قبل ان تدخلي ارتباط زواج وعائلة... لقد خدعتموني .. خدعتموني انت واهلك.. والخديعة الكبرى عندما جئت الى هنا مقتولا بالشوق تاركا عملي فقط لاراك واطمئن عليك .. فتتحايلون علي جميعا .. امك تنكر وجودك بالبيت ووالدك يدعوني ان اتمهل حتى يمهد الامور لاسبوع او اسبوعين وانا الغبي اصدقهما .. حتى علمت صدفة بخبر خطبتك ! "

احساس غريب ينتاب عبد الرحمن بينما يسمع الرجل الغاضب من حبيبته يضيف بنبرة مجنونة (تخونيني رانية .. تخونيني بعد كل الحب والعشق الذي جمعنا ؟)

تحجرت عينا عبد الرحمن وتجمدت خطواته على بعد خطوات قليلة لتلتقط اذناه ما يؤكد غرابة احساسه بما يجري خلف تلك الشجرة

(مازن اسمعني .. اسمعني ارجوك ...)

انه ... صوت .. رانية ...خطيبته !



الفصل الحادي عشر

على جانب طريق فرعي يقف بسيارته يدخن
سيجارته وخدر بارد يسيطر على حواسه ...
لايلتفت لتلك الباكية النائحة المتوسلة
للغفران والتفهم الجالسة الى يمينه...

آثار وجع في فكه من لكمة مصدرها المدعو
مازن وسط التشابك العنيف الذي حصل
بينهما ... ولولا التدخل السريع للأمن الجامعي
لكان الشجار أشد عنفا ...

لا يعلم اي طاقة غضب واحباط متراكم
تفجرت في لحظة ليهاجم مازن ذاك بجنون

وينهال عليه لكماً ... فيبادله الاخر باللكم
والضرب ورانية تولول وتصرخ ...!

بعض الطلبة تجمعوا ليفكوا الشجار الحاصل
ثم تدخل الأمن لينهوا الامر باخراج مازن من
الحرم الجامعي ...

خلال لحظات كان عبد الرحمن يجر رانية
الباكية من مرفقها ليعود لسيارته ويغادر
الجامعة معها ...

الان .. وهو جالس في السيارة بعد مضي الوقت
لا يشعر عبد الرحمن بأي شيء !

لا الغيرة (بشكل مؤكد) ولا الغضب ولا حتى
ادنى شعور بالحنق ..

كانت ردود افعاله بالشجار تلقائية كرجل
يحمل اطنانا من الغضب ليفجره .. دبوس !

لكن رانية (خطيبته) لم تكن اصلا ضمن
المعادلة .. على عكس مازن الذي بدا ان
رانية بالنسبة اليه هي كل اطراف المعادلة
ونتائجها ...

ينفخ عبد الرحمن الدخان الابيض من فمه
بينما يأتيه صوت رانية وهي تشهق بالبكاء
قائلة بما يشبه الولولة

" ستتركني اليس كذلك يا عبد الرحمن ؟!
ستتخلى عني لاني .. لاني ..كذبت عليك
كذبة .. صغيرة .. ولم اخبرك عن .. مازن ..
لكنه .. لكنه .. كاذب .. كاذب .. لست
متحايلة كما وصفني وابي .. ابي وامي افضل
الناس .. انهم لايكذبون و .. لا ... يتحايلون
ولا .. ولا يفعلون هذه الامور السيئة .."

فجأة سيطرت على عبد الرحمن رغبة
هستيرية بالضحك .. رغبة لم يكبتها وهو
يطلق العنان لضحكاته خلال لحظة !

تمسح رانية خديها وهي تنظر اليه بذهول و
تتساءل باختناق باكٍ وبعض البلاهة

" لماذا تضحك ..؟! لاتسخر مني ارجوك ..
انا لااكذب .."

تراجعت ضحكاته شيئا فشيئا حتى همدت في
صدره ...

ثم حرك رأسه جانبا لينظر ناحية وجه رانية فيراها حقا حلوة جدا وقد احمر خداها من البكاء وتبللت رموشها الطويلة من الدموع التي ما زالت تنهمر ...

كل هذا لايحرك فيه... شعرة !

وكأنه في القطب المتجمد بعيدا كليا عنها وعن الاحساس بها ..

السيجارة المحترقة بدخان خفيف ما زالت بين اصبعيه بينما يحدق فيها دون ان يراها ليقول اخيرا بشرود بما يعتمل في صدره من مشاعر منذ الصباح لتتقلب الموازين ثم .. تتساوى مرة اخرى !

" المضحك يا رانية ... اني كنت اشعر بالذنب لاني كذبت انا الآخر .."

رمشت رانية وهي تتساءل بارتباك

" كذبت ؟! كذبت علي ؟ "

غامت عيناه بالشجن وألوان قوس قزح تتلاعب باوتار قلبه فرد بصوت أجش " بل كذبت على نفسي واخطأت في حقك .. وقد جئت اليوم لاصحح الخطأ وانا احمل ذنبي بين كفيّ "

شفتاها ترتعشان وكأنها توشك على الانهيار ببكاء جديد لتردد بجزع " انا لاافهم .. لاافهم .. ارجوك عبد الرحمن .. مازن مجرد ماض .. كنت صغيرة في بلاد الغربة وتصورت .. تصورت اني احببته .. انا ... اقصد بابا ...

أصر ان نعقد القران .. اقصد ماما ايضا أصرت ثم عقدنا القران بتسرع .. ثم .. ثم تراجعت .. لم أشعر اني أحبه .. حقا .. ارجوك .. اغفر لي.. لم نكن نريد اخبارك حتى .. حتى لاتغير رأيك بالزواج مني ... ماما قالت هذا .. قالت سيزعجك .. وربما سيزعج عائلتك ايضا .."

التفت لسيجارته يناظر دخانها الخفيف بنفس الشرود وهو يقول " الامر لايتعلق بخطبتك السابقة التي لم تخبريني عنها .. الامر يتعلق بنا ايضا يا رانية .. اظنك حتى لست مهتمة بي فعلا والامر مجرد نزوة عاطفية جديدة بالنسبة لك .."

نادت اسمه باكية فيقاطعها بالقول الهادئ الحازم " اخبري والدك اني سأزوره مع اخي رضا مساء اليوم لننهي كل شيء .. "

عندها استجمعت نفسها لتقول بمحاولة اخيرة

" عبد الرحمن .. ارجوك تمهل .. دعنا نتفاهم.. سأشرح لك كل شيء .. لاتخبر رضا الآن .. لاتخبر عائلتك ..انها ليست كذبة .. لقد أخفينا الامر فقط .."

مد يده ليدعس سيجارته في مطفئة السيارة حتى قبل ان تنتهي ثم شغل المحرك لينطلق بها بسلاسة وهو يقول بنبرة باردة

" بل هي كذبة يا رانية .. لقد كذبنا على بعض نحن الاثنين .. "

فتصر بالقول " انا كذبت حتى..لاخسرك.."

فيلتفت اليها ليعترف بشرود جديد

" وانا كذبت حتى لاخسر نفسي ..! لكني تأخرت .. تأخرت كثيرا .. لقد خسرتها وضاعت مع قلبي .."

عاودت المحاولة بيأس " انت تتكلم بالالغاز عبد الرحمن .. فقط دعنا نتفاهم .. انا احب..."

نظراته للامام وهو يقطع كلمة الحب من فمها ليقول بحزم وقرار ضمني لارجعة فيه

" ادخريها لمن سيكون زوجك وحبيبك حقا رانية .. انت فقط منبهرة بما (ابدو عليه) كما كنت منبهرة بـ مازن ذاك ..."

لم تعد تستطيع قول المزيد لتغرق في موجة بكاء جديد وعبد الرحمن في واد آخر تماما يعيش آثار كذبته هو الآخر ...

وعند باب بيت عائلة رانية اوقف السيارة ليقول دون ان ينظر نحوها " وداعا ..."

بيت طارق النعماني

يرفع فنجان قهوته ببطء لفمه ويده الاخرى تتلاعب بشرود بدمية قطنية صغيرة تعود لابنته يضعها على حجره ...

كم مضى وهو يحتجز نفسه في هذه الصومعة من الافكار ومراجعة نفسه ...

تتلاطم الاصوات لتصفع ذاكرته ...

صوت حبيبة يتصدرها

(" هناك اخطاء الاعتذار لايصححها ! ")

ثم صوت شذره

(" نعم مهند .. ذنب ... حتى اللحظة انا اعتبر
الامر مجرد خيال .. وان كشفت هويتي وهوية
اهلي امامك سأشعر اني اعيش واقعا حقيقيا
ارفضه بطبيعتي وتربيتي.. سأشعر اني ارتكب
إثما بمكالمتك كل ليلة.. وان ما يحدث
بيننا خطأ ولايجوز ..وعندها .. ساتراجع
تحكمني اخلاقي ومبادئي .. ")

ثم .... جوري

(" انا ارتحت الان من الشعور بالذنب نحوك..")

يتوه بين الاصوات ووجوهها ...

يتوه وقد ضاع منه احساس ال (أنا)...للحظات..

لم يعد يرى نفسه ...

لم يعد يرى الا ما ارتكبه من اخطاء لاتغتفر
نحو كل امرأة مرت في حياته..

حبيبة كانت اول من عرّته .. اول من لامست
فيه انسانيته ... لكنه فقدها بالاخطاء
الجسيمة التي ارتكبها بحقها فلم يعد
للاعتذار قيمة ..

ثم جوري التي تزوجها بعد خمس سنوات من
فقدانه لحبيبة وقد ظن انه استطاع التوازن
ليبدأ حياة جديدة فانساق لاختيار والديه
وساق معه جوري في طريق موحش لكليهما !

حمّلها شعوراً بالذنب انها فشلت معه ..

حتى وان كانت تتهكم .. هو يشعر انه حمّلها ذنوبا لاتستحق ان تحملها ...

واخيرا .. تلك اليانعة اليافعة التي تعاني وحدتها ... ماذا فعل ؟

حمّلها شعوراً بالذنب بشكل مختلف وهو يسحبها شيئا فشيئا لتتقدم على خطوة لاتتقبلها في اخلاقياتها ومبادئها ..

بدلا من ان يريحها ويمنحها الامان والاستقرار جعلها تشعر انها ترتكب اثاما ...

(" اجل هذه هي مشكلتك بني .. هذه الـ (أنا) تؤرقك فلا تشعر بغيرك ..")

صوت الملا صالح يسلخ عنه انانيته ....

ثم يعود صوت جوري صادحا بما لا قِبَل له على التعامل معه

(" اقسم باللّه سأجد سعادتي ...")

ارتج الفنجان في يده لتتناثر بعض القهوة على بنطاله فيشتم مهند وهو يضع الفنجان على الطاولة ويتحرك للمطبخ الصغير ليبحث عن مناديل ..

كان يمسح بنطاله وعيناه تحومان في المطبخ الذي ابتأس حاله منذ مغادرة جوري ..

بدا في حالة مزرية كحالة مهند نفسها ..

فوضى .. فوضى .. فوضى ...

رمى المناديل بعنف في سلة المهملات ثم تسمّر مكانه وهو يطالع التقويم السنوي المعلق على الحائط وقد اشترته جوري بطلب تصميم خاص من احدى المكتبات واختارت صورة تضمها هي مع حبيبة .. حبيبة فقط ...

لقد استدرك الآن فقط انها دوما تحب عمل تصميم عائلي للتقويم السنوي تعلقه بنفس المكان على الحائط في المطبخ منذ ثلاث سنوات ..

منذ اول زواجهما .. وهي تحرص على هذا ..

التقويم الاول كان يجمعهما معا باحدى صور العرس.. ثم العام الذي تلاه جمعه معها ومع حبيبة وهي بعمر الاشهر .. اما هذا العام فلم يكن هو موجودا اصلا !

فقط جوري وحبيبة..

تكوّرت قبضتاه في غضب فوضوي يعكس كل الفوضى العارمة في مشاعره ...

اخذت عيناه تجريان على التواريخ وقد لونت جوري بعض الايام بدوائر حمراء ..

عيد ميلاد حبيبة .. عيد ميلاده ..

عيد زواجهما .. عيد ميلاد ابيه .. وميلاد امه !

بل وحتى مروة ...

انها لاتنسى شيئا ابدا !

رفع يده يمررها فوق تلك الدوائر التي تعكس اهتمامها بكل تفاصيل تخصه هو شخصيا قبل ان تخصها ..

يتذكرها البارحة في بيت عائلتها والبرود الصقيعي الذي قابلته به ..

لقد ربط على قلبه حتى يمتنع عن الاتصال بها طوال الاسبوع نزولا لرغبتها التي اوصلتها لوالده عبر الهاتف ..

ابنته كان والده يحضرها له كل يوم نزولا لرغبة جوري ايضا ..

يلاعب ابنته لاخر الليل ثم يعيدها والده لامها.. فيقضي مهند الليل الطويل كمن توقفت عقارب ساعاته فلم يعد للزمن معنى ولا قيمة..

لكن البارحة لم يطق اكثر ووجد نفسه يغادر الجامع بعد صلاة الجمعة ثم يصل لبيت عائلة جوري ...

قلبه يقرع في صدره بنبض لم يعهده ...

رآها تطل عليه بجلباب بيتي محتشم .. شعرها الاسود الحالك مرفوع كذيل حصان يتأرجح خلف رأسها بعنفوان ..

ساحرة رغم شحوب وجهها ..

خلابة رغم بساطة جلبابها ..

ملهمة رغم جفاء تعابيرها ..

تملكه شعور لايضاهى بالحاجة اليها ...

يريدها ... يريدها .. وكم يخشى انه يريدها بهذا اليأس غير المفهوم ...

لم تسمح له بالدخول ...

ومن على باب المرآب الخارجي قالت بصوت أشد جفاء من تعابيرها

" ماذا تريد ؟ أليست ابنتك في بيتك الآن .. منذ الصباح وعمي طارق جاء ليأخذها كالعادة.."

رد وعيناه لاتفارقان وجهها

" اريدك .. انت .. جئت أراك .."

كل حواسه كانت تنتظر التقاط تلك الارتعاشات في شفتيها .. فتنصدم الحواس بالحرمان ! لاشيء .. لاشيء على الاطلاق ..

لم تهتز بها شعرة وهي تقول

" لم يكن يفترض بك المجيء لتراني دون ان تخبرني اولا وتحدد موعدا .. عليك ان تراعي حرمة البيوت.."

اثارت حنقه فاشتعلت نظراته انفعالا وهي يقول من بين اسنانه

" توقفي عن فعل هذا جوري .. انا زوجك .. لقد تركتك لتهدأين لاسبوع كامل .. لكننا يجب ان نتحدث ..لاتكوني متصلبة هكذا.."



تقتله عينيها بنظراتها الحالكة وتلك الابتسامة التهكمية التي رسمت شفتيها وهي ترد عليه

" لم أر انسانا مثلك يستطيع قلب كل الامور لصالحه بشكل ... لائق ومنطقي ! .."

ثم تقسو الملامح الفاتنة لترسل الرعدات في جسده وفي تضيف " وانا انصحك لـ(صالحك الثمين) هذا ان تطلقني بهدوء دون ان تضطرني لرفع قضية بنفسي ... لا اظنك ستحتمل تعكير مزاجك بالذهاب للمحاكم"

يعترف ان جنونا مطبقا اصابه ولم يشعر الا بحركة متهورة تصدر عنه ليقترب منها وهو يمد كفه يعانق جانب وجهها ويجذبها كلها اليه تلتصق بصدره ودون اي رادع كانت شفتاه تقاتل بوحشية جمود شفتيها ...

في لحظة التالية كان يبتعد عنها مجبرا وهو يتوجع من ضربة وجهتها بقدمها لعظمة ساقه..

كانت تنهت وهي تنظر اليه بجنون مستعر بالغضب ألهبه بدلا من ان يجعله يتراجع ..

ثم في اللحظة التي بعدها اقتربت كاللبوة الضارية لتهاجمه فتصفعه بكل قوتها على خده ..

غارق في احساس مناقض لكل ما يحدث ..

احساس يدفعه ان يصارعها ويقاتلها بنفس الضراوة والجنون ...

صفعتها كانت وكأنها زئير مستمر ..

زئير يوقض فيه جوع رهيب ليزأر مثلها..

كأنها .. كأنها تقاتله في الداخل ..

هناك حيث اعماقه الخامدة من سنوات..

انها هناك تنهش افكاره .. تزأر في قلبه ..

تمزق جموده أربا بمخالبها ..

لقد شعر انه حي كما يفترض ان يكون حيا..

شعر بالهواء كيف يدخل لتمتلئ به رئتاه ..

بكل نبض تلقائي في قلبه ..

بهواء الربيع البارد المنعش وهو يغلق ابواب الشتاء ويهف على خصلات شعره فيثيرها ويبعثرها ...

" ارحل ... ارحل الآن حالا .. لا اريد ان أرى وجهك ... "

يراها تبتعد بخيلاء انثى استثنائية ..

منهكة لكنها استثنائية ...

تركته هناك عند الباب الخارجي يحدق في اثرها بإنهاك يوازي إنهاكها ..

وما زال منهكا حتى اللحظة وكلمة (ارحل تواصل زئيرها وتنصب المحاكم وتكشف اوراق تاريخه كله ...

يا ألهي .. مرة أخرى ...

كما حدث له قبل ثماني سنوات ...

لكن هذه المرة .. لن ينهار ..

هذه المرة هو اصلب من أن ينهار ...

رن هاتفه فلا شعوريا هرول لغرفة المعيشة الصغيرة وقلبه يقرع كالطبل ..

غباء منه ان يتخيل الاتصال من جوري ..

رفع هاتفه لتتسع عيناه وهو ينظر لاسم شذره النابض ...

لايعرف ما يقوله لها ...

ماذا يفترض ان يقول ؟

فتح الخط وحالما سمع صوتها وهي تلقي السلام حتى تاهت نبرات صوتها عن اذنه وصوت اللبوة يرتفع (أرحل .. ارحل ..) ...

شعور غريب باغتراب عجيب !

اغتراب عنها .. عن وجهها الذي يشبه حبيبة ويال العجب لم يعد يراه يشبهه !

نبرة صوتها لاتشبه نبرة حبيبة ..

حشمتها .. مبادئها .. افكارها .. كلها لاتشبه اي شيء يمت لحبيبة بصلة ..

والادهى والأمر .. الاغتراب حتى عن (مهند) الذي كان يبحث فيها عن نجاته ويقنع نفسه ان الفتاة ايضا تريد النجاة من ظروفها معه ... تحتاجه كما يحتاجها ..

لاول مرة يتساءل والخط ما زال مفتوحا بينهما..

هل شذره تحتاجه حقا كرجل ام .. كإنسان؟

هل شذره سترضى به وتلعب دور زوجة ثانية ام انه يفرض عليها الاختيار ...؟

هل ...هل قلبه يرف لشذرة ام ..لوجه حبيبة ؟

هل قلبه يرف ... لحبيبة ؟!!

هل تستحق شذرة ان تتعلق به كحبل نجاة دون ان تعلم حقا اي حبال متعلق بها هو نفسه ..!

" مهند ... هل تسمعني .. انا ...احتاج ان .. اتكلم معك ... انا ..."

صوتها المتعثر قتله .. ماذا يفعل بحياته ؟

ماذا يفعل بشذرة ؟! ما ذنبها يا ربي ؟

لم يستطع الا النطق ببضع كلمات خرجت تلقائيا " سنتكلم لاحقا شذره .. لدينا الكثير لنتكلم فيه .. لكن ليس الآن .. سامحيني .. هناك امور .. انا أمر بظروف صعبة جدا هذه الفترة ... لكننا سنضع النقط على الحروف ... الى اللقاء..."

لايصدق انه اغلق الخط في وجهها ببساطة !

لايصدق انه فعلها ...

بينما شذرة على الطرف الآخر متسعة العينين بزرقة لامعة بالصدمة ويدها التي تحمل الهاتف متجمدة عند اذنها ...

لحظات مرت ثم شيئا فشيئا تجمع البكاء في صدرها ليخرج مع انفاسها فتشهق من صميم القلب و دموع الوحشة والنبذ تغسل وجهها..

ووسط مشاعرها المحتدمة كان هناك حدس يضيء يخبرها انها كانت تنتظر حصول هذا ..

كانت تنتظر ان يختفي حلم مهند كما ابتدأ.. وانه .. حقا .. لم يكن الا حلما ..

لم يكن الا خطوة خاطئة في طريق مجهول ..

مساء ..

بيت حامد الطائي ..(والد رانية)

في غرفة الضيوف الانيقة التي امتلأت بالكريستالات والتحف المنمقة جلس حامد الطائي يدّعي البرودوالترفع رغم نبرة صوته التي تفضح رغبته الشديدة في التمسك بعريس ابنته قائلا لرضا

" يا ابا جعفر الا ترى انكم تقطعون المعروف بيننا ؟ نحن لم نخفي عنكم زواجا رسميا بل كانت مجرد خطبة .. انت تعرف كيف تجري هذه الامور ... اقصد الخطبة وعقد القران .. كله تتم بخطوات متعجلة ... ثم غيرت رانية رأيها ولم يكن بيدي الا ان اتبع هذا الاسلوب.. مازن شاب بانفعالات منفلته ومتهورة لذلك حاولت ان اعامله ببعض .. المماطلة واتملص منه شيئا فشيئا حتى لايضغط على ابنتي .. بسببه قررنا العودة للوطن لتكمل سنتها الجامعية هنا .. فهل اخطأنا في شيء ؟ لقد حاولنا انقاذ ابنتنا من زواج فاشل ... واردنا لها نصيبا افضل مع شاب كابنكم عبد الرحمن.."

رد رضا برزانة ويده تتلاعب بخاتمه

" ليس هناك نصيب يا ابا رانية .. والمعروف موصول باذن اللّه بغير روابط زواج تجمع عائلتينا .."

حاول الاب مجددا وهو يلقي بنظراته لعبد الرحمن الذي كان هادئا صامتا كالصخر

" الفتاة لم تتوقف عن البكاء .. هي حتى قررت لن تذهب للجامعة بعد الفضيحة التي حصلت .."

اوشك ان يتكلم عبد الرحمن عندما هبطت كف رضا على فخذه لتمنعه ثم اجاب رضا بنفسه قائلا بنفس الرزانة والاحترام

" ستنسى وتجد من يقدرها افضل من ولدنا.."

التقط حامد الطائي رغبة عبد الرحمن بالكلام واخاه الاكبر منعه وتصور ان هناك أمل فعاتب عبد الرحمن بشكل غير مباشر ليجعله يتكلم رغما عن رغبة اخيه

" هل هذا رأيك الاخير يا عبد الرحمن ؟ انا لم أسمع الا رأي اخيك رضا .."

أطرق رضا برأسه مفسحا المجال لعبد الرحمن حتى يدلو بدلوه فكان رد اخيه الاصغر بما جعل رضا يشعر ان تربيته لم تضع هباء " انا دخلت اليكم طالبا ابنتكم للزواج وبوجود اخي رضا الذي اعتبره أبا وليس مجرد اخ .. واخرج من هذا البيت كما الأصول تقول .. بحضوره ايضا وذلك احتراما لقدرك وقدر ابنتك..."

اخذ والد رانية يتميز غيظا من هذا الرد
فأخذته العزة ليقول بأنفة وغرور فج

" كما تشاؤون .. لولا بكاء ابنتي لما شرحت
ووضحت ما حصل مع مازن .. لكنها ستجد من
يقدرها ويكون من مقامها ومقام اهلها .."

اتسعت عينا عبد الرحمن وهو يتلقى هذه
الاهانة .. خاصة والاهانة تمس اهله وبحضور
رضا كبير العائلة .. اوشك ان يفقد اعصابه
ليرد فسبقه رضا ليقول بابتسامة هادئة

" رفع اللّه مقامكم ... نحن نستأذن .."

وقف رضا على قدميه وفعل عبد الرحمن المثل
وهو يكظم غيظه لانه لم يرد على والد
رانية بما يستحقه ..

لكنه لم يستطع الا ان يخلع حلقة الخطبة
الفضية من يده ووضعها على الطاولة
البيضاوية امامه ليقول لوالد رانية بقناع من
الهدوء والتحكم البارد

" كل هدايانا لابنتك هي لها .. لاحاجة
لتعيدوا شيئا .."

ثم تحرك رضا يتبعه عبد الرحمن والاب
مكانه على الاريكة الانيقة لم يكلف
نفسه لا الرد ولا حتى توديع ضيوف في بيته
بإيصالهم حتى الباب كما يفترض ان يفعل ..

في طريق العودة كان عبد الرحمن يقود
السيارة صامتا تماما يفكر بكل ما حصل
وتسبب فيه ..

تنهد لا شعوريا فسأله رضا الذي يجلس جواره

" لو لم تكتشف موضوع خطيبها مازن هل حقا كنت ستمضي قدما لالغاء الخطبة؟"

رد عبد الرحمن بنبرة قاطعة

" اجل .. رانية لاتناسبني رضا .. هي واهلها من بيئة مختلفة واهتمامات بعيدة عني .. هي نفسها هوائية متقلبة لا شيء مشترك بيننا.."

فعاود رضا السؤال " هل هذا هو السبب الوحيد ؟ انها لاتلائمك ولا تلائم طباعك ..؟ "

اخذ قلب عبد الرحمن يقرع في صدره وأنامله تتشبث بالمقود ليهمس من بين اسنانه

" لا .. لاني لم استطع ان اخدع نفسي اكثر.."

صمت رضا وابتسامة حانية تلوح على فمه فيقول بصوت رجولي أجش " في هذا انت تشبهني .. قلبك اختار من قوارير العطار ..."

زاد قرع قلبه وانفاسه تتحشرج ...

آآآه منك يا ابنة العطار .. حجر صوان تعثر بها قلبي وسقط صريعا لها...

بيت يونس العطار..غرفة المعيشة

التلفاز يعرض مسلسلا شيقاً لكن ابتهال فقدت اهتمامها به وتلك الفتاة التي يفترض ان تشاركها التفرج غائبة في عالم آخر ..!

عينا ابتهال كل بضع دقائق تنظران ناحية شذره فتشعر بمزيد من القلق ناحيتها ..

في الواقع كل فتيات هذا البيت بتن غريبات الاطوار !

رباب تكاد لاتفارق غرفتها ولا تأكل جيدا وتعمل ليل نهار في تصاميمها لدار الازياء ..

ورقية عابسة مشغولة البال وكلما سألتها ما بها أجابت انها قلقة بسبب امتحانات التخرج ..

اما شذره فهذه حالها عجيب..

تسرح على الدوام وتبدو مهمومة شاردة بمكنونات قلبها بعيدا ..

لم تستطع ان تصمت أكثر فتسألها مباشرة

" ما بك يا شذره ؟ اخبريني يا ابنتي ؟ لاتبدين بخير منذ فترة .."

بدت شذره كمن أخذ على حين غرّة فجاء ردها تلقائيا ودموعها تنهمر خلال لحظة

" انا .. انا مشتاقة لعمتي .."

ذابت عينا ابتهال حنانا لتقف على قدميها وتقترب بخطواتها من الاريكة التي تجلس عليها شذره فتنحني لتقبل اعلى رأسها وتقول برقة امومية وهي تمسح دموعها " يا الهي .. كل هذا البكاء لانك تريدين الذهاب لعمتك ؟ اذهبي حبيبتي وابقي عندها اسبوع والتقي بخالك ايضا وبنات خالـ...."

شهقت شذرة في بكائها وهي تقاطع كلام خالتها ابتهال وتقول

" لا خالتي .. لاستطيع .. لااستطيع .. انها لاتريد مني المبيت .. انا اعرف .. لا استطيع ان افرض وجودي .. انا .. انا اشعر اني ..."

زاد بكاؤها وتقطعت كلماتها وقلب ابتهال تقطع معها .. جلست جوارها واخذتها في حضنها تطبطب عليها وهي تخفي حنقها وغضبها من عمتها تلك لتقول بقرار

" اوقفي دموعك يا غالية ومن رائحة الغالي يونس العطار .. خالتك ابتهال ستأخذك بنفسها منذ اول النهار ونبيت ليلتنا بالعند عند عمتك ولترينى ان كانت تتجرأ على قول كلمة لك ثم نعود صباح اليوم التالي بعد ان تشبعي من رؤية كل احبابك واقاربك..."

اخذت شذره تمسح وجهها بحرج وهي ترفع رأسها عن صدر خالتها ابتهال فتقول بارتباك وتردد " لكن خالتي الطريق متعب .. كيف سنذهب .. لااريد ان .. اجعل رباب تقود كل تلك المسافة وسيارتها كثيرة العطل .."

طمأنتها ابتهال وهي ترد عليها بابتسامة

" سنذهب مع رضا .. لاتقلقي .. سيتفرغ لنا يوم الجمعة نخرج منذ الفجر ونعود صباح السبت... يبيت معنا في بيت عمتك ايضا .. عسى ان تخجل من نفسها وتتذكر افضال رضا على ولدها الذي ساعده ليسدد ديونه وافضال عمك الحاج يونس ايضا الذي كان يفتح بيته لهم كلما جاؤا للعاصمة ولم يرد لهم يوما طلبا .."

عضت شذره طارف شفتها السفلى وهي تقول بمزيد من الحرج " لكن خالتي انا اخجل من ابي جعفر .. انه عناء عليه .."

ربتت ابتهال على كتفها وهي تقول بثقة

" لاعليك انت .. رضا هذا قلب من ذهب.."

لم تقاوم شذره وهي ترمي بنفسها مرة اخرى على صدر خالتها تهمس بخجل " لا حرمني اللّه منك ومن حنانك خالتي .."

على السلم القريب من باب غرفة المعيشة المفتوح كانت رباب تقف في اخره تقريبا تتبسم وعيناها تترقرقان تأثرا بما تسمعه من كلام امها لشذرة ..

هذه الفتاة المسكينة حساسة للغاية وتشعر انها ليست في بيتها فلا تستطيع رباب لومها حقا.. كلما وضعت نفسها مكان شذرة تعرف جيدا كيف تشعر ...

كانت ستعاود الصعود حتى تترك لامها الاهتمام بشذرة فيروق لها صوت امها الحبيب وهي تقول

" هذا الوجه الجميل لم يخلق للبكاء .."

ابتسمت رباب وهي تصعد درجة بينما تسمع امها تقول ببشاشة في بادرة لتغيير الموضوع كما يبدو جلياً " هل علمت بآخر الاخبار ؟"

ثم تضحك امها مضيفة ورباب تصعد درجة اخرى

" اصبحت ككل الرقة احب النميمة .."

تسال شذرة بفضول رقيق " ماذا حصل ؟"

كانت قدم رباب ترتفع لدرجة جديدة عندما جاء اسمه على لسان امها لتتسمر قدمها مكانها

" عبد الرحمن فسخ خطبته على رانية .."

لم تشعر رباب الا بجسدها يخذلها بموجات ارتجاف وركبتاها تنثنيان فتجلس منهارة على الدرج ويدها ترتفع لفمها تكتم شهقتها بينما يصلها صوت شذرة المتعجب " حقا ؟! لماذا ؟"

القلب كان يختض بعنف والدموع تنسكب وامها ترد على شذرة بالقول الذي حمل نبرة دهشة خفيفة

" لااعلم .. بدرية اخبرتني قبل ساعة عبر الهاتف انهم ذهبوا لبيت الفتاة لانهاء كل شيء الليلة .."

تضغط رباب بيدها على فمها وموجات من البكاء تغرقها في بحور لا تنتهي وما زال الحوار قائما بين امها وشذرة في غرفة المعيشة .. فتضيف امها بنفس النبرة

" امر غريب في الواقع .. لااعرف لم بدرية اخبرتني بالذات ؟! ليس من طبعها ان تنقل الاخبار بهذه الطريقة !"

جسد رباب يختض والامواج تتحول للسعات نيران حارقة بينما شذرة تواصل هذرها

" هل تعلمين خالتي البارحة في عرس حفيدة الخالة بدرية لم أشعر ان الفتاة تناسب عبد الرحمن .. هناك .. شيء ما مفقود بينهما .. اشعر انها في وادي وعبد الرحمن في وادي اخر.. لا كيمياء حقيقية بينهما .."

فترد ابتهال موافقة " أظن عبد الرحمن تسرع قليلا ولم يعرفها اكثر .."

فتعلق شذرة " الحمد لله الامر انتهى قبل الزواج .." تؤكده ابتهال " اجل الحمد لله .."

وعلى الدرج .. ما زالت رباب هناك تحترق بكل انواع المشاعر التي تحرقها من قمة رأسها لاخمص قدميها ..

تضم ذراعيها حول جذعها وتعض شفتيها وهي تطبق فمها تماما وكأنها تكتم صرخات مدوية تتعالى في اعماقها ...

لاتعلم ما يحدث لها ..

لاتعلم .. لماذا تريد الصراخ والبكاء معاً ..

لا تعلم لم قلبها يخونها ويزغرد حد البكاء فرحا !! غبية .. غبية يا رباب !

غرفة رقية

تتحرك ذهابا وايابا في غرفتها بينما تعقد حاجبيها بشدة وهي تقول بصوت خافت عبر الهاتف " اقسم يا حارث ان فعلت فعلتك ليلة الامس مرة اخرى سـ...."

يأتيها صوت حارث متباهيا لامباليا

" توقفي عن هذرك وتهديداتك السخيفة ..

لقد رأيتِ بنفسك بالامس كيف اني افعل ما

اشاء ولن تمنعيني ابدا .."

تمتمت من بين اسنانها

" حارث ..اسمعني جيدا "

ليقاطعها قائلا بتبجح وغضب لايقل عن

غضبها " اسمعيني انت رقية .. لم تخلق بعد

فتاة تحاول اذلالي هكذا .. لقد دللتك

كثيرا ورضيت بعنادك وانت تمتنعين عن

التكلم معي بالهاتف لاسبوعين واكثر .. وفي

الجامعة تجيدين التهرب مني حتى

لاتكلميني على انفراد .. ليلة الامس اصبتني

بالجنون وانت تستمرين برفضك هذا وها قد

رأيت بأم عينيك النتيجة .."

تقبضت يد رقية لتسأل بتماسك هش

" اذن فلن تعتذر حتى عما فعلته ؟"

فيرد بنفس التبجح والغرور

" ولماذا اعتذر ؟ وهل فعلت شيئا خاطئا ؟!

أردت رؤيتك بالفستان الذي ارتديته للعرس

الذي تحضرينه .. فانتظرتك في حديقة

بيتكم بعد ان رفضتِ اخباري بمكان إقامة

العرس.."

فقدت اعصابها مرة اخرى لترد عليه بغضب

ناري مستعر

" فتهددنني انني ان لم اخرج اليك فإنك ستثير فضيحة لي ولعائلتي وتناديني بأعلى صوتك ..؟! "

رد بلا مبالاة " كنت سأفعلها صدقيني .."

لقد بدأ حارث يتعبها حقا .. لم تكن تتصور انه متهور كأحمق لهذه الدرجة ..

استعادت ثقتها بنفسها وادعت الهدوء والبارد والسيطرة المحكمة وهي تقول له باستخفاف

" وماذا استفدت بالامس .. لا شيء ! لم ترني الا بضع دقائق تشاجرتُ فيها معك "

فيرد باسلوبه المزعج المغرور " لايهمني .. المهم اني اجبرتك الخروج لترينني .."

ما زالت تحاول جاهدة لادعاء السيطرة والهدوء فتحذره بالقول " اسمع يا حارث .. بيت عائلتي خط احمر .. اياك ثم اياك ان تكررها .. هذه المرة مرت على خير ..."

فيضحك بصوت مرتفع مغيظ وهي يقول بصوت أجش متلاعب

" دوووووما ستمر على خير .. بصراحة اعجبتني رؤيتك وانت تكتمين صوتك والغضب يتأجج منك يكاد ينير ظلام حديقتكم "

كانت رقية تحدق في بيت الدمى .. البيت الخشبي الذي اهداه لها والدها وهي طفلة ..

انه بيتها الذي تعشقه ولا احد غيرها يعلم بكل احلامها السرية فيه ...

سكينة هبطت عليها فتقول وعيناها لاتفارقان بيت الدمى

" هل نتكلم جديا يا حارث ؟"

فيتساءل ببعض النزق " ماذا تريدين ؟"

ردت وعيناها الزرقاوان تلمعان بالصلابة الحديدية " انا سأتخرج خلال ثلاثة اشهر .. انها اكثر من كافية لتجد طريقة وتفاتح والدك جديا حول زواجنا .. والا .. كل واحد منا في طريق .."

كانت تتحضر لعربدة سخطه وغضبه لكنها حقا تفاجأت بصوته الغريب وهو يعبر عن غضبه باسلوب مختلف فاض التهديد المباشر منه و بدا يعنيه تماما

" احلمي .. رقية .. احلمي اننا سنتفارق .. افضل ان اقتلك على ان اتركك لغيري .."

عينا رقية ما زالتا تتعلقان ببيت الدمى وللحظة .. للحظة خاطفة غريبة تمنت لو والدها ما زال على قيد الحياة ...

بعد يومين ...وقت الظهيرة.. حي الشيخ..

تجلس على الارض ويدها تهش الذباب عفويا لتبعده عن الخضرة التي تفترشها على قطعة قماش امامها ...

ساهمة في ملكوت اللّه ولم تعد تهتم لذلك الصبي الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة وقد كلفه تحسين ان يتبعها كظلها ...

والفتى يطيع طاعة عمياء حتى يكاد يَعُد عليها انفاسها ليسجلها ويخبر بها تحسين ...

الايام تمر والحال لايتغير .. كل ما يتغير هو اقتراب موعد ذبحها بزواجها من تحسين والذي بات حتميا ..

لم تستطع ان تخطو خطوة واحدة خارج الحي.. انها محاصرة تماما وممنوعة من المغادرة ..

اهل الحي كل واحد منهم في حاله لكنهم باتوا يتجنبونها بشكل واضح ..

دمعة ترقرقت في عينيها وفي تهمس في سرها

" سامحني ابي .. لم أصن سمعتك وقد باتت على كل لسان .. نظراتهم لي تكاد توصمني ان تحسين نال غرضه حتى قبل الزواج ! "

أجفلت وسقطت دمعتها على خدها وهي تشعر بخيال يجثم فوق رأسها ...

رفعت ناظريها بقلب هلع لتراه ..

وجهه منفر بتلك التعابير المخيفة ...

نظراته كلها اشتهاء وقح وكأنها جاريته او ملك يمينه ..

انحنى تحسين ليجلس القرفصاء ومد يده يقلب في الخضرة باستهانة وهو يقول ساخرا

" عودي للبيت .. هذه الخضرة ذبلت ولم يعد هناك من يرغب بشرائها ..."

التفت برأسه وعيناه تهاجمان ما ظهر من عينيها يراقب دمعة يتمها للحظات قبل ان يقول بصوت أجش

" تحركي هيا .. وسألحق بخطواتك ..."

أطاعته وهي تلملم حاجتها بارتباك ورعب ..

منذ ذلك اليوم الذي كشف عنها عباءتها في بيتها لم يتعرض لها مرة اخرى ..

يراقبها من بعيد .. يلقي اليها تحية عابرة تلوح فيها سخرية واضحة لكن لا اكثر ..

احيانا يمر بها وهي في جلستها هذه لتكسب قوتها اليومي فيأخذ منها بضع حبات من الخضار ثم يرمي لها المال ويمضي ...

لقد اعتادت وجوده في حياتها لكنها لم تعتد فكرة الاستسلام للزواج منه ..

ما زالت تبحث عن اي فرصة لتهرب ..

فقط لو يغفل عنها ..

فقط لو عيونه المراقبة تهملها ...

ستهرب .. وستفعل المستحيل لتحقق غايتها بما يمنع قدرته على الزواج منها بالاكراه ..

أجل .. فكرت طويلا وليس هناك حل اخر ..

(لن يقربك احد لا في حرام ولا في حلال)

هذا ما وعدها به ... وينفذه بحذافيره ..

لا احد يتعرض لها في حرام ولا احد من اهل هذا الحي البائس سيقربها في طلب الحلال ..

لكنها اذا تزوجت من رجل اخر من خارج الحي

فأن تحسين لن يستطيع اجبارها على الزواج

منه ..

وسترحل تماما من هنا وتعيش بمفردها في

الحي الصناعي ..

فقط تحتاج لفرصة حتى تحقق ما تخطط له..

كانت تسير والافكار تتلاطم في رأسها

منشغلة بتلك الافكار عن نظرات تحسين

خلفها وهو يكاد يجن ليشق عباءتها عنها

ويمتلكها في التو واللحظة ..

عند باب شقتها ناداها تحسين بصوت مرتعش

من شدة الشوق الذي طال

" حسناء .. توقفي ..."

ابتلعت ريقها وهي تلتفت اليه وتهمس بخفوت

الخوف " نعم .."

اقترب منها جدا ورائحته المألوفة تحاوطها

ليقول بملامحه تلك " خلال .. ثلاث اسابيع ..

سنتزوج .. لن أطيق اكثر .. "

تتشبث بطارف عباءتها وهي ترد بارتجاف

" لكن .. لكن .. انا .. لست مستعدة.."

هدر فيها وهو يضرب بقبضته على الباب خلفها

" لا تعارضيني ابدا .. هل فهمت ...؟"

فاض كيلها من كل هذا الظلم فصرخت به

بما باتت تعرفه وتفوح رائحته في كل مكان

من الحي

" لماذا تريد الزواج مني ؟! اذا كنت تريد امرأة فأنت كل يوم في احضان تلك الفاسقة الفاجرة حمدية وكل الحي يعرف هذا .. اتركني في حالي .. اتركني .."

تأوهت وجعاً وقبضته الوحشية تمسك بشعرها المربوط من الخلف عبر قماش العباءة ليهز رأسها بنفس الشراسة والوحشية وهو يصرخ " نعم انا كل ليلة مع حمدية .. وغير حمدية .. لا احد يملك ان يمنعني .. حتى انت حسناء لن تمنعيني ان اعاشر اي امرأة غيرك .. فإياك ان تعيدي هذا الكلام مرة اخرى .."

دموعها تنسكب وهي تشكو لله بصمت حظها الاسود الذي رمى تحسين في طريقها ..

سمعت صوته قريبا من اذنها يكاد يحرق قماش العباءة وهو يهمس بصوت مرتعش حار

" والدك كان يعلم اني اريدك .. لذلك ابعدني عنه و... عنك .. انت .. انت لست كحمدية .. لست كأي امرأة .. منذ مراهقتي وانا احلم بك .. "

اخذت تضربه في صدره ليبتعد بينما هو يلثم بشفتيه قماش العباءة ليقول بنبرة وَلَه

" حتى الآن .. احلم بك .. "

اخذت تضربه بهستيرية اكبر وهي تشعره يلتصق بجسده فيها .. يكاد يفقد سيطرته وهي تنادي (يا اللّه) ...

وكأن ملكاً صالحا أتى لينقذها وأبعد عنها تحسين في لحظة ..

لاهثا وعيناه حمراوتان بالرغبة ...

لكنه حقاً ابتعد بلا سبب مفهوم ..!

واستدار ورحل دون ان يقول كلمة اخرى ..

تلطم على خدها وهي تدخل البيت ..

تلطم وتبكي وتولول ..

" ماذا فعلت لاستحق هذا يا اللّه .. انقذني يا اللّه .. لماذا يحصل لي هذا ؟ "

تبكي وتبكي على فرشة ابيها التي تنام عليها ولا تعلم ماذا يخبئ لها الغد بعد ...

عند غروب الشمس بيت الصائغ ..

ادخل عبد الرحمن سيارته للمرآب فاطفأها واطفأ انوارها وهو يضحك لمزاح صديقه رعد عبر الهاتف ...

حتى جاء صوت رعد يشاكسه بالقول

" مضى وقت طويل لم اسمع ضحتك مرتاحة هكذا ... لااصدق ان الحلوى السويسرية كانت ثقيلة على معدتك لهذه الدرجة .."

ما زالت الضحكة عالقة بروح عبد الرحمن تأبى ان تفارقه ...

ما زال يشعر بفرح عجيب يبقيه الليل ساهرا محدقا في شباك (قرفته) ... محبوبته ..

معشوقته .. التي لم يرها منذ عرس حفيدة الخالة بدرية ..

تهرب منه ؟ لا يهم .. الايام بينهما طويلة ..

يقسم بالله سيجعلها طويلة جدا لاتنتهي ..

شاكسه رعد بالمزيد فيضيف مصححاً جملته السابقة " ام ربما ثقيلة على ... قلبك ..؟ "

أسبل عبد الرحمن اهدابه وهو يعيد رأسه للخلف وضوء الغروب يمنح مزاجه مزيدا من العاطفة .. قال اخيرا لصديقه " لاتذكرها مرة اخرى رعد .. لقد ذهبت لحال سبيلها وليرزقها الله بمن هو افضل مني .. أشفقت عليها عندما علمت انها قدمت أجازة مفتوحة حتى نهاية العام الدراسي .. "

فيبدي رعد بعض الدهشة وهو يقول " ما هذا التسامح ؟! أكاد لا اعرفك يا ابن الصائغ .. هل انت هو حقا صديقي ذو القلب الحقود ...؟"

ضحك عبد الرحمن مرة اخرى ليمازحه مهددا " اغلق هذا الموضوع والا اغلقت الخط في وجهك.. اخبرني فقط ..متى ستعود للوطن ؟"

رد رعد بصوت جهوري " صيفاااا ...لأجرب الشواء حيا بعد طول تجمد .."

يضحك عبد الرحمن قائلا بسخرية محببة

" ستصدم خلايا عقلك كما خلايا جلدك ولن نعرف ايهما يجب ان نعالج اولا .."

بصوت جذاب سأل رعد " هل ... اسأل ؟"

لم يشك عبد الرحمن للحظة في ماهية سؤاله فيكتفي بالرد " لا .."

فيعاود رعد بإلحاح فضولي " فقط اسمها ..."

يأتي رد عبد الرحمن اكثر حزما " قلت لا .."

فيهدده رعد بالقول الساخر " سأغضبك وانا اناديها (حلزونتك السرية) .."

ليرد عبد الرحمن له التهديد بوعد

" وسأكسر اسنانك حالما أراك لانك عاودت نطقها .."

ضحك رعد بخفة ثم ناداه يسأل سؤالا صريحا معلوما رغم غموضه " عبد الرحمن .. ماذا ستفعل ؟"

قلبه سينفصل عن شرايينه واوردته ..

قلبه العاشق لألوانها يريد التحرر منه ..

آآآاه ... اشتاق لها ولعينيها ولألوانها ولشامتها التي جننته ..

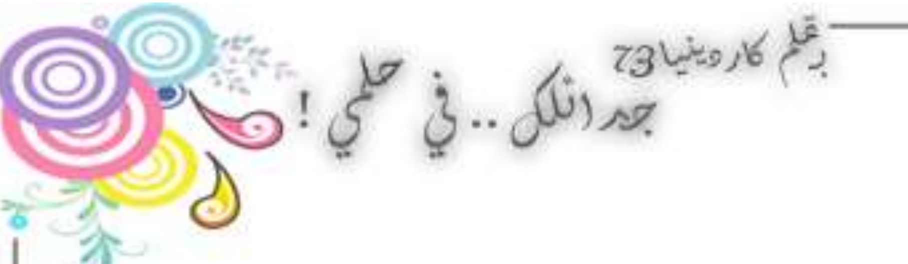
اشتاق لروحها وضحكاتها التي تزرع حقولا من السعادة والبهجة في صدره ...

اشتاق واشتاق .. ولتضرب رأسها في أقرب حائط ان لم ترض بكل هذا الاشتياق ...

رد اخيرا مدعيا الجدية والمعنى مزدوج

" لم يعد هناك الا فعل واحد افعله .."

فيسأل رعد بفضول " ما هو ..؟ "



ليرد عبد الرحمن ضاحكا

" ان اغلق الخط في وجهك .."

ثم اغلقه فعلا وهي يغرق بالضحك ..



الفصل الثاني عشر

بيت رضا الصائغ .. في نفس الوقت ..

تشرب حبيبة عصيرها وهي تناظر الساعة وتسأل " اين ذهب رضا مع يحيى ؟"

ردت اسيا وهي تضفر شعرها " ذهبا عند محسن .. حتى حذيفة ذهب معهما.."

ضحكت حبيبة بخفة وهي تتلاعب بشعرها المربوط على هيئة ذيل حصان وتقول بصوت خافت

" آل الصائغ يجتمعون لنتف ريش المغرور حامد الطائي وزوجته الطاووس .. ويتهمون النساء بحبهم للنميمة ؟!"

ضحكت اسيا لترتفع ضحكات الاطفال من الغرفة اخر الممر .. تبسمت وهي تتخيل نوعية اللعب المجنون الذي تتشاركه رباب مع ولديها جعفر وكاظم والمتمردة سكينة ...

سألت حبيبة فجأة وبصوت هامس وهي تشير برأسها ناحية باب الغرفة المغلق

" لقد علمت أليس كذلك ؟"

ردت اسيا وهي تعرف عم تسأل حبيبة

" مؤكد .. لكنها لم تقل شيئا.."

فسألت حبيبة بأمل

" الا ترين شحوب وجهها قد تلاشى ؟ انها تتهرب مني في العمل لكني لست بعمياء .. "

تنهدت اسيا لتقول برقة

" عذاب الغيرة كان يؤرقها لاسابيع .."

فغمزت حبيبة وهي تسأل بنبرة تآمرية " هل تظنين الوقت حان لنختبر نظرية العريس (الوهمي) كامل الاوصاف ؟"

فردت اسيا " لاتتعجلي حبيبة .. اتركيها للاسبوع المقبل حتى تستقر الامور اكثر ..."

عندها قالت حبيبة بارتياح " في كل الاحوال اعترف اني سعيدة جدا بما حصل بين عبد الرحمن ورانية السمجة تلك .. على الاقل رباب لم تعد تعاني من رؤيته يتزوج .. "

اقتربت اسيا من حبيبة لتخبرها بصوت خافت بما لاحظته سابقا

" هل تعلمين انا شعرت منذ اليوم الاول الذي ذهبنا فيه لخطبة رانية ان والديها يخفيان امراً ..؟"

هزت حبيبة رأسها وهي تقول بنفس الخفوت وعيناها على الباب المغلق حيث مصدر الضحك " يحيى اخبرني ان محسن متضايق جدا لانه لم يسأل بشكل مستفيض اكثر .. لكن كونهم لم يعودوا الوطن الا منذ فترة قصيرة نسبيا فلم يكن هناك الكثير ليعرفوه .. ولم يجد محسن داعيا لمزيد من الاسئلة في البلد الذي عمل فيه والدها كدبلوماسي .."

عبرت اسيا عابسة

" انا لاحب الكذب والتحايل .. لو انهم اخبروا عبد الرحمن ان ابنتهم سبق لها الخطبة وعقد القران كان افضل .."

ردت حبيبة وهي ترفع حاجبا واحدا

" انت لاتعرفين كل الحكاية .. يحيى اخبرني بالكثير مما توصلوا اليه .. هذا الذي كانت رانية مخطوبة له سابقا جمعتهما علاقة حب جارفة والفتاة اثارت فضيحة لابيها وهي تهدده انها ستتزوجه رغما عنه لان الاب رفض الزواج نظرا لان الشاب من عائلة متوسطة تعيش حياة عادية في بلد غريب .."

صمتت اسيا ولم تعقب بينما تكمل حبيبة

" تمت الخطبة وعقد القران والوالدان غير راضيين ثم يبدو انهما استطاعا بطريقة ما التأثير في ابنتهما لتغير مشاعرها نحوه او ربما رانية نفسها لم تعد تشعر بنفس العاطفة فوافقتهما في خطة للمماطلة وتحججا ان ابنتهما تعاني من ضغط عصبي وقد نصحهما الطبيب بالتخفيف عنها وتغيير مكانها فقرروا العودة للوطن .."

قالت اسيا عندها " كفى حبيبة .. لاحب ان نخوض في اسرار بيوت الناس .. فليهدِهم اللّه جميعا.."

هزت حبيبة كتفيها ثم اخذت ترتشف المتبقى عصيرها لتقول فجأة

" هل تعلمين اليوم رأيت مهند يمشي في الشارع التجاري .. "

ارتفع حاجبا اسيا وهي تتساءل " حقا ؟"

فترد حبيبة بلا مبالاة " نعم .. كنت في داخل محل للطباعة اتفق مع صاحبها من اجل الاعلان الجديد لدار العطار للازياء .. ومر هو من امامي ودخل محل الالعاب المجاور .."

صمتت لحظة وكأنها تستعيد شريطا قديما من الذكريات لتضيف ببساطة

" مضت سنوات لم أره .. بدا مختلفا .. انضج بالتأكيد لكن فيه شيء غريب .."

سألتها اسيا " هل رآك ؟ "

ردت حبيبة " لا .. كانت معه طفلة صغيرة لاتتعد العامان او ربما اكبر بقليل .. تشبهه.. يحملها على صدره وهو يدخل بها محل الألعاب.. اظنها ابنته .."

انفتح باب الغرفة فجأة لتخرج منه رباب ضاحكة والاطفال حولها يتعلقون بجلبابها البدوي الانيق ويكادون ينهارون في الضحك..

اقتربت رباب من اختيها وهي تقول ببشاشة

" انا عائدة للبيت وسآخذ سكينة معي .."

حركت حبيبة حاجبيها بإغاظة قائلة بتشكك

" لااظنها ستفضلك على جعفر وكاظم .."

عبست رباب وهي تحني رأسها لسكينة

فتسألها وهي تشير بسبابتها لجعفر وكاظم

" هل تأتين معي ام تفضلين رفقة الشقيين ؟"

تعبس سكينة مثلها ويبدو عليها التفكير

للحظات قبل ان تقرر وهي تتخلى عن التشبث

بجلباب رباب وتمسك بذراع جعفر وهي تقول

" سأظل مع جعفر .."

انفجرت اسيا وحبيبة بالضحك بينما تخرج

رباب لسانها لسكينة وهي تنعتها بالقول

" خائنة .."

داعبتها حبيبة بالقول المبطن

" لقد اخبرتك .. سحر الصائغ لايقاوم .."

احمر خدا رباب وابتلعت ريقها ثم تحركت

بخطوات متعثرة وهي تلتقط حجابها من على

الاريكة تلبسه وهي تقول بتلعثم واضح

" حسن .. انا ذاهبة .. لدي عمل والشمس

غربت .. تـ... تصبحون .. على خير ..."

تحركت بخطى متعجلة دون ان تسمح لاحد

باعتراض ذهابها وبينما تغلق باب شقة رضا

وصلتها همسة من حبيبة " جبانة ..."

كان يغلق الهاتف مع رعد عندما سمع صوت

باب شقة رضا يفتح ثم يغلق ...

هاتف ناداه وضخ الدم لقلبه فيمنحه مزيدا من

الرغبة للانفصال بل .. الطيران ...

لايعلم ما هو الحدس الذي اخبره انها هي ..

انتظر بقلبه الطائر ذاك حتى وصلت

لمنتصف الدرج الملتوي ليفتح باب سيارته

ويتسحب بخفة منه دون ان يصدر صوتا ..

كانت في نهاية السلم والغروب يلقي بظلاله

على جلبابها فيشع اللون الاحمر لخيوط

النقوش الرائعة فوق القماش الاسود ..

باغتها وهو يقف بوجهها مباشرة قائلا بصوت

مرتعش أجش مبحوح ضاحك

" مساء .. الخير ..."

ارتج جسدها للخلف من إثر المفاجأة فارتطم

رأسها بحافة السور الملتوي ..

اخذت تتوجع وهي تدلك رأسها وترتجف

بوضوح في نفس الوقت..

كان الامر فوق طاقتها فلم تستطع حتى قول

شيء لتتحرك تريد الهرب منه عندما وضع

يده على السور الحديدي قرب يدها ويسد

الطريق بجسده و....انفاسه !

تطرق بوجهها لاتنظر اليه بينما يرتجف

صوتها كارتجاف قلبها وهي تهمس بجزع

" لو ..سمحت ..عبد الرحمن .. دعني.. امر .."

همسة حرّاقة منه " لا ..."

هتفت به بهمس مرتبك حانق ودون ان تتطلع

اليه " عبد الرحمن ! ابتعد .."

تنهيدة طويلة جدا خرجت من صدره ..

فتعاود الهمس بتوسل " ابتعد ..."

لايعرف كيف انفصل القلب وكان فيها !

هكذا ببساطة قلبه فيها ..

وهل اللسان يجرؤ ان يصمت بعدها ؟!

" احبك ..."

شهقت بعنف وهي ترفع عينين مصدومتين

ويدها فوق فمها تحدق بجمود في عبد الرحمن

عيناه كقلبه ولسانه .. كل شيء فيه انفصل

ليكون فيها ولها ...

قال ويده تقترب باشتياق من يدها على السور

" اخيرا حصلت على ردة فعل منفلتة .."

صدرها يعلو ويهبط وهي على نفس الحالة من

الجمود بينما يهذر بكل ما يعتمل في قلبه

الطائر " التحرر ... آه من التحرر ... صخر ثقيل

تدحرج لعمق واد سحيق ولن يرتد مرة اخرى

ليجثم فوق صدري .."

تمتمت بضياع " عبد .. الرحمن .."

عاود النطق والبوح والتحرر بالمزيد

" احبك ... وهذا الفعل الوحيد الذي سأفعله

منذ اليوم .. ان .. احبك .."

سبابته ترتفع تكاد تلامس ظاهر يدها

المتقلصة حول السور وهو يهمس ضاحكا

" انا معلول بك ولا شفاء منك الا بك .."

يميل نحوها فيكاد نفس يخرج من صدره يبتلع نفسا خارجا من صدرها .. اذناه تطنان في تلك الظلمة الهادئة وهو يهمس بضحكات عاشق متوله تحرر للتو من كل قيوده

" انتهى ... آمنت .. انا وانت مربوطان هكذا .. لاصق ملتصق بك .. سأظل لآخر عمرنا هكذا .. جارك الذي يلاحقك في كل خطوة تخطينها ويمنع عنك اي معجب طامع .. سأظل ألاحقك بتحكماتي الغيورة رضيتِ بها ام لم ترضي .. يبيض شعرك دون ان أراه وهو مخفي عني بحجابك وتتساقط اسناني فيتشوه منطق الحروف من فمي دون ان ارتدع لأحنق منك قائلا بتوبيخ (لون فثتانك لايثلح الا لمناثبات نثائية...لاتلبثيه مرة اخرى ..) .."

ترتجف بكليتها امامه وقلبه يرتجف مع كل ارتجافة منها ..

يده تحركت حتى أسرت يدها هامسا بأنفاس ملتاعة " احبك يا حجر الصوان .."

دفعته بعنف وتحركت بهستيرية فارتطمت ساقها بالحافة لتتوجع بارتجاف ثم اوشكت ان تقع فيمسكها من مرفقها هامسا

" اهدئي يا قرفة.. اقسم بالله انت تلسعين ما تبقي لي من عقلي .."

تدفعه مرة فيتأرجح ضاحكا ويتركها تهرب اخيرا ..

صدره ينتفض وهو يتحرك ليلاحق خطواتها
الهاربة حتى رآها تعبر الشارع ودخلت بيتهم
وعيناه لاتفلتانها ليهمس متنهدا

" اقسم بالله .. احبك ..."

بيت عائلة جوري...

اطمأنت ان والدها قد نام لتتحرك على مهل
وتغادر غرفته ... وفي طريقها لغرفتها في
الطابق العلوي رأت امها تقف عند السلم ..

كتمت تنهيدتها وهي تمضي قدما ناحية
السلم تحاول ان تقنع نفسها ان أمها ستصمت
هذه المرة ايضا ولن تلقي بالسؤال ..

حالما وضعت يدها على بداية سور السلم
سمعت امها تقول في ظهرها " ألن تخبريني ما
يحصل بينك وبين زوجك ؟ الا ترين ان
الوقت حان لأعرف ما يجري ..؟ "

اغمضت جوري عينيها للحظة قبل ان تلتفت
لامها وهي تقول بهدوء

" انا اتدبر اموري امي .. لاتقلقي .."

لكن الأم أصرت على المناقشة وهي تقول
بقلق حقيقي " لكني لا استطيع منع نفسي ..
انت ام ايضا يا جوري فاشعري بي يا ابنتي ..
اخواك ايضا بدءا يقلقان ولايكفان عن
الاسئلة ولم اعد استطيع اقناعهما ان بقاءك
هنا لاجل قلقك على والدك .."

ردت جوري بكبرياء ويدها تتقلص على حافة سور السلم " اخواي يعلمان من هي جوري .. لكن يبدو انهما نسيا فذكريهما من أكون أمي حتى يطمئنا .."

عادت جوري لوجهتها ناحية الصعود عندما امسكت امها بكفها وهي تهمس لها بقلب ام يشعر بها رغم الجهل بالتفاصيل

" جوري ... انت تذبلين ..."

التفتت جوري برأسها لتبتسم لامها ابتسامة غير عادية وهي تقول لها " لكني لن أموت امي .. الذبول هو مجرد مرحلة وتمر .. كخريف مر بي ... اسقط اوراقي لكن ستنمو اوراق جديدة الربيع المقبل .."

تشبثت يد الام بيد ابنتها لتقول بنبرة امومية حازمة دوما كانت جوري مبهورة بها منذ طفولتها فتقول " جوري .. دوما احببت شخصيتك القوية وقدرتك على قيادة الامور بذكاء .. لكن ليس معنى هذا ان لاتظهري احساسك بالضعف وتطلبي الدعم منا .."

ارتعشت شفتا جوري رغما عنها فتوجع قلب الام وهي تقول لها بحنان " انت تحبينه ..."

تصلبت شفتا جوري في لحظة لتسحب يدها من تحت يد امها وهي تقول بهدوء وانغلاق تام

" تصبحين على خير امي .. لن اتناول العشاء .. سأنتظر عودة حبيبة لآخذ حماما معها وأنام .."

من فضلك دعيها تصعد الي مباشرة حالما يوصلها جدها او .. ابوها .."

هذه المرة اكملت طريقها بتصميم وهي تتسلق درجات السلم تاركة الام بمفردها في الاسفل تنظر اليها بقلق مضاعف ...

شامخة مرفوعة الهامة لاتعرف معني الانهيار مهما حصل بينما يتردد صدى كلمات امها الاخيرة في عقلها ...

وكأنها ترد عليها ...

تحبه ؟ نعم .. تحبه ...

هذا هو الخريف الذي مر بها ..

لكنها ابدا لن توقف عمرها على فصل واحد..

بعد ساعة كانت مستريحة في السرير ظهرها مستند للوسادات بينما تقرأ في كتاب فلسفي..

رن هاتفها النقال فالتقطته لترى اسم ابي فاضل ... عيناها لمحتا الساعة تشير قرابة التاسعة والنصف فاستغربت بعض الشيء من اتصاله ... فتحت الخط وهي تلقي التحية فيأتيها صوته بتلك النبرة التي اعتادتها

" مرحبا ام حبيبة ..اعتذر للاتصال المتأخر"

فترد عليه بأدب " اهلا ابا فاضل .. لا داعي للاعتذار بل انا من تعتذر للتأخر في العمل لكنه بات جاهزا و غدا سأجد من يوصله

اليك .. اعذرني انا مرهقة قليلا في مراعاة والدي وسيارتي في التصليح .."

وكأنه تردد للحظة قبل ان يقول

" اسمحي لي ... سأحضر بنفسي .."

حدسها يدفعها لتردد من نوع آخر فتتلكأ الكلمة على لسانها " لكن ..."

فيحرجها عباس بالقول " ألن ترحبي بي كضيف يريد زيارة والدك ويطمئن عليه؟"

عندها قالت بهدوء " لا على العكس .. اهلا وسهلا بك في اي وقت .."

فسارع لانهاء الحوار وكأنه يخاف ان تتراجع ليقول " اذن غدا يا ام حبيبة ... سآتي في حدود الساعة الحادية عشرة صباحا .."

كانت تحدق في الهاتف بعد ان أنهت المكالمة .. الافكار اخذت تتشكل بهيئة مختلفة وتتزاحم في رأسها وكل فكرة تقاتل فكرة اخرى ...

انفتح باب غرفتها فجأة لتأتيها حبيبة راكضة وهي تحمل علبة كارتونية ملونة لاحد الالعاب ...

قفزت حبيبة مع (حمولتها) الكبيرة نسبيا وهي تغرق وجهها في حضن امها وتنادي

" ماما ..."

تحتضنها جوري وترفع وجهها الحبيب لتقبله عشرات القبل تهمس لها بحب فياض

" حبيبة ماما ... اشتقت لك .."

تصدر العلبة الملونة الاصوات فتنظر اليها جوري لترى الصور المطبوعة على العلبة فتتعرف على فحواها و بنبرة حلوة قالت لابنتها " هل بابا اشترى لك بيت قطر الندى والاقزام السبعة ؟"

تهز حبيبة رأسها وهي تتلكأ في الكلام ..

صغيرتها تفهم كل ما يقال لها بشكل مؤكد لكنها على غير عادة البنات في سنها لاتتكلم كثيرا وقد حان لجوري ان تهتم اكثر لتشجعها تتكلم ...

صحيح ما زالت بعمر العامين لكنها تريدها منطلقة اكثر لتعبر عن نفسها ..

رفعت جسد صغيرتها بكفيها لتجلسها فوق حجرها فتميل الصغيرة طواعيا وتضع رأسها على صدر امها وما زالت تحتضن العلبة بين ذراعيها وكأنها تخاف ان تختفي منها فجأة ..

ضحكت جوري من تشبث ابنتها بلعبتها ثم قبلت اعلى رأسها وهي تهمس لها بحلاوة

" حسن يا قطر الندى اقزامك لن يهربوا منك.. ما رأيك ان نأخذ حماما ساخنا قبل نشاركهم النوم في هذا السرير الكبير ؟ "

بدت طفلتها مستكينة تماما حتى ذراعيها تراختا فهمست جوري وهي تمد يدها لترفع وجه ابنتها لها

" قطرتي الندية .. هل غفوتِ ؟"

ذابت نظرات جوري حبا وحنانا وهي تنظر لوجه ابنتها النائم ..

صغيرتها كانت احد اهدافها لتدافع عن حقها في مهند .. صغيرتها كانت وقودها لتظل مسيطرة ولا تستسلم وتنهار ...

احتضنتها اكثر بين ذراعيها تتشممها وتبحث فيها رغم ارادتها عن .... رائحته هو ..

تلامس محياها النائم فترتعش يدها وهي تتذكر محياه ...

يا الله كم تشبهه طفلته ....!

هو كله بكل جاذبيته وحرارته كرجل فيه طفولة شقية عنيدة تمس عمق انوثتها ...

عندما يمرض يتحول لذاك الطفل المتشبث الذي لا يريد الا الاحتضان والتدلل ...

عندما اصابته الحمى الشديدة قبل قرابة العامين او اقل لازمته جوري لاتفارق سريره تحتضنه ..تقبل صفحة وجهه الحار من أثر تلك الحمى .. تهمس له بكل مكنونات قلبها من عشق وهيام تحمله نحوه ...

لاتعرف لما فقدت سيطرتها تلك الليلة وهي تراه ضعيفا هكذا متشبثا بجسدها لايريدها ان تفارقه..

فاض قلبها وباح لسانها بكل شيء ...

حتى انه فقد سيطرته وقد ثارت مشاعره

ليقيم علاقة حميمة معها وهو بتلك الحالة

وكان يهمس باسمها طوال الوقت وكأنه يفهم

ويعيش احساسها بالهيام والعشق ...

لكن ما ان رحلت الحمى في اليوم التالي حتى

تبخرت كلماتها وتبخر كل شيء ..

عاد لما كان عليه ..

ثم من بضع كلمات قالها عن كونه لايذكر

شيئا من ليلته الا الحمى المستعرة بجسده

ادركت انه لم يسمعها تناجيه بعشقها طوال

ساعات الليل .. وانه لايتذكر لحظاتهما

الحميمة تلك ..

ادركت ان جسده انفعل تلقائيا معها دون ان

تنفعل روحه ...

كانت احدى معاركها الكثيرة الخاسرة معه..

ورغم كل الخسارات كانت صامدة ..

هي امرأة المعارك التي لاتعرف اليأس ..

انها امرأة الحرب المنتصرة مهما تعددت

المعارك الخاسرة خلال تلك الحرب ..

يدها ارتفعت لتلامس بارتعاش شفتيها ...

تذكرت كيف قبلها بتملك قبل ايام عند

باب مرآب بيت عائلتها .. غير آبه بشيء

كعادته .. عندما يريد شيئا لايأبه لما يفكر

به الاخرون ...

أرخت يدها لجانبها ولم تتنازل دمعتها لتسيل على خدها بينما تهمس جوري بتصلب وارادة

" فات الأوان يا مهند ... فات الأوان .. كثرة المعارك الخاسرة اوصلتني لنهاية حرب طويلة .. خاسرة ايضا ..."

ثم قست عيناها واحتدت حلكتهما وهي تضيف " لكني سأعرف كيف اكبدك الخسائر لاخرج بها ... منتصرة ..."

اليوم التالي .. الثلاثاء ..

تتمطى وهي تنزل الدرج شعرها مشعث يحتاج للتمشيط لكنها لم تفعل !

فقط غسلت وجهها من اثر النوم العميق وابتسامة ذائبة تتراقص على شفتيها ...

(لون فتتانك لايثلج الا لمناثبات نثائية...لاتلبثيه مرة اخرى ..)

تضحك بخفوت وهي تتذكر كل ما قاله لها بالامس ..

لقد جن رسميا .. وهي جنت معه لتشعر كما تشعر الآن ... انها تعوم في الغيوم ...

لقد نامت حالما عادت للبيت بقلبها المرتجف ككل خلية في جسدها ..

لم تكن تستطيع مواجهة كل هذا دفعة واحدة فهربت للنوم لتجده هناك.. في احلامها ... ينتظرها ..

وآآآه من الاحلام .. انها حرية ان نفعل كل شيء .. ان نحب دون ان نخاف .. ان نطير ...

لكنه سيبقى مجرد حلم ..

حلم تتنفس فيه حرية الامان ..

الحلم هو كل تملك من شعور الأمان ..

أحمرت وجنتاها وهي تستعيد كلماته كلها مرة تلو الاخرى ... وتخيلت قد مضت السنون وهو يناكفها ويلاحقها في طرقات الحي بتحكماته..

هبطت درجات السلم فتهبط معنوياتها مع كل درجة ... وكأنها تعود من ارض الاحلام الآمنة التي تفيض سعادة لتعود للواقع حيث .. لا أمان..

ابتلعت ريقها بصعوبة وشعور قاتم يتسلل بخبث ليمحو كل أثر لاحلامها تلك ..

دخلت المطبخ تبحث عن امها ...

هذا الصباح رفضت ان تصحو باكرا وقالت لرقية ان تجد وسيلة اخرى توصلها للجامعة لانها لن تذهب لدار الازياء هذا اليوم ولعجبها رقية لم تعترض كعادتها وتتذمر فقد بدت غارقة بافكارها هي الاخرى...

عبست رباب وهي لا تجد امها !

فتذكرت انها ربما تعيد ترتيب المخزن الخلفي كما اخبرتها بالامس انها تنوي ان تفعل...

نظرت لملابسها وهي تفكر ان كان عليها ارتداء الجينز وبلوزة أخف تصلح للعمل في المخزن ..

ما زالت بسروالها القطني الازرق وفوقه بلوزة بيتيه قديمة بلون رمادي ... انها ملابسها المريحة (المريعة كما تصفها رقية) التي تحب النوم فيها ..

تحركت لتغادر المطبخ وتتجه نحو باب خلفي للبيت حيث حديقة صغيرة شبه مهملة وغرفة صغيرة تستخدمها امها كمخزن للكراكيب..

هواء آذار بارد منعش ... لكنه لايمرض .. انه برد ورد الباقلاء كما كان يسميه ابو رفعت رحمه الله .. جارهم في اخر الشارع ..

كم كانت تحبه منذ كانت طفلة وتذهب اليه ليساعدها في نفخ اطارات دراجتها الهوائية ..

وكم حزنت لوفاته قبل عامين ..

احاطت جذعها بذراعيها وجسدها يقشعر من البرودة فتتمتم في فكاهة سرية

" على ضمانتك يا عم ابو رفعت .. انا لن امرض .."

ضوضاء خافتة تأتي من المخزن فعلمت ان امها حقا مصرة ان تبدأ العمل بدونها ..

حثّت خطاها بل اخذت تركض لعلها تشعر بالدفء فتضحك وهي تدخل المخزن مهرولة

قائلة بمرح " ان مرضت فأنت السبب يا ابتهال لا العم ابو رفعت .."

تسمّرت مكانها كالبلهاء وتدلى فمها تلقائيا واتسعت عيناها اللتان كانتا تحدقان (بلا تصديق) في وجه عبد الرحمن ...

عيناه اخذتا كل وقتهما لتحفظ تفاصيلها قبل ان يسبل اهدابه مبتسما وهو يقول بمرح

" صباح الخير .."

لا بد انها وسط حلم ما مرة اخرى !

لكنها استيقظت من حالتها الميؤوس منها هذه على صوت ضحكة امها وهي تقول لها

" يا فتاة ماذا جرى لك ..؟ اذهبي وارتدي حجابك وتعالي لتساعدينا ..."

في غرفتها ترتدي بنطال الجينز وبلوزة اخرى بينما تلملم شعرها بحركات حادة ..

عابسة غاضبة حانقة خافقة القلب لدرجة تتمنى ان تضرب قلبها حقنة مخدر ما ليتوقف!

تكز على اسنانها وهي تتمتم بغضب متصاعد بينما تلف حجابها حول رأسها

" اصبر علي يا عبد الرحمن وسترى .. "

هبطت درجات السلم وذهبت للناحية الخلفية من البيت لتواجهه بقناع من البرود ...

صوت ضحكاته تصلها لتدخل وترى امها تضربه على كتفه وهي تقول ضاحكة

" اعمل بجد ولن أخبر احدا عما فعلته اول يوم لك في رياض الاطفال .."

ابتلعت ريقها ثم تنحنحت لتعلن عن وجودها وهي تقول ببرود " هل احضر بعض الشاي .."

عيناه عادتا لها بلمعتهما التي تبعث اشارات المشاكسة ثم يرفع كرسيين قديمين يصفهما معا وهو يقول

" هل هناك بعض فطائر التمر ...؟"

ردت ابتهال قبل رباب وهي تقول

" اجل بني .. سأخرج بعضا منها من المجمد واضعها بالفرن .. انتظروني هنا سأعود اليكم خلال دقائق لا اكثر .."

ثم التفتت ابتهال لابنتها التي يقتلها الغيظ فتقول لها " ساعدي عبد الرحمن في حمل الكراسي والطاولة القديمة المكسرة للمرآب.. سيأتي صاحب عربة الخردوات ليأخذها .."

ثم خرجت ابتهال وهي تبتسم بقلب متأمل وتدعو الله من قلبها" ربي اجعله من نصيبها .. كم يليق بها هذه الغامضة الكتومة .. اقسم بالله اذا طلبها مني سأكمم فمها وازوجها اياه رغما عن انفها .."

زمت رباب شفتيها وهي تواجه نظراته قبل ابتسامته لتسأل بنبرة متكلفة

" ماذا تريدني ان احمل ؟"

فيرد بصوت أجش وهو يقترب منها " قلبي .."

تسارع تنفسها وهي تدير وجهها جانبا فتهمس بصوت حانق " تأدب يا عبد الرحمن .. الا تحترم وجود امي .."

فتشعر به يقف قبالتها تماما ثم يقول مغيظا اياها " وماذا قلت ؟! أردتِ ان تحملي شيئا فعرضت ان تحملي قلبي .. صدقيني هو خفيف الوزن ولن يتعبك .. تستطيعين حمله اينما ذهبت .. في دار الازياء يراقب تصاميك ويتأمل في يدك التي ترسمها .. في ذهابك وايابك بالسيارة يستطيع ان يثرثر بالكثير مما لاتعرفينه عنه .. وفي بيتك .. في غرفتك يتأمل نومك بشعرك العسلي المشعث .."

التفتت اليه تحدجه بنظرة نارية فيصبح صوته اجشا وهو يضيف " اريحيني و احمليه عني يا قرفة .. لقد انفصل عني .. فماذا افعل به؟! "

اخذت نفسا عميقا ثم اطلقته ببطء لتقول بعدها " اسمع يا عبد الرحمن .."

فيرد بابتسامة ذائبة مشاكسة " يا عيون عبد الرحمن .. وما رأته عيون عبد الرحمن قبل عشر دقائق لا غير .."

لم تعد تهتم بتضرج وجهها بالحمرة لان الموضوع لم يعد يحتمل المناورة فقالت بصوت غير ثابت

" فسخ خطبتك على رانية لن يغير من الامر شيئا .. انا ما زلت على موقفي وانت تعلم .. لن اتزوجك .. فارجوك توقف عن فعل وقول هذه الامور لان..."

قاطعها ببساطة " يبدو انك لم تسمعيني جيدا بالامس .. انا لااااااااااااصق ملتصق .. لم أعد أهتم ... سأظل هكذا معك اما تقتليني عشقا او اقتلك خنقا ! "

فتحت فمها لتهدر فيه عندما التفت جانبا والتقط الكرسي ثم دفعه نحوها وهو يقول بلهجة آمرة " احمليه للمرآب الآن .. ليس لدي اليوم بطوله لاغازلك فيه .."

ثم تركها ليتحرك نحو الطاولة المكسورة فيحملها ويخرج وهو يصفر تاركا اياها تغلي وتغلي ولا تعرف كيف تتصرف !

بيت عائلة جوري

عند باب المرآب بملابس بسيطة محتشمة تودعه " شكرا لزيارتك يا ابو فاضل .."

تطرق بنظراته وكأنها تشرد بافكارها الى حيث لايعلم .. كانت تبدو لعينيه المهتمتين انها منهكة ..

منهكة وشيء اخر اقرب للحزن الدفين ..



هل علمت ؟ هل صارحها زوجها الغبي انه يخونها ؟ ام هي اكتشفت هذا بنفسها ؟

ناداها دون ان يشعر " ام حبيبة..."

رفعت عينيها اليه فتبرقان كالحجر الاصيل الخام وهي ترد عليه بابتسامة تائهة " نعم .."

دون شعوره قال عباس بوعد رجل " انا موجود دائما لأي شيء تحتاجينه.. مهما كان سأفعله... وجربيني .. لن أكون رجلا فوق فمه شارب ان لم اوفي بوعدي .."

للحظة فقط رمشت عيناها ثم التمعتا وكأن الدموع تتجمع على اسوار اهدابها ...

ابتلع ريقه وهو يشيح بنظراته بعيدا بينما يسمعها تتمتم " سلمت يا ابا فاضل .."

شعر بغضب شديد ويوشك ان يتهور ليبحث عن زوجها الأرعن ذاك فيلقنه درسا ..

مؤكد بقاؤها كل هذه الفترة في بيت اهلها ليس بسبب والدها .. انها على خلاف مع زوجها وهاتان العينان الثمينتان لاتحزنان اعتباطا ..

رد اخيرا وهو يتراجع للخلف ناحية سيارته المركونة امام باب المرآب قائلا

" سلمك اللّه من كل شر .. "

غادر عباس وجوري تشيعه بنظراتها ...

اغلقت باب المرآب اخيرا وخطواتها تثقل بإنهاك نفسي اكثر مني جسدي ..

حالما دخلت المطبخ وجدت امها تمسك بهاتفها النقال تمده نحوها وهي تقول بأمل

" جوري .. هذا مهند .. كلميه يا ابنتي .."

اخذت هاتفها من يد امها وخارجها كداخلها...

بارد .. متجمد ...

حالما قالت " مرحبا مهند .." جاء رد زوجها عنيفا هادرا بالسؤال الغيور " ماذا كان يفعل هذا الرجل في بيت اهلك ؟"

ابتسامة مستهينة وقلب نازف ...

هل يهم حقا ان كان غيورا ام لا ؟!

هل تكفيها رؤية الغيرة تعذبه ان ترد له بعض المعارك الخاسرة ؟!

تحركت جوري لتبتعد عن مراقبة امها فدخلت غرفة الضيوف واغلقت خلفها الباب وهي ترد على مهند بالقول البارد

" كان يزور والدي .. كما أتوقع ان اخبرتك امي سلفاً .."

كان غاضبا كالجحيم وهو يواصل هديره

" لقد حذرتك سابقا ان لاتتعاملي معه .. هذا الرجل نظراته لك لاتعجبني .."

قست عيناها وكم تريد ان تغرز سكينه في قلبه هو ... !

قالت بتلك القساوة وهي تتلاعب به

" ليس من حقك .."

هتف " ماذا ؟! "

فترد وهي تقطع كلمات جملتها عن عمد ساخر " ليس .. من .. حقك ..."

ثم أضافت بشموخ واستقلالية

" انا حرة .."

تريد ان تمزقه أربا كما يمزقها كل ليلة
تقضيها في سريرها وحيدة تعاني ...

تريد اقتلاع قلبه من صدره وتنشب اظافرها
فيه وتراه يتوجع يتوجع .... يصرخ بالوجع..

فاجأها بهدوئه الغريب المفاجئ وهو يسأل
بغموض رغم وضوح المقصد

" متى ستتكلم ...؟ ألم تنتهي المهلة
لاتركك وحدك .."

ردت عليه وهي تخفي غصتها ببراعة

" الاسبوع القادم تعال لبيتي .. هنا .. سنتفق
على كل شيء ..."

رده حادا سريعا حاسما بطريقة ما " لا ....
سنخرج بمفردنا ..في المكان الذي اختاره ..."

تمتمت تتساءل بحدس انثوي متوجس

" الى اين ؟ "

فيرد بنبرة ساخرة " ما زلت زوجك هل
ستخافين مني ..؟ "

فترد له الصاع صاعين قائلة بسخرية اوجع
وأشد " لم يعد هناك ما أخاف منه او عليه .."

فما كان منه الا ان رد " الثلاثاء القادم سآتي
اليك بعد انتهاء العمل .."

ليلة الجمعة على السبت ...

لسبب ما تشعر بالقلق ولم تستطع النوم ..

لاتعرف لماذا تشعر ان البيت غير آمن ..

ربما لان امها لاول مرة تبيت بعيدا عنهن ..

تنهدت رباب وهي تدفع غطاءها لتنزل من السرير ، يضايقها الى حد كبير هذا الهدوء الذي يعم البيت ..

تحركت لتغادر غرفتها دون ان تصدر صوتا..

الحمد لله ان اسيا تنام في غرفة شذرة مع جعفر وكاظم ..

تشعر بالامان قليلا بوجودها ..

لكن ابدا ليس كوجود امها ...

نزلت للطابق الارضي وتوجهت للمطبخ وحالما مدت يدها لمفتاح الانارة تجمدت اناملها وهي تلمح حركة ما عبر شباك المطبخ المطل على جانب من الحديقة ..

قلبها يخفق بتوتر وخوف فتحركت على مهل دون ان تشغل الانارة تتلمس طريقها في الظلمة وهي تقرأ الايات القرآنية ..

وصلت عند الباب المطل على المرآب فهلعت وهي تراه غير مقفول !

ألم تقل اسيا انها ستقفله بنفسها قبل ان تنام ؟

ابتلعت ريقها وهي تفتح الباب على مهل وتتحرك حافية القدمين فيرتعش جسدها ما بين برودة ارضية المرآب والاحساس بالخوف...

تحركت خطوتين ثم .....

اتسعت عيناها حتى اخرهما وهي تحدق في الشبح الاسود على امتداد بصرها في اخر الحديقة .. انشل لسانها للحظات كما انشل عقلها .. لكنها خلال بضع لحظات كانت ردة فعلها تلقائية وهي تصرخ باعلى صوتها

" حراااااااااااامي ...."

المطبخ في البيت المقابل (بيت الصائغ) ..

يدور حول نفسه وهو يشعر بالضيق والقلق يتملكانه ..

يتأفف وهو يبحث دون جدوى عن بعض البن ليعد لنفسه قهوة ..

يتمتم بصوت خافت يكلم نفسه بغيظ

" كيف تسافر الخالة ابتهال مع رضا وتترك بضعة نساء بمفردهن في بيت طويل عريض .."

أجفل وصوت خلود يصله من عند باب المطبخ الداخلي " ماذا تفعل هنا أبودي ؟!"



اغمض عينيه وهو يقول ببعض اللوم

" خلود ؟! اجفلتني ..! "

اقتربت منه خلود فرآها تبدو قلقة مثله !

سألها باهتمام " هل أنت بخير ؟"

نظرت في عينيه وكأنها تريد البوح بما يقض مضجعها ويشغل تفكيرها لكنها تراجعت وهي تقول بطيبة قلبها المؤثرة

" انا بخير .. الخالة سعاد نامت قبل ساعة فقط، لقد اصابها الارق هذه الليلة .. ثم لم استطع النوم .."

رد عليها باشفاق " المرة القادمة دعيني انا انام جوارها .. انها تتدلل عليك كثيرا كعادتها.."

تبسمت خلود وبدت ابتسامتها حزينة !

لكنها راوغت حزنها وهي تسأله

" عم كنت تبحث ؟ "

رد عليها وهو يدلك جبينه

" ابحث عن قهوة ! مصاب بالصداع واحتاج لقهوة .."

ابتسمت بمحبة له وقالت " لن تجدها هنا .. اخر حفنة قهوة اعددتها لخالتي سعاد وخالتي بدرية عصر اليوم .. انتظرني لدقيقة واحدة سأبحث لك من عندي بعض القهوة .. مع اني اظن لن أجدها بسهولة مع فوضى اخيك وابنة اخيك .."

يبتسم عبد الرحمن لفكاهتها العفوية بينما يراها تذهب فاستدار هو ناحية باب المطبخ الخارجي فتوجه نحوه وفتح قفله وخرج للمرآب..

لم يشعر انه كان عاري الصدر الا عندما شعر بقرصة الهواء البارد على بشرته ... ورغم هذا لم يتراجع ويعود للداخل ..

كان يحتاج هذه البرودة بشدة ليطفئ ما يعتمل في داخله من أشواق باتت مستعرة وتلك الحجر الصوان تلعب معه لعبة التخفي ...

تريد ان تتحداه بهذا الاحتجاب والهرب منه ..

لكنها لن تتخلص منه ابدا .. انها تحبه .. اجل لايمكن ان تكون ردود افعالها هكذا معه دون ان تبادله ولو بعض العاطفة ..

ان كان السبب الانتقام او غيره لم يعد يهمه..

سيسير لآخر المطاف معها ...

وليقتله الأرق كل ليلة وهو يضرب راسه بالحائط متخيلا شعرها العسلي المشعث مبعثرا فوق وسادتها ..

وصل حتى الباب الحديدي الخارجي يحدق من فوقه للبيت المقابل وهي يتفحص بعبوس اطرافه وشبابيكه المظلمة فيزداد حنقا وهو يكاد لايميز شيئا ..

تمتم من بين اسنانه " لماذا لم ينيروا البيت

قليلا ؟! لِمَ كل هذه الظلمة ؟"

صوت القرآن الذي يسبق صلاة الفجر بساعتين

يأتي خافتا من الجامع القريب لينتشر مع نسائم

اخر الليل فينشر سكينته التي لاتضاهى ..

للحظة شعر بالاطمئنان واوشك ان يستدير

ليعاود الدخول عندما سمع صوتا مستغيثا

صارخا " حراااااااااامي "

الفصل الثالث عشر

الملحق (بيت الصائغ)

تضع القهوة على النار ثم تراقبها بعينين تضخان الدموع على خديها ...

لازال كلام الطبيبة يرّن في اذنيها ..

(الامل ضعيف .. لااريد خداعك .. هناك تعقيدات جديدة ...)

لم تكن تفهم حتى شرح الطبيبة لتلك التعقيدات الطبية .. كل ما تفهمه ان الامر بات محسوما وحذيفة يجب ان يتزوج ..

ويجب ان تكلم هدى .. المرأة محترمة وفيها المطلوب ... تجس نبضها اولا ثم ستفاتـ....

" لمن تعدين هذه القهوة في هذا الوقت العجيب ؟! "

صوت حذيفة أتاها من باب مطبخها الصغير فيقطع عليها خطط افكارها ... ترفع يدها بخفة وحرص لتمسح دموعها قبل ان تستدير اليه بابتسامة مرتجفة تحمل لمحات واهية من بشاشة فتقول له

" وجدت أبودي مصابا بصداع وأرق ويبحث عن قهوة في مطبخ بيت اهلك ولا يجد .. فأتيت هنا .. أعدها له مما عندي من البن .."

تقدم حذيفة نحوها وعيناه لاتفارقان ملامح وجهها تدرسانه بعناية ..

وقف قبالتها بضخامته التي تتضاعف امام نحولها وضآلتها ثم مد يده ولاشعوريا اغمضت عينيها تتوقع او ربما تتوق ليلمسها فقط في هذه اللحظة لكنها انتظرت طويلا دون ان تشعر بملمس كفه الخشن ..

فتحت عينيها وهمسه الساخر يصلها

" اطفأت النار قبل ان تفور القهوة وتنسكب خارج الدلة .."

بدت مرتبكة تائهة فرفعت عينيها اليه تتوسلانه دون طلب فما كان منه الا ان انحنى اليها وعيناه تتركزان على شفتيها المرتفعتين بطبيعتهما المغرية فيعذبها ويروي توقها بتقبيله العاطفي الحار لتلك الشفتين ثم يهمس بصوت مبحوح " دمعة مالحة كانت عالقة على شفتيك .. ما الذي يبكيك يا هبلاء ؟ اخبريني .. انت تجيدين البوح في جوف الليل .."

لم تكن تعي انه ألصقها تماما بجسده وان ذراعيها ارتفعتا تلقائيا لتلتفان حول رقبته تتشبثان بجزع وهي تهمس ببوح موجوع

" اريد ان .. ان ... ما هذا الصوت ؟! هل هناك من صرخ بالخارج ؟! "

انقطع البوح قبل ان يبتدأ وقد التف رأس خلود جانبا والتف معه رأس حذيفة وهو يعبس بتركيز واذناه تحاولان التقاط أي شيء ..

هو ايضا تهيأ له انه سمع صوتا ما ..

الملحق في الحديقة الخلفية لبيت الصائغ لذلك افترض ان الصوت قادم من المقدمة ..

ابتعد عن خلود قليلا وهو يقول

" سأذهب لاتأكد ان كان هناك شيء .. وان كنت اظنه مجرد رجل سكير يعربد بعد منتصف الليل .."

هزت خلود رأسها بينما تلحق بخطوات زوجها وهي تسحب حجابها لتغطي به رأسها ..

غرفة اسيا .. بيت العطار

في نوم عميق تململت اسيا بعبوس ..

انه صوت رباب ينادي .. تضايقت من حلمها المظلم حيث لا تسمع الا صوت رباب مستغيثا..

ثم شعرت بيد تهزها في نومها لتنفض عنه بعض سلطانه وصوت ولدها جعفر يقول بارتباك " امي استيقظي .. خالتي رباب افزعتني وهي تصرخ ... هل يوجد حرامي بالبيت ؟!! "

تنبهت حواس اسيا بالكامل لتنهض بجذعها تتلفت حولها تستوعب ظلمة غرفتها وان الشمس لم تشرق بعد ..

ميزت جسد ولدها الصغير كاظم وهو غارق
في نومه جوارها بينما جعفر عابس الملامح
مرتبكا بعض الشيء وهو يجلس على حافة
السرير ..

اخذت تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم بينما
تنفض عنها غطاءها وقلبها منقبض ...

كانت تتحرك لتغادر غرفتها وهي توصي
جعفر ان يبقى جوار اخيه ولا يفارقه ابدا ..
سمعت جلبة مصدرها حديقة البيت في
الاسفل وصوت رجل حانق غاضب وكأنه
صوت... جارهم سعدون القاضي !

اخذت تبحث عن مبذلها وحجابها وهي تهمس
بالدعاء القلق " استرنا يا رب ..."

على الطريق العام قريبا من الحي..

نظر رضا عبر المرآة الامامية ليرى خالته
ابتهال على المقعد الخلفي وهي تحتضن شذرة
الغافية بملامحها التي تفيض بالحزن ..

قال رضا بإشفاق " الفتاة غفت تماما.."

ردت ابتهال بصوت خافت حتى لاتوقظها

" لقد فعلنا خيرا بعدم مبيتنا الليلة هناك ..
لا اصدق ان عمتها تحججت انها تريد المبيت
في بيت ابنها الليلة ! لم يكن ينقص الا ان
تطردنا بصريح الكلام .."

شعر رضا بالضيق يعاوده ..

الموقف كله كان سخيفا ..

لا يعلم ما جرى في قلوب بعض الناس لتصبح جافة انانية خائفة حتى من فعل المعروف ولو بكلمة !

وكأن المعروف سيأكل مما يملكون !

تمتم رضا " سنصل خلال ثلث ساعة للبيت .."

الحي .... بيت العطار ...

لم يشعر عبد الرحمن بنفسه وهو يقفز فوق سور بيت العطار ليركض جزعا يبحث بعينيه في الظلمة عن اي شيء يطمئنه ..

انه صوت رباب .. لايظنه الا صوت رباب من صرخت بكلمة (حرامي) ...

وجدها اخيرا .... تقف مسمرة ببداية الحديقة قريبا من باب المطبخ المفتوح على المرآب ، هرول نحوها وقلبه يرتجف في صدره خوفا وقلقا عليها ..

اصبح قبالتها مباشرة فميز ملامحها المبهوتة .. متسعة العينين جامدة الملامح تحدق في زاوية ما من زوايا البيت ..

ناداها بعبوس " رباب .. ماذا جرى ؟ "

فأجفلت منه وكأنها ادركت وجوده للتو وللحظة تراجعت للخلف .. فعاود الاقتراب ليراها مصدومة اكثر منها خائفة !

ثم .. ثم بدت مرتبكة قلقة وهي تعاود النظر لنفس الزاوية ..

امسك مرفقها يهزها قليلا وقد تنبه الان فقط انها بلا حجاب وشعرها مشعث قليلا من اثر النوم .. عقد حاجبيه الكثيفين وهو يقول بصوت حازم ليفهم ما يحدث

" ماذا بك ؟! هل رأيت حرامي ؟ انتظريني هنا سأبحث بنفسي .."

فاجأته وهي تمسك ذراعه بتشبث وهي تقول بصوت خافت مرتعب على نحو غريب

" لا .. لا .. لقد .. هرب ..كان ..."

لم يشعر الاثنان الا بإنارة مفاجئة كاشفة قوية موجهة نحوهما مباشرة من جانب السور

وصوت سعدون القاضي عاليا جهورا وكأنه ضابط يصرخ في جنود امسكهم بالجرم المشهود

" ماذا تفعلان هنا في الظلمة وحدكما ؟"

استدار عبد الرحمن وهو مشوش قليلا يرفع يده ليخفف من اثر الاضاءة العالية الموجهة نحوهما فيقول بصوت ثابت قدر الامكان

" لاتقلق يا عم سعدون .. لقد كان مجرد لص ورباب صرخت تستنـ..."

قاطعه سعدون بصراخ عنيف سافر

" كاااذب وهي تكذب معك .. اي لص هذا يكلمها كل ليلة ..؟! "

اتسعت عينا عبد الرحمن ذهولا !

تقدم خطوات للامام يغطي رباب خلفه ويحاول ان يتكلم بينما كلمات سعدون تأتي كالمدفع الرشاش

" يا خسارة تربية امك لك يا فتاة ! وتدّعين العفة وانت ترتدين الحجاب ! اين حجابك الآن وانت تقفين مع عشيقك شبه العاري في هذه الساعة من الليل والناس نيام مستغلة سفر والدتك المسكينة الغافلة ... "

في تلك اللحظة خرجت اسيا تختض وترتجف وهي تتساءل دون ان تستوعب ما يجري

" ماذا يجري هنا ؟! ماذا حصل ؟ "

ترى اختها رباب مصعوقة جامدة مكانها بلا حجاب بينما سعدون يصرخ عند السور مع إضاءة كاشفة وعبد الرحمن عاري الصدر يقف بمنتصف المسافة يرد عليه بعنف

" ألزم حدودك واحترم سنك ..."

ركضت اسيا عائدة ناحية المطبخ لتجلب حجاب اختها عندما اصطدمت فجأة برقية وهي تحمل الحجاب فلم تتنبه لحالة رقية المصفرة الوجه وهي ببنطال جينز وبلوزة !

سارعت اسيا لتأخذ الحجاب من يد رقية ثم تقترب من رباب لتغطي رأسها ..

كانت اسيا ما تزال لاتستطيع ان تستوعب لتتصرف بينما تتقدم ناحية عبد الرحمن وهي تسمع المجنون سعدون يواصل صراخه

" آآآخ يا ابن الصائغ يبدو ان بلاد الغرب افسدت اخلاقك ولم تعد تحترم حرمات العائلات ومقام الناس المحترمين ..."

لم يعد عبد الرحمن يحتمل فتقدم من باب المرآب لبيت العطار يفتحه ليخرج لهذا المعتوه يوقفه عند حده بينما فُتح اكثر من باب للجيران ليخرج بعضهم وهم يتساءلون ماذا يجري وصوت حذيفة وهو يلاحق خطوات عبد الرحمن المتوجه لسعدون ..

" عبد الرحمن ... ماذا يجري ؟"

لكن عبد الرحمن كان يغلي من الغضب حتى وصل لسعدون وضرب بقوة عن الانارة الكاشفة التي يحملها بيده فأوقعها ارضا وانكسرت بينما يهدر في الرجل العجوز واخاه حذيفة يطوقه في اللحظة الاخيرة ليمنعه التهور بضرب رجل كبير بالسن " سأقطع لسانك الوسخ هذا يا غراب البين ... "

بدا سعدون خائفا وهو يرفع ذراعيه امام وجهه وكأنه يحمي نفسه من ضربات محتملة سيوجهها نحوه عبد الرحمن ..

اسيا خرجت للباب مصعوقة بتطور الامور وخروجها عن نطاق السيطرة بسرعة عجيبة وخلود تقف قربها وهي تتساءل بصدمة عم حصل .. كل هذا و رباب ما زالت مكانها مسمرة وصوت رقية يأتيها معتذرا بهمس وجزع

" اسفة .. اسفة .."

حدجتها رباب بنظرة عنيفة اخرست رقية وهي تطأطئ رأسها للارض ويداها تتقبضان الى جانبيها ..

ستجعل حارث يدفع الثمن غاليا ..

تقسم بروح ابيها انها ستجعله يدفع الثمن لهذه الفضيحة في الحي ..

كان الموقف محتدما في الشارع وحذيفة ما زال يعاني ليمسك أخاه الاصغر وهو يصرخ فيه " توقف عبد الرحمن .. اهدأ .. فقط افهمني ما يحصل .."

لكن سعدون لايرتدع وقد اخذته العزة بالاثم بينما يرى بعض الجيران الذي استيقظوا على الاصوات يقتربون من مكان الحدث فيشعر ببعض الدعم والحماية والرغبة المجنونة بالاستعراض والظهور ليقول بصوت مرتفع عن عمد " اجل اخبر اخاك حذيفة وللنادي لكبيركم رضا فيعرف معنا ماذا يجري في جنح الليل ؟ آآ ... نسيت .. ابو جعفر سافر مع حماته .. وقد خلا الجو بالكامل .."

كان حذيفة من صرخ فيه هذه المرة

" اخرس ..."

بينما جن جنون عبد الرحمن واوشك ان يفلت من طوق اخيه عندما أتى محسن راكضا ليتعاون مع حذيفة على تكبيله وهو يصرخ هو الاخر ليفهم ما يحدث ...

رحاب خرجت مهرولة ايضا ومعها ابنها الاكبر عقيل بنظراته المبهوتة لابيه وعميّه فيقف مع أمه جوار اسيا المصعوقة وخلود التي لم تكف عن التساؤل بصدمة عما يحصل وبعض الجيران حيارى لايفهمون وبعضهم اخذت الشكوك تراوده وهو يرى عبد الرحمن عاري الصدر ...

تقدم عقيل خطوة عندما جاءته نظرة آمرة من والده ليظل جوار النساء المصدومات ..

فجأة علا جاء صوت بدرية .. حازما رادعا ثابتا كخطواتها التي تقترب قائلة " خسئت يا رجل وقبح اللّه وجهك.. حقا انك غراب البين ..."

تضاءل حجم سعدون تلقائيا وهو يواجه نظرات الغضب والسخط من الجميع ...

خاصة بدرية هذه .. دوما كانت تسبب له نوعا من الرهبة .. كما لها ذاك التأثير الذي يجعل الاخرون منحازون لها تلقائيا ....

وبدا الجيران فجأة كلهم ساخطين مستائين من سعدون القاضي ...

وصلت سيارة رضا في هذا الموقف المحتدم بينما اسيا ما زالت في ذهول وصدمة لاتعرف كيف التصرف ليترجل رضا يعدل عباءته فوق كتفيه وهو ينظر بعبوس متسائل لما يحدث فتقترب منه اسيا وهي تقول باختناق باك

" الحمد لله .. الحمدلله .. رضا ..هذا الرجل ..
اثار فضيحة لا اعلم .. سببها .. لقد ايقظ
الحي بأكمله .. ولا افهم ما يريد .."

اخذ رضا يهدئها وعيناه على اخوته بينما
ترجلت ابتهال ومعها شذره التي استيقظت من
النوم وفي حالة صدمة هي الاخرى ..

تقدمت ابتهال وهي تنظر حولها بضياع
فتتساءل " ماذا يجري ؟!"

فيعلو صوت سعدون دون ان يمنع نفسه وكأنه
لايقاوم اثارة الاحداث التي يعيشها ويريد ان
يكمل الحكاية حتى اخرها

" ها قد وصلت امها المسكينة .. تعالي يا ام
اسيا .. تعالي وافتحي عينيك لاعمال ابنتك
وهي تقابل عبد الرحمن في ظلمات الحديقة
بعد منتصف الليل كـ.."

هذه المرة لم يستطع احد ايقاف عبد الرحمن
وهو يلكم سعدون حتى اوقعه ارضا ليصرخ به
وسط الجمع الذي تجمهر

" ايها العجوز المجنون الخرف ! حتى كبر
سنك لن يوقفني .. انها خطيبتي وستصبح
زوجتي ايها المعتوه .. فلماذا اقابلها في جنح
الليل كاللصوص ؟! "

صمت عم المكان والكل يتطلع لعبد
الرحمن ما بين تفاجؤ وتشكك .. اما عبد
الرحمن فقد بدا واثقا ثابتا بعينين تغليان
بغضب كالجحيم ...

تمتم سعدون بغباء وبلاهة وكأنه فاته اهم حدث ولايعرف كيف " خطيبتك ؟! "

عندها قالت بدرية تؤكد كلام عبد الرحمن وهي تحدج سعدون بنظراتها المتوعدة

" مؤكد خطيبته ايها الأبله الخرف .. لقد خطبها ليلة الخميس من امها والخميس القادم حفل خطبتهما الرسمية .. كل ما فعلته ايها السفيه انك افسدت على الناس فرحتهم كما تحاول افساد سمعتهم بالباطل وتفسيراتك المريضة ..."

اخذ عبد الرحمن يبعد اخويه حذيفة ومحسن عنه ليقترب رضا ويسأل برزانة

" هل سيشرح لي احدكم ماذا حصل بالضبط هذه الليلة ؟ "

عينا رضا ثبتتا على عيني عبد الرحمن الذي رد بنفس النبرة الثابتة

" صحوت لاصنع لنفسي القهوة .. كنت في المطبخ ثم سمعت صرخة بالاستنجاد وقد كنت قلقا على البنات هنا طوال الليل لاني اعرف ان خالتي ابتهال سافرت معك ومع شذره.. لم اشعر الا وانا اركض واقفز فوق السور لاجد رباب مرتعبة في الحديقة وقد رأت حرامي يهرب من الجهة الخلفية للبيت .. "

ثم حول عبد الرحمن نظراته الغاضبة نحو سعدون وهو يهدر

" كنت ما زلت احاول تهدأتها لاذهب وابحث عن الحرامي عندما أتى هذا الخرف بأنواره الكاشفة صارخا كالمجنون مثيرا فضيحة في الحي ايقظت كل الجيران من نومهم ..."

اخذت عينا سعدون تتنقلان بين الوجوه الساخطة التي حملت الادانة .. وبعض الجيران انسحبوا عائدين لبيوتهم منعا لمزيد من الحرج وترك الامور لاصحابها حتى يحلوها ..

قال رضا بنبرة قاطعة وهو يحدق في سعدون بقسوة نادرة منه " عد لبيتك يا سعدون .. ولي كلام آخر معك لانتهاكك حرمة بيتي وعائلتي..."

تمتم سعدون بخزي " لكن يا ابا جعفر .. اقسم لك انا ... لم تكن المرة الاولى التي اراهما في جنح الليل .. في عرس حفيدة بدريـ...."

عندها تدخل حذيفة صارخا وهو يدفعه

" اخرس .. ولاتجعلني افقد اخر شعرة من صبري فأنسى انك تكبرني سنا بما يكفي لامنحك مقاما .."

كان سعدون لاول مرة مشوشا مرتبكا تائها بينما حذيفة يدفعه ليعيده لبيته ..

" تحرك .. تحرك ..."

ادخله لبيته بينما سعدون يعتب عليه ويتوسله بالقول



" هل تدفعني هكذا يا حذيفة وانا الرجل المسن ؟ الا يكفي أخاك الاصغر الذي لكمني واوقعني أرضا ؟! "

اقترب حذيفة بوجهه من وجه سعدون ليقول من بين اسنانه

" اقسم بالله لولا شيبتك لكنت ابرحتك ضربا على ما فعلته بنا هذه الليلة.. "

فيدافع سعدون عن نفسه بالقول " وماذا فعلت؟! أهذا جزائي لاني اغار على اعراضكم ؟!"

دفعه حذيفة دفعة قوية ادخله عبر الباب الداخلي لبيته وهو يهدر فيه " خسئت .."

يتراجع سعدون بضع خطوات ناحية غرفة المعيشة وهو يواصل باصرار دفاعه

" اقسم بالله انا رأيت خيالهما قبل اسبوع فقط تقف معه في الظلمة في احدى زوايا الحديقة... حتى انها لم تكن تغطي رأسها بحجاب وشعرها يرفرف في الهواء.. هي رباب بقصر قامتها ..."

للحظة تنبه حذيفة لأمر ما قاله سعدون لكنه سرعان ما استعاد هيئته الوحشية الغاضبة ليهدده بالقول الصريح " سأحشر الطين في فمك قبل ان أدفنك حيا اذا اعدت هذا الهلوسات على مسامع احد .. هل فهمت ؟ هل فهمت ؟"

كرر اخر جملة بعنف سافر جعل سعدون يرتعد مكانه ثم تركه حذيفة ومضى مغادرا بيت القاضي وعقله يضج بالافكار ...

يعيد في راسه تكرار الجملة التي قالها سعدون (هي رباب بقصر قامتها ... بقصر قامتها.. بقصر .. قامتها !)

قدحت عينا حذيفة شررا وهو يطبق فكيه بتوتر شديد ...

بيت العطار ... غرفة الجلوس ..

مع شقشقة الفجر ...

ريقها جاف رغم انها شربت ثلاثة أقداح من الماء ولم يرو جفافه...

وجهها محمر من فرط الانفعال وعيناها زائغتا النظرات وهي تعيد وتكرر

" حسبي الله ونعم الوكيل ... حسبي الله ونعم الوكيل .. يا غافلين لكم الله ..."

ترد عليها بدرية التي تجلس جوارها

" هدئي من روعك يا ابتهال لم يحصل الا الخير بإذن الله .."

عينا بدرية للحظة حادتا نحو اصغر اولاد الصائغ وقد غطى عري صدره الآن بعد ان احضرت له خلود بلوزته لكنه حافي القدمين وقد أضاع خفيه في مكان ما اثناء ركضه وقفزه من فوق سور الحديقة ...



عينا عبد الرحمن تحومان بحثا عن رباب التي أختفت في المطبخ ولا يعلم الا اللّه ماذا وراء صمتها الغامض وعينيها المسبلتين وكأنها تخفي سريرتها عن عمد ..

اقتربت اسيا من امها وهي تحمل لها كوبا من شراب الاعشاب الدافئ أعدته لها فتقدمه وهي تقول بحنان

" اشربي امي .. هذا سيريحك .."

بنفس التشوش اخذت ابتهال الكوب من يد ابنتها فترتشف منه على مهل ويدها التي تمسك بالكوب ترتعش قليلا ...

دخل محسن عبر باب غرفة الجلوس وهو يتنحنح مستئذنا ثم يقول

" عفواً خالتي بدرية .. العم ابو عبد اللّه يسأل عنك.. يقول انه سيعود للبيت "

فترد عليه بدرية " اخبره اني سألحق به بعد قليل يا ولدي .. "

كان محسن يلتفت ليعاود الخروج عندما سألته بدرية " هل استيقظت والدتك ؟"

فيرد محسن بنبراته الساكنة قبل ان يغادر

" انها تغط بالنوم كالاطفال ... لم تشعر بكل الجلبة التي حصلت .. خلود معها الآن.."

بخروج محسن دخلت رباب تحمل صينية تراصت فوقها فناجين القهوة وقد بدا رضا الصامت احوجهم لها ...

اما عبد الرحمن فـ... قلبه يدق ...

هل هناك من يستطيع الشعور بكل نبضة
كما يشعرها هو الآن ...؟

وكأن النبضة تناغشه فتتبختر وتتباطأ
ليشعرها على مهل ويستعذبها ويتعذب بها حتى
تأتي نبضة اخرى لتدفعها وتعيد ما فعلته
سابقتها ...

اقتربت رباب منه لتقدم له فنجان القهوة بعد
ان قدمت واحدا لرضا ...

انحنت قليلا وهي تسبل اهدبها وتهمس بنبرة
هادئة عجيبة " تفضل ..."

يمد عبد الرحمن يده ببطء متعمد ليأخذ
الفنجان ويسألها بهمس مختلف .. همس نابض
كنبضات قلبه المجنونة

" كيف أنت الآن ..؟"

عندها فقط رفعت رمشيها لتتطلع اليه ...

ابتلع ريقه بصعوبة وحرارة مشعة احرقته ..

شبح ابتسامة حمقاء لاح على شفتيه ...

يا الهي ماذا بمقدوره ان يفعل ليداري احساسا
عارما بالسعادة المسكرة ؟!

هل تظن (الحجر الصوان) انه لايدرك ما
حصل وسط.. كل ما .. حصل ؟!

هل تظن اعلانه كونها خطيبته امام الحي
بأكمله سيمر مرور الكرام ويموت في مهده ؟

لن يكون ابن الصائغ ان لم يتشبث بالفرصة
التي أتته من حيث لايدري ولم يتوقعها ابدا..

تمتمت وهي تسبل اهدابها مرة اخرى

" بخير .. الحمد لله .."

ثم ابتعدت بانغلاقها الشديد عنه ..

حسن .. مؤكد ما حصل كان رهيبا بتأثيره عليها فيجعلها بهذه الحالة الغريبة الجامدة..

لكنه يكاد يجزم حالما ينتهي تاثير الصدمة ستسعى لايجاد حل لورطة (الخطبة المزعومة) ..

كانت تغادر غرفة الجلوس مع صينيتها الفارغة عندما قال عبد الرحمن بصوت واضح صريح " خالتي .. انا جاد بطلب رباب للزواج .."

عمّ صمت وبدت ابتهال مشوشة اكثر وكأنها تستدرك امرا آخر نسيته وسط ما حصل ..

رباب لم تتوقف بل أكملت خطواتها لتغادر غرفة الجلوس بينما يضيف عبد الرحمن بتصميم " انا لم أفعلها لانقاذ الموقف السخيف وحسب.. بل فعلتها لانها نيتي منذ ... فترة .."

بدرية صامته تحدق بنظرات فطنة مبتسمة في الصائغ الصغير بينما تتمتم ابتهال بوجهها المنهك من شدة الانفعال وتعب السفر

" بني ... لاداعي لـ...."

قاطعها عبد الرحمن ليقول بصوت خشن حيوي

" اقسم بالله هي نيتي .. ورضا يعرف .."

ثم يلتفت ناحية رضا الذي ما زال ملتزما بالصمت ليحثه بالقول

" اخبرها رضا .. اخبرها ..."

انهى رضا فنجانه ورفع عينيه ليحدق في وجه زوجته التي تقف قرب امها ..

قلبه لايحتمل رؤية هذا الشحوب على محياها الغالي الذي يعشقه ...

ابتسم لها تلقائيا ثم لمعت عيناه بالطمأنينة يبثها لها فتردها له بتعلق نظراتها فيه وبعض التورد يعيد الحيوية لوجهها ...

وقف على قدميه وهو يعدل من وضعية عباءته فوق كتفيه ليقول بنبرة حازمة

" الوقت غير ملائم الآن يا عبد الرحمن .. دعنا نترك الخالة ابتهال ترتاح .."

وقف عبد الرحمن هو الآخر مكتفيا بتثبيت موقفه ليتبع اخاه الاكبر بينما يتحرك رضا ليميل ناحية رأس حماته فيقبله ويهمس لها

" نامي قليلا وارتاحي .. باشراقة الشمس سيلهمنا اللّه حسن التصرف .."

ثم يتحرك نصف خطوة ويفعل المثل وهو يميل ناحية امه بدرية فيقبل رأسها ويهمس قرب اذنها بما لا يسمعه احد غيرها

" لقد فعلتها وناصرتِ الفتى ليحقق هدفه ..."

تخفي بدرية ابتسامة المكر وهي ترفع يدها عاليا لتربت على لحيته المشيبة ..

تصعد رباب درجات السلم وداخلها .. جامد ..

جامد مع تلك اللحظة التي صرخت فيها (حرامي) ظناً منها ان الخيال لـ(حرامي) فعلا وفي اللحظة التي تلتها ميزت ان الخيال الاسود يعود لخيالين !

و أحد الخيالان نطق ولم يكن الا صوت اختها رقيها تهمس بارتجاف

" لاتصرخي رباب هذه انا .. رقية .."

بذهول تام راقبت اختها رقية وهي تلتفت جانبا لتقول بخفوت غاضب لمن كان بصحبتها

" اذهب .. اذهب من خلف البيت .."

ثم جاءت اصوات خطوات راكضة من جهة السور الامامي فاسرعت رقية لتركض مع صاحبها في الاتجاه المعاكس ويلتفان حول زاوية البيت ناحية الحديقة الخلفية ...

بعدها لم تكن رباب تشعر بشيء الا وعبد الرحمن امامها يهزها ويتكلم بما لا تستوعبه..

وكل ما حصل بعدها لم تكن تفقهه !

لم تفارقها صورة رقية في وقفتها مع ذاك الشاب ... وجع وألم وحرقة و ... خيبة أمل..

لم تطرق باب غرفة اختها بل فتحته مباشرة لتدخل وتعيد اغلاقه بهدوء ...



كانت غافلة عن شذرة الواقفة على بعد خطوات قريبا من باب غرفتها والحيرة والقلق والارتباك يسيطرون عليها ...

حيرتها ليس مما حصل .. بل بتفسير ما حصل.. وهل له علاقة بما رأته سابقا من رقية ليلة عرس حفيدة الخالة بدرية ...؟

ما زالت رقية بنفس الملابس تتحرك في غرفتها على غير هدى ..

حالما دخلت اختها دون استئذان هدر قلبها رعبا وهي تهمس " رباب ! .."

تقدمت رباب وبنبرة غضب مكتوم سألت

" من هذا الحقير الذي كنت بصحبته بعد منتصف الليل ؟ وماذا كنتما تفعلان ؟ "

ابتلعت رقية ريقها لتقترب وتقف على بعد نصف خطوة من رباب ثم تقول بما تملك (حاليا) من الثبات والسيطرة

" سأخبرك .. فقط .. اهدئي واسمعيني .. وانا على استعداد للاعتراف لامي بكل شيء .."

اشتعلت عينا رباب بالنار واشمأزت تعابيرها وهي تحدق في وجه اختها الممتقع لتكز على اسنانها وهي ترد عليها

" وهل تعتقدين ان اعترافك القذر سيغير شيئا مما حصل ؟! على الاقل الفضيحة التي حصلت لاتؤذي امي في تربيتها لنا لكن ماذا

سيحصل يا ذكية ان علمت ان الحرامي لم يكن (حرامي بيوت) وانما (حرامي اعراض وحرمات) ؟!"

توترت قبضتا رقية كتوتر ملامحها وهي تقول لاختها تدافع عن نفسها بضراوة لاتخلو من الارتباك والتعثر بالكلمات " كفى رباب .. كفى .. الامر ليس كما تتخيلين .. حارث مجنون متهور .. انه .. انه معي بالجامعة ويريد التقدم لخطبتي عند انتهاء العام الدراسي .. كل ما حصل اني .. لا اكلمه منذ فترة والغبي .. تهور ليأتيني في حديقة البيت .. "

لقد كان لرباب وقتا كافيا لتستوعب ما قيل وما حصل .. وتحلله .. فتستوعب كلام غراب البين (سعدون) ... الرجل مؤكد لايكذب ..

قد يتخيل الامور ويفسرها على مزاجه لكنه لا يأتي التفسير من فراغ ...

سألت رباب بنبرة صارمة " ليست المرة الاولى أليس كذلك ؟ لقد سبق وفعلها .."

تدلّى فم رقية وازداد وجهها امتقاعا فهدرت بها رباب " اجيبي .."

ابتلعت رقية ريقها مرة اخرى وهي تهمس بالاعتراف " نعم .. ليست الاولى .. بل الثانية.. لكن اقسم لك انها الثانية فقط .. ولم تدم الا بضع دقائق .. في المرتين .. كنت أطرده.. لكنه .. كالبغل .. لا يفهم ...ولا يفكر بالعواقب ..."

ثم قست ملامح رقية فجأة وهي تقول بوعد هامس " اقسم لأجعلنه يدفع ثمن فعلته .. اقسم باللّه .."

غامت عينا رباب بحزن قاتل ...

هذا ما كانت تخشاه ...

لقد فشلن هي واخواتها وامها في حماية رقية..

لقد فشلن في لعب دور الاب في حياتها ...

دور يونس العطار الذي رحل وترك رقية طفلة بعمر الثانية عشرة متعطشة للحب والاحتواء..

لاهثة لدور (الذكر) في حياتها باكرا جدا..

فلم يكن يونس العطار موجودا ليملأه ..

وها هي كبرت ..ينقصها الكثير مما غرزه والدهن في اخواتها الاكبر.. ينقصها ما ملأ به ارواحهن من تقدير انفسهن بالغالي .. بالغالي فقط ..

قالت رباب اخيرا " اسمعيني جيدا يا كل الرقة .. ما زال لدي ايمان انك ولدتِ من ظهر يونس العطار .. هذا الرجل بذرته طاهرة كسيرته العطرة ... لذلك سأصدقك ... لكن لديك اليوم وغدا فقط ليأتي حارثك الأرعن هذا عبر باب البيت وليس من فوق سور حديقته.. ليطلبك رسميا من امك .. وامنحك فوقها يوم ثالث وفي الرابع ان لم يحصل شيء سأخبر اسيا بنفسي عما رأيته ليلة الامس .."

أطرقت رقية وهم تتمتم بـ(نعم).. وداخلها يغلي بالغضب ورغبة الانتقام ..

تحركت رباب لتغادر غرفة رقية وهي تقول لها بنبرة حازمة

" حذاري ان تخرجي معه كما اظنك تفعلين بحمق ! من تجرأ على حرمة بيت ابيك سيتجرأ على حرمتك .."

لم ترد رقية بكلمة بينما تتركها رباب لتفتح باب الغرفة ثم تغلقه خلفها كما فعلت سابقا ..

نزلت بضعة دموع من عيني رقية بينما تتوتر شفتاها وهي تنطق بوعد الانتقام

" سأنتقم منك يا حارث ... سأجعلك تأتي انت وابوك زاحفا لتطلبني للزواج وعندها .. سألوعك وأدس انفك في الارض فتذوق طعم الذل والتوسل قبل ان امنحك كلمة (نعم)..."

كانت رباب منهكة مستنزفة وهي تعود لغرفتها .. عقلها لايفكر الا بما يحصل مع رقية .. وكيف ستنقذها ...

وعند باب غرفتها سمعت شذره تناديها بتردد فالتفتت نحوها وهي تخلع حجابها وتقول

" نعم شذره .. اعذريني انا منهكة واحتاج لبعض النوم حتى يصفو رأسي .."

بدت شذرة غريبة ومترددة ومرتبكة ..

اخذت تتمتم " انا اسفة .. لكن .. هناك امر مهم ومستعجل .. يجب ان تعرفيه ..."

عبست رباب وهي تسأل بقلق

" ماذا هناك ؟"

فردت شذرة بنفس التردد والارتباك

" انا اسفة لما سأقوله ولا اعرف ان كان يجب ان أقوله لك ام ربما لاسيا افضل .. لكن كلام العم سعدون ذكرني بأمر ما .. ذكرني بليلة عرس حفيدة الخالة بدرية .. انا لا أظن ان ما رأيته انتِ الليلة .. كان .. حراميا .."

القلق استبد برباب وهي تحثها قائلة بهدوء مصطنع " اذن ماذا تظنين ؟ يمكنك ان تخبريني انا.."

عندها تنهدت شذره وهي تقول بحرج بالغ

" انا لاقصد سوءا اقسم باللّه لكني قلقة على رقية .. قلقة انها ربما ترتكب خطأ ما .. ولا استطيع سؤالها او نصحها .. انت تعرفين علاقتي بها .. ليست مثلك .. "

بتوجس سألت رباب " ماذا تعنين بالضبط ؟ ماذا رأيت ليلة عرس حفيدة الخالة بدرية ؟ "

فردت شذرة وهي تطرق بنظراتها بارتباك شديد

" لقد رأيت رقية .. بعد منتصف الليل تتسحب حافية القدمين تعود لغرفتها وهي ما زالت بنفس الفستان الذي ارتدته بالعرس .. "

لم تشعر رباب الا وهي تمسك بمرفق شذرة بقوة وتهمس لها بصوت منخفض جدا لكنه حازم بل صارم

" لاتخبري احدا بهذا .. إياك شذرة .. وانا سأتصرف بالامر .. لكن ان علمت امي.."

تركت رباب جملتها معلقة بينما شذرة تهز رأسها بفهم كامل لترد عليه بتأكيد صادق

" لن اخبر اي انسان .. وسأنسى حتى اني رأيتها تلك الليلة .. كما سأنسى ان اخبرتك .."

بيت الصائغ

بعد قليل ... في المطبخ ..

كان محسن شبه مشوش وشبه حانق وهو يحاول كتم نبرات صوته موجها الكلام لعبد الرحمن الواقف قبالته " انا لم أعد افهم شيئا؟ منذ متى وانت جاد برغبة الزواج من رباب ؟ "

دخل حذيفة المطبخ في هذه الاثناء ليسمع سؤال محسن فيجلس جوار رضا على الاريكة الصغيرة لينظر لعبد الرحمن باستمتاع خفي بينما يتابع محسن حنقه المكتوم حتى لايصل صوته لامه النائمة

" اخبرني عبد الرحمن .. منذ متى ؟"

رد عبد الرحمن متنهدا

" منذ سنتين .. وربما اكثر .."

فيعبس محسن بشدة وهو يسأل بمزيد من التشوش والدهشة

" تريدها منذ اكثر من سنتين ولم تقل شيئا؟! لماذا ؟! لماذا لم تخطبها اذا كنت ترغبها هكذا ؟ لماذا خطبت رانية اذن ؟"

قال عبد الرحمن وعيناه تطرفان ناحية حذيفة للحظة " لقد .. فعلت .. طلبتها من رضا قبل .. اقل من عام ولم .. توافق.."

" طلبت رباب ؟! "

هذا السؤال لم يكن محسن من طرحه بل حذيفة !

وقد وقف على قدميه شبه ذاهل وهو يكرر

" طلبتها ولم تخبرني ؟! "

بدا محسن حائرا قليلا بردة فعل حذيفة بينما تهرب عبد الرحمن بنظراته وهو يتمتم

" اسف اخي .. لم اخبر احدا.. لان هذا .. كان مطلبها .."

استعاد محسن تركيزه وهو يتساءل وعيناه على رضا الذي يغيظه بصمته

" اذن ما الذي تغير الآن يا عبد الرحمن ؟ هل فعلتها بسبب الموقف المحرج الذي افتعله المجنون سعدون ؟ لكن هذا لايجوز ليكون سببا في الزواج ..."

عندها قال عبد الرحمن بقرار لارجعة فيه

" انا لن أتزوج الا رباب يا محسن .. وهذا ما اخبرتها به قبل ايام قليلة .. هي تعرف .."

صمت محسن للحظة قبل ان يسأل اخاه الاصغر سؤالا صريحا مباشرا

" هل فسخت خطبتك لهذا السبب ؟"

رد عبد الرحمن بنبرة قاطعة " نعم .."

عينا رضا كانتا على حذيفة ..

شعر بألمه الذي يخفيه لان عبد الرحمن لم يصارحه بالموضوع ..

حذيفة متعلق جدا بعبد الرحمن ولا يعرف رضا حقيقة لماذا عبد الرحمن لم يفش له بما حصل مع رباب ....

تحرك حذيفة ليغادر المطبخ وهو مطرق بنظراته بينما يقول بنبرة مخنوقة

" انا سأذهب لانام ساعتين .. عندي مشوار مهم هذا الصباح ..."

ناداه عبد الرحمن وهو يتحرك خلفه بخطوة

" حذيفة .."

فابتسم حذيفة وما زالت نظراته للارض وهو يقول " سنتكلم لاحقا يا ابن والدي .."



غادر حذيفة من باب المطبخ الداخلي ليعاكسه الاتجاه محسن وهو يغادر ايضا عبر الباب الخارجي للمرآب قائلا

" وانا سأذهب لانال بعض النوم ايضا .. عندي امور كثيرة يجب ان افعلها في القسم هذا اليوم .."

ساد الصمت ولم يبق الا عبد الرحمن و رضا ..

جلس عبد الرحمن جوار اخيه يناظر ملامحه المرهقة فيقول له

" وجهك متعب جدا يا رضا .."

فيبتسم رضا ويقول بعينين ناعستين

" وانت .. لايبدو عليك اي ارهاق او حتى انزعاج ..."

تورد عبد الرحمن قليلا حياء من اخيه الذي يعتبره والدا له .. ولم يجد ما يقوله ليخفي به سعادته الطافحة من كل خلية فيه ..

قال رضا اخيرا بنبرة اب حنون " رغم سعادة قلبي لسعادتك هذه لكن حذاري يا عبد الرحمن .. لاتأخذ الامور ببساطة هكذا .. انت تفرض الزواج عليها وقد تتطرف رباب بمقاومتك .."

قال عبد الرحمن والاثارة والحماسة تتملكانه " فقط اقنع امي ان تكون الخطبة الخميس القادم كما قالت خالتي بدرية .."

ذابت ابتسامة رضا وهو يناغشه بالقول

" انت لم تنس ما قالته خالتك بدرية تحديدا وهي تؤيدك بكذبتك .."

ابتلع عبد الرحمن ريقه وهو يكاد يتوسله بالقول " فقط اقنعها يا رضا .. واقنع خالتي ابتهال .. ودع رباب لي .. "

نظر رضا لعيني اخيه الصغير بعمق قبل ان يقول مازحا محذرا في نفس الوقت

" خفف من حماستك المخيفة هذه .. عيناك تقدحان بالنار .. "

لم تخف حماسة عبد الرحمن شعرة وهو يقول بأنفاس متقطعة " ساعدني فقط .. انا .. انا سأسعدها .. هي لاتعرف كم سأسعدها .. انها فقط متحجرة الرأس .. لكنها .. لكنها تحبني.. انا اشعر بهذا .."

فسأله بصبر " لماذا اذن ترفضك ؟"

بدا عبد الرحمن غير مهتم على الاطلاق بالاسباب الآن .. الاسباب فجأة فقدت اهميتها امام الهدف الذي ينشده ..

ليحققه اولا .. ثم .. تأتي معرفة الاسباب ..

فعبر عن كل هذا بالقول وهو يرد على سؤال رضا " لااعلم .. لكني سأعرف .. عندما تصبح خطيبتي سأعرف لماذا تعذبنا هكذا ؟"

نصحه رضا اخيرا " اذن هادنها بالخطبة ولاتفرضها عليها .. دعها تعتاد الفكرة افضل.."

ليضيف رضا نقطة هامة جدا " واعلم يا عبد الرحمن ان أصرت رباب على رفض الخطبة فلن احرك اصبعا واحدا لاجبارها .. "

وكأنه يكلم الحائط !

الفتى العاشق الذي أفلت زمامه لايتأثر بأي عوائق او تحذيرات فيرد بنفس العناد

" لن تصر .. فقط اسندني ولن تصر..."

تنهيدة رقيقة من رضا قبل ان يقف على قدميه وهو يقول متثائبا " دعني أنم قليلا ... قوايا تخور بالكامل .."

ثم تحرك ناحية الباب الذي غادر منه محسن قبل قليل تاركا عبد الرحمن انفاسه تتسارع وهو يخطط لما سيفعله ..

كان يعلم ان اسيا قلقة بانتظاره ...

وحالما دخل كان مستعدا لرؤيتها واقفة وسط غرفة المعيشة ..

خلع عباءته فسارعت تلقائيا لتأخذها منه وتعلقها بنفسها على المشذب الحديدي القريب من الباب ..

يداها الحبيبتان مرتبكتان فمد كفيه ليحتضن كفيها يدلكهما برقة بينما تحني اسيا رأسها في استرخاء وهي تطلق تنهيداتها..

رفع يده اليمنى فيلامس ذقنها قائلا بنبرة عذبة " الامور ستسير بخير يا اميرة البنات.."

بدت اسيا مترددة لكنها حسمت امرها قائلة

" انا اريدها ان تكون من نصيب عبد الرحمن لكن .. لااريدها بالغصب وحكم ظروف فرضت عليها ..."

مال رضا بوجهه فيطبع قبلة على خدها ويهمس بصوت أجش

" وانا اريدها راضية بعبد الرحمن كما رضيتِ انت باخيه المتيم .."

رغما عنها تتورد ضاحكة فيسحبها اليه يضمها لصدره قائلا بحنو قلبه الاثير

" اتركيها على اللّه .. الامور تأخذ مجراها الصحيح احيانا دون الحاجة لكثرة تفكير وتدبير.. "

الملحق (غرفة نوم حذيفة وخلود)

تحت ذراعه المطوي الذي يحاوط رأسه ويغطي كل وجهه كانت عيناه مفتوحتين...

ألم لم يشعر به منذ سنوات ...

(آه يا عبد الرحمن لو تعرف كم ألمتني ايها الفتى الصغير الغالي ..

انت لم تغفر .. ذلك الحاجز ما زال موجودا رغم كل شيء ..

قد اتعايش مع عدم غفران اسيا واقضي حياتي كلها لأسدد لها الدين لكن .. انت يا عبد الرحمن لا احتمل الامر ...)

اغلق عينيه وهو يشعر بدخولها ...

لا يجيد اظهار ضعفه امامه ...

ولايجيد حتى التعبير عنه ..

وربما هو ببساطة لايريد ان يتكلم .. لايريد
ان يفصح .. فقد يبوح بما يجعلها تحبه .. أقل..

ان علمت بماضيه فلن تحبه كما تحبه الآن..
شعر بجلوسها على السرير جواره ثم اصابعها
الحانية تمسد على شعره الكثيف فتسأله
بنبرة متلهفة بطبيعتها نحوه " ما بك ؟ "

فيرد بخفوت

" لاشيء .. اريد النوم قليلا ... انا مرهق .."

ثم فاجأها وهو يتحرك ويمد ذراعيه ليحاوط
جسدها ثم يقلبها لتستلقي جواره هامسا
بصوته الخشن " تعالي ..."

كان يضم جسدها وكأنه طفل يتشبث
بلعبته المفضلة بينما هي تتلكأ قائلة

" لكن يجب ان اعود لخالتي ... قد تصحو
وتبحث عني .."

يتوسد صدرها قائلا بعينين مغمضتين
وابتسامة عابثة

" دعك من خالتك واعتني بولد خالتك..
اوف .. انت ضئيلة جدا ولاتصلحين وسادة
جيدة للنوم "

لاتبالي بعبثه الشقي هذا وهي تحتضن رأسه بذراعيها وتهمس بتفهم فطري

" تبدو مهموما .. لست على طبيعتك .. هل بسبب ما حصل ؟ لكن الامور انتهت على خير وعبد الرحمن سيستر عليها .."

انفجر حذيفة ضاحكا وهو يشد على جسدها يهزها قائلا

" انت تقتليني بفكاهة تعابيرك .."

ترتبك وتحمر خجلا مما قالته وتتمتم

" لم.. لم .. اقصد .."

فيرفع رأسه قليلا يناظر وجهها الذي يفيض طيبة فتذوب نظراته بشقاوة محببة قائلا

" اعرف لم تقصدي .. انها تعابيرك التي تقفز ببساطة على لسانك كبساطة قفز قطة فوق أسطح البيوت .."

أعاد رأسه ليتوسد صدرها بينما عقله يعود لما هو مهم ويشغل باله فيقول لخلود بتساؤل ضمني " كفي عن الهذر السخيف واخبريني فقط بمعلوماتك عن جدول محاضرات رقية..؟"

جاء صوت خلود طافحا بالدهشة والتوجس وهي تردد الاسم " رقية ؟! "

لم يتنبه حذيفة لتوتر جسدها وهو مشغول البال بينما يلقي تساؤلاته

" اجل .. رقية .. هل لديها محاضرات اليوم ؟ هل تخرج يوم السبت ؟ "

بدأت خلود تشعر بالاختناق وهي تقول بتعثر

" انا لااعرف الكثير .. لكن هي غالبا يوم السبت لاتذهب .. لمـ..اذا .. تسأل ؟ هل .. تعجبك ؟ "

لايعرف ما يجب ان أفعل ليجعلها تنسى تماما هذه الافكار العجيبة حول تزويجه !

يشد جسدها اليه وهو يداعبها بالقول الساخر العابث " والله فكرة لاتقدر ! انا وعبد الرحمن نتزوج بليلة واحدة من الاختين رباب ورقية .. ستزغرد خالتك سعاد حتى الصباح "

والهبلاء في واد آخر وهي ترد عليه

" لكن رقية .. لاتنفعك .. انا كنت احضر لك .. أ .. أأ .."

صمتت فجأة وشعر بجسدها ينكمش !

لم يفته كلمة (احضر) فقال وما زال رأسه فوق صدرها " اممممممم الفم الكبير انفتح بالاسرار اخيرا .. تحضرين ماذا ؟!"

اخذت تنفي بقوة وتبرر " لا .. لا شيء .. صدقني هي مجرد افكار سخيفة .. الان فقط اخبرني .. هل تعجبك رقية حقا ؟ ام كنت تغيظني ؟"

حسن .. مزاجه لايسمح الآن بمحاولة سحب الاعترافات منها .. قال اخيرا يحاول اغاظتها

" انتهينا من موال الخرزة الزرقاء شذرة لنغني مع موال الدمية المغرورة القصيرة رقية ...يا امرأة احيانا اشك انك تملكين عقلا لتميزي به .. هل ترينني متحرش اطفال او عجوز متصابي ؟ "

شعر باصابع كفيها تحيط برأسه لترفع وجهه اليها تناظره بتلك العينين البنيتين اللتين تفيضان بعشقه وتهمس له بصوت يرتعش عشقا وتحيزا " أرقيك من عيني قبل عيون الناس .. انت رجل بل سيد الرجال .. تسعد قلب اي فتاة مهما صغرت او كبرت ... فقط لو تعرف كيف يشعر قلبي بك .."

ثارت مشاعره في لحظة لينهض بجذعه يشرف فوق كينونتها الضئيلة ليقول هادرا بنبرة متأججة " اللعنة لن أنام اليوم ..."

يميل اليها ينهال تقبيلا لرقبتها بعاطفة مشتاقة لروحها المعطاءة التي لاتنضب هامسا بخشونة " اريد ان اعرف كيف... كيف يشعر قلبك بي .. منذ البارحة وانا اتوق لاعرف ... من جديد ..."

الفصل الرابع عشر

دار العطار للازياء.. السابعة صباحا ...

لم تستطع البقاء بالبيت اكثر.. كان يجب ان تخرج ... ولم تجد الا مكانها الاثير لتضيع وسط تفاصيل تصاميمها ..

احيانا نحتاج لتفاصيل اخرى تشتت تفاصيل حياتنا التي تقهرنا وتضعف فينا قدراتنا..

" صباح الخير ..."

التفتت بعنف تتناثر كل التفاصيل مع تفاصيله هو بينما تراه واقفا عند باب مكتبها بابتسامة عريضة وعينين يؤرقهما التعب لكنهما لامعتان كفاية لتنير كل خلية فيها تستجيب اليه تلقائيا ...

اخذت نفسا سريا تخفيه بشق الانفس وهي تستدير لتلف حول مكتبها وتسأل بنبرة باردة

" لماذ أتيت ؟"

تقدم عبد الرحمن ليجلس بأريحية على الكرسي قبالة مكتبها الملون يناظرها وهي تجلس على الطرف الآخر ليقول بنفس الابتسامة والنظرة

" أتيت ازور خطيبتي .."

أسبلت اهدابها تتألم حرفيا من ارتعاش كل حواسها استجابة فورية للكلمة ..

قالت بصوت أجش " لست خطيبتك يا عبد الرحمن .. الامر منتهي .."

كانت تعلم انها تؤجل المحتوم بينما عقلها مشغول مع مصيبة رقية ...

كانت.... تعلم .. عاجلا ام آجلا عليها ان تتعامل مع تبعات ما حصل وما سيترتب عليه لـ..تقاومه!

سمعت عبد الرحمن يرد عليها بجذل يناغشها

" لاتجزعي هكذا .. انا مصر ان أتمم الزواج حتى من سيئة سمعة مثلك .."

رفعت نظراتها النارية اليه فيجابهها بنارية نظرات من نوع آخر بينما يكمل همسا

" تقابل بعد منتصف الليل جارها المجنون المتيم بها وهو شبه عارٍ ! ولجرأتها ووقاحتها تتواعد معه في حديقة بيتهم .. ماذا تركت يا فتاة لم تفعليه بعد ؟! "

ثم يميل برأسه جانبا مضيفا " بعد التفكير ربما اراجع نفسي في موضوع الزواج ..."

هتفت به من بين اسنانها شبه المطبقة

" لاأصدق ما تقوله وتفعله .. الا تشعر بالمأساة التي حصلت ليلة الامس ؟!"

يرد عليها وصدره يعلو ويهبط في انفعال حيوي

" لسوء حظك.. لا اشعر ..! انا عديم الاحساس اغلب الاحيان .. حاليا كل ما اشعره حالة ابتهاج متوقدة تسيطر على عقلي ... "

ثم يضيف بصوت مبحوح وعيناه لاتفارقان وجهها " انا لم أنم دقيقة ... "

فترد عليه بعناد وتكاد دمعاتها تتقافز متحررة من عينيها " وانا لن اتزوجك ..."

ما زالت انفاسه متسارعة ويبدو جليا انه يعيش حالة غير عادية من الانتعاش فيقول بنفس البحة متجاهلا تماما اعتراضها وكأنها لم تقل شيئا من الاساس

" رضا سيتفق الليلة مع الخالة ابتهال .."

نادته زجرا " عبد الرحمن ..."

فيواصل طريقته المجنونة بالتعبير عن انتعاشه " سأختار بنفسي ما يناسبك من طقم الذهب للخطبة .. ارتدي الفستان الكرزي .."

اغمضت عينيها للحظة ثم فتحتهما لتقول بهمس " انت توجعني بما تفعل ..."

فيميل للامام ويمد كفه يمسك يدها عنوة هامسا

" ليس بأكثر من وجعي بما تفعلينه بي..."

تحاول تحرير يدها وهي تصر بالقول

" هذا الزواج لن يتم ..."

لايفلت يدها وهو يقول بإصرار " على الاقل الخطبة ستتم رغما عن أنفك .. "

تواصل المقاومة الشرسة وهي تقول

" سأخبر امي اني... لست موافقة .."

يضحك بخفة وضحكاته تتعثر مع انفاسه المتسارعة فيوبخها بالقول وكأنها طفلة تأبى الذهاب للمدرسة في يومها الاول

" وتتركينها تعيش الاحراج في الحي وكيف ستفسر لهم ما حصل وما قلناه ؟ وماذا عن اخواتك البنات ؟ هل تتخيلين الموقف ؟ "

كان ما يزال يمسك يدها اليمنى التي تقبضت عفويا فتضرب بها على سطح مكتبها وهي تهدر بانفعال " كله بسبب ر .... "

لم يشعر بقبضته التي ارتطمت بسطح المكتب مع قبضتها بينما يشد انتباهه حرف الراء من كلمة او اسم مجهول !

كان مشتتا قليلا يفكر عندما ضربت قبضتها بشكل اقوى فيتوجع ويفلت يدها رغما عنه وهي تهدر فيه " بسببك انت ... "

ثم وقفت على قدميها وهي تشوح باصابعها المرتعشة ناحية الباب" اخرج ... غادر .. "

كان يحث نفسه بالقول (اصبر عبد الرحمن.. ستعرف كل شيء في حينه .. الان ركز على الهدف ..)

وقف هو الآخر على قدميه ثم رفعه كفه واخذ يعدد على اصابعه

" الاحد .. الاثنين .. الثلاثاء .. الاربعاء .. الخميس .. كم يوم احسبيها معي ؟ "

تكاد تصرخ وهي تطرده " اذهب .."

يبتسم لوجهها الحانق وتتركز عيناه على شامتها وهو يقول بخفة

" اعترف ان جزءا حقودا مني سعيد للغاية لانك مجبرة هكذا.. انه اروع انتقام لم يخطر ببالي سابقا لافعله واستمتع به .. كنت غبيا !"

تواجهه بنظراتها الغاضبة وتزم شفتيها وكأنها عاجزة عن الرد عليه بينما يضيف بحلاوة وهو يرفع نظراته مرة اخرى لعينيها

" هذا الغضب المكتوم في عينيك لاتعرفين كم يريحني ويرضيني و ... يعوضني .."

في محاولة بائسة اخيرة منها قالت بنبرة ارادتها ان تبدو قاسية

" الا يهمك اني لااريد الزواج منك ؟ "

لكن .. لم يعد هناك مجالا لتدعي القسوة فيرد عليها بقسوة من نوع آخر .. قسوة ان يواجهها بضعفها .. بحقيقة قلبها المتولع به كما قلبه متولع بها فيقول بسلاسة

" من قال انك لاتريدين ....؟!"

ثم يتحرك ليلتف حول مكتبها مقتربا منها فتتسمر قدماها وكأن الشلل دب فيهما ليقف قبالتها مباشرة ويقول همسا

" انت فقط بحاجة لأن اضرب رأسك بأي شيء صلد حتى تعترفي يا قرفة العطار ..."

ما كان يجب ان يقول (قرفة العطار) ..

كان هذا اكثر مما تحتمله هذا اليوم ..

هذه .... اللحظة ..

الدموع انسكبت مدراراً ولو تعلم ما كانت تسكبه في قلبه حتى يوشك ان يأخذها في حضنه ولا يفلتها ...

رغما عنه اقترب وانفاسه تتهافت لتلامس وجهها المبلول بالدموع فيقول بضعف

" اتوسل اليك لاتبكي وانا غير قادر على فعل شيء الآن .."

يبتلع ريقه ونشيجها يرتفع فيحاول اغاظتها ليوقف بكاءها قائلا برقة " هل تفتقدين والدك وانت مقبلة على الزواج السعيد..؟ "

اخذت تمسح وجهها بحركات حادة وهي تهدر فيه " انت لاتطاق ولا تمل حشر كلمة (زواج) في كل جملة .."

فيضحك بنبرة خافته تتسلل لقلبها الموجوع وتدغدغه ثم يقول باسلوب صبياني ليضحكها " انا ايضا يتيم الاب يا قرفة وافتقد والدي الصائغ .. تعالي نضع يتمي على يتمك ونجد بيتا رحوما يتبنانا ..."

رفعت سبابتها لوجهه وهي تقول بانفعال شبه باك " انت .. انت اناني .... الا تفكر بالمسكينة التي فسخت خطبتك لها قبل اسبوع واحد لا اكثر .. كيف ستشعر الآن وهي ..."

قاطعها بنبرة مشاكسة قائلا

" دعي المسكينة لحالها .. ووفري اشفاقك لمساكين اخرين ... مثل زوجك المستقبلي مثلا الواقف امامك ..."

ضربت بقدمها الارض وهي تشير ناحية الباب

" اذهب .. اذهب قبل ان يرتفع ضغطي اكثر"

يضحك ملء شدقيه ثم يرفع يده اليمنى لجبينه في تحية مستفزة وهو يقول

" انا ذاهب .. لكن .. الان فقط .."

واستدار مغادرا منشرح الصدر راضيا عن اولى مواجهاته معها بينما رباب تتخاذل جالسة على كرسيها تاركة لدموعها العنان وهي تهمس

" احتاجك ابي .. اموت حاجة اليك يا حاج يونس .."

في بيت العطار .. غرفة رقية ..

تمسك بالهاتف في يدها تخفي بشق الانفس رغبة عارمة بشتمه ... تمثل دور الباردة التي تجيد الخصام بينما هو يتوسل الصفح لغلطته الشنيعة ...

قالت رقية اخيرا بسيطرة تامة

" كل اعتذاراتك وتوسلاتك لن تعيد عقارب الساعة للخلف ولن تغير حقيقة ما حصل من فضيحة بالامس لعائلتي .."

قال حارث بارتباك تام

" قولي اي شيء تريدينه ويرضيكِ وسأفعله بالتو واللحظة .."

لمعت عيناها الزرقاوان وهي تقول بدلال بارد

" اي شيء .. اي شيء ؟"

فيرد باخلاص " اي شيء رقية .. اي شيء الا ان تتركيني الآن ..."

في الواقع بدأت تشعر بفائدة ما حصل رغم كل شيء .. انهياره هذا وتعاسته لفكرة انها ستتركه جعلها تحكم قبضتها حوله..

وكم يرضيها هذا الشعور رغم انه .. يجعلها تشعر بالفتور في نفس الوقت ...!

نفضت الافكار المحبطة من رأسها ثم قالت قرارها الاخير له وبتركيز شديد " اخبر والدك الليلة انك تريد التقدم لخطبتي نهاية هذا الاسبوع على اكثر تقدير .. والا .. اقسم يا حارث لو وقفت على شعر رأسك لن أبالي بك .. وسيكون اخر شيء بيننا "

يتوسلها بجزع " ارجوك رقية لاتقولي هذا.. "

لا تهتم به ولا تثيرها انفاسه اللاهثة بينما تضيف بالقول القاطع

" وجرب يا حارث ان تعيد الكرة وتأتي لتفتعل المواقف الهزلية السخيفة قرب بيتنا وعندها لن يتصل بالشرطة احد غيري وسأقول مجرد طالب فاشل مهووس يلاحقني..!"

همس بما يشبه الذهول وقد أكتنفه بعض الغضب

" لن تنكريني بعد كل حبي لك .."

ايضا لم تبالي .. لتنهي الحوار كله قائلة قبل ان تغلق الخط " انت أنكرت قيمتي وقيمة اهلي .. وانا لن اتسامح مع هذا ابدا ..."

صباح اليوم التالي (الاحد)

في الحافلة المدرسية..

تشرد شذرة بنظراتها الحزينة عبر الشباك ..

ما حصل اول الامس جعل شعورها بالنبذ والوحشة بعد زيارة عمتها يتضاءل في لحظة ..

ثم أرضت ضميرها وأزاحت عبء عن كاهلها عندما اخبرت رباب عما رأته وربطته بما حصل وعلاقته برقية ..

لكنها فيما بعد شعرت انها ... منافقة !

من هي لتخاف على رقية من تهور قد يؤذيها ويؤذي سمعتها ؟

ألم تفعل نفس افعالها وهي تكلم مهند لايام عبر الهاتف ؟

ألم تخُن ثقة البيت الذي آواها وثقة امرأة طيبة كالخالة ابتهال احتضنتها بينما رموها من هم من دمها ولحمها ...

شعور كئيب لايضاهى يخنقها ويقبض صدرها..

لم يعد ألألم والغضب هو الغالب فيه كما في السابق ..

وانما برود و مرارة !

مرارة كالعلقم كلما تذكرت وجه عمتها المتفاجئ بحضورهم ثم ارتباكها وهي تفتعل حجج مضحكة حتى تدفعهم للمغادرة ..

عمتها خشيت ان يتركوا شذرة عندها وكأنها.. وكأنها بضاعة فائضة عن الحاجة ترمى من يد ليد ...!

مسحت شذرة دمعة من عينها عندما سمعت صوت أزيز رسالة نصية ..

فتحت حقيبتها ونبضات قلبها تتسارع..

ليس لديها احد يرسل اليها اي رسالة عداه هو.. مهند ...

(صباح الخير شذرة .. اعتذر لأني لم أكن بوضع جيد لاكلمك مؤخرا .. يجب ان نلتقي هذه المرة .. وجها لوجه .. نحتاج لوقفة وكلام صريح اخير ... انتظرك غدا في نفس المقهى ...صباحا قبل موعد المدرسة ..)

سارعت لاخفاء الهاتف في حركة عفوية وكأنها تخاف من اي عين متلصصة تكتشف افعالها المشينة ...

خلود كانت تجلس امامها مع سوسو تحاوطها بذراعها كالعادة في عاطفة ام فطرية ..

ابتلعت ريقها وهي تحمد الله ان المقعد المجاور لها ما زال شاغرا بانتظار مزيد من التلاميذ ليلتحقوا بالحافلة ...

الارتباك والخوف و.. الامل .. كلها مجتمعة شلوا قدرتها على التفكير بهدوء ...

الافكار تتسارع وتتلاطم في عقلها على غير هدى ..

ماذا ستفعل الآن ؟ لا يمكنها ان تذهب اليه بمفردها كما لايمكنها ترك الامر ببساطة وكأنه لم يكن ..

هي لم تعد تعرف ما يمثله مهند ؟

لم تعد تعرف ماهية حاجتها اليه ..

لو طلبها للزواج ستوافق دون ادنى تردد..

لكن .. هل هذه خطوة صحيحة ام انها ترتكب حماقة ؟!

انها لاتعرفه حقا ولا تعرف شيئا عن ظروفه ..

يا الهي .. لمن تلجأ ؟ من تستشير ؟

خلود امرأة من معدن أصيل ولولا انها انفعالية وسريعة الغضب وتتصرف بتهور احيانا لكانت اخبرتها عن مهند واخذت بنصحها..

ليس لديها الا رباب .. هي رباب فقط من تثق برباطة جأشها وحكمتها رغم صغر سنها...

لاتستطيع اخبار الخالة ابتهال ..لن تجرؤ على اخبارها عما فعلته واتصالها برجل غريب لايام..

لا .. ستكلم رباب فقط .. رباب ستتفهمها ..

لكن ليس الآن ..عندما .. تهدأ الامور الحاصلة .. ستصارحها بكل شيء و.....

يا الهي .. مهند قال نلتقي في الغد .. هذا يعني انها يجب ان تخبر رباب اليوم تحديدا... !

لكن كيف ستفعلها ورباب نفسها في محنة بين ما حدث وبين وضع رقية المقلق..

لمن تلتجئ ؟ من سيعينها ؟ من سيمنحها الدعم والنصح ...؟

اخذت تدعو اللّه ان ينير بصيرتها.. دعته ان يفتح لها هذا الباب لعلها تجد مع مهند ضالتها فيجمعهما بيت يكون بيتها وتؤسس عائلة تنتمي اليها وتعوض فيها كل النقص الذي يقتلها..

هل تخبر اسيا ؟ اسيا كتومة وحكيمة وستساعدها .. اجل .. هي اسيا لا غيرها ..

" ما رأيك بهدى ؟"

اجفلت شذرة وخلود تلتفت اليها تطرح عليها هذا السؤال على حين غرة !

استعادت شذرة بعض هدوئها رغم تورد وجهها خجلا وشعورا بالخزي .. استوعبت السؤال لتتساءل ببعض الدهشة والاستفسار

" هدى ؟ تقصدين المعلمة الجديدة التي التحقت منذ شهر بالمدرسة ؟"

ردت خلود بقلة صبر غريبة وهي تثرثر بتلاحق

" نعم .. هي .. انها طيبة اليس كذلك ؟ مكسورة الجناح بعد وفاة زوجها وتربي ابنها بمفردها ..."

لم تفهم شذرة مغزى خلود من هذا لتردد قائلة تؤكد كلامها " نعم .. هي كذلك .. "

بدت نظرات خلود مشتتة جدا وهي تهذر بالمزيد " اجل هي .. كذلك .. انها .. انها تشبهني .. الا ترين انها تشبهني ؟ لا اقصد الشكل وانما .. اقصد الشخصية .. الطباع .."

مدت شذرة يدها لتلامس كتف خلود وهي تسألها باهتمام رقيق " ماذا هناك يا خلود ؟ لماذا لاتبدين على ما يرام وكأنك مرتبكة او قلقة .."

اخذت خلود ترمش وهي تردد " انا .. انا ..."

ارتفع حاجبا شذرة عجبا ثم تقلق اكثر وهي ترى عيني خلود تدمعان لتداريهما عنها في اللحظة التالية وهي تعتدل في جلستها وتقول بصوت مرتعش " لاشيء.. لاتقلقي .. سأخبرك لاحقا عندما يتم المراد .."

لاتعلم شذرة لم احست بالضيق من الامر كله؟

لاتعلم لم شعرت برغبة ملحة لتعرف ما يقض مضجع خلود فقط لتساعدها ...

مطبعة العباس

تشرب من القهوة بتمهل وهي تعيد في عقلها ما ستقوله بتأن شديد ...

تشعر بنظرات عباس نحوها فتطيل التفكير في الاسلوب الافضل لقول ما تريد ..

اخيرا وضعت الفنجان على سطح المكتب الذي يجلس خلفه ابو فاضل ثم ترفع عينيها اليه وبملامح مليئة بالعنفوان الجذاب قالت

" ابو فاضل احتاج منك خدمة .."

اسبل اهدابه بينما يقول بنبرة مبحوحة

" اؤمريني ..."

ردت بنبرة واثقة " اريد عملا ثابتا .. ابنتي كبرت وانا احتاج للعودة لاجواء العمل الحقيقي .."

لم ينتظر اكثر وهو يرفع عينيه لها ..

عيناه صغيرتان لكنهما حادتان بشكل واضح.. ابتسامة اختلجت على شفتيه بينما يقول بهدوء

" تنيرين اي مكان تتواجدين فيه ونحن اولى بنورك هذا .. المطبعة كلها تحت امرك .."

جاء دورها لتسبل اهدابها وهي تقول بابتسامة مجاملة " المكان منير باصحابه .. هذا هو عشمي فيك يا ابا فاضل .."

صمتت للحظة قبل ان تضيف بحرص شديد على ثبات نبرات صوتها " الفترة القادمة احتاج الاعتماد على نفسي اكثر .. احتاج الشعور بالاستقلالية والقدرة .."

صمتت مرة اخرى ولم يخذلها عباس وهو يقول بوعده القديم " وانا قلت لك سابقا لن يكون فوق فمي شارب رجل اذا لم اساعدك في اي شيء تحتاجينه .."

حركت يدها لتلتقط حقيبتها الجلدية وهي تقف على قدميها وتقول لها بابتسامة حلوة

" لن انسى معروفك هذا .."

فيمد يده مصافحا وهو يقول بتلك العينين الحادتين " ليس بيننا معروف يا ام حبيبة .."

يده صارعت رغباته باطالة مدة المصافحة ..

لكنه يراها اغلى بكثير من ان يأخذ منها لمسة (مشاعر) ليست من حقه..

اذا حصل ما يتوقعه وتركت زوجها الابله فلن تكون الا من نصيبه ..

لم يفكر يوما بالزواج بهذه الجدية ..

لكن جوري .. صعقت حياته بالكامل ..

غادرت جوري المطبعة لتتوجه نحو سيارتها المركونة على جانب الشارع ..

ارتدت نظارتها الشمسية السوداء وهي تعبر الطريق للجهة الاخرى حيث سيارتها ..

خلال دقيقة كانت تتحرك بسيارتها وعيناها المخبأتان خلف سواد النظارة تلمحانه عبر المرآة الامامية ..

لقد كان خلفها ..يقود سيارته ويلحق بها ...

اخفت ابتسامة شماتة قاسية وهي تتمتم لصورته التي تتوارى خلف السيارات الاخرى

" عش اللحظة يا مهند ... فليقتلك الشك ولتنهشك بعض ... الغيرة ..! وما زال هناك المزيد ..."

عند الظهيرة ...

اوقفت رباب سيارتها على جانب الطريق وهي تتكلم بعصبية وانفعال عبر الهاتف تكاد تصرخ في رقية لتنفس فيها عن كل ما يحصل بسببها " لماذا لم تذهبي للجامعة هذا اليوم ؟ لماذا لاتواجهينه ؟ هل كنت تصدقيني القول ام تتلاعبين يا رقية ؟ "

يأتيها صوت رقية بمراوغة غامضة " قلت لك لقد اتصلت به منذ الامس واخبرته .. دعيني اتصرف معه بطريقتي .."

انفاسها تثور في صدرها فتهدر فيها

" انا لااصدق كيف تتكلمين بصراحة وقحة هكذا ؟ الا تخجلين ..الا تملكين ذرة حياء؟"

فيأتيها صوت رقية ملولا متبرما

" اي خجل واي وقاحة رباب ؟! في اي زمن تعيشين ؟ انه خطيبي .."

هتفت بها وهي تضرب على مقود السيارة

" انه ليس خطيبك بعد .. الا تفهمين ؟ ما دامت عائلتك لاتعرف عنه شيئا وهو لم يطلبك منهم فهو ليس خطيبك .."

ردت رقية بثقة لاتخلو من الغرور " نهاية الاسبوع سيفعل .. اليوم لم يكف عن الاتصال بي وبعث رسائل التوسل والوعد بتنفيذ رغباتي .. وانا لم أرد عليه اطلاقا .."

للحظة هدأت رباب ..

هدأت لكنها كانت مصدومة بقدرات جديدة تكتشف وجودها لاول مرة في اختها ..

لم تتخيل يوما ان تكون رقية بهذه القدرة!

الامر بطريقة ما .. يوجعها ...!

حتى وان كان يعطيها طمأنينة لكنه يوجعها..

قالت رباب بنبرة حيادية تخفي افكارها تلك وتفصح عن افكار اخرى

" لهذا لم تذهبي اليوم .. انت تلوعينه ...!"

على الجانب الاخر صمتت رقية للحظات وكأن الخجل داهمها فجأة بعد طول جرأة ...

جرأة تصل لوقاحة ...

لتقول رقية اخيرا تؤكد كلامها وتنهي الجدل " قلت لك دعيني اتصرف معه .. "

جاء دور رباب لتصمت .. صمت يعبر عن القلق

في كل اتجاه لتلتقطه رقية بفطنتها فتطمئن

اختها بالقول الصادق " رباب .. ثقي بي .. انا

ايضا ابنة يونس العطار .."

ثم تضحك بخفة لتضيف بشقاوة " لكني

النسخة المطورة فقط ..."

لم تتفاعل رباب كثيرا مع مزحة رقية ..

لا تستطيع تجاهل ما حصل ..

لكن عليها الصبر حتى تنتهي المشكلة اولا

وبعدها سيكون حساب رقية مختلف ...

كانت تغلق الخط مع رقية وهي تقول

" يجب ان اذهب .. لدي عمل .. سلام.."

عندما فتح فجأة باب المقعد المجاور للسائق

لتحتل المقعد ضخامة عبد الرحمن ..

أجفلت قليلا بينما يبتسم هو في وجهها

بطريقة ما وعيناه على الهاتف الذي ما زال في

يدها ليتساءل بنوع من الفضول

" مع من كنت تتكلمين بانفعال هكذا ؟"

لاتعرف لم ارتبكت وهي ترد بتسارع يثير

الشك " م..مع .. رقية ..."

ظل ينقل نظراته بين الهاتف وبين وجهها ..

بدا غير مقتنع مما اثار مخاوفها ..

اخذت تتساءل ان كان سمع جزءا من الحوار

وهي تتكلم بصوت مرتفع ..

ربما كان يقف قريبا وهي لم تشعر به ..

ابتلعت ريقها وهي تسأل بعبوس حانق تخفي قلقها بشق الانفس

" هل لك ان تخبرني كيف وجدتني ؟! "

استند بظهره للباب فاصبح ينظر اليها مباشرة.. مرفقه مستند لظهر المقعد ويده قرب فمه ..

العبث يظلل عينه اللتين لاتفارقان النظر لوجهها بينما يرد على سؤالها بصوت مبحوح

" اشتم رائحتك يا قرفة .."

موجة حر اجتاحتها وهي تواجه هذه الكتلة البشرية الضخمة التي تشع بالعواطف .. والمصيبة كل اشعاعات عواطفه تتشربها روحها بتعطش بات يتزايد بشكل مخيف ..

همست بصوت ضعيف تداري ما تعانيه

" جديا عبد الرحمن كيف وجدتني ؟"

بنفس النظرة رد ببساطة " صدفة .. لمحتك عند اشارة المرور فلحقت بك .."

بدأ قلبها يخفق بسرعة وهي تتساءل ببعض الشحوب " كنت هنا .. طوال الوقت ..؟"

عيناه لمعتا للحظة بتساؤل وكأنه يستغرب حالتها لكنه ابتسم بخفة ومشاكسة وهو يرد عليها " اجل .. استمتع برؤيتك غاضبة .. الآن اخبريني ماذا فعلت مدللتكم رقية ؟"

اخذت تمسد على جبينها ما بين ارتباك وقلق لتدعي الحنق وهي ترد عليه

" لا شيء .. مجرد سخافات .. الان ليس لدي لا الوقت ولا الرغبة لاحكي لك اي شيء بالتأكيد هو لايخصك .. عندي عمل كثير يجب ان انجزه.. لذلك انزل عبد الرحمن واذهب الى .. حيث كانت وجهتك .."

بنبرة جذلى فاجأها بالقول

" وجهتي كانت ... لرؤية رانية ..."

تجمدت الدماء في عروقها وبهت كل شيء فيها بينما يحاصرها بنظراته وهو يضيف بنبرة مبحوحة " سألتقي بها في احدى المقاهي .. تريد ان تكلمني على انفراد .. "

هل انخفض ضغطها ؟! لماذا تشعر ان قلبها لاينبض !

أطرقت وهي تهمس " أأخرج .. من سيارتي ..."

جاء صوته أقرب .. فادركت انه اقترب قليلا منها وهو يقول بصوت أجش

" انظري الي ... انظري لوجهي .."

لم تحتمل وهي تهدر بهمس ناري

" سأصفعك .. "

انفاسه هدرت على جانب وجهها وهو يقول بهمس خشن يفيض شوقا وغراما

" افعليها واريحيني اتوسل اليك ... فقط عبري بأي طريقة انك تغارين ؟"

آآه ... ها قد عاد القلب ينبض حياً..

دمعة خائنة تكاد تفلت من عينها وهي ما زالت مطرقة تأبى النظر نحوه ..

لاتعرف هل تغتاظ منه ام من نفسها ..

كل ما شعرته حاجة ملحة للاختلاء بنفسها

قالت من بين اسنانها شبه المطبقة " انزل ..."

لكنه لم يرحمها ليقول بهمس حلو

" رضا سيكلم امي الليلة .. تخيلي حتى اللحظة الحاجة سعاد لم يصلها خبر ليلتنا العظيمة .."

لم تبدي اي ردة فعل .. كانت تقاومه بشراسة.. ثم جاء صوته الرجولي وبهمس من نوع مختلف

" أكاد لا أنام يا عديمة الاحساس .. احيانا وانا مستيقظ في غرفة اتطلع لظلام غرفتك في الجهة المقابلة اود لو أتسلل كذاك الحرامي واقتحم خلوة غرفتك فقط لاسكب ماء باردا فوق وجهك وشعرك المشعث .."

ثم يضيف بجرأة وقحة " وبعد ان ابللك .. لا اعلم ماذا يمكن ان يحصل ..؟ "

كان يجب ان تقولها .. كان يجب ان تعلن له بالذات ..

لن ترتكب نفس الخطأ وتعطيه الأمل ..

قالت وهي تتجرأ على رفع نظراته جانبا اليه

" عبد الرحمن .. حتى لو حصلت الخطبة .. فستكون لاجل امي فقط ولاجل ما حصل بالحي .. لكني لن أرضى ابدا .. باتمام هذا الزواج.. لن يحصل ... ابدا .."

لم تفتها تلك الاختلاجة الشرسة التي مرت على صفحة وجهه لكن ابتسامة رقيقة داعبت ثغره وهو يسأل ببساطة " لماذا ؟"

عقدت جبينها وهي ترد بشق الانفس " ما هو (لماذا) ؟! انا لااريد الزواج .. ما هو الشيء الصعب بتقبل رغبتي هذه ..؟"

هذه المرة كانت تعابيره غامضة لكن رد بابتسامة عريضة

" هذا النقاش سيطول .. لكن ماذا وراءنا ؟ لدينا العمر بطوله لنتناقر حوله ... "

كان يثير جنونها باصراره .. ماذا جرى له ؟ فقدت اعصابها وهي تضرب على المقود بقبضتها المتشنجة قائلة بانفلات

" انا لااستطيع الزواج .. افهمني .."

للحظة ضيق عينيه بتركيز واوشك ان يقول شيئا لكنه تراجع !

لاتعرف لم تراجع بالضبط ليعود لنفس الابتسامة قائلا بمناغشة عاطفية

" وانا سأعنس جوارك ان لم تتزوجيني .."

تنهدت بياس لتشوح بيدها وهي تقول



" اذهب اليها وصالحها و ..."

قاطعها وهو يتساءل بعجب ظاهري" من هي ؟!"

قالت اسمها بحرقة رغما عنها " رانية ..."

فيدعي البراءة وهو يتساءل " اين اذهب اليها ؟"

بدت بريئة وحلوة وهو تقول " الا تنتظرك بالمقهى وتريد .. محادثتك ؟ مؤكد هي تحاول ان .. ترجع العلاقة .."

عيناه في عينيها تفيض بالكثير ليقول بعدها بصوت أجش لايخلو من المشاكسة الرقيقة

" انا كاذب محترف .. لكنك تفوقينني احترافا .. كذبت عليك بخصوص لقائي المرتقب مع رانية .. انا لااعرف شيئا عنها منذ تركها العمل في الجامعة .. وانت تكذبين بمحاولاتك (اللطيفة) لارجاع الود بيني وبينها ..."

فجأة مال نحوها لتتراجع هي ناحية بابها مخطوفة الانفاس بينما يقول عبد الرحمن بشقاوة " ما رأيك ان نعقد القران مع الخطبة يوم الخميس ؟ "

تمتمت بعجز كامل " يا الهي .. الا تسمع شيئا مني ؟! ألن تكف ؟! "

فيرد بعينيه الشقيتين " ماذا هناك ؟ الخالة ابتهال مؤكد ستصر على عقد القران .. انا لا أؤتمن بصراحة وقد أتهور في أي لحظة .."

عيناه تلك تنحدران لشفتيها وتفاحة آدم في
عنقه تتحرك فادركت بخجل رهيب ان يبتلع
ريقه اثارة ليضاعف خجلها بالقول المغازل

" فقط لو اعرف ماذا يفعل الحب بي ليجعلك
لذيذة شهية في عيني هكذا ؟!"

صدرها يعلو ويهبط بجنون عندما اسبل اهدابه
ليمد يده للخلف ويفتح عتلة الباب قائلا
بصوت أجش " سلام يا قرفة .. وفكري
بموضوع عقد القران .. والدتك لن تتحمل
فضيحة جديدة في الحي اذا وجدتني اتسلل
اليك في جوف الليل .. "

ثم تحرك ليغادر سيارتها تاركا اياها بقلب
يكاد يفارق جسدها من عنف نبضاته ..

بيت يونس العطار

في نفس الوقت..

اخذت حبيبة تعد بعض الشاي الاخضر الذي
يريح معدتها من غثيان الحمل بينما تستمع
لكلام امها

" رضا اخبرني صباح اليوم وبشكل صريح انه
يطلب يد رباب لعبد الرحمن وقال انه سيكلم
أمه سعاد الليلة فهي لم تعرف بما جرى
البارحة حتى هذه اللحظة .. يقول ان عبد
الرحمن متعجل للخطبة ويريدها يوم الخميس
القادم .. واللّه عقلي تاه مني واختك الغامضة
تتهرب منا كالزئبق ! العنيدة اتصل بها وتصر
انها في السوق لامور مهمة تخص العمل ..

كلميها انت حبيبة .. انت تؤثرين في رباب منذ الصغر ... اقنعيها ان تتم الزواج برضاها ..

عبد الرحمن يريدها حقا ولن تجد افضل منه.. وانا .. اريد ان اطمئن عليها .. هي تحديدا اشعر اني اريد ان اطمئن لزواجها من رجل مناسب كعبد الرحمن ..."

ردت حبيبة وهي تجر كرسيا لتجلس قرب امها وتقول

" هوني عليك امي .. سأكلمها أعدك.. كنت أنوي فعل هذا على اية حال .. انها تجيد التهرب كما قلتها بنفسك ولم نستطع انا ولا اسيا الامساك بها حتى اللحظة! البارحة غادرت دار الازياء حال حضوري و هي تتحجج بضرورة بحثها عن بعض متطلبات العمل .. وعندما عادت للبيت ادعت النوم وتغلق عليها الباب ، واليوم ايضا هربت منذ الصباح وهي تقول ان لديها زبائن مهمين تسعى لعقد اتفاق معهم.. "

تنهدت ابتهال ووجهها بدا مرهقا وهي تقول بهذر ضعيف " ماذا سنفعل يا حبيبة .. حتى اسيا عجزت عن فعل شيء معها .. انها ترفضه بلا سبب كعادتها مع كل عريس .. لكن هذه المرة .. مختلفة .. يا الهي .. بعد كل ما حصل ماذا بوسعنا ان نفعل ؟! سمعتها ستسوء اذا لم نتمم الخطبة امام عيون الجميع الذين شهدوا او علموا بما حصل ... ام عماد اليوم أتتني خصيصا تتشمم اخبار الخطبة المرتقبة وانت

تعرفينها كم هي امرأة فضولية لجوجة ..
لقد .. لمّحت .. ان الخطبة مجرد ادعاء ولا
يعقل ان عبد الرحمن يفسخ خطبته من واحدة
ليخطب اخرى بعد اسبوع ! يا ربي ما هذه
الورطة .. صحيح اني كنت اريده لاحدى
اختيّك وتمنيته لرباب تحديدا لكن
بالاصول المتعارف عليها وفي الوقت المناسب
لا بفضيحة مجلجلة كاللتي فعلها غراب البين
سعدون .. لا سامحه اللّه على فعلته القبيحة.. "

زفرت حبيبة بقوة وعيناه تقدحان شررا وهي
تقول بغضب " فقط لو استطيع الذهاب اليه في
بيته دون ان تثار مزيدا من المشاكل .. كنت
عرّفته مقامه هذا العجوز الخرف .."

ارتشعت شفتا ابتهال وكأنها توشك على
البكاء وهي تقول بقلة حيلة

" ماذا بوسعنا ان نفعل يا حبيبة .. اللّه ابتلانا
بجار مثله .. هل تعلمين انه لم يغادر بيته منذ
تلك الليلة العصيبة ...؟ ماذا جنى من فعلته
تلك ؟ الآن دعينا منه .. يجب ان نحل
المسألة.. وكله بيد رباب ..وآآه من اختك
رباب .. تقلقني جدا ولا اعرف لماذا ! اشعر انها
تخفي امرا ما .. احساس الام لايخيب .."

اخذت حبيبة تشد بذراعها حول كتفي امها
ثم تقبل وجنتها وتقول بدعم

" اهدئي حبيبتي .. الامر بسيط ورباب عاقلة..
لكنك تعرفينها استقلالية جدا ولا تحب ان

تفرض عليها الامور .. دعيها ليوم آخر تستوعب ما حصل وتفكر به بروية .."

أخذت ابتهال تهز رأسها والهم يثقل عليها فتسأل حبيبة لتغير الموضوع

" اين كل الرقة ؟ تبدو وكأنها شبح خفي بالبيت !"

ردت الام بلا تركيز " لا اعلم ما بها هي الاخرى .. اليوم لم تذهب للجامعة وقالت ستدرس بالبيت افضل .."

دخلت شذرة المطبخ وهي تلقي التحية

" مرحبا ..."

ردت ابتهال اولا " اهلا شذرة .. تعالي يا ابنتي واشربي الشاي .."

ثم ردت حبيبة التحية ايضا فتبسمت لها شذرة بينما ترد على خالتها بالقول الذي يفضح ارتباكا خفيا " فيما بعد خالتي .. سأذهب لزيارة اسيا .. احتاج منها ...بعض الامور .."

لم تركز ابتهال كثيرا معها وقد كان بالها مشغولا في وضع رباب بينما اثارت اهتمام حبيبة للحظة .. لم يكن من طبع شذرة الذهاب لاسيا .. بل لاتتذكر حبيبة انها رأتها تزور اسيا في بيتها سابقا !

كان مجرد خاطر أتى لحبيبة في لحظة ثم تلاشى في اللحظة التالية ..

وقفت حبيبة على قدميها وهي تقول " تعالي لنذهب سويا .. كنت سأذهب اليها للتو "

تفاجأت حبيبة من شحوب مفاجئ لشذرة وهي ترتبك وتقول " الآن .. نذهب سويا الان؟"

ارتفع حاجبا حبيبة قليلا ثم ردت ببعض الدهشة

" اجل .. ألم تقولي انك ذاهبة اليها الآن ؟"

تمتمت شذرة بمزيد من الارتباك

" نعم .. نعم .. "

مالت حبيبة لتقبل رأس امها وهي تهمس لها

" عندما تعود (الغامضة) اتصلي بي .. "

هزت الام رأسها ايجابا بينما تعتدل حبيبة بوقفتها وهي تنظر بفضول لشذرة قائلة

" هيا شذرة ..."

دار حضانة الورود

اوقفت سيارتها قريبا من دار الحضانة ثم ترجلت منها وغادرتها بعد ان اقفلتها وعيناها ترنوان عبر اعمدة السور الحديدي وتتطلعان بابتسامة على الشفتين للاطفال الصغار وهم يلعبون ..

شردت نظراتها وهي تتحرك صوب بوابة الدار.. الكثير في رأسها يدور ويدور ولا احد غيرها يعلم بما تخطط له وتنتويه ...

ألقت السلام على الحارس الامني للدار والذي لايمت لهيئة الحراس الامنيين بصلة ..

رجل خمسيني نحيف رأسه ضائع تحت قبعته الكحلية.. لم يكن عجوزا لكنه مؤكد لايوحي انه رجل أمن خاصة مع تلك الطيبة والسذاجة اللتين تشعان من عينيه ...

بمواجهتها المبنى الابيض للدار بطرازه البسيط والرسومات الطفولية التي ملأت جدرانه .. سارت في الممر المبلط تتطلع مرة اخرى للاطفال الذي يلعبون في الحديقة الجانبية للممر .. لم تر بينهم ابنتها فتبسمت تلقائيا وهي سعيدة بخطوتها هذه لارسال حبيبة الى الحضانة .. ستجعلها اكثر انفتاحا وجرأة وهي تختلط بالاطفال ...

الباب الخشبي للدار كان مفتوحا ...

و.... هناك .. كان يقف ...

هل تفاجأت بوجوده ؟ لا .. بل كانت تتوقع حركة كهذه منه ..

انها تحفظ زوجها .. تحفظ كل شيء فيه..

بجمود خارجي تعترف ... فأساس الشفاء من كل علة الاعتراف بها اولا ...

هل تستطيع ان تنكر انه يخطف انفاسها بوقفته تلك ... ؟

عيناه نصف مغلقتين وهو ينظر اليها بغموض وفمه (العاطفي) الذي تحفظه متراخ ...



يداه في جيبي بنطاله الاسود وقميصه الرمادي

اظهر امتلاء جسده في جاذبية ..

لم يكن يوما ممن يملكون العضلات الملفته

او الضخامة المميزة ..

كان فقط رجل جذاب ببنيته المتوسطة

وسمرته الخفيفة واسلوبه الخاص في النظر

والشقاوة التي ما زالت تلتمع في عينيه ..

شقاوة متأصلة فيه حتى وان كان نسيها هو ..

لم يكن مهيبا كما لم يكن ظريفا او خفيف

الظل ...

لكن لديه امر عجيب كرجل ..!

القدرة على اثارة مشاعر الشوق والتعلق ...

رجل محبوب بالفطرة ...

وكانت غبية حقا لتقع في هواه يوما ...

بلا مبالاة باردة ألقت تحيتها " مرحبا مهند ... "

لم يرد وهو يواصل النظر اليها ...

نظرة تقييم رجولية بحته ..

من اسفل حذائها ذي الكعب المتوسط صعودا

لبنطالها الانيق الكحلي ثم قميصها الابيض

بحواف كحلية وقد كانت خلعت سترتها

الربيعية الزرقاء وتركتها في السيارة ...

تقييمه لم يحرك فيها (ظاهريا) اي شيء

بينما تسأله ببساطة مظهرة حنقا مطصنعا

" هل جئت تأخذ حبيبة ؟ لماذ لم تعلمني بدلا من ان تجعلني اقطع الطريق ..؟!"

رد اخيرا بسلاسة متجاهلا تماما القاء اي تحية

" بل جئت اراها فقط .. اشتقت لها .."

ألم تكن تفكر قبل لحظات فقط انه رجل يثير الشوق ؟!

عجبا .. عجبا .. ترى كيف يكون عندما تتبادل الادوار ويكون هو من يشتاق ؟!

ان يشتاق بكل روحه وعاطفته ...

ان يتعذب من شدة الاشتياق ...

سألت بنبرة ساخرة تخفي غليل مشاعرها " وهل رأيتها ؟ هل اشبعت شوقك ؟"

رد وعيناه في عينيها " نعم .. رأيتها .. و .. لا .. لم اشبع منها ابدا .. بعض الاشخاص في حياتك لايكفون عن اثارة الشوق فيك حتى وهم امامك .."

منحته نظرات باردة قاسية كقسوة الجليد تكسر امواج من دفء ترسلها عيناه لتلامس شواطئها ...

تحركت جوري اخيرا مرفوعة الهامة تتجه الى داخل دار الحضانة فتلقي التحايا على من تمر بهم تتجاهل من يلاحق خطواتها دون ان يضيف كلمة ..

لم يطل الوقت لتخرج من نفس البوابة الحديدية حاملة ابنتها بين ذراعيها تضاحكها وتدغدغها وظله ما زال خلفها ..

ظل صامتا غامضا لاتعرف بم يفكر ...

هي تعرف معظم افكاره وتستطيع تخمينها .. لكن هناك ما يحجبه ويحتفظ به لنفسه ...

كانت تقترب من سيارتها المركونة عندما سمعته يسأل

" لم اعرف لم جعلتها تدخل دار حضانة ؟"

ردت عليه باسلوب عملي بحت

" لاني اريدها ان تتكلم .. وافضل وسيلة هي الاختلاط مع اطفال من سنها .."

كانت تفتح باب سيارتها الخلفي حتى تُجلس حبيبة عندما داعبتها باumومة تلقائية

" اخبريني قطرتي ... كيف كان يومك الثاني؟"

ردت حبيبة بابتهاج رغم تثاؤب النعاس

" حلو .. سكر .."

لم تشعر الا برأس مهند يميل فجأة ليقبل ذقن ابنته وهو يقول لها بدفء

" انت هي كل السكر ..."

كان ما زال مستوى رأسه منخفضا وهو يزرع القبل على ذقن ابنته يشكشكها بلحيته النابتة والصغيرة تضحك ويداها الصغيرتان تتشبثان بياقة قميص ابيها ..

ثم فجأة رفع نظراته لجوري المنغلقة على نفسها وكأنها خارج اي عالم يجمعه بها حتى لو كان عالم ابنتهما ...

عيناه في عينيها وهو يفاجئها بالقول

" اول مرة اسمعك تنادينها (قطرتي) .."

كان شيئا لم تتوقعه على الاطلاق !

لم يكن يوما ينتبه لتعاملها مع حبيبة ..

لم يهتم حتى ان ينتبه ..

الامر كله بالنسبة له تعود ..

ضمن السياق اليومي لحياة مملة مجبر عليها ...

بكل تفاصيلها الباهتة المسلم بها وكأنها لاتعنيه في شيء ...

لم تستطع جوري الا ان تقول بقسوة

" انت لم تسمعني يوما مهند .. لااظنك حتى تميز نبرة صوتي بين باقي الاصوات ..! "

عيناه لم تفارقا عينيها وهو يرفع رأسه ببطء مقتربا بأنفه من كتفها بلمسة عابرة لم تعرف انه يتشممها يبحث فيها عن عطر البخور ولا يجده ..!

قال بنبرة مبهمة " موعدنا بعد يومين .."

رفعت حاجبا واحدا لتتساءل باستهانة

" اي موعد ؟"

ثم اجسلت ابنتها في المقعد المخصص لها على المقعد الخلفي واغلقت الباب بينما تأتيها همسته المنادية باسمها " جوري ..."

ان كان يظنها ستضعف الآن فهو شديد
التفاؤل او انه لم يعرفها قط ...

ردت ببساطة " نعم ..."

عيناه شفت بعض غليلها ...

تلك النار التي تتصاعد جذوتها في عينيه
تكاد تصلها وتطولها و ... تحرقها ...

وكم هو احتراق ترحب به لتشعره وتعيشه ..

انه حقها منه تسترده ...

لكن حتى هذه الغيرة لاتكفيها ...

تريد المزيد .. والمزيد ...

سألها بنبرة لاتحمل توصيفا واضحا

" اين كنت صباح اليوم ؟"

أمالت رأسها جانبا تتصنع التفكير وهي تردد
بنظرات سارحة بعيدا عنه

" اين كنت ؟ اين كنت ؟ امممممم .."

لتعاود النظر لوجهه وترد بابتسامة قاسية
مستهينة " امر لايعنيك ..."

للحظة وهج نيران الشك والغضب احتلت
نظراته وكست ملامح وجهه ...

داخلها يتنفس اثارة ... حقا الانتقام لذيذ
احيانا ... لكنه فاجأها مرة اخرى وكل شيء
فيها يتستر بالغموض الكامل بينما يقول
بنبرة هادئة " موعدنا بعد غد ... سنتكلم
كثيرا على ارض محايدة ..."

لاتعرف لماذا خرجت الكلمة من فمها " لا ..."

ضيق عينيه قليلا وهو يتساءل بتأن

" ماذا تقصدين ؟"

شمخت بذقنها وهي ترد عليه ببرود

" لدي عمل حتى نهاية الاسبوع ... دعنا نؤجل اللقاء المرتقب لبحث تفاصيل الطلاق الى يوم الخميس ... عصرا ..."

اسبل اهدابه وكفاه يتحركان بشكل عجيب على جانبيه .. عجيب ومغرٍ في الواقع ...

حركات كفيه جذبتا عينيها للحظة ثم يأتي صوته المبحوح ببحة غريبة وهو يسأل دون اي مراوغة

" ماذا كنت تفعلين صباحا مع عباس ؟"

عاودتها الاثارة والنشوى وهي ترفع نظراتها لوجهه المبهم التعابير فهمست بحلاوة وبراءة مصطنعة " ألم تعلم ؟! انا سأتـ...... اقصد... سأعمل .. مع عباس .."

طعنة كانت باشد حالات سعادتها وهي توجهها اليه ...

ابيضت شفتاه وهي تغزر سكينها اكثر في صدره مضيفة " بشكل ثابت و.. دائمي ..."

تجمدت ملامحه بصدمة وهو يستوعب تلميحها بالكامل .. لم يكن غبياً ليدرك انها تعني (الزواج بعباس) وقد أوصلت رسالتها اليه على أتم وجه ممهورة بطعنتها النجلاء في صدره...

تراقب برضا تام تلك الملامح التي عشقتها

يوما وكانت تعشق تمرير سبابتها على

حاجبيه وخط أنفه ثم تقبل بلمسة خفيفة

شفتيه ... كل هذا كانت تفعله وهو نائم ..

يكون لها بالكامل وهو نائم ...

قالت اخيرا والمشاعر تضج بصدرها

" الحرية لاتقدر بثمن يا زوجي العزيز ..

تجعلك كنسر يفرد جناحيه يباهي بها

الكون ليحلق في اي سماء يختارها ويقتنص ما

يشاء ..."

لم تعد عيناه مفهومتين على الاطلاق فادركت

انه ببساطة يجاهد ليحافظ على رباطة

جأشه..

وبحدس غريب شعرت انه يسعى لامر ما..

رفع كفه اليمنى فانكمشت غريزيا في

توجس لتأثير لمسة محتملة منه ..

اصابعه تغلغلت بين خصل شعرها المفرود على

كتفها ودون ان يقف بوجهه شيء كان يصل

باصابعه حتى فروة راسها من الخلف يشد بنوع

من الخشونة دون ان ينطق بحرف ...

قالت وعيناها تقدحان شررا

" اترك شعري مهند .. نحن في الشارع .."

في لحظة كانت اصابعه تحرر شعرها وهو

يقول بصوت أجش " سنتكلم الخميس ..

سنتكلم .. كثيرا "

ابتعد ليستدير موليا اياها ظهره بينما يلقي اخر كلماته

" والموعد لن يتأجل مرة اخرى .."

هتفت في داخلها بكبرياء وهي ترفع اصابعها لشعرها تمسد فروة رأسها حيث كان مهند يشد بخشونة

" لا .. لن يتأجل .. المحتوم علينا تقبله.."

كانتا تعبران الشارع نحو بيت الصائغ عندما شعرت حبيبة ان شذرة تخلفت وراءها..

التفتت حبيبة برأسها لترى سبب تخلفها ذاك فتفاجأت بوقفة شذرة وسط الشارع تقريبا وهي تنظر لحبيبة بجزع !

تمتمت حبيبة تتساءل بمزيد من الفضول والدهشة " هل هناك شيء شذرة ؟ انت لست على ما يرام ..."

اخذت شذرة تحدق في حبيبة وتكاد تشعر بجسدها كله يختض ...

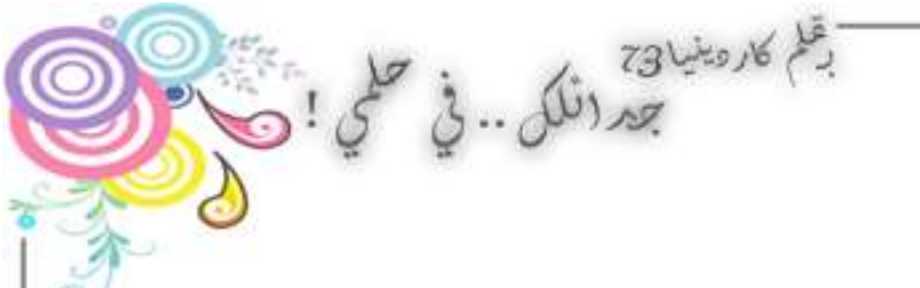
مزيد من الافكار المفاجئة يقتحم عقل شذرة وهي تنظر لحبيبة كما لم تنظر اليها يوما ..

حبيبة منفتحة اكثر من كل اخواتها ..

قوية واثقة وحضورها مميز وملفت ..

ربما تكون هي من يصلح ليساعدها ..

ربما هي من ستكون العون الذي تنشده ...



سمعت حبيبة تسألها وهي تقترب منها

" شذرة ما بك ؟ .."

الاهتمام الصادق الناضح من كلمات حبيبة

ونظرات عينيها ذكرتا شذرة بالحاج يونس

العطار ..

كان رجل فريد يجيد الاهتمام ...كأبيها ..

فلم تشعر الا وهي تقول بارتعاش والدموع

تنسكب من عينيها

" ساعديني حبيبة بالله عليك .. انا.. انا ..

تائهة ! "



الفصل الخامس عشر

فتح رضا باب شقته فيخطو للخارج واسيا في اثره بينما يقول لها بهدوء

" سأذهب لأكلم امي الآن .. و ربما اذا سارت الامور كما اتوقعها سنذهب لخطبة رباب رسميا هذه الليلة .."

عينا اسيا تجاوزتا كتفي زوجها ناحية بيت والدها المقابل فتتركز على شباك غرفة رباب فتتمتم ببعض التوتر

" فليفعل الله ما فيه الخير .."

شعر بتوترها والضغط على اعصابها فسأل بتفهم

" لم تكلمي رباب حتى الآن اليس كذلك ؟"

رددت اسيا وهي تعيد نظراتها لوجه زوجها

" لا .. لا أنا ولا حبيبة ولا حتى امي التي تعيش معها بنفس البيت استطاعت الامساك بها والتكلم معها بجدية .. انها فتاة صعبة حقا عندما تشاء .."

تبسم رضا يخفف عنها ببعض المناغشة

" ربما ما حصل كان الحل الامثل لحالتها الصعبة .. "

تنهدت اسيا وهي تقول " تتكلم كحبيبة .. انها في قمة الاثارة والتشويق لان رباب مجبورة على القبول بالخطبة .."

شردت افكار رضا للحظة وهو يلتفت للخلف فيحدق ببيت يونس العطار لكنه على خلاف زوجته لم يوجه نظراته لشباك غرفة رباب بل الى الشباك في الزاوية حيث غرفة صغرى القوارير ... رقية ..

قال رضا وافكار غير مريحة تعبث بعقله

" وماذا عن رقية ؟! تبدو غريبة الاطوار ..الا ترين اعتكافها في غرفتها غريب ؟! ووسط كل هذه الاجواء تبدو منعزلة او منشغلة عنا جميعا .. الخالة ابتهال تقول انها حتى لم تذهب لجامعتها هذا اليوم .."

زمّت اسيا فمها تخفي امتعاضها من رقية ..

لاتعرف هل هي انانية منها ولا تفكر بما تمر به العائلة ام انها غيورة من رباب لانها تسرق الاضواء بما حصل من احداث متسارعة خلال اليومين الماضيين ...

قالت اسيا اخيرا وعيناها تلمعان بالعزم

" اجل .. هذه الفتاة تثير حيرتي .. لكني سأتفرغ لها حالما ننهي مشكلة رباب .."

أطرق رضا برأسه ثم استدار وهو يلقي السلام لزوجته .. لكنه لسبب مجهول يشعر بالقلق على بيت العطار .. هناك حدس او ألهام يخبره ان الامور هناك ليست على ما يرام ..

كانت اسيا تغلق باب شقتها عندما لمحت سيارة حبيبة تخرج من مرآب بيتهم فتعجبت وهي تنظر لمن يرافقها بالسيارة وتقول

" حبيبة وشذرة ! ترى الى اين تذهبان ؟!"

على ناصية الشارع قريبا من النهر ..

تجلس حبيبة في مقعد السائق بسيارتها تنظر بإشفاق وتعاطف الى شذره الجالسة جوارها وهي منهارة في موجة بكاء شديد...

كانت قد اخذتها في جولة بالسيارة لتتكلما بحرية حتى اوقفت حبيبة السيارة على جانب الطريق لتحاول تهدئة شذرة التي تبكي بحرقة .. قالت لها اخيرا وهي تقدم لها علبة المناديل الورقية لتمسح وجهها " لاتبكي شذرة .. انت لم ترتكبي اثما لايغتفر .. حتى وان اخطأتِ في الاتصال به لكني اتفهم احتياجك اليه و ضعفك لتفعلي ما ترينه خطأ.."

غامت عينا حبيبة وهي تتذكر الماضي عندما كانت بعمر شذرة تحديدا فأضافت بينما بكاء شذرة يهدأ

" انا مررت بفترة ضعف مشابهة في سنك .. كان بعد.. وفاة ابي .. كنت اتخبط في الغضب والافتقاد .. وارتكبت حماقات لاتحصى وآذيت اعز الناس لدي .. امي ..."

رفعت شذر عينيها الباكيتين لحبيبة تنظر بعجب .. لم تتوقع ان احدى بنات عمها يونس يمكن ان يؤذي الخالة ابتهال .. انها امرأة صالحة وأم متفانية ..

مسحت انفها بخجل من هذا الانهيار وقد شعرت بالتحسن بتفريغ كل هذا الذي تختزنه ولم تستطع البوح به لاحد من قبل ...

قالت حبيبة اخيرا بابتسامة رقيقة " هذا افضل كثيرا يا فتاة .. الآن احكي لي من البداية ما حصل مع هذا الشاب المعجب .."

تورد خدا شذرة بينما تفكر ان مهند لا تراه شابا ابدا .. انه رجل .. ناضج !

عبرت عن افكارها بصدق قائلة لحبيبة

" انه .. ليس شاب تماما .. اقصد انه ليس في العشرينات .. قال لي ان عمره ستة وثلاثون .."

بعض القلق ساور حبيبة عندما علمت عمره .. انه حقا ليس بشاب وهذا لوحده مقلق ..

ما الذي يجعل رجل مثله يشاغل فتاة صغيرة؟

قد يكون ينوي اغواءها بالتدريج والصبر ..

كصياد ماهر يجيد الايقاع بالفتيات الصغيرات العديمات الخبرة كشذرة ..

أخفت حبيبة قلقها بمهارة بينما تحث شذرة بابتسامة لطيفة لتكمل

" حسن .. احكي لي من البداية كيف التقيتِ به وما اسمه بالمناسبة ؟"

ردت شذرة والتورد يزداد على خديها

" لا اعرف الا اسمه الاول .. مهند .."

للحظة تجمدت حواس حبيبة ...

مهند ؟! وعمره .. ست وثلاثون ؟!

احساس بارد سرى في عروقها واوشكت ان تسأل شذرة عن شكله لكنها تراجعت في آخر لحظة ..

نظرت لوجه شذرة وقد بدت متماسكة بشق الانفس .. الفتاة منهارة وهي ستزيد الحمل عليها اذا جعلتها تشك بهوية من تحب ..

ثم لماذا هذا التخوف ؟!

الا يوجد الا مهند واحد بعمر السادسة والثلاثون؟!!

لكن الاحساس القابض لصدرها يأبى ان يخفت .. هل هي حقا مجرد صدفة ؟!

لم تعد حبيبة تبذل جهدا لرسم ابتسامة فعقلها ابتدأ بضخ تصورات لاتنتهي لتحسمها حبيبة بالقول المتساءل

" تقولين انه ينتظرك غداً لحسم الامور ؟"

ردت شذرة ببعض الارتباك " نعم .."

فقالت حبيبة وعيناها تلمعان بروحها النارية

" اذن سنذهب معاً .. "



ابتسامة امتنان شعّت على وجه شذرة وهي تهمس " حقا حبيبة ..؟! "

فردت حبيبة بنبرة قاطعة " مؤكد .. ان كان جادا برغبته الزواج منك فيجب ان يراه احد من اهلك ليعلم انك لست بمفردك .."

عادت الدموع تتجمع في عيني شذرة .. لكنها دموع الراحة بينما ترمي نفسها في حضن حبيبة لتهمس بمزيد من الامتنان

" شكرا لك حبيبة .. الف شكر .."

اخذت حبيبة تربت على ظهرها وعيناها شاردتان بالافكار التي باتت تتضخم ..

تذكرته كيف بدا عندما رأته مؤخرا ..

وتلك الطفلة التي كان يحملها ..

كانت تشبهه ...

انها خبيرة بالوجوه .. عملها منحها هذه الميزة.. تلك الطفلة تشبهه بشكل قطعي ..

يا الهي .. هل يمكن انه نفس الـ (مهند) ؟

وما غرضه من التقرب لشذرة تحديدا ؟

خاصة اذا صدق تخمينها انه متزوج ولديه طفلة وربما حتى مزيد من الاطفال ...

كل هذه الافكار لن تجدي نفعا ..

غدا ستقطع الشك باليقين ..

قالت حبيبة اخيرا وشذرة تبتعد عنها لتعود لمقعدها وهي تمسح دموعها

" سأمر بك صباحا .. اطلبي من خلود ان تأخذ لك اجازة واخبري امي انك ستأتين معي لشراء بعض الامور التي تحتاجينها.. "

هزّت شذرة رأسها بـ (نعم) بينما حبيبة تشغل السيارة وتنطلق بصمت وهي تعقد حاجبيها بتفكير قلق ..

بيت الصائغ .. غرفة المعيشة

علت زغاريد الحاجة سعادة واحمر خداها انفعالا وهي تقول بفخر

" هذا هو النسب والا فلا ... ما لنا نحن ومال نسب الدلبوماسي ...؟! "

ثم تعود للزغاريد بينما رضا يضحك بخفة وهو يطرق رأسه ويتلاعب بخاتمه وافكاره الداخلية تأخذه هنا وهناك ..

قالت بدرية بتذمر وهي تغلق اذنيها بكفيها

" اهدأي يا امرأة .. ستمزقين طبلة اذني بزغاريدك .. ثم ان الكلمة (دبلوماسي) وليس (دلبوماسي) .. ستفضحينا ! "

كانت سعاد تجلس جوارها فتدفعها في كتفها وتقول " اسكتي يا بدرية ولاتفسدي فرحتي.. كنت سأختنق من ابنة الطائي المتعجرفة تلك .. الحمد لله عوضنا الله خيرا .. وسأظل اناديه بنفس الطريقة .. دلبوماسي .. هل سمعتني .. دلبومااااسي .."

ضحكت بدرية من قلبها ثم أخذت تحرك حاجبيها وتبتسم بمكر قائلة

" اذن انت لست حانقة على غراب البين .."

فردت سعاد بينما تدخل حفيدتها سوسو لتذهب لعمها رضا وتجلس على حجره

" هو غراب البين بلا شك ولو كنت مكان ابتهال لخنقته بيدي هاتين .. لكنه بما فعله فتح ابواب فرح في بيوتنا .."

التفتت بدرية لرضا الذي كان يلامس شعر سوسو الذهبي وهو يقول لها بنبرة محببة رجولية " سلاسل الذهب هذه اغلى من كل المصوغات عندي ..عندما تصبحين عروسا سأصوغ هديتك من ذهب شعرك هذا "

تضحك سوسو وهي تتدلل بشعرها وتنثره على كتف عمها ...

سألت بدرية اخيرا وقلبها مملوءا بالرضا لهذا الرجل الذي ارضعته ومنحها الله نعمة امومتها له " يا ابا جعفر .. هل من اخبار عن سعدون ؟"

اسبل اهدابه والصغيرة سوسو اخذت تدمدم باغنية تحبها بينما يرد عمها بالقول

" انه لم يغادر بيته منذ ليلة السبت العصيبة.."

دخلت خلود تحمل صينية اقداح الشاي و صحن من الكعك بالسمسم

قدمت أولا لرضا وهي تقول بمحبة عفوية

" تفضل يا ابا جعفر .. اشتريت الكعك خصيصا لاجلك هذا اليوم .. انه من مخبز جديد قرب موقف الحافلات .."

ناظرها بحنان ويرد عليها " سلمت يداك .. هذا الكعك هو المفضل عندي .."

كانت سعاد في قمة حماستها لتنهض بحمل جسدها الثقيل وتقول بكلمات متدفقة

" خلود اذهبي وحضري نفسك .. ارتدي فستانا حلوا .. سنذهب لنخطب رباب لأبودي "

ابتهجت اسارير خلود وهي تقول لحماتها

" حقا خالتي .. تريدينني معك ؟ "

فتعبس سعاد وهي تستند على عكازها وتقول وكأنه أمر بديهي

" طبعا .. ومن غيرك يأتي معي ؟ انت ابنتي التي اعتمد عليها بيوم كهذا .. كما لا وقت لدي لانتظار رحاب حتى تأخذ حماما وتستعد في ساعتين وكأنها هي العروس ..؟"

اخذت سعاد تتحرك ببعض الصعوبة بينما بدرية تضحك وتغيظها بالقول

" سأموت فضولا وشوقا لرؤيتك كيف ستتعاملين مع كنتك الرابعة .. خاصة وهي ستأخذ قلب الغالي اصغر ابناء الصائغ ..."

تسارع خلود عفويا لتضع الصينية على اقرب طاولة بينما تتقدم من حماتها تسند مشيتها اما سعاد فترفع حاجبيها عاليا وتغلق عينيها بحركة ترفع ثم تقول ردا على رفيقة عمرها

" لاتتدخلي بيني وبين كناتي يا بدرية .. هن تعودن علي وانا لا استغني عنهن .."

تضحك بدرية عاليا بينما يقف رضا ضاحكا على قدميه ومعه سوسو فيمسك بكفها في راحة يده وهو يقول " حديث الكنات هذا ليس مكاني .. انا ذاهب للعريس مع سوسو .. انه ينتظر مني اشارة الفرج في جناحه .. "

تحرك رضا مع ابنة اخيه فيسبق خطوات امه البطيئة ليغادر غرفة المعيشة بينما تتوقف سعاد الهنيهة وتلتفت لبدرية وتقول

" ما رأيك ؟ هل نتصل برفيدة ايضا عسى ان تجد وقتا لتلحق بنا قبل غروب الشمس .. ؟"

بنظرة خاصة وجهتها بدرية لسعاد وكأنها تذكرها بأمر فاتها فتقول بتركيز على كل كلمة

" دعي رفيدة يا سعاد .. لا داعي لتحضر معنا اليوم .. وان عاتبتك تحججي ان الموضوع اتى سريعا فلم تجدي وقتا لتخبريها .."

التقطت سعاد ما تحاول بدرية لفت نظرها اليه فأدركت ان الامر سيحرج ابتهال لامحالة اذا حضرت رفيدة .. على الاقل اليوم فلتدع الامر يمر بسلام وتتم الخطبة ..

تمتمت سعاد بتأكيد وهي تواصل المسير مع خلود " نعم نعم ... انا وانت وخلود نكفي هذا اليوم .. "



مساء .. بيت العطار .. غرفة رباب..

كانت منهكة من اللف بالسوق والبحث عن بعض طلبات زبونات جديدات..

لديها عمل مهم يجب ان تنجزه بدقة واذا نجحت فيه سيكون فاتحة خير على الدار..

الزبونات الجدد مهمات ممن يهتممن بالجلسات النسائية والظهور باناقة مميزة الطراز ..

ستكون دعاية مجانية لعملها اذا قدمت المطلوب ..

خلعت حذائها بينما تفك دبوس حجابها ..

عليها ان تأخذ حماما ثم تذهب لرقية وتعرف منها اذا كان هناك اي مستجدات ..

انفتح باب غرفتها وغريزيا علمت انها لابد والدتها ..

لقد كانت تصلي العشاء عندما دخلت رباب البيت وقد وجدتها فرصة لتهرب سريًا للطابق الثاني تأخذ حمامها وتكلم رقية ثم تنام مباشرة ...

لكن يبدو انها كانت طفولية تماما باسلوبها في التهرب وها هي تواجه نظرات امها الحانقة التي دخلت غرفتها واغلقت الباب خلفها لتفاجئها بقول مباشر دون مقدمات

" صارحيني رباب .. لماذا ترفضين عبد الرحمن بل واي عريس يتقدم لك ؟"

رمشت رباب للحظة وبشرتها تشحب ..

وجملة امها الاخيرة تتردد في رأسها

(واي عريس يتقدم لك ..)

ابتلعت ريقها بصعوبة بينما تحني راسها لتفك عقدة شعرها وهي تقول بنبرة مرتبكة

" انا .. اريد فقط ان ابني مستقبلي .. لاافكر بالزواج الآن ..."

فتفاجئها امها بالمزيد الذي لم يخطر ببالها

" اذن لاوجود لشاب يشاغلك ويمنعك عن قبول العرسان بمن فيهم عبد الرحمن ؟"

رفعت رباب عينين تفيضان بالدهشة بينما ترد على امها ببعض الصدمة

" امي !! من أين أتتك هذه الفكرة ؟ "

تقدمت ابتهال لتقول بحزم دون ان تظهر تأثرا بدهشة ابنتها " لقد خطرت ببالي .. ربما هناك من يعجبك وعوائق تقف بينكما لسبب او لاخر "

كان قلب رباب يخفق بعنف يوجع !

امها لاتعلم كم يوجعها هذا الامر فقالت رباب بينما تتحرك ناحية الخزانة وهي تفك ازرار قميصها " لا امي .. اطمئني .. لا احد في حياتي .. الامر كما اخبرتك وحسب .. اريد ان ..."

لتفاجئها امها مرة ثالثة وهي تقاطعها بحزم أشد " حسن اذن .. ستتزوجين عبد الرحمن .."

اغمضت رباب عينيها للحظة وهي تتخفى خلف باب الخزانة المفتوح وقلبها يتوجع يتوجع بالعشق .. كيف ستخرج من هذه المحنة الجديدة التي وقعت فيها ...؟

محنة ان تعشقه ويعشقها .. تهرب منه فيلاحقها .. تذوب فيه فيعصرها بغرامه..

صوت امها بات قريبا جدا منها وهي تضيف بالقول " لقد طلبك مني رسميا ورضا جاء اليوم مع سعاد التي لم تكف عن زغاريدها فرحا بك .."

سيطرت على انفعالاته المتناقضة لتغلق باب الخزانة بيد مرتعشة وهي تهمس بصوت مبحوح " متى ... أتت ..؟ "

فردت ابتهال بنفس النظرة الحازمة العازمة

" بعد المغرب بينما كنتِ في السوق .."

تتورد رباب رغما عنها وهي تحيد بنظراتها بعيدا عن امها خجلا وحياء ..

ردة فعلها أراحت ابتهال فتتبسم اخيرا وهي تتحرك مبتعدة ناحية باب الغرفة

" خطيبك كان مستاء لتأخرك ولم يكف عن النظر للساعة .."

فتحت ابتهال الباب بينما تتقدم منها رباب لتقول بجزع " لكن امي ..."

قاطعتها امها وهي تنظر لوجهها بمحبة قائلة بحنو " وهذه المرة لن اسمح لك بالرفض يا ابنة بطني .. كما لن اخدع اهل الحي واقيم خطبة وهمية بسبب ما حصل لنفسخها بعد فترة .."

فتحت رباب فمها عندما رن هاتفها لتتحرك ناحية الحقيبة التي رمتها على السرير حال دخولها الغرفة فتخرج الهاتف وتحدق في هوية المتصل فتتخضب وجنتاها وتعض شفتها السفلى ويزيد خجلها اضعافا وامها تناغشها بالقول " انه عبد الرحمن اليس كذلك ؟"

تهز رباب رأسها بنعم دون ان تنظر لامها فتكتفي الام بالقول الرقيق " ردي عليه .. انه خطيبك الآن يا ابنتي .."

ثم تركتها ابتهال ومضت بينما تفتح رباب الخط وكلها يختض انفعالا عاطفيا لا قبل لها بالسيطرة عليه ..

قبل ان تنطق بكلمة هدر صوت عبد الرحمن

" لماذا تأخرتِ ؟ كم مرة قلت لك ان لا ..."

قاطعته بعنف انفعالها ووجهها المحمر

" عبد الرحمن توقف عن اسلوبك هذا..."

فيرد عليها بنفس الهدير الخشن

" سأجرك من شعرك المرة القادمة "

ترفع نظراتها للسقف وقلبها يتراقص كالمجنون في صدرها ..

ثم يتحول الهدير لهمس خشن وهو يضيف بتأوه " آآآه ... متى سألمس شعرك واشده وابعثره ..؟"

كزت على اسنانها ورقص قلبها الجنوني يسرق الانفاس من صدرها فتتحرك منهكة ناحية السرير لتجلس عليه وهي تقول مدعية البرود " تغطى جيدا ولاتحلم كثيرا .."

فيرد بنفس الهمس " انا لااحلم كثيرا ... انا فقط .. احبك كثيرا ..."

اغمضت عينيها ومالت بجذعها لتستلقي على السرير وهي عاجزة عن ايجاد رد ..

انها متعبة .. متعبة جدا .. وتحتاج لهدنة ..

تريد فقط ان تلملم ما يتبعثر منها امامه ..

لكنه لايتركها تفعل فيواصل محاصرته اللذيذة المغيظة وهو يسأل باسلوبه الخاص

" ما زلت لم تقتنعي بنصيبك معي ؟"

ضحكة خافته صدرت عنها وهي ترد وعيناها مغمضتان " مؤكد لا ..."

حسن ليحصل ما يحصل الليلة ..

لتستسلم لما يفعله .. هذه الليلة فقط ..

ماذا سيحصل ان فعلتها وسط كل هذه الضغوط التي تدفعها نحوه ...

يواصل هذره المحبب

" امممممم اليوم هو الاحد ... خسارة ..! "

تفتح عينيها وتعقد حاجبيها لتتساءل

" اي خسارة ؟!"

فيرد بسلاسة " الخميس خطبتنا لا مفر ..
لكن لا بأس تستطيعين فعلها ليلة السبت
القادم "

ما زالت تجهل تماما ما يرمي اليه .. فتسأل
بغيظ " افعل ماذا ؟!!"

قال بحلاوة ذوبت قلبها " برتقالة تقشرينها
بشكل دائري دون انقطاع.."

بانفاس متسارعة متأثرة همست " انت تهذي يا
عبد الرحمن ..اي برتقال ؟!"

فيواصل حلاوته معها فتكاد تذوب وتتخدر
تماما وهو يرد بشقاوة

" اصبري علي .. خذي قشر البرتقال ومعه
دبوس ومرآة وقطعة خبز وبعض المال وضعي
كل شيء تحت وسادتك قبل ان تنامي ليلا ...
وقولي وانت تغمضين عينيك (يا سبت يا
مسبوت أرني نصيبي قبل ان أموت) .. ستجديني
مباشرة اقفز لأحلامك ولن أكون مسؤولا عن
افعالي هناك ..."

لم تستطع ان تقاوم ..

حقا كان فوق قدرتها لتقاوم ... انفجرت
ضحكاتها المميزة المجلجلة غافلة عما تفعله
تلك الضحكات بعبد الرحمن وهو يشد
بأصابعه حول الهاتف ثم يقرب فمه فيلثم
الهاتف وكأنه يلثم ثغرها الضاحك ...

كان صوتها موسيقيا تماما لاذنه وهي تقول له " هذه خرافات من اهلنا القدماء السابقين لابد ان خالتي سعاد حكتها امامك وانت طفل لتتأثر بها هكذا .. لكنها نسيت ان تخبرك وانت كبير انها مجرد خرافات للتأثير بعقول الفتيات وجعلهن يحلمن بأي رجل ظنا انه النصيب .."

ينظر عبر شباكه ناحية شباكها يود لو يسألها اين هي الآن ؟ في غرفتها ؟ اجل يظنها في غرفتها فالنور مفتوح .. ترى ماذا تفعل ؟

اي بقعة من غرفتها تشغل ؟

ابتلع ريقه وهو يقول بهمس مجنون

" كم انت قاسية القلب لتقتلي احلام الطفولة الممتعة ! انك اشبه بمن يصدم طفلا في السادسة في بلاد الغرب فيقول له ان لا وجود لبابا نؤيل "

تتجاهل اعتراضه وبدت شقية ملونة كما عرفها دوما في طفولتها فتقول

" كما انك لن تجد منفذا واحدا لتدخل احلامي .. لا بالخرافات ولا غيرها .."

يعض شفته السفلى وهو يضرب بكفه على الحائط المجاور بينما يعدها بالهمس الحارق

" دعك من الاحلام .. المهم واقع الخميس المقبل .. هل رضيتِ بنصيبك الآن ؟ "



وقبل ان ترد يرد هو نيابة عنها

" الحمد للّه.. كنت أعرف انك ستعرفين نصيبك دون الحاجة لقشر البرتقال كي يهمسها في اذنك .. كم انت محظوظة لاني ساعدتك وسهلت لك الامر..."

عادت ضحكاتها التي توتر خلاياه ثم تهمس له اخيرا بصوت ناعس ليدرك فجأة انها في سريرها وستنام على نفسها

" لافائدة منك ... دعني أنم الآن .. لن أقاوم النوم أكثر... تصبح على خير .."

بقلب يشتعل وانفاس متسارعة كان يسمع صوت انفاسها تنتظم عبر الهاتف ..

لقد نامت ..! نامت والخط بينهما مفتوح ..

نامت وانفاسها معه .. وكأنها هنا .. تنام على صدره ...

هدر بخشونة وهو يعلم انها لاتسمعه

" سترين يا قرفة .. عقد القران سيتم بعد الخطبة مباشرة .. انتظري علي وسأنتقم لاحتراقي هذا وانت نائمة لاتشعرين يا حجر الصوان ! "

بعد ساعة في الحديقة الخلفية قرب الملحق

جالسا على الارض يحدق في باب الملحق ولايعرف لماذا لا يطرقه حتى اللحظة ويجلس كمتسولي الشوارع على باب الجامع ...

يريد ان يتكلم مع حذيفة ..

يريد ان يقول له (انا غبي احيانا بل معظم الاحيان)

يريد ان يقول له (سامحني لاني لم اخبرك لسبب انا نفسي اجهله !)

يريد ان يقول له ... ان يقول ...

صوت باب الملحق يفتح قبل ان يأتيه صوت حذيفة الساخر " لن استطيع منع خلود لتخرج اليك اكثر من هذا .. تعال يا ابن والدي .."

لم يتحرك عبد الرحمن من جلسته المتسولة تلك بينما يقول له بصوت متعثر

" تعال انت حذيفة .. الجو جميل بالخارج.."

اطلق حذيفة ضحكة خافته ساخرة قبل ان يلتفت لداخل الملحق ويوجه كلامه لخلود

" ارتاحي الآن .. (أبودي) وجد رفقة ثقيلة .. سأخرج اليه واجلس معه واطبطب عليه ليتكلم الصغير عما يقض مضجعه ويجعله يسهر الليالي .. لكن دعينا بمفردنا واذهبي ونامي بدلا من قلقك المربك هذا .. "

جاء صوت خلود ساخطا بكلمات غير مفهومة بينما يخرج حذيفة ضاحكا ويغلق الباب ...

جلس جوار عبد الرحمن على الارض ثم اخرج علبة سجائر من جيبه ليقدم لعبد الرحمن وهو يقول له ساخرا " خذ سيجارة لاتدّعي عدم التدخين امامي كما تفعل امام رضا .. "

لم يأخذ عبد الرحمن سيجارة بينما يقول بصوت أجش " لا اشعر برغبة بالتدخين .. كما اني لاادخن فعليا الا عندما اتوتر .."

وضع حذيفة سيجارة في فمه ثم اشعلها ليقول بعدها بتفكه وهو ينفث الدخان في الهواء

" هل هذه نصائح صديقك دراكولا ؟"

ضحك عبد الرحمن بخفة وهو يتطلع للسماء الحالكة اللامعة بنجومها ثم قال

" لقد اشتقت اليه .. سيعود صيفا وتتعرف عليه.. سيعجبك .."

اصدر حذيفة صوتا ساخرا قبل ان يقول بمشاكسة لاخيه

" حتى الآن ومما رأيته من التغييرات فيك هو مسؤول عن بعضها ان لم يكن معظمها فأنا استطيع القول انه يعجبني "

اسبل عبد الرحمن اهدابه وهو يسأل بابتسامة عابثة " كيف تغيرت ؟"

يرد حذيفة وهو يستند بأحد كفيه للخلف

" يكفي ان أرى العسلية متيمة بك لأعرف براعتك .. رباب ليست اي فتاة لتقع في هوى اي شاب يلاحقها .."

قلبه يقصف قصفاً وهو يرفع نظراته لحذيفة ويسأله بتعطش " هل حقا تظنها متيمة ؟"

نظر حذيفة في عيني عبد الرحمن ليقرأ فيهما شك يؤرقه ...

انه يشعر ان رباب متيمة حقا لكنه لايستطيع فهمها .. والفتاة حقا صندوق مغلق من المفاجآت ....

سأله حذيفة وهو ينفث مزيدا من الدخان

" لماذا رفضتك ؟ اقصد .. اول مرة .."

تنهد عبد الرحمن وهو يعاود النظر للنجوم الساطعة فيجيب بحيرة " لا اعلم ... حتى هذه اللحظة لا اعلم .. لقد جننتني لأشهر طويلة وانا لا اعلم ..."

قال حذيفة بجدية " يجب ان تعرف يا عبد الرحمن .. لكن انتظر حتى تتم الخطبة وتتقربان لبعض اكثر فربما تصارحك باسبابها الخفية .."

لم يرد عبد الرحمن بشيء بينما تلتمع ابتسامة خبيثة على ثغر حذيفة وهو يسأله

" هل لهذا كنت غاضبا منها ورحت كالأبله تخطب رانية ؟"

اخذ عبد الرحمن يهز رأسه وكأنه ينفض تلك المشاعر السلبية التي سيطرت عليه لأشهر طويلة بعد رفض رباب الغامض له ليقول بعدها " أفقدتني صوابي لأشهر .. ثم في احدى المرات فقدت المتبقي من عقلي وهي تدفعني بقسوة لأبتعد عنها .. لم اشعر بهذه الرغبة بالانتقام من احد كما شعرت نحوها.."

عندها قال حذيفة وهو ينظر للسماء العالية

" قلبك حقود يا ابن والدي .. اسأل خبيرا مثلي "

التفت اليه عبد الرحمن فيقول بصوت معبر

" على قدر المحبة يكون احساسي بالخذلان ممن احبهم .."

اختلجت عضلة في خد حذيفة فيرفع سيجارته يمج منها ثم ينفث الدخان وعيناه ما زالتا معلقتين بالسماء الواسعة فيقول

" لم تنسَ يا عبد الرحمن ..."

مدَّ عبد الرحمن كفه ليمسك ذراع اخيه ويقول بصدق وشعور عميق بالألم لأجله

" حذيفة ... لست انا بموقف ليحاسبك على اخطاء ماضية .."

ابتسامة ساخرة خافته قبل ان يرد حذيفة

" اخطاء الماضي تلاحقنا دوما .. علينا فقط التعود على وجودها بدلا من الهرب غير المجدي منها .."

ابتلع عبد الرحمن ريقه قبل ان يصارح حذيفة بمشاعره اخيرا " اخي .. افتقدتك لسنوات بعد سفرك الطويل ... حتى وانا غاضب منك .. سنوات مراهقتي عشتها منطويا لا أفكر الا بدراستي ... كنت اشعر احيانا اني في سجن وهميّ صنعته بنفسي لنفسي .."

العبرة خنقت حذيفة وهو يتخيل عبد الرحمن الصغير يمر بفترة مراهقة صعبة كهذه ..

وكلها بسببه هو ...

دمعت عيناه فيغطي حذيفة على ضعفه هذا بالقول المشاكس يفضحه الصوت المبحوح

" حتى فتح دراكولا عينيك على صنف الاناث وكيف تكسب قلوبهن .."

رد عبد الرحمن بأريحية لايشعرها الا مع حذيفة " لم يكن رعد السبب .. كان عاملا مساعدا فحسب .. لكني فجأة .. شعرت بالتحرر .."

فسأله حذيفة باهتمام " لانك سافرت وكنت بمفردك ؟"

عندها قال عبد الرحمن وهو ينظر مباشرة لحذيفة " بل لانك عدت الوطن ... "

تجمدت ملامح حذيفة .. بل كل حواسه ..

بينما يواصل عبد الرحمن البوم بمكنونات صدره " شعرت .. شعرت ان عودتك كفتح جرح قديم ..عميق متقيح و.. تنظيفه شيئا فشيئا حتى يبرأ ..."

لم يشعر حذيفة الا بذراعه تلتف حول اخيه لتجذبه وتحتضنه وهو يقول بصوت خشن متأثر " عبد الرحمن .. انت لاتعرف كم انت مهم لي.. اكثر من باقي اخوتك .."

فيرد عبد الرحمن بتأثر مماثل

" وانت لاتعرف كم انا متعلق بك .. سامحني لاني .. لم اخبرك عن خطبتي الاولى لرباب.."

دفعه حذيفة فجأة ويرفع اصبعه خفية ليمسح دمعة سالت على خده بينما يضحك ويقول

" دعني يا فتى .. احتفظ ببعض الاحضان للعسلية .."

فيضحك عبد الرحمن وصوته يتعثر بالتأثر

" انا .. لااطيق صبراً... لعقد القران .."

انفجر حذيفة ضاحكا ثم يقول " وانا لااطيق صبراً للقاء دراكولا .."

فجأة فتح باب الملحق وأطلت خلود وهي تتخصر وتقول بعبوس

" تعالا وادخلا لشرب الشاي .. لقد اوجعتما رأسي بهذا الضحك والكلام السريّ الذي لم افهم منه شيئا .."

يعقد حذيفة حاجبيه مدعيا الجدية وهو يهدر فيها قائلا

" هل تتنصتين علينا يا امرأة ؟!"

فتشهق خلود وهي ترد التهمة عن نفسها

" انا اتنصت ؟! بل هو صوتك انت واخيك الذي يخرم طبلة اذن الحي بأكمله بذبذباته الجهورية .. "

يقع عبد الرحمن للخلف على ظهره من شدة الضحك بينما يستمر النقار بين حذيفة الذي يجيد خداع خلود بجديته والمسكينة التي تصدق اي شيء منه فتدافع عن نفسها بمنتهى البراءة ...

الاثنين .. صباحا..المقهى ...

لايعلم كم سيجارة دخّن منذ الفجر ...

حتى ان سعال حاد لازم صدره لساعات ..

نوم قلق وافكار متضاربة تتآكله غيرة وشكاً ...

الغيرة قد تحرقه لكن الشك ...

الشك حريقه مختلف ...

الغيرة تحرق القلب والشك يحرق الروح..

قضى الليل يتقلب على اشواك من نار ..

كابوس واحد لم يفارقه ...

رآى جوري في اجمل حالاتها .. تنظر اليه بعينيها الحالكتين تبتسم ابتسامة غريبة كابتسامة الموناليزا الجامدة ثم ترفع سبابتها وتشير الى ..رجل ... لقد كانت تشير لعباس ..

وعباس ينظر برغبة وطمع و... انتصار ....

الكابوس كان مريعا وهو يقف على بعد خطوات منهما .. عاجزا عن تحريك قدميه او حتى تحريك لسانه لينطق !

استيقظ مع اذان الفجر وهو يصرخ ...

جسده يتصبب بالعرق وانفاسه تتسارع وكأنها تريد مفارقته دون عودة ...

روحه كانت تفارقه ...

غليان من الغيرة القاتلة والشك المميت..

كيف سيصبر حتى يوم الخميس ؟!

هل سيستمر بمراقبتها والصبر عدوه اللدود..

اخذ يتمتم بأفكار متضاربة تستنزفه

والسيجارة ترتعش بين اصبعيه

" هل يمكن ؟ .. لكن لا .. جوري لن تفعل

امرا خاطئا .. ما دامت لاتزال تحمل اسمي فلن

تفعل الخطأ .. هي وعزة نفسها وشموخها ...

لكن .. ماذا لو اعتبرت نفسها حل مني ..؟ ماذا

لو كانت تقوي علاقتها به وانا لا ادري .. هل ..

هل سأخسر .. جوري ؟! "

المقهى الفارغ صباحا جعله يشعر وكأن صدى

كلماته يتردد عاليا فيكاد يفقد تركيزه

فيما ينوي فعله اليوم ..

يا الهي.. ما الذي جعله يرى هذا الكابوس ..

انفتح باب المقهى فانجذبت عيناه لمن دخلت..

لم تكن واحدة ! كانتا اثنتين ..!

سقطت سيجارته من يده وهو يقف ببطء على

قدميه ...

هل عيناه تنظران بتشوش ؟

ام انه في كابوس جديد من نوع آخر ...؟

داخله يصرخ ولسانه عاجز عن النطق ..

يا الهي مثلما حصل له بالكابوس ...!

فقط عيناه تتسعان وتتسعان بشكل مخيف ..

شذرة ..... حبيبة !

الاثنتان تخطوان نحوه ...

الاثنتان تسيران اليه ...

الاثنتان ... هنا .. امامه ..

لايمكن ... مستحيل ...

شذرة بنفس ملابسها البسيطة من تنورة طويلة
وبلوزة بسيطة وشعرها المرفوع كذيل
حصان... نقية بريئة دون اي زينة مبهرجة ..

حبيبة انيقة حتى ببنطال جينزها الغامق
وبلوزتها الخفيفة الصفراء التي اظهرت قوامها
الفاتن ... وضفيرة انيقة سارحة على كتفها
فتضفي مزيدا من الألق لوجهها ...

ماذا يحصل ؟! ماذا يحصل ؟؟!!!

يشعر بالبرودة في جسده وامواج من صقيع
قاس تهب نحوه مع كل خطوة تخطيانها معا..

شذرة وحبيبة ...!

فجأة ... بهت احساسه بالاثنتين معا ...

فجأة وهما تقفان امامه .. احداهما خجلة
تتهرب بعينيها منه والثانية تحدجه بنيرانها
المألوفة .. اجل مألوفة .. لكنها مألوفة
لشخص آخر .. مهند آخر رحل منذ سنوات ولم
يعد ... هل هذا ما كان يفتقده ؟

كان يفتقد روح (مهند) لا روح (حبيبة) ؟!

يعاود النظر يستوعب حقيقة وجودهما معا
هنا..ليميز الواقع من الخيال ...

كسراب واحة في عمق الصحراء يلهث الضمآن
نحوها فترتج صورتها في عينيه وتنقسم ثم

تتبين ملامح الروح تدريجيا ويختفي السراب الذي خلقه العقل ...

لا شذرة تشبه حبيبة ...

ولا حبيبة حتى تشبه .. حبيبة ...!

تمتم مهند اسمها وعيناه لاتصدقان وجودها امامه بعد ثماني سنوات من الفراق الاخير

" حبيبة ..."

بشموخ ترفع ذقنها وقذائف طبعها النيراني تحرق كلماتها التي تبدو لوهلة انها هادئة

" مهند ... لم أصدق عندما اخبرتني شذرة عن اسم الرجل الذي تكلمه .. لم أصدق انه يمكن ان تكون انت .. "

جاء صوت شذرة مرتبكا وهي تسأل

" هل .. هل تعرفان بعض ؟! "

لم تلتفت حبيبة نحوها وما زالت عيناها على مهند تنظر اليه بشراسة دفاعية بينما ترد على شذرة بكلمة قاطعة واحدة " مؤكد .."

قلب شذرة ينقبض ولهفة لقائها المرتقب بمهند تتبخر ببطء .....

كانت تختنق وهي تنقل نظراتها التائهة بين مهند وحبيبة ...

مهند بملامح مصدومة يحدق في حبيبة وحبيبة بملامح تشع غضبا وشراسة ...

يا الهي .. ماذا بينهما ؟!

فجأة اضاءة من عقلها وكأنه حدث حصل لها

ومر دون ان تشعره لكنه حصل واختزن في

ذاكرة منسية خاملة ...

حدث يظنه العقل للوهلة الاولى انه عابر

وغير مهم فيرميه في سلسلة مهملات وينسى

وجوده ... لكن في لحظة ما .. يبحث بشراسة

عمّا رمى هناك ....

هل هو حدس ام هلوسة جعلها تشعر انه ناداها

في وقت ما بـ... حبيبة ؟

اتسعت عينا شذرة بصدمة !

تذكرت اول مرة التقت بمهند ..

عندما تزحلقت ووقعت وتقريبا فقدت الوعي ..

لقد سمعت صوته قبل ان ترى وجهه ...

هل حقا ناداها .. حبيبة ؟!

حبيبة بدورها تشتعل غضبا وهي تهاجمه

بالقول " ماذا تريد من شذرة ؟ هل تتعقبني من

جديد؟ هل ستكون خسيسا مرة اخرى

لتؤذيني في اهلي ؟ "

تمتم مهند وعيناه تتركزان على شذرة وكأنه

يراها لاول مرة " اهلك ؟ انت لم يكن يوما

لديك اخت باسم شذرة .. كان لديك اسيا

ورباب و.. رقية ..."

كانت حبيبة سترد عندما استعاد مهند من

ذاكرته اسم واحد أفلت من شذرة في احدى

مكالمتهما ... اسم .. رقية ...!

لقد ذكرت رقية .. الصغرى ...

بشرته تشحب اكثر واكثر وهو يفسر الحقائق " يا الهي انت .. ابنة عمها ..."

تقدمت حبيبة بعنفوان لتقف بين مهند وبين شذرة تحجبها عنه وهي تسأل بنبرة تهديد

" ماذا تريد منها ؟"

استكانت ملامح مهند ولوهلة اوشك ان ينفجر ضاحكا !

اذن هذا هو سر الشبه الكبير ...

نظر لحبيبة وشعر وكأنه يعرفها للمرة الاولى.. شعر انها مجرد امرأة غريبة عنه جاءت تحامي عن قريبتها ..

رد بسكينة عجيبة وصدق واضح

" كنت اريد الزواج بها .."

شهقة جاءت من خلف حبيبة فتحرك مهند جانبا ليواجه شذرة قائلا بجدية " اجل شذرة كنت اريد حقا الزواج منها لكن .."

صرخت حبيبة فيه " هذا مستحيل ..."

فالتفت لحبيبة قائلا بنفس النبرة " نعم هو اصبح مستحيلا لكن ليس للاسباب التي تعتقدينها .."

عاد باهتمامه لشذرة وشعر انها تستحق ان يّسَخْر كل طاقاته لها في هذه اللحظة فقال موجها كلامه لحبيبة بينما عيناه لاتفارقان وجه شذرة التي تقف قبالته دامعة العينين لاتفهم بالضبط ما يجري هنا

" انا لم أكن اعلم قرابتها لك يا حبيبة ..
دوما اخفت شذرة عني كل ما يخص عائلتها ...
ورغم اني لم اعرف الا اني اردتها زوجة .."

هتفت به حبيبة بعنف " لا اكاد اصدق انك
تقول هذا .. حتى وان لم تكن بيني وبينها
صلة دم .. الا ترى انها تصغرك بالكثير ..
قرابة ثلاثة عشر سنة .."

التفت لها مهند ليرد على بتصلب

" ويحيى يكبرك بأربعة عشر سنة .."

عينا حبيبة تشعان بالقسوة وهي تقول من بين
اسنانها " انت لست يحيى ... لا تستطيع ان
تكون كيحيى ولو بعد قرن ! ليس لديك اي
قدرة على استيعابها .."

عندها رد مهند باقتناع كامل ترسخ في عمقه
قبل ان ينطقه لسانه " وشذرة ليست انت ...
تحتاج للدفء لا استيعاب ثورات التمرد التي
كانت تستعر فيك .."

ثم اضاف المزيد وهو ينظر لحبيبة باحساس
منفصل عنها تماما

" انانيتك كانت تعادل انانيتي حبيبة ..
كنت تريدين فقط دون ان تفكري بمنح
شيء .. تماما كما كنتُ انا .. اريد ولا امنح ...
نحن لم نكن سننفع بعض ابدا .. لا انا ولا انت
نستطيع ان نتغير ..."

فجأة جاء صوت شذرة ضعيفا مخنوقا وهي تسأل

" هل..هل ... ناديتني يوما ... حبيبة ؟! "

التفاتة نارية من حبيبة ناحية شذرة
وعيناها تتسعان في صدمة من نوع آخر ..

لاول مرة تحدق في وجه قريبتها التي قيل
عنها مرارا انها تشبهها جدا ...

لم تكن تهتم سابقا .. لكن .. الآن ...

عادت بوجهها لمهند الذي شحب بشكل رهيب
وهو ينظر لوجه شذرة بما يشبه شعور الندم
لكنه قاوم .. قاوم لاجل شذرة فقط ...

قال بنوع من الكذب " في البداية ظننتك
هي ... لكن فيما بعد عرفت من هي حقا
(شذرة) .. دون ان اعرف اسم عائلتها .. دون ان
اعرف عنوانها .. كنت فقط (شذرة)... "

أطرقت شذرة برأسها ويداها تتخاذلان الى
جانبها .. ربما تصدقه .. لكن .. ما الفائدة ؟!

جاء صوت حبيبة فجأة وكأنها تذكرت هي
الاخرى امرا مهما فات على عقلها وذاكرتها
فتقول بنبرة اقرب للاتهام

" انت لديك .. طفلة ! انت .. متزوج اليس
كذلك ؟"

رفعت شذرة نظراتها اليه وعيناها تجحظان
بينما يرد مهند باعتراف " نعم ..."

اوشكت حبيبة ان تجن وتضربه بقبضتها
المتحفزة بينما تهينه بالقول

" ايها الخسيس النذل .."

لم يتفاعل داخله مع الاهانة .. ولم يهتم
لكل ما تفعله حبيبة .. كانت شذرة جلّ
اهتمامه في هذه اللحظة ..

تماسكت حبيبة وهي ترى صدمة شذرة
فتقول لها وهي تمسك بذراعها " هيا شذرة ...
لنرحل من هنا قبل ان ارتكب جريمة .."

لكن شذرة قاومت يد حبيبة لتتقدم من مهند
تسأله بنبرة واضحة وصدرها يعلو ويهبط
بانفاسها المتسارعة " انت متزوج ..؟"

انها لحظة الحقيقة ..

انها لحظة مواجهة النفس بأفعالها ..

تحمل المسؤولية .. تحمل مزيد من الخسائر ..

الخسارة ليست ان يخسر شذرة لانه ادرك
ببساطة انه لن يتزوجها ابدا ..

الخسارة لها هي وما تشعره الآن بسببه ..

انه يخسر من نفسه بخسارتها هي ..

رد بلحظة صدق كانت ستأتي عاجلا او آجلا

" نعم .. وهذا ما اخفيته عنك .. "

ترنحت وقفتها فتمسكها حبيبة وهي تسأل
بقلق " هل انت بخير ؟ "

دفعت شذرة يد حبيبة التي تسندها لترفع
هامتها عاليا وهي تقول بتماسك

" اجل بخير .. دعينا نذهب ..."

تحركت الاثنتان فلحق مهند بخطواتهما ليهتم ان يقول لشذرة بالذات

" شذرة.. انت فتاة لاتقدر بثمن .. لديك قوة وطاقة وايمان ونقاء اصبح عملة نادرة هذه الايام .. لاتجزعي من الدنيا .. ما زلت صغيرة جدا لتجزعي ... "

نظرت اليه جانبا وعيناها الزرقاوان تبثانه حزنا لاينتهي لكنها همست بصلابة

" وداعا مهند .. "

واصلت شذرة خطواتها مع حبيبة بينما توقفت خطوات مهند ...

يشيعهما بنظراته وقد علم ان له طريقه هو الآخر ... طريق لن يلتقي مع أيا منهما ابدا..

في الجامعة ..

تجلس على احدى مصطبات الجامعة تنقل من محاضرات زميلتها ما فاتها بالامس .. وبين الفينة والاخرى ترفع رأسها بحذر لتستكشف ظهور حارث ...

رأته اخيرا يمشي بتراخٍ نحوها فارتدت قناعا من البرود بينما تدرس بفطنتها ملامح وجهه ...

كان في وجهه المبتسم امر ما لا يريحها اطلاقها ... لكن ابتسامته طمأنتها بعض الشيء ...

جلس جوارها بشكل عفوي يمد يده ليقلب اوراق محاضرات زميلتها بلا مبالاة بينما يقول باسلوبه الخشن الذي احبته يوما منه

" اتركي هذه الاوراق والا سأمزقها وارميها.."

اعتادت هذا النوع من التهديدات منه وقد يجرؤ على فعلها بطيشه المعهود لكنها الآن على مفترق طرق معه .. اما ان تغلبه واما ان..

" هل فعلت ما اتفقنا عليه بالامس ..."

جملة قالتها بنفس البرود وهي تلملم المحاضرات بحركات هادئة مدروسة

لم يرد عليها فالتفتت اليه تناظره لتجده يحدق في وجهها بنظرة نهمة !

فتحت فمها لتعيد السؤال عندما فاجأها وهو يقف على قدميه ويقول

" سأنتظرك عند موقف الحافلة المعتاد .."

ثم تحرك بثقة وغرور تاركا رقية خلفه تفكر ببعض القلق ...

بعد عشر دقائق كانت ترافقه بسيارته بصمت وتسأله بثقة وهدوء " الى اين تذهب بي ؟"

رد وهو يميل برأسه جانبا

" الى حيث نتكلم بهدوء .."

سألته بنبرة حازمة " اخبرني الآن اولا .. هل فعلت ما طلبته منك ؟"

فرد بنبرة متضجرة تختلف عن نبرة التوسل
التي اتبعها معها اليومين السابقين

" كفي عن التكلم كالرجل الآلي ..! لقد
وجدت الحل الذي يرضي جميع الاطراف .."

احساسان يتنازعان داخلها ..

الراحة والتوجس ...

احدهما يناقض الآخر وكل احساس يدفع
بعقلها الى عشرات الاحتمالات ...

عبست رقية وهي تجده يدخل منطقة
سكنية وقبل ان تسأله مرة ثانية الى اين
يتجه فاجأها وهو يدخل لمقدمة احد البيوت!

باب المرآب كان مفتوحا ليدخل حارث
بسيارته مباشرة بينما تتطلع رقية للحديقة
الجانبية الصغيرة التي افتقدت الاعتناء ثم
الى بناء البيت المتواضع الصغير نسبيا ..

للحظة سيطر الخوف عليها لكنها أبت
الاستسلام لهذا الشعور .. وماذا يستطيع هذا
الاحمق فعله الآن ؟! صرخة واحدة منها
وضربة بكعب حذائها العالي الرفيع على رأسه
كافيتان ... هذه الفائدة الوحيدة من قصر
قامتها .. انها ملزمة بارتداء الكعب العالي ..

سألت بلا مبالاة وهي تراه يطفئ محرك
سيارته " بيت من هذا ؟"

رد وهو يستدير بجسده جانبا ويواجهها

" بيت جدتي ... انها لاتسمع ولا ترى جيدا
ولاتغادر باب البيت .."

اطمأنت أكثر لكنها تضايقت قليلا وهي تسأل

" متروكة بمفردها في هذا البيت ؟!"

ردّ حارث وهو يمط شفتيه بلا مبالاة وملل

" ابي وظف لها امرأة تخدمها وترعاها .."

التفتت رقية لباب البيت الخشبي القديم وتسأل " والمرأة موجودة هنا ؟!"

فرد ضاحكا ببعض الاستهتار

" لاتقلقي .. لن يراك احد .. المرأة تذهب في هذا الوقت لبيتها اثناء قيلولة جدتي .."

التفتت اليه تبثه البرود بالنظرات بينما تعود لما هو مهم بينهما فتسأل

" هل اخبرت والدك ؟"

صدمها وهو يرد " لا ..."

جحظت عينا رقية من شدة الغضب فتهدر به

" اذن أعدني من حيث أتيت ... وابتداء من اللحظة انتهى كل شيء بيننا .."

قال بغرور وتحكم " لا .. لم ينتهي ... و لن اعيدك لأي مكان ... ليس قبل ان أحل هذه المشكلة معك .."

هدرت فيه " تحلها ؟! انت غير قادر اطلاقا على حل أتفه المشاكل فما بالك بمشكلة جبنك امام ابيك .."

صرخ فيها هو الآخر " احفظي لسانة رقية ... واسمعيني جيدا .."

ثم اخذ بحركات عنيفة ينزل واقية الشمس
التي فوق رأسه ويستخرج ورقة مطوية بعناية
ليفتح طياتها بينما رقية تراقبه بجمود وهي
تخمن القادم ...

سألته بتماسك وهو يفرد الورقة على مقود
السيارة " ما هذه الورقة ..؟"

رد ببساطة وهو يميل جانبا ليبحث عن شيء ما
داخل الحافظة الوسطية بين المقعدين

" ورقة زواجنا ..."



الفصل السادس عشر

سألته بتماسك وهو يفرد الورقة على مقود السيارة " ما هذه الورقة ..؟"

رد ببساطة وهو يميل جانبا ليبحث عن شيء ما داخل الحافظة الوسطية بين المقعدين

" ورقة زواجنا ..."

الافكار المظلمة اخذت تتجمع في رأسها بل تطرق طرقا فوق رأسها ...

استخرج قلما فرفع غطاءه ثم انحنى فوق المقود ليضع توقيعه بنهاية الورقة وهو يقول بسياسة الامر الواقع

" ها قد وقعت .. لم يتبق الا توقيعك ..."

تنظر اليه بصمت بينما يمد يده بالقلم نحوها.. عيناه تفيضان بما اعتقدته يوما انه العشق المجنون لتراه اليوم مجرد تملك احمق من شاب غير ناضج .. طائش جبان ...

يهز القلم امام وجهها الصامت وهو يحثها بالقول المتهور وقد فاض بالتهديد الصريح الجدي " الان رقية .. حددي موقفك .. ألم تكوني تريدين الزواج مني بأي ثمن ؟ ها انا أحقق لك ما تريدين .. اما ان توقعي على عقد زواجنا او انني سأعيدك من حيث اخذتك واعود لوالدي اخبره انني ساتزوج ابنة عمي الخميس المقبل ... لم أعد احتمل هذا الضغط .."

وبينما رقية تبحث عن الخيارات المصيرية المتاحة كان هناك من يبحث عنها في شوارع الحي الذي دخلته مع حارث ..

كان هناك من يراقبها عند خروجها من بوابة الجامعة ورآها وهي تركب مع حارث عند موقف الحافلة فلحق بها واضاعها عدة مرات وسط الزحام الشديد ..

ثم لمح سيارة حارث تدخل هذا الحي فدخل خلفه لكنه لم يستطع معرفة اي البيوت اختار...

حذيفة بملامح اجرامية يشد على المقود وهو يعيد الدوران في شوارع الحي الداخلية ويهدر من بين اسنانه المطبقة " اين اخذها.. اين ؟! "

مطبعة العباس ...

يراقبها بقلب خافق عبر شباك الغرفة التي تجلس فيها ...

تجلس خلف مكتبها الخشبي الصغير نسبيا وتركز في عملها على الحاسوب بينما يكتشف عباس للمرة الاولى انها تستخدم نظارة طبية ...

يسأله احد العاملين في المطبعة عن بعض الامور فيرد عليه بقلة تركيز ...

يكاد يشعر بالخجل وهو بعمره هذا وقد تعدى الاربعين بسنوات ..

خجل لم يشعره الا مع محبوبته الاولى إلهام ابنة الجيران التي عشقها وهو بعمر التاسعة عشرة ليفقدها قبل ان يصارحها بمكنونات قلبه ويفارقها بالدموع وهو يراها تزف لغيره..

إلهام بوجهها الحنطي المليح .. لم تكن الا قد أكملت السابعة عشرة وما زالت بمريول المدرسة الثانوية الرمادي ..

لكن والدها كان صارما جدا في تعامله مع بناته فزوجها وهي كبرى اخواتها لاول عريس مناسب حتى (يسترها) كما يحب البعض ان يطلق هذه التسمية على (تزويج البنات)..

" ابو فاضل هل تسمعني ؟ اقول لك الماكنة رقم ثلاثة تحتاج لصيانة .."

يتبسم عباس وهو يطرق برأسه وتمتم بهمس

" اذا كان صاحب المطبعة نفسه يحتاج لصيانة .."

يعبس الرجل وهو يتساءل

" لم اسمعك يا ابا فاضل ؟ هل هناك ماكنة اخرى تحتاج لصيانة ايضا ؟"

حرارة تلهب حواس عباس وهو يفكر بتلك المرأة المميزة على بعد بضع امتار منه ..

ترى .. هل هناك أمل ؟ ام انه يرتكب خطأ شنيعا وهو ينتظر خراب بيت امرأة رائعة مثلها ليأخذها لنفسه ؟

تحرك عباس وهو يقول لذاك العامل

" اتصل بمهندس الصيانة .. سيحضر من ورشته حالما تطلبه .."

رغما عنه خطواته تأخذه اليها ..

لايعرف ما الذي يجب ان يفعله ...

لكنه يجد نفسه ينساق لهوى نفسه رغبة فيها وتمنيا لقربها وحلما لامتلاكها ...

رفعت وجهها اليه حالما دخل عبر الباب فتبتسم بتحفظ يعجبه وهي تقول

" مرحبا ابو فاضل .."

يكبت كل تفاعله العاطفي بينما يتقدم نحوها فيقف قبالتها وهي خلف مكتبها الصغير فيقول بنبرة تخفي بواطنه

" كيف حال العمل معك يا ام حبيبة .. هل انت مرتاحة معنا ..؟ "

فترد عليه بنفس الابتسامة المتحفظة بينما تعدل من نظارتها الطبية بشكل عفوي وتقول

" الحمد للّه .. بدأت اعتاد على الاجواء .. مضى زمن منذ ان تركت العمل في وزارة التخطيط.."

يتنحنح وهو يسأل بتردد " لماذا تركت العمل هناك ؟ انت موظفة كفوءة .."

لم تتغير ابتسامتها وهي ترد باقتضاب

" ظروف الزواج والامومة .."

دخل العم عبد المجيد ساعي المطبعة حاملا صينيته المدورة المعدنية وعليها فنجان قهوة وقدح ماء وهو يقول

" قهوتك يا ام حبيبة .."

يمر من جانب عباس ليقدمها بيد مرتعشة لجوري بينما تشكره هي بامتنان

" سلمت يداك يا عم .."

قلق عباس وهو يرى ارتعاش يد الرجل العجوز يتزايد والقهوة ترتج في فنجانها فتقدم ليأخذ الفنجان منه لكن الفنجان سبقه ليقع فوق حجر جوري ...

أطلقت جوري صرخة متوجعة وهي تقف على قدميها وعباس يتقدم منها ملهوفا فيمد يده ويسحب علبة المناديل يمسح القهوة الحارة عن تنورتها والعم عبد المجيد تكاد تدمع عيناه وهو يعتذر بارتباك شديد ...

قال له عباس بحزم " اذهب واحضر بعض الثلج يا عبد المجيد .."

تحرك الرجل العجوز متعثرا بينما يواصل عباس مسح القهوة وجوري تغمض عينيها بتوجع فيسألها بصوت يفيض بعاطفته الخفية " جوري هل تتوجعين ؟ هل اخذك للطبيب ؟"

تحاملت جوري على نفسها تتحمل ألم الحرق وقبل ان ترد عليه كان صوت مهند الهادر يسبق ذراعيه اللتين اشتبكتا في لحظة جنون في شجار رهيب مع عباس ...!

عمال المطبعة عانوا الامرين حتى اوقفوا الشجار العنيف بين الرجلين ..

لينتهي بالاثنين انفاسهما هادرة فيصرخ عباس وهو يمسح الدم عن انفه

" اخرج من مطبعتي حالا .."

فيرد له مهند بشتائم مماثلة دون ان يشعر بالدم النازف من شفته السفلى وتلك الكدمة تحت عينه اليسرى بينما حظي عباس بلكمة مماثلة اسفل فكه..

" ألمسها ايها الحقير وسأكسر مطبعتك فوق رأسك .."

كانت جوري تغلي غليانا وهي تأخذ حقيبتها من درج المكتب وقد شاركت العمال بمحاولة فك صراع الرجلين حتى أنهكت ..

مرت قرب مهند وهي تقول من بين اسنانها

" اخرج .. امشي معي اخرج .. يكفي فضائح.."

سبقته بخطواتها بينما يدفع مهند عنه من يمسك به ليلقي نظرة اخيرة نحو عباس قبل ان يلحق بزوجته ..

تحرك عباس عائدا لمكتبها فيأخذ بعض المناديل الورقية ويمسح أنفه بينما يأمر العاملين عنده بالعودة للعمل ..

ينظر لكرسيها الشاغر بينما يتمتم بجملة سمعها او قرأها في مكان ما

" لا يهم المنتصر بين الرجلين ... المهم من تختاره المرأة.."

اوقف سيارته جانبا بعد ان ابتعد مسافة عن المطبعة بينما تصرخ به جوري

" ايها الهمجي ... هل تدرك ما فعلته ؟! هل ستدرك يوما الاذى الذي تتسبب به لي ؟! كيف سأواجه العاملين هناك ؟ "

أنفاس مهند تهدأ شيئا فشيئا بينما يلتزم الصمت وهو يحدق في وجهها الغاضب ..

كانت لاتزال ترتدي نظارتها الطبية فبدت مميزة حقا بغضبها والنظارة تضفي عليها هيبة جذابة تفتنه ...

ما زالت توبخه وتصرخ فيه وهو يلتزم الصمت.. ثم تفاجئوه وهي تفتح حقيبتها وتخرج مناديل ورقية من كيس صغير لتبدأ بمسح الدم عن فمه ويدها ترتعش ..

امسك معصمها فجأة وهو يسألها بهدوء يسبق العاصفة " ما الذي يريده منك عباس ؟"

نظرت في عينيه بحقد جعلته يشعر باحساس مقيت .. ليس بعد ما عاناه اليوم .. ليس وهو بات يحارب بمفرده لينقذ ما يمكن انقاذه ..

ان كان تعلم شيء من تجربته مع حبيبة فهو ان ينقذ ما يستطيع .. كل ما يستطيع ...

غضب رهيب تصارع داخله وهو يتذكر المنظر الذي رآه ... عباس وهو يمسح تنورتها وصوته الذي يفضح تأثره بجوري ...

يعتصر معصمها بين اصابعه وهو يسأل بنبرة حادة متفجرة " اذا كنت تخططين للطلاق والزواج به فاني احذرك .. سأفعل ما لاتتوقعينه مني ابدا.. فلا تجبريني على فعل ما لا اريد .. انا لااريد اذيتك ابدا .."

لم تبدي اي توجع لألم معصمها بينما تواصل نظرتها الجبارة نحوه ثم تبتسم بطريقة غريبة رغم ارتعاش شفتيها ثم تقول بصوت خافت بما صعقه " ماذا ستفعل ؟ تأخذ ابنتي مني مثلا ؟ افعلها .. لا اهتم .."

جحظت عيناه من الصدمة وهو يهمس بلا تصديق " لهذه الدرجة ؟! تضحين بابنتك ؟"

معصمها ما زال في يده وكأنها لاتبالي لتصرخ فيه هذه المرة بما صدمه صدمة العمر

" اجل لا اهتم .. خذ معك من اسميتها على اسم حبيبتك .. وتزوج شذرة تلك وعش حلمك التافه .."

تراخت اصابعه طواعيا ليتحرر معصمها بينما تقول له المزيد وبنبرة انتقامية متشفية بحالته " اجل انا اعرف ... اختك مروة اخبرتني منذ الاشهر الاولى لزواجنا .. "

كان يجاهد ليستجمع تركيزه ..

منذ الاشهر الاولى لزواجهما ؟! تعرف ؟

يا الهي ... وتعرف انه اسمى ابنتها على اسم حبيبة ؟!

يشعر انه يفقدها .. انها تتسرب منه رغما عن أنفه .. يكاد يختنق ... لايمكن ..

الا جوري .. لا يمكن ...

صدره يعلو ويهبط بينما يقول بمحاولة ساذجة

" هذا ليس عذرا لما ..تفعلينه الان .. اخبريني ماذا بينك وبين عباس ؟ "

ضحكة قاسية تقطر بكل ما عانته لسنوات بينما ترد سؤاله بسؤال " عندما تخبرني اين كنت تلتقي بـ.... شذرة تلك ومتى ؟"

ابتلع ريقه بصعوبة وهي تضيف

" عندما تخبرني .. ماذا اعطتك تلك الفتاة لتسد جوعك الوهمي وعجزت انا عن فعلها؟"

ثم ترمي المنديل الملطخ بدمه في وجهه لتصرخ بالقول " عندما تخبرني كم مرة عاشرتني وانت تتخيل نفسك تعاشر حبيبتك حبيبة العطار..؟! "

شحب وجهه حتى ذبلت ملامحه فيتوسلها بالقول " دعي ..حبيبة .. خارج حواراتنا هذه.."

تطلعت اليه طويلا قبل ان تغلق حقيبتها وهي تقول بنبرة تفيض سخرية " من الملفت انك تهتم بحبيبة اكثر من اهتمامك بزوجتك الحالية وزوجتك المستقبلية .. يال حظنا انا وشذرة ! ترى هل تعلم شذرة انك سجين ومفتاح سجنك مفقود ؟"

تشبث بذراعها ليمنعها المغادرة وهو يقول بصوت أجش يواجه نفسه قبل ان يعترف لها

" ليس لدي زوجة مستقبلية .. انا لدي انت فقط .. لن يكون هناك غيرك "

أسبلت اهدابها وهي تأمره بالقول

" اترك ذراعي مهند .."

لم يستطع فعلها كانت اصابعه تتقلص بتملك حول ذراعها دون ان تستجيب له جوري بل قالت بقسوة " اتركني والا سأصرخ واثير لك فضيحة بنفسي .. هنا وسط الناس ..."

لا يقوى على فعلها بل يهمس بتشبث

" سأعيدك للبيت ..."

ترفع عينيها الحالكتين له وتقول بابتسامة لاتحمل اي معنى

" لا احتاج اليك .. سآخذ سيارة اجرة فأعود المطبعة واخذ سيارتي المركونة هناك ثم اعود للبيت .."

تتسرب ذراعها من بين اصابعه كالرمال فيجف فمه وهو يقول " سأكون خلفك .."

ترجلت من سيارته لترد ببرود ولا مبالاة

" افعل ما تشاء ... "

ثم صفقت الباب خلفها تاركة اياه يمرر يده فوق وجهه واليأس يقتله ببطء ...

بيت جدة حارث

طال صمت رقية وهي تفكر بكل الاحتمالات التي قد تواجهها بينما يقترب منها حارث بجسده ليتبع هذه المرة اسلوبا عاطفيا حارا لاقناعها

" وقعي رقيتي ... انا .. أموت شوقا اليك .. لاشعرك ملكي .. ملكي انا وحدي .. هذه الورقة .. ستريحك وتريحني ..."

كان يقرب الورقة من وجهها وهو يتخيل انه يكاد ينجح بمسعاه ... حتى قالت رقية بنظرة جليدية ساخرة من عرضه ضمنيا " في اليوم الذي اوقع فيه ورقة زواجي ستعلو الزغاريد من حنجرة امي وتصدح حناجر نسوة الحي بزغاريد اجمل .. لقد اخطأتُ حقا في تقديرك يا حارث .. ظننتك حار الدماء حر أبيّ رجل يحميني بروحه و لايرضى لي الا بالغالي ... لكنك تعرض الرخيص وعندما عرضته فقد فقدتني للابد .. هل تسمعني .. فقدتني للابد .."

يده التي تمسك الورقة تتوتر بينما ملامحه تقسو وهو يتساءل بعنف " ماذا تعنين ؟"

شعور هائل بالغضب سيطر عليها ..

شعور انه بخس قيمتها الى حد لايوصف ..

فقدت كل تحكمها بتصرفاتها لتقول بمزيد من القسوة والسخرية المهينة

" انا لن اتزوجك .. حتى لو حفوت خلفي انت ووالدك لارضى الزواج فانا لن أتزوجك .."

ناداها بعنف وهو يمسك بكتفيها والورقة ما زالت بيده اليمنى تتجعد تحت اصابعه الضاغطة " رقية ..."

هتفت به وعيناها تبرقان بالشموخ " انا رقية يونس العطار .. فاعرف مع من تتكلم يا ابن حديثي النعمة .."

اتسعت عيناه في صدمة غير محسوبة لهذه الاهانة بينما تواصل رقية نفث غضبها فيه

" انظر لوجهي وانا اقولها .. لن اتزوجك .. واقسم ستراني قريبا بفستان عرس لاتحلم ان تلبسه لابنة عمك وجواري رجل يدعسك بقدميه كنملة ... "

يداه زحفتا خلال لحظة مجنونة من كتفيها لرقبتها والورقة هناك مع اصابعه تضغط على قصبتها الهوائية وكأنها تشارك تلك الاصابع الخشنة تهديدها ثم هدر حارث بجنون مطبق " سأقتلك رقية قبل ان تكوني لغيري .. سأقتلك الآن .. في التو واللحظة ..."

اخذت تحاول دفعه بشراسة وضربه بقبضتيها وهي تقول " انا .. اختنق .. دعني ايها .. ال..."

كانت تناضل لانقاذ حياتها .. تجرب للمرة الاولى احساس الاقتراب من الموت !

صورة والدها ... والدتها ... اخواتها ...

صورة بيت الدمى الاثير لديها ...

يدها اليمنى تخلت عن صراعها العنيف معه والدنيا تكاد تظلم من حولها ...

ما زال عقلها الحي يناضل لانقاذها فيتفتق عن تذكر وسيلة جعلتها تمد تلك اليد نحو قدمها تجاهد حتى تمسك بحذائها ذي الكعب العالي لتخلعه ..

وحالما نجحت الادرينالين ارتفع لاقصاه فترفع الحذاء عاليا وتهوي به فوق رأس حارث بضربات عنيفة متتالية حتى اجبرته على عتق رقبتها اخيرا لتدفعه وهي تشهق لدس الهواء في رئتيها من جديد ..

انها عادت .. عادت للحياة ...

يدها تفتح عتلة الباب لتهرب بينما تسمع تأوهات حارث فلا تنظر حتى نحوه ..

كل ما تريده اللحظة هو الفرار ...

نزلت من السيارة فتعثرت لتقع ارضا لكنها سارعت للنهوض لتخطو بكل قوة تمتلكها فتسير بتعثر وهي بفردة حذاء واحدة ..

كانت ستهوي مرة اخرى وهي بمنتصف الطريق نحو باب المرآب المفتوح عندما ترآى لها خيال ضخم مألوف يركض نحوها من تلك الباب ...

دمعت عيناها وهي تتعرف على صوته ينادي اسمها " رقية .. يا الهي ..."

امسك ذراعها يسندها وهي تقول بحشرجة الانفاس الثقيلة " حذيفة ..."

لم تكن تفقه كيف وصل اليها لكنها اطاعته تماما وهو يقول بحزم

" ابقي هنا مكانك انتظريني .. سأحضر فردة حذائك واغراضك..."

لكن حذيفة كان هائجا في احدى ثوراته المعدودة في حياته ..

و بدلا من ان يذهب لناحية المقعد الذي كانت رقية تجلس فيه حاد بخطواته ناحية الحقير الذي تعدى عليها ...

فتح الباب ليرى الشاب يتأوه وبعض الدم يسيل من رأسه واثار بقع ككدمات على جبهته ..

لم يشفع له هذا خاصة والشاب ينظر اليه ويتساءل بحمق وتبجح " اين تلك الحقيرة و من تكون ايها الـ.."

قبل ان يكمل شتيمته كان حذيفة ينهال ضربا لوجهه حتى كسر سنه الامامي ..

لازال حذيفة يلكمه ويشتمه بكل ما يعرفه من افظع الشتائم عندما انجذبت عيناه لورقة مرمية على المقعد الذي كانت رقية تشغله ..

في لحظة استوعب فحواها فترك حارث يتهاوى من يده ليلتقط الورقة ويقرأها بيد مرتعشة انفعالا متمتما

" يا الهي .."

اطمئن قليلا وهو لايرى توقيع رقية ثم أخذ يكورها بعنف بينما يسمع توسلات حارث اليه

" لم أفعل لها شيئا .. اقسم لك ..يا الهي ما كل هذه الدماء التي تسيل مني ؟ "

ثم لم يشعر حارث الا بالورقة المكورة تحشر في فمه النائح وهذا المارد الضخم الذي اشبعه ضربا يميل لاذنه ويقول هامسا بوعيد وحشي

" اقترب من رقية مرة اخرى وسأقتلك .. وصدقني لن تكون المرة الاولى التي اقتل فيها انسانا بيدي المجردتين .."

ثم بصق في وجهه قبل ان يدفعه بعنف ليرتطم ظهر حارث بمقبض معدل السرع ثم يتركه حذيفة ليلتف حول السيارة من الجهة الاخرى يلملم محاضرات رقية ويلتقط حقيبتها وفردة حذائها المرمية ثم يسير عائدا لها و قد استعادت تركيزها وانتظام تنفسها وتحيط جذعها بذراعيها وهي تحدق فيما يحصل بوجل وارتعاب ..

اوقع فردة الحذاء ارضا قرب قدمها ثم انحنى جاثيا للارض ليساعدها على ارتدائه بعفوية كما يفعلها مع ابنته سوسو .. ليقف حذيفة على قدميه ويمسكها من ذراعها ثم يسحبها عنوة هادرا فيها " سيري معي .."

كانت رقية مستسلمة تماما لحذيفة وهو يسحبها بخشونة فيغادران المرآب ويتجه بها نحو سيارته المركونة على جانب الشارع ...

بخشونة مماثلة دفعها لتركب في المقعد المجاور للسائق ووضع اغراضها في حجرها ثم اغلق الباب بعنف ..

كانت تختض لكنها تقاوم بشراسة لتستعيد سيطرتها على ما يحدث ...

ألتف حذيفة ليجلس جوارها في مقعد السائق ثم دون شعوره اخذ يضرب بعنف على مقود السيارة ويشتم بصوت جهوري مرعب وكأنه ينفس عن طاقات وحشية هائلة داخله ...

تتسع عينا رقية بارتعاب من حالته تلك ثم تشهق بعنف وهو يستدير اليها ليمسك اعلى ذراعها بخشونة مضاعفة يصرخ فيها

" هل حصل شيء بينك وبينه ؟ انطقي يا رقية .. هل حصل شيء كي اتصرف .."

افاقت من حالتها تلك لترد له الصراخ بعنفوان " من تحسب نفسك .. ؟! كيف تكلمني هكذا ؟! "

يهز جسدها بعنف وهو يواصل صراخه المدوي " اخبريني الآن .. هل حصل شيء ؟"

دموع القهر والذل انسكبت من عينيها فتصرخ فيه مرة اخرى " لم يحصل شيء .. هل تظنه يفعل هذا بي ان سمحت له بلمسي .. دعني الآن يا حذيفة .. دعني .. من سمح لك اصلا بالتدخل في حياتي .."

هدأت ثورته وهو يفلتها اخيرا رغم ان وحشية نظراته لم تهدأ .. شغل محرك سيارته وهو يقول ببرود قاس

" لك اخت كبرى ترد عليك .."

فجأة استعادت رقية ابعاد معرفة حذيفة بالامر لتتوسله لاشعوريا

" لاتخبر اسيا يا حذيفة .. اتوسل اليك .. قلت لك لم يحصل شيء بيني وبينه .. كان يريد .. الزواج بي هذا الاحمق .. لكن لديه مشاكل مع والده .. اقسم بروح ابي لم يحصل شيء ولم يلمس شعرة مني .. انا لقنته درسا لن ينساه .. لكن لاتخبر اسيا .. انا اجيد الدفاع عن نفسي و ... "

ضاعت الكلمات منها وهي تراه ينطلق بالسيارة بينما يضع هاتفه النقال على اذنه لتسمعه يقول بعد لحظات بتماسك تام

" مرحبا اسيا ... نعم بخير الحمد للّه .. احتاجك بموضوع مهم .. هلا أتيت دون ان تخبري احدا .. لكن لاتقلقي .. الامور بخير"

ثم ادار رأسه جانبا يرمي رقية بنظراته العنيفة تناقض نبرة صوته الهادئة مع اسيا وهو يضيف " الامر يخص رقية ... سأخبرك اين تلتقين بي "

توترت كل ملامح رقية وعقلها يعمل بسرعة بينما تقاوم انهاكها الجسدي ...

قبل دقائق في دار العطار للازياء

دخلت حبيبة مكتبها الخاص بصحبة اختها وابنها الصغير وهي ما زالت تشعر بتوتر الغضب وبعض الصدمة رغم كل محاولات اسيا لتهدئتها ..

وقد نجحت اسيا الى حد بعيد في تهدئتها لكن ذبذبات التوتر ما زالت تسيطر على اعصابها وافكارها تخوض في كل اتجاه ...

كانت قد اعادت شذرة للبيت بعد اللقاء العاصف الصادم مع مهند لكن حبيبة لم تكن بحال جيدة ولم تجد امامها الا اسيا لتمر عليها وتصر على اخذها معها هي وكاظم الصغير بالسيارة فتلف شوارع المدينة بصحبتهما تفرغ شحناتها وهي تحكي لاسيا كل ما حصل صباح اليوم ...

اخرجت حبيبة أقلام تلوين وورقة بيضاء كبيرة وضعتها على الارض وهي تبتسم لكاظم الشقي في دعوة ..

فركض نحوها تاركا يد أمه لينبطح على بطنه ويمسك قلمين ويبتدأ شخابيطه..

نظرت اليه حبيبة بحنان ، لقد اكتشفت في باكرا حبه للرسم والالوان.. ويبدو جليا ان له ميولا فنية كخالتيه ...

اسيا تحركت نحو جهاز غلي الماء وبجانبه علبة اكياس الشاي الاخضر الذي تحبه حبيبة ويريحها من اعراض الوحام ..

ما زالت حبيبة تجلس على ركبتيها قرب كاظم لتقترب منها اسيا مع كوب الشاي برائحته المنعشة فتقدمه لها قائلة بحنو

" خذي حبيبة .. الشاي الاخضر مع النعناع سيريحك .. التوتر ليس جيدا لطفلك .."

عفويا لفت حبيبة ذراعها حول بطنها لترفع وجها مبتسما نحو اختها وتمد يدها تلتقط منها الكوب وهي تقول بامتنان

" شكرا لانك تحملت مزاجي الناري خاصة وانا باول اشهر الحمل المريعة .. وشكرا لانك وافقتِ على ترك بيتك الآن والمجيء معي للدار .. كنت سأنفجر من شدة الغضب ..."

فترد اسيا بهدوء وهي تتحرك لتجلس على كرسي قريب " اهدئي حبيبة .. الامر انتهى.."

اعتدلت حبيبة لتتخذ جلسة مريحة على الارض ترتشف من كوبها ثم تقول ببعض الانفعال الذي يخفت تدريجيا

" لااستطيع تخيل ما حصل انه حصل فعلا ! الفتاة مصدومة يا اسيا .. تركتها في البيت تدعي رغبة بالنوم وانا اعرف انها ستنهار بالبكاء حالما تغلق باب غرفتها .."

سألت اسيا ببعض القلق

" هل تظنينه حقا لم يكن يعرف صلة القرابة بينكما ؟ "

ردت حبيبة بعبوس تلقائي وعيناها تشردان في الماضي " اجل .. لايعرف .. للحظة فسرت الامور خطأ وأنه كان يقصد اذيتي عبرها وقد عدت لتلك اللحظة الشنيعة قبل سنوات عندما اخبر يحيى بالاكاذيب عن علاقتنا .. لكن فيما بعد صدقته حقا .. صدمته كانت حقيقية تماما .. الغبي لم يخطر بباله ان الشبه بيننا لاننا ربما من نفس العائلة .."

تنهدت اسيا قبل ان تقول " الحمد للّه الموضوع انتهى على خير يا حبيبة .. وانا سأكلم شذرة بنفسي .. المسكينة ليس لها غيرنا .. لكن لاتخبري أمي ولا اختيك رباب ورقية بشيء.. لاداعي لأن يعرفن بشيء مما جرى .. "

فترد حبيبة وهي ترتشف المزيد

" لاتتقلقي ... في كل الاحوال لااحد يعرف من هو مهند بالضبط .."

ناظرتها اسيا للحظات قبل ان تسألها بتأن

" هل ستخبرين يحيى عن لقائك بمهند ؟"

رفعت حبيبة نظراتها لاختها وهي تجيبها

" لااستطيع .. ليس لاجلي فأنا منفتحة تماما مع يحيى ولكن لاجل شذرة التي أأتمنتني على سرها .. انها تشعر بالعار مما حصل .. قضيت ساعة كاملة اكلمها انها لم ترتكب

اثما عظيما وانها تجربة فيها اخطاء تتعلم منها وتمضي بحياتها قدما .."

تمتمت اسيا بالقول " ستأخذ وقتها ثم تتعافى.. كل الفتيات يمررن ببعض الاخطاء "

رن هاتف اسيا فاخرجته من حقيبتها لتتفاجأ بهوية المتصل !

قالت باستغراب " هذا حذيفة يتصل ...! "

بينما تفتح اسيا الخط دخلت رباب وهي تقول ببشاشة ملفتة " مرحبا حبيبة ..."

تهلل رباب لوجود اسيا وكاظم وتسارع لتجلس على الارض جوارهما بينما تقف اسيا على قدميها لتتحرك بعيدا عن الضوضاء تستوعب كلام حذيفة عبر الهاتف ...

اعتدل مزاج حبيبة وهي تنظر لانشراح ملامح رباب .. تلك الفتاة السعادة تطفح منها رغم كل مقاومتها ..

لم تر فتاة كاختها المقاومة هذه ..

كيف تذوب في شاب كعبد الرحمن يتمنى منها الرضا وفي نفس الوقت تقاومه بكل ما لديها ؟!

تمتمت حبيبة تشاكسها " اهلا بعروسنا المشعة ... لم تخبريني ماذا سترتدين يوم الخميس ؟"

تحمر رباب بينما تعقد حاجبيها بضيق وهي تقول " حبيبة ارجوك .."

فتشاكسها حبيبة بالمزيد " يحيى قرر ان يشتري بدلة جديدة خصيصا احتفالا بالمناسبة الشيقة على حد وصفه .."

ردت رباب وهي تكز على اسنانها غيظا " قولي لزوجك ان يكف عن مشاكساته لي.."

فتقرب حبيبة رأسها منها وتهمس " يقول انه اول من تنبأ بوجود شيء ما بينكما ؟ اخبريني يا قرفة هل كان هناك شيء ونحن لانعرف ؟"

نفثت رباب الهواء وهي تقول بصوت مرتفع

" افففففففففففففففف... "

تضحك حبيبة من قلبها والاثنتان لاهيتان عن اختهما التي ما زالت تكلم حذيفة في نهاية المكتب قرب الشباك ...

حتى قالت اسيا بصوت قلق " رقية ؟!"

لتلتفت اليها كلا من رباب وحبيبة في نفس الوقت .. بدت حبيبة فضولية بينما رباب شحبت تلقائيا لتقف على قدميها وهي تنظر ناحية اسيا فتشحب اكثر وهي ترى شحوب اسيا الواضح ..

انهت اسيا المكالمة بالقول

" سآتي اليك حالا .."

عقدت حبيبة حاجبيها وهي تتساءل

" ماذا هناك اسيا ؟! ماذا يحدث ؟"

نظرت اسيا لاختيها تحاول التكلم باسلوب مطمئن وهي تقول

" انه حذيفة يقول ان هناك امرا حصل يخص رقية .. لكنه يقول ان الامور بخير .. ولا داعي للقلق ابدا.."

رباب تجمدت مكانها بينما تقف حبيبة على قدميها وهي تتساءل بقلق " رقية ؟! ماذا بها هي الاخرى ؟! "

قالت اسيا بحزم " هيا حبيبة .. تعالي لتأخذيني لحذيفة .. أظن ان رقية معه ولديها مشكلة ما .."

دون شعورها هتفت رباب " وانا سآتي ايضا ..."

قالت اسيا " لكن لاداعي .. ابقي هنا مع كاظم ولاتخبري احدا بشيء .. ولا حتى رضا.. حتى أفهم ما يجري .."

فتتقدم منها رباب تتوسلها بالقول

" ارجوك اسيا دعيني آتي معكما .. ارجوك لا استطيع البقاء هنا .. رقية .. قد تحتاجني.."

لم تستطع اسيا اطالة الحوار او التركيز مع ردة فعل رباب .. هي ايضا قلقة جدا على رقية ولاتعرف اي مشكلة وقعت فيها وكيف تواجد حذيفة في نفس الوقت والمكان ...

بعد ساعة في شقة اسيا ورضا ..

كانت رباب هستيرية في غضبها وتعنيفها لرقية بينما ترد لها رقية الغضب بالغضب وهي تصر انها لم تفعل شيئا خاطئا !

وكلما حاولت حبيبة التدخل كانت اسيا تطلب منها الانتظار ..

حدقت اسيا في اختها الصغرى ...

دوما رأتها صغيرة دون ان تغفل عن ميولها الرومانسية المبكرة كما غفلت عنها امهن..

الآن لم تعد ترى رقية صغيرة حقا ..

بعد كل الكلام الذي ابلغها به حذيفة عندما استلمت منه رقية (الناقمة) ...

تكاد تستوعب بصعوبة الاحداث التي حصلت واحتاجت حقا لانفجارات رباب الهستيرية حتى تستكين هي وتعيد تقييم الموقف ..

رقية اختارت عن وعي وادراك الطريق الذي سلكته .. حتى وان اختارت طريقا خاطئا لكنها كانت مدركة تماما لمخاطره ..

كل هذا لايجعلها الغر الصغيرة ..

بل يجعلها تحتاج لضوء .. ضوء ينير دواخلها ويصحح معتقداتها ومبادئها ...

حبيبة كانت تتميز غيظا وهي تمنع نفسها بشق الانفس من التدخل ...

حتى صرخت رباب " ايتها الغبية المغفلة .. كيف تركبين معه.. ؟ "

فترد عليها رقية بغضب مماثل

" انا لست غبية رباب .. تركت الغباء لك وانت لاتعرفين ما تريدين حقا !"



صدح صوت حبيبة وقد بلغ احتمالها الذروة

" توقفا كلاكما ... الامر لايحتمل مزيدا من الجنون .."

كان صدر رباب يعلو يهبط باضطراد وفي عينيها تلتمع رغبات اجرامية ناحية رقية..

بينما رقية ثائرة غاضبة باباء وكأنها لم تفعل شيئا خاطئا !

جاء صوت اسيا ثابتا وهي تقترب من اختيها

لتواجه بنظراتها اختها رقية الثائرة والتي تتبع سياسة الهجوم افضل وسيلة للدفاع ...

" دعينا نتحدث يا صغرى قوارير يونس .. والحمد لله ان يونس غير موجود بيننا اليوم ليشهد رؤيتك بهذا الحال .."

شيء ما التمع كانفجار مضيء في عيني رقية الزرقاوين وكأنها لم تحتمل ان تضغط عليها اسيا بذكرى والدهن ..

لا احد يعرف مدى تعلقها بيونس العطار ..

لا احد يعرف انها الخاسرة الاكبر بينهن بموته المبكر ...

صرخت رقية دون وعيها وعيناها تلمعان بقهر غريب لكنها تقاومه لتنفجر بقسوة

" لاتبدأي بجملك الشهيرة عن قوارير العطار يا اسيا .. الزمن تغير .. كل شيء تغير .. الان يجب ان اختطف قلب الرجل الذي اريد وألاعبه حتى يدمن وجودي .. لن اخطئ كأمي ليذهب ويتزوج علي باخرى .."

تجمدت رباب كما تجمدت حبيبة مصدومة بينما بدت اسيا اكثر ثباتا وملامحها لاتظهر اي تأثر بينما تواصل رقية انفجارها المدوي

" كل الكلام السخيف عن علو الشأن ونحن القوارير المميزات الثمينات بقيمتنا .. كله كلام بلا معنى وعفا عليه الزمن .. "

خرجت حبيبة عن صدمتها وهي تصرخ فيها

" اخرسي رقية ..."

لكن اسيا اوقفتها بالقول " دعيها حبيبة ..."

ثم اقتربت اكثر من رقية لتقف قبالتها مباشرة .. وجها لوجه ... فتقول لها بهدوء اعصاب يثير الحسد

" صحيح ... قيمتك يا رقية اخترتها بنفسك وتصرفاتك .. قيمتك اتضحت اليوم .. انها في ثمن ورقة بخسة يعرضها عليك شاب حقير أرعن لتبيح له اخذك لأي غرفة من اربعة جدران فيعبث بجسدك كما يشاء .. عرض رائع للحب يشكر عليه .. يراك قيمة فعلا وهو يأخذ ما يريده (بالحلال) ثم يوصلك لبيت عائلتك تتخفين بالظلام عنهم حتى لايعرفون انك (تساوين هذه القيمة) ولا يروا آثارها عليك .."

يدا رقية تتقبضان بمقاومة مستمرة تريد ان تدافع عن موقفها بأي وسيلة فترد بوقاحة

" انا لم اوافق .. ولم أكن سأوافق ابدا حتى ولو وقف على شعر رأسه .. حارث لايراني رخيصة كما تظنين .. انه يتصرف بحمق احيانا وتهور.. لكني اعرف كيف اعامله ليقف عند حده عندما يتمادى .. حذيفة تدخل فيما لايعنيه وقد كنت قادرة على .."

قاطعتها اسيا بالقول التهكمي القاسي

" حقا تعرفين ! انظري للاثار حول رقبتك ؟ هل كان يحاول الاعتداء عليك ؟ حذيفة قال انك كنت تسعلين بقوة لتتنفسي عند حضوره وواضح انه حاول التعدي عليك لتضربيه بكعب حذائك .."

تزمّ حبيبة شفتيها تكاد ترغب بالخروج والبحث عن حارث الحقير لتضربه بما هو اكثر من كعب حذاء بينما تنقل رقية نظراتها بين اخواتها الثلاث لترتبك نبرات صوتها وهي تواصل انكارها لحقيقة الوضع الذي حدث

" كان ... قد غضب مني بجنون لاني رفضت عرضه الغبي المتهور.. ففقد اعصابه .. عندما قلت له اني لن اتزوجه ابدا وانه .. سيراني عروسا لغيره قريبا .. كان قد فقد عقله لانه .. لايحتمل خسارتي وحاول ان .. ان .."

قاطعتها اسيا مرة اخرى وهو تهدر فيها

" يخنقك باصابعه ؟ قتلك مثلا ؟"



همسة خافته خرجت من فم رباب الشاحبة

" يا الهي ..."

فتنظر رقية نحوها تلقائيا وكأن رباب تشكل نقطة ضعف ولا تحتمل هلعها عليها فتحاول لاول مرة ان تفسر بما تعتقده سيطمئنها

" لكني .. اوقفته وضربته على رأسه حتى قبل ان يأتي حذيفة .. لم أكن بحاجة لاحد وهو لم يكن يعني حقا .. اذيتي .. كان .. مضغوطا هو الآخر لان والده يلح عليه بخطبة ابنة عمه التي لا يريدها .. "

ثم عاودت النظر لاسيا تضيف بثقة غير حقيقية " انه يريدني انا ويعشقني انا .. لايحتمل حياته بدوني ..."

صمتت اسيا للحظات قبل ان تسأل باستهانة ضمنية بمنطق كلام رقية " اين كنت مع حارث المتيم هذا يا رقية وهو يعرض عليك الزواج باسلوبه ... القيم ؟!"

ابتلعت رقية ريقها وقد عجزت عن الرد للحظة فعاودت اسيا طرح سؤالها " اين كنت ؟!"

ردت رقية وهي تأبى ان تنكس نظراتها لا تريد الاعتراف بالخطأ

" اخذني .. لبيت جدته .. لقد كانت موجودة بالبيت لكنها نائمة كما اننا لم .. ندخل .."

ابتلعت ريقها بينما تواجه نظرات اخواتها بمزيد من التعنت فتضيف " كنا في المرآب فقط ..لم .. ندخل ابدا للـ..."

لم تعد حبيبة تحتمل لتصرخ فيها

" حقا ؟ وماذا لو فقد صبره وقرر حمل ..."

توقفت للحظة لاهثة قبل ان تشير بيدها
لرقية وهي تكمل بحمم الغضب

" حمل بنيتك الضعيفة الصغيرة هذه ليدخل
بك عنوة للبيت .. يأخذ ما يريد وجدته
المصون نائمة لاتعلم ما يجري في بيتها..."

فتحت رقية فمها لترد عندما اضافت حبيبة
المزيد وبمنتهى السخرية " آه تذكرت ..
ستضربينه بكعب حذائك مرة اخرى .."

تقدمت حبيبة خطوتين وانفعالها يتضاعف
وهي تقول " ماذا لو لكمك بقبضته مثلا

وافقدك الوعي ؟ انها حرب من يفاجئ الاخر
بضربة تفقده الوعي اولا ليحقق ما يريد .."

امسكت اسيا بذراع حبيبة تهدئها قائلة

" اهدأي حبيبة .. اهدأي ..."

رباب تدخلت اخيرا لتقول ببعض الثبات

" الآن ماذا سيحصل بعد ؟"

ردت رقية بتسارع وقد خنقها هذا الحصار
عليها " سيحصل الذي اقوله لكم
ولاتصدقونه .. حارث مجنون بي متيم حتى
النخاع بحبي ... وانا .. انا معجبة به جدا .. بل
أحبه واريده ... كنت ألفه على اصبعي الصغير
والفتيات يتعجبن من استسلامه لي في كل ما
افرضه عليه .. يتمنى مني الرضا لأرضى ..."

عندها قالت اسيا

" سنرى كيف سيرضيك في القادم .."

أنفاس رقية لاهثة من شدة الانفعال بينما تتساءل بلا فهم لمقصد اختها الكبرى

" ماذا تقصدين ؟"

ردت اسيا بنظرة مشفقة

" اقصد .. انك عولتِ كثيرا على شعوره كعاشق واهملتِ الاهم .. شعوره كـ.. رجل .. ان كان يحمل ايا من صفات الرجال .."

ارتجفت شفتا رقية فتدير رأسها جانبا بينما تدعي هذه المرة عدم الفهم بالقول

" انا لا افهم .. ما ترمين لقوله .."

فترد اسيا بيقين راسخ

" ان كان رجلا بحق .. فبعد ما جرى سيأتي منذ الغد يقف على باب بيت ابيك يطلبك في الحلال ... "

تمتمت رقية وهي تنسحب خطوة للخلف

" سيفعل وسترون.."

ثم استدارت لتغادر مرفوعة الهامة قائلة

" انا عائدة للبيت .. لدي محاضرات كثيرة فاتتني يجب ان ادرسها .."

نادتها رباب " رقية ..."

لكن اسيا تمنعها همسا " دعيها رباب ..."

فتغادر رقية وتغلق خلفها باب الشقة بينما تلتفت رباب لاسيا تقول لها بقلق

" انا اخاف عليها .."

ردت اسيا بقناعة " رقية تجاوزت كل الخطوط يا رباب .. عليها ان تواجه بنفسها مغبة اختياراتها .."

قالت حبيبة وهي تتحرك نحو الاريكة لتتمدد عليها " اعترف رغم كل شيء انا سعيدة انها تملك هذه القوة وقد جابهت الحقير وضربته .."

فتقترب منها اسيا لتقول ببعض القلق عليها

" اليوم توترتِ بما فيه الكفاية وهذا ليس جيدا لك .."

اغمضت حبيبة عينيها لتقول

" سأتصل بيحيى ليأتي ويأخذني و اترك سيارتي هنا .. "

" خيرا تفعلين .. اتصلي به الان ونامي قليلا حتى يصل اليك .. لحسن الحظ انه لم يكن متواجدا في دار العطار هذا اليوم .."

هزت حبيبة رأسها ايجابا بينما رباب تقول

" انا سأعود للبيت واحاول ان أكلم .."

قاطعتها اسيا لتقول بحزم " لا رباب .. عودي للدار .. امي ستقلق لعودتك المبكرة خاصة مع وضع رقية وشذرة .."

عبست رباب وهي تسأل " شذرة ؟ ما بها شذرة ؟"

فكانت حبيبة من ترد وهي مغمضة العينين

" كانت معي لتشتري بعض الاغراض عندما شعرت بالتوعك و أعدتها للبيت .."

هزت رباب رأسها بنعم وافكارها تسرح مع حال رقية ولا تعرف ماذا سيحصل بعد ..

للحظة اوشكت ان تخبر اسيا وحبيبة عن موضوع هوية (الحرامي) لكنها غيرت رأيها وقررت الانتظار لاحقا ..

ربما ستخبر اسيا فقط ..

اجل .. ستتصل مساء باسيا وتخبرها عبر الهاتف .. ستكون الامور قد هدأت والمشاعر والافكار استقرت وستخبر اسيا بهدوء عما حصل ...

بعد نصف ساعة كانت اسيا تودع اختها حبيبة وهي تغادر مع زوجها .. أغلقت باب المرآب ثم دخلت عبر الحديقة تتصارعها الهواجس عندما وجدت حذيفة ينتظرها في قرب السلم اللولبي المؤدي لشقتها ..

اشفقت عليه وهو يحيد بنظراته للارض يتجنب النظر اليها مباشرة ..

اقتربت منه وقبل ان تقول اي كلمة بادر هو للقول بصوت منخفض " انا آسف اسيا .. لم أكن اريد هذا الموقف .. انا .."

تلكؤه .. نظراته التي لم تفارق الارض .. تعابير وجهه وكأنه اخطأ ..

ليضيف بنفس النبرة " لم استطع اكمال
عملي في المصنع .. طوال الوقت كنت افكر
اني كان يجب ان اتصرف بشكل مختلف ..

عدت الآن فقط لاطمئن .. هل .. هل حبيبة
بخير ؟ بدت شاحبة وماذا عن .. رقية ..؟"

تنهدت اسيا لتقول له ما يحتاج سماعه من
سنوات طويلة " انت وفيت دينك الذي يثقل
كاهلك من سنوات يا حذيفة .."

شعرت بجسده الضخم هذا كيف تحول لتمثال
من الصخر لتضيف بنبرة صادقة شجاعة
خرجت من قلبها " وفيّته لي ووفيّته ليونس
العطار .. لاشيء على الاطلاق يجعلك تنكس

نظراتك في حضوري بعد اليوم ارجوك ..
ارفع رأسك حذيفة .. أنت.. اخي .. "

اول ردة فعل منه ارتعادة هزت ضخامته لتعطي
تلك الضخامة ضعفا انسانيا يمس القلب
فتترقرق الدموع في عيني اسيا رغما عنها
وتقول ببعض الحزم " سامح نفسك .. انت
تحتاج ان تسامح نفسك .."

يده ارتفعت لتمسك بحافة سور السلم
يعتصره وهو يهمس بخشونة كأنه يتصارع في
داخله " لا استطيع .."

انفاسه تتسارع بنفس الخشونة وهو يضيف

" ابي مات وهو .. غاضب ..."

آلمها هذا الذي يرزح تحت وطأته ..

لقد نسيت ان اباه طرده ومات قبل ان يعود
ويصالحه ..

ألهمها الله ان تقول بإيمان كامل بحقيقة ربما
لم ترد في خاطر احد " انت لاتعرف يا حذيفة
ولا احد يعرف .. ربما هو نفاك ليسامحك..."

ما زالت يده تعتصر حديد السور ليفاجئها بل
يصدمها بالقول " كنت .. ثملا .. مخدرا
ببضعة .. حبوب عفنة ... وكنت ... "

اختنقت اعترافاته ليصدمها بالمزيد " غيورا ..
من .. رضا .. غيورا لان ابي كان يقارنني به
على الدوام ... أردت .. اذيته من خلالك انت
... كنت أعرف تعلقه بك .. لم تكوني انت

المقصودة .. بل .. هو .. اعلم ان العذر اشد
قبحاً من الذنب .. لكن ..."

لم تحتمل ان يقول اكثر فنادته بوجه شاحب
ليتوقف " حذيفة ... كفى .."

ما زال يشكل امامها لوحة معاناة وهو يصل لما
لم يصل له يوما فيقول بصوت متحشرج

" انا اسف .. اسف لاني اذكرك بذاك
الماضي .. اعلم انه يقرفك وقد يكون ما
يزال .. يخيفك .. انا .. "

قاطعته هذه المرة لتقول بصوت متأثر

" توكل على الله .. انت الآن حذيفة الذي
امامي وفقط .. اراك كما انت الآن .. لا
كذاك الذي كان .."

عندها فقط وبتردد وبطء رفع نظراته اليها
ليرى فيها تلك الانسانية التي تشع منها
ليقول بوعد متجدد

" وأنا سأقولها لك كما قلتها قبل سنوات ..
لآخر عمري سأسدد لك .. يا ام جعفر .."

مساء .. بيت الصائغ ..

تنزل رباب درجات السلم اللولبي وهي تشعر
ببعض الراحة لانها اخبرت اسيا بكل شيء
قبل عودة رضا للبيت ..

عندما كلمتها على الهاتف واخبرتها الموضوع
أصرت عليها اسيا ان تأتي لبيتها وتحكي لها
بتفاصيل اكثر ..

رغم نظرات الفضول في عيني رضا عندما رآها
عند عودته قرابة السابعة الا انه لم يسأل
واكتفى ان يصر عليها بتناول العشاء معهم
وهكذا كان ...

نظرت لساعة يدها وهي تنزل درجات السلم
فتجدها تشير الى الثامنة .. من الغريب ان عبد
الرحمن لم يتصل بها منذ ليلة الامس ! و رغم
ان رضا لمّح على العشاء ان عبد الرحمن اتعبه
اليوم وقد قضاه برفقته في المحل الكبير الا
انها لم ترضي فضولها وتسأله ..

ما زال عقلها مشوشا لتركز مع افعال المجنون
وقد قررت ان تهادنه في الخطبة حتى تستقر
امور رقية ثم .." بَسْ بَسْ بَسْ ..."

أجفلت على اخر درجة من هذا الصوت الذي اتاها من من تحت السلم اللولبي ..

لم تكن تحتاجه ليظهر نفسه من الظلمة حتى تعرف هويته ..

تقدم لينكشف جزء منه تحت انارة الحديقة الخافتة فتراه يحمل صحنا ويلتهم منه حبات ورق العنب وعيناه تضحكان بلمعة شقية نحوها ..

نزلت اخر درجة لتواجهه بعبوس رغم قلبها الذي بات في اضعف حالاته .. ذاك الخافق بالسعادة رغم أنفها .. المتلهف لرؤية عيني من يعشق رغم تهربها منه .. سألت وهي تبتلع ريقها بصعوبة " ماذا تفعل هنا ؟ لماذا كنت تقف بالظلمة تحت الدرج ؟! "

يضع قطعة ملفوفة جديدة في فمه ويقول بنظرات حارة يخصها بها " اكل ورق العنب .."

قالت بجفاء وخداها يضجان بالحمرة من نظراته الجريئة العاطفية " لماذا لاتأكله داخل بيتكم .."

يهز كتفيه والشقاوة في عينيه وابتسامة فمه وهو يقول " لان الطبق في الاصل هو لاجلك وكنت سآخذه اليك عندما اخبرتني خلود انها لمحتك من شباك المطبخ تدخلين وتصعدين لاسيا .. انتظرتك فتأخرتِ ثم كنت جائعا فلم اقاوم.."

(المقاومة) .. كيف تستطيع ان تقاومه هو ؟!
لقد باتت حتى تنسى لماذا تقاومه اصلا ؟! انه
يمارس عليها حصارا تدركه ولاتملك القدرة
لكسره .. كأن كل الظرف اجتمعت باتفاق
مسبق لتضعفها امامه ...

فسخ خطبته على رانية ..

اعترافه صراحة بالحب وانه لن يقترن بغيرها
طوال حياته ..

ثم .. ما حصل ويحصل مع رقية ...

كل هذا يضعفها ويعبّد له مزيدا من الطرق
ليصل الى ما يريده منها .. يا الهي الى اين
ستصل معه وهو يجرها عنوة من يدها في طريق
واحد لا غير ؟

لم تشعر الا وهي تقول بمقاومة شرسة

" انا متعبة ولا وقت لدي لمزاحك هذا .."

يرد عليها بوعد مغيظ

" جفاؤك هذا معي سيتغير قريبا يا قرفة "

تستدير لتهرب منه مدعية الحنق عندما
اوقفها بالقول

" اخبريني ماذا يحدث بينكن يا بنات العطار؟
امي فتنت لي عن تجمعكن الغريب ظهر اليوم
بشقة اسيا لكنها رجحت انكن ربما تتفقن
علي ! لكني ارجح انكن اتفقتن على رقية ..
اليس كذلك ؟ اتخيل ان اسيا تجر اذنها
وحبيبة تجر شعرها .. اما انت .. امممممم ربما
تحرقين ثوبها المفضل امام عينيها "

قالت بانفعال مبالغ وصدرها يعلو ويهبط

" ما هذا ؟ فيلم الاخوات المنتقمات .."

لحظات طالت وهو يمعن النظر فيها ثم يرد بصوت أجش " بل حكاية قوارير العطار .."

ثم رفع اخر قطعة في الصحن هامسا وهو يمد يده اليها في دعوة لتأكلها " اخر قطعة ..."

تراجعت خطوة للخلف وهي ترفض بتنعت وترد عليه اغاظته لها

" لا اريد .. تصبح على خير وطمئن خالتي سعاد ان اي خطة معك لن تجدي نفعا .. فأنت محصن ..."

تركها تستدير وتخطو خطوتين عندما قال فجأة وبنبرة جدية " هناك امر مهم ربما قلته لك سابقا لكنه يحتاج لتأكيد وبعض الاضافات .. فكما يبدو عقلك لايستوعب خطورة الامر "

التفتت اليه واقتربت طواعيا وقلبها يقرع هذه المرة خوفا مما سيقوله ..

لاتعرف لماذا ربطت مباشرة الامر مع رقية ..

ربما نبرته الجدية وضغط ما حصل اليوم ..

وربما لانه سبق وحذرها ممن ترافقهم رقية..

تمتمت وهي تقترب اكثر منه وقد بان القلق على محياه " اي أمر ؟"

كان قد التهم آخر قطعة ويضع الصحن جانبا على احد الدرجات في السلم اللولبي قبل ان يسبل اهدابه ويسأل " هل نسيتِ ؟ "

مد يده ليمسكها من معصمها بحركة بدت عفوية وهو يسحبها للظلمة تحت السلم ويقول بنفس الجدية

" تعالي هنا لاخبرك .. لا اريد احدا ان يرانا او يسمع حديثنا المهم "

كان ما زال يمسك بمعصمها وحشرها دون ان تشعر بينه وبين السلم بينما تسأله هي بتركيز وحنق في نفس الوقت

" انطق يا عبد الرحمن .. لماذا تصمت ؟ "

كفه الاخرى ارتفعت لتستقر على حافة السلم فتحاصرها ذراعه من الجانب الاخر ..

كان سيجن من فرط الشوق ..

ظلام الليل ورائحتها وانفاسها خلطة برائحة العشق .. تمزق القلب شوقا ..

همس بصوت أجش وعيناه تلمعان بالظلمة

" احبك ... "

تراخت كلها امامه وهي تحدق فيه بعجز مباغت .. باغتها هي ليضرب قلبه هو ..

يده التي كانت تمسك معصمها باتت تحتضن كل كفها فيتمتم بهمس مبحوح

" هل هناك اخطر من هذا ؟"

كانت ترتعش وهي تهمس بتوسل

" عبد الرحمن .."

ترك كفها ليرفع انامله قريبا من وجهها وهو يقول بقلبه المجنون

" و هناك أمر أخر اخطر.. هذه الشامة اسفل فمك ... تكاد تصرعني قتيلا لألمسها ... هل تشعرين بأهمية هذه الاضافة بمعلومات خطيرة سرية كهذه؟"

سبابته ترتعش وهي تكاد تهبط على مكان الشامة فتنتفض رباب وهي تدير وجهها جانبا وترفع يدها تدفعه بارتعاش ليبتعد هامسة بضعف

" ابتعد .. اياك ان تلمس .. شيئا باصابعك .."

همس وانفاسه الدافئة تلفحها

" ومن قال اني اريد لمسها باصابعي ؟!"

كان يميل بوجهه فشهقت وهي تستوعب ما سيفعله هذا الوقح .. لم تشعر الا بيدها تصفعه على خده بصفعة مدوية ثم تدفعه وهي تقول بصوت خافت كي لايسمعها احد

" قليل الادب .."

يضحك بخفوت وهو يلامس خده المصفوع ويراقبها تغادر بخطواتها الغاضبة فيقول بهمس

" ايتها الجاحدة .. لاتستحقين اضاعة يومي بأكمله وانا اضغط على رضا ليصوغ لاجلك التصميم الذي حلمت دوما ان ألبسك اياه .."

ثم يقعد ارضا متربعا تحت السلم وينظر عاليا للسماء المظلمة فيقول محدثا نفسه

" ايها المتعوس يا عبد الرحمن .. ستكون ليلتك طويلة ظلماء سوداء وانت تحلم بتلك الشامة وكيف ستلمسها ! "

شقة اسيا ورضا

يتمدد على الاريكة وكاظم يستقر جالسا فوق ساقيه بينما يناظر اسيا تجلس على الكرسي المجاور سارحة بمكان آخر بعيد عنه ...

يلامس رأس ولده وهو يسألها " ألن تخبريني بما يجعلك ساهمة مشغولة الفكر بعيدا عني ؟ لماذا اشعر ان هناك امورا كثيرة حصلت ..؟"

عيناها اجفلتا !

نظراتها اليه ذكرته بماض قبل سنوات ..

اسبل اهدابه وهو يقول بابتسامة

" لاتريدين اخباري ..؟ اذن هو يخص اخواتك اليس كذلك ؟ حالتك هذه تشبه حالتك يوم تعرضت حبيبة للحادث المريع قبل سنوات.. سر احتفظتِ به مع يحيى .."

ردت اسيا ببعض الشعور بالذنب

" رضا .. انا اريد اخبارك لكن ..."

اعتدل ليجلس وهو يرفع كاظم ليضعه على حجره هذه المرة ثم يقول بهدوء

" لا بأس يا اميرة البنات .. خففي عنك .. انت تحميهن بغريزة الانثى لديك.. ليس بيدك فعل شيء آخر .. "

بدت غير قادرة على قول شيء .. تريد ولا تقدر ... شعر بمزيد من القلق .. هناك امور تحدث في بيت العطار ...

قال اخيرا " نسيت ان اخبرك .. تقرير الشرطة يقول ان هناك اثار لشخص او ربما شخصين .. لكن انت تعرفين ان امكانيات الشرطة عندنا متواضعة وما دام لم تحدث جريمة سرقة او اقتحام بيت فيكتفون بهذا .. المهم .. قدر الله ولطف .. ولا اظن ايا كان من اقتحم حرمة بيت والدك لا اظنه سيعاودها بعد الذي حصل تلك الليلة .."

تمتمت اسيا ببعض الشرود

" اتمنى هذا ..."

في بيت طارق النعماني

يجلس على الاريكة ورأسه مستند للخلف وعيناه شاخصتان للسقف ...

انه يخسر ...؟

يكاد يشتم رائحة الخسارة القادمة ..

لن تكون اول مرة .. وهو يميز تلك الرائحة عن خبرة ...

هذه المرة الخسارة ستقصم ظهره ...

اغمض عينيه عندما سمع طرقاً على باب جناحه ..مؤكد هذه امه .. لاتكف عن إلحاحها معه وهي تتكلم عن موضوع جوري ..

الكل تقريبا بات يعرف ان بقاء جوري في بيت عائلتها ليس لرعاية والدها ..

الامر اصبح جلياً والافواه بدأت تتكلم ..

كان يقف على قدميه ليتوجه ناحية الباب عندما سمع صوت اخته مروة تناديه

" مهند ... افتح لي .."

تجمدت قدماه .. مروة الصغيرة دون ان تدري لعبت دورا مهما في حياته الزوجية مع جوري ..

ولايعلم حتى اللحظة ان كان دورا سلبيا او ايجابيا ..

هل دفعت جوري لتحاول كسب قلبه ام جعلته كسولا ليسعى هو لكسب قلبها ؟!

أرخى تعابيره ورسم ابتسامة على فمه ثم تقدم ليفتح الباب وهو يقول ببشاشة ظاهرية " مرحبا بالعروس .."

كانت تطرق بوجهها فيمد ذراعيه اليها ويسحب جسدها اليها بخشونة محببة كما عودها فيحتضن اخته الصغرى ومدللته

ويناغشها بالقول " هل دفعته للانتحار ام ما زال يحتفظ ببعض عقله ؟"

كانت تلف ذراعيها حول جذعه وبدت متشبثة به بطريقة غريبة ثم شعر بها تهتز قليلا وكأنها تبكي !

ابعدها عنه عنوة ورفع وجهها اليه ليراها تبكي حقا ..

سألها بقلق بالغ " ماذا هناك ؟"

اخذت تشهق بالبكاء وهي تقول بانهيار

" امي اخبرتني ان جوري .. تركت البيت .. انا السبب .. انا آذيتها وآذيتك ... انا السبب مهند.. انا السبب ... انا اخبرتها عن حبيبة .. انا فرقت بينكما منذ البداية ..."

ادخلها الجناح واغلق الباب وهو يهدهدها بالقول " توقفي عن البكاء حبيبتي .. لست السبب صدقيني .. كما اني سأعالج الامر لاتقلقي .. الامور ستكون بخير .."

يقولها وهو يعلم يقينا ان الامور لن تكون بخير ابدا ..

في جوف الليل.. بيت الصائغ ..

تسحبت اسيا من سريرها تاركة جوار رضا وخلال دقائق كانت قد توضأت وتصلي ركعتين لوجه اللّه..

حالما أنهت صلاتها تقدمت للشباك تفتح الستائر قليلا وتتطلع لبيت والدها يونس العطار ...

انها قلقة على الفتيات الثلاث اللواتي يعشن تحت سقف بيت ابيها ...

قلقة وقلبها مقبوض وهي تشعر بتخبطهن ..

اغمضت عينيها ورفعت كفيها تلهج بالدعاء

(ربِّ أَعُوذُ بكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين ، وَأَعُوذُ بكَ ربِّ أَنْ يَحْضُرُون.

اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ الأَشْرَار ، وَمِنْ كَيْدِ الفُجَّار ، ومِنْ طَوَارق اللَّيل والنَّهَار إلاَّ طَارقاً يَطْرُقُ بخَيْر يَا رَحْمَنْ .)

ثم اخذت تقرأ الفاتحة على روح والدها لتتحرك بعد ان اعادت غلق الستائر وقد قررت قراءة القران حتى موعد اذان الفجر..

وبينما هي تتجه لغرفة المعيشة حاملة كتاب الله في يدها لم تكف عن التفكير كيف كان حال الفتيات ليلة الامس ..؟!

في العاشرة مساء اتصلت بامها لتطمئن على الاحوال باسلوب غير مباشر فاخبرتها امها بامتعاض ان الفتيات تركنها تشاهد التلفاز وحيدة و كل واحدة اعتزلت غرفتها في شأن يخصها .. امها كانت قلقة فقط على شذرة لانها بدت متوعكة منذ عودتها صباحا من مشوارها مع حبيبة وهي تبدو شاحبة جدا

وتشكو من الآم المعدة وبعض الغثيان لتلزم السرير في غرفتها وترفض تناول الطعام ...

لكنها لم تكن راضية عن رقية التي بدت متعكرة المزاج بشكل مزعج لتلزم غرفتها هي الاخرى وتغلق الباب بالمفتاح كما لم تكن راضية عن رباب التي بدت مشوشة ولاتستجيب لمحاولات امها للكلام عن يوم خطبتها المرتقب وماذا يجب ان ترتدي فيه...

كل ما استطاعت اسيا فعله ان تطيب خاطر امها مشفقة عليها مما تجهله عن الفتيات ...

جلست اسيا على الاريكة بعد ان اضاءت انارة جوارها ثم فتحت القران وقبل ان تبدأ البسملة لم تستطع الا التساؤل

(ترى ماذا فعلت الفتيات وهنا معتزلات خلف جدران غرفهن ؟. ماذا كان يراودهن من افكار ومشاعر؟)

لم تكن اسيا تعلم ان الفتيات الثلاث جمعتهن فكرة واحدة لكن كل واحدة منهن تترجمها بشخصيتها ومعتقدها ...

انه.... العشق ....

رباب قضت ليلتها تحدق في الفستان الكرزي الذي اخرجته من خزانة الملابس لتعلقه على حافة باب الخزانة ثم تجلس على سريرها تنظر اليه وتفكر بـ ...العشق ...

العشق ...كالبحر ... مخادع ....!

يغريك ويشعرك بالامان لتخطو بقدميك
داخل شواطئه تداعب اصابع قدميك
المغمورة بالماء رمال تزغزغك .. فتشعر
بانتعاش واستمتاع حلو يبهجك ويستجلب
الابتسامة لثغرك بينما الامواج الصغيرة
تضرب ساقيك تغريك وتناديك لاستمتاع
اكبر .. فتعمي بصيرتك عن توقع القادم ..

ان هي الا خطوة اخرى فتتورط !

حالما تضربك امواج عالية تسحبك عنوة
للعمق فلا تعود بأمان انك تلمس بقدميك
ارض آمنة تحتك فتقاوم لتعود لشاطئ الامان
لكن الامواج الجبارة تضحك منك
وتسحبك اكثر واكثر وانت تتخبط بعنف

لتنقذ نفسك مستدركا وبكل غباء انك
لاتجيد السباحة !

وتظل في صراعك هذا تبحث و حتى آخر رمق
عن اي طوق نجاة ..لينقذك ...

لكنك تغرق وتغرق ..

وانفاسك تكاد تتلاشى والطوق لا تراه ..

رقية قضت ليلتها تلعب ببيت الدمى .. تنظفه
وترتب الدمى الصغيرة فيه ثم تمسك بالقلم
الاحمر وبكل تحد يشع من عينيها ترسم
قلوبا حمراء جديدة على الجدران الخشبية !

العشق .. كفرس جامح يحتاج لمن يلجمه قبل ان يمتطيه .. تمسك اللجام في يدك ثم تلاعب الفرس وتحايله حتى تلف اللجام حول فمه وحالما تفعل تبدأ المعركة الحقيقية لتركب فوق ظهره فتكاد تصارعه في معركة من (السيد) لتعلمه الطاعة لك وتجعله يتقبل سيطرتك عليه ... فيقودك الى حيث تشاء انت والى اي ارض تختارها...

كل هذا واللجام يبقى في قبضة يدك انت..

اما شذرة ... لم تجد الا صور الراحلين ..

صور الديار التي احتضنت طفولتها وضحكات الاحباب ...

جدران بيت والدها الصغير ورائحة طبخ امها الاثير ..

العشق .. ما هو العشق ؟!

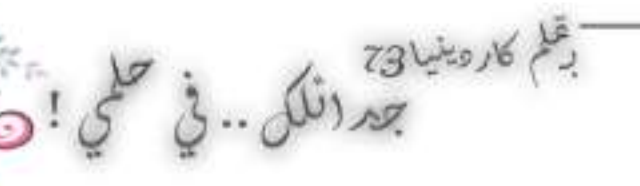
نزلت دموعها الحبيسة منذ اول النهار الذي قضته حتى آخر الليل وهي تستعيد شريط حياتها منذ وعت للدنيا ...

ها هي تتذوق الوجع بطعم ملوحة الدموع التي انحدرت على خديها لتتسلل بين شفتيها ..

آآه ... العشق ... ما هو العشق ؟!

العشق .. ترف لمن يبحث عن انتماء ..

لمن يبحث عن عنوان بيت صغير بنيّ لاجله .. وسكانه ينادون باسمه ويتوقون لوجوده ويفتقدونه في غيابه ...



العشق لايبني الجدران .. لايمنح الامان ..

ولا يعوضك الحرمان ..

العشق قد يرضي القلب والاهواء ..

لكنه لايعطي الرضا و الاكتفاء..

انها تحن لقلب كالبيت تأوي اليه ...

فيكون عنوانها الذي اضاعته ..

ويشرع ابوابه في وجهها لتتملكه وهي تخطو نحوه ..

الاربعاء

بيت سعدون القاضي

بوجه بارد وملامح خشنة نحتت من الصخر يجلس عبد الرحمن جوار اخيه الاكبر رضا بينما يجلس قبالتهما سعدون القاضي بمبذله القديم .. عيناه محمرتان متوجستان من ضيفيه وشعره مشعث ولحيته نابته .. من الواضح انه لم يحلق منذ ايام ..

قال رضا بنبرة تجمع الهدوء والهيبة

" أتيت اليوم لبيتك مع عبد الرحمن حتى يعتذر منك لضربه اياك في لحظة غضب .."

كان سعدون في واد آخر .. زائغ النظرات .. مرتبكا ومشوشا.. وكأنه يعيش لغزاً او دخل متاهة لايعرف كيف يخرج منها !

يردد بلا تفكير ما يدور في رأسه منذ ايام ويقلبه في صفحات دفتر ملاحظاته الاثير فيهذر بالقول " صدقني يا ابا جعفر انا لم أكذب .. انا رأيتها تقف في الحديقة معه ليلة عرس حفيدة بدرية .."

احترق الغضب بعيني عبد الرحمن واوشك ان يقف على قدميه ليلقن العجوز درسا جديدا عندما شد رضا على ساعده وهو يقول

" اهدأ عبد الرحمن .."

بطول بال وصبر سأل رضا " هل رأيتهما بأم عينيك ؟ هل رأيت وجهيهما ؟"

اخذ سعدون يمرر اصابعه بشعره الخفيف المشعث بينما عيناه تذبلان كمن يعاني مشكلة عويصة فيرد بتشوش " أأأأ ... لا .. لكنهما .. كانا خيالين لفتاة وشاب ... انا متأكد .. كانا اثنين .. فتاة وشاب .."

للحظة جمدت نظرات عبد الرحمن بينما يرد رضا على سعدون بالقول الحازم

" انا لااعرف ما رأيته يا سعدون تلك الليلة ان كان خيالان لفتاة وشاب او لشابين يخططان لسرقة البيت او ربما خيالا شجرتين لااكثر !

ولا اعرف ان كان حقيقة او محض تخيلاتك واوهامك ولن أقول (اكاذيبك) .. كل هذا لايهمني ويخصك انت وحدك تحتفظ به لنفسك .. لكن تفسيراتك المرضية التي تمس اعراض البيوت لن تقترب بها من اهل بيتي مرة اخرى.."

ثم يقف رضا على قدميه ليقف تلقائيا عبد الرحمن وذهنه شارد عن سعدون المذهول ليضيف رضا بنبرة قاسية نادرة جدا منه ولها تأثيرها عندما تصدر عن شخص مثله

" عملك السابق كمخبر في جهة امنية لاتمارسه علينا هنا ... جد لنفسك شيئا اخر غير مؤذي ليشغل تخيلاتك .. و اقسم بالله يا سعدون غلطة اخرى منك كهذه سيكون ردة فعلي غير متوقعة على الاطلاق .. انت تعرف جيدا نحن مجتمع نحمي سمعتنا بالدم فما بالك بالاعراض ! "

ثم ألقى السلام وقال لاخيه " هيا يا عبد الرحمن .. انتهى الكلام هنا .."

تحرك عبد الرحمن يلحق خطوات رضا ..

قلبه ينبض نبضات قوية وبطيئة بينما عقله يزرع فيه بذور شك ...

مجرد بذور تسقيها اربع كلمات

(كانا خيالين لفتاة وشاب)

وتغذيها تلك الاسباب الخفية الغامضة لرفض رباب الزواج ....!

رباب لم تكن ترفضه .. هو ...

رباب كانت وما زالت ترفض فكرة الزواج

نفسها !!

السؤال هو ... (لماذا ؟)

ما هو الذي يجعل فتاة مثلها لاتريد الارتباط؟

وماذا عما يصر عليه سعدون حتى اللحظة ؟

هل حقا رآى رباب تقف مع .. شاب ليلة عرس

حفيدة الخال بدرية ؟

ام ان سعدون يتخيل ؟!



الفصل السابع عشر

الخميس .. صباحا..الجامعة

ملامحها لاتنبئ بما يعتمل في داخلها ..

هي نفسها لاتستطيع التحديد !

هل هو الغضب ام الخذلان ام .. الخسارة ..

ام شيء اخر .. يحز في نفسها شعورا خبيثا كريها تقاومه منذ ايام ..

شعورا بالامتهان ربما..! امتهان لكرامتها ...

حارث لم يتصل اطلاقا منذ يوم الاثنين ولم يظهر في الجامعة حتى ، وهي من المستحيل ان تسعى اليه ...

الامر اصبح اكثر من مجرد تشبث به او رغبة رعناء بتحقيق وجهة نظرها ..

الامر اصبح ثأر واثبات موقف ...

الثأر لكرامتها واثبات صحة موقفها لاخواتها الثلاث ..

صوت احدى صديقاتها في الجامعة يأتي من الخلف وهي تناديها ملقية التحية

" رقية انتظري .. صباح الخير .."

تلتفت رقية ترد التحية لسندس وهي تبتسم لها ابتسامة لاتحمل مشاعر .. فقط ابتسامة مجاملة بشوشة تجيد استخدامها مع (شلة الصديقات) في الجامعة ..

مجموعة فتيات يتأثرن بها وبارائها الجريئة احيانا والمتزمتة بكبرياء احيانا اخر ..

دوما كانت رقية العطار بالنسبة لهن خلطة من مجموعة ألغاز غير مفهومة ومستعصية على استيعابهن ..

لم تنجح ولا واحدة منهن في اختراق اسوارها العالية ومعرفة ما تخبؤه خلف تلك الاسوار ..

حتى علاقتها بحارث كانت سرا اشتممن رائحته دون ان يصلن اليه مما كان يثير غيظهن ..

مجرد فتيات تافهات تعتبرهن رقية واحة للاسترخاء والاستمتاع في نفس الوقت ولا بأس من بعض الفائدة ايضا ...

لمحت رقية في عيني سندس بعض اللمعان الفضولي والاثارة ايضا .. اذن هناك اخبار تحملها وقد جاءت تستخدم تلك الاخبار لتحظى من ردة فعل رقية عليها بـ (اخبار جديدة) .. ابتسمت رقية في سرها وهي تقول

" الغبية سندس تظن ومن معها من التافهات انها ستأخذ مني اكثر مما اريد انا اعطاءه !"

رمشت سندس مدعية البراءة وهي تسأل

" رقية .. هل جاءتك الدعوة ؟ "

نبضة قلب أفلتت من رقية وحواسها تتأهب بينما خارجها لايبدي اي ردة فعل منفلته وهي ترد عليه بسؤال (بريء) " اي دعوة ؟"

كانت تستعد للرد بكل طاقتها ..

حدسها اخبرها (اي دعوة) .. لكنها الآن

بمعركة اكثر اهمية و من نوع ثان ..

كرامتها ....

وجاء رد سندس مؤيدا لحدس رقية

" عرس حارث .. الجمعة المقبلة .. ألم تصلك

الاخبار حتى الآن ؟ "

ان كانت تظن هذه الغبية انها ستنهار امامها

فهي تشفق عليها وعلى خيبتها المتوقعة ..

تنظر لعيون سندس التي تتحرق لالتقاط اي رد

فعل من رقية وتكاد تكز على اسنانها غيظا

بسبب البرود الذي تقابلها به ..

انها لاتعرف رقية العطار وما تستطيع فعله ..

تباً لك يا حارث .. تباً تباً..

انت اضعف بكثير مما ظننت ...

وها أنا ادفع من كرامتي بسبب ضعفك ..

ردت رقية وهي ترسم تعابير المفاجأة بعناية

لتبدو طبيعية تماما " حقا ؟ وااو .. لهذا هو

مختفٍ منذ ايام .. امممممم .. لكن اي جمعة

تقصدين ؟ غدا ؟"

بدت سندس في قمة الاحباط والغيظ وهي

تقول بتململ " لا .. الجمعة التي تليها ...

يقولون ان اسنانه الامامية كسرت في شجار

عنيف مع احدهم و يسعى لعلاجها وترميمها

قبل حفل الزفاف .."

لاول مرة منذ ايام تشعر بكامل الامتنان لحذيفة ..

اسنانه الامامية مكسورة ؟ فقط ؟

فلينكسر قلبه على رجليه على أم رأسه هذا الضعيف التافه الذي أذلت نفسها بالقبول به ..

اي حماقة جعلتها تنجذب لعنف استعراضاته العاطفية التي ارضت فيها غرور الانثى ..؟!

حسن .. الدروس دوما لها ثمنها..

سالتها سندس بأمل اخير ان تثير في رقية اي ردة فعل ترضي فضولها وفضول الفتيات اللواتي ارسلنها " هل ستحضرين العرس ؟"

هزت رقية كتفيها ثم باعصاب من حديد تقتل في داخلها اي شعور بالامتهان بينما ترد على سندس بواجهة لامعنى فيها " لا اعرف .. لست متأكدة .. اليوم خطبة اختي رباب وربما الاسبوع المقبل سيكون عقد القران ..

سأكون مشغولة معها لذلك ربما لن استطيع.."

مطّت سندس شفتيها ببعض الحسرة وهي تقول بغباء " اجل .. رباب التي أخذت قلب جاركم الاستاذ عبد الرحمن وجعلته يترك خطيبته المسكينة رانية لاجلها ... يقال ان الفتاة ما زالت منهارة في بيتها لاتغادره وامها تسعى لتزويجها بأي كان حتى ترد اعتبارها واعتبار عائلتها..."

شحبت سندس بينما تواجه نظرات غضب ناري من رقية فتعتذر سندس بتراجع أحمق

" اسفة لم اقصد .. لكن هذا .. الكلام المنتشر في الجامعة كلها .. اظن ان اختك اولى به من رانية المغرورة تلك .."

اقتربت رقية بوجهها من وجه سندس لتقول لها بهمس حاد كحدة شيفرة حلاقة جديدة

" فلتتكلم ايا منكم عن أختي وسأفتح كل الدفاتر بصفحاتها الوسخة التي تضم تاريخكن الاسود جميعا .. "

تمتمت سندس وهي تحدق بعيني رقية في شحوب كامل

" اسفة .. اسفة رقية .. صدقيني لم اقصد.."

فتتراجع رقية للخلف وتبتسم ابتسامة صفراء باردة وهي ترد عليها

" مؤكد لاتقصدين .. انت صديقتي .."

فتردد سندس وهي تتنفس الصعداء

" طبعا .. اكيد .. نحن صديقات .. مبارك لاختك .. و نتمنى ان نبارك لك في يومك ونفرح بك قريبا ..."

رمشت رقية وتنهدت بطريقة (انثوية) مصطنعة قبل ان تقول بجذل " آآآآه لو تعرفين.. لو تعرفين ماذا سيحدث عندما يأتي فارس الاحلام على الحصان الابيض .. "

فتسألها سندس وهي تضحك بتراخ

" وماذا سيحدث ؟"

فترد رقية بعينين لامعتين

" سأوقعه عن الفرس وأمتطيه انا لأعلمه
كيف يمتطيه من جديد وعلى طريقتي .."

تضحك سندس وتشاركها رقية الضحك
المتلاهي عما يحصل في داخلها ..

هذا الدرس كان ثمنه غال عليها ..

تجربتها مع حارث كان ثمنها غاليا جدا..

لكنها لن تضعف ابدا ..لن تنهار لخسارة
كهذه .. حارث رخيص حقا لكن كرامتها
هي الغالية.. والتجربة مست كرامتها ..

الآن عليها ايجاد طريقة لمواجهة اخواتها بما
حصل .. تباً لك يا حارث ..!

عصراً ... (شقة مهند القديمة)

عيناه تراقبانها وهو يفتح لها باب الشقة و
يتكلم عبر الهاتف في نفس الوقت

" اجل خالتي .. انها معي الان .. لاتقلقي .."

تقدمته جوري لتدخل عبر الباب المفتوح
ترفع نظراتها الهادئة تتنقل في ارجاء مقدمة
الشقة بتركيز بطيء ومشاعر غامضة
لاتفصح عنها تعابير وجهها ولا ينطق بها
لسانها ...

لم تكن مترددة وهي تخطو ولم تكن تشعر
بأي تهديد منه .. واثقة هادئة كتومة الى
حد مريب مغيظ !



اغلق مهند الباب خلفهما وهو يضع هاتفه جانبا على منضدة قريبة جوار الباب ..

عيناه تنحدران بلهفة اشتياق تلقائيا على طول جسدها الملفت بانوثته ...

قميص حريري فضي باهت فوق تنورة سوداء حتى منتصف الساقين .. اكسسورات فضية أضافت لتألق جوري الطبيعي تألقا اضافيا ..

ذلكما الحلقان الدائريان الفضيان المعلقان باذنيها مغويان .. خاصة وهي ترفع شعرها الاسود كذيل حصان بتسريحة بسيطة تفيض بالأناقة ..

كم يود ان يلامس تلك المنطقة الحساسة خلف اذنيها ...

يبتلع ريقه رغما عنه فينفض رأسه ليركز ويقاوم هذا الاغواء الذي يتجسد امامه..

عيناه تتابعان تحركاتها في غرفة المعيشة تمرر اناملها فوق ظهر الاريكة الزرقاء الموردة تميل للمنضدة المستطيلة مقابل الاريكة تلامسها هي الاخرى قبل ان تلتقط جهاز التحكم بالتلفاز عن بعد فتعبث به بلا مبالاة...

قال مهند اخيرا وهو يضع يديه في جيبي بنطاله ويتقدم خطوتين

" لقد علمت من والدتك انك لم تذهبي للعمل منذ ايام .. "

لاتنظر اليه وهي تعيد الجهاز لمكانه وتقول

" اجازة لبضعة ايام .. لكني سأعود بداية الاسبوع المقبل .."

دمه يفور لكنه يقاوم .. يجب ان يقاوم ..

ايام قضاها وهو يقاوم اي افكار متهورة ..

لاول مرة يشعر ان ذهنه صافٍ ويفكر بهدف حقيقي .. هدف ملموس يسعى له ..

هذه المرة قرر ان يكون هو مهند كما كان..

لكن باسلوب مختلف ..

هذه المرة سيسعى لنيل امرأته باسلوب جديد لاتخلو من روح مهند الذي افتقده ..

لسنوات شعر بالعار من ذاك الـ(مهند) فطمس ملامحه بالكامل وقمع وجوده ليشعر انه غدا باهتا .. مجرد شبح لا هوية له ...

قال مهند بفكاهة ساخرة

" ان عدتِ للعمل مع عباس هذا لا اضمن لك اني لن أثير نفس الفضيحة كل يوم .."

التفتت اليه .. ملامحها الفاتنة تفيض جاذبية وكأنها تتعمدها !

ترفع يدها لاذنها تلامس بأناملها حلقها الدائري الذي سحره وكأنها تدرك بما يعانيه وتتلاعب به ...

تلكما العينان الداكنتان العصيّتان عليه ...

قالت اخيرا وهي تهز كتفيها ببساطة

" لهذا اخذت اجازة حتى موعد لقائنا اليوم فنضع النقاط على الحروف ونثبت موضوع طلاقنا .."

ينظر اليها بهدوء يناقض بشكل رهيب ذاك الهدير في صدره ... بينما تواصل جوري كلامها وهي تتبختر في مشيتها حتى تصل للوحة معلقة بشكل مائل قليلا فتمد يديها وتحرك اطار الصورة من الجانبين لتعيدها للوضع الصحيح بينما تقول برضا وهي تحدق في الصورة " انا اعرفك صبياني التصرفات عندما تريد ... ولااريد ان احمل ابا فاضل تبعات تصرفاتك الهوجاء تلك .."

ابتسم ليتمتم بانفاس لاهثة " هذا جيد ..."

التفتت تنظر اليه بعمق قبل ان تفرد كفيها لتلوح بهما جانبا وهي تقول بخفة

" اذن هذه شقة عزوبيتك .. "

توهّجت عيناه وهما تحدقان فيها ..

كيف لم يكن يرى هذا السحر الخلاب الذي تضج به جوانحها ؟! كيف ؟!!

أسبل اهدابه ثم تقدم منها حتى وقف قبالتها وهو يخرج من جيبه ميدالية ذهبية بمفتاح واحد .. امسك كفها الايمن وهو يقاوم ردة فعل جسده لملامستها بعد طول جفاء ثم وضع فيه المفتاح بصمت واغلق عليه وهو يثني اصابعها حوله ...

سألته بثبات يغيظه وهو ما زال يمسك بيدها

" لماذا تعطيني هذا المفتاح ؟"

كان سعيدا كصبي مشاكس لانها ادرك حقا انها لم تفهم معنى المفتاح ..

اصابعه تتحرك ببطء عفوي فوق اصابعها المثنية وهي يقول بجدية تامة " انها نسختك من مفتاح الشقة .. تستطيعين السكن فيها منذ الليلة مع حبيبة .. او .. تركها كما هي .. الامر عائد اليك في التصرف .."

ضيقت عينيها وهي تحاول ان تستكشف ما يرمي اليه من هذه الحركة ثم تعبر ببساطة

" انا لاافهمك .."

يترك يدها لترتفع يده حتى اذنها يمرر سبابته لتلك المنطقة التي اشتهى ان يلامسها قبل قليل وهو يهمس بتوقد حار واعتراف صادق " وانا لا افهم نفسي احيانا ... لكني لن أكف عن المحاولة .. "

للحظة شعر بانفاسها تتسارع قبل ان ترفع يدها وتبعد ملامسة سبابته لما خلف اذنها بحركة حادة فيفاجئ نفسه قبل ان يفاجئها وهو يتراجع خطوة للخلف ويضيف

" لدي اعتراف صريح .. كنت اخطط لأمر اخر تماما هذا اليوم .."

رفعت عينين ناريتين اليه لتقول بشراسة من بين اسنانها " ماذا ؟! اغوائي مثلا ؟"

رد وهو يتراجع خطوة اخرى وان بدت خطوة مترنحة رافضة للبعاد

" نعم ... كنت انوي اغواءك والضغط عليك بأي وسيلة عاطفية لتعودي لي .."

ما زالت شراسة اللبوة في عينيها لكن قالت بسخرية باردة " انت واثق من نفسك .."

هز كتفيه وجاذبيته تبرز و هو يقول بثقة واقعية " في هذه الناحية .. نعم .. وانت .. تعلمين اني محق .."

للحظة اتسعت عيناها وهو يغرق في دكنتهما مضيفا بصوت مبحوح " استطيع أن ألمسك الآن .. في هذه العزلة بين اربعة جدران ... وبسهولة تامة .. اجعلك تستسلمين .."

لم يكن يعرف بماذا تفكر وهي تنظر اليه هكذا تلتزم الصمت وتنظر اليه وكأنها تنتظر المزيد .. ولايعلم لم هي تريد المزيد حقا ؟! الى ماذا تسعى ؟ وماذا تنتوي حقا ؟!

سيظل يتساءل حتى تقرر هي كما سيظل يسير هذا الدرب فيقول بنفس النبرة المتأثرة بها وهو يطرق بنظراته أرضا

" لكني قررت ان لاافعل .. ليس الآن على الاقل .."

سألته بنبرة عجيبة " وما الذي غير رأيك ؟ "

كان يغيظه جدا هذا الغموض منها لكنه يثيره في نفس الوقت ..

يثير فيه مهند القديم فيشعر وكأنه يتنفس الحياة من جديد ويعيش شقاوته و روحه القديمة ..

يرفع عينيه لها يبتسم بتلك الشقاوة التي تلتمع في عينيه ويقول ببساطة واستسلام لذيذ " اكتشفي بنفسك ..."

هي ايضا كانت تعلم ما يثيره .. فتواصل ما تفعله وتخطو خطوات جديدة معه وكله يصب بنفس الهدف فتسأل بكلمات قد تبدو ساخرة لكنها في الواقع تستشكف مهند بطريقة جديدة يظهر بها امامها " ماذا الان ؟! في لحظة ايثار وتضحية فريدة منك قررت ان تطلقني وتمنحني هذه الشقة كتعويض عن خسائري معك ؟"

ابتسامته ارتعشت وهو يرد بتملك واضح

" انا لن اطلقك ابدا يا جوري .."

لم تطرف عيناها وهي تقارعه بالقول

" سأرفع قضية .."

بنفس الابتسامة يقول بهدوء وكأنه كان مستعدا لتلك اللحظة وفكر بها جيدا

" افعليها وجيّشي كل جيوشك وحاولي ايجاد قاض واحد يحكم لك بالطلاق .."

قبضتها تشد بنوع من التحفز على المفتاح في يدها بينما تراه يتحرك جانبا ليجلس على الاريكة ويضيف بكلام منطقي جدا

" ماذا ستقولين لأي قاض ؟ ما هي اسبابك ؟ الحقائق المثبته تقول .. انا لم اضربك يوما ولم اهنك بكلمة نابية .. لااشرب الخمر ولا اخونك مع نساء اخريات ولا ارتاد اماكن مشبوهة .. من العمل للبيت ومن البيت للعمل ... اصوم واصلي في اوقاتها .. اراعي ابنتنا كأفضل اب .."

ثم عاودته الشقاوة وعيناه تتحركان ببطء على جمال قدها ويقول بصراحة حارة

" واراعي ... حقوقك الزوجية في .. السرير"

شمخت بذقنها وكأنها لاتهابه لكنها لم تنطق بكلمة وتنتظر بذكاء ان يدلي بدلوه كاملا فيواصل مهند وهو يعدد (تلك الحقائق) التي تسجل ضد (قضيتها المفترضة)

" لاابخل عليك بأي مال حسب قدراتي المادية .. صحيح انا متوسط الحال لكننا نعيش بمستوى مرضٍ ... واخيرا .. هذا بيت زوجية منفصل في حال اعترضتِ على سكنك في بيت والدي .."

اقتربت من موضع جلوسه لتستند بكفها على ظهر الاريكة وتقول بتفكير هادئ

" انت خططت لكل شيء.."

التمعت عيناه بتحد صريح وهو يقول

" وساقاتل حتى النهاية جوري ... "

عيناه في عينيها وهو يضيف بايمان كامل بما يقول " و إن حصلت معجزة ووجدتِ قاضيا يحكم لك بالطلاق فاعلمي انه سيكون رغما عني وسأظل أعتبرك دوما زوجتي وعلى ذمتي وأريني كيف ستتعاملين مع هذا الوضع بشكل لا يثقل ضميرك بالذنب ..."

مالت جوري بجذعها حتى اقترب وجهها من وجهه ففاضت رائحتها على حواسه فتهمس تسأله و هي تدرك كيف تعذبه باقترابها هذا " ماذا تريد من كل هذا ؟"

همسة واحدة خرجت من بين شفتيه " انتِ ..."

تتأجج نيران في عينيها وهي تقول بنفس الهمس الساخر

" لاتتحمل الخسائر ولاتجيد التعامل معها .."

لايبالي وعيناه تنحدران لشفتيها قائلا

" اسخري كما تشائين ... لكني اريدك انت.. و.. نعم .. انا هكذا .. لا اتحمل الخسائر .. فاصبح مجنونا وانا ارفضها .. لن أغير ما انا عليه .. لن أنكر هويتي واتحول لمسخ بارد .. لكني .. سأغير الطريقة .."

بدت للحظة متفاجئة بما يقول وطفحت من عينيها التساؤلات لتطرح سؤالا واحدا

" وكيف ستغير الطريقة ؟"

فيرد وعيناه ما زالتا على تلكما الشفتين

" اطلبي اي شيء .. عدا الطلاق طبعا .. وسأفعل المستحيل لتحقيقه .. انا عاهدت نفسي على هذا .. "

تشدقت بالقول وقد بدت مستمتعة بحالته

" عاهدت نفسك على ماذا ؟"

عندها فقط رفع نظراته لعينيها ليقولها صراحة ويتحرر " ان اصحح الاخطاء بما اقدر عليه .. خطأ .. خطأ .... سأحاول .. ويكفيني انا على الاقل اني سأحاول ..حتى لو فشلت ..."

فتبتسم بغرابة وهي تسأله

" سعيا لتصل لغفراني ؟"

فيرد " نعم .. لغفرانك .. "

أمالت رأسها جانبا وهي تطوي ذراعيها لتستند بكوعيها على ظهر الاريكة فتقول بذكاء غامض محايل

" غفراني صعب .. وربما يكون مستحيلا .."

ما زال يتخبط في ظلمات الجهل معها لكنه يسير بخطوات وخطوات في نفس الدرب الذي اختاره بعد ايام طويلة من التفكير

" وانا مستعد للمجازفة .."

عيناها رهيبتان بتلك النظرات المبهمة المعنى القوية التأثير فتقول همسا ساحرا غامضا مجهولا بما يخفيه

" قد تلهث طوال الطريق ولا تصل اليه ... ابدا.. قد اجعلك تحلم به ليل نهار ثم فجأة

اقرر ان اوقظك لتدرك واقعا مريرا مفروضا عليك ولا قبل لك بتغييره مهما فعلت .. "

فيرد بانفاس متسارعة

" لقد تعلمت معنى الصبر بأصعب الطرق .. وفي كل الاحوال لن أخسر اكثر مما خسرت .."

صمتت ووجهها قريب من وجهه فيقول كلمة واحدة " اطلبي .."

كان ينتظر اي طلب منها ..اي فتات أمل ترميه اليه ليواصل الطريق ..

همست بنبرة رائقة

" اريد تغيير اسم ابنتنا ..."

قلبه ينبض بجنون فيهدر بالقول " اختاري ..."

اقتربت اكثر حتى اوشكت ان تلامس شفتيه بشفتيها ... جفناه ارتخيا .. سيجن وهو يمنع نفسه لتصدمه هي فتخطف قبلة من شفتيه تخطف روحه مع انفاسه ثم تهمس بحلاوة خدرته " قطر الندى ..."

كانت تضحك وهي تعتدل لتبتعد عنه عندما مد ذراعه بحركة عنيفة فيمسك ساعدها ويسحبها اليه وقبل ان يروي عطشه همست بنبرة تهديد " اياك ..."

ابتلع ريقه بصعوبة ويفلت ساعدها مرغما حتى تكاد اصابعه تحفر في لحمها وهي تسحب نفسها منها لتتحرر اخيرا وتتحرك بخطوات ثابته ناحية الباب وهي تقول بغموضها ذاك " الى اللقاء ... في طلب جديد"

مساء ... بيت يونس العطار ..

وسط الزغاريد يجلس على الاريكة يحدق في علبة القطيفة الحمراء المفتوحة امامه ..

اسورة من الذهب الصافي البراق تتدلى منها كرات صغيرة وحلقات دائرية ذهبية و ملونة.. احمر بنفسجي اخضر ازرق ... وخاتم ذهبي بحجر بنفسجي كبير وقد تدلت منه بضع حلقات وكرات من نفس النوع والشكل والألوان التي تزين الاسورة ..

قلادة بسلسال طويل ميداليتها وجه فتاة ضاحك تحيطها زهور بوريقات متفتحة اشبه بزهور الجاردينيا و تدلى منها نفس الحلقات الدائرية والكرات المبهجة ..

لقد اختار التصميم بعناية لأجلها ...

اختار لها البهجة كما يراها فيها ..

او ربما كان يعبر عن بهجة قلبه فيها ...

رفع رأسه ينظر بضبابية لاحبائه الضاحكين السعيدين لاجله .. امه ..اخوته.. اهله وجيرانه.. بعض الاقارب ايضا حضروا المناسبة.. فبيتسم عبد الرحمن بآلية ..

لقد قضى ليلته بالامس يحدق في هذا الطقم والافكار تتلاحق في رأسه وكل فكرة تضرب قلبه ..

في احدى شطحات افكاره تخيل ان رباب كانت تقف مع ذاك الشاب الذي رآها تضحك معه في عرس حفيدة الخالة بدرية فيجن جنونه وتشتعل النيران فيشعر ان حمى عاصفة تمزق جلده وكأنها تجلده بسياط من نار ..

يعود صوت العقل ليجعله يهدأ ويفكر ..

يجبر نفسه على ممارسة التروي الصعب ليجمع الخيوط مع بعضها بشكل مختلف..

(الخطأ ليس خطؤك) .. جملة قالتها في ليلة خطبته على رانية ...

(انا لاستطيع الزواج) ... جملة اخرى ..

رباب ترفضه رغم ميل قلبها له ...

ما الذي يمنعها ؟ هل هناك شاب كانت على علاقة به ويهددها بطريقة ما اذا تزوجت ..؟

اللعنة .. الامر لايركب على بعضه ..

وكأنه يجمع القطع الخطأ لتشكيل لوحة مشوهة غير منطقية ..

ثم لايعرف كيف تذكر يوم رآها عند اشارة المرور و لحق بها .. كان هذا في اليوم التالي بعد الفضيحة التي اثارها سعدون ..

لسبب يجهله ظل ينظر اليها عن بعد وهي جالسة في سيارتها تتكلم عبر الهاتف النقال بغضب واضح ... لقد ظل يراقبها لدقائق حتى قرر الاقتراب ودخول سيارتها بشكل مباغت ..

عندما سألها ... قالت انها رقية ..!

كانت مرتبكة وهي تقولها ولم يعرف بالضبط لماذا ارتبكت ...؟

هل كانت رقية حقا من تكلمها ام انها كانت تكلم شخصا اخر ..؟!

لكن ..

اضاءة مشعة في عقله ...

لم لا ؟! اجل .. لا بد انها رقية ..

وهذا يفسر ما جمع الاخوات في اليوم الذي تلاه في بيت اسيا ..

رقية التي سبق ولاحظ تصرفاته غير المقبولة في الجامعة واخبر عنها رباب بنفسه...

رباب لن تخبره شيئا عن رقية مهما حصل..

لذلك هي ارتبكت .. اجل هذا هو السبب..

لابد انها خشيت انه سمع جزءا من الحوار ..

ارتاح قليلا لهذا التفسير رغم انه توتر من جهة اخرى وبشكل مختلف ..

هل رقية متورطة مع شاب ؟

هل رقية من رآها سعدون في تلك الظلمة ؟

رقية اقرب لهذه الصورة بتصرفاتها المريبة ..

لم تعجبه ابدا ..

ورغم كل هذا لم يستطع عبد الرحمن ان يشعر بالارتياح الكامل ..

ببساطة كل هذا الذي توصل اليه عن رقية

لا يفسر لماذا رباب لاتريد الزواج ؟!

لكنه سيعرف .. يقسم باللّه سيعرف ..

الامر بات يحتاج بشدة ان يعرفه ..

" ما هذه الابتسامة المحنطة التي تضعها على

وجهك يا فتى ؟! "

كان هذا صوت حذيفة الساخر الذي مال

بجذعه نحوه هامسا قرب اذنه ..

رفع عبد الرحمن نظراته لاخيه فيرى خلف

ابتسامته المتفكهة المشاكسة تساؤل

واستغراب يطفحان من عينيه ..

لايعرف عبد الرحمن ما يقرؤه اخوه في وجهه

ليسأله ببعض الجدية " هل انت متوتر ؟"

فلا يجد عبد الرحمن ردا !

لايجد كلمات مناسبة تعبر عما يتخبط فيه..

يضغط حذيفة باصابعه على كتف اخيه

الاصغر ويقول له بمداعبة " سنتكلم فيما

بعد .. الآن كل ما يهمنا العروس .. لكن

لاتخشَ شيئا ما دامت خلود معها فوق فلن تسمح

لها بالقفز من الشباك هرباً منك.."

وكأن كلمة (هروب) استفزته وايقظت

حواسه كلها في رفض تام ليقول بعينين

متوهجتين

" لن أسمح لها بالهروب .. ابدا يا حذيفة.."

عقد حذيفة حاجبيه قليلا وهو ينظر لعيني

عبد الرحمن بتدقيق عندما علت الزغاريد من

الطابق العلوي فترك حذيفة عبوسه ليعتدل بوقفته قائلا بابتسامة متفكهة

" لقد قبضوا على العروس واحضروها لك مكبلة خاضعة.. "

كان عبد الرحمن كمن يتوقف قلبه ..

لايعرف لماذا سيطرت عليه فكرة واحدة وهو يقف على قدميه جوار اخيه ...

(ان كانت ترتدي الفستان الكرزي فهي تحبني .. تحبني انا ..)

و من بين وجوه النسوة والفتيات وصوت الزغاريد الذي يتعالى أطلت عليه بوجهها المحمر والفستان الكرزي ينعكس بمزيد من الحمرة على وجنتيها ...

تخدر عقله تماما واستولى قلبه على زمام أمره ولم يشعر الا وهو يتحرك ليقترب منها قبل وصولها اليه وهو يمد كفه بلهفة نحوها لتثير جنونه اكثر وهي تمد كفها اليه فيحتضنه ثم يفاجئها وهو يسحبها اليه في لحظة خاطفة ويلصقها بصدره بينما الضحكات تتعالى والنسوة يسحبون منه رباب يتمازحون عن العريس المتعجل ...

فنسي كل شيء بعدها.. كان يغرق ويغرق ..

وقد اوشك ان يفتعل فضيحة محرجة امام عائلته وعائلتها وكل الجيران فيقبلها ها هنا وهو يلبسها طقم الذهب ..

وقضى باقي الليلة يتشبث بيدها حيث
تتراقص الاسورة حول معصمها يمنعها الابتعاد
عنه لأي سبب ..

يبحث عن التقاط نظرة واحدة من عينيها
اللتين تتهربان منه في حياء وخجل عروس ..
فيزداد تشبثا وهو يميل نحو اذنها هامسا بصوت
يتقطع لهفة " سأموت لأحضنك .."

ومرت الليلة .. يتشبث بيدها ولم يحصل على
الحضن الذي يموت لهفة اليه ...

اليوم التالي (الجمعة) ..

حديقة بيت العطار .. عصرا ..

يجلسان جوار بعض على الارجوحة ..

تتكتف بحركة دفاعية وهي تحدق للامام
بعبوس طفيف وجدية واضحة كأنها شرطي
خافر متململ من اداء واجب مفروض عليه
بينما هو يرخي رأسه للخلف على ظهر
الارجوحة ويميل بوجهه جانبا لايحدق الا
فيها ..

وجهها شاحب بوضوح وهذا ... يتعبه ...

ليلة الامس كان يعد الكلمات في رأسه ..



كيف سيبدأ الحوار بعقلانية واسلوب خاص حتى يصل لاجوبة تقنعه و .. تريحه ..

عيناه استقرتا على يدها اليمنى وقد التمعت حلقة الخطبة الاشبه بضفيرة مجدولة من ثلاث ألوان.. ذهبي وفضي وبرونزي ..

قال بعذوبة " الحلقة التي اهدتها لك الخالة بدرية تليق ببنصرك ؟"

توترت دون ان تنظر اليه ثم تراخى عبوسها وهي تهمس باستسلام " أجل ...انها جميلة .."

اعتدل برأسه وهو يسألها بهدوء وجدية

" ما بك رباب ؟ تبدين شاحبة وكأنك لم تنمي الليل بطوله .. "

تراخت ذراعاها هذه المرة ليهبط كفاها في حجرها وتطأطئ رأسها قليلا وكأنها تبحث عن ألهام ما قبل ان تقول بنبرة مرهقة

" انا مشوشة .. وانت .. تربكني اكثر .."

سأل وهو يتطلع لقميصها بلون التفاح الاخضر

" لماذا ؟ "

التفتت اليه لتبرز قلادتها فوق القميص فترفع الميدالية وهي تسأله وكأنها تعاتبه " عبد الرحمن .. لماذا قدمت لي طقم الذهب هذا ؟"

قلبه يتوجس في صدره لكنه يبذل قصارى جهده حتى لايظهر ضعفاً بينما يرد بتسلية

" لماذا يا قرفة ؟ ألم يعجبك ؟ "

عيناها عسل مصفى وشمس العصر تنعكس فيهما بينما تهمس بصدق ووجع " انه رائع ... وكأنه أنا !.. وهذه هي المشكلة .."

يصمت وهو يحدق بشفتيها المرتعشتين تأثرا بينما تواصل رباب كلامها المتخبط

" لااعرف كيف اتصرف .. انا تعبت ومشوشة وخائفة و .. حانقة .."

سأل بمشاكسة حلوة رغم ان قلبه منقبض

" مني انا ؟! "

فترد بانفعال وهي لاتلتقط حالته تلك " اجل منك .. تعبت منك ومشوشة بسببك وخائفة من اندفاعك وحانقة من رفضك ان تصغي لي .."

يضيق عينيه وهو يرفع نظراته لعينيها ويسأل بنبرة غامضة " انت لاتريدين الزواج ؟"

هتفت بارتجاف " مؤكد لا .. لااريد .. لن اتزوج ابدا اذا كان هذا يريحك .. لكن ارجوك توقف عن جعل الامور حقيقية .. توقف عن الضغط علي بفرض الزواج بهذه الطريقة .. "

فاجأها بالسؤال وعيناه تحاصران ردود افعالها

" لماذا منعتني ان ابحث عن الحرامي تلك الليلة يا رباب ؟"

ارتبكت .. بل انسحب الدم من وجهها تماما وهي تتعثر بالقول " ما .. ماذا ؟!"

رغم هدوء تعابير وجهه الذي يحافظ عليه الا ان قلبه كان يهدر وصدره يعلو ويهبط رغماً عنه بينما يلقي بقنبلته بنبرة تبدو لامبالية

" هل تعرفين المجنون سعدون ما زال مصرا حتى الآن ان هناك شاب وفتاة كانا يقفان في ظلام الحديقة ليلة عرس حفيدة الخالة بدرية ؟! "

قلبه سينفجر وهو يرى وجهها يمتقع تماما بينما تهمس بكذب مفضوح " انه .. واهم .."

يسيطر على انفعالاته بشق الانفس فيسأل بسلاسة مصطنعة " اخبريني رباب .. هل رأيتِ انت في ليلتنا المشهورة تلك خيالا واحدا ام خيالين ؟ "

شفتاها ابيضتا تماما وهي ترد بعينين متسعتين

" لا اعلم .. لقد صرخت ثم .. هرب الخيال.."

عينا عبد الرحمن تفيضان بالغموض وهما تحدقان فيها فتسأله بانفاس متسارعة

" ما بك عبد الرحمن ؟ لماذا ... تنظر الي ...هكذا ؟"

ليصدمها بالسؤال المباشر " صارحيني رباب هل رقية تقابل شابا ما ؟"

لم تشعر الا واذناها تطنان بينما تكاد تترنح وهي تقول بتحشرج " ماذا ؟ ما هذا الهراء ؟"

اقترب بوجهه منها ويقول بصوت خافت

" سعدون مصر انه رآى شابا وفتاة .. لذلك عندما رآنا معا تصور اننا نعاود فعلها من جديد بعد منتصف الليل .. "

انخرس لسانها للحظة بينما يضيف عبد الرحمن المزيد وعيناه تشتعلان هذه المرة

" في الواقع هو يصر انها انت .. لكني اعتقد انها رقية .. هي رقية ... صحيح ؟ انها هي من تقابل احدهم بعد منتصف الليل .."

لاشعوريا رفعت رباب يدها لفمها في حركة يأس بينما تتمتم بتخبط " عبد الرحمن .. الامر ليس .. هكذا .."

للحظة شعر عبد الرحمن ان تفسيره صحيح وان رباب تؤكده له .. فانتابه غضب متراكم وهو يقف على قدميه ويقول بعنف سافر

" تلك الغبية التافهة ... سأخبر اسيا ورضا بنفسي عن فساد اخلاقها .. بل سأخبر خالتي ابتهال لانك كما أرى تغطين عليها جيدا وبكل غباء تضرينها ولاتنفعينها .. انها تحتاج لاعادة تربية تلك الرعناء .. تسببت بفضيحة لك وهي من تستحق ان تفضح .."

تحرك خطوة عندما لحقت به رباب لتتشبث بذراعه وتقول بتهور " لا ... عبد الرحمن .. لاتخبر امي .. انها ... انها ... انها ليست رقية .. ليست رقية .. انها .. انا .."



تجمد جسد عبد الرحمن بالكامل وفقد نبضة نبضتين من قلبه بينما يتطلع لوجه رباب ويهمس بصوت مخنوق " ماذا .. قلتِ ؟ "

تهز رأسها بانفعال وهي تؤكد كلامها بنوع من الهستيرية " قلت.. انها انا .. كان الشاب .. قادما ليراني انا ولكني .. طردته .."

هذه المرة كانت اصابعه من تلتف حول ساعدها تنغرز في لحمها حتى تكاد تصل عظامها وتكسرها .. تأوهت وهو يهدر بالسؤال الخافت الحاد " من هو ؟ من هو ؟"

دموعها هطلت رغما عنها وهي تهمس بجزع وحنق في الآن ذاته " اترك ذراعي يا عبد الرحمن فربما هناك الف عين تراقبنا .."

لكنه يهزها ويؤذيها دون ان يشعر وهو يقول بوشحية من بين اسنانه " من هو ؟!"

لم تعد تبالي بشيء .. قلبها مات في صدرها ..

لقد قتلت قلبها بيدها .. فتواصل كذباتها

" كان .. كان معي بالجامعة .. و .. و يلاحقني... يريد .. الزواج مني وانا .. وافقت بالبداية ثم .. تراجعت .. وهو ..."

صرخ فيها ولم يعد يحتمل أكثر

" اخرسي.... اخرسي .."

تنكس رأسها تخفي الآمها واحساس مريع انها اقدمت على خطأ شنيع معه فتقول بانهزام

" حسن سأخرس يا عبد الرحمن .. الان افعل ما يستوجب لانهاء هذه الخطبة المهزلة ..آآآآآه "

هذه المرة وجع ذراعها لايحتمل وهو يوجعها باصابعه ويهمس بوعيد " احلمي بهذا .. "

رفعت عينين هلعتين اليه وصدرها يعلو ويهبط بينما يواصل همسه الغاضب بمزيد من الوعيد

" اقسم باللّه ستمضين معي في هذا الزواج لآخره .. ان كنت تظنين انك ستتزوجين غيري فهذا لن يكون واللّه .."

ثم دفع ذراعها ليقول بقسوة كسياط من نار

" وجربي وارفضي ايا من قراراتي وعندها سأخبر خالتي ابتهال عن ...كل شيء .."

تركها ومضى ناحية باب المرآب وهي تحدق في أثره بجمود كامل ...

لماذا فعلت هذا ؟ هل حقا كانت تحمي رقية ام انها تشبثت بمنفذ لتهرب منه ..؟

ماذا الآن ؟! ماذا يجب ان تفعل الآن ؟!

اخر الليل .. حي الشيخ ..

يترنح وهو يخرج من باب بيت حمدية ..

رائحة الكحول تفوح منه و تسبقه بخطوات للامام بينما تقوده قدماه المترنحتان حتى بيتها ..

تأوه تحسين شاتماً وهو يناضل ليصعد الدرجتين حتى بابها ..

يضرب على الباب بقبضة غير مستقرة ويناديها

" حُسنااا... يا حُسنا .. "

اسم (حُسنا) كان يناديها به في صغرهما..

دوما احبها .. وعندما كبرت ودقّت الوشم على ذقنها وكأنها دقّت وشم عشقها على قلبه ..

كان قد بلغ السادسة عشرة .. لايعرف اي ثورات يجابه في داخله وخارجه ..

ولم يكن الا والدها من استطاع تهدئة بعض تلك الثورات رغم انه لم ينجح بفعل هذا الا لفترة محدودة ...

لم يستطع والدها السيطرة عليه اكثر و هو يدخل الشوارع النابضة بالعنف فيعاركها بعنف أشد حتى أثبت وجوده ..

لم يعد يستطيع متابعة الوقوف على قدميه فينهار جالساً على الارض القاسية كقسوة الحياة التي عاشها وظهره مستند لبابها الخشبي شبه المتهالك ...

اذناه تسمعان صوت انفاسها عبر الباب فيلتفت بجذعه ويرفع قبضته لتعاود الضرب على الباب الخشبي وهو يقول بلسان ثقيل من شدة السُكر

" يا حُسنا ... اجيبيني فقط.. اعلم انك خائفة مرتعبة خلف هذا الباب ..اللعين .."

هنا في صدره شيء يمزقه ويحتاج سماع صوتها فقط .. يحتاجه جدا ولايعرف كيف ولماذا ..

يسند رأسه للباب فيهمس بضراوة احتياجه

" حُسنا .. ردي علي فقط .. لاتفتحيه .."

على الجهة الاخرى من الباب تجلس أرضا هي الاخرى وبيدها ورقة باتت شبه مهترئة .. ترافقها دوماً وتتعلق بها كقشة نجاة ... بل كحجاب حماية وأمن وامل ..

انه عنوان سيدها رضا ...

متى ستحين الفرصة ؟

بل ... هل ستحين يوما قبل حصول المحظور؟!

عيناها تسكبان الدمع وهي تسمع صوت تحسين المخمور فترد عليه وهي تنود برأسها كمن يشتكي همه وتقول بحشرجة بالبكاء

" ماذا تريد ؟ حرام عليك تفضحني هكذا كل يوم.."

صوته بنبراته المترنحة بفعل الخمر والمعاصي يتوسلها بالقول " لو ... لم أكن قذرا .. يا حُسنا .. هل ...كنتِ ....سترضين ؟"

تجري الدموع أكثر دون ان ترد ليواصل هو هذره بلسان يثقل اكثر واكثر

" لكن ...ماذا افعل .. انا ولدت هكذا .. غارق فيما انا ...فيه .. ولن... أتغير .. لكني .. اريدك ...انت .."



تخنقها عبرات البكاء وتتوسله هي الاخرى

" اذهب تحسين .. اتوسل اليك .."

اخذ يردد بصوت متلاش يفيض أملا وحاجة

" الجمعة المقبلة سنتزوج ... ها ؟ سنتزوج ..."

ترفع يدها لفمها وتشهق بالبكاء المر وهو

يواصل كلامه وكأنه يسرد هلوسات تسيطر

على عقله المشوش " سأغتسل .. واحلق شعري..

ولن أقرب الكحول حتى .. لاتنفري مني .."

ثم يضحك ضحكة بشعة بمعاني الكلمات

التي تلتها " لكن لاتعتادي على هذا .. انه

فقط لأجل .. ليلتنا الاولى .. "

لم تعد تخفي صوت البكاء وهي ترفع كفيها

فوق رأسها المحني تضرب عليه بجزع ...

اما تحسين فقد ثقل جفناه فيرتخيان ويخفيان

احمرار عينيه وهما ينغلقان فيميل برأسه

للارض يضطجع على جانبه وهو يتمتم

" نامي حُسنا .. نامي .. انا .. سأظل هنا..

احرسك حتى ..شـــ...شروق ...الشمـ..س ..."

فيغلبه النوم ويعلو شخيره ومن على الطرف

الآخر من الباب فارق عينيها كل النوم ..

الفصل الثامن عشر

اليوم التالي صباحا .. بيت العطار

تنزل درجات السلم ببطء .. تكاد تشعر بمطارق الدنيا كلها تنهال على رأسها ..

قضت الليل تبكي تحت وسادتها ..

تضم القلادة لصدرها بتشبث وهي تبكي بحرقة قلب عاشق و تعض اصابع الندم على ما فعلته معه ..

عند نهاية السلم اخذت نفساً عميقا وهي تدعو الله ان يكون الماء البارد كافيا لاخفاء اثار البكاء حول عينيها المنتفختين..

كانت ستخطو نحو المطبخ عندما سمعت صوته .. انتفضت بعنف وقلبها ينتعش تلقائيا مزغردا بالسعادة لوجوده ..

كان .. يضحك ...

يضحك مع امها حول مزحة ما ..

لكن .. فقط هي .. من تشعر ان ضحكته ليست من القلب .. فقط هي تسمع في نبرات صوته ذاك الوجع الذي يخفيه ..

ابتلعت ريقها بصعوبة بينما تسمع صوت امها من المطبخ يناديها

" رباب .. هل نزلتِ اخيرا ؟! ارتدي حجابك .. عبد الرحمن هنا.."

خلال خمس دقائق كانت تدخل المطبخ

بملابس رياضية وحجاب ملائم بينما تطرق

بنظراتها وهي تقول ببحة " صباح الخير

..امي.. احتاج لمسكن قوي رأسي يؤلمني ..."

كانت تشعر بخياله المتربص بها ..

يقف هناك جوار امها مستندا بكفيه للخلف

على حافة الخزانة ..

بدت طفولية جدا بوقفتها السخيفة وتجاهلها

الاسخف ألقاء التحية له ..

أمها لحسن الحظ فسرت الامر كخجل عروس

بينما هي تشعر بعدم القدرة على التفاعل معه

بأي ردة فعل طبيعية ...

قالت أمها وهي تقترب منها موبخة اياها

" ألن تلقي الصباح على خطيبك يا فتاة ؟"

سبقها عبد الرحمن وهو يقول بحلاوة زائفة

" صباح الخير .. سلامة .. رأسك.. من الوجع !"

لم تحتمل القسوة المبطنة التي حملتها

كلمة (الوجع) وهي تنطلق من فمه ..

رفعت عينيها اليه فرأته من خلف ظهر امها وهو

يناظرها بقسوة وغضب حاقد مستعر ..

لم تحتج ان تمعن النظر فيه لتدرك انه لم

ينم ليلته .. مثلها ...

ثم انجذب نظرها لرباط طبيّ حول يده اليمنى

فسألته تلقائيا بلهفة خائنة

" ماذا حصل ليدك .."

امها كانت تراقبها فانشرح صدرها لتلك
اللهفة التي ابدتها رباب ناحية خطيبها
واطمأنت ان الامور تجري كما تتمناه ..

غافلة عن كل ما يجري حقيقة بين الاثنين..

كان رد عبد الرحمن لطيفا بينما عيناه
تسخران منها

" لاتقلقي .. جرح بسيط .. كسرت قدحا
زجاجيا فجرحني وأنا أحاول لملمة اجزائه
المحطمة .."

قالت ابتهال والبهجة تعم اساريرها

" اتفقت مع عبد الرحمن ان عقد القران بعد
غد الاثنين .. لن نقيم احتفالا .. والعرس
سيكون في حزيران ان شاء الله بعد امتحانات
رقية ..."

تشحب رباب تماما وهي تنقل نظراتها بين بهجة
امها وبين قسوة تعابير عبد الرحمن فتتمتم
رباب بجزع وهي تشعر بالاختناق من هذا
الحصار

" الاثنين ؟! .. لكن ... انا ..."

تدخل عبد الرحمن وعيناه تبرقان بما تعرفه
هي فقط فيسأل بنبرة مبطنة بالتهديد

" هل لديك اعتراض ؟"

تبتلع رباب ريقها وتكاد تقهرها الدموع فتقول
بصوت متحشرج وهي تتقدم نحوه متجاوزة امها

" عبد الرحمن .. دعنا نتحدث .."

فيبتسم عبد الرحمن وهو ينظر لحماته ويقول
بنفس البشاشة المصطنعة

" عذرا منكما .. يجب ان اذهب حالا في موعد
مهم .. سلام خالتي .."

فترد ابتهال بفرح " في أمان الله يا روح
خالتك..."

ثم يتحرك ناحية باب المطبخ الذي يؤدي
للمرآب وهو يقول لرباب بنفس التصنع من
البشاشة " لاتنسي .. بعد غد صباحا .."

بعجر كامل راقبته يغادر عبر الباب وهو يغمز
لها بعينه فتتراخى ذراعيها الى جانبها وقد
فقدت كل قدرة على التفكير والتصرف..

اقتربت منها امها تحتضنها من خلف وتقول لها
مشجعة " ذكرتني بنفسي يوم عقد القران
نفس الشحوب والصدمة ... "

ثم قبلت رأس ابنتها وابتعدت عنها وهي تثرثر
كأي أم مبتهجة بزواج ابنتها الوشيك ..

لا احد يشعر بما يحصل حقيقة بينها وبين
عبد الرحمن ..

الكل يفسر الامور على ظواهرها .. الكل
يتعامل معها وكأنها مصدومة بحقيقة
الارتباط الذي فرض عليها ..

فيعاملونها بحذر ويتجنبون التركيز على اي
بوادر اعتراض منها ..

ترى في اعينهم ذاك التعاطف مع عبد الرحمن والدعوات الصامتة له ان ينجح بجعلها ترضى حقيقة .. فهل هي راضية الآن بما وصل اليه الحال بينها وبينه ؟!

تحركت رباب لتغادر المطبخ لاهية عن امها التي كانت تتصل باسيا لتزف اليها الاخبار..

تعاود صعود درجات السلم فتمر برقية التي كانت تهبط الدرجات في تلك اللحظة فتلقي تحية الصباح و لا ترد عليها رباب بشيء ..

فتمسكها رقية من ذراعها وتهزها لتسأل بصوت خافت مغتاظ

" ألن تردي حتى تحية الصباح ؟"

دون ان تنظر اليها قالت رباب بنفس الخفوت

" اتركيني لحالي رقية .. يكفي كل ما يحصل لي الآن هو بسببك انتِ .."

عندها أدارتها رقية بحركة حادة لتواجهها فتقول لها بعينين براقتين بالتحدي والمواجهة " لاتدعي انك تخاصمينني لاجل فرض الخطبة عليك .. انت في داخلك سعيدة الى حد الاغماء ! لاتصدقين انك ألقيتِ من على كاهلك عبء قول (نعم) بارادتك لمن يهواه قلبك .. انت تريدينه بجنون كما يريدك هو .. لقد رأيتك ليلة الخطبة وعبد الرحمن يكاد يخطفك من بين ايدينا .. كنت ذائبة فيه وتحلقين معه بسعادة طافحة انستك كل عقدك السخيفة وقرارات مراهقتك القديمة .."

التمعت عينا رباب بدموع لم تهطل وهي تقول بحشرجة مخنوقة " انت لاتفهمين .. انا اخسره حتى وانا ارتبط به.."

رمشت رقية وهي تتساءل بحيرة وجدية

"ماذا تقصدين؟ "

ردت رباب بنبرة غير مفهومة وهي تحرر ذراعها من اختها لتواصل الصعود

" عقد القران يوم الاثنين .. لقد تقرر و حسم كل شيء .. كل شيء .."

عقدت رقية حاجبيها وهو تنظر لخطوات اختها .. تستشعر وجود الخطأ ولا تعرف اين !

الاحد .. اخر الليل

الملحق .. بيت الصائغ

انكمشت خلود على نفسها توترا وهلعا وهي تنظر لعيني زوجها اللتين جحظتا بشكل مخيف من شدة الغضب بينما يتمتم من بين شفتين قاسيتين " ماذا فعلتِ يا خلود ؟!!! هل خطبتِ لي امرأة دون ان أعرف شيئا ؟! "

تتراجع خلود للخلف وهي تلتصق باحد جدران الغرفة التي تجمعها بزوجها ترفع يدها لفمها وهي تعض بطارف ابهامها وترد التهمة عنها بدفاع مهلهل واعترافات تثير مزيدا من نيران غضبه

" لا .. لا .. انا لم اخطبها .. رسميا .. فقط .. اخذت رأيها .. سألتها .. (ماذا ان تقدم لها رجل متزوج وزوجته لاتنجب ؟) .. و ...و ...و ..ثم .. لمحت ان... زوجته امرأة طيبة ... تعمل .. معها .. بنفس المدرسة .."

صرخ فيها بغضب متفجر " ايتها الغبية المتهورة ... هذه المرة تماديتِ كثيرا يا خلود.. لقد تجاوزتِ كل الحدود .."

همست اسمه تتوسله " حذيفة .."

فيقترب منها وهو يحرك سبابته امام وجهها وقذائف من اللهب تخرج من عينيه ومن فمه على حد السواء

" لن اتسامح مع قلة عقلك وعنادك .. قلت لك ألف مرة اني لااريد الزواج .. لكنك لاتفهمين .."

امسكت يده الضخمة تضمها بين كفيها ودموعها تنزل وهي تحاول استرضاءه " اهدأ حذيفة .. اتوسل اليك .. لاتغضب هكذا .. "

نفض كفيها بعنف وهو يهدر فيها منتفضا بغضب يعم كل خلاياه " ابتعدي عني .. قد افقد اعصابي الآن وافعل امرا جنونيا يؤذيكِ... ابتعدي .. اغربي عن وجهي .."

تحرك ناحية باب الغرفة وقبل ان يفتحها حذرها بغضبه الساطع

" اياك ثم اياك ان تخبري احدا من العائلة عن افعالك الرعناء هذه .. اقسم يا خلود ان سمعت هذا الكلام على لسان احد منهم سيكون تصرفي مرعبا بالنسبة لك .. فلا تفسدي فرحتهم بزواج عبد الرحمن وخاصة امي .."

التفت للباب ويده تمسك المقبض ليفتحه عندما قالت بعفويتها المتهورة

" لكن امك .. تعرف .. اقصد تعرف اني .."

تجمدت يده على مقبض الباب ولم يلتفت نحوها وهو يسأل بصوت مخيف بهدوئه

" هل امي من ادخلت الفكرة في رأسك ؟"

لم ترد وهي تلتصق بالجدار اكثر فيستدير اليها ويقترب منها يسألها مرة اخرى

" هل امي من طلبت منك ايجاد عروس لي ؟"

الرد كان واضحا على وجه بشفافية وجهها .. وجه تعابيره حملت هذا الصدق في المشاعر التي احتوته واحتوت جروحه لتجد الشفاء فيها..

صدره يعلو ويهبط بغضب أشد جنونا فتنحني خلود لتمسك يده وهي تتوسله " اقبل يدك يا حذيفة .. لاتفتعل مشكلة معها .. انا السبب ولا اجيد .. التصرف بحكمة .. لاتخبرها اني اخبرتك ولا تعاتبها .."

لم تشعر الا بيده تمسك شعرها المشعث من الخلف فيرفع وجهها اليه ينظر فيه بغضب مستعر يفيض بالغيظ القاتل فيهدر " انت ... انت ... يا الهي ماذا افعل بك ؟!"

الدموع في عينيها لم تهدئه بل اضافت المزيد من الحطب والزيت لغضبه فدفعها بعنف وهو يصرخ " اغربي عن وجهي .. ولاتكلميني ابدا.. لم أعد اطيق الكلام معك .. لا اريد ان اسمع صوتك عندما نكون بمفردنا ..."

شهقت بلوعة بكاء حزين مزقه فلم يشعر الا وهو يلتفت ليمسك اقرب شيء تصل اليه يداه فلم تكن الا منضدة خشبية مربعة صغيرة في جانب الغرفة فرفعها وضربها بقوة رهيبة على الارض حتى انكسرت ..

انفتح الباب وأطلت سوسو بملامحها النائمة التي غزاها الهلع وهي تفرك عينيها وتسأل

" خود ... بابا .. ماذا هناك ..؟ "

كان ما يزال ينتفض لكنه تمالك نفسه امام ابنته ليتقدم منها ويحملها بين ذراعيه كطفلة صغيرة رغم حجمها الذي يقارب حجم الفتيات المراهقات وهو يقول لها بابتسامة تخفي غضبه

" تعالي صغيرتي معي .. "

تعلقت بكتفه وهي تنظر لخلود التي اخذت تلملم المنضدة الخشبية المكسورة ببؤس مؤلم فتسأله سوسو " هل انت غاضب من خود ؟ لماذا كسرت المنضدة هكذا ؟ "

رد وهو يتوجه للدرج الى حيث يقود مباشرة لسطح الملحق " سأصلحها غدا .. "

أصرت على السؤال " هل انت غاضب منها ؟"

فيرد متنهدا " انا غاضب لاجلها .. "

كان يفتح باب السطح فتسأله بفرح طفولي

" هل سننام في السطح ؟"

يقبل عنقها كما يحب ان يفعل ويرد ببشاشة لاتطال قلبه " اجل .. وسأضفر لك شعرك كما كنت افعل وانت صغيرة .."

تفرح للحظة ثم تبتأس ملامحها الحلوة وهي تسأله " بابا وماذا عن خود ؟"

ينزلها أرضا ليبدأ بترتيب سريرين حديدين مما يستخدمونها على السطح للنوم في الليالي ذات البرد الربيعي بينما يرد عليها وعيناه تلمعان بعزم على حل هذه المشكلة

" الليلة هي اختارت النوم بمفردها .. "

الاثنين... ظهرا ... نهاية اليوم الدراسي

في الساحة الخلفية للمدرسة كانت شذرة تجلس جوار خلود على مصطبة منعزلة بينما الاخيرة منهارة بالبكاء على كتف شذرة وقد فضفضت لها عما حصل مع حذيفة ليلة الامس وهي في قمة التشتت والضياع ..



تطبطب شذرة على ظهرها وهي لا تصدق فعلة صديقتها تلك فلا تملك الا ان تلومها بالقول

" الخطأ منك .. وله حق بما فعله .. "

فتعاود خلود البكاء بحرقة وهي تشهق وتقول

" لقد غضب مني جدا .. صرخ بهياج لم أره فيه سابقا ثم تركني .. تركني وذهب لينام .. مع سوسو على ... السطح !"

قلب شذرة يتقطع اشفاقا فتقبل اعلى رأس خلود وتهمس لها متنهدة باحباط

" كيف تفعلين هذا يا خلود ؟! "

عندها رفعت خلود وجهها الباكي وأنفها المحمر المنتفخ فتقول بلوعة واصرار

" ولماذا لاافعله ؟ يجب ان يكون له ولد ذكر.. حذيفة يحتاج لمن يحمل اسمه.. حاله كحال اخويه .. ابي جعفر ومحسن .."

اخرجت شذرة منديلا من جيب تنورتها واخذت تمسح وجه خلود وهي تحاول استيعاب تصرفها من جديد " حتى لو كنت محقة بكلامك .. كيف تفاتحين هدى بأمر كهذا ؟ ودون علمه ومعرفته ؟! انا لا اصدق .."

فترد خلود بإيمان كامل وعيناها تفيضان بعاطفتها التي لاتوصف نحو زوجها

" لاجل حذيفة انا افعل كل شيء .."

تمتمت شذرة وهي مذهولة من تلك العاطفة التي لم تر لها مثيلا من قبل

" أ تحبينه لهذه الدرجة ؟! "

ردت خلود وهي تأخذ المنديل من يد شذرة وتمسح أنفها هامسة بصدق طفولي

" و اكثر ..."

رمشت شذرة تستوعب هذه العاطفة النادرة ..

هذا الترابط الذي لايندرج حتى تحت مسمى العشق .. انه شيء نادر وثمين .. ثمين جدا..

تكاد تشعر بحذيفة وسبب غضبه منها ..

رغم انها لا تعرف تفاصيل علاقتهما الا انها يكفيها ان تعرف خلود واي امرأة هي بل واي انسانة هي لتدرك نوع التعلق الذي يشعره زوجها نحوها فيغضب بجنون هكذا لانها تريد زعزعة ما يجمعهما معاً ..

بعد ايام من عودتها للانعزال مع نفسها والتقوقع الموحش والكل لاه عنها بخطبة رباب وما يحدث بالخفاء مع رقية .. ها هي شذرة تشعر بشيء مختلف وهي تنظر لخلود ...

خلود اشعرتها بركاكة ما جمعها بمهند.. بركاكة احساس الانتماء الوهمي الذي عاشته .. لم تعرف ولا تريد ان تعرف حقيقة ما جعل مهند يختارها هي ...

ليس لانها ترفض الاعتراف بما هو واضح وضوح الشمس .. ولكن لانه لم يعد يهم بل المهم الاعتراف انها هي نفسها لم تحبه لذاته.. بل احبت ان تحقق غايتها فيه دون ان تراه هو حقيقة ..

لقد كانا كغريبين تقاطعت طرقهما لفترة وجيزة ففضفضا لبعض واحدثا تغييرا من نوع ما .. كل في صاحبه .. ثم .. حان وقت الرحيل والمضي قدماً في طرق متفرقة ..

اعادتها خلود للواقع وهي تهمس بجزع

" اردت ان اسعده .. لانه رجل يستحق كل السعادة في الدنيا .. انت لاتعرفين ما فعله لاجلي ولاجل اخي خليل .. انت لاتعرفين من هو حذيفة حقاً .. اريد ان ارى اولاده ..حوله .. يحملون دمه وصفاته ورجولته .."

لاتعرف لم دمعت عينا شذرة بهذا التأثر البليغ فتقول لها مواسية " على الاقل كان يجب ان تخبرينه اولا .. لا ان تفاجئينه هكذا .."

ردت خلود وهي تضرب بيدها على حجرها بما يشبه الغيظ " كان سيمنعني ويؤثر علي .. انا اعرفه .. هو يعرف كيف يسيطر علي ..كان يجب ان اقدم على الخطوة قبل ان اخبره .."

تنهدت شذرة وهي تستعيد تركيزها لتقول بمحبة " خلود انت صديقتي الوحيدة ويجب ان اصدقك القول .. اي مبرر ليس مقنعاً .. انت اخطأت .. يجب ان تعترفي بهذا .."

ارتجفت شفتا خلود وعادت الدموع لتتجمع في عينيها وهي تقول ببؤس وقهر شديد

" لقد كسر المنضدة من شدة غضبه مني .."

اخرجت شذرة منديلا اخر واعطته لها لتمسح دموعها التي تنسكب من جديد وتقول ببعض الحرج والارتباك من تدخلها في العلاقة بين خلود وحذيفة " اتركيه ليهدأ يوما اخر وحاولي .. مصالحته .."

ثم تضيف بما يجود به عقلها

" اخبريه انك نسيتِ الموضوع كله .."

كانت خلود تمسح وجهها وتتمتم " لكن .."

فتقاطعها شذرة ببعض الحزم وبردة فعل عفوية منها " خلود .. لاتضيعي حذيفة بافعالك هذه .. لاتدفعيه بعيدا وتهدمي بيتا رائعا كبيتك .."

توردت قليلا وهي لاتصدق انها تقول كلاما كهذا ...

لكن في داخله الكثير من العواطف هذه الايام الصعبة عليها وقد وجدت في خلود متنفسا وباباً يفتح لتستنشق هواء الحياة من جديد .. قالت شذرة وهي تطرق بنظراتها أرضا من بعض الحياء والخجل

" قد لا أكون متزوجة .. او ناضجة كفاية لأقدر ما تشعرين به .. لكن الذي اعرفه .. ان لديك بيتا من المحبة والدفء فلا تفرطي بهذا وتدخلي اليه الغرباء ..."

قالت شذرة جملتها الاخيرة بوجع داخلي جعل نبرة صوتها حزينة تقطر شجنا وهي تتجمل بابتسامة لامست شفتيها فتذوقتها بطعم كالعلقم ..

لقد بدت شذرة كأنها لوحة انسانية بكل معانيها واختلاجاتها و احتياجاتها ..

لترفع نظراتها نحو وجه خلود المبهوت التي بدت وكأنها تحاول استيعاب معنى الكلام فتضيف شذرة وعيناها تشردان بعيدا الى حيث بلدتها التي باتت بعيدة .. بعيدة جدا ..

" الغرباء .. لا مكان أقامة لهم في بيوت يشغلها الاخرون يا خلود .. في بيوت مكتملة العدد مكتفية باصحابها واي فرد جديد سيكون دوماً مجرد ضيف ..! ان طالت مدة ضيافته فأن الحُجرات تتذمر منه .. والسرير واغطيته بنعومتها تشكشك جسده لانها تأبى ان تألفه.."

لتعود شذرة وتطرق تخفي شعور الانكسار المر داخلها بينما تقول اخيرا لصديقتها

" دعي هدى لنصيبها يا خلود مع رجل يمنحها بيتا ومحبة تخصها وحدها .. رجل يعوضها ما خسرته .. لاتظلميها باقحامها بينك وبين زوجك .."

(مرحباً .. صباحاً شغلت امي المذياع القديم الذي تحبه وتعتز به و أنطلق صوت فاضل عوّاد وهو يغني (يل جمالك سومري .. نظرات عينك بابلية) هل تصدقين اني شعرت بالغيرة لانه بدا وكأنه يغنيها لك ؟! حسن يا سومرية .. هوية قطر الندى الجديدة ستجدينها في الشقة .. وانا بالانتظار .. اطلبي .. المزيد)

الرسالة النصية وصلتها للتو وهي تتوجه لسيارتها فتقرأها مرارا وتكرارا ثم تتلفت حولها تبحث عن لمحة وجود له ..

لكن لا شيء .. فقط سيارات مجهولة تتحرك ذهابا وايابا امام المطبعة ... كل في طريقه..

هي ايضا تسير طريقها ومهند يصر ان يتتبع خطواتها سائرا خلفها في ذاك الطريق دون اي وعود منها انها ستلتفت اليه يوما او تضع كفها بكفه ليسيران معاً ...

منذ يوم السبت وهي تراه في ذهابها وايابها من والى مطبعة العباس .. لكنه لايقترب فقط ينظر اليها من بعيد بل ويحرص ان تراه موجودا وتنظر في عينيه ليبقى الصمت هو الرابط البليغ اللسان بينهما...

تحركت جوري لتصعد لسيارتها وهي تبتسم ابتسامة غريبة وعيناها تغيمان كسماء شاسعة تلبدت فجأة بغيوم تضيق عليها الصفاء...

قد يكون لم يتعرض لها مرة اخرى في مطبعة العباس لكنه جعل الامر واضحا للجميع حول مكانه المثبت في حياتها ...

وابو فاضل انسحب تماما من التعامل المباشر معها وهذا الى حد ما ... اراحها نسبياً ..

لديها ما تركز فيه الآن ..

لديها الكثير لتركز فيه وتعيد تنظيمه للحاضر الذي تتعامل معه ومنه تخطط للمستقبل كما تريده ان يكون ...

شغلت السيارة وانطلقت ...

وجهتها ... الشقة ..

بعد ساعة كان مهند يدخن السيجارة في سيارته يراقب خروجها من المبنى الذي تحتل الشقة فيه احد طوابقه .. ثم انطلاقها مغادرة بسيارتها دون ان تبحث عن وجوده حولها ..

لم تطل البقاء في الشقة .. ولم ترسل له اي رسالة لتعلمه بتسلمها لاوراق ابنتهما الثبوتية بالاسم الجديد (قطر الندى) ..

لكنه بحدس غريب يشعر انها تركت له شيئا هناك ..

اطفأ سيجارته في منفضة السيارة قبل ان يترجل منها متوجها للمبنى وكله في حالة تحفز لطلبها القادم ...



(اريدك ان تشتري لي زجاجة من عطري المفضل وتختار لي فستانا يعجبني وبلون يروق لمزاجي ويكون مفصلا تفصيلا عليّ .. اريد نسخة من كتاب لمؤلف اتابعه بشغف .. واريد.. مثلجات.. بالنكهة التي احبها ...)

أعاد قراءة الورقة مرارا وتكرارا .. الابتسامة تراقصت على شفتيه ثم تلاشت الابتسامة ليغمره شعور كالطوفان .. انه... يحبها !

قرابة الغروب ...في دار العطار للازياء ..

المكان خال الا منها .. الجميع رحلوا وهي .. هي الجبانة المختبئة هنا ..

عيناها على دمية المانيكان التي تلبسها ثوب الزفاف غير المكتمل ..

ثوب تخفيه عن اهتمام الاعين جهد الامكان فتدفع الدمية للخلف تتدارى خلف باقي الدمى البلاستيكية ..

اقتربت من الدمية ومدت يداها لتسحبها للامام ثم أخذت تفرد اطراف الثوب واوشحته وتغمض عينيها تتخيل الصورة في الاعلان ...

حبيبة اللئيمة اكتشفت سرها ورسمت الثوب بل .. وتمادت لترسم عيني عبد الرحمن في ظلال ذاك الثوب المتطاير ...

كان هذا هديتها التي اعدتها حبيبة لتواجهها به حال عودتها من المحكمة ظهرا..

ارتعش كلها مع كلمة (المحكمة)

لقد باتت شرعا وقانونا زوجة عبد الرحمن عقيل الصائغ ...!

مذهولة منذ الصباح لهذا الحدث العجيب الذي استسلمت له ولم تعد تقوى على ابداء اي مقاومة .. بل لم تعد ترغب ان تفعل شيء الا الاستسلام لقدرها ..

خمول في مشاعرها وردود افعالها والكل يفسر حالتها بفكاهة انها حال كل عروس !

تتخاطفها ايدي امها واختها اسيا وهما تتنقلان معها داخل أروقة المحكمة .. اما عبد الرحمن فلم يوجه لها الا بضع كلمات وبدا مشغولا مع رضا في اجراء المعاملات الخاصة بعقد القران ..

وقد ازدحمت الاروقة بالناس والحركة كانت صعبة وهم ينتقلون من غرفة لغرفة لاستكمال المعاملة قبل الوقوف امام القاضي لاجراء مراسيم الزواج ..

خنقتها العبرة وهي تتذكر نظراته نحوها عندما كانت تردد الكلام خلف القاضي ..

حتى اعلنهما زوجا وزوجة فالتمعت عيناه بما هو اكثر من التملك .. لقد كان قاسيا حتى بنظرات التملك والانتصار التي رمقها بها..

لم تكن رأته منذ يومين .. منذ ان جاء صباح السبت ليتفق مع امها على موعد عقد القران ..

لااحد علم بما حصل بينهما ..

لااحد شعر بالمخفي .. والكل سعيد بما آلت اليه الامور ...

كم احتاجت لرقية ..

لكن رقية انغلقت على نفسها منذ اليوم المشؤوم مع حارث .. عدا الحوار القصير على الدرج قبل يومين لم تعاود التكلم معها .. لقد باتت رقية قليلة الكلام معهن جميعا تعتزل غرفتها اغلب الوقت متعللة بحاجتها للدراسة والتحضير للامتحانات النهائية التي قربت ..

لم تجرؤ الا اسيا على اقتحام عزلة رقية وسألتها عما حصل مع حارث لترد رقية عليها بلا اي تأثر او اظهار للمشاعر ان الامر انتهى وهو ارتبط بابنة عمه ..

تمتمت رباب بهمس

(يا الهي .. انا احتاج لطاقة .. لأي طاقة ..)

عادت لتنظر للثوب الابيض والتمعت عيناها فمدت يدها لحجابها تفك دبوسه ...

بعد ربع ساعة كانت تقف امام مرآة طويلة في مكتبها تحدق في صورتها المنعكسة وعيناها متسعتان لامعتان ...

لاتعرف هل هو طنين أذن او طنين قلب هذا الذي ينتابها وهي تفرد شعرها ببطء على كتفيها ...

" دق دق دق .. هل أجد خطيبتي .. اقصد .. زوجتي هنا ؟"

شهقت وهي تستدير بقوة ليرتطم جسدها بالمرآة وتقع ارضا فترتطم حافتها بالحائط وتنثلم ..

تحدق فيه يبهرها العرق النابض في صدغه رغم ابتسامته التي بدت قاسية ..

همست بتقطع

" ماذا..تفعل هنا؟..كـ..كيف..دخلت؟"

ملامح وجهه متحجرة وهو ينظر اليها من اخمص قدميها الى اعلى رأسها ..

ثم ترتسم الفكاهة الساخرة على محياه وتشرد نظراته وكأنه لايراها بينما يقول

" ما هذا ؟! حبيبة عندما اعطتني المفتاح وقالت سأجد زوجتي في هذا المكان لم تخبرني ان هناك اشباح تتكلم .. ترى اين ذهبت زوجتي ؟! "

كان يتقدم حتى سجنها بضخامة جسده بينما ترتعش رباب وتهمس بتوسل وارتباك

" توقف ... عبد الرحمن ..."

فجأة نظر اليها نظرة متلاعبة غامضة ليقول مدعيا المفاجأة

" ما هذا ؟! دمية المانيكان تتكلم ! بل وتنادي باسمي .. ترى هل يمكن ان يكون لها قلب وينبض كـ.. قلبي ؟"

شهقت وكفاه تحاوطان خصرها بخشونة
وتجذبانها بعنف فترتعش بخدر وعجز تهمس
بانفاس متسارعة " كفى .. كفى .."

لكنه يصدمها وهو يميل برأسه في حركة
عنيفة مجنونة ليغمر وجهه بين خصلات
شعرها ويعتصر بين ذراعيه جسدها الذي
انكمش غريزيا وهي تحشر ذراعيها بينهما
تقاوم التصاقه بها ..

تقاوم بجسدها وهمسها يتلاشى " كفى.."

اما هو فجسده يختض نشوة وتأثرا وجنونا ولا
يفعل شيئا الا غمر وجهه اكثر واكثر في
شعرها حتى وصل بشفتيه لنبض عنقها فيهمس
بعنف " الدمية لها قلب ! قلب يختض كقلبي

الذي مزقته .. الدمية .. تشعر وهي ترتدي
ثوب عرس عروسي انا ... عروسي انا ..."

لم تعد تشعر بساقيها فتستسلم بخزي لاسناده
لها .. ولا بأضلعها التي توشك ان تتكسر من
اعتصاره لها ولا تشعر حتى بذاتها وهو يمحو
كل الحواجز بينهما ...

همسة مجنونة لاهثة كلهاث انفاسه الغاضبة
على بشرة عنقها " رحمممن ..."

عندها ... لم تعد ... تعي ما حولها وقد
تشوشت بالكامل بينما تسمع كلماته
المشتعلة عند نبض عنقها

" يا الهي ..سأموت .. بسببك .. سأموت "

فجأة دفعها بعنف لتنهار وتقع على الارض
جاحظة النظرات من شدة الصدمة ..

لاهثة الانفاس من عنف المشاعر بينهما بينما
تسمعه يقول بانفاس عنيفة

" لكنك .. لاتستحقين .. لاتستحقين .."

ولصدمتها ودهشتها استدار بنفس العنف
ليتركها على الارض ويغادر بخطوات تحرق
الارض من تحته ...

بعد منتصف الليل.. بيت الصائغ ..

غرفة عبد الرحمن ..

(رحممن ... رحممن .. رحمممن)

دوي همسها يضج في رأسه ولا يستطيع فعل
شيء لمنع النيران ان تسري مع دمه ...

انها فتاته رباب .. حبيبته الملونة ..

عشق المراهقة والشباب .. المجنونة التي
تحطمه وهي تناديه (رحمممن) !

لا زال بنفس الملابس منذ الصباح و قدماه
تخوضان في كل جناحه وكأنه .. يبحث
عنها!

في غرفته .. في مطبخه الصغير .. في غرفة
المعيشة التي لايجلس فيها الا قليلا ..

قدماه تائهان مشتتان كصاحبهما الغاضب
ولاتعرفان كيف ترضيانه والى اين توصلانه ..

قلبه كجسده يشتعل كلما فكر فيها .. وهو
لايكف عن التفكير فيها لحظة واحدة ..

لايستطيع محو ردة فعلها عندما احتضنها عنوة
ليبحث عن نبض قلبها في عنقها ...

كانت تنكمش بين ذراعيه فتثير جنونه
بخجلها العذري التلقائي هذا ...

لايمكن ان تكون أحبت اخر ..

لا .. لايمكن ان تناديه (رحممن) هكذا
وقلبها ليس ملكه بالكامل ...

لايمكن .. لايمكن ...

كالمهووس ينحني بأنفه يتشمم قميصه ..

ترتعد اوصاله ورائحتها عالقة بالقميص ..

هذه هي رائحتها .. يا الهي .. انها لاتقاوم..

يده ترتعش بل تختض وهو يلتقط هاتفه
النقال .. قد تجاوز الوقت منتصف الليل لكنه
لايستطيع منع نفسه ..

رن هاتفها ..و رن ..... و رن ...

حتى فتحت الخط بصوت هامس بدا للحظة
وكأنه يقطر بكاء " عبد الرحمن .."

صدره يعلو ويهبط وهو يقولها صريحة نارية
" انا لااستطيع النوم .."

همست بصوت متحشرج " لماذا ؟"

رد محطما اي حواجز تقتله وتمنعه

" اتشبث برائحتك العالقة بي ... حتى اني لم ابدل ملابسي حتى لاتتلاشى .."

شهقة بكاء سبقت ندائها باسمه

" عبد الرحمن ..."

كانت قدماه اخذتاه لغرفته وعند الشباك يسند جبينه ويهمس بحشرجة عاطفية ملتهبة " ناديني .. رحمن .. بنفس النبرة التي ناديتني بها اليوم .. لقد جننتني كما جننتني الشامة اسفل فمك .."

تشهق ببكاء واضح هذه المرة هذه المرة

يغمض عينيه ويقول بصوت مرتعش

" اريد المزيد منك .. أستطيع .. ان آتي اليك الآن .. اخرجي للحديقة وسأكون عندك .."

من بين شهقات البكاء تتوسله

" توقف .. فقط توقف .... توقف .. اتوسل اليك ... انت تعذبني .. وتعذب نفسك .. يا الهي ما هذا الذي نفعله ببعض .. انا غبية ولا ادري ما افعله بنفسي .. يا ربي .. لم اعد اعرف ما يجب ان افعله .. "

كان هو يعيش جحيما من الغيرة كلما فكر انها أحبت غيره او ربما .. ما زالت تحب غيره ..

صرخ دون وعيه " اخبريني اسمه .. من هو .. اخبريني من يكون ؟"

لترد صراخه بصراخ

" كفى عبد الرحمن .. كفى .. كفى ... "

ثم اخذت تجهش ببكاء مرير وهي تواصل

" كفى .. كفى ..."

لتغلق الخط وهو يضرب رأسه بزجاج النافذة

ويهدر " ابدا لن يكون يا رباب .. ابدا لن

يكون هناك (كفى) بيننا "

اليوم التالي .. عصرا ..

من الشباك لمح رضا اخاه الصغير وهو ينتظر

في الشارع امام باب البيت وينظر لساعة يده

بين الفينة والاخرى ..

قد يبدو خطيبا غاضبا من تأخر عودة

خطيبته للبيت وربما غيورا جدا كعادته

لكن هناك ما هو اكثر من هذا ..

" يبدو اننا حملناه الكثير ليتعامل مع رباب .."

كانت هذه اسيا وهي تقف جوار زوجها تحمل

كاظم الذي يمص ابهامه ويتلاعب بشعر امه

باصابع يده الاخرى ويوشك ان يغفو ...

تمتم رضا " سيتدبران امرهما .. "

تحاول اسيا سحب ابهام ولدها من فمه برفق

ليترك هذه العادة التي تعود اليه بين فترة

واخرى .. منذ ولد وهو يمص ابهامه هكذا

واتبعت معه كل الطرق القديمة والحديثة

لكنه يأخذ قلبها وتضعف امامه عندما يلاعب خصلات شعرها هكذا وكأنه يتوسلها الرضا..

قالت بخفوت ونبرة قلق واضحة بصوتها

" اشعر بوجود شيء ما يحصل بينهما ولا نعرفه.. امي رغم فرحها بالخطبة والزواج تستشعر شيئا يقلقها من رباب .. حتى حبيبة لاحظت .. تقول ان رباب اليوم كانت في حالة يرثى لها من الارتباك والشرود وانها لاول مرة مشتتة في العمل ..."

يضيق رضا عينيه وهو يحاول ان يستكشف ملامح اخيه عن بعد المسافة بينما تضيف اسيا " رضا انا قلقة عليها .. رباب ليست بحالة طبيعية .. انها ليست رباب التي اعرفها.. لااعلم هل هي تقاوم بضراوة ام ان هناك خللا ما في علاقتها بعبد الرحمن ..؟ ربما اخطأنا بالرضوخ لعبد الرحمن في عقد القران سريعا ولم نمهلها لتتقبله .."

التفت رضا برأسه ناحية اسيا فيقول

" هل تتصورين ان هناك ما يجبر رباب على عقد القران ؟! قد تجبرها الظروف على الخطبة بعد ما حصل في الحي .. لكن عقد القران ... لا .. لا اظن انها كانت مجبرة لترضى.."

ثم عاد لينظر لاخيه ويقول " دعينا ننتظر بضع ايام اخر اذا لم تستقر الحال بينهما سأكلم عبد الرحمن بنفسي .."

ثم ابتسم رضا مضيفاً " ها قد وصلت العروس اخيرا فليهدأ هذا الغاضب المتحكم.."

في الشارع ..

قال عبد الرحمن من بين اسنانه بينما تقترب منه رباب بعد ان ادخلت سيارتها مرآب بيت العطار " لماذا تأخرت ؟!"

بدت شاحبة جدا الى درجة انه شعر بالنار تكوي قلبه بينما ترد عليه بنبرة مرهقة

" قلت لك عبر الهاتف ..جاءني طلب مستعجل وكان يجب ان انهي التصميم قبل الغد .."

ثم استدارت دون ان تظر لعينيه وهي تضيف بخفوت " عن اذنك انا متعبة جدا .. تصبح على خير .."

لم تخطُ حتى نصف خطوة عندما مد يده ليمسك ذراعها ويعيدها اليه بحركة سريعة جعلتها ترتطم بصدره ..

انفاسها كانفاسه .. اختطفت ...

همس بحرقة الغضب المستعر الذي لايهدأ ليلا ولا نهارا " لن تنامي الآن .. تعالي لتسلمي على امي .. كانت تسأل عنك اليوم "

رفعت عينيها العسليتين المطفأتين بحزن يقطعه أربا ليضيف بانفعال عاطفي صاخب

" يجب ان تزورينها اليوم .. هي متوعكة قليلا بسبب صعود طفيف بمعدل السكر وخلود ايضا ليست على ما يرام لذلك انا من سينام جنبها الليلة لأعتني بها.."

أطرقت براسها وهي تهمس بنبرة مخنوقة

" سلمها اللّه من كل شر .."

ثم استسلمت لكفه التي تتشبث بها وهو يجرها خلفه ...

رغماً عن أنف جحيم غضبه وقهره اصابعه لاتطاوعه فتتحرك عشقا بملامستها والشعور بها .. من جديد ...

الغضب يعميه والعشق يعمي غضبه وهو يطحن بين رحا الشعورين معا ..

بعد دقائق في غرفة امه كانت سعاد تحتضن رباب وهي مستلقية على سريرها وتبثها محبتها الصادقة وفخرها بها وهي تقول لابنها

" هذه ابنة ابتهال .. وما ادراك من ابتهال .."

تمتمت رباب بتورد الخجل وهي تعتدل بجذل لتقف جوار السرير متمتمة " سلمتِ خالتي .."

تناظرها سعاد وتبتسم برضا وتواصل كلامها الفخور لعبد الرحمن " ابتهال هي الارض الصالحة التي تستحق ان تأخذ زرعا مثمرا منها لتغرزه في ارضك .."

ثم تنقل نظراتها لولدها مباشرة وتقول فجأة

" عبد الرحمن ... خذها لترى جناحك .. فربما تريد بعض الامور لتتغير .."

اصفرت رباب ففتحت فمها لتعترض لتغمض سعاد عينيها وهي تقطع عليها طريق الاعتراض

" لاتخجلي يا ابنة العطار .. كل العرائس يزرن البيت الذي سيعشن فيه مع ازواجهن .. دعيني الآن أرتاح قليلا قبل ان تأتي بدرية وتفرض علي ان اترك السرير عنوة بحجة ان النوم عند الغروب ليس امراً صالحا ! .."

لم تعرف رباب كيف تتصرف بينما قلبها يهدر وعبد الرحمن قد امسك كفها ليقودها بصمت فتغادر غرفة امه ..

كان قلبها يقرع في صدرها وهي تصل معه الى السلم واغمضت عينيها هلعا وعبد الرحمن يجرها لتصعد اول درجة وهو يقول بخشونة

" تعالي لاريك .."

كانت تقاوم الصعود وهي تقول بنبرة مخنوقة

" اريد الرحيل لبيتي..قلت لك انا ..مرهقة.."

خشونته تضاعفت وهو يجرها جراً لتصعد و حمم غضبه بدأت بالتفجر وهو يهدر بصوت منخفض " بيتك ؟! بيتك هنا .."

تناديه وهو يجبرها الصعود " عبد الرحمن ! .."

لايسمع لها وهو يواصل خشونته معها ...



لم تعد ترى اين يقودها ولم تعد تستوعب ماهية الباب الذي وصلا اليه ليفتحه ويدفعها عبره وهو يصرخ فيها بكل الغضب الذي يختزنه و انفلت عقاله " هذا بيتك ... كان يفترض هنا منذ اشهر طويلة .. معي هنا ..."

صدرها يعلو ويهبط بانفعال مجنون كجنون نظراته .. ثم تشهق وهو يسحبها مرة اخرى فيأخذها لمكان اخر داخل الجناح لتدرك انه مطبخ صغير فيواصل صراخه المتعالي بمزيد من الغضب المنفلت " هنا كان يفترض ان تقفي لتطبخي لنا الغداء ... وانا ادور حولك اشاكسك حول رداءة طبخك ..."

تكتم شهقتها هذه المرة حتى توشك ان تختنق حقا بينما يجرها وهي عاجزة عن النطق او حتى ادراك المكان حولها وكأنها في كابوس وترتطم بجدران صخرية قاسية تجرحها وتسيل الدماء من جسدها وروحها معاً..

اعادها الى غرفة المعيشة حيث دخلا اولا ليهدر بالمزيد وعيناه تبرقان بما هو اكثر من الغضب " هنا نجلس سوية نتفرج التلفاز حتى تنامي على صدري .. فاحملك بنفسي لتلك الغرفة التي تجمعنا .."

كان سيجرها لغرفة النوم عندما تشبثت هي بذراعه بيدها الاخرى الحرة تتوسله بحشرجة بكاء وشيك

" ارجوك .. لا .. لا .."

يحدق فيها بانفاسه الثائرة وما زال الجنون يسيطر عليه والقسوة والعشق يتصارعان على ملامح وجهه ونظرات عينيه ليفاجئها مرة جديد بحركة خشنة وهو يمد يده لحجابها وينزعه بالقوة صارخا " اخلعي حجابك .."

تأوهت مصدومة متوجعة وبعض خصل شعرها تفلت من العقدة التي تجمعه مؤخرة رأسها .. فتحدق فيه وتلك الخصل الصغيرة تهبط حول وجهها ولون عينيها العسليتان يتوهج لكن عبد الرحمن لايتوقف ليرمي الحجاب ارضا ثم يمسك شعرها من الخلف هادرا كمن فقد رشده " وعقدة شعرك هذه ... فكيها ..! "

كانت تنتفض دون ان تبدي اي رغبة لتعترض او تقاوم ما يفعله .. كأنها تستسلم لعقابه..

تقف امامه تتلقى حمم غضبه الذي تستحقه ..

كفه ترتجف وهي تهبط لتحتضن جانب وجهها فيرتجف جسدها استجابة .. ثم تغمض عينيها في ذهول عاطفي كامل ...

شعرت بيده تتحرك من خدها لعنقها بينما جبينه الحار يستند فوق جبينها ... ذراعا تحركتا معا فتحيطان بجسدها كحبلين يشدانها لجسده حتى التصقت به.. بردة فعل غريزية كما حصل في (دار الازياء) بالامس عندما احتضنها للمرة الاولى .. فعلتها الآن وهي تطوي ذراعيها امام صدرها وجسدها يتقلص بانكماش دفاعي تمنع التصاقا تاما بصدره ..

حرارة انفاسه اللاهثة تحرق بشرة وجهها وهو يهمس بخشونة عاطفية

" هكذا يفترض ان تكون هيئتك في بيتك معي .. معي انا رباب .."

صدمة شلتها للحظة وهي تشعر بشفتيه فوق شفتيه يقبلهما بضراوة واصابعه تبعثر شعرها في كل اتجاه ... تكاد تفقد الوعي بينما يهمس هو اسمها بجنون من نوع آخر

" رباب .. رباب .."

تدير وجهها تسيل دموعها حاره وهي تحاول الفرار بردة فعل تلقائية من هجومه الكاسح رغم العاطفة تحرقهما معاً

" لا .. رحمن .."

جننته وهي تفعلها مرة اخرى وتناديه ... (رحمن) ..

امسكها من اعلى ذراعيها يهزها بعنف عاطفي مشتعل يهدر بما يشعل قلبه منذ ايام

" كيف تفعلين بي هذا ؟ كيف تحبين سواي يا رباب ؟ انا لم أحب غيرك ابدا .. فكيف تحبين سواي "

تشهق بالبكاء وتنهار بالقول على صدره

" ليس .. هناك .. سواك .."

الفصل التاسع عشر

تشهق بالبكاء وتنهار بالقول على صدره

" ليس .. هناك .. سواك .."

انفاسه .. متسارعة ... قصيرة ...تهرول ..ثم... تركض ...ثم ... تتزاحم لتصرخ في جوف صدره ...

يداه جامدتان وهما تمسكان بذراعيها من الجانبين .. وجهه بملامحه المصدومة يهبط للاسفل ببطء ليحدق في رأسها المنحني وقد كاد جبينها المرتجف ان يلامس صدره ...

شعرها العسلي الذي شعثته اصابعه قبل لحظات وهو يقبلها بجنون الغضب يتناثر على كتفيها و وجهها فيحجبها عنه ..

تزاحمت صور تجمعهما معاً مذ اول مرة تعلقت روحه بها .. مذ بدأ يناغشها بما يستعّر في قلبه الفتيّ من مشاعر .. مذ أحب كل ما يتعلق بورق العنب لأجلها .. !

مذ حلم بجدائلها في صحوه ومنامه ..

كل تلك الصور تجمعت امامه في لحظة اعلان ساطعة تمحو كل ما ينفيها .. لتؤلف مجلدا من الاعترافات المتبادلة ممهورة اخيرا بمفتاح قلبها وقد سلمته له بما نطقته للتو باعتراف صريح منطقي (ليس هناك سواك)



هل .. قالتها حقاً ؟ هل قالتها وجعلته كأبله

متخاذل امام الغضب والقهر الذي شعره لأيام ؟!

لأيام ؟!

بل لأشهر عاشها وهو يتعذب يصطلي بالنيران..

سياط جلدته كل يوم من عشق حي وغضب

ثائر وكبرياء جريح وخذلان مر كالعلقم ...

هل قالتها حقا ؟!!

هل قالتها ومحت كل شيء بها ؟!

تمتم بحشرجة مرتعشة وجسده يرتعد

باحساس فرح بعيد قادم لا يُصدق ..

ينبع من مكان قصيّ من قلبه ...

" مم...ماذا ...؟ ماذا... قلتِ ؟"

همسها يتقطع بالنشيج وهي تشكو على صدره

" انا تعبت يا عبد الرحمن ... تعبت ولم أعد

احتمل ... تعبت من كل هذه المقاومة التي

استنزفتني .."

ارتعادات متواصلة تهز جسده فيميل بوجهه

ويقترب من اذنها يهمس بخشونة

" ماذا .. قلتِ ؟ ماذا قلتِ ..للتو ؟ ردي علي .."

تختض وتنكمش في نفس الوقت وهي تهمس

باعتراف واستسلام وانهاك تام ...

" انا .. كذبت عليك .. كذبت .. "

العشق هو الخدر ... والاستسلام لمتعة سماع

صخب المشاعر غير المفهومة ...

العشق هو اعتراف المعشوق انه مملوك

لقلبك .. وعندها يكون التحرر ...

عندها تتلاشى كل التواريخ واحداثها وتعيش

لحظة التحرر التي ترفعك لعنان السماء ..

لايعرف كيف حملتهما قدماه وهو يتراجع بها

للخلف حتى جلس على الاريكة خلفه

ليسحبها عنوة رغم انكماشها فيجلسها على

حجره ..

تقاوم وهي تريد النهوض هامسة " دعني ..."

لكنه لا يفلتها بل يشدها اليه يبتسم مبهورا

بجنون الخدر الذي يشعره ويداه تمران فوق

ظهرها فتملؤه النشوى وهي تغزو خلاياه ...

لقد قالتها .. قالتها .. لايصدق انها قالتها ..

وما زالت تلوع قلبه ولاتعيدها على مسامعه ....

همس بانفاس متقطعة " رباب .. سأموت الآن ان

لم تعيديها .. فقط مرة .. اخرى ..."

عندها فقط رفعت وجهها اليه .. وجهها مبلل

بالدموع ومتورد من البكاء وربما الحياء وربما

الانفعال .. لم يعد يدري ..

يكفي انه يراه حلوا .. حلوا بحلاوة تمر

النخيل الباسق تتلهف حواسه لاقتطافه

وتذوقه ...

التحرر يطالها هي الاخرى .. والحياء يمنعها ..

والكلمات تتدفق على فمها و هي تتجنب

النظر اليه مباشرة بينما كفاها ترتجفان وهما

تدفعان صدره

" اقول لك .. انا كذبت .. لم يكن لي يوما علاقة بأي شاب .. وكل ما قاله غراب البين ليس لي علاقة به .. انا كذبت .. كذبت عليك .. اردت ان ادفعك بعيدا .. دعني الآن.. ماذا تريد اكثر ؟! "

مجنونة هذه ؟! مؤكد مجنونة ...

من الذي سيدعها الآن ؟!

همس وعيناه تلامسان موضع شامتها

" ايتها الكذابة التي تذبح قلبي ذبحاً .. اريدك ان تقولي (ليس هناك سواك).. "

ترتعش بين يديه وهي تقاومه فيشدها اكثر وهي تنكمش حياء تلقائيا وهو يهدر بانفعال عاطفي صاخب " قوليها رباب ..."

تتخضب بحمرة قانية وتعض شفتها السفلى وهي تعود لدفع صدره هامسة بارتجاف كارتجاف جسدها وتهذر بكلمات متقطعة ومتخبطة " عبد الرحمن .. دعني اعد للبيت .. ارجوك .. يا الهي انظر ماذا .. فعلت .. لشعري.. لم يكن .. يحق ..لك .. كيف .. تفعل .. هذا ؟! "

شفتاه قريبتان جدا من اسفل فمها وهو يهمس باشتعال " ان لم تعيديها يجب ان تعوضيني بـ.. قبلة ... قبلة واحدة .. لهذه الشامة .."

لم ينتظر ان تمنحه الاذن بل يحقق بغيته وشفتاه تلتصقان بشامتها هامسا " مرة تلو مرة اقولها ... هذه الشامة جنننننتني...! شيء صغير جدا مستفز اسفل فمك.. "

تشهق بانكماش وجسدها يخذلها فلا تملك قوة لتدفعه ..

همس بانفاس ضاحكة مرتعشة على بشرتها وهو يشدد من ذراعيه حولها " لاتنكمشي هكذا يا حجر الصوان .. استرخي وانت في حضني .."

القبلة تحولت لقبلات على طول فكها فتحشر يدها بين فمه وبين وجهها لتصد قبلاته تلك وتتوسله بارتعاش خجل رهيب

" توقف .. ارجوك .. كفى ..."

عيناه تبرقان وهو تتمليان النظر فيها ...

فيقول بوهج عاطفي " قولي انك تحبينني .. قوليها ايتها الكذابة .."

تعضعض شفتيها وتلملم كفيها لصدرها بشكل مضحك محرجة من ملامسة كتفه وصدره وقدماها تخذلانها فلا تستطيع النهوض عن حجره ...!

" عبد الرحمن .. تعال انت و رباب واشربا الشاي معنا ..."

صوت بدرية من الطابق السفلي كان كصافرة انذار انطلقت فجأة فتجفل رباب بحركة عنيفة ليرتطم أنفها بذقنه فيفلتها عبد الرحمن مرغما وهو يتأوه متوجعاً كما تتأوه هي فتقع أرضا على مؤخرتها لتتوجع أكثر ...

تدمع عينا رباب وهي تغمضهما بتوجع وتدلك أنفها بينما تسمع عبد الرحمن يرد بصوت مرتفع " قادمان خالتي ..."

لم تشعر الا بذراعيه تحاوطان جذعها وتسندانها لتقف على قدميها وصوت همسه الضاحك بشقاوة رغم العاطفة المشتعلة فيه

" يال الاحباط ! الكل متفق عليّ .. انقذتك مني الخالة بدرية .."

وجهها بلون احمر قان وهي تدفع ذراعيه عنها وعيناها على باب الجناح بهلع خجول لتتجمد يداها وهو يسألها بجدية

" رباب .. لماذا تريدين دفعي ؟ لماذا لا تريدين الزواج ؟"

نظرت لعينيه بملامح مبهوته فتتمتم بهمس

" لن ... تفهمني ..."

العزم في نظراته وهو يقول بصوت أجش

" جربي .."

يعقد حاجبيه قليلا وهي تبدو بحال غريب لايفهمه بينما ترد بعينين غائمتين " سيبدو الامر تافهاً بالنسبة اليك .. هناك امور .. لا يمكن .. شرحها .. انها .. نشعرها فقط وتحدد طريقنا الآمن في الحياة .."

وقبل ان يلتقط اي شيء يلهمه من نظراتها أسبلت اهدابها وهي ترفع ذراعيها لتلملم شعرها وهي تهمس " ارجوك دعنا فقط .. ننزل .."

بإصرار ابعد يديها عن شعرها واخذ يعيد ترتيبه بنفسه وهي تنظر اليه بدهشة بينما يقول لها

" تعرفين ان زواجنا بات محتماً.. تعرفين سأتممه رغماً عن أنفك .. انتِ اعترفتِ انك تحبينني ولا تحبين سواي.. "

يملس على شعرها وعيناه على خديها الاحمرين بينما تهرب بنظراتها بعيدا وهي تحاول مصارعة كفيه لتبعدهما عن شعرها وهي تتمتم " اترك شعري .. "

لايأبه بمحاولاتها ويستمر بما يفعله وهو يضيف بما يشبه الوعد

" وتعرفين اني .. سأعرف .. حتى لو قضيت ليالي زواجنا ساهرا جوارك لا أكف عن ازعاج نومك بتكرار نفس السؤال (لماذا) .."

هذه المرة كانت اكثر عنادا واصرارا لتدفع كفيه عن خصلات شعرها وهي تقول

" كفى .. سأربطه .. بنفسي .."

رآها باعجاب ودهشة كيف لفت شعرها في عقدة بحركات سريعة منسقة وبينما تبحث بعينيها على الارض قائلة " اين الرباط ؟"

فاجأها ليحاوط وجهها الدافئ بكفيه ويقربه منه قائلا " سأعرف لماذا ترفضين الزواج .. حتى تطرفتِ الى هذا الحد .. و كذبتِ علي كذبة لا تغتفر .. حولتني لمعتوه لا ينام .."

عيناه تشتعلان بغضب مخلوط بالهيام بينما يضيف بشقاوة وجرأة ونظراته تهبط لفمها

" ماذا أفعل لآخذ ثأري منك ؟ انا حتى .. لم احصل على قبلة عاطفية من شفتيك ... ليال طويلة حلمت بها و كيف .. سأخذها منك ... عندما تحين اللحظة وتصبحين زوجتي .. وانت حرمتني من هذا بكل قسوة .."

علا صوت بدرية مرة اخرى " عبد الرحمن ..! "

يتنهد عبد الرحمن وهو يرد بصوت مرتفع

" نعم خالتي .. قادمان .."

ثم يعود اليها ليقول بحشرجة عاطفية

" المرة القادمة سأفعلها يا قرفة العطار.. لن تحرميني من احلامي مجددا .."

ثم يفلتها مرغماً لتبتعد عنه وهي تلهث..

يبتلع ريقه وهو يحدق في مفاتن جسدها بينما تنحني لتلتقط حجابها ثم ترتديه بحركات خبيرة سلسلة رغم ارتعاش يديها الواضح..

تحركت على عجل ناحية الباب وهي تقول بانفاس متسارعة انفعالا خجولا محرجا

" هيا ارجوك .. لقد تأخرنا بالنزول .."

تفتح الباب وتسبقه بخطوات متعثرة وهو لايملك الا ان يلحق بها ...

عيناه لاتفارقان خطوات قدميها ...

يشعر بكل كيانه انه .. مغرم .. متيم ...

انه بكل حرف ... عاااااااشق ...

بيت يحيى و حبيبة ..

أنهت حبيبة شرب ما تبقى من الشاي الاخضر في كوبها وهي نصف مستلقية على السرير بينما تقول بتذمر نزق لزوجها

" لم يعد الشاي الاخضر يجدي نفعاً معي ! يبدو انه فقط تأثيره .."

اقترب يحيى ليجلس على حافة السرير جوارها ويمد يده يداعب خدها قائلا باشفاق

" يبدو ان وحامك صعب في هذا الحمل كما كان حملك بسُكينة .."

تنهدت حبيبة لتغمض عينيها وتتوتر ملامحها ثم تهمس " اشعره سيكون أصعب .."

عينا يحيى لاتفارقان ملامح وجهها فيتردد لحظة قبل ان يحسم الأمر ويسألها باسلوب غير مباشر " انت متوترة حبيبة بشكل مضاعف منذ اسبوع واكثر .. وهذا لايعجبني .. هل هذا بسبب غثيان الحمل فقط؟"

شعرها للحظة تشنجت فيضيق عينيه بتركيز وينحدر بظاهر اصابعه يلامس عنقها قائلا بخفة " امور كثيرة تحصل من خلف ظهري يا برية .."

فتحت عينيها لتناظره فبدت في عينيه كأبنتهما (سكينة) عندما تفعل امرا لايعجبها وتأتي اليه معترفة ..

قالت حبيبة اخيرا وكأنها تجس نبضه

" انت تثق بي .."

فيرد ببساطة مخفياً بعض التوتر في نفسه

" بلا حدود .."

فتطلق حبيبة تنهيدة استرخاء قبل ان تقول

" اذن احتاج ان اخبرك امرا لأشعر براحة ضميري .."

صمت ينتظر منها توضيحا و .. اعترافا..

فلم تطل انتظاره وهي تفصح " انا قابلت مهند قبل ايام في احدى المقاهي وتكلمت معه .."

للحظة شعلة توقدت في داخله فتنعكس في عينيه بينما توضح حبيبة بنوع من الغموض والتردد " كان الامر بدون تخطيط ولم اعرف انه هو نفسه مهند حتى رأيته هناك .. الامر كان يخص فتاة عزيزة علي واحتاجت مساعدتي وحضوري معها .. واللقاء لم يدم الا دقائق معدودة "

ذكاؤه غلب تلك الشعلة ..

و ربما مرونته التي اكتسبها من العيش في امريكا لسنوات مؤثرة في حياته ..

او ربما .. هي .. قدرته على استيعاب حبيبة بتفهم وثقة وكاملتين هو من جعله يختصر كل شيء في جملة واحدة " هل انتهى الامر ؟"

ردت وهي تنظر في عينيه " نعم .. انتهى .. "

ليسألها ببعض التصلب " هل .. تجاوز ...؟"

ردت وهي تعقد حاجبيها " مؤكد لا .. لكنت اخبرتك بوقتها ان تجرأ و فعل .. لقد كان متفاجئا اكثر مني لحضوري ذاك اللقاء .."

أسبل يحيى اهدابه يحاول استيعاب كامل الصورة فتسأله حبيبة ببعض الضيق والقلق

" هل انت غاضب ؟"

ابتسامة صغيرة على جانب فمه وهو يرد

" غيور .."

استقامت حبيبة بجذعها لتتحرك بتململ وهي تسأل " لاني قابلته ؟"

هز كتفيه وهو يرد " كنت ستلتقين به في اي يوم .. في اي شارع .. في اي مكان من اربعة جدران .. لكني غيور لانه وترك هكذا .."

يدها استقرت على صدره .. فوق مكان قلبه لتسأله كمن يعاتب " هل ظننته هو سبب توتري حقا ؟! اني تأثرت بلقائه ؟ "

عندها فقط رفع عينيه لها متسائلا بذكاء

" اذن ؟ "

مالت برأسها لتستقر فوق صدره قائلة باسلوبها المباشر الصريح الذي اعتاده منها " ما وترني اني اضطررت ان اخفي الامر عليك وهذا لا احبه .. لكن توتري الحقيقي لان هناك امور اخرى تحصل في بيت والدي اكثر اهمية وتأثيرا .. رباب و رقية .."

يمسد على ظهرها بيده وهو يستعيد مزاجه المشاكس المحبب قائلا

" رباب امرها سهل .. لديها عبد الرحمن الآن ليفك عقدة ابيها .. وليُعِنْه اللّه ! "

تفاجأت حبيبة وهي ترفع رأسها لتواجه زوجها قائلة بعجب " ماذا ؟ كيف عرفت ؟! "

بابتسامة رقيقة قال لها موضحاً افكاره باسهاب " الامر كان جلياً مؤخرا .. الفتاة مرعوبة .. هل رأيتِ وجهها يوم الخطبة ؟! تحبه و لكنها مرعوبة من الزواج منه ولا تشعر بالأمان ... فماذا لدى فتاة جدية وبعيدة النظر كرباب لتصاب بالرعب منه غير هذا ؟ لقد راقبتها في العمل اكثر وعرفت شخصيتها عن قرب .. انها ذكية فرحة مبهجة طاقة من الحيوية كما انها عملية و تفكر كثيرا بكل خطوة تخطوها و تحسبها جيدا قبل الاقدام عليها .. لكنها لاتملك جرأتك لتخاطر بما هو مجهول العاقبة .. تحب ان تخطو في ارض آمنة .. بينما انت تندفعين وراء حدسك لايوقفك شيء.."

بدت حبيبة منبهرة باسلوبه في تفسير اختها.. ليضيف يحيى بتصور مشفق لحالة رباب

" الزواج ارض غير امنة بالنسبة لها .."

تمتمت حبيبة وهي تشعر فجأة برغبة في البكاء " لقد شككنا بهذا انا واسيا .. شككنا ان السبب .. ما حصل في الماضي .. انها تأثرت اكثر بكثير مما يبدو عليها .. لكنها الفتاة كتومة جدا وتثير الغيظ .."

رد يحيى بنوع من الفكاهة

" مؤكد تثير الغيظ لتدفع بعبد الرحمن ان يخطب اخرى من شدة غيظه منها .."

سألته حبيبة بجدية " هل تكلمت مع رضا بالموضوع..؟ اقصد هل اخبرته ؟ "

ارتفع حاجبا يحيى عاليا وهو يقول بضحكة حلوة واسلوب مستنكر فكاهي " رضا ؟! انه آخر شخص يمكن ان يتحدث بأريحية عن اخوات زوجته ومشاعرهن .. الامر يمس وترا حساسا فيه كرجل شرقي من طراز فريد متحفظ ... لذلك انا احتفظ بافكاري لنفسي فقط ولا اخبر بها الا سكينة .."

تنفجر حبيبة ضاحكة وهي تعود لتتنعم باحضانه وقد زال معظم توترها ..

يحاوطها بذراعيه وهي تهمس له بحيرة

" هل نخبر عبد الرحمن ؟ "

فيرد يحيى " دعيه هو من يسعى لفهمها .. لماذا تتدخلون بينهما وقد ارتبطا فعليا ؟! ان لم يكن قادرا على فهمها وهي باتت قريبة منه هكذا اذن ارتباطهما فاشل من الاساس .."

هزّت راسها باقتناع بينما يميل لاذنها يهمس بشقاوة " ثم لماذا تريدون ان تخربوا متعة مراقبتهما يتناطحان .. انها الفترة الاجمل من اي ارتباط .. لاينقصنا الا الفشار ولبس نظارة للمشاهدة ثلاثية الابعاد .."

تضحك وهي تضرب بقبضتها على صدره

فيطبع قبلة ضاحكة على خدها وهو يسأل

بفضول مختلف

" الان ماذا عن كل الرقة ؟ لقد لاحظت انها

ليست بطبيعتها .. "

تشعر بانقلاب في معدتها حالما تكلم عن

رقية .. فتمتمت بعبوس

" رقية هذه ..... امممم .."

قطع عليها حيرتها باختيار الكلمات المناسبة

لصغرى بنات العطار فيختار كلمتين

" جبارة ... داهية .."

صمتت حبيبة وهي تستعيد وقاحة رقية في

بيت اسيا بعد ذاك الحادث ..

لاتصدق ان هذه الفتاة الجبارة كما وصفها

يحيى للتو هي نفسها كل الرقة !

قالت اخيرا " نعم .. جبارة .. داهية .."

امسك يحيى بذقن حبيبة ليرفع وجهها اليه

فيقول بتركيز وكأنه يحذرها " هي داهية

ومدركة لدهائها وهذا خطر في عمرها لانها

لاتملك الخبرة الكافية بالحياة .."

وكأنه يعكس قلقها لتعبر عنه

" انا قلقة عليها يا يحيى .."

التمعت عيناه بالفطنة وهو يسأل

" ماذا فعلت ؟"

بدا الامتعاض المغتاظ على وجهها فكاد يضحك وهي تقول بتذمر

" اسيا ستقتلني ان اخبرتك .."

فغمزها بنظرة شريرة تآمرية قائلا بشقاوة

" هذا ..ان علمت اسيا انك اخبرتني .."

ضحكت بينما يضيف ليقنعها

" اخبري بابا يحيى بكل شيء .. سرك في بئر عميييييييييييق "

تنظر اليه بابتسامة مترددة فيحثها أكثر

" هيا حبيبة ... سأموت فضولا .."

تستسلم له قائلة " حسن .. سأخبرك .."

بيت العطار ..

كانت اسيا تقبل وجنتي امها وهي تدخل بيت والدها العطار ثم تسألها " اين رباب ؟"

تنشرح ملامح ابتهال بالرضا وهي تقول بفرح (أم العروس) " انها مع خطيبها.. لقد أصر عليها ان تبقى في بيت حماتك تشاركهم شرب الشاي وربما العشاء .."

تبتسم اسيا تخفي عن امها اي لمحة قلق مما يحصل بين رباب وعبد الرحمن بينما تسألها هذه المرة عن الفتاتين الاخريين

" واين رقية وشذرة ؟"

بدت ابتهال منزعجة قليلا وهي ترد على كبرى بناتها ورفيقتها الاقرب لقلبها التي تصارحها بكل ما يدور برأسها

" رقية كعادتها مؤخرا تحبس نفسها في غرفتها ولا تبدو على طبيعتها الشقية المتدللة .. هل تظنينها تغار من رباب ؟"

ردت اسيا بهدوء وهي تطمئن امها " لا اظن حبيبتي ... سأذهب اليها الآن لاراها .."

تحركت اسيا ناحية الدرج وهي تعاود السؤال " لم تخبريني اين شذرة ؟"

ردت ابتهال وهي تعد الشاي " ااا .. نسيت انك سألتِ .. اظنها في غرفتها ايضا تصلح كراكيس طلابها .."

سألت اسيا باهتمام " هل تبدو بخير ؟"

عقدت ابتهال حاجبيها وهي تمسك علبة الشاي في يدها وترد " نعم .. لماذا تسألين ؟"

ردت اسيا بمراوغة " لا لسبب .. فقط اسأل عن صحتها لانها كانت متوعكة قبل ايام .."

عادت ابتهال لتكمل اعداد الشاي قائلة

" اعطيتها ماء البابونج واليانسون فارتاحت عليه ..."

نظرت اسيا لامها للحظات قبل ان تقول " اهتمي بها امي .. اقصد تكلمي معها وقربيها اكثر منك .. اظن الفتاة ما زالت تشعر بالوحشة بيننا .. وهي تحتاج لاهتمام اكبر .."

تمتمت ابتهال بنوع من الحنق

" كله بسبب عمتها ناكرة الجميل .. هي من تسببت بهذا .. النبذ يا ابنتي احساس مريع يجعل الانسان يشعر بالوحشة في اي مكان يقطنه .."

هزت اسيا رأسها وهي ترتقي اولى درجات السلم قائلة " سأذهب لرقية واسلم على شذرة ايضا "

غرفة رقية

قرعت اسيا الباب قبل ان تدخل لتجد اختها الصغرى تجلس على كرسي قبالة مكتبها وواضح انها تدرس حقاً .. هذا أراحها بعض الشيء واقلقها من جانب آخر ..

ألقت السلام متجاهلة رد رقية المتوتر لتسألها بسلاسة " تدرسين ؟"

فترد رقية وهي تعبث بالقلم بين اصابعها

" نعم .."

تنظر اليها اسيا بامعان وما زال القلق يتلاعب بها .. هل غيرت الحياة اختها الصغرى لهذه الدرجة ؟

ام ان اسيا من تتشبث بماض قديم مختلف لاينسجم مع العصر الحالي ..

هل كبرت اسيا لتدرك وتتفهم الضغوط التي تتعرض لها فتاة كرقية تجعلها تصارع لتواكب التغيرات ام انها عولت اكثر مما يجب على اساس رقية الصلب..

سألت اسيا اخيرا تقاوم احساسا بالرفض داخلها لمجرد السؤال " هل رأيتِ حارث في الجامعة ؟"

فترد رقية بنبرة نزقة بعض الشيء

" اسيا ألن نغلق هذا الموضوع ابدا ؟! قلت لك لقد انتهى كل شيء وهو سيتزوج ابنة عمه او ربما تزوجها .. انا لا اهتم .."

تكز اسيا على اسنانها مغتاظة من هذا البرود الذي تبديه رقية لتسألها بنوع من الاستهجان

" الا يؤلمك قلبك (الذي أحبه) كما ادعيتِ امامنا ؟ "

ردت رقية ببعض التورد حياء من اختها رغم اسلوبها المتعنت وكلماتها الوقحة

" انا لااحب بالطريقة التي تقصدينها وتعرفينها .. انا احب فقط ما يجلب لي السعادة ويصبح ملكي بشكل حصري .."

برقت عينا اسيا جعلت رقية تنكمش و تتقلص اصابعها حول القلم الذي تحمله فتواجهها اسيا بقسوة

" لكنك قلتِ انه يهيم بك ..."

ما زالت رقية تتشبث بتعنتها لتواصل دفاعها الواهي الوقح " يبدو انه أحبني بنفس الطريقة التي احببته بها .. "

هتفت بها اسيا " الا تشعرين ولو ببعض .. الاحساس بالمهانة ؟!"

عندها انهار احد ادرعة رقية لترد بارتجاف الانفعال " نعم اشعرها .. هل يرضيكِ هذا اسيا؟ لكني لااقع ابدا .. لا شعور يسيطر علي ليوقعني ارضا .. انا ابنة يونس العطار لايُحن هامتي اي شيء .."

حدقت اسيا في رقية وقلق غريب يقبض صدرها فتقترب منها وهي تقول " ثقتك بنفسك ستؤذيك اكثر مما تظنين .."

للحظة اوشكت اسيا ان تضعف وتأخذ الصغيرة بين ذراعيها لكنها قاومت وتعاقبها على طريقتها وهي تعرف جيدا ان رقية رغم كل انكارها الا انها تتأثر بها ...

صامدة اسيا بمشاعرها الداخلية فلا تكشفها بينما تزم شفتيها بحزم صارم فتقول

" ما حصل مع حارث لن يتكرر رقية .. هل فهمتني ؟ لن يتكرر .."

الرسالة وصلت ونظرات رقية اطرقت للارض وهي ترد بصوت خافت متوتر " فهمت .."

استدارت اسيا لتغادر الغرفة وهي تقول ببرود موجه لرقية " سأذهب لرؤية شذرة .."

غادرت اسيا مغلقة الباب خلفها تاركة رقية تردد بانفعال مكبوت " لن يتكرر اسيا .. انا لا اعيد ارتكاب نفس الاخطاء .."



بيت طارق النعماني...

يرتدي بنطاله الجينز وما زال شعره يقطر ماء بعد الحمام المنعش الذي اخذه للتو عسى ان تصفو افكاره وتنتظم ..

يسير مقتربا من السرير حافي القدمين وصدره عارٍ .. عيناه تنظران باحباط لاكوام الملابس على السرير ... كلها تخص جوري ...

لقد تركت الكثير خلفها ولم تأخذه لبيت والدها ..

استدار ليولي السرير ظهره ثم يفرد ذراعيه ويرمي بجسده للخلف فوق اكوام الملابس

فيغرق بين ألوان و تصاميم لا تنتهي من الفساتين ...

مرهق .. مشوش .. محبط !

وهو من كان يظن انه سيبدأ بالاسهل !

يخدعه غروره ومغامراته القديمة العهد مع النساء انه سيكتشف ذوق زوجته بسهولة ..

خلف جفنيه المغمضين تتراقص صور جوري باثواب متنوعة وألوان لاحصر لها ...

ثوب قصير فضفاض حتى الركبتين .. واخر طويل لكنه يظهر منحنيات جسدها .. يعبس مهند وهو مغمض العينين كيف يسمح لها بارتداء كل هذا ؟!

تغزوه الألوان وتشتته فتتوهج بصيرته في ظلام البصر ..

احمر .. ازرق .. اخضر .. بنفسجي .. اصفر .. كحلي .. اسود .. يا الهي .. لم تترك لوناً واحدا دون ان ترتديه ....!

الشيء الوحيد الذي تأكد منه ان ثقتها بنفسها لا حدود لها وانها لا تخشى ان تجرب كل الألوان والتصاميم ما دامت تروق لها ..

تمتم باحباط متزايد

" ما هو سرك يا جوري .. ما هو لون فستانك الاقرب لك واي تصميم تفضلين ؟! "

ما زال يغمض عينيه لكن قلب بصيرته يتخبط في متاهات الألوان ولا يصل لقرار ..

بيت عائلة جوري ..

(بامكانك ان تغلق عينيك عن اشياء لاتود رؤيتها ، لكن ليس بامكانك ان تغلق قلبك عن اشياء لاترغب ان تشعر بها .. النجم الهوليودي جوني ديب)

لم تكن المرة الاولى التي تقرأ فيها هذه العبارات على لسان النجم العالمي الامريكي ..

لكنها اليوم تقرؤها بإحساس مختلف ..

عيناها لايُعرف لهما قرار كبئر عميق حالك الظلمة .. مجهول التوقعات لمن يدلو بدلوه فيه ...

انها تمشي الطريق حتى آخره .. ولن تتوقف ابدا ولن تضعف او ... تتراجع ...

تلتفت براسها يمينا فتنظر لصغيرتها النائمة جوارها على السرير تحتضن معظم ألعابها ..

تتبسم جوري عفويا وهي تفكر

" انها استحوذاية كأبيها تماماً .."

عادت بوجهها لشاشة الحاسوب المحمول على حجرها ثم .. بنشاط ذهني كامل تعود لعملها.. تاركة قلبها يخوض غمار التجارب فيعيش الفصول الاربعة كلها مجتمعة ..

دون ان تأبه له !

بيت يحيى وحبيبة ..

لقد نامت اخيرا .. بعد ان افرغت الباقي من توترها باسلوب انثوي بحت ...

حالما اخبرته عن رقية انفجرت حبيبة في بكاء شديد مؤكد لايمت لشخصيتها بصلة ، انها هورمونات الحمل التي تلعب دورا كبيرا في هذا الانفعال شبه الهستيري .. و رغم هذا فهي حقا قلقة على اختها الصغرى ..

يلامس يحيى خصلات شعرها فيسمع بقايا شهقات بكاء خافته تصدر عنها ..

يميل بشفتيه يلثم جبينها وهو يهدهدها كما يفعل مع سكينة عندما تحلم بكابوس

" كل شيء بخير .. نامي حبيبتي .."

قالها وهو في داخله قلق ايضا على رقية ..

تلك الفتاة تلعب بالنار حرفياً ..

الامر ليس في علاقتها بذاك الشاب الارعن..

بل يتعداه لشيء يتعلق بها هي ..

هناك شيء معطوب فيها ..

يجعلها لا تدرك معنى الوقوع في الخطأ ..

لاتعترف انها تخطئ ..

حتى وهي تدرك انها تخطئ ..!

انها تسعى لهدفها بغرور احمق ..

وكم يخشى عليها من غرورها و.. اهدافها ..

صباح اليوم التالي .. (الاربعاء)

ما زالت تنظر بعيدا عبر شباكها الجانبي ..

هذه المرة الاولى التي تكون برفقته في سيارته ... لقد اختطفها منذ الصباح الباكر ..

أعد كل الخطط منذ الفجر ليفعل هذا ..
ولدهشته لم تكن رباب غاضبة لانه استخدم امها لتضغط عليها معه حتى لا تذهب للعمل هذا اليوم وتقضيه برفقته ...

حقيقة لم يكن بحاجة للخالة ابتهال ..

لقد كانت رباب مستسلمة ساهمة مرهقة الملامح بشكل واضح ...

اصابعه تتقلص حول مقود سيارته وهو يرمقها بالنظرات المتفحصة ..

لا يرى الا جانب وجهها والحجاب الكحلي يحاوط خدها .. ملابسها بسيطة اليوم وكأنها ارتدتها بدون تفكير ..

بنطال فضفاض كحلي وقميص مورد ما بين الابيض والكحلي والاصفر ..

لم تكن امها راضية عما اختارته من ملابس لكنه لم يأبه .. فكل ما كان يريده .. هي..

ان تكون معه ..

يقود سيارته ببطء في شوارع العاصمة قاصدا مطعما جديدا يبيع افطارا صباحيا طازجا..

قضى ليلته السابقة ساهراً في حال عجيب .. ساعة يضحك بسعادة هبلاء وهو يحدق في السقف وساعة يستبد به الشوق والحاجة للمزيد منها فيجن لهفة لملمس بشرتها و رائحة جلدها وطعم شفتيها فيغمر وجهه بوسادته متولهاً بالذكرى وقبضته تسدد اللكمات لتلك الوسادة ..

وساعة ... يميل بنظراته عبر شباك غرفته المفتوح حيث الستائر تتطاير بخفة النسيم ليحدق في السماء المقمرة .. يسرح ... بعيدا تماما عن قلبه المشتعل وسعادته الهبلاء ويتذكر جملا محددة تطرق جانب عقله المنطقي المتفكر..

(" رباب .. لماذا تريدين دفعي ؟ لماذا لا تريدين الزواج ؟"

" لن تفهمني ..."

" جربي .."

" سيبدو الامر تافهاً بالنسبة اليك .. هناك امور .. لا يمكن .. شرحها .. انها .. نشعرها فقط وتحدد طريقنا الآمن في الحياة ..")

واخيرا نام هنيهة نوما عميقاً قبل ان توقظه إشراقة شمس الصباح وهديل الحمام المتجمع على شباك اسيا ورضا ..

فلم يتردد وهو يقفز من السرير مستجيبا لقرار واحد هذا اليوم .. ان يكون معها ...

ألتفت اليها وهو يركن سيارته فيجدها كما هي .. حلوووووة .. اللعنة كم يراها حلوة وتستحق الاكل بدلا من الافطار ...

قال بصوت أجش وهو يطفئ محرك السيارة

" هيا يا حلوة .. "

بتورد طفيف التفتت اليه قائلة بصوت رخيم يعبر عما يختلجها من مشاعر مربكة

" انا ..مشوشة عبد الرحمن ..مشوشة وتائهة.."

ابتسم في وجهها مشجعاً بالقول الرقيق

" اتركي نفسك لي فقط .. وأنا سأقودك .. لن أدعك تتوهين مني .."

كان ينظر اليها بكل عينيه وكأنه لايشبع منها بينما تبادله النظر غافلة عن اشواقه وهي تقول بمزيد من الارتباك

" لا استطيع فعل هذا بالبساطة التي تنطقها .. ليست طبيعتي .. انت مؤكد .. بتّ تعرفني .. وتعرف اني لا امشي في درب الا اعرف نهايته وادرك كل خطوة اخطوها فيه .."

يرفع يده يشير بسبابته نحوها

" خطواتك نحوي و نهاية الدرب ... هنا ..."

وبمنتصف الجملة يحرك سبابته مشيراً لنفسه ... لقلبه تحديدا ...

ضحكة حلوة خافته مرتعشة أفلتت من بين شفتيها وهي تهمس

" انت لن تكف ...انا في وادي وانتَ في وادي!"

عيناه تلمعان وهو يقول بضحكة

" واديك مقفر بارد بينما الوادي عندي ارضه تشع بالنيران .. تعالي عندي ولن تندمي .."

تتنهد بصمت فيمد يده ليمسك يدها وللحظة تقبّل منها انكماشا قبل ان تسترخي فيتسرخي هو ايضا قائلا بيقين واسلوب مقنع

" رباب .. لماذا تفكرين كثيرا هكذا ؟! استرخي ودعي الامور تمضي .. ما زال هناك شهران او اكثر حتى موعد الزفاف .. فانسي كل شيء عن الزواج الآن .. دعيني ادللك ونقضي اياما حلوة معاً .. الا نستحق انا وانت هذا ما دمنا نستطيع ؟ "

منحته ابتسامة طفولية مست قلبه وهي تقول بتردد وبعض الاقتناع الحذر

" حسن .. سأحاول .."

التفتت ناحية بابها لتفتحه لكنه لم يفلت يدها بل شدها قليلا ليلفت انتباهها قائلا

" قبل ان نبدأ الدلال تستحقين مني اعتذارا .."

عادت بوجهها اليه باستفسار صامت عندما تبسم لها قائلا بعينين مشاكستين

" آسف لاني صدقتك يا كذابة .. رغم ان كذبتك كانت مفضوحة "

عبست ووجهها يحمر وتحاول إفلات يدها من قبضة يده وهي تقول بخجل حانق

" واثق من نفسك انت .. مجرد مغرور ! "

يضحك وهو يشد يدها اكثر ليضع كفها على صدره ثم يقول بنبرة مبحوحة

" انا لا اتكلم عن كذبتك حول مشاعرك نحوي لانك تجيدين الادعاء والكذب فيما يخص قلبك .. انا كنت اتكلم عن كذبة اخرى .. كذبة مفضوحة تماما لمن يملك عقلا ولا يصيبه غباء الغضب والغيرة مثلي .."

للحظة تجمدت رباب وهي تنظر لعينيه ببعض التوتر وقد التقطت ما يقصده فتستكين ملامح عبد الرحمن ليضيف بهدوء

" لقد كانت ..رقية... اليس كذلك ؟ تحمينها كعادتك .."

كان بقمة التركيز مع ملامحها التي تتغير ..

اشفق عليها لانها تبذل المستحيل لحماية

سمعة اختها فتتلعثم بالقول " ارجوك عبد

الرحمن .. الامر ليس ...كما ..تتصور .."

تصمت لحظة وتأخذ نفساً عميقا تجبر نفسها

على استعادة هدوئها لتضيف اخيرا

" انها تبقى رقية ابنة يونس العطار .."

قال باهتمام وجدية كاملة

" رباب .. انا اعرف من هي رقية لكن الامر

لايسلم من الوقوع في اخطاء قد تدمرها "

تبتلع ريقها قبل ان تقول بإيحاء واضح

" نحن.. معها .. فلا تقلق .. كلنا معها .."

ادرك ما ترمي اليه فاطمئن قليلا وهو يتمتم

" ما دامت اسيا تعلم .. اذن هذا يكفي .."

تشعر بالضيق من الموقف برمته وانها بحاجة

ماسة لتحمي اختها من سوء الظن فتقول

باحباط وبعض العجز عن التفسير اكثر

" اعيدها لك .. الامر ليس كما تتصوره.."

ضيق عينيه وللحظة أراد ان يسأل المزيد

عندما سارعت رباب لتقول بنبرة رقيقة

متوسلة " ولاتسأل ارجوك اكثر من هذا .."

ما اجملها وهي تتوسل هكذا ؟!

حلوة .. يا ربي .. حلوة حلوة ..

تنحنح قبل ان يميل قليلا نحوها ويدها ما زالت اسيرة يده وفوق صدره ليقول بهمس شقيّ وهو يرفع يده الاخرى لخده " حسن اعدك ان لا افعل بشرط واحد .. قبلة منك على خدي ها هنا .."

انتزعت يدها من يده وهتفت به بحمرة قانية غزت وجهها " قليل الادب .."

ثم تفتح الباب بحنق وضحكاته تلاحقها ..

اخر العصر ...

في شارع فرعي قريبا من المسرح (المحلي)

هل كان دوماً يضعف امام ضحكاتها المميزة ويتمنى ان لايتوقف عن سماعها ؟!

حسن الان يتمنى لو يخنق تلك الضحكات !

فتح لها باب السيارة لتصعد و هي ما زالت تضحك بينما يكز عبد الرحمن على اسنانه وهو يقول بحنق غيور " كفي عن ضحكاتك هذه الا يكفي انك فضحتينا في المسرح .. الجمهور ترك المسرحية ويلتفت نحوك في كل مرة تضحكين !"

داخل السيارة يرمقها بعبوس حانق بينما هي مستمتعة لابعد حد وعيونها العسلية تتوهجان بالفرح فتقول بذاك الاستمتاع الحيوي

" الممثل الذي أدى دور (الطبّال الضرير) كان مبدعاً .. لقد كاد قلبي يتوقف من شدة الضحك ..."

زمجر عبد الرحمن وهو يشغل السيارة

" اي فتاة انت ! كنت سآخذك لفيلم امريكي رومانسي لممثل مشهور تحبه معظم الفتيات فتصرين على الذهاب الى مسرحية كوميدية محلية هابطة .."

تعانده بالقول " لم تكن هابطة .."

فيرد بعناد مماثل وهو ينطلق بالسيارة

" بل هابطة .."

تعود لضحكاتها تلك التي يتشنج جسده استجابة لها ثم تقول معترفة بمرح " حسن .. هابطة بعض الشيء لكن (الطبال الضرير) امتعنا للغاية .."

لم يحتمل حقاً !

هدر فيها بغيرة عمياء سخيفة " سيفقد الطبّال اكثر من عينيه اذا استمريتِ على ذكره وانت تضحكين هكذا .."

ثم من غيظه مد اصابعه لذراعها فتأوهت هاتفة به " آآه .. لقد قرصتني !"

فيرمقها بنظراته المتشفية وهي تدلك موضع القرصة ويقول " اذن احذري مني .. مستقبلا.."

حديقة بيت العطار .. قرابة الغروب ..

ينظر اليها كيف تتربع على الارض في الحديقة والعلبة الخشبية للعبة (الطاولي) امامها بينما تنظر اليه بنظرات احبها للغاية ..

لقد نجح حقاً في جعلها تسترخي وتعود لطبيعتها .. قضى يوما ممتعا الى اقصى حد مع هذه الفتاة الملونة الروح ..

وكلما اقترح عليها مكاناً اقنعته بسلاسة عجيبة ان يذهبا لمكان آخر ..

يكفي ان ترمش بعينيها العسليتين وتضحك له تلك الضحكات التي تستفزه وتضعفه فيجد نفسه ينفذ كل ما تريد ..

تغيظه وهي تتعامل معه وكأنهما صديقان مقربان يقضيان وقتاً ممتعاً بينما هو يكز على اسنانه انفعالا عاطفيا في كل مرة تنظر اليه بعفوية .. مجرد نظرة بريئة منها اليه تجعله يريد ضرب رأسه بحائط !

رفع حاجبيه وهو ينظر للارض بغير رضا قائلا

" اعتقد اننا انتهينا انك انتِ من تقودين رحلة الدلال لا انا ...؟"

تضحك مرة اخرى ثم تربت على الارض وهي تقول بدعوة تستفزه بسخريتها المشاكسة منه " توقف عن لعب دور الاستاذ الانيق ! تعال واجلس ..لقد فرشت لك الحصيرة على الارض حتى لاتتوسخ ملابسك الغالية .."

تنهد وهو يخلع حذائيه ثم يجلس متربعا قبالتها ليفتح العلبة الخشبية قائلا

" كفى من ثرثرتك المزعجة .. لنرى من سيفوز.. انا سآخذ الحجر الاسود.."

اخذا يرتبان الاحجار المدورة السوداء والبيضاء حسب مكانها الصحيح في اللعبة قبل ان يلتقط كلا واحد منهما نرداً فتقول رباب بتحد ضاحك " ارمي نردك يا استاذ .."

بعد ساعة كانت رباب لاتتوقف عن اغاظته بخساراته المتتالية بينما هو يشرب العصير الذي احضرته له في وقتٍ ما وينظر اليها من فوق حافة القدح الزجاجي ..

قالت رباب وهي تغلق علبة (الطاولي)

" الظلام خيم .. سأذهب لافتح اضاءة الحديقة.."

مد يده ليمنعها النهوض وهو يقول بصوت أجش

" لا .. انا احب الظلام .. معك .."

بنظرة تحذيرية قالت " ان كنت تظن ان الظلمة ستمنحك ما تريد فأنت واهم .."

يضحك بخفة وهو يضع القدح جانبا ثم يبعد العلبة الخشبية الكبيرة ليقترب منها ويقول

" لاتكوني شكوكة هكذا ! انا حقاً احب ظلام الليل .."

ردت رباب وهي تتشنج قليلا لاقترابه

" انا احب النهار .. يمنح الحيوية.."

يبتلع ريقه وهو يتمنى لو يستطيع نزع حجابها عنها لكنه آثر الصبر قليلا حتى لاتهرب بينما يداعبها بالقول

" الا تحبينني قليلا لتحبي الليل من اجلي ؟ "

همست وهي تنوي الهروب " أنا .. سأذهب لاحضار بعض الشاي .."

امسك يدها يمنعها قائلا بنبرة مؤثرة

" ليلة الامس لم أنم وقد ظننت اني سأغفو حالما اضع رأسي على وسادتي ... لكن النوم جافاني ... قضيت الليل بطوله افكر .. افكر بكل ما قلناه .. عن السبب الذي جعلك ترفضيني سابقاً لانك لاتريدين الزواج ."

كان توترها واضحا وهي تقول " ارجوك لاتسأل عن هذا... ارجوك عبد الرحمن .."

رفع يدها لفمه يباغتها بقبلة في باطن كفها جعلتها تذوب وتغرق بخجل يشل ردود افعالها بينما يهمس

" اليوم .. لن اسأل ... لكني سأكلمك عن نفسي ..."

اقترب اكثر منها دون ان يلمسها فيقول بصوت أجش وهو ينظر في عينيها " قبل تسع سنوات كنت أقف في شباك غرفتي ورأيتك في هذه الحديقة مع رقية .. رأيتك تتقافزين بخصلات شعرك المصبوغة بألوان قوس قزح.. المشهد واضح بكل تفاصيله في ذاكرتي .. وكأنه حدث بالامس فقط ..ومنذ ذلك اليوم وانت تتسللين لاحلامي ... جدائلك لم تعتق احلامي .."

عيناها اتسعتا متفاجئة بينما تتذكر ذلك اليوم قبل سنوات عندما كانت تلهو مع رقية ليواصل عبد الرحمن هذره " لم احاول يوماً الاقتراب منك.. حتى بيني وبين نفسي لم أفعلها .. ليس خجلا ولا حتى تحفظا .. لكن .. انا لم أعش مراهقتي بشكل .. صحيح .. كنت .. مسجوناً باحساس مريع .."

بدت مهتمة به حقاً وهي تسأل " لماذا ؟! "

رد ببعض الغموض وهو يطرق بنظراته

" حصلت امور .. قبل رحيل .. حذيفة ... امور صدمتني فيه ثم رحل هو تاركا اياي بمفردي خلف قضبان صلدة تكبت على انفاسي .. كنت فقط في العاشرة عندما رحل .. بعدها عشت لثماني سنوات مسجوناً .."

انفاسها تتسارع وهي تتذكره ..

لقد كانت تطلق عليه لقب (الكائن الكئيب) .. الآن فهمت انه مر بتجربة ما جعلته حزينا جاد الملامح هكذا ...

كان لديها دوماً فكرة مشوشة عن حذيفة في فترة شبابه .. تتذكر ان والدها كان يصفه دوماً بالانحلال والفجور ..

حتى هاجر حذيفة فجأة وانقطعت اخباره لثماني سنوات .. ثماني سنوات كان عبد الرحمن يكبر منطوياً على نفسه ..



هل اكتشف عبد الرحمن أفعال اخيه وصدم به ؟ هل رآه مثلا يرتكب فاحشة ما جعلته ينكمش على نفسه ..

تخيلته وهو صبي في العاشرة يكتشف امرا مروعاً عن حذيفة ..

بقلب موجوع لاجله همست باسمه

" عبد الرحمن .."

تنحنح عبد الرحمن وكأنه يبتلع غصته ليقول بنفس النبرة المؤثرة " حذيفة .. لم يكن اخي فقط يا رباب .. كنتُ متعلقاً به اكثر من باقي اخوتي .. أراه .. البطل الشقي الممتع الذي يثير حماستي .. مثلي الاعلى وطموحي لأكون مثله .."

رفع نظراته اليها اخيرا فيرى حبها له مشعاً دون ارادتها او ادراكها .. يرتجف قلبه استجابة عطشى لها ..فيهمس

" انا لااقول لك كل هذا حتى تخبريني عن اسرارك ... لكني اخبرك لاني اريد فعل هذا .. اريدك اقرب الي .. اريدك ان ترتاحي معي وتعرفي مهما كان ما يؤذيكِ هكذا فأنا سأظل معك فيه .. اشاركك حمله ..."

التمعت عيناها بما يشبه الدموع وهي تحيد بوجهها جانبا هامسة بتحشرج

" الظلام .. بات دامسا .. دعني افتح الاضاءة"

لكنه تشبث بها بهمس حار

" لا.. ابقي جواري .."

بدت غارقة في مشاعر الخجل والارتباك ولا تعرف كيف تتصرف امامه لتتصلب فجأة وهي تشعر باصابعه قرب دبوس حجابها وهمسه قرب اذنها " اخلعي الحجاب .. لن يراك احد في هذه الظلمة.. فقط انا استطيع رؤيتك .."

كانت تريد منعه لكن لم ينتظر الاذن منها ليفتح الحجاب ..

ترتعش والمشاعر تسيطر عليها هامسة

" عبد الرحمن .. انا .."

لم تستطع اتمام كلامها المبعثر بينما يفك عقدة شعرها ويهمس بنبض حار و اصابعه تتلاعب بخصل شعرها المفرود بينما ذراعه الحر تحيط بظهرها " حضن .. حضن واحد يا رباب ... حضن حقيقي .. لاتنكمشي بين ذراعي .. انا احبك... احبك منذ سنوات ..

منذ رأيتك بخصلاتك الملونة كقوس قزح اشرق في حياتي .. وانت .. انت ايضا أحببتني دوما .. اليس كذلك ؟ "

يدها تقاومه بحركات خرقاء وهو يسحبها ببطء حذر لصدره حتى خرجت همستها مرتجفة عندما شعرت بشفتيه تلامسان خط فكها " رحمن ! ..."

لم يصمد تماسكه اكثر فيشدها بقوة وكلها ذائب على صدره هامسا بخشونة

" اجل .. هكذا رباب .. ذائبة كالعسل .."

تلاشى الانتظار وشفتاه تحققان بغيتهما وهما تنالان شفتيها ..

التحام ارتجف له كل جسده كما حلم به دوما .. كما حلم ان يكون معها دوما ..

فقد صوابه وهو يقبلها بجوع ويعتصرها بكل الحرمان الذي عاناه ...

لايعرف كيف جاء صوتها المرتجف

" رحمن .. توقف .. امي .. ستأتي ..."

همسها المرتجف جعله يفيق .. يعاني وهو يجبر نفسه على الابتعاد .. انفاسه تهدر فوق خديها هامسا بصوت مبحوح يداعبها بالقول

" الآن تقولين توقف ؟! ربما يجب ان ننادي الخالة ابتهال لاشكوها ابنتها التي تغويني في ظلام الليل وتستغل براءتي ! "

دفعته ليحررها ضاحكا بخفوت فتهرب منه وهو يراقب خطواتها المترنحة الهاربة واصابعها تلملم شعرها ..

نظر للسماء المظلمة وهو يشعر بالحرارة التي تنبعث منه توشك ان تنيرها ...

تمتم بارتجاف النشوى وهو يغمض عينيه

" يا متعوس يا عبد الرحمن .. كم ليلة أخرى ستقضيها بهذه الحالة ؟! تعد النجوم كأبله متيم .."



اخر الليل (ملحق حذيفة وخلود)

تكتم بكاءها كما تفعل كل يوم وهي تنام جواره بينما يوليها ظهره ..

قلبها يوجعها من جفائه ... تريده ان يعود قريباً منها .. يحتضنها بخشونته ويغرق بقبلاته عند عنقها .. تريده ان يغيظها ويسخر منها ..تريده .. ان يحبها ... لقد اشتاقت لرائحته عندما يأخذها في احضانه ..

استدارت بحذر وهي تدرك انه غافٍ منذ فترة..

لتفعل ما تفعله كل ليلة منذ خصامهما الاخير..

اقتربت بجسدها شيئا فشيئا حتى لاتوقظه حركتها وهي تحمد ربها ان نومه ثقيل..

اخيرا التصقت بظهره ويدها ارتفعت حتى حطت بحذر على خصره .. تتشمم ظهره بجزع.. لكن رائحة (احتضانه) مختلفة تماما.. عندما يحتضنها على صدره تشعر انها لو ماتت في تلك اللحظة فلن تطلب المزيد ..

تأوه خافت صدر منها وشفتاها تستقران على ظهره فوق بلوزته البيتية .. وعندها فقط نامت ودموعها جافة على خديها ..

لم تكن (الهبلاء) تعرف انه مستيقظ ويشعر بكل ما تفعله كل ليلة ويبذل جهدا جبارا حتى لايضعف ويستدير اليها ..

الخميس .. ظهراً

قرأت جوري رسالته مرة جديدة وداخلها ..
محبط!

ترجلت من سيارتها ثم تضع الهاتف في
حقيبتها لتتحرك ناحية المبنى وهي تستعيد
كلماته المختصرة (المحبطة) ..

(ما طلبته .. تجدينه في الشقة ..)

ضغطت زر المصعد وملامح وجهها تكشف
احساسها بالضيق ..

لم يكن هذا ما ارادته ..

ليس هذا ابدا ...

يأخذها المصعد للطابق المطلوب وهي تتخيل
ما ينتظرها هناك ..

فستان بلون براق و عطر جديد فاخر وكتاب
ربما فلسفي و .. علبة كبيرة من المثلجات
بالشيكولاته ...

غادرت المصعد متجهة للشقة وهي تخرج
المفتاح ...

حالما فتحت الباب داهمتها رائحة طعام
مميزة.. وقبل ان تستوعب الرائحة خرجت
اليها ابنتها من احدى الغرف تركض نحوها..

تفاجأت جوري وهي ترفع صغيرتها وتقول

" قطرتي الشقية .. ماذا تفعلين هنا ؟ ظننتك
مع جدك طارق .."

جاء صوت مهند من عند باب المطبخ

" انا احضرتها .."

دبّت حيويۃ فيها وهي تنظر لوقفته المائلۃ المستندة على اطار الباب بينما يمنح عينيه حق التفرس فيها .. في كل منحنى من جسدها وكأنه يستكشف مقاسها ..

لم تعرف ما تنتظره منه بينما تنزل صغيرتها ارضاً وتتقدم اليه تتشمم بطريقۃ ساخرة وتتساءل " ماهذا ؟ كباب مشوي ؟! "

فيبتسم ثم يتقدم منها ودون مقدمات ينحني ليطبع قبلۃ دافئۃ على خدها ويقول بصوت أجش " ومن افضل المطاعم الشعبيۃ .."

صمدت امام اغوائه المؤثر ...وصمدت امام ردة فعلها كامرأة لتتحرك بخطوات سلسلۃ ترمي حقيبتها على الاريكۃ وتقول بتفكه بارد متعمد " يبدو انك عجزت عن تحقيق طلبي فتحاول رشوتي بطعام لذيذ وتلتمس قبولي بوجود ابنتي .. "

ثم التفتت اليه تستند على ظهر الاريكۃ مضيفۃ " خسارة .. انت لم تحاول ان تطبخ شيئا بنفسك .. الا تسعى لارضائي ولو بالمحاولۃ ؟ "

عيناه على شفتيها وهو يرد " لن ادّعي اني فكرت حتى ان افعلها .. والا .. لن أكون مهند الذي تعرفين .. كما اني واثق انك لا تهتمين ان طبخت لك ام لا ..لستِ هذا النوع ولا انا.."

تصمت للحظات بغموضها الساحر وهو يرفع نظراته لعينيها ثم تسأله " اين طلبي ؟ هل سأجده في غرفة النوم مثلا ؟ "

كانت لحظة لا توصف بالنسبة اليه ليقدم على مخاطرة صعبة كهذه قد تكلفه خسارتها .. قال وهو يقترب منها

" ليس لك لون محدد ولا تصميم مفضل .. عطرك الشخصيّ تحبين ان تغيرينه باستمرار لكنك ... تختارين عطر البخور لي ..! عندما تكونين ... معي .."

يقف امامها مباشرة لا يفصله عنها الا بضع سنتيمترات يحاول بيأس ان يسبر بحور غموضها دون ان يتمكن حتى من تخطي الشاطئ !

ابتسامة مغرية شقت شفتيها وهي تستند بكفها على ظهر الاريكة ترمقه بنظرة متسلية تعجبه .. فيرفع يده يمرر ظاهر اصابعه على خدها الابيض هامسا

" هل اكتشفتِ انه يثيرني جدا فتختارينه لهذا السبب ؟"

ببطء رفعت يدها لتزيح ملامسة اصابعه عن بشرتها بينما تسبل اهدابها وتقول بصوت رخيم " وماذا بعد ؟ "

يبتلع ريقه وهو يقول بصوت هادئ قدر الامكان

" تقرأين كل انواع الكتب .. تقرأين في السياسة والاقتصاد كما تقرأين في الحب والغزل .. لم استطع ان اعرف مؤلفا واحدا تفضلينه على الاخر في اي مجال ..."

صمت لحظة وما زالت لاترفع نظراتها اليه بينما شد انتباهه كيف تتمايل قدمها اليسرى على كعبها العالي نسبياً فيضيف منجذبا لحركة قدمها تلك

" نكهة المثلجات ... كانت سر الاسرار الذي لم أصل اليه .. استعصى عليّ اكثر من الجميع.. فأحضرت ما أحبه انا وابنتي ... بنكهة المانجو ..."

عندها فقط رفعت نظراتها تنظر اليه بابتسامة ونظرة شبه موبخة على (انانيته الصبيانية) ..

فيقول بابتسامة رجولية جذابة

" آسف لا أقاوم ارضاء نفسي عندما اعجز عن ارضاء الاخرين ..."

اعتدلت جوري بقامتها لتقف بانتصاب وشموخ.. وبسبب كعبها العالي يكاد مستوى رأسها يقارب مستوى رأسه لتسأل باختصار

" اذن .. اين هو طلبي ؟"

فيرد ببعض الثقة " لايام شعرت بالتوهان وانا عاجز تماما عن تخمين لونك المفضل ومقاس فستانك وعطرك الاثير وكتابك المقرب والنكهة التي تحبين من المثلجات .. والبارحة فقط جاءني ألهام وحدس .."

بدت نظراتها مركزة تماما فيما سيقوله ليكمل مهند " طلباتك كانت لتصحيح الاخطاء التي ارتكبتها في حقك .. والخطأ هذه المرة .. ليس لاني لا اعرف .. فانت لاتتوقعين هذا مني يوما .. لانك امرأة (غير متوقعة) وتحبين ان اراك هكذا .. الخطأ الذي ارتكبته لاني لم احاول يوماً ان اعرف .. ليس ان اعرف ذوقك باللبس والاكل وانما .. ان اعرفك انت .. اليس كذلك ؟"

شيء ما ألتمع في عينيها .. شيء ضرب قلبه بمقتل !

ثم تحركت بتمايل انثوي وهو يكاد يتحرك مع كل ميل منها يمينا ويسارا لتقول اخيراً

" اشعر بالجوع حقاً .. سأنادي قطر الندى حتى نأكل قبل ان يحين موعد المغادرة .."

اغمض عينيه وفي صدره تجيش المشاعر..

لقد نجح هذه المرة ...

لكن .. الامر اصعب بكثير مما يتخيله..

جوري ليست امرأة سهلة على الاطلاق ..

و كلما اقترب منها خطوة يشعر انه يبتعد خطوتين في نفس الوقت !

الجمعة ... صباحا...حي الشيخ

تشبثت بعباءتها وهي تقف في باب شقتها تنظر اليه بوجل .. لم تعرفه لوهلة عندما فتحت له الباب .. بدا (رغم نظافته) مرعبا اكثر وقد برزت الندب على وجهه ..

قال ساخرا وعيناه لاتخفيان نظرة الرغبة الحارقة فيها " ألن تعلقي بشيء .. لقد حلقت واغتسلت في حمام السوق و تعطرت لاجلك .. فهذه ستكون ليلتنا الاولى .."

شحب وجهها وانخرس لسانها كمن أتاه حكم الاعدام .. فيعلق تحسين بنبرة متملكة تجعلها تشعر بالنفور والغثيان

" اليوم عند المغرب سيأتي شيخ الجامع ويعقد قراننا يا حُسنا.."

أرخت جفنيها لتخفي دموع القهر واطبقت شفتيها تكتم عبرات البكاء ليواصل تحسين كلامه غير مبالٍ بصمتها " سآخذك للسوق الكبير .. اريد ان اشتري لك .. شيئا .. بل كل الاشياء التي تريدينها .."

حالما قال السوق الكبير رفعت عينيها اليه وسالت دمعة تحبسها على خدها بينما تهتف بأمل مفضوح " اجل اجل .. اريد ان نذهب للسوق الكبير .. اريد .. اريد خاتما ذهبيا .."

عيناه المخيفتان اتسعتا قليلا فشعرت ان حماستها المفرطة ربما اثارت ريبته ..

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تضيف بجزع

" خاتما بسيطا فقط .. للزواج ..."

اطرق تحسين بنظراته ثم أخرج سيجارة ملفوفة من جيب قميصه فيشعلها ليدخنها .. رائحة الدخان منفرة بعض الشيء فادركت حسناء بقرف انها ليست سيجارة عادية بينما ينفخ تحسين ذاك الدخان في وجهها ليضحك عليها وهي تسعل ثم يقول بنبرة غريبة " سيكون لك .. خاتم وخلخال .. خلخال يرن في كاحلك .."

ثم يمد يده الاخرى ويمسك رأسها من الخلف بخشونة هادرا امام وجهها

" لااريدك ان تخلعيه ابدا .."

اخذت تهز رأسها تكتم انفعالاتها جهد الامكان وهي تقول له " كما تشاء .. كما تشاء .. امهلني خمس دقائق استعد .. ثم .. نذهب على الفور ..."

ابتسامة اغرب من نظراته التمعت على وجهه بينما يقول ساخرا

" لم اتخيلك محبة للذهب هكذا ! لكنك تظلين امرأة .. هيا اذهبي وانا بانتظارك هنا "

اغلقت حسناء الباب وحالما فعلت تلاشت ابتسامته وتطايرت حمم الغضب من عينيه ..

الفصل العشرون

العشق ... ما العشق ....؟!

انه التسرب بدهاء وخبث لخلايا الروح ..

استعمار وحشي متغطرس لتلك الخلايا حتى

يلتحم بها ويصبح حقيقة واقعة...

لا مفر منها ولا .. رحيل..

على كرسي مريح في المطبخ تحتسي جوري

قهوتها الصباحية بتلذذ .. تحاوط الفنجان

باصابع يدها اليمنى بينما اصابع اليد الاخرى

تختار العبث بخصل شعرها الداكن المنسابة

على كتفها ...

تضع ساقا على ساق فيرتفع جلبابها البيتي

الازرق كاشفا عن بياض ناصع يثير حسد

فتيات البلد ...

بياض لم يقدره الرجل الوحيد الذي ملكه..!

عيناها تشعان بزئير غاضب لايخلو من القسوة

و .. الرضا ...

اجل ... تتكاتف مشاعر القسوة مع الغضب

لتشكل الكثير مما يدور برأسها وتنفذه

حرفياً خطوة بخطوة فتحصد مع كل خطوة

احساسا عارماً بالرضا ...

كلما نظرت لعينيه ورأت فيهما ذاك العشق

يستعمره تنتفض بالنشوى والرضا ...

انه لا يشعر او ربما يشعر وراض هو الآخر بمصيره المجهول معها ...

لا يهم .. لم يعد يهم ..

تبتسم وشفتاها ترتعشان بينما تهمس

" تقبل قدرك يا مهند كما تقبلت قدري .."

عادت لتحتسي قهوتها بينما يرن هاتفها الملقى قريباً منها معلناً عن وصول رسالة نصية ..

التقطت الهاتف وهي تضع فنجانها جانبا ولم تكون بحاجة للشك انه لم يكن الا مهند

(هل (الكباب المشوي) كان رشوة كفاية حتى تعفيني من الطلب التالي ؟)

ليته يعرف !

ليته يعرف ان نجاحه في الطلب الثاني وادراكه لغايتها منه قد اثر فيها فعلا ..

لو كان احضر لها فستانا او كتاباً لكانت أنهت كل شيء بالامس يأسا من الوصول لما تريده منه .. لكنه نجح بإبهار ! ابهرها بكل معنى الكلمة بنجاحه الساحق ..

الآن .. هل حان وقت الطلب الجديد ؟

عضت طارف شفتها السفلى قبل ان تلتمع عيناها واصابعها تطبع ....

يمسك فستانا من فساتينها في قبضة يده .. اصابعه تتحسس القماش وعيناه تلتهمان التفاصيل والخطوط ..

خيالاته ترسمها وهي ترتدي الفستان وتشغل

بانوثتها منحنياته ..

لا شك ان رجولته تشتاقها حد اليأس..

لكن الامر أبعد من هذا .. اخطر من هذا ..

لقد أكتشف ان قلبه يدمنها ...

روحه تدمنها ..

احساس جديد لا يصدق حتى اللحظة انه

قادر على الشعور به ...

تن تن تن .. وصلت رسالة .....

(اريدك ان ... تمتنع عن رؤيتي لشهر كامل..

لاتحاول حتى النظر الي من بعيد .. لاتهاتفني

و لا تراسلني ..)

أطلق نفحة هواء حار من فمه وهو يستلقي

بظهره على السرير ...

اغمض عينيه يستجمع افكاره ..

لم يصبه (الادمان) بالغباء لهذا الحد...

انها تلعب به وتلاعبه ..

لقد عرف الكثير من النساء ويستطيع ان يميز

رائحة مكرهن وكيدهن ...

حتى وإن كانت امرأة متفردة غامضة كجوري

الا ان رائحة المكر النسائي تبقى واحدة ..

ان يقع ويقع ويقع ... يشعر انه يتهاوى في وادٍ

سحيق اسمه (جوري) ...

ويراها تنظر اليه من بعيد راضية وتبتسم ..

الفستان ما زال في قبضته فيحرك يده ليصل بالفستان لأنفه يتشممه هامسا بصوت أجش يفيض بالحيرة و .. الوجل !

" ماذا ستفعلين بي يا سيدة المكر ..؟"

بيت الصائغ ... المطبخ

بيت الصائغ هادئ صباحاً مما جعلها اقل توترا..

تمسك بدلة القهوة لتضعها على النار ..

تغمض عينيها وهي تشعر بنار اخرى ذي خيال ضخم تقف خلفها مباشرة ..

يهمس لها واصابعه تسرح متمهلة على طول ذراعها " اخلعي حجابك .."

تعانده وهي في قمة الضعف امامه لتقول بعبوس وهي تفتح عينيها وتحدق في القهوة

" اخوتك قد يدخلون في اية لحظة .. أم تراك نسيت ان لديك ثلاث اخوة رجال يحجبون ضوء الشمس .."

يضحك وصدى ضحكاته تملؤها نشوى وفرح رغماً عن أنف خجلها منه وتوترها من مغازلاته الجريئة التي لاتنتهي .. ليقول بعدها

" لو سمعتِ الكلام يا قرفة لكنت الآن تعدين قهوتي في مطبخنا انا وانت .. وبحريتك الكاملة في جناحنا الخاص .."

لايهزم خجلها الا النقار معه والعناد و الجدل و.. " انه مطبخك وجناحك فقط .. لاتضف صفة الجمع بيني وبينك .."

كانت قد ابعدت اصابعه عن ذراعها والتفتت اليه تدفعه بقبضتيها في صدره ليبتعد قليلا عنها ..

ابتلعت ريقها وهي تنظر لعينيه ...

لقد باتت تحلم بهما ! ليلة الامس حلمت بالاعلان الذي صممته حبيبة لدار العطار للازياء .. وعيناه في الاعلان تلمعان بالشقاوة والعشق كما تلمعان الآن في الواقع ...

يا الهي .. الامور كلها خرجت من بين يديها .. كل شيء بات مشوشا مبهجا مفعما بمشاعر مجنونة مشعة تطغى على كل المشاعر السلبية التي سكنتها لأعوام ..

تتمتم في سرها بجزع

(ورطتك كبيرة يا رباب فأين المفر ؟! انت تغرقين للقاع وهو يغرق معك ..)

عادت اصابعه لتتسلل الى ذراعها تلامسها وهو يقول بصوت أجش

" وان يكن مطبخي وجناحي .. المهم انك ستكونين على راحتك فيه .."

فترد عليه بلؤم

" وانت لن تدخر جهدك لـ(اخذ راحتك) .."

ثم تعاود الالتفات لدلة القهوة وتبدأ بسكبها في الفنجانين الصغيرين لتسمعه يقول بتنهيدة خافته " من حقي ان أخذ تعويضا .. يكفي ليلة الامس المحبطة ..! "

تكتم ضحكتها وهي ترفع الفنجان لتلتفت اليه وتقدمه وهي تتساءل ببراءة

" ولماذا محبطة ؟! كان عشاء عائليا حلوا"

اخذ منها الفنجان وسار معها حتى مائدة الطعام ليسحب كرسيا ويجلس عليه بينما هي تفعل المثل فتجلس جواره بأريحية عفوية ..

يناظرها بتأنيب وهي ترتشف من فنجانها قائلا بما يعبر عن نظراته تلك

" اجل انت قضيته تضحكين مع حبيبة تاركة اياي لاضطهاد ابنتها سكينة التي تكرهني لسبب مجهول .. و.. لطرافة زوجها الثقيل يحيى الذي يجد في مراقبتنا مادة للتندر ..! "

تخفي ابتسامتها بالفنجان وهي تعلق ببساطة

" انت تعاديه .. اعترف بهذا .."

يكز على اسنانه وهو يرد بغيظ

" اجل اعاديه .. وسأظل أفعل حتى يكف عن مناداتك بعسلية .."

ارتفع حاجبا رباب وهي تتساءل

" هل سمعته عندما همس بها ؟! "

يعقد حاجبيه الكثيفين بشدة وللحظة اوشكت رباب ان تنفجر ضاحكة خاصة وهو يتبعها بتكشيرة شريرة قائلا من بين اسنانه

" وهل همسها فعلا ؟! همسها قرب اذنك لكنه يعلم عن يقين ان همسته وصلتني .. انه يضرب على الوتر الحساس عندي عند عمد .. "

تطبق فمها وهي تعض شفتيها الاثنتين تمنع ضحكتها للحظات فقط لكنها لم تستطع الصمود لتنفجر ضحكتها الرنانة المشعة وهو يحدق فيها كالاهبل وقد تلاشى عبوسه وغيظه وحنقه وكل شيء الا سعادته العارمة ونشوته لوجودها اخيرا قربه ...

عندما يتم العرس سيخطفها بعيدا لشهر كامل .. فقط عليه الصبر على ما ابتلاه رب العباد مع هذه الفتاة العنيدة الصلبة التي ما زالت تقاومه .. حتى وان كانت مقاومة هشة وتكاد تذوب امامه كلما اقترب منها .. تبقى تلك المقاومة كرماد مخادع اي هبة هواء ستنفخ اللهب فيه وتشعله ...

مدّ كفه ليحاوط كفها المستريح على سطح المائدة فيرفعه لفمه ويلثم باطنه هامساً بصوت مبحوح " كل هذا لا يهم .. المهم اني لم اختل بك لحظة واحدة ليلة الامس .. وهذا ... كان فوق احتمالي ... "



ترتعش كفها بلمسة شفتيه الدافئتين فتحاول سحبها وهو يمنعها يتمادى بقبلاته حتى معصمها ليقبل نبض قلبها المتسارع هناك ..

تحاول الادعاء بالقوة والسيطرة وهي تقول بتلعثم ما بين ارتباك وتوبيخ

" وها قد .. ازعجتني منذ الصباح الباكر وكأي طفل مدلل تجرجرني لأعد... لك القهوة .. وامي... امي بابتسامتها الراضية المغيظة من الاذن للاذن تدفعني... عبر باب بيتنا نحو بيتكم ! وكأنها لاتطيق صبراً لـ (كنسي) خارج بيتها ..."

يضحك بارتعاش خافت وهو يلثم ابهامها هامسا " انا الابن المدلل حتى لخالتي ابتهال"

ما زال يمسك بيدها ليحتجزها فوق سطح المائدة ثم يمد يده الحرة ليلتقط فنجانه ويرتشف منه بتلذذ يغيظها فيقول بمرح

" قهوة رائعة .. لكن خالتي ابتهال تفوقك بلذتها.."

كانت تعرف انه يمزح ويناغشها فتقول بغيظ " لا افهم ما تفعله معها لتجعلها حليفتك دائما وتدللك بتنفيذ رغباتك ؟! "

غمزها وهو يرد عليها بغرور مشاكس " ماذا افعل اذا كنت محبوبا من صغري ؟! وما علي الا ان اذكرها فقط بحقيقة اني ذاك الطفل المحبوب الذي لايقاوم وكانت هي تحمله يوماً بين ذراعيها .. ثم .. اضيف بعض (البهارات)

كيف اني كنت متعلقاً بها على وجه الخصوص واحيانا افضلها على امي .. "

تهز رأسها باحباط قائلة " انك كرقية تماما، مخادعان تسحرانها عن عمد لتحقق لكما ما تريدان متغاضية عن مبادئها الراسخة .."

تساءل وهو يعض شفته السفلى مبتسما

" اي مبادئ ؟!"

نفثت رباب نفسا من أنفها بمزيد من الغيظ وهي ترد عليها بعينيها اللامعتين وتعدد على اصابعها الرشيقة " اخوك رضا بقدره العالي لم يختل باسيا الا يوم العرس وقد كان يوم عقد قرانهما .. اما يحيى ورغم اصرار امي على عقد القران قبل الزفاف بفترة حتى يجهزان البيت لم تكن ترضى بخروجه مع حبيبة بمفردهما الا بشق الانفس .."

يهز كتفيه وهو يقول بلؤم

" معها حق .. يحيى لا يؤتمن .."

تعقد حاجبيها وهي تناقره

" وانت الذي يؤتمن ؟! "

فيرمش بعينيه ويقترب من وجهها حتى لفحته انفاسها هامساً لعينيها المرتبكتين " مؤكد ! انظري في عيني سترين انهارا وينابيعا من البراءة تتدفق .."

تراخى جفناه قليلا ونظراته تنحدر لشفتيها وقبل ان تبتعد سمعت صوت باب داخلي يفتح ثم سعال رجولي خشن ..

ابتعد عبد الرحمن متأففا وهو يهمس بحنق

" انه حذيفة .."

كان خداها يشعان بالحمرة وهي تتلاهى بشرب باقي قهوتها التي بردت بينما خطوات حذيفة تقترب من المطبخ لتسمع صوته يقول بنبرة متسلية " صباح الخير للعروسين .."

شَرقت رباب بقهوتها فسعلت قليلا قبل ان ترد عليه بخجل فظيع " صـ..صباح .. الخير .."

لم تعرف هل يفترض ان تقف او تظل جالسة؟!

هل تعرض عليه اعداد القهوة ام تغلق فمها ؟!

اللعنة كل هذا الحرج بسبب هذا الطفل المدلل ... المتأنق ربما حتى في سريره !

يا ربي ما هذا الاحراج ؟!

تحرك حذيفة ناحية باب المطبخ الخارجي وهو يسأل بنبرة بدت غريبة على مسامع عبد الرحمن " كيف كان نوم امي بالامس ؟ خلود قالت انها لم تكن بخير وانك قررت المبيت جوارها "

وقف عبد الرحمن ليتبع أخاه وهو يرد " نعم .. لم تكن مرتاحة ثم استيقظت فجرا وصلينا معاً وثرثرنا حتى عادت للنوم قبل ساعة فقط.. اذهب اليها فربما تجدها مستيقظة .."

للحظة قست ملامح حذيفة وخرجت بعض القسوة في نبرته وهو يقول " لا ... عندما أعود ظهرا سأكلمها .. لدي ما اقوله لها .."

فتح حذيفة الباب وهو يودع رباب بتلويحة من يده ثم خرج وعبد الرحمن ما زال يتبعه للمرآب ويسأله بفضول واستغراب وحذيفة يفتح باب المرآب " هل ستخرج حذيفة ؟!"

رد حذيفة وهو يعود لسيارته القديمة التي يصر على عدم تغييرها من سنوات فيفتح باب السائق وهو يرد " نعم .. ذاهب للمعمل .."

بدى عبد الرحمن محتارا عابساً بفضول وهو يقول لاخيه " لكن... ليس من عادتك ! حتى خلود لا تبدو على طبيعتها طوال الاسبوع الماضي.."

جلس حذيفة على كرسيه وهو يقول بنبرة قاطعة " لاتتدخل .."

امسك عبد الرحمن باب السيارة يمنع حذيفة من اغلاقها ويسأله بمزيد من الفضول

" هل انتما متخاصمان ؟! "

بحركة قوية مفاجئة سحب حذيفة الباب منه ليغلقها فأفلتها عبد الرحمن بسرعة حتى لا يؤذي يده بينما يخفض حذيفة الشباك ويقول له بابتسامة متسلية " اذهب لعروسك يا ابن والدي واهتم بشؤونكما ..."

ثم شغل محرك السيارة ليضيف بصوت خافت ساخر " و ... خفف من هجومك العاطفي قليلا.. لا نريد مزيدا من الفضائح في الحي .. كما اننا للتو تنفسنا الصعداء لانها رضيت اخيراً بمجنون عصبي المزاج مثلك .."

عينا عبد الرحمن شردتا قليلا ناحية المطبخ فيلمح هيئة رباب الجالسة على كرسيها منحنية الرأس بخجل وهي ترتشف قهوتها ..

اجل .. لقد تنفس الصعداء لانه اجبرها على الرضا .. لكنه يجب ان يعترف خلف كل سعادته ما زال .. خائفا !

ما زال يشعر ان شيئا ما غير محسوس سينفجر في وجهه دون سابق انذار او توقع ...

فقط لو يعرف ماهية ذاك الشيء كي يكون مستعداً له ...

" ما زالت تقاوم اليس كذلك ؟"

جاء صوت حذيفة ليخرجه من شروده ويعكس افكاره في ذات الوقت ..

فيرد عبد الرحمن بعبوس مفكر

" ولا تخبرني بالسبب .."

حرك حذيفة منظم السرع ليستعد للتحرك للخلف بسيارته قبل ان يقول بثقة تتخللها السخرية المرحة

" ستفعل في الوقت المناسب .. ما دمت قريباً منها طوال الوقت وتطبق على انفاسها هكذا ستأتي اللحظة التي تكشف سريرتها امامك.. لن تستطيع الاخفاء على الدوام .."

لوح حذيفة وهو يرجع بسيارته للخلف تاركاً عبد الرحمن بشعور غير مريح ...

نعم يريد ان يعرف ... لكن قلبه يخبره انه ان عرف قد يقطع الخيط الذي يربطه برباب ..

في السوق الكبير

لاتصدق انها خدعته بسهولة هكذا !

جعلته يدخل احدى محال الصاغة المتواضعين مدعية انها ستلحق به خلال لحظات لانها تريد النظر لما هو معروض في الواجهة اولا وحالما دخل وانشغل مع البائع سارعت لتهرول بين جموع المارة تضيع بينهم وتدخل بين حارات السوق بشكل عشوائي لتمحو اثرها من ان يتبعها تحسين ..

كانت تلهث وهي تنظر خلفها لتتأكد انها اضاعته ولا يلحق بها فاستندت بيدها على احد الجدران تستعيد بعض انفاسها ثم لمحت زير ماء كبير في احدى الزوايا القريبة منها ليشرب منها المارون من مرتادي السوق ...

اقتربت حتى وصلت اليه و التقطت القدح المعدني الذي يوضع فوقه فترفع غطاء الزير وتغمر القدح فيه وترفعه حتى تدخله بين طرفي عباءتها فتصل لفمها وتروي عطشها ...

اعادت الغطاء لمكانه ووضعت القدح فوقه كما كان ثم تحركت وهي تستعيد حيويتها وتفكر كيف ستصل لمبتغاها ..

رأت احد الحمالين الذين يدفعون العربات الخشبية فنادته على عجل وهي تحاول التمييز كم بعدت عن سوق صاغة الذهب ..

وقف الحمال الذي يبدو ناهز الاربعين
وسيجارته بطارف فمه ينظر اليها بلامبالاة
تعبر عن لامبالاته بكل ما حوله فسألها
بتضجر " هل ناديتني ؟! هل لديك حمولة ؟
انا اخذ (.....) دينار لقاء نقلها للشارع العام "

ابتلعت حسناء ريقها فتسأل برجاء " لا حمولة
لدي يا اخي .. انا احتاج فقط ان تدلني طريقاً
مختصرا يوصلني لمحل الحاج رضا الصائغ ..
انه موجود في محله اليس كذلك ؟ احتاجه
لأمر عاجل .."

عوّج الرجل فمه بامتعاض والسيجارة تتأرجح
بين شفتيه قبل ان يرد عليها بملل

" ظننتك زبونة نستفتح بها صباح الجمعة !
حسن .. ابو جعفر لا يأتي يوم الجمعة .. لكن
مساعده يفتح المحل منذ الصباح الباكر .."

شعرت بالغباء لانها نسيت تماما ان اليوم هو
الجمعة ! اوشكت الدموع التي تغلبها عندما
تماسكت في اخر لحظة لتسأله بعزم

" باللّه عليك .. دلّني لطريق مختصر للشارع
العام .. اريد ان أخذ سيارة اجرة .."

اشار لها الرجل يمينا وشمالا لتتحرك حسناء
على وصفه وهي تشكره .. ثم سبقته
الخطوات المهرولة وهو يناظرها بلامبالاة
ليعود لدفع عربته ..

لم يشعر الحمّال الا بكف غليظ تهبط على كتفه وصوت رجل خشن يأتيه من الخلف يسأله بنبرة مخيفة

" عمّ كانت تسألك المرأة ؟"

عند باب بيت العطار ...

يعاندها وهو يتشبث بحافة الباب الحديدي للمرآب فتحاول اغلاقه في وجهه وهو يمنعها ويدفع الباب فتنفث بغضب متصنع بينما يبتسم هو ابتسامة ذائبة ويتطلع لوجهها قائلا بعتب العاشقين

" لماذا لم تصعدي معي للجناح ؟ كنتِ ستحبينه .. المرة السابقة لم ترينه بتمعن وتركيز .. لقد نظفته بنفسي ليلة الامس وعطرته .. لكن كل تعبي ذهب هباء وانت تلازمين امي في غرفتها تحكين لها عن فساتينك ! "

بعينين نصف مغلقتين وبنبرة تدعي الجدية قالت له " اذهب للمسجد يا عبد الرحمن .. لقد تأخرت على صلاة الجمعة .. اخواك هناك منذ نصف ساعة .."

مال قليلا ناحيتها فيهمس بخشونة

" لئيمة خبيثة ! لا اعرف فتاة تطرد زوجها بهذه القسوة .."

أجفل وتورد وجهه قليلا عندما أتاه صوت اسيا فجأة من الخلف وهي تقول له " فتاتك على حق يا صغير الصائغ .. لن تجد مكانا تصلي فيه داخل الجامع وستضطر للصلاة مع الصفوف المتأخرة الممتدة لخارج اسواره ... "

تنحنح وهي يلقي السلام على اسيا بينما يلاعب يد الصغير كاظم الذي تحمله اسيا بين ذراعيها فيداري على حرجه ...

تكتم رباب ضحكة مستمتعة بينما لاتكتم عيناه نظرات متوعدة ...

صوت سيارة قادمة جعلت الثلاثة يلتفتون عفوياً ناحيتها فيرون سيارة رحاب الصغيرة قادمة لتركن امام بيتها المجاور لبيت الصائغ فتتبسم اسيا بمحبة وهي تتمتم

" هذه رحاب .. لم أرها منذ فترة .. يبدو انها كانت في الخارج مع سوسو .."

تطلع عبد الرحمن لرحاب وسوسو تجلس جوارها ثم تلتقط عيناه سوادا ما في الخلف بينما يتكلم بتلقائية " لقد اخذت سوسو لكشك الحاج ابو ناجي لتبتاع لها فرشاة للتلوين و بعض الاصباغ الزيتية التي تحتاجها في اعمال المدرسة .."

كان يضيق عينيه ليحاول ان يعرف من يلتحف بالسواد هكذا في المقعد الخلفي ليأتي سؤال اسيا يعبر عن تساؤله



" من هذه المرأة بالعباءة السوداء ؟"

تمتم عبد الرحمن " لا اعرف ..."

ترجلت رحاب تتبعها سوسو التي اخذت تركض لتدخل بيت الصائغ الكبير وهي تلوح لهم بابتهاجها المعتاد ثم تلتفت رحاب لتفتح الباب للمرأة المجهولة وبدت وكأنها تقنعها بأمر ما ...

لم تمر الا بضع لحظات فتقترب رحاب منهم يتبعها خيال امرأة ترتدي العباءة السوداء التقليدية وتخفيها من قمة رأسها حتى اخمص قدميها .. فقط شق صغير موارب يظهر منه جزء من احدى عينيها لتتلمس طريقها وهي تسير بتعثر وارتباك واضح ..

ألقت رحاب السلام " السلام عليكم جميعا .."

فيردون عليها والفضول يشع من نظراتهم لتفسر لهم رحاب بإشفاق واضح وهي توجه كلامها لاسيا " يا ام جعفر .. هذه المرأة وجدتها على بعد شارعين من هنا تبحث عن بيت زوجك .. قالت انها تريده في أمر عاجل ومهم لا يحتمل التأخير .. قالت انها مسألة حياة او موت ..."

اخيرا خرج صوت المرأة ضعيفاً وبدت منهكة للغاية " السلام .. عليكم ..."

تقدمت اسيا لتبادر بالقول اللطيف وقد اخذتها الشفقة لحالتها

" وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..
اهلا بك اختي تفضلي و ادخلي لتشربي الشاي
بضيافتنا .. ابو جعفر في الصلاة الان وسيعود
خلال نصف ساعة لا اكثر"

ثم التفتت لعبد الرحمن تقول له " عبد
الرحمن ابلغ رضا ان هناك ضيفة تنتظره .."

للحظة اوشك عبد الرحمن على الاعتراض ..
هو بطبعه شكوك ولا يأمن الناس بسهولة ..
لم يكن يريد اسيا ان تدخلها البيت ورضا غير
موجود وهم لا يعرفون من هي تلك المرأة
بالضبط .. خجل ان يبدي لاسيا اعتراضه
ليقول بنبرة هادئة

" نعم سأخبره .. لكن يجب ان انتظر حتى
تنتهي الصلاة لاني لن استطيع الوصول اليه
وهو في الصفوف الامامية .. "

لوح عبد الرحمن مغادرا بخطوات متعجلة وفي
داخله يأمل انه ربما سيستطيع الوصول لاخيه
داخل الجامع .. لايشعر بالراحة ابدا لتلك
الغريبة المتشحة بالسواد ...

رباب كانت هادئة اكثر مما يجب ولم ينتبه
ايا منهم لردود افعالها البطيئة بينما اسيا
تزيحها عن باب المرآب لتسمح للمرأة بالدخول
وهي تدعوها بلطف " تفضلي .. هذا بيت والدي
ولايوجد احد الا امي واخواتي البنات .."

ترددت المرأة وبدت حائرة مشتتة تائهة لاتعرف اين تقود خطواتها ... تمتمت اخيرا

" انا انا .. سأثقل عليكم .."

فألحت اسيا بالدعوة وهي تقول " لاتقولي هذا .. تفضلي .. ابو جعفر لن يتأخر .. "

وبينما تخطو المرأة عبر باب المرآب كانت اسيا تدعو رحاب ايضا لتدخل فتقول لها

" تعالي رحاب وشاركينا شرب الشاي .."

اعتذرت رحاب بالقول " لا عزيزتي .. يجب ان أعود لاساعد سامي في بعض دروس العلوم .. انه لم يذهب لصلاة الجمعة مع ابيه خصيصا حتى يدرس لامتحان الغد .."

لكن اسيا ألحت بابتسامة حلوة رغم ان وجهها بدى شاحباً قليلا في عيني رحاب

" تعالي واشربي الشاي معنا ثم اذهبي لسامي .. انها فقط خمس دقائق .. لايصح ان تغادري من الباب هكذا .. كما ان امي ستفرح برؤيتك.. البارحة تحديدا سألتني عنك وقالت لم نعد نرى رحاب كثيرا ..."

تبسمت رحاب في استسلام للدعوة وخطت خلف اسيا والمرأة ذات العباءة ..

تتبعهن خطوات رباب البطيئة ونظراتها التي لم تفارق ذات العباءة السوداء ..

عندما دخلن المطبخ وقبل ان تتوجه اسيا بضيفتها للصالة تعمدت رباب السؤال لتجعل الضيفة تنظر اليها

" اتشربين القهوة ام الشاي ؟ .."

الضيفة كانت قد أرخت عباءتها فظهرت عيناها بوضوح و جزءا من وجهها ...

انقبض قلب رباب وهي تلتقط تلك النظرات التي كانت تلقيها المرأة ناحية اختها الكبرى .. اسيا ...

ألتفتت اسيا للضيفة تشجعها بابتسامة فترخي المرأة عينيها وتهمس بضعف مؤثر

" انا .. انا ... فقط اريد ان اكلمك على .. على انفراد .."

توقفت خطوات رحاب لتقول بتفهم

" حسن .. انا سأبقى هنا في المطبخ .. أساعد رباب بإعداد الشاي .. اظن ضيفتنا تفضل الشاي التقليدي على القهوة ..."

بعد ذهاب اسيا والمرأة الغريبة ارتفعت قبضة رباب حتى قلبها متكورة توترا كتوتر ملامحها فعقدت رحاب حاجبيها تسألها

" ما بك يا رباب ؟"

فترد رباب بانفاس مختنقة

" لا اعلم .. قلبي انقبض من هذه المرأة .."

عقدت رحاب حاجبيها بتفكير وهي تنظر في اثر اسيا والمرأة " هل تظنين ان وراءها مشاكل؟"

ابتلعت رباب ريقها قائلة " لا اعلم .. لكني قلقة على اسيا .. لمحت في عيني المرأة نحو اسيا ما يشبه ... الحسد والحسرة ؟"

شعرت رحاب بالضيق هي الاخرى .. تساءلت

" اين خالتي ابتهال ؟"

بدت رباب متوترة بوضوح بينما ترد على السؤال " انها تصلي في غرفتها.. ستأخذ بعض الوقت حتى تنتهي .."

عندها قالت رحاب " دعينا نعد الشاي ثم ننتظر خمس دقائق اخرى و نذهب ناحية غرفة الضيوف نتقصى الامر .."

هزّت رباب رأسها وهي تمد يدها لحافظة الشاي..

في غرفة الضيوف

اصرت حسناء ان تجلس على الارض رغم كل محاولات اسيا لتدفعها للجلوس على الاريكة جوارها ..

لكن المرأة الشابة لم تتزحزح من مكانها وهي تلملم عباءتها حولها بارتباك كامل ..

قالت اخيرا بصوت مرتجف متوسل " كرم .. اخلاقك وروحك... الطيبة التي غمرتني بها تجعلني اطمع ..بك... لتساعديني .. بالله عليك ساعديني .."

سألتها اسيا باهتمام كامل " هدئي من روعك اختي .. اخبريني كيف اخدمك ؟ هل تريديني ان اكلم زوجي بأمر ما ..؟ "

ارتجف صوت حسناء اكثر وهي تقول باضطراب " بل انا ..هي خادمتك .. سيدتي .."

اخذ الاشفاق بقلب اسيا لاقصى حد ..

تنظر لوجه المرأة المرتعبة المرتجفة و التي بدت شابة لاتتجاوز الثلاثين .. وجه ذو جمال خلاب يذكرها بجمال بنات الاهوار في الجنوب خاصة مع هذه النقط الثلاث الزرقاء المتراصة على ذقنها ...

حاولت ان تخفف عنها وهي ترد على كلامها " استغفر اللّه .. لاتقولي (خادمتك) .. اخبريني مطلبك وانا بعون اللّه اقضيه .."

عندها نزلت دموع حسناء وهي تشعر للحظات وجيزة انها وصلت بر الأمان وبصوت متهدج تقول " سيدتي اسيا .. انا اسمي .... حسناء .."

تتبسم لها اسيا وهي تمد يدها لعلبة المناديل الورقية وتعطيها لها قائلة " امسحي وجهك .. تشرفت بمعرفتك حسناء .. وانت اسم على مسمى ... "

وكأن هما وانزاح عن كاهل حسناء .. تحسب ان الامر مقضياً فيشرق قلبها بالامل الوافر وهي تتطلع لوجه اسيا العطار فترى به انعكاسا لوجه سيدها رضا ...

لم تكن ترى الصورة كاملة لما تسعى اليه وتظنه هيناً وهو عظيم !

فقط تفكر بخلاصها القريب الوشيك (كما تظنه) .. تنساب دموعها اكثر وتكاد لاتصدق حتى اللحظة انها نجت لتتسربل الكلمات الباكية من فمها

" رفع اللّه قدرك وجبر بخاطرك .. ما انا الا امرأة مسكينة سيئة الحظ .."

ثم تمسح وجهها والدموع ما زالت تسيل لتضيف ببعض التركيز القليل الذي تملكه

" اتوسلك الصبر علي لاحكي لك ... حكايتي .. انا امرأة فقيرة جاهلة يتيمة وارملة دون ان يرزقني اللّه بولد .. اعيش بمفردي في حي الشيخ الفقير .. حيث الرعاع والحثالة يرتعون فيه كما يشاؤون لايحكمهم الا سطوة فتوة اكثر ظلما منهم ومنذ ان........"

قاطعتها اسيا رغما عنها وهي تتعجب بالقول

" فتوة ؟! هل ما زال هناك فتوات ؟!!"

تظلم ملامح حسناء الباكية وهي ترد بانكسار الفقر والظلم " نعم سيدتي .. فتوتنا تحسين .. اعرفه منذ نعومة اظافري .. عنيف منذ طفولته ويقول للشر قم انهض وقاتلني ! دخل السجن لعشر سنوات لكن افرج عنه في العفو الحكومي العام الذي شمل كل

المسجونين دون استثناء.. كنت اخبرت ..

سيدي رضا عن بعض حكايتي .. "

عقدت اسيا حاجبيها قليلا وهي تتساءل

" رضا ؟ هل سبق وكلمتِ رضا ؟ "

عندها .. عندها فقط شعرت حسناء بنبض

قلبها يتباطأ ..

لاتعرف بم تفكر ...عيناها شردتا ورغما عنها

ارتعشت شفتاها للذكرى وهي تقول بصوت

ضعيف متلكئ بعض الشيء

" نعم .. ذهبت اليه .. في محله الكبير .. قبل

شهرين او اكثر ... لااذكر ..و.. سيدي ..

عرض علي عرضاً .. ان اغادر الى الحي

الصناعي واعمل واسكن هناك .. في البداية

رفضت لاني اعتدت مكاني وامثالنا لايغادرون

ما يعتادوه خاصة امرأة وحيدة مثلي .. كما

اني لا اعرف كيف اعيش بحي جديد مع

غرباء ثم .. تراجعت و قررت اني سأوافق ممتنة

لسيدي رضا .. لكن .. خرج تحسين من السجن

ليحكم علي انا ان اكون سجينته ..."

صوت اسيا الجاد اعادها للحاضر وهي تسألها

" سجينته ؟! ولماذا يفعل هذا معك ؟!"

رمشت حسناء لبضع لحظات ثم ابتلعت ريقها

قبل ان تسبل اهدابها لتقول بلوعة " يريدني

زوجة بالاكراه .. هذا السكير العربيد الذي

يعاشر حثالات النساء كل ليلة يريد ان

يجبرني ان اكون امرأته بالحلال او الحرام ..."

همست اسيا بتأثر " يا ساتر يا اللّه ..."

تعضعض حسناء شفتيها وقلبها ينبض سريعا عنيفا في صدرها كلما تذكرت وجه تحسين هذا اليوم فتتسارع الكلمات على فمها كمن يغرق ويتعلق بقشة " ليس لي غير سيدي رضا ليفك أسري .. لقد هربت بشق الانفس من تحسين لأصل الى هنا.. حلفتك باللّه سيدتي لا ترفضي .."

أجفلت اسيا وحسناء تثب فجأة نحوها لتضع كفيها في حجرها تتشبث بجلبابها وتتوسلها بعينيها الواسعتين وتردد نفس الجملة

" لا ترفضي ... لا ترفضي .."

شعرت اسيا بعدم الارتياح وهي تنظر لوجه حسناء اسفل منها بينما تحاول التصرف بعقلانية وهدوء وهي تسألها " ارفض ؟! ولماذا ارفض ان يساعدك زوجي ؟ لم أفهم ما ترمين اليه .. هلا اوضحت اكثر ؟ "

بدت حسناء بعينيها اللامعتين بتشوش واضح في عالم آخر وهي تقول بصوت لاهث " الآن .. لم يعد عرض سيد رضا مجدياً وتحسين لن يعتقني وسيجدني في اي مكان ارحل اليه في العاصمة او حتى خارجها .. سيصل الي لا محالة .. ويعيدني ذليلة لحي الشيخ .. وقد يغتصبني عقابا لفعلتي .."

الرعب كان واضحا جليا على ملامحها وبما لا يقبل الشك ..



وبينما اسيا تنظر اليها بعجز عن الفهم تواصل حسناء وهي تشد جلباب اسيا باصبعها المتقلصة " اريدك ان تتفهمي ضعف امرأة يتيمة ارملة لا ولد ولا اهل لها .. كل ما تبتغيه الحماية والستر ..."

حاولت اسيا ان تفك اصابع حسناء عن التشبث بملابسها لكن لم تستطع وحسناء تبدو في رعب هستيري فتحاول اسيا بالكلام والمنطق

" اهدئي .. انا لا زلت لاافهم!! هلا اوضحت مطلبك مني ؟"

تختنق بالقول ونظرات الرعب تضج في عينيها والدموع تتدفق اكثر من ذي قبل وهي تقول بشهقات البكاء " مطلبي عند سيدي ابي جعفر ولن يلبيه الا برضاك .. الا برضاك .."

شعرت اسيا بالخوف منها لاول مرة ..

عينا اسيا تحركتا ناحية باب غرفة الضيوف المغلق وهي تدعو الله ان تدخل رباب ورحاب بينما تتمتم بارتباك لحسناء " رضاي انا ؟!! "

اصابع حسناء المتشبثة بملابسها تهزها هزا والتوسل يتدفق مع كل كلمة كتدفق الدموع من عينيها " اجل يا ام الجود والكرم... طرقت بابك اتوسل رضاك بعد ان انغلقت في وجهي كل الابواب ولم يبق لي الا باب سيدي ابي جعفر وهو لن يفتحه بوجهي الا برضاك انت ... انا ... انا ..."

شيء ما نهش اسيا بمخلب حاد فاتسعت عيناها وهي تنظر لجمال حسناء بشكل مختلف بينما تواصل حسناء توسلها الهستيري

" انا... طلبت اسم سيدي رضا سترا وحصنا منيعا يمنع تحسين وغيره من الرعاع الطامعين عني ... لااريد الا اسمه .. اتوسل اليك لاترفضي .. حلفتك بالله لاترفضي .."

طنين عال في اذنها ولم تعي اسيا انها وقفت على قدميها بحركة عنيفة لاارادية بينما باب غرفة الضيوف بات مفتوحا الآن ورباب تحدق مسمرة مكانها ورحاب تتقدم للداخل بخطوات غاضبة..

تخرج الكلمات من فم اسيا وكأنها في كابوس يحبس صوتها في حنجرتها فتأبى الكلمات ان تنطلق

" تريدين .. الزو...اج .. من .....؟"

كانت رحاب عنيفة بعض الشيء وهي تميل لتمسك بذراع المرأة وتشدها لتقف على قدميها تصرخ فيها " ما الذي تقولينه لاسيا يا امرأة ؟! هل انت مجنونة ؟! "

هتفت رباب وهي تقترب من اختها الكبرى

" آسيا .. هل انت بخير ..."

تصرخ رحاب " امسكيها يا رباب انها تترنح ..."

تدخل ام اسيا الغرفة وهي تهتف

" ماذا هناك ؟! ماذا هناك ؟ من هذه المرأة ؟"

رحاب تترك حسناء لتمسك باسيا من الجهة الاخرى تجلسها على الاريكة مع رباب بينما تتراجع حسناء للخلف والدماء تنسحب تماما من وجهها وعيناها تجحظان في صدمة ولم تشعر الا بيدها تلطم على خدها وتولول " يا سواد وجهك يا حسناء .. يا سواد وجهك.."

صرخت بها رحاب

" اخرجي من الدار حالا .. اخرجي .."

وقبل ان تلتفت كانت رباب تصرخ

" آسيااااااااا...."

لتصرخ ابتهال ايضا وهي ترى ابنتها الكبرى فاقدة للوعي ..

تركض تركض تركض ..

وتضيع منها الطرقات فلا تجد طريقها وتتوه من ادراكها بضعة وجوه محدقة فيها فلا تتعرف على وجه واحد .. واحد فقط ... تألفه وتركن اليه..

تلهث .. تبكي .. تولول و.. تركض...

خصل من شعرها أفلتت من الحجاب لتنسدل على جانب وجهها المحمر وتلتصق بالدموع التي اغرقت خديها ..

يتطاير طرفا العباءة السوداء فتكشف عن جلبابها القاتم التي ترتديه تحته ...

لقد انكشف سترها ... وانكشفت روحها ..

وانكشف سواد وجهها ...

يا ربي .. ماذا فعلت .. ماذا فعلت ؟!!

تعثرت بحجر فهوت الى اسفلت الشارع القاسي .. تطلق وجيعة ألم وهي تتلمس ركبتها المجروحة من أسفل العباءة ...

تشهق بالبكاء وهي تخفي نفسها بعباءتها..

لم يعد لديها ستر الا ستر هذا القماش الاسود..

تنوح وهي تنادي بافتقاد اسم والدها .. تنادي اسم زوجها .. ثم تجهش بالبكاء العالي وهي تنادي ... يا الله ... انجدني ...

" لا خلاص لك ... "

صوت تحسين وكأن ملك الموت أتاها .. اجل .. هذه هي الاستجابة .... انه الخلاص بموتها...

تخدرت للحظات مستسلمة بينما تشعر بظله القاتم فوق رأسها ... يرفسها في ساقها هادرا

" قومي يا امرأة ..."

فتنطلق من حنجرتها آهة وجع لتخنقها في نفس اللحظة وهو يميل نحوها يقبض على ذراعها بين اصابعه التي تنغرز في لحمها تكاد تصل العظم وهو يتمتم بغضب اسود

" اكتمي صوتك والا سأذبحك ها هنا على الاسلفت .."



يرفعها بحركة قاسية عنيفة ويسوقها كنعجة مذبوحة تترنح وهي تطلق انفاسها الاخيرة ...

بضع خطوات فقط وقبل ان تفيق من خدر الرعب والاستسلام له وجدت نفسها تركب سيارة ما غارقة بسواد عباءتها بينما تشعر به يجلس جوارها لتسمع صوته الآمر

" انطلق يا فالح .."

ارتعدت بعنف والسيارة تنطلق بحركة رعناء لتشهق من رعبها بينما يتهدج صوتها همساً

" الى .. اين ...؟"

لم يرد عليها بينما يضحك المدعو (فالح) ضحكة قبيحة ليقول بعدها بلؤم وصفاقة

" الى مقبرتك يا حلوة .. آآآآه ..."

كان هذا تحسين قد ضربة بقبضة حديدية وهو يصرخ فيه بعنف أسود

" لاتكلمها ابدا .. والا قتلتك قبلها.."

انكمشت حسناء على نفسها واوصالها ترتعد..

اخذت تردد الشهادتين ودموعها لاتتوقف بينما جسدها يختض ...

كانت ما تزال تختض وهو يجرها جراً لتتنزل من السيارة التي توقفت في مكان مقفر ليدمدم تحسين ببضع كلمات في اذن فالح ثم يتركهما فالح وينطلق بالسيارة مبتعداً ..

علا صوتها بالتشهد وقد آمنت هذه نهايتها حقاً حتى تراءت لها صورة والدها تتخيلها تناديها...

صفعة على وجهها اخرستها وهو يهدر بوحشية

" ايتها الحقيرة السافلة .. تنادين والدك الآن؟! واين كان والدك وانت تذهبين للصائغ في محله .. واين كان وهو يدفع لك ثمن جسدك ها ؟ سمعة الصائغ النظيفة لم تقاوم امام حسنك ...! ايتها القذرة الفاجرة .."

ضربت على صدرها وهي تبكي بلوعة وتقول

" ماذا تقول ؟! ماذا تقول ؟ حسبي الله ونعم الوكيل .. كيف تقول هذا ؟! الا تخاف الله لتتهمني في شرفي وعرضي .."

انهارت الى الارض المتربة القاسية لتولول

" يا ستري الذي انكشف بعدك يا ابي .. يا دنيا سوداء حقيرة تفعل بي كل هذا من بعدك .. ليتني مت معك يا ابي .."

ثم فقدت رشدها فأخذت تقبض على اي حفنة تراب واوساخ من حولها وتنثرها فوق رأسها في حركات هستيرية وهي تولول بنفس الكلام..

كل هذا لم يحرك شعرة تحسين ليراقبها بتشفٍ وقسوة وحشية قبل ان ينحني نحوها ليوقفها على ساقيها بالإجبار وهو يهمس بنبرة قبيحة " قومي ... لم أعد اطيق سماعك او النظر اليك .."



تلملم عباءتها وهي تعاود ترديد الشهادتين بصوت عال مرتجف النبرات بينما هو يسحبها خلفه الى جهة مجهولة ..

يعاودها الاختضاض وعيناها تناظران سماء الظهيرة الزرقاء من شق العباءة فتنحدر الدموع وصوتها يعلو أكثر " اشهد ان لا إله الا اللّه واشهد أن محمداً رسول اللّه "

سمعت صوته الهامس الخشن بضراوة

" يحق لك ان تتشهدي وتطلبي الرحمة لنفسك.. لكن لاتتعجلي .. قبلها ستترحمين على رضا الصائغ .. لن تموتي قبل ان أُريك عزائه ...! "

الفصل الحادي والعشرون

سمعت صوته الهامس الخشن بضراوة

" يحق لك ان تتشهدي وتطلبي الرحمة لنفسك.. لكن لاتتعجلي .. قبلها ستترحمين على رضا الصائغ .. لن تموتي قبل ان أُريك عزائه ...! "

دفق من وجع انتشر بكل جسدها ليضج به فهتفت دون ارادتها وقلبها يقرع بعنف في صدرها

" لا .. لا .. لا تقتله .. اقبل يديك وقدميك لا تقتله .. لا تقتله .. سيدي رضا لم يفعل شيئا.. انا التي ذهبت لاستنجد به ... "

تلكأت خطوات تحسين بينما يسب ويشتم بأفظع الكلمات القذرة ...

عاودت التوسل وهي تحاول ايقاف خطواته ولم يعد يهمها شيء الا انقاذ سيدها ابي جعفر بعد كل الاذى الذي تسببته له ولاهل بيته .. يا الهي ما فعلته مع زوجته سيدتها اسيا لايغتفر...

كيف اقدمت بغباء وطمع بما لايمكن ان يُعطى لامثالها ؟!

" تحسين .. فقط اسمعني .. سيدي رضا و زوجته .. من افضل .. الناس .. كنت ذهبت اليه سابقا .. لاطلب .. مساعدته .."

تباطأت خطوات تحسين وهو يلتفت نحوها ...

ثم توقفت تماما تلك الخطوات ليقف قبالتها مباشرة وعيناه الوحشيتيّ النظرات تحدجانها بعنف أسود ...

تراخت اطرافها حتى انفرجت عباءتها لتكشف وجهها الباكي امامه فيهدر فيها بانفاس ذي رائحة مقرفة

" كنت تذهبين اليه دوما في السوق .. اي مساعدة قذرة كان يلبيها لك ؟!"

بقلب مكلوم تذكرت وقفتها هناك في السوق الكبير تنتظر طلة سيدها ابي جعفر.. لاشهر ربما وقفت هكذا لاتجرؤ على الاقتراب منه .. بهيبته وملامح وجهه و خطوته.. رجل ولا كل الرجال ...

انسكبت الدموع بغزارة هامسة بحشرجة ألم ووجع " كنت .. كنت اذهب .. للسوق .. لكني لم اتكلم معه .. الا مرة واحدة .. لم اجرؤ ان .. اطلب مساعدته .. الا مرة واحدة .. كان الرعاع يدقون باب .. بيتي كل يوم .. فذهبت اليه .. استنجدت .. به .. مرة واحدة .. اقسم لك .. مرة واحدة ..."

الجنون يسيطر عليه ويحفر خطوطا وحشية في وجهه المنفر فيصرخ فيها " وماذا اعطيته لينجدك ؟! كم دفع لك ؟ كم ...؟!"

كانت تبكي دون توقف لكن لم يكن يهمها ان تثبت طهرها وعفتها وكل ما تفكر به انقاذ سيدها رضا من براثن تحسين ..

استغفرت الله ثم اغمضت عينيها لتترك طرفي العباءة ينفرجان تماما فيشكفان عن جسدها في الجلباب القديم القاتم الذي ترتديه ..

مغمضة العينين ولهاثه يصلها ويخبرها بمدى رغبته المتأججة فيها ..

بل تستطيع ان تشعر حتى بعينيه تنتشهان جلدها ولحمها وتصل حتى العظام ...

فلتمت بين يديه لا يهم ... لا يهم ...

قالت بارتجاف " سيدي رضا .. عرض علي المساعدة بايجاد مكان في حي اخر أكثر أمنا .. و .. و ...."

شعرت باصابعه فوق ذراعيها من تحت العباءة تتجرآن عليها وهو يمررها فوق قماش جلبابها بخشونة لاهثا بارتعاد الرغبة التي تصارع غضبه في معركة شرسة محتدمة

" وماذا .. ماذا .. قولي ..."

ردت وهي تبكي دون دموع ظليمتها

" كنت سأفكر .. عدت للبيت لافكر .. لكنكَ .. عدت .. في نفس اليوم ..عدت.."

شهقت بعنف وارتدت للخلف عندما شعرت باصابعه الخشنة الغليظة تلامسان مفاتنها ...

كان ينهت وعيناه محمرتان بشكل مخيف ..

اوشك ان يقترب ويأخذها ها هنا .. وسط هذا المكان المقفر القذر عندما استحلفته بالقول

" استحلفك بالله .. لاتؤذي الرجل الطيب ..

انا من رميت ببلائي على كاهله .. انا .. انا

سأتزوجك ... اجل .. سأتزوجك .. و..

سأعيش معك .. لاخر .. عمري .. لكن .. لا

تؤذه .. اتوسل اليك تحسين .. لا تؤذه .."

ما زال يبدو مرعباً بوقفته تلك امامها وكأنه

يوشك على فعل كل الفواحش التي في

الدنيا ..

وكأن الشياطين اجتمعت كلها فيه لتسيطر

على حواسه وتدفع به لكل رذيلة وفسق

وجرم تهتز له السماوات السبع ..

حتى رأته يخرج هاتفه من جيبه ويتصل ..

عيناه لاتفارقان مفاتنها وهو يقول بصوت

ثقيل.. ثقيل جدا

" فالح .. عد .. سنذهب لحي الشيخ .."

اغلق الهاتف ثم تقدم نحوها وهي تتراجع

للخلف رغما عنها فتسمع فحيح كلماته

" هناك شيء ما بينك وبينه .. وسأعرفه يا

حسناء .. لكن اليوم .. الآن .. انت ستكونين

ملكي.. بالحلال ..."

ادركت هو الموت حقاً .. الموت وهي حية

تتنفس كباقي الاحياء الاموات الذين تراهم

يعيشون ضنك الحياة في حي الشيخ ...



بيت الصائغ الكبير

غرفة الجلوس

يجلس رضا بوجه شاحب بعض الشيء ولا تفارق ذهنه صورة اسيا وهي ممددة على سريرها في غرفتها القديمة في بيت والدها العطار ...

بدت شاحبة جدا دمعات رقيقات منسابات على خديها ورمشيها مسدلين ...

لم تكلمه ولم تكلم ايا ممن حولها ...

احضر لها الطبيب فأخبره باحتمالية ان تكون حامل ...

كل لهفته للاطفال لم تتحرك لتبهج قلبه بهذا الخبر ...

لا شيء على الاطلاق يبهج القلب الا رضا (اسيا) ...

هل تشك به ؟! بماذا تفكر وهي تنأى بنفسها بعيدا عن الجميع ...؟ حتى عنه هو ...

شعر بيد محسن تربت على ذراعه وهو يسأله

" هل كلمتك ؟"

رد بملامح لاتفصح عن لهفة قلبه اليها

" لا ... تركتها نائمة تستريح وامها معها ..."

جاء صوت حذيفة خشناً جدا من عند الباب

" الن تفهمنا من هذه المرأة ؟"



رفع رضا عينيه لاخيه فيرى بوضوح اكفهرار وجهه وفي ظهره يقف عبد الرحمن الذي بدى متماسكاً اكثر رغم تشوش نظراته ..

ثم تباعد الاخوان عن بعض عندما دخلت الام سعاد تتكئ على عصاها وتسندها خلود في مشيتها لتطلق هي الاخرى تساؤلها

" اجل بني .. افهمنا ما يحصل .. ثم .. اين بدرية ؟! "

فتلتفت لخلود تحدجها بتأنيب ضمني وهي تقول " ألم اقل لك اتصلي بها لتأتي ؟!"

ردت خلود وهي تتجنب النظر ناحية رضا

" ابو جعفر قال لا داعي .."

وقف رضا على قدميه ويضع العباءة المذهبة الاطراف فوق كتفيه بينما يقول بصوت ثابت حاسم " الامر لايحتاج لكل هذا.. سأوضحه لمرة واحدة امامكم ولن نعاود الحديث فيه .. بل لن اسمح لأي كان ان يفتحه امامي او امام اسيا مرة اخرى ... حسناء باختصار امرأة مسكينة ارملة .. وحيدة بعد وفاة والدها وزوجها .. لاابناء لها .. تعيش في حي الشيخ في شقة والدها القديمة لكن سكان ذاك الحي لايتركونها وشأنها.."

عبست سعاد بينما بدى حذيفة متصلبا بملامح خشنة .. كل خلاياه في تحفز ... حتى شعر عبد الرحمن بالندم لانه اتصل به حالما حصلت المصيبة ..

كان مشوشا جدا بينما ينصاع دون تفكير لطلب خلود ان يتصل بحذيفة ليرجع وقد كان لا يرد على اتصالاتها به ...

التزم عبد الرحمن الصمت بينما تغادر خلود الغرفة بعد ان أجلست امه وهي تتمتم في اذنه انها ستحضر القهوة ..

جاء صوت رضا بنفس النبرة الثابتة

" المرأة استجارت بي لكنها طلبت ما لا استطيع تقديمه لها ... "

تقدم حذيفة خطوة وهو يقول بحاجبين معقودين " ارادتك ان تتزوجها ؟"

فرد رضا " نعم .. ارادت ان استرها باسمي واحميها بالزواج من طمع باقي الرجال.."

انفجر حذيفة رغما عنه وهو يهدر " وعندما رفضت .. تأتي بكل حقارة لآسيا تطلبك منها؟! اي جرأة ووقاحة هذه .."

نظرات رضا لم تفارق وجه حذيفة وهو يقول

" انها يائسة ... ضعيفة مظلومة .. في بيئة وضيعة لا ترحم .."

تتقبض يدا حذيفة وتتسع عيناه بنظرة حارقة قبل ان يقول ببطء وعيناه في عيني اخيه الاكبر " انا على استعداد للزواج بها ان كانت مطلبها منك هو الستر فقط .."

الانظار اتجهت في لحظة للجسد الضئيل الذي يقف في الباب وتحمل صينية فناجين القهوة بين يديها ...

جامدة كتمثال من الصخر فيقف محسن على قدميه وهو يكلم اخاه ببعض التوبيخ

" حذيفة ! .. انها .. ليست لعبة .."

عينا حذيفة للحظة خاطفة فقط مرتا على زوجته قبل ان يعاود النظر لرضا ويقول له

" انا جاد يا رضا .. وخلود موافقة .. منذ اشهر تخطب لي النساء من وراء ظهري وانا ارفض .. تريدني ان انجب من زوجة ثانية بما ان حملها متعثر ..الان سأحقق لها ما تريد .. لذلك اخبر تلك المرأة ان لم تكن تمانع .. انا سأتزوجها وامنحها اكثر من اسمي .. سأمنحها بيتي .. وطفل مني .."

سقطت الصينية ارضا بينما خطوات خلود المهرولة تتباعد عن الاسماع ....

حي الشيخ ...

قنينة الشراب في يده يعب منها عبا في فمه حتى يتساقط بعض الشراب من جانبي شفتيه ليغرق به قميصه ...

عيناه المحمرتان تعريانها تماما وهي تقف امامه تختض كشجرة يابسة هبت عليها ريح عاصفة ستقتلعها حتماً من جذورها...

لقد خرج المأذون للتو مع الشاهدين ...
وحسناء باتت ملكه كما حلم يوماً ان يفعل ..

لكن الجنون يسيطر عليه ...

وامتلاكها يحرقه كماء النار ..

لايستطيع ان يتوقف عن التفكير انها فرطت بنفسها لرضا الصائغ ..

انه حتى لايعلم لم عقد قرانه عليها ..

كان يستطيع اخذها هناك في الارض المقفرة .. يستطيع ان يشبع جوع جسده اليها مرارا وتكرارا ... لكنه .. لم يفعل ..

لم يكن لاجلها قدر ما كان لاجله ..

ارادها بالحلال .. صبر كل هذا ليأخذها بالحلال .. ولايعلم اي جوع فيه لا يُسد الا بأخذها بالحلال ...

رمى قنينة الشراب ارضا بعد ان افرغها في بطنه ولعب السكر بحواسه وادراكه ورغباته المجنونة فيها ...

لكن .. كلما اراد الاقتراب وجد امامه حاجزا يقف بوجهه .. لا يستطيع حتى الخمر ان يشوش ذهنه عن حقيقة وجود شيء بينها وبين ابن الصائغ ...

الخمر اخذ يثير مزيدا من جنون الغيرة والشك الاقرب لليقين ...

فقد سيطرته وهو يزمجر بصوت مريع

" تعالي يا ابنة الكلـ...."

صرخت دون ان تستطيع منع نفسها " لاااااا..."

فما كان منه الا ضربها بقبضته على وجهها حتى اوقعها أرضا فتشهق وهو يعاود رفعها ويمزق عباءتها وهي تصرخ وتنازع ...

حجابها وقع وشعرها انتثر وهو يصفعها مرارا وتكرارا يصرخ بعنف اسود

" ايتها العاهرة .. ايتها الفاسقة .. انت لست بافضل من حمدية التي تشمئزين منها مدعية الطهر .. "

وجهها تورم قليلا واحمر باثار اصابعه الغليظة وهي تشوح بكفيها في هستيرية تحاول ان تحمي نفسها مما لن تستطيع درءه عنها ..

هذه المرة صوت تمزق جلبابها جعلها تصرخ صرخة مدوية جعلت الطيور تفزع هربا من اعشاشها على سطوح المباني المتهالكة في الحي .. لكن دون ان تفزع قلباً واحدا من قلوب البشر التي تقطن حجرات تلك المباني ليجرؤوا على انقاذها من مصير محتوم مع تحسين ..

ضربة جديدة منه لتهوي الى الارض بجلبابها الممزق ثم لحظة وتشعر بجسد تحسين الضخم فوق جسدها ورائحة الخمر تكاد تدفعها للتقيؤ ...

كان مجنونا لينالها و جسدها بات مكشوفا امامه والدموع تغرق وجهها والجروح تشقق حنجرتها التي كفت عن الصراخ ..

ثم .. اخذت تخدع نفسها بوهم القول

" انه زوجك .. امنحيه نفسك .. سيهدأ ان فعلتِ .. سيرضى عنك اللّه ان فعلتِ .."

استكانت فجأة وتركته يفعل كل ما يفعل حتى سمعت صوته يضج بالكثير بينما يناديها بصرخة رهيبة " حُسناااااا "

فينالها بعنف لم تتعرض له طوال حياتها ..

بل لم تعرف يوما ان هناك عنفا يحمل سماً ينتشر في كل الجسد فيقتله خلية خلية ..

لم تشعر يوماً بكل هذا الامتهان لآدميتها ..

لقد شعرت انها ادنى من ان تكون انسانة ..

اهون من ان تكون لها قيمة ...

شعرت انها ابخس من البساط القديم المهترئ الذي يغطي الارض الصلبة تحتها ..

وبينما ينالها مرارا كان ألم جسدها يستكين لكن ألم روحها لايعرف الاستكانة ...

ولن يعرفه ابدا ..

بعد ساعة .. عند باب بيت العطار ..

رآها من خلف السور تتحرك بخطوات متعثرة ودوائر عشوائية وسط الحديقة بينما تتطلع لما حولها بجمود رهيب ...



تحيط جسدها بذراعيها وعيناها الجامدتان لاترمشان ...

تشجع وهو يقترب من باب المرآب ويناديها

" رباب ..."

تسمرت للحظات وهي تنظر اليه من مسافة تفصلهما بما يقرب الثلاث امتار ..

عيناها تقدحان بنظرات غريبة لم يرها فيهما من قبل ..

قلبه يخبره ان القادم صعب .. صعب جدا..

تماسك وهي تقترب منه ببطء وتنظر نحوه بما يشبه ... الكره !

هل هذا الذي يراه ... كره حقا ؟!

غليان يستعر في قلبه بينما يتكلم بهدوء ظاهري " اين خلود يا رباب ؟"

كانت تفتح باب المرآب لتقف قبالته تواجهه بفيض من مشاعر سلبية هائجة تموج في داخلها وتشع منها اشعاعا .....

بانفاسها المتسارعة بانفعال خفي هتفت بسخرية حادة

" خلود ؟! تسأل عن خلود ؟! تقصد تلك المرأة المسكينة التي أتتنا قبل قليل بابتسامة ميتة وهي تطمئننا ان الامر قد حُل وزوجها من سيتكفل المرأة ويتزوجها ؟!"

عضلة في خده توترت وهو ينظر في عينيها العسليتين .. يفترض انهما عسليتين .. !

الان تبدوان بلون قاتم غريب يبعث فيه قشعريرة و احساسا عجيباً بالغربة ... لكنه يحتاج للتركيز مع خلود الآن .. بعدها سيتعامل مع رباب ...

بعد كلام حذيفة الاخير عن محاولات خلود لتزويجه استطاع ان يفهم لم اقدم على ذاك العرض الصادم الذي قدمه للزواج من حسناء تلك !

يا الهي .. تلك المرأة بعباءتها السوداء كانت كالشؤم على اهل الدارين ... الصائغ والعطار..

قال عبد الرحمن بنفس النبرة الهادئة والسيطرة

" رباب .. نادي لي خلود لو سمحت .."

ضربت بيدها على الباب الحديدي لتقول بشبه هياج " انها ليست هنا .. ليست هنا .. اخذتها رحاب لبيتها .. كانت .. كانت في حالة توجع الحجر لينطق بصرخة وجع .. لم تذرف دمعة واحدة وهي تتحدث بابتهاج يدمي القلب كأنها محمومة تهذي ! لقد أبكت شذرة .. بل و أبكت حتى رقية ! هل تتخيل .. هل تتخيل رقية تبكي ؟! "

تقدم خطوة منها ليدفعها للخلف ويغلق باب المرآب خلفه قائلا بتأثر شديد لكل ما يجري

" الامر ليس كما تتخيلنه جميعكن .."

كان يحاول لمسها بيديه فتبعدهما بضراوة وهي تهتف بصوت عال دون وعيها

" يال الحقارة .. يال الحقارة .."

تتسع عيناه في ذهول .. لم يسمعها يوما تتفوه بكلمات كهذه بينما يتقدم اكثر يهمس اسمها " رباب .."

يحاول امساكها فتهرب منه متراجعة للخلف عدة خطوات فيلاحقها ويحاول من جديد فتتباعد اكثر واكثر حتى وصلت لزاوية البيت البعيدة في اقصى الحديقة وهي تهتف به بنفس الهستيرية وعيناها تلمعان بدموع قهر وألم مبرح " دعني عبد الرحمن .. انا امقتك وامقت اخوتك .. وامقت كل رجل في هذه البلاد الظالمة ... كلكم خونة خونة .. لا أمان لكم .. "

يعقد حاجبيه ويتقدم منها بعزم فتلتف حول البيت وهي تصرخ به " ابتعد .. ابتعد .. كلكم خونة .. خونة ..."

مد ذراعه وهو يسرع بخطواته خلفها حتى امسك ذراعها بقوة ثم يسحبها بحركة واحدة اجبرتها لترتطم به ...

تضربه في صدره وهو يطوقها بذراعه حول خصرها بينما يده الاخرى ترتفع لفمها تكتم صرخاتها بنفس الكلمة " خونة ... خونة ..."

تقاومه بتحركات جسدها لتفلت من تطويقه.. تحاول تحرير يديها فتنجح بواحدة لتضربه وتخربشه فيشتم وهو يعيد سجن تلك اليد الغاضبة ...

سحبها اكثر لجهة خلفية من البيت ثم حشرها للحائط وهو ما زال يطوقها ينهت كما تنهت هي ولكن تلك العينان لاتكفان عن ارسال نظرات الكره الاعمى ..

اجل .. كُرهُها كان اعمى .. !

ضرير لايعرف بمن يتخبط ...

يضمها اليه بحدس عفوي ..

لايعرف لم شعر انها .... خائفة ..

رغم كل الغضب الذي يتفجر امامه وكأنه مختزن طوال سنين حياتها الا انه يشعرها خائفة ومقهورة ...

همس " اهدأي .. اهدأي ..."

نشيج مكتوم يصدر من بين شفتيها المكتومتين براحة يده ...

يميل ليقبل عينيها الباكيتين وقلبه يذوب حبا وعشقا وتعلقاً بل وتولهاً بها ..

لم يكن يعرف انه سيحبها بهذه التعلق المرعب عندما تصبح حلاله ...

لم تعد تقاوم لكنها ما زالت ليست معه ..

انها تبكي بكاء يقطع نياط قلبه ولايفهم اسبابه ..

اخذت تحرك شفتيها فتدغدغ راحة يده ليبعدها ببطء فيسمع همس كلماتها الجوفاء

" دعني .. اريد العودة لاسيا ..."

يمسح دموعها وهو لايزال يطوقها هامساً بدفء

" الامور ستكون بخير صدقيني .. ثقي بي .."

كانت عيناها الان ثلجيتين وهي ترد وكأنه

تبعد عنه اميال واميال " بعد ابي لا خزين ثقة

لدي لاعطيها لأي انسان .."

اتسعت عيناه وتجمدت يده بينما تصيبه رعدة

باردة على طول عموده الفقري ...

ادراك ضربه كصاعقة ...

في لحظة تشكلت الصورة لتعطي المعنى

الصريح الواضح ..

كل ما كان غامضا اخذ يتفسر ..

كل ما كان محيراً اصبح بديهيا ومفهوما ..

وكأنه طلسم تم حله بمفتاح واحد ..

يونس العطار ...

صدره يعلو ويهبط باضطراب وقد انخرس لسانه

يحدق في برودها الثلجي ذاك بعجز يشل

عقله ...

ابعدته عنها بينما تترنح خطواتها وهي تغادر..

شعر وكأنها تغادره هو ..

تتركه هناك بعيدا مقصياً عنها ...

مرفوضا .. ملغيا ...

يحمل عبء ذنبٍ لم تقترفه يداه ..

والمؤلم انها تعرف انه لم يقترفه ..!

بيت الصائغ

اخر جملة قالها رضا قبل ان يغادر بيت العائلة متوجها لشقته

" لاشيء في هذا البيت سيتغير .. ما حصل سأعالجه بنفسي دون تدخل من احد .. لا احد على الاطلاق سيقدم على اي فعل متهور طائش يزعزع بيت الصائغ .."

وحالما خرج كانت الحاجة سعاد تعتب على ابنها حذيفة بالقول " لماذا فعلت بخلود هذا واحرجتها بل و جرحتها امامنا بهذه الطريقة .. لا لا يا حذيفة .. لا ارضى ان تؤذيها هكذا .. صحيح اني كنت اريدك ان تتز..... "

قطعت الحاجة سعاد جملتها وهي تعضعض شفتها السفلى بينما انظار ولديها حذيفة ومحسن تتجهان نحوها ...

محسن كان في تنبه وبعض الدهشة اما حذيفة فقد كان يتفجر كصواعق الشتاء..

بدت الحاجة سعاد مرتبكة بينما حذيفة يقترب منها هادراً بما في قلبه ويكتمه

" كنت تريديني ان اتزوج عليها اليس كذلك ؟! ظللت تحومين حول عقلها الصغير وقلبها الاهبل الذي يعطي بغباء حتى زرعتِ زرعتك التي ابعدتها عني .. كل هذا لاجل ماذا ؟! لاجل طفل ؟! طفل ؟! هل سيمنحني الطفل ما اريد ؟ ام ما تريدينه انت ..."

احمر وجه الحاجة سعاد وهي تنظر ناحية محسن تستنجد به بصمت فيتقدم محسن من اخيه يحاول ان يدفعه ليضبط اعصابه بالقول

" اهدأ حذيفة .. انت تعرف امنا تحب الخير لنا ولاتقصد ان .."

يفقد حذيفة اعصابه فيقاطعه قائلا بعنف

" لاتقصد ان تحطم ثبات نفسي واستقراري ؟! لاتقصد ان توجع قلب ابنتي بإدخال امرأة جديدة في حياتنا لانعرف كيف يمكن ان تتآلف معها ... لاتقصد ان تعبث بعقل تلك الهبلاء الضعيفة فتقتلها كل يوم وهي تبحث لي عن عروس لتكون ضرتها ؟! "

يعود لامه فيواصل انفعاله العنيف

" لقد فتحت الباب ليدخل الشيطان بيني وبين خلود .. وها أنا احقق لك رغبتك .. ولتضرب خلود رأسها بالحائط اذا لم يعجبها ما تجده خلف ذاك الباب .. وليقل رضا ما يشاء حول اسلوبه الخاص لحل المشكلة .. انا سأتزوج تلك المرأة المدعوة حسناء .... احل مشكلتها وانجب لكِ (الولد الذكر) الذي تسعين اليه.."

ثم حث خطواته ليغادر غرفة الجلوس تاركاً امه خلفه تغرق باحساس الذنب وتناظر ولدها محسن تسأله بارتباك شديد

" كيف اتصرف ؟! انا لم اقصد .. كل هذا .."

يقترب منها محسن وينحني ليقبل اعلى رأسها ثم يطمئنها بالقول " هوني عليك اماه .. انت تعرفين حذيفة عندما يغضب يتفوه بالحماقات .. لكني اثق ان رضا سيحل الامور.."

شقة رضا واسيا ...

يقف على باب شقته ويده التي لاتعرف التردد ترتعش .. قلبه يخبره انه سيجدها ..

لايعرف كيف .. لكنه سيجدها ..

لقد امضى العصر كله في البيت الكبير حتى يمنحها الوقت لتعود ..

لايمكن ان يخطئ حدسه بأي شيء يتعلق باسيا .. وان اخطأ هذه المرة فقد خسر جزءا منها .. ان لم تعد من نفسها يعني ان جزءا من روحها يرفضه ...

ادخل المفتاح في الباب وسمى بسم الله قبل ان يفتحه ...

لايصدق انه رجل قارب الخمسين ويرتجف قلبه هكذا وهو يناظر وقفة زوجته امامه ..

بقميص نوم ابيض حريري محتشم وشعرها الداكن مسدل على كتفيها بينما تطرق بنظراتها للارض ... لقد كانت تنتظره !

ابتلع ريقه وتذكرها ليلة الزفاف...

وكأنها تعمدت ان تبدو في نفس الهيئة ..

اقتربت منه وهي تهمس

" السلام عليكم ابا جعفر ..."

كما تفعل دوما عندما تتلقاه في عودته

تقترب كي تنزع عن كتفيه عباءته لتعلقها

بنفسها على المشجب المجاور لباب الشقة ..

يدير رأسه جانبا يتطلع ليدها الناعمة على

كتفه وهي تزيح العباءة ..

ثم يناظرها كيف تسبل اهدابها وتضم

العباءة لصدرها وتقول بنبرة تريدها طبيعية

" الولدان مع امي .. قالت تريدني ان ارتاح

الليلة .. فربما انا .... حامل .. فعلا .."

جسدها يخونها وهو يرتعش ارتعاشة خفيفة

بينما تستدير يمينا ناحية المشجب ..

ما هي الا رمشة عين عندها شهقت متفاجئة

وهو يلفها اليه ويسحب منها العباءة في نفس

الحركة ليلفها حولها ويشدها كلها لرحاب

صدره ...

يميل بشفتيه قرب شفتيها المرتعشتين يهمس

بحرارة عشقه

" كنت اعرف سأجدك بانتظاري .."

فترد وغصة بكاء تخنقها

" ليس مكاني الا هنا .. عندك ..."

يشدها اكثر والعباءة بعطر المسك تحتضنها

وكأن روحه التي تحتضنها وتضمها هكذا ..

قال بنبرة رجولية وشفتاه تلامسان شفتيها

" ماذا افعل لأمحو ما حصل .."

ترد واهدابها مسبلة

" لاشيء .. فما حصل .. قد حصل .."

يشدها اكثر واكثر واكثر حتى يكاد يشعر

بحاجة ماسة كي يزرعها في قلبه ...

قال بحشرجة دون مقدمات

" عندما أتتني المحل تستغيث وتستجير بي لم

استطع تركها تمضي... نعم.. لم اطردها ..

واعترف لم اكن حازما لافعل وقد كنت

مدركا .. ان ليس لديها بعد اللّه غيري تلتجئ

اليه .."

للمرة الاولى منذ دخوله ترفع عينيها اليه

تحدق فيه وانفاسه الناعمة تداعب وجهها

فتسأله بصوت مجروح " شيء واحد احتاج ..

معرفته .. اخبرني واستحلفك اللّه لاتخفي

عني .. لو لم يكن امامك لانقاذها الا ..

تحقيق مطلبها .. هل كنت ستفعلها يا رضا ؟"

عيناه لم تنزاحا لحظة عن عينيها ليرد

بقناعة من يستسلم لقدره

" لو كان بوسعي لكنت فعلتها وحميت المرأة

باسمي ان استدعت الضرورة .. لكن .. لم و ..

لن يكون بوسعي .. لايكلف اللّه نفسا الا

وسعها.. وليس في وسعي قتل روحي بيدي .."

انفاسها تتسارع و ووجع قلب الانثى فيها يطل
من عينيها وهي تسأل بخوف يمزق تماسكه

" هل .. نظرت اليها للحظة.. كما تنظر الي ؟"

يقاوم ضعفه لضعفها فيبتسم لعينيها هامساً
بعتب الحبيب " هل نسيتِ يا اميرة البنات ..
النظر اليك ليس ككل النظر .."

هذه المرة لم تخطئ الدموع عينيها وهي
تعترف بوجع

" الغيرة .. تفتك بقلبي .. يا رضا .."

وجعها شق صدره ليصل قلبه ويشطره نصفين ..

دوماً كان نقطة ضعفه اسيا ..

من تجعله يخرج من جلده وينسى من يكون
وما على كاهله من اعباء الرجال الثقال ..

ولا يعد يهمه في الدنيا الا هي ...

يتلقى وجعها في قلبه فيرتضيه ويتحمله بل
ويدعو بالمزيد

" فتك اللّه بقلبي كيف فعلت هذا بقلبك ؟"

ونسي الدنيا ...

ومن بين شهقات بكائها كان يبثها عشقه
ويستسلم تماما لضعفه امامها..

ولم يتركها الا وهي نائمة بين ذراعيه تغمر
نفسها فيه وشعرها الداكن منثور على وجهه ..



بيت محسن الصائغ.. في المطبخ

تجلس رحاب جوار خلود بعد ان حضرت لهما فنجانين جديدين من القهوة الثقيلة ..

بعد ما حصل هذا اليوم تحتاج رحاب لعدة فناجين قهوة حتى تستعيد تركيزها وثبات اعصابها ...

تطلعت للمسكينة خلود بنظراتها الجامدة المحدقة بالجدار ويداها مرخيتان على السطح الزجاجي للمائدة المستديرة ...

توجع القلب لدرجة لاتحتمل ...

لم تستطع تركها تعود لبيت الصائغ الكبير بعد ان أتت لبيت العطار بـ(البشارة) القاتلة !

لاتصدق رحاب ان حذيفة عرض ذاك العرض وانه جاد فيه ..

شعرت انها في دوامة عجيبة ما بين المرأة ذو العباءة ورضا وحذيفة ...

حمدت الله ان محسن انشغل بتدريس ابنهما سامي او ربما ادرك لحاجة خلود ان تبقى برفقة رحاب فاعطاهما الخلوة المناسبة ..

تطلعت عبر باب المطبخ المفتوح لصالة المعيشة حيث تجلس سوسو هناك وحيدة تتفرج على التلفاز تحميها طفوليتها عن فهم وادراك ما يحصل بين والديها ...

والديها ؟!

ارتفع حاجبا رحاب قليلا وهي تعيد نظراتها لخلود وتفكر ان هذا شعورها حقا ..

حقا تشعر ان خلود هي والدة سوسو ..

الرباط بينهما قوي جدا وعفوي للغاية ..

ككل الروابط التي تجمع خلود مع الاخرين تأتي عفوية متدفقة دون زيف او تخطيط ..

دخلت المطبخ صغيرتها منة لتشتكي

" ماما .. لااستطيع ان اكمل الواجب المدرسي بمفردي وعقيل يرفض مساعدتي وذهب ليتفرج مع سوسو على التلفاز .."

عينا رحاب ارتفعتا عفوياً لغرفة المعيشة فترى بكرها بطوله الفارع وضخامته الوليدة يقف ويتطلع لسوسو بنظرات مبهمة بعض الشيء .. وكأنه مشفق لكن يتعالى عن شعور الاشفاق ذاك ..

من شابه أباه فما ظلم !

قالت رحاب وهي تحاول ان تراضي ابنتها

" اذهبي وتفرجي قليلا مع سوسو ريثما اعود اليك واساعدك بنفسي .."

لكن منة عبست وقالت بعناد

" بل سأفعلها بمفردي وأحل الواجب .."

صغيرتها ذات المزاج المتقلب !

تركتها لغضبها فتغادر منة المطبخ وتعود لغرفتها وهي تتذمر ...

عادت رحاب لخلود فتجدها على جمودها وكأنها بمعزل عن العالم بأسره وتقبع هناك بعيدا في حدث واحد يرجّها رجّاً..

تنهدت رحاب قبل ان تهمس

" ألن تقولي شيئا يا خلود ؟ الا يكفي هذا الصمت الموجع ؟ "

وجهها ذابل وعيناها جزعتان في نظراتهما المعلقة بالجدار وهي تهمس اخيرا بصوت متحشرج

" قال سيمنحها اسمه وبيته و .. طفل منه .."

تلقائيا شعرت رحاب بالوجع في قلبها وهي تتخيل اي امرأة مكانها تسمع من زوجها وحبيبها عهدا كهذا يقطعه لامرأة غيرها ..

تمالكت رحاب نفسها لتبتسم ساخرة ظاهريا مما لايسخر منه و موبخة لتسفه منطق تصديق خلود للامر فتقول

" اقسم بالله انك هبلاء مثلما يحب حذيفة ان يناغشك بالكلمة دائما ... هل تتخيلين انه سيفعلها ؟! ومن سيسمح له اصلا ...؟! ابو جعفر سيحل كل الامور ويعيدها لنصابها الصحيح.."

اخيرا تحركت نظرات خلود الذابلة لتقطع قلب رحاب بالهمس الذي ينضح ألما

" انا السبب .. انا السبب .. ماذا سأفعل ؟ "

ارتعشت شفتا رحاب وتوشك ان تفقد السيطرة على دموعها فتناديها بتأثر " خلود .."

ترفع خلود يدها لقلبها وتهمس بوجع " الألم لايوصف يا رحاب .. هنا في قلبي اشعره يموت.. بل اريده ان يموت ولا يعيش ذاك اليوم الذي اراه فيه معها .. "

تغمض عينيها وتسيل دموعها مدرارا وهي تضيف بنفس الوجع " يا رب السموات ! انا غبية غبية .. كيف.. كيف سأراه معها ؟ ثم.. اراها تحمل طفله في احشائها .. وانا .. انا سأحرم منه ومن حمل طفله بقية حياتي ..."

ذراع خلود التفت حول بطنها وهي تنطق بوجيعتها التي لم تحسب لها حساباً !

لم تحتمل لرحاب لتنزل دموعها هي الاخرى وتميل ناحية خلود تأخذها في احضانها وهي تتوسلها بالقول " بالله عليك توقفي .. توقفي عن تعذيب نفسك .. هذا لن يحدث .. اقسم لك لن يحدث .. حذيفة لن يفعلها .. "

ثم تبتعد عنها قليلا لتمسك بوجهها بين راحتي كفيها وتؤكد لها وما زالت دموعها تجري " صدقيني لن يفعلها .. هو فقط غاضب منك .. ما كان يجب ان تخطبي له النساء دون موافقته ... لقد اخطأت التصرف يا خلود وتماديتِ .. لكنه سيهدأ .. وسيعرف ان ما تفوه به مجرد حماقة غضب .."

تستمر دموع خلود وهي تحدق في رحاب بنفس الجمود فتدرك رحاب ان خلود لم تصدق كلمة مما قالته للتو ..

يتطلع الى شعرها الاشقر البلاتيني بغيظ !

يغيظه ان تملك غرابة عن اهل بلده لهذه الدرجة ..لون شعر لايراه الا في التلفاز للغربيين ذوي البشرة الشاحبة ...

ليس شعرها فقط .. بل عيناها الزجاجيتان ايضا .. واسعتان جدا مبهرتان في ضوء الشمس.. والنمش القليل فوق انفها الصغير..

أنف رفيع وصغير لم ير له مثيل قط ...

كل شيء فيها مختلف ويضايقه جدا هذا الاختلاف ولا يعرف لم يضايقه ..

ويتضايق اكثر عندما يشير الاخرون لاختلافها عنهم فيشعر برغبة في ضرب كل من يقول او يعبر عن وجود هذا الاختلاف ..

فجأة يشعر بالشفقة عليها ..

رغم تكتم الكبار في العائلة لما حصل اليوم لكنه استطاع ان يعرف بطريقته ابعاد ما حصل ..

وهذه الطفلة تجلس هناك تتفرج على افلام الرسوم المتحركة خالية البال لاتفهم ما يجري حقاً ..ترى هل حقا سيقدم عمه حذيفة على الزواج بتلك المرأة الغريبة ؟

" عقيل .. تعال وتفرج معي .. اشعر بالملل وحدي .."

ابتلع ريقه وهو يحدق بعينيها اللتين تتطلعان اليه وقد انعكس ضوء الغرفة فيهما فبدتا مبهرتين ...

عبس ... لكن رغم عبوسه قدماه قادتاه ليجلس جوارها ويقول ببعض الخشونة

" لن اتفرج على هذه التفاهة .. هناك فيلم جيد ينفع لعمرك ايضا .. "

هزت رأسها بحبور وهي تقول ببشاشة

" اجل اجل .. اي شيء .. فقط اجلس معي ولاتتركني وحدي .. خود تبدو متضايقة وتجلس بمفردها مع الخالة رحاب .."

رمقها بطارف عينه ولديه احساس غريب يريد ان ... يصفعها !

كز على اسنانه وهو يتلاعب بجهاز التحكم بالتلفاز يقلب القنوات وهو يردد في سره

" طفلة غبية ! "

بيت العطار.. غرفة الجلوس ..

تتوسد حجر امها بينما تسرح بنظراتها ناحية كاظم الذي يجلس على الارض ويلعب بألعابه اما جعفر فبدا منهمكا تماما بما يرسم...

كلما كبر الفتى زاد الشبه الواضح بينه وبين ابيه ... بل انه يبدو نسخة مصغرة من رضا الصائغ...

يقال في الحكاوي القديمة اذا كان الطفل يشبه والده فالزوجة عاشقة لزوجها اكثر واذا كان الطفل يشبه امه فالزوج هو العاشق الاكبر ...

قالت رقية بصوت خافت غريب

" احكي لي يا امي مرة جديدة ... قصتك مع ابي .. كيف التقيتِ به لاول مرة ..."

كانت ابتهال في ملكوت آخر ...

فبعد ما حصل اليوم لم تتوقف عن قراءة المعوذات وسورة يس وكل ايات الحفظ ..

ثم بخرت البيت وهي تدعو الله ان يحفظ بناتها ويبعد عنهن الآم الدنيا ...

كم كانت فخورة بجوهرتها التي وقفت على قدميها مستعيدة قوتها ورباطة جأشها والاهم انها استعادت تفكيرها الصحيح وحدسها الذي لا يخيب لتقرر العودة لبيتها من نفسها ..

فتركتها ابتهال تفعل ما تريد ..

اسيا وتد تقام عليه البيوت العامرة ..

ومثلها تعرف كيف لا تقع ...

" امي ... احكي لي ..."

تنبهت ابتهال لألحاح صغيرتها رقية فتبسمت رغما عنها .. دوما أحبت صغيرتها ان تسرد لها حكاية يونس العطار مع ابتهال ...

وحالما فتحت فمها لتبدأ سرد الحكاية ربما للمرة الخمسين جاء صوت رباب الهادر من عند باب غرفة المعيشة

" كيف تعود له ؟! كيف تأمنه وهو عشّم امرأة اخرى انه سيتزوجها اذا وافقت هي ؟ "

بدت رقية شاحبة وهي تحدق بوقفة رباب المتحفزة وعيناها تموجان بالثورات ...

رفعت رقية رأسها عن حجر امها بينما ترد الام باستهجان " ما هذا الكلام السخيف يا رباب ! اي عشم هذا ؟! "

تتقدم رباب خطوتين وقد بدى وجهها بتعابير مقلقة فتقول بنبرة هوجاء

" انا سأتصل بحبيبة حالا لتأتي .. هي فقط من ستعيدها لبيت ابيها ليعلم الجميع ان اسيا العطار لا تـ..."

قاطعتها الام بصرامة وهي تقف على قدميها

" صه يا فتاة ... "

ارتد وجه رباب للخلف وهي تنظر لامها بغضب مكبوت بينما تأمر الام رقية بالقول

" خذي الولدان لغرفتك يا رقية .. "

وبينما رقية تنفذ كانت الام تقول بنبرة فيها حزمها القديم " حبيبة في اشهر حمل صعبة والتوتر ليس جيدا لها .. كما ان اختك الكبرى اسيا تجيد التصرف .."

فتهتف رباب بنوع من الهستيرية المجنونة

" كيف تجيد التصرف وهي تعود لبيت الصائغ حيث يتقاذفون النساء على بعضهم ..؟! ان لم يأخذها الكبير فالصغير موجود ..! وان لم تكن اسيا فلتتجرعها مكسورة الجناح خلود !"

ابتهال كانت مصدومة وهي تنظر لرباب وكأنها تراها لاول مرة !

لم تكن هذه قارورتها الثالثة التي تشبهّها دوما انها اقرب بناتها لاسيا ...

يا الهي هذا الاشتعال الجنوني الغاضب في عينيها وكأنه بركان خامد وانفجر ...

حتى رقية بدت مذهولة وهي تحمل كاظم بين ذراعيه وجعفر ينظر للجميع بتوتر واضح..

فجأة رن جرس البيت وبينما الصمت المشحون قد عم الاجواء ذهبت رقية لترى من الزائر وما هي الا لحظات حتى عادت رقية وهي تقول بارتباك " انه رضا يا امي .. يقف بالباب ... يريد الدخول والتكلم معنا جميعاً "

غضب جامح شع من عيني رباب بينما تستعيد ابتهال ثباتها لتقول بلهجة آمرة

" اذهبي وارتدي حجابك يا رباب ونادي على شذرة ايضا ... وانا سأدخل بنفسي ابا جعفر "

حي الشيخ

صنبور ماء قديم معلق اعلى جدار الحمام الضيق .. يسيل الماء منه بفقر كفقر الحال الذي تضج به الجدران ...

تقف تحت الصنبور المفتوح والماء يسيل شحيحاً فوق رأسها وينحدر على كل جسدها الذي امتلأ بالكدمات والخدوش من اثر عنفه معها وهو يعاشرها برغبة مجنونة محمومة ..

جرح في جانب رقبتها ويمتد لاعلى صدرها من اثر تمزيقه للجلباب ..

عدا وجهها المتورم من صفعاته ...

لم تعرف كيف تركها على الارض منهكة
حد الاغماء ويكاد شعورها بجسدها يتلاشى
حتى ظنت لوهلة ان روحها قد فارقت الجسد !

تركها مسجاة بظليمتها وهو يرتدي ملابسه
بصمت رغم لهاث انفاسه ... ثم تحرك نحو
باب الشقة ليطعنها الطعنة الاخيرة وهو يقول
بنبرة قبيحة فجة

" سأقضي الليلة مع حمدية .."

ثم فتح الباب و... مضى ...

كيف تستطيع ان تستوعب ما يحصل لها ..؟

كيف تستطيع ان تحتمل معاشرة تحسين مرة
اخرى ؟

كيف .. كيف ستقضي ما تبقى من عمرها
وهي تشعر انها اقل من ان تحسب على البشر ...
انسانة ... انسانة من دم ولحم و روح ..

جفت مآقيها ولم يعد الدمع شكوى ومتنفساً

وليست غاية الروح الا ان تجد روحا اخرى
تحاوطها و تحميها ...

صرخة جرحت جروح حنجرتها

" آآآآآآآآآآآآآآه ابي ... آآآه ..."

لم تكن تعرف ان صرختها تصل مسامعه وهو
يقف خلف باب الحمام ...

لقد عاد ولا يعرف لم عاد ...!

عيناه جاحظتان فاقدتان لكل المعاني ..

يمسك عباءتها الممزقة بين يديه وكأن تشبثه بها اعتراف قميء بما فعله ..

وكأن القماش الاسود اخر ما تبقى لديه من انسانيته ليتشبث بها ويعترف صراحة اي حيوان قذر هو ...

عاد صوتها المذبوح ينادي (آآاه ابي.....)

فتجبره ذاكرته على استعادة وجه ذاك الرجل الطيب الذي انجبها وتناديه بلوعة فراقه واحتياجه الآن..

كم يمقت نفسه ويكره وجوده ويشمئز من افعاله ...

لكن الامر ليس بيده ...

ليس بيده ولا بيدها هي ...

توحشت عيناه وهو ينسحب دون ان يصدر صوتا كما دخل بالضبط ..

فيرمي العباءة على الارض حيث كانت ..

رائحة الخمر والحشيش تفوحان منه حتى تشربت بهما جدران شقة بسيطة طاهرة لم تعرفهما يوما ...

ثم يتمتم بضراوة حيوان وحشي لايعرف الا النهش " رضا الصائغ .. سيدفع الثمن.."

الفصل الثاني والعشرون

الحي الصناعي .. شقة خليل

كان يغلق باب شقته بالمفتاح بينما يتكلم عبر الهاتف " انا في طريقي اليك يا اشجان .. آسف تأخرت رغماً عني .."

ثم انهى المكالمة وهو يتوجه على عجل ناحية السلم كي يهبط الطابقين حتى الارضي ..

كان بمنتصف نزوله عندما رن هاتف خليل مرة اخرى فأخرج هاتفه ليحدق باستغراب لا يخلو من (نبضة مسروقة) لإسم شذرة !

وقبل ان يرد انقطع الرنين !!

ابتلع ريقه وهو يقف مسمراً وسط السلم يفكر بغيظ لماذا تتصل به خلود عبر هاتف شذرة يوم الجمعة ؟! ولماذا بضعة رنات وتتراجع ؟!

لقد فعلتها عدة مرات سابقاً واتصلت به عبر هاتف شذرة لكن في الايام العادية وليس يوم عطلة كما انها تفعلها نهاراً عندما تكون في عملها في المدرسة وكالعادة ينفذ شحن البطارية فتلجأ لهاتف شذرة تستعيره لتكلمه به لامر طارئ...

وغالباً ما يكون (الامر الطارئ) في عُرف خلود لا يعدو ان يكون قلقها على اخيها الاصغر لانه لم يتصل بها بنفسه ويطمئنها انه بخير ويعيش ويتنفس ..

عبس خليل وهو يفكر ان اخته ربما تزور بيت العطار فاستعارت هاتف شذرة ؟

لم يعرف ماذا يجب ان يفعل ..

هل يتصل بشذرة ام يحاول ان يتصل بهاتف خلود ؟ ام ربما حذيفة ؟

عقد النية وقلبه يتراقص في جوف صدره العريض ليختار ... شذرة ...

يطلب الاتصال وينتظر ... رنات متتالية واصابعه تتقلص تأهباً لانتفاضة قد تصيبه ان ردت شذرة عليه ...

مع انه يستبعد هذا الاحتمال بل يوقن ان خلود من سترد ... وها قد طالت الرنات ويبدو ان شذرة تناديها ...

عيناه الواسعتان البنيتان تعكسان خيبة الامل .. اجل .. لن ترد هي .. بل اخته خلود من سترد ..

اخذت قدماه تنزلان ما تبقى من درجات السلم القديم عندما ...انفتح الخط اخيراً ..

" مر.. مرحباً ..."

درجة سلم أفلتت من قدمه كما أفلتت عشرات النبضات من قلبه ...

تعثر واوشك ان يقع لولا يده الحرة التي سارعت لتتشبث بالدَرابزين الحديدي للسلم...

عيناه اللتان كانتا قبل لحظات تفيضان بالخيبة فجأة شعتا بلون القهوة الحارة بينما يردد اسمها واصابعه تعتصر الحديد البارد

" شذرة ؟!"

بدى صوتها شديد الارتباك مما جعل انفاسه تضطرب وهو يسمعها تقول بهمس متعثر

" اسفة .. اسفة .. لم يكن يجب ان .. اتصل بك .. لقد .. اخطأت ..."

تباً تباً .. اخطأت واتصلت .. ؟!

أسبل اهدابه قائلا بنبرة رجولية عفوية

" لابأس .. حصل خير ..الا تحتاجين لشيء مني ؟"

طال صمتها مما جعله يندهش !

ثم اخيرا قالت بنبرة حيرته

" كنت اريد ان.."

وقبل ان تتم جملتها سمع صوتاً جوارها فتستأذن شذرة بحرج " لحظة رجاء .."

ويشعر انها تكتم الهاتف بيدها بينما يسمعها ترد على من يكلمها

" قادمة رباب .. سأنزل حالا.."

اخيرا عادت اليه لتقول بنبرة اغرب وارتباك اشد " اسفة خليل .. يجب ان اذهب الان.. ينتظرونني في الاسفل .. اعتذر عن .. الاتصال بك .. مع السلامة .."

لتغلق الخط وتتركه هناك على اخر السلم يحدق امامه وعذاب القلب يتلاعب به ...

يرميه تارة على شاطئ عذوبة صوتها ثم يسحبه تارة لعمق بحر يأسه ان ينالها يوما ليطفو اخيرا في سعادة ودهشة حوارهما الاول..الحقيقي الاول..

أعاد الهاتف لجيبه بينما يصل للطابق الارضي فيتحرك آليا في طريق تحفظه قدماه بينما تضربه موجة جديدة غير متوقعة ..

موجة بتأثير قديم لم يختبره من سنوات ...

مذ كان مراهقاً غاضباً على الدوام حانقاً من كل شيء ...

انها موجة ... الغضب والتمرد ....

بيت العطار ... غرفة المعيشة ..

يجلس رضا مطرقا بملامح هادئة رزينة بينما يتلاعب بخاتمه في حركته المألوفة وينتظر بصبر نزول الفتاتين .. شذرة ورباب ...

ولده جعفر استجاب لرغبة ابيه واخذ أخاه الصغير كاظم الى غرفة جدته ابتهال حتى يشغله لبعض الوقت ...

رقية تجلس جوار امها قبالته تحدق فيه بنظرات غريبة ..

لاول مرة يرى فيها تلك الـ (رقية) الصغيرة الطفلة .. طفلة تطل من عينيها وهي تحدق فيه وكأنها تنتظر منه امرا واحدا..



ان يؤكد لها ان ما حصل مجرد كابوس مر وكأنه لم يكن ...

تمتم رضا في سره (سامحك اللّه يا حسناء .. ما الذي فعلته بجهلك وقلة حيلتك .. لم أعد حتى قادرا ان أمد لك يد العون ولا اعلم ما الذي تكابدينه الان .. لكن اللّه شاء وما شاء فعل)

" مساء الخير ابا جعفر.."

رفع رضا عينيه ليتطلع لشذرة .. تلك الفتاة الهادئة التي تقطن بيت العطار واصبحت جزءا من قواريره ..

رد عليها رضا التحية وعيناه تراقبان وقفة رباب عند الباب وكل ملامحها تنتفض بالغضب الساطع ... تشد قبضتيها الى جانبيها وكأنها تستعد للقتال..!

رفضت بصمت ان تجلس كما فعلت شذرة رغم ان امها طلبت منها ذلك لكن رباب لم تستجب..

عيناها العسليتان لاتفارقان وجه رضا وكأنها ويال العجب تريده ان يؤكد لها عكس ما تريده اختها رقية ...!

بدت رباب وكأنها .. تنتظر منه اعترافاً!

هل يصدق حدسه ان الفتيات متأثرات بزواج والدهن على امهن اكثر مما كان يتصور ؟

رباب ورقية كانتا صغيرتين وبعمر حرج ..

يذكر جيدا رباب وهي في السادسة عشرة عندما كان يراها صدفة في الحي تسير للبقالة او محل ابي ناجي ..

كانت ترفض التعاطي مع الجيران بعد وفاة والدها ، تتجنب بالاخص الحديث مع النسوة عندما تلتقي باحداهن في الطريق فتسألنها عن حال امها وهن يمصمصن الشفاه حسرة عليها ...

تلك الفتاة المعتدة بذاتها وكينونتها كانت تعاني خلف الهدوء والتماسك ...

تعاني وتكبت وتندفع في طريق مستقبلها تؤمنه بالطريقة الوحيدة التي تجدها تحفظ لها كرامتها ...

قال رضا وبنبرة شبه آمرة مرفولة بالرقة التي تذيب الحجر

" تعالي يا رباب .. اريدك جواري .."

لم تستجب بل انتفض جسدها بردة فعل نافرة بشكل واضح ليعاود الدعوة وهو يربت جواره بكفه قائلا بحزم

" تعالي هنا .. لن اتكلم الا وانت جواري.."

ثم ابتسم لها مضيفاً " هل كبرت علي يا قرفة العطار ولم تعد كلمتي عندك مسموعة ؟ "

اشفق قلبه عليها وهو يرى تلك الارتعاشة في شفتيها فعلم انها رأت فيه والدها بشكل جليّ...

تحركت خطوة ثم توقفت والصراع في عينيها اكثر جلاء ووضوحا ...

ثم .. ارتج رأسها بارتعادة أثرت في رضا أيّما تأثر .. بدت ... منهكة بالصراع .. منهكة بالغضب .. منهكة بكتمان صراخ يعلو في عينيها وتقبضه شفتيها في مقاومة تنهكها اكثر واكثر ...

صبر عليها حتى تتخذ قرارها فكان اخر صبره ان رآها تتحرك لتجلس على نفس الاريكة التي يجلس عليها لكن في أبعد نقطة عنه ..

وكأنها تثبت موقفها الرافض له رغم انصياعها لمطلبه ...

استعان بالله قبل ان يبدأ الكلام موجها كلامه لحماته

" ما حصل اليوم اتحمل وزره .. فامسحيه بلحيتي يا خالة ابتهال "

بوجهها الذي يفيض بالطيبة والثقة قالت ابتهال " لاتقل هذا يا ابا جعفر .. لحيتك معطرة دوما بمسك الاصالة والرجولة .. انت ولدي وسندي ..."

كانت رباب تتطلع اليهما وهي تهز ساقها اليمنى دون ان تشعر .. عيناها تغوران وكأن ما تستنزفه من طاقتها الداخلية يمتصها امتصاصا ...

يلاحظ رضا كل هذا بطارف عينه لكنه يرد على حماته بالقول " حفظك اللّه لنا يا خالة... لكن الاعتراف بالحق فضيلة .. وانا اخطأت ولم اقدر صحيحاً حجم ما قد تقدم عليه امرأة جاهلة مسكينة يائسة كتلك المرأة .. "

لم تحتمل رباب لتهب على قدميها تستنزف ما تبقى من قواها وشحوبها يتزايد بينما تهتف

" تصفها بالمسكينة ؟! تلك الطامعة التي جاءت هنا تناظر اسيا بالحسد وبكل وقاحة تطلبك زوجا لها .. وبعد كل هذا تصفها بالمسكينة ؟! "

عينا رضا لاتحيدان بعيدا عن وجهها ويقلقه حالها لكن لا يُظهر شيئا من مشاعره تلك ليرد بصلابة عسى ان يجعلها ترى أبعد مما تراه الآن " اجل يا رباب مسكينة .. لم تحظَ ببيت كبيت والدك العطار رحمه اللّه ولا تعليم كتعليمك ولا بيئة نظيفة صالحة كالتي ولدتُن ونشأتُن فيها انت واخواتك البنات ..."

كانت رباب تنهت وهي تتطلع فيه معقودة اللسان بينما يواصل رضا بهدوئه " لا اب ولا أخ ولا زوج ولا جيران ولا سند من اي نوع .. وحدها هائمة في الدنيا تقتطن حيا موبوءا بكل انواع الفواحش والعنف يكاد ينتهك حرمتها ان لم ينتهكها اصلا ونحن ها هنا

نجلس آمنين جميعا في بيوتنا .... نسمع عن امثالها ولا نصادفهم بالضرورة .. هل تتصورين ان ما فعلته هيّن عليها ؟ انها تدوس كرامتها لتحفظ عرضها بوسيلة لاتراها غريبة في عرفها .. تتخبط هنا وهناك بقلة حيلتها وجهلها وثقافتها المحدودة وادراكها المنعدم لاختلاف بيئنا وعرفنا عنها .."

ثم يقف على قدميه بهيبته عيناه تميلان ناحية رقية الشاحبة يبتسم لها بحنان خاص ثم يضيف " ليس كل ما ترينه من أناس مختلفين تحكمين عليه بحكم واحد ..."

ثم تحرك ناحية حماته لينحني ويقبل رأسها قائلا بنبرة رجولية " انا جئت فقط لاعتذر لصاحبة الدار عما جرى تحت سقف بيتها ..

ولأنهي الحديث في مسألة ما كان لها بداية من الاصل ! لكن الامر نفذ .. وعلينا تقبل ما ترمي به الحياة في طريقنا رغم ارادتنا ونتعامل معه بحكمة .."

تتشبث به ابتهال ترفع كفيها لتلامس لحيته وتقول له بتأثر خاص وفهم متبادل

" مجيئك الينا الان لن ينتسى يا ولدي .. أدامك لنا اللّه يا ابا جعفر وأنعم عليك.. "

يحرك وجهه ويمسك بيدها ليقبل ظاهر كفها قبل يعتدل بوقفته ليسير وهو يلقي السلام مغادرا ويقول باجفأن مُرخية

" تعالي رباب .. اريد ان اكلمك بينما توصليني للخارج .."

أتاه صوت شذرة مرتعشاً وهي تسأل بغصة مكتومة " يا ابا جعفر .. وماذا عن خلود ؟ هل.. هل ستكون بخير .."

يلتفت جانبا يبتسم يطمئنها " باذن الله كل الامور ستكون بخير .. لاتقلقي .."

ثم واصل مسيره تتبعه خطوات رباب ...

لم تكن تعرف كيف تطاوع قدماها طلبه وانفاسها تكاد تلهث وكأنها في سباق ركض لعشرات الامتار ...

ما زالت تائهة في بحور امواجها تتلاطم ...

لا احد على الاطلاق يشعر بها كيف تصارع تلك الامواج لتنجو الى بر أمان .. أي أمان...

انها ليست بحور .. بل نيران .. اجل نيران متأججة كأمواج من لهب تضربها مرارا وتكرارا فتتوجع بالاحتراق وتتوه اكثر واكثر ... لكنها تقاوم حتى لاتغرق لقاع الجحيم ...

تبعته شبه مغيبة حتى خرجت خلفه الى باحة المرآب وقبل ان يصلا الباب الحديدي الكبير للبيت التفت اليها رضا يمعن النظر فيها ويشفق كل الشفقة لحالها الضائعة المتألمة تلك...

لم يكن يحتاج للسؤال ليفهم ..

لقد انكشف الغطاء وبات سر القارورة المكتومة واضحاً للعيان ...

قال مباشرة " ان كنت تظنين اني أتيت الساعة لأبرر نفسي امامكن فلن أقول الا .. انك لم تعرفيني بل انك لم تعرفي قدر اسيا عندي حتى اللحظة .."

رفعت عينيها الغائرتين اليه تتمتم من بين شفتيها المتيبستين بحزن دفين قاتل

" لن تكون كقدر امي عند ابي .."

اتسعت عينا رضا للحظة فقط مصدوماً من انهيارها الصامت وهي تعترف تماما بعلتها ...

اقترب منها ليقول بنبرة جادة وكلمات تحمل معان هامة " حذاري يا فتاة من جروح تحدثينها في قلوب من تحبين ... جروح قد لايشفيها الزمن ابدا .. وانت اكثر من يعرف هذا .. "

بدت وكأنه صفعها ! وكأنها ادركت للتو ما تفوهت به وكيف يسيء لامها ...

ليضيف رضا بما يعتقد ان على رباب مواجهته والتفكير به بشكل مختلف ونضج جديد

" والدك رحمه الله قد يكون ارتكب خطأ لكنكِ لست بأهل لتحاسبينه .. خاصة وهو بين يدي خالقه ولايملك ان يرد عليك .. كما انك لست بأهل لتفرضي علي انا واسيا نفس الصورة المشوهة .. او حتى فيما يخص حذيفة وخلود .. عرفتك اكثر عمقا من هذا فأين عقلك ؟!.. "

تحيط جذعها بذراعيها وهي تحدق فيه بعجز مؤلم فتنطلق صرخة جديدة مأسورة من قلبها لكن لا تغادر حنجرتها لتكبتها انفاسها ..

الى متى تقمع تلك الصرخات ؟!

كان يعرف انها تعاني .. بل لم يكن بحاجة ليفكر كثيرا ويمعن النظر فيها اكثر ليعرف كم تعاني ...

الجدار الذي كان يعزلها إنهار ولم تعد تستطيع الاختباء او الادعاء ...

قال اخيرا وهو يمد يده للباب الحديدي يفتحه

" اسيا عندي بالدنيا وما فيها .. هذا لن يتغير .. انه أمر يفوق قدرتي على تغييره حتى لو أردت.. ولن اسمح لاي انسان ان يجرحها بتقليل قيمتها في حياتي .. حتى انت يا رباب لن اسمح لك بجرحها جرحا كهذا .."

ثم خطا للخارج مغلقاً الباب خلفه وهو يتمتم

" عمت مساء يا قرفة ..."

تقف مكانها تحيط نفسها بذراعيها يغرقها طوفان من الذكريات والصور ...

كل شيء تشابك وتداخل ..

لم يعد هناك اي حقيقة ثابتة تمسكها بيدها لتكون بداية الخيط لاستقرارها النفسي ...

وهي تعيش دوامتها تلك كان رضا يصل باب البيت المقابل فيجد اخاه الاصغر واقفاً هناك يتطلع لوجه رباب عن بعد ...

ربت رضا على كتفه وهو يقول

" دعها اليوم .. تحتاج ان تكون بمفردها.."

ما زال عبد الرحمن ينظر نحوها بينما يرد عل اخيه " انها لن تنسى الماضي يا رضا .. لن تنسى ان اباها تزوج على امها في لحظة ضعف.. وسيظل الامر يتجدد داخلها كلما مرت بحدث مشابه .. كيف سأقنعها ؟! كيف ؟! "

شعر رضا ببعض الراحة ان عبد الرحمن استطاع بطريقة ما ان يفهم علة رباب ...

على الاقل قد ادرك العلة .. فيقول له وهو يدخل للبيت " انا اثق انك ستجد طريقة .. استفتِ قلبك وشاور عقلك .."

ثم تركه و مضى ناحية الدرج الى حيث تكون اسيا بانتظاره ..

رغم انه يدرك انها بحاجته ليكون قربها ويتفهم هواجسها كامرأة تغار على رجلها لكنه يحتاجها كما هي تحتاجه ..

انها تلك الايام الصعبة التي تمر به فيخفي احساسه بالتعب لان الجميع ينتظر منه ان يكون صلباً وقادرا على اعادة الامور لنصابها..

وتبدو هذه الايام اصعبها او ربما ببساطة قد كبر ولم يعد شابا كفاية ليحتمل ..

ويبقى هذا هو قدره الذي حمّله إياه والده وهو ارتضاه وسيرتضيه لاخر عمره ..

شقة رضا واسيا

اطلق نفساً خافتاً مرتاحا وهو يراها امام ناظريه تجلس باسترخاء نسبي على الارضية المفروشة ببساط خفيف يناسب الربيع .. جلبابها الازرق المطرز يليق بلون بشرتها خاصة مع وجهها المتورد من اثر حمام ساخن اخذته قبل قليل كما يشي بذلك شعرها الرطب المحلول بعفوية .. وروائح الاعشاب العطرة تفوح من الكوب الذي تحمله بين كفيها لتعم في المكان ..

علق عباءته بنفسه بينما يقترب منها وهو ينظر اليها بجذل فتسأله ببعض القلق

" هل كلمتهن ؟"

ينحني ليجلس على الارض جوارها يميل بوجهه ليقبل وجنتها المحمرة الدافئة ويقول وعيناه تغازلانها

" كلمتهن سلطانة قلبي .. لاتقلقي .. فقط استرخي .. ما أشهاك وانت جالسة على الارض كأميرة زمانك .."

عيناها تناظران عينيه وفيهما كلام لم يسمعه من لسانها ..

سألها وهو يمد اصابعه لشعرها الرطب

" هناك ما يعكر صفاء نظراتك لي ..."

ردت وهي ترخي جفنيها " كنت افكر ..."

ما زالت اصابعه تداعب بضع خصلات وهو ينتظرها تتكلم متى ما شاءت الافصاح ..

عاودت النظر اليه لتمعن النظر فيه وتسأله ورائحة الغيرة تختلط برائحة انفاسها

" في الفترة التي أتتك بها .. تلك المرأة .. انا شعرت ان هناك .. مايشغلك عني ..هل كانت .. هي ..؟ "

لم تتغير تعابيره ليميل قليلا وهو يرفع خصلة من شعرها لفمه يلثمها هامساً بنبرة رجولية

" وان يكن (هي) .. وان انشغلت بحالها وشكواها ..ما الذي سيتغير ؟ هل سيجعلك تشكين في قلبي ؟"

تمتمت بارتباك انثى غيورة " لا ولكن ..."

تنهد ثم ابتسم ثم تلألأت عيناه بالشجن ..

فيقول معاتباً " ولكن ماذا يا من ارجفت قلب رضا .."

عضت شفتها السفلى وكأنها تمنع رجفة بكاء وهي تصارحه بما في قلبها من وساوس

" لماذا طلبت التعجيل بانجاب طفل ثالث ؟ هل.. هل كنت تتحصن بي منها ؟ لقد كنتَ غريباً بعض الشيء وانت تطلبها مني .. "

كان ينظر اليها ويؤنب نفسه ألف مرة كيف سمح للوساوس ان تصل حتى باب قلب اسيا وتدخله .. هل يلومها ؟ يعاتبها ؟ يود لو يفعل ويذكرها بروحه التي كانت تنتظر هديلها مع فتات خبز ترميه للحمام عند كل فجر ..

لكنه آثر ان يسلك درباً اخر معها ..

آثر ان يكلم عقلها ومنطقها الحكيم ..

فأن غلبت وساوس الاناث قلبها فلن تغلب عقلها..

قال لها بنبرة هادئة دافئة " انت تربطين الامور بعاطفة النساء يا اسيا ولو امعنت النظر قليلا ستجدين ان هذا لا يتعلق بذاك ..

كانت مجرد صدفة من جعلت الامرين يحصلان بالتوازي ... كل ما في الامر كنت قلقاً من أمر آخر يخصني وحدي .. بل وما زلت اعيش هاجس نفس القلق .."

بدت آسيا قد استعادت تركيزها في لحظة لتضع كوبها جانباً وتسأله باهتمام

" مم تقلق .. ؟! "

قال وهو يسبل اهدابه مفضفضاً بما في نفسه

" انا اشعر اني كبرت يا اسيا .. اولادي ما زالوا اطفالاً صغاراً وانا اوشك على الخمسين .. ! عندما طلبت منك التعجل بانجاب طفلنا الثالث لاني .. خفت .. خفت من الزمن الذي يقهر الرجال ويجعلهم ضعافا بعد قوة .. خفت اني لن اجد ايا من قوتي لأربي اولادي واراهم يكبرون ويشتد عودهم امام ناظري ..."

همستها العذبة باسمه لفحت روحه " رضا ... "

تنحنح ليجلي صوته بينما تتسربل الفضفضات اكثر واكثر من فمه .. ربما للمرة الاولى يفعلها في حياته

" الكل يراني جبلا راسخاً يحتمل الاعباء دون شكوى او قلق .. لكني مجرد بشر يا اسيا .. تنتابني نزغات الشيطان وافكر لماذا حرمت نفسي منك لسنوات طويلة حتى بلغت الاربعين .. ؟ (لو تزوجتك باكرا لكان اولادنا الان رجالا وربما نساء) .. تلك الـ(لو) تزعزع ثباتي وقناعتي وتفتح باباً للشيطان اني كبرت وفاتني الكثير وسأشيخ قبل ان اطمئن عليهم .. او اسعد برؤية احفادي وانا بكامل صحتي وعافيتي .."

وكأن فيها رائحة الجنة وهي تغمره بحضنها الدافئ وقد استقرت في حجره تلف ذراعيها حوله لا بطلب ... بل ... بعطاء ..

تعطيه منها وهي تهمس له بقوة امرأة فريدة

" حفظك الله لنا وادامك فوق رأسي تاجاً افاخر الدنيا به .. انا سندك يا رضا .. لست وحدك .. انا معك .. أرمي علي حمولك ولن أكون ابنة يونس العطار ان خذلتك يوماً .."

امام باب الملحق ..اخر الليل ..

قال عبد الرحمن لخلود التي تطأطئ رأسها بانكسار يمس قلبه

" خوخة اذهبي لتنامي وترتاحي .. "

تهز رأسها بينما تستدير لتلحق بسوسو التي سبقتها الدخول للملحق ..

عيناها لاتطرفان حتى ناحية زوجها الذي يقف منحنياً وسط الحديقة الصغيرة يعبث ببعض قطع الخشب القديم ..

اغلقت باب الملحق وهي تتمتم بكلمات مبهمة لعبد الرحمن فهمها كتحية مساء .. او ربما تصبح على خير ...

استدار عبد الرحمن ليواجه خيال اخيه الضخم والسيجارة بوهجها المشتعل معلقة بجانب فمه بينما يواصل ما يفعله مع قطع الخشب وكأنه خالي البال ! وكأن شيئا لم يحصل في هذا اليوم الطويل المضني ...

اقترب عبد الرحمن منه يكتم غيظه وغضبه وهو يسأل من بين اسنانه

" كيف تفعل هذا بخلود يا حذيفة ؟"

يرفع حذيفة وجهه لاخيه ثم يمسك بالسيجارة جيدا بين اصبعيه السبابة والوسطى ليأخذ نفساً عميقا منها قبل ان يرميها جانباً وهو يرد على اخيه بلا مبالاة مغيظة

" لاتتدخل انت وانشغل باموركـ .."

تتقبض يدا عبد الرحمن وهو يقول بحرقة وجعاً على المسكينة المنكسرة

" لقد طعنت قلبها .. كيف تفـ.."

يقاطعه حذيفة وهو يمسك بالمطرقة ليقتلع من جانبها الخاص المعقوف مسمارا معوجاً صدئاً مغروزا في قطعة الخشب

" بل هي من فعلت .."

اطلق عبد الرحمن نفساً ليخفف من حدة حنقه وضيقه ثم جلس على الارض المعشوشبة يسأله بصبر لايتمتع به في الواقع

" هل انت جاد بالزواج من تلك المرأة ..؟"

كان حذيفة يقتلع مسمارا اخر وهو يبتسم ابتسامة جانبية ساخرة ويطرح سؤالا مزعجا باسلوبه " ما رأيك انت ؟ ..."

فيرد عبد الرحمن بجدية وهو يمعن النظر في وجه حذيفة بتعابيره المتلاهية

" لااظنك جادا على الاطلاق لكن هذا لايمنع ان خلود لاتستحق هذا الاذى منك ولو بمجرد الكلام عن الزواج باخرى وامامنا جميعا تكسرها هكذا .."

لا يرد حذيفة بشيء ويده التي تعمل تفضحه بارتعاشة أفلتت منه حالما ذكر عبد الرحمن الاذى الذي اصاب الهبلاء منه ...

عندها سأل عبد الرحمن سؤالا يدور بخلده ولايقاوم ان يطرحه

" هل تفعلها ... لاجل اسيا؟ هل ما زلت تبحث عن وسيلة لترضي ضميرك نحوها ؟

تمتم حذيفة باختصار وهو لايبدِ اي انفعال

" ربما .."

يواصل حذيفة صراعه مع المسامير بينما يواجهه عبد الرحمن بالقول

" حذيفة .. مؤكد انت تعرف ان رضا لن يفعل امرا سخيفا وغير منطقي كهذا كي يحمي امرأة تستجير به .. هناك وسائل لا تحصى لحمايتها غير منحها اسمه .. ورضا ليس بالرجل الذي يقدم على خطوة متهورة كهذه غير مبال بتأثيرها على جميع اهل بيته وليس اسيا فحسب .. لقد صبر لثماني سنوات وهو يرى اسيا امامه كل يوم لكنه صمت عن رغبته الزواج منها لاجل العائلة .. "

رمى حذيفة المطرقة بقوة على الارض بينما يسأل بنزق " انت تفلسف الامور وانا تعبت منك .. ماذا تريد مني الآن ان افعل لتحل عني وتتركني في حالي ؟"

رد عبد الرحمن بتأثر شديد " ما اريده ان تطيب خاطرة المسكينة التي تعشق التراب الذي تسير عليه .."

سحق حذيفة اسنانه قبل ان يقول بتوتر رغم سخرية كلماته " ما بك يا ابن والدي .. وكأنك تحمل السيف وتأخذ دور حامي حمى النساء الليلة ..! "

فيفاجئه عبد الرحمن بالقول

" ربما بسبب رباب ..."

عبس حذيفة وهو يتساءل

" ماذا بها هي الاخرى ؟"

تنهد عبد الرحمن عميقا قبل ان يرد

" لقد عرفت السبب ..."

ارتفع حاجبا حذيفة فيسأله بدهشة

" هل اخبرتك ؟! متى ؟ وكيف ؟ "

رفع عبد الرحمن نظراته للسماء المظلمة

قائلا " غلطة واحدة ارتكبها الحاج يونس

العطار تركت اثرا لايمكنك تصوره .."

لم يفهم حذيفة ما يرمي اليه اخيه الاصغر

فيسأله ببعض النزق

" اي غلطة ؟! عمّ تتحدث ؟"

رد عبد الرحمن " زواجه من رفيدة ! "

اتسعت عينا حذيفة وبدا كمن يحاول جمع

الامور الى بعضها قبل ان يفهم ويعبر بالقول

المصدوم " يا الهي .. لم يخطر لي يوماً انه

السبب ! لقد ظننتها تهاب الزواج لامر يتعلق

بها كأنثى .. ظننته رهاباً من نوع ما .. "

فيتطلع اليه عبد الرحمن قائلا ببؤس

" هو رهاب ايضا يا حذيفة .. رباب تعيش رهاب

(منح الثقة) .. انت لم تكن موجودا لتعيش ما

عشناه قبل سنوات وابي على فراش الموت

يرضخ لضعف رفيدة ورغبتها المحمومة

ليكون لها زوج وبيت بأي ثمن .."

تمتم حذيفة عابساً

" لااعلم كيف وافق على هذا .. "

ليشرح له عبد الرحمن الوضع كيف كان في

وقتها

" كان قلقا عليها وأدمت قلبه بإنكسارها وكآبتها .. وجاء طلب الحاج يونس وكأنه هبة من السماء تطمئنه ان ابنته ستكون بعهدة رجل يثق به .."

تأفف حذيفة وهو يقول بذكرى قديمة

" الحاج يونس... كان والدنا يلقبه دوماً بـ (ابي القوارير) .. لا اعلم كيف وصل به الحال ليفكر ان يتزوج على الخالة ابتهال لانجاب صبي ؟! لقد كان متعلقاً جدا باهل بيته والكل يحسد بيت العطار على تدليله لهن .."

وقف عبد الرحمن على قدميه لينفض ملابسه وهو يقول بتفكير

" ما حصل قد حصل .. المهم عندي الان هي رباب .. احتاج لصفاء عقلي بالكامل لاجد وسيلة للتعامل معها ..."

ثم تحرك عبد الرحمن وهو يضيف برجاء ضمني " اذهب لخلود .. انها تقطع قلبي .."

صمت حذيفة حتى غاب عبد الرحمن عن ناظريه ليردد بوجه متجهم

" وكأنها لاتفعل نفس الشيء بقلبي انا ! لااعلم كيف سأصبر يومين اخرين وهي بهذه الحال .. لكن .. لابد ان افعلها .. انها لن تتعلم الدرس اذا لم تذق اذيته حرفياً وتعقل ابعاد ما تلهث خلفه بغباء .. لكن اقسم بالله بعد اليومين سأذيقها الامرين لما تفعله بي الآن "



حي الشيخ ...بيت حمدية ..

على سرير قذر بافعال اجساد توالت عليه
لتُمارس الرذيلة في مهنة قديمة منذ الازل
عندما اختارت المرأة جسدها معنوناً
للـ(استخدام) لقاء أجر واختار الرجل ان يدفع
ذاك الاجر ليفرغ غريزة جسد تحكمه
وتذله احياناً فيهين نفسه ويرخص روحه وهو
يتبع شيطانه الذي يعُد معه ما في جيبه من
مال حتى يمنحه لجسد امرأة مستأجر ...

لكن تحسين وبين اغطية السرير (القذر)
يصارع ويلاحق رغبات جسده مع جسد حمدية
فلا يجد فيه ما يحفزه ...

تضج في عقله اللاهث وراء الغرائز صورة جسد
حسناء الذي انتهكه بجنون قبل ساعات ..

فعلها بالحلال .. هذا صحيح .. لكنه يشعر انه
نالها كما لم يرد ان ينالها ..!

هي السبب .. هي السبب ...

لم يشعر الا وهو يشد بعنف شعر حمدية
المصبوغ بالاحمر فتصرخ به

" كفى .. ستقتلع شعري من منابته.."

ينهض بجسده يحدق فيها لاهثاً ورغبة
مجنونة تسيطر عليه يود لو يصفعها مرارا
وتكرارا .. بل يود لو يمزق جلدها العاري امامه
وقد تعرى جسدها من اية قطعة قماش
تستره..

تبتسم حمديه في وجهه ابتسامة خليعة منفرة فتتراءى له صورة وجه حسناء من خلف ستار العباءة السوداء ...

بشرة بيضاء نقية عينان كحيلتان وفم محمر تحليه ثلاث نقط زرقاء تراصت على حنكها تشعل في صدره النار ...

جاء صوت حمدية بشعاً وهي تقول باستهانة

" ماذا حصل لك يا تحسين ؟! هل الزواج بالحسناء افقدك رجولتك منذ الليلة الاولى؟!"

اتسعت عينا تحسين وهو يحدق في وجه حمدية لترتفع كفه الضخم الثقيل وينهال صفعاً على وجهها القميء بينما تصرخ هي فيه

" آآآآآآآآآآآآآآآه ... ايها الكلب الاجرب ..ايها الـ...(......) .. آآآآآآآآه ... توقف ايها الـ ... "

يستمر بصفعها يبادلها الصراخ اللاهث

" قذرة ... حقيرة .. ساقطة .."

تتصارع معه بيديها وهي تحاول خربشة وجهه باظافرها الطويلة وترد له شتائمه

" لست بأقذر منك .. ايها السافل ..آآه .. ايها الحيوان .. اذهب اليها .. لماذا جئتني انا .. آ..عسى ان تهرب منك ولا ترى وجهك القميء ...المشوه .."

فجأة توقف عما يفعله وعيناه تجحظان بنظرة تفيض بالخوف ثم ... رغبة بالقتل !

لقد تذكر انه ترك حسناء ولا رقابة عليها..

رجاله يتوقعون انه معها ومؤكد لن يراقبونها..

تحرك مبتعدا بعنف عن حمدية واخذ
يرتدي ملابسه على عجل ..

اخذت حمدية تمرر يدها على وجهها المصفوع
وهي تنتقم منه بالكلمات " اجل ألحق بها قبل
ان تهرب .. ولا تنس ان تغتصبها مرة اخرى .."

كان يوشك على تزرير قميصه عندما
تسمرت اصابعه وهو يسأل بصوت غليظ

" ماذا تقولين يا امرأة ؟! "

تضحك حمدية بخلاعة ثم تمرر يديها على
جسدها العاري تحاول اثارة رغبته فيها وقد
ضايقتها تلك اللهفة من تحسين ليلاحق
زوجته ...

لكن عينيه الجاحظتين لم تكن تراها
وتلك النظرات فيهما اشعلت في قلبها الغيرة
تنهشها نهشاً .. فتتشوه ملامح وجهها بالكره
وهي تحقره بالقول " اقول ما علمه حي الشيخ
بأسره .. صراخها وجنونك باغتصابها وصل
كل الاسماع ومن لم يسمعه باذنيه فقد وصلت
اخبار عبر ألسنة هذا الحي البائس .. زوجتك
الفاضلة اسمها اصبح على كل لسان .. "

اقترب بغضب مرعب ليمسك شعرها ويشدها
بعنف حتى جعلها تصرخ بينما يهزه وهو يقول
" سأقطع لسان من يتكلم عنها كلمة
واحدة.. لا احد سيتكلم كيف اعاشر
امرأتي.. واول لسان سأقطعه هو لسانك.."

عيناها تغليان بالغيرة .. ماذا وجد في حسناء تلك ليتزوجها ؟ تلك الحثالة التي تدعي الطهر والعفاف ..

هدرت فيه بشراسة امرأة تكره ان ترى ضوءا اخر نفق لن يكون يوما نفقاً لها " حذاري يا فتوتنا العاشق .. لن تستطيع دوما قطع كل الألسنة .. قد تراهم يجتمعون ضدك ليقطعوا .. اكثر من لسانك .."

دفعها بقوة حتى ارتطم رأسها بجانب السرير فتأوهت حمدية وهي تلعنه وتشتمه ليغادر تحسين شبه راكض وهو يتوعد ويحلف أغلظ الايمان انه سيقتل حسناء هذه المرة اذا فعلتها وهربت ... سيبحث عنها حتى يجدها ثم يذبحها بسكين ثلم ..

شقة حسناء

فتح باب الشقة بحركة عنيفة واحدة ليراها مباشرة امامه ممدة على اريكتها فتبهت ثورته الجنونية في لحظة واحدة وتندلع ثورات اخر.

يحدق فيها بنار مستعرة وقد كانت هبت مفزوعة على قدميها من استلقائها على تلك الاريكة المتالهكة التي تتخدها مناما لها وتحدق فيه برعب لايوصف وهي تتشبث بطارف غطائها وجسدها يختض امامه ...

انفاسه تتسارع وهو يغلق الباب خلفه ويصارع رغبة تحرق روحه قبل جسده وهو يقترب منها ببطء يمعن النظر فيها بجوع ..

ضفيرتها الطويلة السوداء تتدلى على ظهرها وبشرتها البيضاء تكشف اثاره التي تركها عليها ... وجهها .. ما يظهر من رقبتها ... ويستطيع تخيل باقي اثاره على ما خفي من جسدها تحت الجلباب القديم المحتشم الذي ترتديه ...

اجل .. قبل ساعات نالها بجنون لا يصدق ... كان احساسا رهيباً بالعنف لم يصل لمستواه سابقاً..

لكن كل آثاره البشعة لم تستطع طمس حُسنها..

انه حُسن ما بعده حُسن ...

منذ ان شبت وحُسنها الوضّاء يشع ويقتله بضيائه الذي لايصل اليه...

لماذا لايصل اليه ؟!

حتى اللحظة لا يصله .. حتى اللحظة يكاد يقتل نفسه بيده لانه لا يصل ابدا...

لكن تباً له ان أذلته وأركعته بحُسنها البعيد المنال هذا .. تباً ان جعلته يلهث طوال حياته دون حتى ان يلمسه ...

كيف ؟! كيف ؟؟ كيف ينال جسدها بكل تلك الوحشية دون ان يشعر انه نال حتى لمسة منها ؟! كيف ؟!

صرخ فيها " اذهبي وأعدي لي العشاء .."



جسدها يهتز بحركة لليمين ..واخرى لليسار دون ان تخطو قدماها خطوة واحدة ..

كانت مرتبكة مرتعبة لايسعفها عقلها لتستوعب المطلوب لتنفذه وتنجو !

صرخ بصوت اعلى " العشاء يا امرأة .."

ارتد جسدها للخلف حتى سقطت جالسة على الاريكة خلفها ثم بعينين متسعتين هلعاً ألهمها اللّه الاستيعاب لتهرول ناحية الزاوية حيث موقدها الصغير الذي تطبخ عليه ..

يسير تحسين ببطء حتى وصل الاريكة فيجلس عليها وعيناه تراقبان يديها المرتعشتين وهما تقطعان بضع حبات باذنجان...

اصابع يده تتقلص فوق الغطاء الذي تركته على الاريكة ..

ظل يراقب يديها وهي تعد له عشاءه .. ثم بدأ يشعر بخدر ورائحة الطعام تصله فتبعث فيه شعورا عجيباً كأمر سلطاني ان يغفو ...

جسده تراخى شيئا فشيئا .. ولم يشعر الا برائحة الغطاء قرب أنفه وقبل ان يقاوم ما يحصل له كان شخيره يعلو ...

كانت حسناء تطفئ موقدها القديم منهية عشاء فقيرا من الباذنجان المقلي عندما سمعت صوت شخيره ..

التفتت اليه بقلب متسارع النبضات فتراه يستلقي بنصف جسده على الاريكة ..

بجذعه فقط بينما رأسه غارق بين طيات الغطاء..

تركت صحن الباذنجان حيث هو لتنهار جالسة على الارض تحدق بجمود وصدمة متأخرة في هيئة تحسين كأنه قدرها التي أتاها على عجل وغفلة...

بل هو قدرها فعلا ..

فمن يستطيع ردع القدر ...؟!

وضعت يدها على خدها تحدق في الارض وفكرة واحدة تسيطر عليها ..

أن تحسين في احدى نوبات جنونه سيقتلها ..

تحسين بات نذيرا لقرب أجلها ...

غرفة سوسو ... الثالثة بعد منتصف الليل

غارقة في دموع الصمت والوجيعة تقتات على رهافة قلبها تعض شفتيها تدميهما وهي تكتم شهقات بكائها ...

ها هي تنام على الارض القاسية جوار سرير سوسو تلتحف برد الهجر بعيدا عنه ..

سيأتي يوم ربما وتشهد مسامعها صوت (زوجة) جديدة يبثها حبه دونها ...

زوجة تكون اما لولد قادم وربما حتى .. اما لصغيرتها سوسو ..

إنه حتى لم يعترض عندما اخبرته سوسو ان خلود ستنام جوارها الليلة ..

لم يبال ولم يقل كلمة .. كلمة واحدة تطيب خاطر قلبها..

حتى وان قرر الزواج بأخرى الا يحق لها بكلمة واحدة منه ؟ الا .. يغفر انها تحبه؟

توقفت نبضها لحظة وباب الغرفة يفتح ..

كتمت انفاسها بغباء وقد كانت تريد كتم دموعها ...

شعرت بخياله الضخم يجثو فوقها ثم كفاه تحاوطان جسدها لتقلبها نحوه ثم يرفعها بين ذراعيه وهو يهمس بخشونة " تعالي ..."

تعترض رغم القلب الذي يبتهج

" لا .. حذيفة .."

كان يتوجه ناحية الباب مرة اخرى دون ان ينظر الى وجهها بينما يرد بخشونة

" فقط اغلقي فمك الكبير هذا .. لاينقصني الا ان توقظي سوسو في هذا الليل .."

تعضعض شفتيها كطفلة مرتبكة بينما تتركه يحملها لغرفة نومهما ..

تعترض اخيرا " انا لااريد .. النوم هنا .."

يرميها بخشونة على السرير بينما يرد عليها بابتسامة ساخرة موجعة " ماذا ؟! هل خاصمتني منذ اول ليلة ؟ وماذا ستفعلين عندما تأتي ضرتك وتؤنسنا ؟! وربما ستشد شعرك المشعث هذا وهي تتصارع معك على دورها بالنوم معي .. "

تخنقها العبرة وترفع قبضتها المتوترة لقلبها
بينما تناظره وهو يقف متخصراً امامها
فتستجديه الرأفة بحالها قائلة

" حلفتك بالله لاتوجعني .. اكثر .."

يميل بجذعه نحوها حتى بات وجهه على بعد
سنتيمترات من وجهها ليقول بحرقة وقسوة

" لاوجعك ؟! تشتكين الوجيعة الان وانت
منذ اشهر تتربصين بها لتدخلينها بيتنا ؟ "

تدمع عيناها بمزيد من الدموع فيفيض هو
بالغضب هادرا " لماذا تبكين ؟! تحملي الآن ما
يأتيك من خلف ذاك الباب الذي اصريتِ ان
تفتحيه على مصراعيه.."

عيناه تتلكآن على شفتيها فيقاومهما ..

الايكفي انه لم يقاوم تركها ليلة واحدة ..

لم يستطع النوم وهو يعلم يقيناً انها تبكي
في غرفة سوسو .. الهبلاء الشهية الشفتين
هذه تجد طريقها دوماً لتحطم غضبه منها
وتحيله لريش متطاير في الهواء ...

اخذت تمسح دموعها بظاهر يدها بينما تقول
بجدية مضحكة " اذن دعني ارحل .. لن
احتمل يا حذيفة .. سأموت .. بل اني اموت منذ
الآن .. لن أصمد اكثر ..."

الفصل الثالث والعشرون

اخذت تمسح دموعها بظاهر يدها بينما تقول بجدية مضحكة " اذن دعني ارحل .. لن احتمل يا حذيفة .. سأموت .. بل اني اموت منذ الآن .. لن أصمد اكثر ..."

بضخامته وثقل وزنه كتم على انفاسها وقطع جملتها (الغبية) فيغمرها بجسده وهو يزمجر بصوت خافت " تباً لك من امرأة هبلاء سخيفة طويلة اللسان صغيرة العقل ..."

يصمت لحظة ثم يضيف بصوت أجش

" كبيرة القلب الى حد العطاء بحمق ..."

تتنابها موجة بكاء فتجهش قائلة بوجع

" هذه المرة لن استطيع ان اعطيك اكثر .. دعني اذهب .. سأعيش مع خليل لا تقلق علي سأكون بخير .."

يتنهد وهو يرد على جملها المتقطعة الباكية

" انا قلق على نفسي يا أهبل من عرفت .."

توقف نشيجها لتعاود مسح وجهها فتحدق في وجهه القريب الذي يعلو وجهها لتسأل ببراءتها التي لا تصدق " ولماذا تقلق ؟! "

كان يائسا منها تماماً كما هو يائس من نفسه ليعبر عما يشعره نحوها فاكتفى بالقول الآمر

" قولي انك حمقاء ولن تفعلينها مرة اخرى .."

فترمش لتردد بشكل آلي " انا حمقاء ولن افعلها .. لكن ... ما الذي لن افعله ؟!"

سؤالها الاخير طرحته بجدية تامة مما جعله يصرخ " صبرني يا رب ... خلود انظري الي ..."

فتحت عينيها على اخرهما فيأخذ نفساً قبل ان يطلقه مع كلماته " انا لست الرجل الكامل الذي تصرين على رؤيته بي .."

بكل بساطة تعبس وهي ترد عليه بتحيز لايقبل النقاش " بل انت كذلك .."

يا الهي ماذا يفعل لتفهم .. حالة مستعصية ..

لا هي تريد ان تفهم ولا هو يجيد الافصاح ..

قال لها اخيرا يحاول جهده ان يوصل احتياجه لها ومشاعره التي لا توصف نحوها " ان قلت لكِ اني اضيع بدونك هل ستُفتح بعض الاقفال الصدئة في عقلك ؟"

ترفع يدها تلامس وجهه وتتكلم بجدية مطلقة

" لاتقل هذا فيسمعك احدهم وقد لا يفهم انها دعابة منك فينتقص قدرك .."

ترتجف على شفتيه ابتسامة تعبر عن رجفة قلبه بينما يهمس لها بصوت أجش " هل هذا كل ما يهمك يا صدئة العقل ؟!"

عندها قرر ان ينهي نقاشاً لن يوصله لمبتغاه ابدا .. فلا هي ستتغير ولا حتى هو ...

فيتخذ الاسلوب الناجح الوحيد بينهما ليسألها مدعياً الجدية " حسن .. اجيبي دون تفكير .. واحد زائد واحد كم ؟"

ترد تلقائيا ودون تأخير " اثنان ..."

يكتم ضحكته بشق الانفس بينما يلقي
سؤاله الثاني بنفس الطريقة

" جيد ... اذن ردي بنفس البلاهة والسرعة ..
هل ما زلت تريدين مني الزواج باخرى ؟"

لم تتأخر ثانية واحدة وهي ترد " لا ..."

وفي الثانية التالية تتراجع

" اقصد ... اقصد ... "

فيحدجها بنظرة شريرة متوعدة لتنهي تمتمتها
باستسلام ودموعها تسيل على خديها

" اقصد ... لا ..."

ثم تجهش بالبكاء وهي تردد باختناق

" لا .. لا تفعلها .. ابدا لا تفعلها ..."

تنهد من اعماق صدره ليسترخي تماما ووجهه
يهبط اليها هامساً آمراً " اجل هكذا ...
قوليها.. كرريها بصوت اعلى .."

تشهق بالبكاء وهي تلف ذراعيها حول رقبته
وتردد بنبرة اعلى تفجر كل انفعالاتها دفعة
واحدة " لا تفعلها ... لا تفعلها .. لا تفعلها ...انا
احبك .. احبك .. واريدك لي .. سامحني
حذيفة ..ظننتي اقدر لكن .. لا استطيع الا
ان اريدك لي وحدي .. "

كيف يمكن ان يقاوم شفتيها وهما تنطقان
بما تنطق .. وما اشهاه من استسلام حتى ضجت
عواطفه بصخب في صدره الهادر الانفاس
فيرتجف جسده وهو يتشبث بها لا يتخيل اي
حمق يجعلها لا تشعر كم هو مكتفٍ بها..

فجأة ابعدت شفتيها عن شفتيه لتلهث وهي تتشبث بكتفيه وتسأله بقلق " انت ترتجف .. هل تشعر .. بالبرد ؟ هل اغطيك ؟"

انفجر حذيفة ضاحكاً بأعلى صوته حتى ارتجت جدران الغرفة بينما تحدق فيه خلود وكأن جنونا اصابه !

ليقول وهو ما زال يضحك " لااصدق ان امرأة تكاد تصيب زوجها بنوبة قلبية من شدة الضحك وهما وسط علاقة حميمية مشتعلة!"

تتألق عيناه بلمعة السعادة العفوية التي تنغمر بها روحه فيهمس بصوت أجش مبحوح

" هبلاء اضيع بدونها ..! أعن يا ربي على ابتلائي ..."

صباح اليوم التالي .. السبت

بيت الصائغ الكبير..المطبخ ..

رآها مرتبكة .. ساعة تلبس الحجاب وساعة تخلعه .. تفتح البراد تنظر فيها بنظرات غير مستقرة ثم تعيد غلقه ..

تنظر اليه خلسة وتظن (الهبلاء) انه لا يعرف..

بينما يواصل هو ألتهام البيض المقلي الذي اعدته له مع كوب شاي كبير ...

فجأة قالت بعبوس متوتر " اين تأخرت سوسو ؟ كل هذا الوقت لتمشط شعرها فقط !"

يقف حذيفة على قدميه ويتحرك نحو حوض جلي الصحون فيفتح صنبور الماء وهو يسأل بلا مبالاة ظاهرية " ما الذي يجعلك امرأة عبوس متذمرة نزقة هذا الصباح ؟"

كان قد أنهى تغسيل يديه عندما استدار اليها وعيناه لا تفارقان وجهها المرتبك بينما يلتقط المنشفة الصغيرة للمطبخ حتى يجفف يديه...

صمتها وعضعضتها لشفتيها جعله يعقد حاجبيه ليعاود طرح السؤال باختصار مباشر

" ماذا هناك خلود ؟"

صدرها يعلو ويهبط وهي تتطلع اليه بنظرات تفيض بالضعف .. تفيض بالـ.. خوف !

تهمس بتعثر وعزيمتها تخذلها

" لاشيء .. حذيفة .. يجب ان استعجل .. سوسو... لنغادر.."

خطا نحوها وهي مسمرة مكانها ينظر اليها بجدية وشعور سخيف يسيطر عليه انه يريد استرضاءها لتسامحه عما فعله بالامس معها .. رغم كل قناعته انها كانت بحاجة لهذا الدرس القاسي الا انها .. تظل خلود .. خلود التي لاتستحق ابدا ان تتألم او تعاني هكذا وهي تفكر انه ربما .. سيعاود التفكير بالزواج من اخرى ...

يتشاغل بالنظر لقميصها البني المخطط بينما يتنحنح وهو يقول بصوت خافت

" لم اكن اريد ايلامك بالامس .. انت دفعتني دفعا لهذا.."

اسلوب سخيف في الاعتذار لكنه لا يعرف غيره .. يرفع نظراته لوجهها النحيل وقد زاد ارتداؤها للحجاب من إبراز نحوله فيضيف موضحاً بنبرة قاطعة

" انا لن اتزوج اي امرأة اخرى يا خلود ... لقد كنت غاضبا كالجحيم منك واردت ان ألقنك درسا لتعرفي اي حماقة تريديني ان اقدم عليها .."

تتهرب نظراتها منه ولمعة الدموع في عينيها تؤلمه فتنهد بعجز بينما يتمتم " خلود .. انا .. لااجيد .. الكلام ..لكن ..."

صمت للحظة قبل ان ينطق الجملة

" لااريدك ان تبكي .. ابدا ... لا اطيق .."

تضغط على شفتيها في حركة واضحة لتمنع انفلات شهقة بكاء منها بينما يواصل حذيفة كلامه علّه يجد سبيلا ليشرح بوضوح اكثر

" ولا اريد لحياتي معك ان تتغير .. اريدها هكذا معك انت وحدك... ستؤذيني أكثر مما اذيتك انا بالامس اذا لم تفهمي حاجتي هذه .. لايهمني ولد او بنت .. انت و سوسو فقط... هل تفهمين خلود .. كلما داهمتك نوبة هبل تذكري ليلة الامس .. "

" لقد انتهيت خود ... هيا هيا ..."

جاءت جملة سوسو لتقطع الحوار بينما
تركض الفتاة لتفتح باب المطبخ وتخرج
للمرآب وهي ما زالت تنادي " هيا خود .. هيا.."

رفعت عينيها تنظر اليه طويلا قبل ان تهمس
بحزن شديد

" كنت اريد ان امنحك مزيدا من السعادة .."

فيتنهد حذيفة وهو يدفعها لتلحق بابنته

" ستفعلين عندما تنفذين ما اريده منك .."

ما زال يدفعها وهي تقاومه بجسدها الضئيل
ذاك وتلتفت برأسها اليه وتسأله بتوسل

" هل سامحتني ؟"

يبتسم ابتسامة ساخرة قبل ان يرد عليها
بهمس خافت " اذا (غطيتني) كل ليلة كما
فعلتِ ليلة الامس .. سأتسامح معك "

تحمر وهي تندفع للامام لتلحق بخطوات سوسو
بينما هو يضحك ويضرب كفاً بكف ..

بعد دقائق كان يخرج للمرآب حتى يغادر
لعمله عندما لمح أخاه رضا يهبط درجات السلم
الخاصة بشقته فيتحرك حذيفة نحوه ينتظر
نزوله وهو يلقي عليه تحية الصباح ..

لم يدم الامر سوى دقائق وهو يخبر رضا
باقتضاب ان ينسى ما قاله بالامس .. وانها
كانت مجرد لحظة غضب منه ..



ورضا كعادته اكتفى بالصمت رغم ابتسامة (العارفين) على وجهه ..

ببساطة كان يعرف ان حذيفة لن يقدم على خطوة الزواج من اي امرأة اخرى ...

تنحنح حذيفة ليغطي على احساس خجل من اخيه .. خجل يشعره بالغيظ من نفسه وقد وصل لهذا العمر ...

ثم ينسحب ليغادر وبينما يقود سيارته في شوارع العاصمة كان يحتار في اجابة لسؤال

(متى سيختلف شعوره واحساسه بذاته امام اخيه الاكبر ؟)

بينما تنزل خلود وشذرة مع الاطفال الثلاث من حافلة النقل العام متوجهين لموقع انتظار الحافلة المدرسية كانت شذرة تبتسم بابتهاج لاجل خلود التي اخبرتها للتو انها تصالحت مع زوجها ...

تعترف شذرة انها ليلة الامس بكت كثيرا ..

رغم ان حضور ابي جعفر طمأنها لكنها خافت حقاً ان يتهور حذيفة ويتزوج على خلود ..

حقيقة ان خلود استفزته كثيراً بأفعالها واي رجل كان سيفعلها لا محالة ويتزوج باخرى ..

كانت تنتظر خلود والاطفال يصعدون للحافلة المدرسية قبلها بينما تفكر بحرج كيف



ستخبر خلود انها اتصلت بالامس باخيها خليل لاجل ان تخبره عما حصل ..

بل انها تشعر بحرج مضاعف من خليل وكيف تجرأت على الاتصال به وهي تكاد لا تعرفه ولم تلتقي به الا مرات معدودات تكتفي بالتحية وهي تطرق بنظراتها أرضا في خجل ..

لكن بالامس لم تكن شذرة تدري كيف تتصرف لتساعد المسكينة خلود وتخفف عنها فخطر في بالها ان خليل يجب ان يعلم ليأتي ربما ويسند اخته او يتدخل بطريقة ما..

لكنها تراجعت وأغلقت الخط قبل ان يرد فيحرجها هو اكثر باعادة الاتصال ولولا حضور رضا لكانت باحت لخليل بالامر..

لقد كانت ممتنة جدا لمقاطعة رباب مما جعلها تنهي المكالمة مع خليل دون ان تخبره بشيء ..

كم أراحها هذا ورفع عنها عبء الحرج او الاسوأ انها ربما تسبب بمزيد من المشاكل لخلود ..

كان جعفر اخر من سيصعد لكنه توقف وهو يلتفت لشذرة ويقول بعبوس جدي " خالتي اصعدي انت اولا .. انا سأكون خلفك .. "

تبسمت في وجهه الشبيه جدا بوجه ابيه فتنفذ مطلبه (الرجولي) وتتقدمه لتصعد قبله .. ثم يتبعها جعفر برضا تام وكأنه حقق امرا في غاية الاهمية ..

عبر شباك المقهى المقابل كان مهند يجلس ويراقب المشهد بتراخٍ وهو يحتسي قهوته ...

يبتسم بتلقائية وهو ينظر لشذرة تكلم ذاك الفتى .. ماذا كان اسمه ؟ جعفر ؟

يكاد يجزم ان الفتى ابن اخت حبيبة .. وابن ذاك الرجل الذي التقاه يوماً على عتبة بيت العطار وحبيبة عرفته على انه زوج اختها ...

ان لم يكن ولده فعلى الاقل هناك رابط دم بين الرجل والفتى دون ادنى شك ...

لم ينس مهند وجه رضا الصائغ وكيف ينساه وكان يمثل جزءا مهما من دوامة عاشها مع حبيبة العطار وقريبه .. يحيى الصائغ ...

لايعلم كيف لم يربط الشبه سابقاً ؟!

ضحكة خافته ساخرة ندت عن فمه وهو يفكر ان الاجابة ببساطة لانه كان مغيباً ..

في حالة عشوائية عمياء وكأنه أوقف عقارب الزمن على تلك اللحظة التي خسر فيها حبيبة العطار ...

تلك اللحظة التي نزلت فيها دموعه ليلة زفافها على يحيى الصائغ ...

تطلع حوله في ارجاء المقهى شبه الخالي الا من عامل التنظيف الذي يمسح الارضية ويعد الموائد لزبائن محتملين ...

مضت فترة لم يحضر لهذا المقهى ..

ولايعلم لِمَ قرر الحضور اليوم خصيصاً له ..

ربما كنوع من العقاب لجوري التي فرضت
عليه طلباً جديدا هو نوع آخر من العقاب ..

فيتمرد على تعذيبها له ويحضر هنا لمجرد ان
يشعر انه قد يثير غيرتها وغضبها ..

تصرف طفولي منه بكل تأكيد خاصة وان
جوري لا تعلم شيئا عن تفاصيل علاقته بشذرة
وكيف كان يراقبها كأحمق عبر جلوسه
هنا في هذا المقهى ...

ترا .. هل حضر اليوم في تصرف طفولي متمرد
ام لانه اراد اختبار مشاعره مرة جديدة ؟

غالبا هو تصرف طفولي .. وربما اناني ...

في كل الاحوال هو لم يعد يطيق الافطار
بمفرده في جناحه كما لا يحتمل الافطار مع

والدته التي لاتكف عن ابداء استيائها
الشديد وحنقها المستمر لانه (حسب تصورها)
ليس حازماً مع زوجته ليجبرها على العودة ...

ولولا والده الذي منعها التدخل بصرامة
لكانت افتعلت المشاكل مع جوري لانها تهجر
زوجها بهذه الطريقة ...

ابتسامة صغيرة شقية لا تخلو من السخرية
ارتسمت على فم مهند بينما يطرق باصابعه
فوق سطح المائدة ..

عجيب كيف تنجلي رؤية امور كانت واضحة
بالاساس !

عجيب كيف يفتعل الانسان لنفسه الازمات والتعقيدات وبساطة الحل موجودة امام ناظريه طوال الوقت ...

وعندما تحين لحظة اعلان الخسائر تبهت كل التعقيدات وتبهت كل الصور المرافقة لها ثم تسطع الحقائق مجردة من اي انكار او اصرار على تجاهلها ...

لم يعد يعرف حتى تاريخاً لما يشعره نحو جوري .. لم يعد يعرف تلك اللحظة التي زرعت بها بذرتها في قلبه .. لتنمو وتنمو وهو غافل او متغافل ...!

وها هو يدفع ثمن غفلته الطويلة ..

وربما سيدفع اكثر مما يعتقد ..

لديه حدس ما ان طلب جوري بالامس هو الطلب الختامي..

الطلب الذي سينتهي بأعلانها لقرارها النهائي حيال زواجهما ..

تصلبت ملامح مهند وهو يشعر ان القادم لن يكون سهلا ابداً ...

تناول هاتفه الملقى على المائدة امامه ليكتب رسالة نصية كان يفترض ان يكتبها ويرسلها منذ الامس ...

(سأنفذ طلبك بشرط واحد .. ان تتركي العمل في المطبعة ..)

ثم يتوتر ويشعر انه يستفزها فيضغط على نفسه ليتبع جملته السابقة بجملة اضافية

(او تأخذي اجازة خلال هذا الشهر) ..

ارسل الرسالة وملامح وجهه تتجهم بالكامل

بينما يستعيد تعابير وجه عباس كيف كان

ينظر لجوري ولغة الجسد التي لاتخطئ ...

على الجهة الاخرى استلمت جوري رسالته ..

تقرؤها بعناية وملامحها لاتحمل اي تعبير ..

أرخت يدها التي تحمل الهاتف حتى استقرت

في حجرها بينما تحدق للامام بنظرات

مفكرة ...

طال جلوسها في سيارتها وقد كانت وصلت للتو

للمطبعة .. لم تترجل فقط تجلس مكانها

وافكارها تستعيد تنظيمها لتضع اولوياتها

التي تحقق هدفها ...

ربما هي باتت مجنونة كما تصفها امها لكنها

تعرف نفسها .. لن ترتاح الا اذا حققت ما

تبتغيه ..

وقلب مهند هو الارض التي ستستعمرها

بالكامل حتى لاتبقي له فيها موضعاً واحداً

يملكه ..

تريد اغتصاب تلك الارض التي مرت عليها

النساء من قبلها فاستوطنتها او لم تستوطنها ..

المهم انهن جميعاً رحلن ليتركن الارض بوراً ..

فكرت وفكرت ... ثم وصلت لقرار ...

ارتعاشة تنتابها رغم كل شيء لكن لا شيء سيوقفها ...

ارسلت الرد

(منذ اللحظة ستنفذ طلبي .. وانا في اجازة)

تفكر في سرها وهي تترجل من السيارة

" اريدك ان تهيم وتتوله يا مهند.. ان املأ عقلك وقلبك .. اريدك ان تعيش كل لحظة وانت تراني بعيدة جدا .. بُعد النجوم .. لكني ألوح لك بالامل لتمد يدك وتصل الي .. فتغرق وانت تحسب نفسك تطير محلقاً .."

تدخل المطبعة بثقة وبدلا من ان تتوجه لمكتبها الصغير حادت جانباً ناحية اليسار حيث المكتب الكبير لعباس ..

لم تكن تعرف انه كان يراقب وصولها كما يفعل كل يوم ...

انه رآها عبر شباكه المطل على الشارع وهي تجلس في سيارتها محدقة في الفراغ ..

لكنها ليست فارغة على الاطلاق ..

في داخل هذه المرأة تعج العواصف العاتية ..

ليتها فقط تختار ان تقحمه في عواصفها ..

لكنه عهد قطعه على نفسه منذ يوم شجاره مع زوجها الغبي .. انه لن يقترب ابداً الا اذا اختارت هي صراحة ان يكون في حياتها بأكثر من مجرد رب عمل ...

فاجأته وهي تطرق الباب المفتوح لتنبهه لدخولها فيرد لها تحيتها ويراقب مشيتها الآسرة نحوه حتى جلست على كرسي امامه..

اللعنة على قلبه وما يحصل له عندما ترفع تلك العينين الداكنتين اليه ..انهما سحر بل شعوذة كطريق معبد للتهلكة..

قالت اخيرا بابتسامة خلابة بشكل عفوي غير متعمد او متكلف

" ابو فاضل .. احتاج لشهر اجازة بشكل طارئ.. اعلم اني اشتغلت معك حديثاً لكن الامر مهم .. لاحل مشاكل عائلية عالقة .."

يجاهد حتى لاتخرج كلمة رفض فورية من فمه .. انها لا تعرف انه بات يكره يوم الجمعة لانه لا يراها .. كيف تأتي الان لتسحره بشعوذة عينيها وتجبره دون مجهود ليرضى بجحيم ان لا يراها لشهر كامل ...؟!

ومن قال اننا نستطيع مقاومة (التهلكة) وهي تدعونا لرحابها بهذا السحر والألق ..؟

فلتأخذه الى حيث تريد .. ما الذي سيخسره ؟

يكفي ان دخولها في حياته منحها حياة اخرى.. وكأنه لم يكن حياً من قبل ..

فليحيا اياماً واشهر هكذا .. ولتنتهي متى ما شاءت النهاية ..الدنيا بأسرها لا دوام لها..

رد لها بنظرة مطرقة

" لك كل ما تشائين يا ام حبيبة .."

شقة رضا واسيا ..

دخل رضا شقته فيرى اسيا وهي تطعم كاظم افطاره لتسأله ببعض الدهشة

" ألن تذهب للسوق اليوم ؟! "

فيرد وهو يقترب من موضع جلوسها على الاريكة قائلا بابتسامة " لا .. سأقضي اليوم بصحبتك انت وكاظم.. ثم يجب ان أخذك للمختبر من اجل التحليل "

يجلس جوار ولده لينحني عفوياً ويقبل جبهته واسيا تقول " الامر ليس مستعجلا يا رضا وسأطلب من حبيبة ان تشتري لي جهاز الفحص المنزلي .."

يرفع رأسه لها ويصر قائلا " لا ... يجب ان تجري تحليلا لفقر الدم .. الطبيب شك بالامس انك ربما تعانين منه .."

تمسح فم كاظم بالمنديل ثم تحفز رضا ليذهب لعمله بالقول " لاتقلق علي هكذا.. انا بخير .. اذهب لعملك وعندما تعود عصرا نذهب للمختبر سوية لاجري كل التحليلات التي تطمئنك.."

يمد سبابته ليمسح لطخة طعام على جانب فمها وهو يبتسم قائلا بصوت دافئ " ربما انا ابحث عن الاعذار يا اميرة البنات واريد فقط ان ابقى بصحبتك هذا اليوم.. "

تضحك وهي تحمل الصغير لتذهب به الى الحمام وتغسل له وجهه ويديه ثم تعود لزوجها فتضع الصغير على الارض يلهو كما يشاء بينما تجلس جوار رضا وتسأله ببعض القلق

" هل تكلمت مع حذيفة ؟"

رد رضا مرتاح الاسارير " اجل لا تقلقي .. كلمته قبل خروجه صباحاً .. الامور بينه وبين خلود بخير وقد انتهى الامر سريعاً كما توقعت .."

تتثاءب اسيا رغماً عنها وهي تعلق بعيون ناعسة " الحمد لله .. سأذهب لرؤيتها عندما تعود من عملها .."

تداعب عينيه تفاصيل وجهها فيهمس بعذوبة

" نعسانة ؟"

تضحك وهي تهز رأسها بـ(نعم) ليميل بظهره للخلف يواصل النظر لتلك التفاصيل الصغيرة في ملامحها .. حاجبان طويلان مرسومان مع استدارة عينيها اللوزتين .. لون حدقتيها البني الداكن وظل رمشيها اعلى خديها .. أنفها الذي فيه انحراف طفيف للجانب وبضع شامات صغيرة جدا على الخدين هنا وهناك لايكتشفها الا من يطيل فيها النظر عن قرب... شفتاها المنفرجتان قليلا بفعل اسنانها الامامية المتقدمة بعض الشيء للامام... يحب النظر لتلك الشفتين وهما تتحركان بشكل يراه مميزا عندما تتكلم ..

في أول زواجه منها كان لا يتوقف عن حفظ تفاصيلها بعد طول تمنى لها وحرمان منها ..

عشر سنوات تمناها من صميم القلب وعانى كل ما عاناه حتى شاب شعره ليقسم له الله بها فتصبح حلاله وام أولاده ..

تعاود التثاؤب فيناغشها بالقول

" اكاد اجزم انك حامل .. دوماً تميلين للنوم منذ بداية الحمل .."

تضع يدها على فمها باستسلام بينما تلتفت لترى ولدها قد نام على الارض فتقول بنعاس واضح " كاظم كان نعساناً هو الآخر .. دعنا ننم لساعة وبعدها نذهب معك اينما تريد .."

يقف رضا على قدميه وهو يقول " حسن .. ساذهب لامي بدرية اشرب القهوة معها ثم أعود اليكما .."

كان يتحرك ليغادر عندما ناداه صوتها بنبرة جعلت حواسه تتنبه تلقائيا " رضا .."

استدار ليعود اليها بينما تقف هي على قدميها وعيناها اللتان كان يتغزل بهما قبل قليل بصمت تنطقان بمشاعر مختلفة ..

قالت بتلكؤ وكأنها محتارة كيف تقولها

" اريد .. ان اتكلم بأمر .. انا اشعر ببعض الذنب ..وحلمت بأبي ليلة الامس.. يعاتبني .."

ضيق رضا عينيه بتركيز بينما يمنحها الوقت لتستجمع كلماتها وتبوح بما يشعرها بالذنب هكذا ..

أسبلت اهدابها ورغماً عنها شحنات توتر صدرت منها وهي تقول بصوت خافت " هل ستفعل شيئا لتساعد.. تلك ..المرأة ... لقد قالت... ان الفتوة يريد ارغامها على الزواج منه .. ويفرض عليها حصاراً من نوع ما .."

ابتلع رضا ريقه بصعوبة .. على قدر ما هو يعشق انسانيتها هذه التي تصارع غيرتها كامرأة على قدر ما يخشى عليها ان لاتحتمل ضغطا كهذا ...

حاول ان يكون طبيعياً بالرد " لا اعلم يا اسيا ان كنت استطيع مد يد العون لها ... انا لااعرف لها عنواناً ولا مكاناً .. وحي الشيخ لم ازره في حياتي الا مرتين وقبل سنوات طويلة جدا ولااعلم كيف هو الآن .. كنت اظن ان خروج ذاك الفتوة من السجن سيكون حماية لها لكن يبدو ان الامر اخذ منحى اخر مع تلك المسكينة .."

ارتفعت نظراتها فجأة اليه تسأله ببعض الانفاس المتسارعة " هل كنت تعلم انه .. كان في السجن وخرج ؟"

يعلم ما يجول بخاطرها .. انها تعود لنفس النقطة .. تريد ان تسأل عن تفاصيل مقابلته لحسناء ولا تجرؤ ...

رد بلطف حذر" نعم .. في المرة الوحيدة التي كلمتني فيها قالت ان فتوتهم تحسين في السجن لذلك يسود الهرج والمرج في حيّهم بدون حماية الشرطة حتى .. عرضت عليها ان اساعدها لتسكن الحي الصناعي وتعمل هناك .. هي قالت ستفكر لانها متعلقة بمكان والدها .. انت تعرفين هؤلاء الناس يصعب عليهم جدا ترك مكانهم .. خاصة امرأة وحيدة مثلها تهاب الامر .."

تجاهل تماماً ان يذكر طلب حسناء ان تقترن به وتحتمي باسمه .. وهي فهمت انه تجاوز عن ذكر هذه التفصيلة دون ان ينكرها ...

ما زال التوتر يصدر منها بينما يواصل رضا بنفس النبرة

" بعدها غابت تماما .. ثم علمت صدفة ان الفتوة خرج بالعفو الحكومي العام .. فشعرت بالراحة وتصورت ان الامور تحسنت واستقرت .. فلم أعد افكر بالامر .."

نظراتها تشتت منه .. بدت في حيرة شديدة ..

لاتعرف كيف تصوغ الكلمات لتعبر عنها ..

من ناحية الغيرة تشب فيها ولا تحتمل ان تدفع زوجها جدياً ليساعد المرأة ومن ناحية لاتستطيع ان تترك الامور هكذا وهي تعرف ان امرأة وحيدة مهددة بكل انواع الانتهاك وقد طلبت حمايتهم حتى وان طلبتها باسلوب خاطئ .. تبقى انسانة مسحوقة تذلها الحياة بابشع الصور ...

طال صمتها فلم يستطع ان يدعي الهدوء أكثر.. حتوط وجهها بين كفيه ليقول بدفءٍ حانٍ " اسيا .. لا تضغطي على نفسك .. نحن بشر واعلم انك لاتستطيعين التعاطف معها بشكل كامل ولا احد يلومك او يطالبك بشيء ..."

تنظر اليه فتستكين بين كفيه ليضيف رضا

" اريدك فقط ان تحاولي مسامحتها على قصور عقلها لتأتي اليك وتطلب ما طلبت .. كلما فكرتِ بقصورها هذا وحاجتها التي تذلها بالسؤال ستعرفين انها تستحق الشفقة ولا شعور آخر الا الشفقة .."

رمشت وكأنها تقول له (نعم) فيبتسم لينحني لاثماً جانب فمها قبل ان يبتعد متحركا لباب الشقة وهو يقول ببشاشة " اذهبي ونامي يا نعسانة جوار ولدك .. سأعود اليكما واوقظكما بنفسي بعد ساعة ..."

يغادر تاركاً اياها تشعر ببعض التحسن لانها فعلت الصواب .. حتى وان كان الصواب يؤذي فيها قلب المرأة ..

تفتح باب المرآب وهي تشعر بالضعف التام ...

ضعف في جسدها .. ضعف في عقلها ..

ضعف في روحها ...

انها لاتعرف حتى كيف ستقود السيارة الى دار الازياء .. بل ولماذا تريد الذهاب هناك ؟!

كل شيء يطوف حولها كغيوم داكنة مبهمة تحاوطها من كل جانب وتجعلها في حالة شجن وانهزام ...

شعور الانهزام هو الغالب عليها ..

ساعات طويلة مرت وهي تائهة هكذا .. تستعيد الماضي بأدق تفاصيله ..

حاولت ان تكوّن صورة اي صورة مغايرة لوالدها .. حاولت ان تراه كانسان فقط لكنها لم تستطع ..انها لاتتذكره الا كأب ..

أب كان ظله مضيئا .. منسوجاً من خيوط الشمس .. دفئا وحنانا وابتهاجا...

" صباح الخير ... كنت بانتظارك ..."

تراخت ذراعاها الى جانبيها وهي تقف مسمرة امامه .. هل يبدو نحيلاً ؟! ام وجهه مرهق ؟

تصمت تماما وهي تقف امامه تترك له ان يراها كما يشاء .. بأي نظرة يحددها ..

ثم شعرت بلمسة يده وهي تحاوط كفها وتسحبها وهو يقول بصوت أجش

" تعالي معي .. لقد اعددت لك افطارا .."

كان يعبر بها الشارع للجانب الاخر بينما تطلق همسة اعتراض منهكة

" عبد الرحمن .."

يواصل سحبها لمرآب بيت الصائغ متوجهاً للمطبخ وهو يثرثر بنبرة خافتة

" البيت هادئ تماما .. الكل خرج تقريباً .. فقط امي نائمة ورضا خرج للتو ذاهبا لزيارة الخالة بدرية ... تعالي .. الافطار فوق .. "

تغمض عينيها بينما يسحبها ليرتقيا السلم سوياً .. كانت فقط مستسلمة في انهزام طاغ عليها ....

بعد نصف ساعة كان يصب لها كوب شاي جديد ثم يجلس على كرسي جوارها حول مائدة مربعة بلون الخشب الطبيعي ..

اخذت منه الكوب وهي ما زالت لا تتكلم .. لنصف ساعة تركت له ان يطعمها بنفسه وهو يثرثر بتفاهة حول عجة البيض التي اعدها بصعوبة ..

توقفت ثرثرته فجأة فارتبكت اناملها حول كوب الشاي الذي ترتشف منه ببطء ..

قال اخيرا وبنبرة مختلفة جدية " هل تعلمين يا رباب كان لي استاذ في كندا معجب بي ويصفني ذو عقلية علمية لامعة .. لكنه كان يتأسف لنقص في عقليتي هذه .."

جذب اهتمامها له فترفع نظرانها المرهقة في استفهام صامت ليفسر لها بوجه مبتسم

" كان يقول لي اني سريع الغضب وانفعالي وهذا يؤثر على عقليتي تلك فلا تأخذ خطأ منطقياً مطلوباً في التحليلي العلمي .."

جذبت نظرها تفاحة آدم البارزة في عنقه وهي تتحرك صعودا ثم نزولا ليقول بعدها بصوت أجش " وهذا ما حصل لي معك .. لاشهر طويلة كنت غاضبا كالجحيم منك ولم استطع الوصول اليك .."

كان يعترف لها كما اعترف لنفسه انه لاشهر سيطر عليه الانفعال ولم يكن يجيد التحليل للوصول الى المعرفة ...

يده ارتفعت نحوها وبخفة كانت ينزع دبابيس حجابها ليفكه ويحررها منه .. وهي لم تعترض .. فقط تنظر لوجهه المتعب لترى فيه انعكاسا لتعبها هي فتسترخي طواعياً وكأنها تجد فيه السلوى والمواساة لحالتها التي لا تجد لها وسيلة لتتعامل معها الآن ...

يضع حجابها جانبا ثم يعود ليلامس خدها ويقول بنوع من الشرود

" انا لم أنم ليلة الامس .. افكر وافكر ..."

تنتظره ولا تعلم ما تنتظره ... تشعر انها في ركن بعيد معه .. يعزلها في فقاعة عن مشاعر سلبية اختزنتها لسنوات ...

أراد ان يستفزها لتتكلم فقال بجدية وهدوء

" اعتقد ان رضا زاركم بالامس واوضح كل الامور فيما يخصه.. اما حذيفة .."

نجح باستفزاز ردة فعل منها لتحرك وجهها تحاول الابتعاد عن ملامسة اصابعه وهي تهمس

" ارجوك عبد الرحمن .. لااريد ان اتكلم بهذا الان .."

لكنه يتشبث بخدها ليعقد حاجبيه وهو يقول باصرار

" لا .. سنتكلم رباب .. يكفي صمتاً .."

تزم بشفتيها ولا تجد ما تقوله فيواصل هو هجومه " انت حكمتِ على الامور من خارجها ولاتعرفين ما يحصل بين حذيفة وخلود .."

تهدر من بين شفتين شاحبتين

" لاتدافع عنه ... "

يضغط باصابعه على خدها وهو يواجهها ببعض الحقائق " هل تظنين ان حذيفة حقاً سيتزوج باخرى لانجاب الاطفال ؟! لقد قالها لخلود مرارا..انه لايرغب بالمزيد ومكتف بسوسو .."

عيناها تشككان فيما يقول لكنه يواصل ابراز المزيد مما تجهله مضيفاً " حذيفة كان يلقنها درساً لا اكثر .. ويفعل هذا لاجلها هي.. وما لا تعرفينه ايضا يا رباب ان خلود وعلى مدى الاشهر الماضية كانت تبحث له عن عروس حتى انها خطبت له امرأة تعرفها لتزوجها له دون حتى ان تاخذ موافقته وكأنها تضعه امام الامر الواقع .. وقد كان يخاصمها لايام بسبب هذا .. لقد اتعبته وهي تحاصره بإلحاحها فأراد ان يذيقها الامر لتدرك مدى مرارته فترتجع "

اتسعت عيناها وسط وجهها الذابل المرهق بينما تتمتم بلا تصديق

" مستحيل ! لا اصدق انها تفعل كل هذا .."

تهب على قدميها وتتحرك بانفعال وجسدها كله يرتعش .. ليقف عبد الرحمن هو الآخر قائلا " مع امرأة كخلود لا وجود لما هو مستحيل .. انها تحبه لهذه الدرجة .. تؤثره على نفسها لتقدم على هذا الوجع وهي تظن انها قادرة على احتماله والتعايش معه .."

التفتت اليه تهدر بانفاس مضطربة تضج في صدرها " تتعايش ؟! لماذا .. لماذا يجب ان تعاني النساء هكذا ؟! لماذا ؟"

عيناها تقدحان بالغضب المستعر وهو ينظر لعمقهما المتفجر فيلمس تلك النار بيده ..

همس عبد الرحمن اخيراً

" ها قد وصلنا لبيت القصيد .."

تحركت لتغادر المطبخ فيلحق بها للصالة ويمسك بذراعها ويديرها نحوه بينما تتخبط هي لتدفعه بضعف لكنه يجن انفعالا لاجلها فيحتضنها بل يرفع جسدها بالكامل وهو يضمها الى صدره فبات وجهها بمستوى وجهه حتى احنى جبينه يستند لجبينها هامساً بانفاس لاهثة ونبرة تفيض بالصدق والجدية

" ماذا لو ثبت في عقد زواجنا اني لن اتزوجك عليك امرأة اخرى ابدا .. لا اعلم هل استطيع اضافتها الان بعد ان تم عقد قراننا ولكن سأبحث واجد وسيلة .. هل هذا سيطمئنك ناحيتي ؟"

كفاها تتقلصان وهما تتشبثان بكتفيه بينما تهمس بحرقة الجزع

" وان استطعت اضافتها يا عبد الرحمن .. ماذا سيتغير ؟! هل تظن بعد سنوات عشرة بيننا اذا فعلتها وتطلقت منك هل هذا سيرضيني ؟"

يهدر دفؤه مع انفاسه فيذيب بعضا من تصلبها وهو يهمس بصوت مرتعش " هذا ما توصلت اليه قرابة الفجر بعد طول تفكير ..."

رفعت نظراتها لعينيه القريبتين فتحمر طواعياً لقربه الحميمي هذا بينما يواصل احتضانها عالياً وقدماها لاتلمسان الارض فيقول بحرقة عجز تشبه حرقتها هادراً " انا لا استطيع ان اضمن لك شيئا .. ولااستطيع اقناعك بأي كلام او احتواء على المدى القصير من ارتباطنا .. لااستطيع ان اخبرك ماذا سيحصل بيننا بعد خمس سنوات او عشر او عشرين ...

ولا انت ايضا تستطيعين .. هل تستطيعين يا رباب ان تضمني لي انك لن تكرهيني يوماً لطباعي المزعجة ؟!"

بدت للحظة مصدومة فيواصل هو ما يهدر به وذراعاه تلصقانها به اكثر " انا انفعالي متقلب المزاج احيانا .. متطلب كثيرا في تفاصيل الحياة واحب التنظيم الى درجة الهوس .."

كانت انفاسها تتسارع وعقلها يلاحق الصور التي يدسها عبد الرحمن في رأسها ورغماً عنها تتفاعل وتتأثر وتجد نفسها للحظة تفكر بعبد الرحمن بطريقة مختلفة ...

يرى في عينيها انه ينجح بما يفعله فيواصل

" قد تجديني بعد عشرتني مملا وخانقا .. ستزعجك تحكماتي ولن تطيقي تحفظاتي .. لن تحتملي هذا مني فيتحول حبك لكره ونفور.. قد تكرهين حتى رائحتي ونبرة صوتي وتعابير وجهي .. "

تمتمت باختناق من مشاعرها التي تحتدم بتخبط " لماذا تقول كل هذا الان ؟ توقف .."

يعقد حاجبيه ليقول المزيد بعنف متصاعد وكأنه يصرخ فيها لتفهم " نسيت ان اخبرك اني اناني ايضا ووجدت نفسي بدلا من ان افكر بمشكلتك بعدم الثقة وجدتني افكر اني في مشكلة ايضا .. لاني لا اضمن انك ستظلين على نفس العاطفة نحوي .. ربما نحن نحب بعضنا بقوة وتعلق شديد لكننا قد لانكون متوافقين لنستمر .."

ثم تذيب نيران العشق نظرات عينيه اللتين تحبهما فيميل بشفتيه اليها هامساً بتوهج تلك النيران

" انت تحبيني بتعلق شديد اليس كذلك ؟"

تهرب بعينيها من عينيه ووجهها يتخضب بينما تتمتم بارتباك وخجل شديد

" انزلني .. عبد الرحمن .."

يهز جسدها المضموم بين ذراعيه وهو يهمس بصوت مبحوح " آآه يا رباب لو تعرفين تهرب نظراتك الخجلة مني هكذا يجعل قلبي مجنونا في صدري .."

ينحني ليقبل خدها ورقبتها هامسا بضراوة

" بعد كل المخاوف تلك التي هاجمتني على حين غرة وجدتني اقف مكاني وشعور مرعب يسيطر علي وانا اتخيل انك تطلبين مني الانفصال بعد عشر سنوات مثلا لانك لم تعودي تحبينني ...عندها شعرت اني أموت ..!"

توقف عن قبلاته المحمومة تلك ليحدق بنيران جديدة في عمق عينيها العسليتين فيجدها تائهة في بحور جديدة ألقاها فيها دون رحمة ليقول بصوت صافٍ يفيض بالشجن

" هذا هو شعوري الحالي .. اني اموت اذا افترقتِ عني .. ربما هو شعور طبيعي نظرا لاننا في بداية حياتنا معاً وانا اشتاقك واذوب فيك .. لكن النتيجة واحدة .. انا اريدك الان .. فلماذا ارهق نفسي بالمستقبل ؟! من يضمن المستقبل ؟ قد امرض او قد اموت..."

اصابعها ترتجف وهي تكتم الكلمات على شفتيه هامسة بتضرع شبه باكٍ

" لا .. سلمك الله من كل شر .. لاتقلها بالله عليك .."

يقبل تلك الانامل المرتعشة لاجله بينما يعاتبها بعذوبة عاطفية

" ان كنت لاتحتملين فكرة مرضي وموتي فكيف تحتملين فكرة فراقي ؟ هل ستحتملين رباب ان افترقنا الان بعد كل هذا الذي جمعنا معاً ؟ هل ستعيشين سعيدة راضية

مرتاحة البال اذا حررتك وتركتك
لتكملي حياتك مع عملك ومستقبلك
المهني الذي ترين فيه أمانك الوحيد ؟ "

تبكي وهي تميل برأسها لتغرق في عنقه
وتقول بلوعة " لاعلم .. لاعلم .. ارجوك
امنحني الوقت لافكر .. انا ... منهارة ومشوشة
كما لم اشعر طوال حياتي وهذا يخيفني ..
يرعبني لدرجة لا تتخيلها .."

ينزلها قليلا حتى عاودت قدماها ملامسة
الارض لكنه يضمها بتشبث وهو يقول

" رباب .. ماحصل من والدك يحصل
لكثيرين.. لماذا تصرين ان تنظري للموضوع
من جهتك فحسب او جهة والدتك ؟ لماذا
لاتنظرين له انها مجرد لحظة ضعف تنتاب اي
انسان .. اخطأ وربما ندم.. وربما لا .. من
يدري.. "

تختنق بعبرات البكاء وهي تردد " انا .. لا
استطيع ان انظر لابي .. الا انه .. ابي ..! هل
تستطيع انت .. ان تنظر لابيك بشكل
مختلف ..؟ ان تراه .. مجرد انسان ويخطئ .."

لم تكن تعرف انها تتشبث به عفوياً كما
يتشبث بها هو عن ادراك ووعي فتلف ذراعيها
حوله تشتكيه ما لم تشتكيه لبشر من قبل

" لقد جرحني ابي .. كسرني .. آآه يا عبد
الرحمن كم كسرني واوجعني ... "

يرتعش قلبه لاجل هذه العنيدة .. القوية الضعيفة .. الوهاجة الجبانة .. اجل جبانة وهي تخاف المواجهة فتختار طريقاً تظنه آمنا..

كان سيخبرها بكل هذا عندما دوى صوت اشبه بصوت رصاصة ..!

وقبل ان يستوعبه عبد الرحمن تبعه صوت آخر مشابه ...!



الفصل الرابع والعشرون

تتربع رقية على الارض وهي تحدق بذاك القلب الصغير الذي رسمته للتو على احد جدران بيت الدمى الخشبي ...

تشرب من كوبها الدافئ وهي تتلاعب بالقلم الاحمر بين اصابعها ..

عيناها تبرقان بتحدٍ وهما تحدقان بالقلب الصغير .. كلما رسمت قلباً جديدا شعرت بالتوازن والاكتمال ...

وبعد يوم عاصف عاشته بالامس ها قد عاد لها توازنها اليوم ...

البارحة اختل كل شيء .. كل المعايير التي نجحت لسنوات بتثبيتها ..

لم تكن تريد ان تعرف تفاصيل المرأة الغريبة التي أتت ولا تريد ان تسمع ما قالته لآسيا ..

كانت كل ما تريده وتحتاجه ان يمحى كل شيء ..

بأكمله...! وكأنه لم يكن ولم يحصل...

اجل .. لم يكن .. لم يحصل ...

نقطة و.... قلب احمر جديد ...

وسر القلوب لعبتها ...

البارحة كانت ... سقطة ! مجرد سقطة ....
صحيح هزتها وزعزعتها واعادتها لشعور قديم
كرهته وهي مغمورة فيه بعجز دون ان يكون
لها ارادة الخروج منه ..

شعور انها عادت صغيرة فقدت والدها يونس
العطار للتو فتتشبث بأي صورة جميلة عنه ..

ولم تجد الا خداع عقلها بحكاية الحب التي
جمعت امها بابيها العطار ...

ولاسباب لاتزال تجهلها اصبحت اسيا ورضا
امتدادا لعلاقة امها بابيها .. وعندما كانت
امها تعيد على مسامعها نفس الحكاية تبدأ
رقية بتخيل وجهيّ امها وابيها شابين وكم

كانت تجد صعوبة بتخيل وجه والدها ...
لاتعرف لِمَ ؟!

كانت ملامحه تطمس وتشتت منها .. ثم
بمرور احداث القصة طواعياً تستبدلهما
بوجهيّ رضا واسيا...

عندها تعيش الحلم .. وتدمجه بالواقع ...
الاثنان معا وكأنهما استمرار للحكاية نفسها
رافضة الاعتراف انهما حكايتين ...

ثم مرت الايام والسنون ونسيت ما كانت تفعله
وهي صغيرة تخطو مبكرا لعالم المراهقات ...

لتنشأ رقية العطار بجلد جديد لايحمل رائحة
القوارير الساذجة .. لقد حرصت ان تعطي هذا
الانطباع للجميع واولهم هي ...

آمنت ان جلدها الجديد خشن سميك يصعب حتى خدشه ... وحالما تؤمن هي بشيء يخصها سيؤمن الجميع معها انه أمر واقع وحقيقي ...

لايحتاج الانسان الا لارادة ليحوك ما يشاء في خياله ويجعلها حقيقة مُصدَقة للاخرين ...

خداع البشر ليس صعباً على الاطلاق .. يكفي فقط ان تجيد خداع نفسك وعندها ستكون في غاية الاقناع لمن حولك ...

أجفلت رقية وسقط الكوب من يدها على الارض عندما افزعها صوت صادم ..

ثم هبت بهلع تلقائي على قدميها وعقلها يستوعب الصوت وما هي الا خطوة منها حتى دوى نفس الصوت مرة اخرى ...

" ولدي .. ولدي ... رضا ... رضااااا "

لم تجزع بدرية طيلة حياتها كما جزعت في هذه اللحظات البطيئة القاتلة ..

لم تشعر يوما ان عقلها غاب عنها وطاف ادراكها في هلوسات الصدمة وعدم التصديق كما يحصل لها الآن وهي تحتضن رضا على صدرها تكاد تخبؤه هناك لتحميه من العالم بأسره ..

تتساءل بتفكير مشتت.. اين زوجها لتناديه ؟

لقد خرج .. نعم لقد خرج باكراً اليوم لدائرة التقاعد ..

وجدت نفسها في حالة غباء تام وهي تردد (لقد خرج باكراً)

يقف الزمن وهي جوار ولدها رضا على ارض الرصيف تحتضنه بعجز وقد ذبلت ملامحها على حين غرة كأنها كبرت عشرين عاماً ..

تراه جاثيا على ركبتيه ورأسه على صدرها يهمس بكلمات خافته متحشرجة وهو يشد بذراعه حول بطنه النازفة ..

تنظر للدم الاحمر وتكاد لا تصدق !!

لقد كان للتو بهيبته الرجولية واقفاً على قدميه عند الباب الحديدي الخارجي لبيتها يناديها ويستعجلها الخروج لترافقه الى بيته ...

وقبلها بدقائق فقط كان جالساً في غرفة المعيشة جوارها يقبل يديها ويضاحكها ويدللها بعد ان ادّعت خصامه لانه لم يخبرها الا الان بما حصل بالامس مع تلك المرأة حسناء..

همساتها الجزعة تتردد من بين شفتيها وهي ما زالت تشده لصدرها " ولدي ... ولدي ..."

وكلما شدته اكثر زادت عيناها جحوظا ولاتفارقان النظر لقميصه الممزق المخضب بدمائه النازفة ويكاد ان يفقد رضا وعيه بالكامل ..

يصرخ سعدون بصوت جهوري بكلمات استعصت على عقل بدرية وهو يعود نحوها بعد ان حاول اللحاق بالجاني لكن لم تسعفه هرولته العجوز الا بضعة امتار يقطعها في الشارع خلفه ...

ثم ييأس اللحاق به خاصة والجاني قفز عبر سور احد البيوت ثم اختفى...

يعاود سعدون الصراخ وهو لاهث الانفاس

" الحقير السافل هرب مني ... منذ ان رأيته من شباكي وهو يتخفى تحت الشجرة علمت ان وراءه مصيبة بهيئته المريبة ووجهه الاجرامي.. لقد اصبت ساقه ذاك الخسيس .. ظن اني لست جادا عندما هددته بطلقة اولى في الهواء .. يستحق الطلقة الثانية ان تصيب ساقه .. عسى ان تبتر او يموت نزفا منها ...."

عندها فقط وعت بدرية للحال وأنين رضا كأنه أنين قلبها قبل ان يحتضر...

استعادت ادراكها وعقلها يفرض عليها تذكر ما حصل ونصل السكين المرعب الذي شقت بطن رضا امام ناظريها لتهرع راكضة نحوه...

فجأة أخذت بدرية تصرخ في سعدون بهستيرية وعيناها تجحظان في هلع

" اتصل بالاسعاف .. اتصل حالا ... اتصل "

في نفس اللحظات كان بعض الجيران ممن تواجدوا في بيوتهم في هذه الساعة من النهار قد بدأوا يخرجون ليعرفوا ما مصدر الصوت وبعضهم سمع صراخ سعدون ..

ثم جاء صوت عبد الرحمن صارخاً وهو يركض من ناحية بيت الصائغ

" رضاااا... رضاااااااا"

تلحق به رباب ثم تُفتح باب بيت العطار لتخرج رقية راكضة هي الاخرى بمنامتها القطنية تلحق بها امها ابتهال وهي تردد

" يا ساتر يا رب .. يا ساتر يا رب.."

لم تشعر بدرية الا وفيضان دموع هستيرية يغرق وجهها الذي تجعد لتصرخ بلوعة

" إلحق اخاك يا عبد الرحمن .. أنقذ رضا .."

يقود فالح السيارة ببعض الارتباك وهو يحدق بساق تحسين الجالس جواره بالسيارة ثم يهدر باضطراب " انت تنزف كثيرا .. الى اين سآخذك؟ اااا... هناك الممرضة سعدية .. اجل سآخذك اليها .."

يتصبب جبين تحسين عرقاً بينما يلامس ساقه الدامي بيده لتتلطخ بالدماء وهو يردد بوجه مصفر " لا ... خذني لحسناء .. هي ستداوي الجرح .. لايحتاج الا لتعقيم وضماد .. الرصاصة مزقت ساقي من الجانب .."

كز فالح على اسنانه قبل ان تفلت منه بضع لعنات " لعن اللّه حسناء والتي انجبت حسناء.."

حدجه تحسين بنظرة قاتلة قبل ان يتمتم

" السكين التي شقت بطن رضا الصائغ .. ستقطع لسانك ..."

ارتجفت عضلة في وجه فالح النحيل لينكمش على نفسه فوق مقود السيارة مفضلا

الصمت وهي يراقب الطريق بحذر خوفا من ان يوقفهما اي رجل شرطة ...

أرخى تحسين رأسه على زجاج الشباك المجاور وملامح وجهه لاتكشف شيئا من غضبه الداخلي المتفاقم ... غضب لم يهدأ حتى وهو يرى دم الصائغ بعينيه ...

عندما استيقظ صباحاً وجد حسناء متكومة عند موقدها حيث تركها ليلة الامس تعد له عشاء لم يتذوقه ...

احساس مريع بالنبذ انتابه وهو يراها تنكمش نائمة بوضع الجلوس .. رأسها وكتفها مستندان للحائط الذي تقشر دهانه منذ سنوات طويلة دون ان يعاد تجديده .. حائط عفن بالرطوبة لكنها اتخذته فراشها ووسادتها ! رأسها النائم احاطته بوشاحها الاسود و التحف جسدها بعباءتها القديمة الممزقة ... وما زالت رائحة الباذنجان تداعب أنفه وتثير جوع بطنه ...

كره نبذها وتفضيلها الاستناد على الحائط والالتحاف بعباءة حقيرة مزقها بيديه يوم زفافهما الاسود ...

كره ان يرغب بجسدها لكن جسده لايطاوعه لينال شهوته منها ...

فجأة شعّت عيناه اجراماً وفكرة مجنونة تشتعل في رأسه وكأن فيها كل الاجابات ..

رضا الصائغ يجب ان يموت ...

حتى وان كانت حسناء عفيفة ولم تسلمه نفسها الا انها سلمته أمانها .. هناك شيء في قلبها ناحية الرجل الذي قارب الخمسين..

لن يرتاح تحسين الا اذا اختفى رضا من عالم الاحياء .. وربما عندها فقط سيأخذ من حسناء ما يشتهي حقاً ..

يشتهيه ولا يعرفه..!

لايفهمه رغم كل جزعه ولوعته ليحصل عليه..

وبجحيم افكاره هذه هبّ على قدميه ينوي المغادرة وتركها نائمة حيث هي ..

خطا خطوة واحدة عندما لمح السكين قريبا من الموقد القديم..انه السكين الذي قطّعت به الباذنجان ليلة الامس .. ولم يتردد لحظة ليقترب ويسحب السكين ثم يخفيه في قميصه قبل ان يتجه ناحية الباب ...

لن يقتل الصائغ الا بسكينها هي ...

وهكذا كان ...

يضرب تحسين رأسه بزجاج النافذة وهو يفكر.. اللعنة اللعنة ... كان يريد تمزيقه أربا أربا حتى تخرج احشاء بطنه امامه لكن مع اول شق و ظهر ذاك الرجل العجوز من العدم فجأة ليطلق عليه الرصاص مرتين.. الاولى في الهواء والثانية وجّهها لساقه فيدفعه تحسين موقعاً اياه ارضا قبل يجري مبتعدا وساقه المصابة تنزف ...

اللعنة عليه من رجل عجوز ضعيف خرف ..

لولا السلاح في يده لكان أتم تمزيق رضا الصائغ والتشفي برؤيته صريعا على الاسفلت غارقا بدمائه ...

بعد ربع ساعة في شقة حسناء

يجلس تحسين على اريكتها و قدم ساقه المصابة مغمورة داخل حوض معدني مملوء بالماء بينما تجلس حسناء على الارض قبالته وهي ترفع بعض الماء بكفها لتغسل جرح ساقه بصمت...

الماء تلوث باللون الاحمر بينما حركات يديها الرتيبة لا تتوقف .. وهي ترفع الماء بيد وتمسح الماء عن باقي ساقه باليد الاخرى .. في حركات متناوبة ..

اصابعه تتقلص حول فرش الاريكة البالي يكاد يمزقه .. ليس من ألمه من الجرح وانما من تأثير لمسات اصابعها على ساقه ..

عيناه لاتفارقان وجهها المحني يراقب ملامحها بتمعن .. لم تقرف من الدم الذي تنظفه .. ربما قرفها منه شخصيا يطغى على قرفها من دمه ...

انهت مهمتها لتلتقط من جانبها احدى الخرقات النظيفة التي بجانبها لتستخدمها في تجفيف ساقه بحذر حتى لا تؤذي جرحه ..

ثم اخذت خرقة اخرى ولفتها حول الجرح لتمنع استمرار النزيف واخيرا رفعت قدمه من الماء لتخرجها وهي تلفها بخرقة ثالثة وتضعها بحذر على الارضية ..

بنفس الصمت الذي يقتله رفعت الحوض الصغير وذهبت به الى الحمام ..

لم تسأله كيف أصيب ومن أصابه وكأنها تقبلت قدرها أنها باتت زوجة رجل مثله سيأتيها كل يوم بجرح من نوع ما ...

ترى ماذا ستفعل لو علمت ما فعله مع رضا الصائغ ؟ كم يود ان يخبرها ورؤية ردة فعلها اذا اخبرها انه قتل الصائغ ...

عادت اليه تحمل قطنا وشاشا طبيا ومحلولا معقما كان قد احضرهم فالح من عند الممرضة سعدية التي تقطن اخر حي الشيخ ..

عادت لتجلس ارضا قبالته وتستعد لتعقيم الجرح وحالما سكبت المحلول المعقم فوق القطن وقبل ان تزيح الخرقة عن ساقه سألها تحسين على حين غرة رغم انه كان متأكدا من الجواب " هل رضا الصائغ يعرف عنوان بيتك ؟ هل كان يأتيك هنا ؟ "

يدها التي تحمل القطن ترتعش بينما تهمس بحرقة قلب من الظلم الواقع عليها



" حسبي الله ونعم الوكيل .. الا يقف بعينيك اي معروف فعله ابي معك لتكف عن اتهامي باطلا في عرضي وشرفي ؟! "

عيناه على ضفيرتيها الطويلتين فمد يده بحركة عنيفة خاطفة وامسك بخشونة جانب شعرها عند بداية احدى الضفيرتين واصابعه تغوص بين ثنايا الخصل البنية ليهز رأسها بعنف شديد

" ألم تخبريه ابدا عن العنوان ؟ردي ..."

تهطل دموعها بعجز وهي ترد باكية

" لا .. .. لا ... لا ... كل ما يعرفه .. اني اسكن .. حي الشيخ .."

اقترب بفمه هادرا قرب وجهها " هل يعرف اسمك واسم والدك ؟ انطقي ..."

ما زالت يده تشد شعرها بقساوة وحشية بينما ترد شاهقة بالألم " آآآه ..اجل يعرف... اسمي فقط .. حسناء .."

عندها دفعها بعيدا لترتد للخلف وتكاد تقع على ظهرها لولا ان استعادت توازنها فتبكي بحرقة ليصرخ بها تحسين " عقمي الجرح يا امرأة ونوحي بعدها كما تشائين ..."

بنشيج بكاء مكتوم اخذت قطنة جديدة بدل التي وقعت منها ارضا وسكبت المحلول فوقها ثم بصمت ازاحت الخرقة المدماة لتبدأ بمسح القطنة فوق جرحه ..

تفعل كل هذا بصمت وعيناه كعيني صقر تحدقان بفريسة لن تشبعه غيرها ..

وعندما انتهت قال بخشونة وهو يتمدد على الاريكة " اغربي عن وجهي .. سأنام قليلا .."

اطبق جفنيه وطوى ذراعه فوق رأسه لتستند على جبينه وهو يضيف

" ان طرق احدهم باب البيت لاتفتحيه .."

اخر ما سمعه منها قبل ان تبتعد " حاضر .. "

وفي ظلام اغفاءته كانت الكوابيس المعتادة تسرح وتمرح في نومه ...

لا سلطان يضاهي سلطان النوم الا سلطان ذنوبك وسواد روحك ..

يتجسد لك بكوابيس لايشق سوادها الا لون الدم الاحمر القاني ...

وجوه ووجوه .. مرت عليه ... فلم يفصل بينهما الا لون الدم ورائحة الشيطان تعبق بالمكان..

رائحة الشيطان دوماً تسبق حضوره كأنها تعلن عن مقدمه ..

رائحة لا يميزها الا من يتخذه قريناً ...

وكلما استباح الشيطان روح انسان كلما جعله يتآلف مع تلك الرائحة ويميزها ...

ومن يألفها .. يدمنها .. يتحول لعبد ذليل لها .. تلهمه الفواحش وتدفعه للكبائر ..

ولا يبقى له الا ذرة منسية من فطرة سليمة قد تكون اخر قشة يتعلق لها لتنجده ...

بعد ساعتين.. في المستشفى.. غرفة الانتظار

يستمع المحقق لرواية هذا الرجل العجوز الذي يبدو بقمة تركيزه واثارته وافتخاره

" لقد رأيته تحت شجرة بيتي عند الباب الخارجي .. يتربص بعينيه وكأنه ينتظر احد ما .. هيئته غريبة عن الحي فأثار فضولي .. وبعقليتي الخبيرة بالاجرام والمجرمين علمت ان ليس وراءه خير ابدا .. وبينما كنت استعد بسلاحي المرخص تحسباً لأي موقف محتمل لاخرج اليه بعدها فوجدته قد تحرك من مكانه .. ولم تمض لحظة الا ورأيته على بعد مسافة قريبة من بيتي حيث بيت الست بدرية.. كان يقترب من رضا الصائغ الذي يقف بباب بيت امه .. لم اخبرك يا سيادة المحقق.. انها امه بالرضاعة ويذهب لزيارتها دوماً ..اقصد رضا الصائغ طبعا يذهب لزيارتها.. حسن لنعود للمجرم .."

المحقق ينظر اليه بملل بينما تتأهب كل حواس سعدون وتقدح عيناه اثارة مضاعفة وهو يصف الاحداث بتفصيل بوليسي مبالغ فيه

" كنت ألحق به دون ان اصدر صوتاً بينما اراه بوضوح يقترب من رضا الصائغ الغافل عنه ملتفتا للجانب ينادي على امه بدرية لتستعجل الخروج .. ثم يفاجئه المجرم بضربة سكين مباغتة تشق بطنه .. هكذا ..."

كان سعدون من شدة اثارته يمثل بالحركات ايضا .. فيحرك كفه بحركة سريعة مباغتة وكأنه يعيش دور المجرم ..

سأله المحقق وهو يكتب بضع اسطر في مدونة التحقيق " كيف كانت السكين هل تستطيع ان تصفها ؟"

عقد سعدون حاجبيه الاشيبين قليلا قبل ان يتفكر للحظات ثم يقول " اظنها كانت سكين مطبخ عادية بمقبض احمر ... لكن .. امر غريب ...! "

رفع المحقق رأسه ليسأل سعدون

" ولماذا تراه غريبا ؟"

فيرد سعدون وهو يحك ذقنه باصابع يده

" مجرم مثله وانا واثق ان لديه سجل اجرامي .. لماذا لا يستخدم سكين محترفين ان لم يشأ استخدام مسدس حتى لا يكشف نفسه للاخرين ؟ رغم انه كانت يستطيع استخدام مسدس وقتل الرجل ببضع طلقات ثم الهرب سريعا .. لم تره كيف قفز من فوق سور البيوت وساقه تنزف من اثر طلقة مسدسي.. انه سريع حقا وربما هجّام بيوت محترف .."

تمتم المحقق وهو يعود لتدوين بضع ملاحظات

" وجهة نظر معقولة سيد سعدون .. هلا تصف الجاني لي لو سمحت "

بدا سعدون ممتعضاً بل مغتاظا بينما يرد

" لم أر ملامح وجهه بشكل ملائم .. اللعنة
على منظاري المكبر الذي انكسر .. لكنه
رجل تجاوز الثلاثين بلا شك ضخم الجسد
اجرامي الهيئة والملامح بشعر داكن مشعث..
لم ألتقط للاسف شيئا مميزا بوجهه عدا
الندب الواضحة .."

ما زال المحقق يدون بينما يطرح سؤاله

" سؤال اخير .. هل رأيته يرمي السكين
بمكان او جهة ما .."

رد سعدون بانفعال " لقد اخذها معه الخسيس..
رأيته جلياً يخفيها في فتحة قميصه .."

اغلق المحقق كتاب التحقيق وهو يقول

" شكرا لك سيد سعدون .."

واوشك ان يقف على قدميه ليغادر غرفة
الانتظار في المستشفى حيث يجري تحقيقه
عندما قال سعدون بامتعاض واضح واحباط
طفولي لايتناسب مع سنه ومقامه

" لكني لم احكي لك تفاصيل مهاجمتي
له.. !!"

اعتدل المحقق في جلسته وبدا عليه النزق
بينما يواصل سعدون هذره الانفعالي بالوصف
"عندما رأيته يشق بطن رضا الصائغ اطلقت
رصاصة في الهواء وانا اهدده ان يبتعد عن
الرجل ... لكنه لم يرتدع ليلتفت ألي على
حين غرة ويهاجمني فأطلقت النار على ساقه
لكنه كان قد اوقعني ارضا الحقير وبعدها
فر هارباً خاصة وبدرية تصرخ وتولول ..."

قال المحقق ببرود

" اظننا سجلنا هذا سابقا اليس كذلك ؟"

فيميل سعدون نحوه ويمد يده لمدونة التحقيق يحاول فتحها وهو يقول بحشرية

" أرني المحضر لو سمحت .."

اصابع المحقق شدت على المدونة بقسوة مما جعل سعدون يرفع نظراته اليه مواجها نظرات المحقق الباردة فيتمتم سعدون معتذرا وبابتسامة خجلة " عفوا .. انا لا ألمح انك تقصر في عملك .. أردت التأكد فحسب.."

يقف المحقق على قدميه دون ان يهتم بقول المزيد فيقف سعدون هو الآخر ولا يقاوم ملاحقة المحقق بسؤال فضولي

" هل اخذت اقوال ابي جعفر ؟ هل أخبرك ان كان يعرف الرجل ..؟"

حدجه المحقق بنظرة جعلت سعدون ينكمش على نفسه ليعود ويجلس على كرسيه مدعياً البراءة من داء الفضول القاتل .....

غرفة خاصة في المستشفى

رغم شحوب وجهها الشديد كانت بدرية تبتسم ولاتكف عن حمد الله وشكره ثم تعاود الانحناء وتقبل جبينه وتتساقط مع انفاسها عبرات البكاء فتلفح وجهه ويتقبلها رضا صامتا متحاملا على وجعه وهو يبتسم في وجهها مطمئنا اياها انه بخير ...

سأل وهو يرخي جفنيه " هل علمت امي ؟ "

تعيد ترتيب الغطاء الابيض فوق جذعه العاري الا من ضمادات سميكة وهي ترد عليه " لا ... امك سعاد باتت منعزلة خلف جدران البيت اكثر من اي وقت مضى .. لو سقطت قنبلة بوسط شارعنا فلن تشعر بها ..! "

يتنفس الصعداء بينما يسأل باحتياج رقيق

" اين اسيا ..؟ اين ذهبت ..؟ "

تتبسم بدرية بحنو وهي تمرر يدها فوق جانب وجهه وتقول له " ستكون جوارك خلال دقائق .. لكن لا تقلق عليها .. لقد شجعتها لتجري التحاليل ما دمنا في المستشفى وما دمنا أطمأننا عليك.. انها قوية ومن ظهر يونس العطار .. لاتخش عليها من فاجعة رؤيتك جريحاً هكذا .. "

يرد وما زال يغمض جفنيه " الحمد للّه على كل حال .. المهم انها بخير.."

تتردد بدرية قبل ان تفضي له بما يدور بخلدها لتسأله بقلب أم يشعر بوجود امرا مخفيا " يا حبيب اميّك... ألن تخبرني ؟"

يفتح عينيه قليلا فيسألها

" اخبرك بماذا اماه .."

تخنقها العبرة وهي تقترب منه مرة اخرى تلثم لحيته ويتهدج صوتها " لا حرمني اللّه من مناداتك بـ (أماه) حتى يوم مماتي .."

يعتب عليها بالقول " لاتقولي هذا أماه ..

ولاتعاودي البكاء .. اتوسل اليك بكاؤك

يؤلمني اكثر من هذا الشق قي بطني .. "

تتماسك بدرية وتمسح دموعها لتعاود السؤال

بجدية وتضيف المزيد

" حسن لن ابكي .. اعدك لن اذرف دمعة

لكن اصدقني القول يا ولدي .. انت كذبت

على المحقق .. اليس كذلك ؟ لقد عرفت من

هو الرجل الذي هاجمك لكنك ارتأيت

لسبب ما ان لا تفضح .."

عاود اغلاق عينيه وذكرى ذاك الوجه تغرق

صفحات خياله .. وجه اجرامي الملامح

والتعابير .. ناضح بالكره والوحشية ..

فيقول من بين شفتيه الجافتين " لقد قالها في

وجهي قبل ان يشق بسكينه بطني .."

تحرق الدموع عينيها رغما عنها .. يا الهي لم

تشعر يوما انها امرأة ضعيفة هكذا !

لكنه رضا .. رضا ولدها ورضيعها ...

تمسد على لحيته وهي تخنق بكاءها وتقول

بوجيعة قلب الام ..

" لاتقلها .. حلفتك بالله لاتعدها .. ربنا

الرحمن رأف بحالي وحالنا جميعا .. لا اراني

الله بك شرا ما دمت حية اتنفس .."

تميل اليه تخنق مزيدا من عبرات البكاء

وتقول له بحشرجة

" ما هذا الذي فيك يا من لم تلده بطني .. "

ياخذ نفساً موجعا لجرحه بينما يردد بتعب

" اياك ومعاودة البكاء اماه .. ستوجعيني .."

وعدته بالقول وهي تتماسك " لن ابكي .. وراسك الغالي لن أبكي .. اخبرني فقط .. من يكون الرجل ؟ هل لك اعداء في السوق ؟"

صمت للحظة فقط قبل ان يقول بهدوء عجيب

" انه تحسين .. الفتوة في حي الشيخ .. "

هتفت بدرية وهي تضرب على صدرها " ماذا ؟! ذاك الفتوة الذي يريد حسناء زوجة ؟! ولماذا يحاول قتلك ؟! "

يرد رضا بعد تفكير " ربما لينتقم لانه علم بالتجاء حسناء لنا واستجارتها بنا .. لكني اخشى انه علم اكثر من هذا .. اظنه علم بطلب حسناء الاحتماء باسمي .. "

اتسعت عينا بدرية وهي تقول " وانت الذي كنت تريد طريقة لمعرفة محل سُكناها في الشيخ ...! اياك ان تحاول يا رضا .. يكفي ما حصل .. "

ما زال يغمض عينيه بارهاق بينما يردد بنوع من الشرود " قال لي (انظر في عيني لترى وجه من سيقبض روحك .. انا تحسين رجل حسناء ولا رجل لها غيري ..)"

هتفت بدرية مرتعبة " يا الهي رضا .. يجب ان تبلغ الشرطة بهذا .. سيترصدك مرة اخرى .."

رد رضا وهو يعبس " لاستطيع فعل هذا .."

فتسأله بدهشة " لماذا ؟"

يفتح عينيه وبجفنين ثقيلين ينظر اليها ويقول " هل تتخيلين كيف سيبدو الامر يا اماه ؟ كيف سيسيء لسمعتي وسمعة بيت الصائغ اذا لاكت الالسن ان هناك من يترصدني انتقاما بسبب امرأة ..."

للحظة لم تستطع بدرية الرد بشيء وهي ترى منطقه الصحيح بينما يضيف رضا " كما اني لن اعرض اسيا لهذا القلق وهي باحتمال شبه مؤكد حامل .. "

سألت بدرية بحكمة " ماذا ستفعل ؟ قد يختفي الحقير لبضعة ايام لكن حالما يتأكد ان لا احد يلاحقه قد يعاود الكرة معك .."

يرد رضا بعد لحظات تأمل " سأجد وسيلة .. "

تمد يدها لتتشبث بكفه وهي تقول بعاطفة امومية " حسن .. لاجلي انا .. استحلفك بالله اخبر اخوتك .. اخبر حذيفة ومحسن .. على الاقل ليأخذوا حذرهم .."

يردد وهو يتوجع " نعم ... آآه .."

تهب بدرية وهي تمسد على شعره بعجز

" هل تؤلمك يا اغلى من نظري ؟ "

يهمس لها بصوت مرهق تماما " اقرأي علي سورة يس كما كنت تفعلين عندما امرض وانا صغير .. سأكون بخير .."

فتضع يدها اليمنى فوق جرحه بحذر قبل ان تبدأ قراءة السورة " بسم اللّه الرحمن الرحيم .. يس.. والقران الحكيم ...."

وما ان وصلت لنصف السورة حتى تراخى رضا غارقا في نومه وامه بدرية تواصل قراءة المزيد ...

ومرت ساعة أخرى ..

خدها فوق ظاهر كفه تغمض عينيها بسكينة وبضعة دمعات ضعف تفلت منها ..

رضا قلبها ... حبيب عمرها ورفيق روحها ...

تبتسم وهي تهمس له

" انا حامل يا رضا القلب .. اي فرح تضج به الجوانح وجزء منك ينمو في احشائي للمرة الثالثة .. اي بهجة تغمر روحي وهي تتلمس بضعا من روحك تدغدغ امومتي مرة جديدة .. حشرني اللّه معك في جنات الخلد ..."

تلثم اسيا اصابع يده وهو غافل عن مناجاتها العذبة كعذوبة نهر صافٍ ... يغرق بسبات النوم بعد ان قرأت عليه امه بدرية ما تحفظه من ايات اللّه ...

عند باب الغرفة كانت تقف رباب مبهورة
بمرآى اختها الكبرى وهي تعانق كف زوجها
وتهمس له بعذب الكلام دون ان تشعر بوجود
من يناظرها ويسمعها من عند الباب ...

اصابع رباب ترتفع لفمها وكأنما تهدأ انفاسها
المتأثرة انفعالا ...

هل يوجد اجمل من هذا الذي تراه ..

جميل كأجمل ما خلق رب العزة ..

جمال يكاد يثير غيرة الطيور لتزقزق بلحن
اجمل من لحن كلماتها ..

وغيرة السنابل الذهبية فتلوح للشمس تناديها
لتمنحها وهجا اكثر من وهج مشاعر اسيا نحو
رضا قلبها ...

صوت عبد الرحمن أتى غريباً لمسمعها وهو
يهمس قرب اذنها " دعيهما بمفردهما يا رباب ..
تحتاج اسيا ان تطمئن جواره ويكون اول وجه
يراه عندما يستيقظ فتبشره بحملها ..هيا
لنلحق بالخالة بدرية في غرفة الصلاة ..."

استدار عبد الرحمن تاركا اياها تلحقه متى ما
شاءت فتنسحب رباب ببطء وهي تعيد غلق
الباب دون اصدار صوت .. ثم تلاحق بعينيها
خطوات عبد الرحمن الرتيبة المبتعدة عنها
في ممر المستشفى ..

قلبها يتوجع من خطواته تلك دون سبب
محدد...

فيه شيء عجيب لا تفهمه ..

منذ ان اطمأنوا على حالة رضا وهو يبدو غريباً متباعدا ... غارقا في افكاره بعيدا عنها ..

وما زالت افكاره تبتعد اكثر مع كل خطوة رتيبة يخطوها ...

عند مغيب الشمس ..

غرفة الحاجة سعاد ..

مستلقيا على سرير والده وامه تبكي بحرقة جواره وهي تحاوط رقبته وتلف كتفيه بذراعها ..

تعنفها بدرية بالقول " توقفي عن البكاء يا امرأة .. انه فأل سيء .. كما انك ستخنقين الفتى بذراعك الثقيل المليء بالشحوم ... الا يكفي انه أصر الخروج بسببك انت .. قال ستقلق ولن تطمئن حتى تراني انام جوارها .. "

ما زالت سعاد تبكي وتنوح وهي تهمس بكلمات بدت غريبة على مسامع رضا ولم تفهمها الا بدرية

" انا السبب يا بدرية .. هل تذكرين ما قلته لي ؟ هذا حق المسكينة التي لا ظهر لها ... لم احمد اللّه على نعمه وطمعت بالمزيد فأوجعني في احب اولادي .."

يتساءل رضا بعجب



" اي مسكينة امي ؟! عم تتكلمين ؟"

حدجتها بدرية بنظرة ذات معنى وتكز على اسنانها وهي تقول بمزيد من التعنيف

" كفي عن نحيبك وهذرك السخيف .. الفتى يحتاج للراحة والعناية .. لا ولولة وكلاما غير مفهوم .."

يضحك رضا بصعوبة وهو يتألم بينما يقول لامه بدرية " اماه يبدو انك نسيت اني اقارب الخمسين لم أعد فتى على الاطلاق .."

تمسح سعاد دموعها وتتشبث أكثر بكتفي ولدها وهي تقول بعبوس متدلل " كم مرة قلت لك لا تناديها اماه امامي وبوجودي .. الا يكفي انك تناديها امي بدرية ..؟! "

نظرت بدرية للسقف بيأس وهي تردد

" اعوذ باللّه من غيرة النساء ... نحن بأي حال وصغيرة العقل هذه بأي حال !! "

تهتف بها سعاد وهي تناقرها بالقول

" صوني لسانك يا بدرية .. ولدي مرهق ويحتاج للراحة .. سأسهر جواره طوال الليل "

مطت بدرية فمها بحركة ذات معنى وهي تطلق صوتاً ساخرا وتواصل لعب دور فكاهي مع رفيقة عمرها سعاد التي تسايرها فيما تفعل وتناقرها بالمثل فقط .. وكأنهما اتفقا دون تفكير لتبهجا قلب ولد انجبته احداهما وارضعته الاخرى فتشاركتا حبه وامومته ...

عينا رضا تناظران من بعيد تحركات اسيا وهي تعد فراشا لها على الارض ...

لم تبخل على امه ان تكون قربه الليلة وبطيب خاطر ودون ان يطلب منها احد احضرت اغراضه لغرفة والديه واستأذنت امه انها ستفترش الارض حتى تعطي رضا دواءه في موعده ..

نظرة شاردة منها نحوه جعلته يرد لها بنظرة دافئة وهو يبتسم بمناغشة سرية فترد له الابتسام وهي تطرق في حياء ..

تحركت بدرية وهي تقول بتفكير امومي

" ربما سأبيت انا الاخرى هنا وافترش الارض جوار اسيا .. المسكينة مرهقة وقد يغلبها النوم ولا تستيقظ لتعطي رضا دواءه .."

تأففت سعاد وهي تتمتم " ها قد التصقت بنا ولن تتركنا نهنأ بليلتنا لتزاحمنا الغرفة .."

ترقص بدرية حاجبيها اغاظة بينما تغمز لرضا الضاحك قبل ان تغادر الغرفة قائلة

" سأخبر زوجي اني سأبيت هنا الليلة .. عسى اللّه ان يعينني على شخير سعاد الذي سيستمر طوال الليل وحتى بزوغ الشمس .."

لم تحتمل اسيا لتضحك بينما تقترب من السرير الضخم حيث ينام زوجها ..



الضحكة عالقة بفمها وتنثر البشاشة على وجهها لكنها ابدا لن تخدع قلبه ..

انها قلقة .. قلقة من مجهول تظنه يترصد رضا وتخشى من محاولة جديدة ..

بينما رضا قلق من معلوم مؤكد !

تحسين ذاك يحتاج لحل من نوع ما ولا يدري ما هو الحل حقاً ...

تسأل سعاد كنتها قائلة " اين خلود ؟!"

فترد اسيا " لقد اخذت الاولاد لبيت رحاب .. انهم يدرسون معا وهي تساعد من يحتاج .. "

عندها سأل رضا ببعض القلق " واين كاظم ؟ ما لي لا اراه ..."

تنحني اسيا لتعدل وسادته فتتقرب من رأسه كثيرا وهي ترد عليه بنفس البشاشة التي تطال عمق روحها

" انه مع امي .. سيبيت الليلة معها .."

يسبل رضا اهدابه بينما يهمس لها قرب اذنها متوخيا الحذر ان تسمعه امه " لا داعي ان يذهب الاطفال للمدرسة غدا .."

للحظة تجمدت يدا اسيا قبل ان تستعيد تماسكها لتبتسم في وجهه بتفهم وثقة وهي تهز رأسها بـ(نعم) ...

تنظر بدرية لرباب وهي تقف بمقدمة السلم والتردد والحيرة ترسمان محياها ...

لاتستطيع ان تلومها وقد بدا عبد الرحمن غريبا وهو يعتزل نفسه في جناحه منذ اعادة رضا للبيت ...

اقتربت منها فتنبهت لها رباب لتتورد في خجل.. تتبسم بدرية وتطبطب على كتفها قائلة بتشجيع " اذهبي اليه يا رباب .. لاتترددي هكذا يا فتاة انه بحاجتك .. ما حصل لرضا اليوم هزّه بقوة.. ربما يتصرف بغرابة واستقلالية وربما سيدفعك بخشونة لتبتعدي وربما العكس سيلتجأ اليك كطفل صغير .. في كل الاحوال هو يحتاج لتفهمك قبل دعمك.. هكذا هم الرجال .. قد لا نتفهم تصرفاتهم ونجدهم غريبي الاطوار وصعبي التعامل لكن يكفي اننا جوارهم ونفهمهم "

رفعت رباب نظراتها ناحية السلم فتحدق في اعلاه ثم تتخذ اولى خطواتها على اوله ..

جناح عبد الرحمن ..

كان باب الجناح مفتوحاً لتراه مباشرة امامها يولي جهة الباب ظهره بينما يحدق في صورتين كبيرتين معلقتين على الحائط ...

الصورتان كانتا بالابيض والاسود فتتبينهما رباب وهي تميل برأسها للجانبين لتتأكد انهما تعودان له عندما كان طفلا صغيرا ...

قدماها لم تطاوعاها مباشرة لتقتحم خلوته هذه واستغراقه المبهم في تلكما الصورتين ..

قلبها ينزغها ودموع تكاد تفر من عينيها وغصة تخنق انفاسها ..

كل هذا وهي تفكر ماذا لو تعرض عبد الرحمن لمكروه كما حصل اليوم لرضا ؟!

كيف ... كيف ستتعامل مع هذا الامر ؟

هل ستكون كآسيا بصمودها ودعمها وتماسكها ؟

هل ستتشبث بكفه وتبثه روحها وكأنها تمنحه جزءا من انفاسها .. من عمرها ...

لقد اكتشفت في لحظة ان الحياة كلها مجازفات غير محسوبة ...

وغبي من يعتقد انه يستطيع تأمين نفسه ويرسم خطة محكمة بالمسطرة والقلم ..

لا مسطرة لقياس الافراح والآلآم المقبلة ..

ولا قلم يرسم احداثا مستقبلية من الغيب ...

لاول مرة تشعر بالغيرة من اسيا ...

لأول مرة تنظر لعلاقتها برضا من زاوية مختلفة.. ان تحبه بهذه الطريقة وتعبر عن حبها بتحرر وثقة .. حتى وهي قلقة عليه تشعر بسعادة خفية لتلك المشاعر التي تربطها به..

لم تفكر رباب يوماً بتلك السعادة الثمينة التي تستحق المجازفة لاجلها ..

لم تفكر الا في ألم محتمل الحدوث قد لاتستطيع تجاوزه ...

كيف تخشى من ألم محتمل الحدوث ولا تخشى ألما أكيدا ؟!

ألم الخيانة في كفة وألم الفراق في كفة..

كيف وضعت الألمين في كفتيّ ميزان وأخذت تقيس وتقارن لترى اي الكفتين أرجح؟!

ليس من العدل المساواة بين (المحتمل) و(الأكيد) وعقد المقارنة بينهما ...

عادت عيناها لتركزا النظر الى ظهر عبد الرحمن فتتجلى لها تلك اللحظة الثمينة بين اسيا ورضا ...

لحظة تعكس السراء والضراء معاً ..

هل هي اضعف من اسيا الى هذا الحد فتنأى بنفسها ان تجازف وتعيش كل هذه المشاعر ؟!

تغمض رباب عينيها للحظة تحاول كل جهدها التركيز حالياً مع عبد الرحمن ..

ثم تأخذ نفساً عميقاً قبل ان تتشجع وتتجرأ لتدخل الجناح بشجاعة من لها مكان في .. المكان ...

لاتعرف كيف ادرك انها هي من دخلت ليقول بنبرة خافته دون ان يلتفت اليها

" هل تعلمين يا رباب.. اخبروني عندما كنت طفلا بعمر العام الواحد وحتى بلغت الثالثة اني كنت انادي رضا ..بابا ؟"

ارتجفت شفتا رباب وهي تقترب اكثر فتقف جواره وتحدق في الصورتين معه ...

احداهما كانت صورة لعبد الرحمن بعمر الثانية او اقل ربما .. يرتدي حفاظ الاطفال ويقف محدقا بمن يصوره في ذهول اطفال فضولي بينما على مقربة منه يجلس الحاج عقيل الصائغ بعباءته المهيبة وعقاله العربي الاصيل ... ينظر لاصغر اولاده بحنان لايضاهى وقد بدا الحاج اقرب لان يكون جده من ان يكون اباه..

وكأن عينيّ الاب مشفقتان على صغير قد لن يعيش له طويلا ليمنحه ما يحتاج من ابوته ...

اما الصورة الثانية فكانت لرضا وهو شاب عشريني بابتسامة عريضة جالسا على اريكة ما قديمة الطراز بينما استقر على حجره عبد الرحمن طفلا لم يتجاوز الرابعة ربما..

بنفس النبرة يضيف عبد الرحمن وهو يحدق في وجه رضا عبر الصورة القديمة " كنت اظنه ابي حقا ..؟ او اشعره ابي .. انا لااذكر مناداتي له بـ(بابا) لكني اذكر وانا بعمر رياض الاطفال اني كنت اركض نحوه عندما اراه جالساً مع والدنا في غرفة المعيشة لاجلس في حجره بدلا من ان اجلس في حجر ابي .. وابي رحمه الله يضحك .. "

ترفع رباب كفها بتردد ثم تتشجع لتلامس كتفه وهي تسأل بصوت متحشرج تأثرا

" هل انت بخير يا عبد الرحمن ؟ "

تتفاجأ به وهو يبعد يدها ببعض الخشونة عن كتفه ويخطو نصف خطوة للخلف بعيدا عنها وهو يضحك ضحكة قصيرة ساخرة ويردد

" بخير ؟!!! بخير ؟!"

كان يحرك رأسه يمينا وشمالا على نحو غريب غير مفهوم وهي تلاحق عينيه المسبلتين تحاول ان تلاحق اختلاجاته ثم ينتفض قلبها وهي تصدم برؤية دمعات تسيل على خديه !

هتفت وقلبها ينتفض بمزيد من النبضات المتوجعة لاجله " عبد الرحمن ...! دموعك تسيل على خديك .."

كان مشوشا .. متخبطا .. غاضبا .. و.. خائفا بطريقة ما ..

فجأة امسك بساعديها ويهزها بقسوة كأنه يفرغ فيها شحناته

" هل تتخيلين لو ان .. لو ان رضا ... "

تحدق فيه والدموع ما زالت تسيل من عينيه فتمد كفيها لصدرها تلامسه عفويا وهي تقول بعبرات التأثر تحاول ان تطمأنه بأي طريقة لتخفف من ألمه وخوفه

" انه بخير .. بخير .. لاتقل هذا .. رب العالمين حفظه لاجلنا جميعا.."

فجأة يجذبها اليه يعتصرها ويغمر وجهه في عنقها بينما تتصرف تلقائيا وبحاجة تكتسحها توازي حاجته تلف ذراعيها حول رقبته تشده اليها بقوة ومشاعر متدفقة فيتأوه

" آآه.. احضنيني أكثر .. اشعر اني .. اني .. يا الهي لا اعرف كيف أصف شعوري .."

وما هي الا لحظات حتى كان يصارع عبرات البكاء يريد ان يكتمها بكبرياء رجولته ولا يستطيع فتبكي معه وتضمه اليها حتى اوجعت عظامها وهي تقول له بتقطع باك

" لا داعي... لتفسر ... ابكي يا عبد الرحمن.. ليس عيباً ان تبكي جزعك على اخيك ومن اعتبرته أبا لك .."

لم تعد تشعر الا بلهفتها لتواسيه ولهفته لقربها تمتزجان واصابعه تحفر في ظهرها..

كانت بدرية في طريق عودتها لبيت الصائغ وهي تحمل حقيبة صغيرة فيها بعض اغراضها استعدادا للمبيت ..

رأت عند باب بيت الصائغ ثلاث رجال عرفتهم مباشرة رغم الظلام الذي يخيم وضعف بصرها..

لم يكونوا الا محسن وحذيفة ويحيى الصائغ..

بدا حذيفة متوترا للغاية ويحيى يحاول
تهدئته بينما محسن اشد توترا من اخيه
لكنه كالعادة يكبت توتره فتفضحه
الطاقات السلبية التي تنطلق منه بوضوح
لايحتاج للكلام ...

وصلت اليهم لتجد حذيفة بملامح متجهمة
تفيض بغضب مكبوت فيقول لها حالما ألقت
السلام عليهم " صفي لي الرجل خالتي ..
المعتوه سعدون لا يجيد الا التفاخر بما فعله
ولم استطع ان اعرف منه جملة واحدة تفيدنا
لمعرفة الفاعل .. انت كنت معهم .. اخبريني
كيف كان شكله .. هيئته .. هل قال شيئا ؟
هل افصح عن سبب فعلته ؟ هل قال شيئا
لرضا؟ اشعر ان رضا يخفي اموراً عنا .. اخبريني
انت خالتي .. سر رضا معك دوما فاخبرينا
لنتصرف .."

بدرية لم تنطق بشيء بينما تنظر بتفكير
لوجه حذيفة ثم تنقل نظراتها لوجه محسن ..

قد يبدو محسن بهالة الاستاذ المتحضر
المثقف الهادئ لكن ما يكبته أشد وطأة مما
يبديه حذيفة بغضبه الساطع المتهور ....

قال يحيى وهو يمسك بذراع حذيفة

" اهدأ حذيفة .. قلت لك .. نحتاج للهدوء
ورباطة الجأش لنفكر بعقل .. يجب ان نفهم
لماذا فعل الرجل ما فعل ؟ ومن دفعه ليفعل .."

صرخ حذيفة وهو يفقد اعصابه

" لا اهتم ذرة بفهم شيء .. احتاج فقط ان اعرف من هو .. ووالله لن تطلع شمس على رجل شق بطن اخي .."

ما زالت بدرية صامتة تحاول الوصول لقرار...



الفصل الخامس والعشرون

ما زالت بدرية صامتة تحاول الوصول لقرار...

وأوشكت ان تُقدم على إخباره عندما أضاف حذيفة بنظرات مفعمة بالعنف المخيف

" ان الامر له علاقة بتلك المرأة حسناء اليس كذلك ؟ وذاك الفتوة تحسين في حيّها القذر ؟ سأجده واقطع لحمه بسكين ثلمة كتلك السكين التي تجرأ بها على رضا .."

صوت يحيى وهو يهتف بحذيفة بدا كجرس انذار خطير في عقل بدرية

" حذيفة ! هل جننت ؟! الا تفكر بعائلتك وما سيحدث لها جراء جنونك المخيف هذا؟"

امسك حذيفة بذراع الخالة بدرية دون ان يشعر كيف ان اصابعه تشد على لحمها وهو يقول بصوت خافت حاد " أكدي لي الامر يا خالة ... لاتصمتي هكذا ..فقط أكديه وسأتصرف .."

اخيرا تكلم محسن فجاء صوته قاطعاً بالقرار

" لا احد سيتصرف دون ان يطلب رضا هذا .. عائلة الصائغ اكبر من ان تمس سمعتها بالفتوات والمجرمين ..."

كان محسن يناضل ليمسك جماح الغضب المستعر في داخله .. لكن عند اسم العائلة وتاريخها دوماً تتغير اولوياته ... سلسال عائلة (الصائغ) العريق .. اهم من رضا الصائغ نفسه ..

حسمت بدرية قرارها بأن قالت بهدوء وبنبرتها الحازمة المؤثرة " استمع لاخيك محسن وابن عمك يحيى يا حذيفة .. الغضب يودي احيانا للتهلكة .. دع رضا من يقرر وانا واثقة انه سيخبركم اذا كان هناك ما يستدعي ان تعرفونه .. الوقت الآن غير مناسب لنطالبه بشيء.. انه يحتاجنا قربه .. يحتاج ان يشعر ان العائلة بأمان حتى يستكين هو مطمئنا ويلتفت لحاله وصحته .. أمسك غضبك يا حذيفة .. نحتاج للتفكير والتروي ..."

ثم ابعدت يده عن ذراعها وتقدمتهم لتدخل بيت الصائغ يلحق بها الرجال الثلاثة في صمت.. وكل واحد منهم تتنازعه افكار مختلفة عن الآخر ...

بيت العطار .. المطبخ..

تنظر رقية عبر شباك المطبخ للحديقة المظلمة ولا تجد اي دافع يجعلها تذهب لزر الانارة الخارجية حتى تشغلها ..

وكأنها تحتاج التحديق في هذه الظلمة الساكنة حتى تمعن النظر في افكارها المضطربة ...

حبيبة تجلس على كرسي قبالة المائدة تراقب صغيرتها سُكينة بشرود وهي تأكل من صحن حلاوة الطحين باللوز التي اعدتها امها كفرحة بسلامة رضا بينما تبدو حبيبة عابسة بتفكير هي الاخرى ...

قالت رقية فجأة

" الا ترين الامر غريباً يا حبيبة ..؟! البارحة تأتي المرأة تتحدث عن فتوة يهددها وتريد اسم رضا الصائغ ليحميها منه .. واليوم يأتي مجرم لحيّنا منذ الصباح فيهاجم رضا ..؟"

قالت حبيبة بصوت خافت ونبرة مشدودة بينما تقف على قدميها وتقترب من اختها الصغرى

" ششش ...اخفضي صوتك يا رقية .. امي متوترة جدا ولاينقصها ان تصل لهذا الربط بين الامرين .."

التفتت لها رقية لتواجهها وهي تقول بتوتر واضح " اذن فانت تربطين الامرين مثلي .."

تنهدت حبيبة متمتمة بملامح متجهمة

" ستكون صدفة نادرة ان لم يرتبطا .."

ابتلعت رقية ريقها بصعوبة لكن خرج صوتها ثابتا مسيطرا وهي تسأل بجدية

" ماذا سيحصل الآن ؟ هل تظنين ان رضا ابلغ الشرطة عن قصة المرأة وذاك الفتوة ؟ "

ردت حبيبة وهي تشعر بانقلاب في معدتها

" لا اعلم .. انتظر عودة يحيى ليخبرني بما يجري .."

تمسد حبيبة على بطنها بينما تأخذ عدة انفاس لتقاوم موجة الغثيان ..

سألتها رقية باشفاق " هل انت بخير ؟"

ردت حبيبة ووجهها الشاحب يشي ان الغثيان شديد " انتظر تحرك الجنين بفارغ الصبر .. امي تقول مع اول حركة للجنين في رحم امه سينتهي الوحام .. لقد نسيت تماماً متى خفّ الغثيان خلال حملي بسُكينة .."

سألت رقية " هل تريدين ان انادي امي ؟ ربما ستعد لك شرابا يريحك قليلا .."

ردت حبيبة وهي تواصل التمسيد على بطنها

" لا .. انت تعرفينها عندما يكون احد اولاد اسيا معها .. تجدينها الان في غرفتها تحكي لكاظم حكاية جده يونس العطار .."

ابتسمت رقية ابتسامة ... باردة !

لكنها لم تعلق بكلمة ...

عادت حبيبة لتجلس جوار ابنتها التي توشك على التهام كل الحلوى بالصحن بينما تتساءل

" اين شذرة ..؟ "

ردّت رقية بامتعاض بارد

" لا اعلم .. ولا اهتم ان اعلم .."

عبست حبيبة وهي تحدق في اختها لتسألها بتوبيخ " لماذا انت قاسية معها هكذا ؟! ما لك ولها لتعامليها بهذه الطريقة ؟! "

تحرك رقية كتفيها بلا مبالاة بينما تقول بنبرة اشد برودا " لست قاسية .. لكني واقعية ولا اصدق دموع التأثر التي تبدر منها كلما حصل امر ما في بيتنا .. اراها مجرد مدعية .. فتاة غريبة عنا .. حتى لو ربطتنا

صلة الدم .. لا احب الغرباء الذين يقحمون انفسهم في بيوت الناس.."

هتفت الصغيرة سُكينة فجأة وبنبرة طفولية مشاغبة " شذرة لقد اكلت كل الحلوى ولم يتبقَ لك شيء.."

التفتت كلا من حبيبة بوجه يشع احراجا ورقية بملامح مغلقة لاتبدي اي انفعال ..

اما شذرة التي كانت تقف مسمرة عند باب المطبخ الداخلي وقد ابيضت شفتاها والتمعت عيناها بنظرات تشع باحساس الاهانة والرفض... بل واحساس آخر أشد وطأة اقرب للحقد والغضب ...

وقفت حبيبة على قدميها لتقترب منها وهي تقول بتلعثم " تعالي شذرة .. كنت .. سأناديك الآن .. "

بردة فعل تلقائية تباعدت شذرة عن اقتراب حبيبة لتقول بنبرة غريبة " سأخرج لابتاع بعض الاشياء المكتبية من محل ابي ناجي."

عرضت حبيبة وهي بقمة التوتر والارتباك

" سأوصلك بنفسي بسيارتي .."

فجاء رفض شذرة بكلمة واحدة كسيف بتار

" لا ..."

حدقت فيها حبيبة وقد بدت عاجزة فجأة عن قول شيء يسترضيها ..

لتتحرك شذرة بنظراتها الاشبه بزجاج تتأجج خلفه النيران و بذقنها شامخاً فتبدو قامتها اكثر طولا ورشاقة .. تمر من جانب رقية دون ان تلقي اليها نظرة حتى ..

وحالما خرجت شذرة عبر باب المطبخ الخارجي للمرآب ومنه للبوابة الحديدية للدار هتفت حبيبة وهي تكز على اسنانها

" الا يمكنك ان تمسكي لسانك الطويل هذا ..؟! "

ما زالت رقية تبدي سكونا ولامبالاة بينما ترد على حبيبة بنفس البرود " فلتتعلم ان لاتتنصت علينا حتى لا تسمع ما لا يعجبها.."

اتسعت عينا حبيبة بغيظ وعدم تصديق لتقول لها بانفعال " الفتاة لم تكن تتنصت .. كفي عن افعالك هذه نحوها .. "

ابتسامة صغيرة داعبت فم رقية بينما تقول باستفزاز " وما يدريك انها لم تكن تفعل..؟!"

زفرت حبيبة بقوة قبل ان تقول بتوتر

" ليس لي مزاج في تبادل كلام سخيف كهذا.. لدينا ما هو اكثر اهمية للتفكير به بدلا من افعال البنات الغيورات هذه .."

عادت لابنتها سكينة فتدعوها بابتسامة صغيرة تخفي توترها " تعالي لنقتحم خلوة جدتك ابتهال وكاظم .. يونس العطار ملكنا ايضا .."

تتألق عينا الصغيرة بثورة تمرد فتهب تاركة كرسيها عاقدة الحاجبين وتركض هاتفة بطبعها الناري

" يونس العطار ملكنا ايضا .."

تلحق بها حبيبة تاركة رقية بمفردها في المطبخ ..

احساس بعيد .. ضعيف .. باهت ..

يبحث عن موضع قدم ثابتة في روح رقية العطار ..

احساس ترفضه وتنكره وتقصيه ..

احساس بالذنب سرعان ما تقتله في مهده!

تسير في شوارع الحي تشعر بألفة المارة الذين باتوا يعرفونها كابنة بيت العطار ...

فيلقون السلام وبعضهم يسأل عن حال رضا الصائغ او يتحمد سلامته ...

ترد شذرة عليهم بابتسامة آلية بينما رغبة البكاء تطحنها طحناً ...

تريد الصراخ .. تريد اخراج كل هذا الغضب والشعور الكريه الذي يكاد يشوهها من الداخل... لكنها تكبت وتصمت ..

كانت في طريق العودة للبيت بعد ان اشترت احتياجاتها .. شاردة بنظراتها المحدقة في ارض الاسفلت تلاحق خيالها الذي يسبق خطوتها ...

خيال ثانٍ خيّم من خلفها وسبق الصوت الرجولي " مساء الخير .. شذرة .."

توقفت خطواتها ثم استدارت لتنظر اليه ...

عرفته من صوته حتى قبل ان تراه ...

انه ... خليل ..

رغم انها تخجل منه بشكل عفوي كجزء من طباعها الا ان فيه من اخته خلود مما يجعل شذرة تشعر بالألفة في معرفته ..

عيناه بدتا ... مهتمتين .. فيهما ألق غريب بينما يسألها ببعض التردد

" هل انت بخير ؟ "

رمشت شذرة وكأنها صدمت من السؤال !

او لم تتوقع من سيسألها الآن تحديداً سؤالا كهذا ..تمتمت باختناق والغصة تعتصر قلبها

" انا .. انا ..."

اقترب خليل اكثر منها وذاك الألق يشع هذه المرة يسألها برجولة فياضة

" من يبكيكِ هكذا ؟ "

ارتفع حاجباها مع ارتفاع احدى يديها تلقائياً لخدها تتحسس بشرتها ..الرطبة! فتدرك بصدمة انها كانت تبكي حقاً ...

شهقت افلتت منها جعلت عينا خليل ترعدان بغضب فوري فيسأل بنبرة آمرة هذه المرة

" اخبريني شذرة .. ماذا يحصل ؟"

حوار عجيب يجري بينهما بألفة من نوع غير مسبوق بينهما ... وجدت نفسها تحرك رأسها يمينا وشمالا غارقة في احساسها ودون ان تعرف ما تفعله في قلب خليل..

لتقول اخيرا وهي تشهق بالبكاء الذي تفجر انهارا " انا اريد ابي وامي .. اريد بلدتي .. لم أعد اطيق .. لم أعد اريد ان أطيق ..."

ثم سقط كيس حاجياتها ارضا لتستدير مهرولة عائدة لبيت العطار ...

بحركات بطيئة انحنى خليل أرضا .. يلملم الاشياء المبعثرة من الكيس وعيناه متسعتان فيما يشبه الصدمة ... عقله يعيد الكلمات ويحلل ويستوعب ...

وخلف ألف علامة استفهام تدور في رأسه كان هناك غضب متأجج بدائي النزعة في قلبه .. غضب لا يحتاج لأجوبة ..

ولماذا يهتم بالأجوبة ؟!

يكفي ان يراها هكذا لـ...يغضب ..

جناح عبد الرحمن ..

كانت رباب تقف مكانها تائهة تقريباً وسط غرفة المعيشة الصغيرة تنظر لباب الحمام المغلق حيث اختفى عبد الرحمن خلفه منذ دقائق ...

تلملم شعرها ووجها محمر وشعور مقلق انها
متوترة على نحو غامض لا تفقه اسبابه ...

التقطت حجابها لتعيده فوق رأسها تلفه حول
وجهها بينما تستذكر ما حصل ...

في لحظة مشتعلة بالانفعال والعواطف كانت
تجمعها مع عبد الرحمن ودموعه تغرق رقبتها
في وقفتهما امام الصورتين لتتحول للحظة
عاطفية بحتة وهو يشدها بجنون اليه ..

ثم همهمات حارقة تصدر من فمه يطالبها
بالبقاء معه ..

كانت مشوشة بالعاطفة وهي تبادله
الاحتضان والذوبان حتى انها لاتعرف متى نزع
عنها حجابها وبعثر شعرها ...

وحالما نطق بهمهماته تلك .. فجأة .. ابعدها
بحركة خشنة حادة ...!

تسمّرت مصدومة بينما تراه يطرق بنظراته
للارض بعيدا عنها وكل جسده يهدر بالعاطفة
التي يناضل ليحكمها بطوق السيطرة ...

ثم بنبرة خافتة قال " انتظريني لحظات هنا..
سأعود اليك لننزل سويا ..."

ثم استدار ومضى للحمام مغلقا الباب خلفه..

بحثت رباب عن دبوس الحجاب على الارض
حتى وجدته لتثبت حجابها عندما سمعت
صوت باب الحمام يفتح اخيرا فترفع نظراتها
لعبد الرحمن وتنظر اليه ..

هادئ النظرات على نحو غريب موحش بارد وقبل ان تجد سؤالا واحدا تطرحه عليه حتى تفهم حالته كان يتقدم نحوها قائلا

" هيا .. لا اريد ان نتأخر هنا اكثر.."

ودون ان يضيف المزيد كان يسبقها بخطواته ليغادر الجناح .. تماما مثلما فعل عندما تركها على باب غرفة رضا في المستشفى ...

تخرج خلود من بيت محسن الصائغ مع سوسو وجعفر .. وقد أصر عقيل على مرافقتهم بنفسه حتى باب بيت الصائغ الكبير ..

ولم يخطوا الا بضع خطوات عندما سمعت خلود نداء اخيها خليل " خلود ...."

التفتت اليه متفاجئة للحظة بحضوره بينما تقترب ناحيته وهي تقول بقلق " خليل ! ما الذي أتى بك في هذه الساعة .. ليس من عادتك؟"

ألقى خليل السلام على عقيل وصافحه عندما انسحب عقيل قائلا لخلود " حسن خالتي .. ما دام خليل معكم فأنا عائد للبيت .."

وانسحب الفتى المراهق بينما تنظر خلود لاخيها بترقب وتنتظره يتقبل بصبر عناق سوسو التي تناديه (خالي) ثم يسلم على الفتى الصغير جعفر قبل يحثّهم على التحرك وهو يقول " هيا لاوصلكم حتى باب البيت .. لكني لن ادخل.. اردت الاطمئنان منك عن حال ابي جعفر.."

ركضت سوسو مع جعفر للباب القريب بينما تمشي خلفهما خلود برفقة خليل وهي تقول بحزن عميق " كُسرت يد ذاك الحقير الذي تجرأ عليه .. هل مثله يتعرض لاعتداء غاشم كهذا؟! حسبنا اللّه ونعم الوكيل .. انها عين نظرته ولم تصلي على النبي .. "

ثم التفتت لخليل وهما يصلان الباب تسأله

" لكن كيف عرفت انت بما حصل .. هل حذيفة من اخبرك ؟"

ليرد عليها اخوها " لا .. الخبر انتشر في السوق بأكمله .. لاتنسي مكانة رضا الصائغ .. وقد سرت بعض الشائعات ان الجاني اقتحم المحل وسرق بعض الذهب وطعن ابا جعفر "

هزت خلود رأسها وهي تقول بأسف

" لا .. بل حصل هنا في شارعنا وامام بيت الخالة بدرية .."

امسكت بذراعه لتدخله البيت وهي تقول

" تعال وسلم عليه .."

لكن خليل امتنع وهو يقول لها بفطنة

" الوقت غير مناسب الآن يا خلود .. لابد انه مع اخوته واهله .. سأزوره في وقت اخر .. لقد جئت فقط لاراك انت واطمئن عن حاله .."

تنهدت خلود قبل ان ترد " حاله يكسر القلب يا خليل .. تلك الهيبة .. يا الهي .. ان تراه هكذا ضعيفاً وممدداً على السرير لا حول له

ولا قوة .. شافاه الله وعافاه سريعاً .. ودحر اعداءه ورد كيدهم في نحرهم .."

تبسم خليل في وجهها وهو يرى انفعالها العفوي الصادق .. كم يحب فيها هذه الروح ..

اخيرا تذكر الكيس في يده فتنحنح قبل ان يمد يده اليها ويقول بصوت أجش

" لقد .. رأيت شذرة قبل قليل تمشي عائدة من السوق القريب منكم .. اوقعت .. هذا الكيس دون ان .. تتنبه .. فقط اوصليه انت اليها .."

اخذت الكيس منه وهي تسأل باستغراب

" لماذا لم تنبهها انت أو تلحق بها لتعطيها الكيس بنفسك؟ "

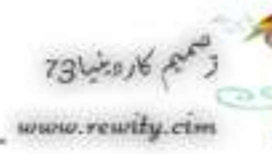
عاود التنحنح وهو يقول " رأيتها من بعيد توقع الكيس ولم استطع مناداتها في الشارع .. ثم لم ألحق بها قبل ان تدخل بيت العطار .."

هزّت خلود رأسها غافلة عن ارتباك اخيها بينما تتقبل تبريراته ببساطة ...

لم يعرف كيف يصوغ السؤال دون ان يثير فضول اخته .. لكن .. ليس له الا ان يسأل خلود .. تردد ثم استجمع بضع كلمات وهو يقول

" هل شذرة .. بخير ؟! بدت ساهمة و .. متضايقة .. "

فترد خلود وهي تتنهد



" مؤكد الفتاة متأثرة بما جرى لابي جعفر .. ومن لم يحزنه قلبه عليه .. هذا ابو جعفر .. كلنا تحت خيمته نحتمي .."

احبط خليل من رد اخته العاطفي لانه لم يستطع الوصول لشيء يخص شذرة ..

هل هناك من يضايقها ؟

ام انها تحن لبلدتها ووالديها ؟

لكن ... حتى لو كانت تحن .. لماذا تصبح انفعالية هكذا امامه .. انها لا تعرفه بشكل مقرب وسيكون امرا مبالغا فيه ان كانت مجرد مشاعر الحنين والافتقاد هي من جعلتها تفقد سيطرتها هكذا ..

اخرجته خلود من تساؤلاته الداخلية هذه عندما عاودت سحبه من ذراعه وهي تقول

" تعالى واشرب الشاي معي على الاقل .. وربما نتعشى سويا .. "

لكن خليل لم يطاوعها في دعوتها وأصر على القول " لا خلود .. اذهبي لزوجك واهل زوجك .. مؤكد انهم يحتاجونك الآن .."

تمتمت خلود بأسى

" لهف قلبي على حذيفة .. طبعه حامٍ والغضب يتآكله .. يريد الانتقام ممن فعل هذا بأخيه .. ولا ألومه ابدا .."

عندها حثها خليل بالقول قبل ان يتحرك ليغادر " اذهبي اليه وخففي عنه .. "

بعد ساعة ..

استغل رضا خروج امه لتغتسل في الحمام تسندها خلود ليطلب من اسيا وامه بدرية برفق ان تتركاه على انفراد مع اخوته الثلاث وابن عمهم يحيى..

عينا رضا شبه المغمضتين من ارهاق الجسد كانتا ترمقان حذيفة تحديدا ببعض القلق ..

انه غاضب .. جسده الضخم هذا يضج بالغضب بشكل مخيف ..

شعر رضا بمزيد من الارهاق وهو مجبر على التعامل مع هذا الوضع الصعب في توقيت أصعب..

اطلق نفسا قبل ان يطلب منهم بصوت خافت الاقتراب منه ليسمعوه بوضوح ..

تحلّقت قربه اربع وجوه .. محسن الذي يكبت مشاعره ليظهر بواجهة جامدة لكن رضا يثق به انه سيتفهم الوضع وسيكون عوناً له ..

يحيى ايضا سيكون سندا له بطريقته العملية المنطقية في التفكير وقدرته على تحكيم العقل وسط اي عواصف ..

من يقلقه هو حذيفة .. وتلك النزعة العنيفة التي لديه وقد يقدم على عمل متهور ..

عينا رضا خطفتا ناحية عبد الرحمن الذي يسبل اهدابه في صمت تام منذ رآه ..

لايبدي اي تعليق لكن نظرات عينيه التي تخطف بين الفينة والاخرى ناحية رضا تفضح مشاعر الخوف التي انتابته من فقدان اخيه الاكبر ..

صغيره وولده .. يشفق عليه وهو يشعر به يعاني مكبوتا هو الاخر .. كم يشبه محسن في كبته لمشاعره حتى لا يُظهر الضعف فتُمس كبرياؤه .. لكنه متهور ناري عنيف بالداخل كحذيفة تماما ...

قال رضا اخيراً " ليس عندي قدرة لأي جدال .. فاسمعوني جيدا واعقلوا كلامي دون ان تقاطعوني .. الاعتداء الذي حصل علي انا كفيل بالتصرف حياله .. الجاني لن يجرؤ على المجيء هنا مرة اخرى واظنه سيختفي لفترة عندما يعلم اني ما زلت حيا .. مؤكد سيخاف من الشرطة لانه يعرف اني تعرفت عليه واستطيع وصفه والوصول اليه.."

توترت قبضة حذيفة وهو يطحن اسنانه من شدة الغضب ليقول بعنف سافر

" اخبرني رضا .. فقط قل لي من هو .. "

يقول رضا بتعب

" لقد طلبت منكم عدم المقاطعة "

فيهدر عبد الرحمن هذه المرة وبدا منفعلا بعنف يوازي عنف حذيفة " لقد اوشك ان يقتلك .. أراق دمك وسط الشارع .. انت .. انت لم تعرف كم نزفت .. دماؤك اغرقت ملابسي وانا احملك للمستشفى ... اقسم باللّه سأ.."

بعبوس الحزم قاطعه رضا بنبرة آمرة

" صمتاً واسمعوا مني .. "

أشاح عبد الرحمن بوجهه جانباً وجسده يزداد توترا .. بينما اطبق حذيفة فمه وقد تصلب جسده بالكامل كأنه يقاوم عواصف الغضب المستعرة التي تكاد تخرجه عن طوره ..

اخذ رضا نفساً ثم اطلقه بينما يقول محسن بسيطرة وثبات

" تكلم رضا .. لن نقاطعك مرة اخرى .."

قال رضا " لقد فكرت وفكرت وطلبت من اللّه ان يلهمني الصواب وتوكلت عليه .. هذا الرجل لن يعاود فعل شيء هذه الفترة .. كما قلت لكم سيختفي عن الاعين .. مع هذا سنأخذ حذرنا .. الاطفال لن يذهبوا للمدارس ليومين.. وانتم في اعمالكم اتخذوا الحيطة والحذر .. انا لن اغادر البيت لاسبوع او اسبوعين .. لذلك دعونا نهدأ ونفكر بمنطق.. نحن لا نريد ان تمس سمعتنا بين الناس .. يكفي الاعتداء سيثير تساؤلات عن الاسباب وسنلتزم القول اننا لا نعرف السبب وربما كان يبغي السرقة.."

عندها تكلم يحيى لاول مرة متسائلا

" وماذا بعد الاسبوعين ؟ ماذا تنوي ان تفعل عندما تعود لعملك في السوق ؟ "

رد رضا بغموض

" هذا ما سأستخير به اللّه في وقته .. كل ما اريده منكم ان تعينوني بالدعم والتفهم .. اي تصرف محسوب علينا وعلى من يهموننا .. ويكفي ما حصل اثار الارتباك والهلع في قلوب اهل بيتنا .. نريدهم ان يعودوا لطبيعتهم دون ان يعكر امانهم شيء.. "

قال حذيفة بانفعال مكبوت

" الرجل الذي اعتدى عليك لايفهم اللغة التي تتكلم بها الان يا رضا .. هؤلاء حثالة مجرمون لا يفهمون الا العنف ليردعهم .. لقد أتى الى بيتك في حي آمن وتعدى عليك في وضح النهار .. هل تدرك مدى جرأته ؟ حتى لو لم يعاود الحضور هنا سيترصدك في السوق وربما يطعنك في زحمة المارة بسكين صغير دون ان يشعر به احد .."

عندها رد رضا بهدوء وهو يغلق عينيه

" قد يفعلها اي انسان بي ولاسباب أتفه من اسباب هذا الرجل .. توكل على اللّه يا حذيفة .. قل لن يصيبنا الا ما كتب اللّه لنا.. اية كان يرددها ابونا الصائغ دوماً .. "

ألح حذيفة ليسأل بشكل مباشر

" هل هو ذاك الفتوة تحسين الذي تحدثت عنه المرأة .. حسناء ... تلك .."

توتر يحيى وهو ينظر لوجه رضا الهادئ وكأنه غفى في رقدته المسترخية تلك بينما محسن

وعبد الرحمن يترقبان الاجابة ليأتي صوت
رضا منهياً كل تساؤل

" لا .. ليس هو .. الان دعوني رجاء لأنام ..
أكاد لا اقوى حتى على تحريك لساني ..."

ما أن قال جملته حتى فُتحت الباب لتهب
عاصفة بكاء ورفيدة تدخل راكضة نحو
توأمها يتقطع صوتها بالقول

" رضا ... رضا ... لهف قلبي عليك ..."

تجثو عند السرير وتميل فوقه تلف
ذراعهاحول رأسه وهي تبكي بشهقات
وكلماتها تخرج لاهثة " سامحني اخي لم
يخبرني .. سالم حتى وصولنا العاصمة .. كنا

في طريق العودة من .. بلدة (...) .. يا الهي ..
من فعل هذا بك ؟ من تجرأ وفعل هذا ؟"

عينا رضا حامتا ناحية اخوته بينما يرد
بسلاسة وهو يحاول رفع كفه ليصل ظهر اخته
قائلا بحنو " مجرد هجّام اراد السرقة ..
لاتجزعي اختاه .. الحمد للّه نجوت "

تقبل لحيته وكتفه وتبكي بحرقة وهي
تحمد اللّه مرارا وتكرارا ..

اقتربت شروق يتبعها سالم فتقول دامعة
العينين " حمدا للّه على سلامتك عمّاه .."

فيتبسم لها رضا من فوق رأس اخته التي ما
زالت تحتضنه وتبكي ثم يقول للصبية
السمراء

" سلمك اللّه من كل شر يا مليحة الوجه.."

لم تحتمل الفتاة لتهطل دموعها ثم تنحني ليد رضا المستريحة الى جانبه فتلثمها في بكاء صامت ...

دوما نادته (عماه) ..

ولا تعرف لم لا تناديه (خالي) كما طلبت منها أمها مرارا ..

في داخلها تشعر انها لا يجب ان تفعل ...

تشعر أنه خطأ .. وانها يجب ان تتذكر دوماً بأنها ليست من دمهم ولحمهم ... رغم انها احبتهم واحبوها كابنة حقيقية .. الا ان جزءا منها يتشبث بحقيقة هويتها ومن تحمل اسمهم ودمهم .. وابوها سالم يؤيدها بهذا ..

شعرت شروق بطبطبة كف حانية تعرفها وتألفها .. انه ابوها سالم ...

ثم جاء صوته الذي تأنس اليه وهو يسلم على عمها رضا قائلا

" حمدا للّه على سلامتك يا ابا جعفر .. هل امسكت الشرطة بالفاعل ..؟"

رد رضا بخفوت

" ليس بعد .. وربما لن يصلوا اليه .. لم يره احدنا بوضوح لنصفه .."

قدحت عينا حذيفة وارتجفت عضلة في خده وهو يسمع رد رضا .. فأقسم في سره ان الامر لن ينتهي ابدا عند هذا ..

بعد يومين...

تفتح رباب باب المرآب وعيناها رغماً عنها

تهربان منها للباب المقابل المفتوح على

مصراعيه ... سيارته موجودة لكنها لا تراه ...

منذ يومين وهي لا تراه .. ولشدة غبائها يغلب

عليها الخجل فلا تتصل به ...

لم تكن يوماً تتخيل نفسها كفتاة بلهاء

تخجل من ... من ... مشاعرها بهذه الطريقة ..

كانت تفتح باب سيارتها عندما أجفلها صوته

من خلفها تماما " الى اين تذهبين ؟"

وضعت يدها على صدرها حيث قلبها الذي قفز

بداية من اجفالها ثم تسارع بجنون لرؤيته ..

تفكر بحنق وغيظ " انه متخصص في السير

خلفها دون ان تسمع خطواته ليجفل قلبها في

كل مرة وصوته يأتيها بغتة من العدم ؟"

شعرت بحرارة تشع من وجهها بينما تتهرب بغباء

متجدد من النظر اليه وهي تعض شفتيها

وتتمتم " الى ... عملي .."

اكتفى قائلا بنبرة صارمة " ليس اليوم ..

انتظري حتى الغد لنطمئن اكثر .."

عبست وزمّت شفتيها بتمرد ثم ترفع عينيها

اليه لتعترض بالقول

" لكن انا لدي عمل .. حبيبة تذهب كل يوم

لدار الازياء ويحيى يسـ.."

يقاطعها بجمود ملامحه وبرود كلماته

" يحيى يعمل مع حبيبة في نفس المكان ..
كما انهما لا يسكنان في حينا والمجرم قد
لايعرفهما من الاصل .. وفي كل الاحوال ليس
لي علاقة كيف يعامل يحيى زوجته .. انت
مسؤولة مني وانتهينا يا رباب .."

ثم تركها واستدار ماضياً بعيدا عنها بينما
رباب لا تعرف هل هي تغلي غيظاً من اوامره
وتحكماته او من تجاهله لها ؟!

لم يقل صباح الخير ولم ينظر اليه الا بتلك
الطريقة السخيفة الباردة ...

ماذا فعلت له ؟!

وكأنها من تسببت بطعن رضا !

عابسة تنفث اللهب مع انفاسها عندما أتتها
ضحكات رقية المستفزة وهي تقول لها من
عند باب المطبخ بينما تقضم من شطيرتها

" وجاء اليوم الذي نرى فيه قرفة العطار
اللاسعة عاجزة عن قول (لا) وتسمع كلام
(الحبيب) كأي فتاة مطيعة غيبها العشق.."

اطلقت رباب صوتا مزمجرا وهي تغلق باب
سيارتها بعنف ثم تعود لدخول البيت عبر باب
المطبخ وهي تدفع رقية في كتفها وتقول لها
بحنق يجعل خديها يتضرجان بالحمرة

" اهتمي بشؤونك التافهة ..."

تتأوه (خلطة العطّار السحرية) بينما تدلك
كتفها و تضحك في شماتة من ضعف اختها..

حي الشيخ

غريب عن الحي يسير بضخامته الملفتة
وهيئته التي تثير الحذر لمن يفكر بالتعرض
له فيفضل الابتعاد خاصة وهو بوجه متجهم
خشن الملامح .. ملابسه بسيطة كأنه عامل
عادي في احدى مواقع البناء او ربما معمل أهلي
محدود ... فلا يثير شهية الطامعين لسرقة
شيء او الاستحصال على اي فائدة مرجوة ...

تحرك حذيفة في دروب ضيقة غير معبدة..
قذرة ورائحة الازبال المقرفة جزء لايتجزأ من
المكان ..

مر ببعض الصبية الحفاة ملابسهم ممزقة ..
يجلسون على الارض .. يأخذون استراحة من
عمل مضن طيلة النهار وهي يدورون على
اشارات المرور لبيع بضائعهم البالية او يمسحون
زجاج نافذات السيارات فربما يتحصلون على
شيء من النقود ...

ها هي استراحتهم على الارض المتربة القذرة
يلعبون بالاحجار احدى لعبهم المبتكرة ..

وجوههم تنضح بفقر مدقع يمتص عافيتهم
وبراءتهم تطايرت مع اول نفس دخان
يستنشقونه من سيجارة حشيش يجدونها مرمية
على الارض وقد سقطت من فم من غاب عقله
عنه ...

لا مدارس تجمع شتات ضياعهم ولا اهل يمنعونهم وقد ساروا قبلهم في نفس الدرب..

اقترب حذيفة منهم وبصمت انحنى جالساً جوارهم يراقب لعبتهم بالاحجار ..

تطلعت اليه الوجوه الصغيرة بتوجس من ضخامته وهيئته خاصة لكونه غريب عن الحي ..

فجأة مدّ حذيفة ذراعه فتراجع اكثر من طفل للخلف خوفاً من حركته المباغتة تلك ...

الا ان كل ما فعله ان اقدم على تحريك حجر وهو يقول بأريحية " اظن اني جعلت احدكم يفوز او ربما خربتها وقعدت على تلها ! .."

ضحك الصبية واطمئنوا قليلا له فعادوا لجلستهم واكملوا اللعب بينما حذيفة يتفرج بصمت ..

أشعل حذيفة سيجارة بينما يسأل بنبرة عادية

" اين اجد الفتوة تحسين ؟"

اجاب احد الصبية وهو يحرك حجراً

" لا احد يعرف اين هو .. يقال انه سافر لفترة.."

ضيق حذيفة عينيه وهو يأخذ نفساً من سيجارته ويسأل " ومن اسأل لأعرف متى يعود ؟ هل له بيت .. زوجة .. اولاد.."

رد صبي آخر

" اجل هو تزوج الخالة حسناء بائعة الخضار ..
قبل ايام فقط .. انها تقطن في ذاك المبنى ..
حيث عمود النور الوحيد في الشارع "

ثم اشار الصبي بيده ناحية احدى المباني
المتهالكة بينما يضيف الصبي الاول بعبوس

" لكن لا تذهب هناك .. تحسين يغضب جدا
ممن يقترب من بيتها .. ورجاله يحرسونها .."

تمتم حذيفة بخفوت وهو يقف على قدميه

" لنر ان كنا سنحتاج الاقتراب اكثر.."

لم يلتفت الصبية لتمتمته بينما يهلل احدهم
انه فاز فيهاجمه الاخر مدعياً عليه الغش
ويبدأ العراك العنيف بينهم وحذيفة يمضي
في طريقه مغادرا الحي كما دخله ...

آخر يوم في الاسبوع (الجمعة) ...

دخلت اسيا الغرفة لتجد رضا قد انهى افطاره
فتقترب منه لتحمل الصينية من على حجره
وهي تتبسم له قائلة " هنيئا يا ابا جعفر "

يده تمتد لتلامس رسغها وهو يقول بصوت
أجش " ضعي الصينية هناك وتعالي قربي ..
لم اصدق ان امي انشغلت مع خلود المسكينة
في المطبخ لتناكفها وتمنحنا بعض الخلوة .."

تضحك بخفوت للمعان عينيه قبل ان تنفذ ما
يريد فتعود اليه تجلس جواره على السرير
الكبير الذي يخص والديه قبل ان تمسك
كفه وترفعه لفمها تلثم باطنها وهي تقول

" الدكتورة فيرجين ستحضر بعد قليل لترفع ما تبقى من خيوط في جرحك .."

عيناه تغازلانها وتذوب تلك البسمة على شفتيه فيقول لها بصوت أجش

" حتى وانت شاحبة هكذا تغريني بالتهور.."

تضحك ضحكة انثوية رنانة لتميل برأسها مستندة بحذر على كتفه تتشمم عطر المسك فيه هامسة بتنهيدة راحة

" الحمد لله الف مرة .. انت لا تعرف.. ما مر بي عندما ..."

تحشرج صوتها وتقطع دون ان تنهي كلامها ..

كان يعرف ان دموعها تهطل على كتفه فلم يمنعها .. لقد صمدت كنخلة باسقة .. قوية شامخة فلم تظهر الضعف بل كانت تصلب ظهره هو بقوتها تلك ...

يريدها ان تبكي قليلا وتبدي بعض الضعف ليخفف عنها .. لا يملك الا ان يمنحها هذه الفسحة لتفرغ الخوف الذي تجاهلته منذ الحادث المشؤوم ..

الكل عاد لطبيعة حياته اليومية حتى الاطفال عداها هي ..

ربما لانها هي من تلازمه وتراعيه ... وهي من رأت جرحه عندما كانت تنظفه له ..



قال اخيرا يداعب انثوتها كما يداعب خدها باصابعه الحانية " اشتاقك يا اميرة البنات .. لكن هذا الجرح يمنعني حتى من احتضانك كما اشتهي ان افعل .."

تغمر وجهها اكثر في كتفه ملتزمة الصمت عندما رن جرس باب البيت فتقول بخفوت

" لقد حضرت الدكتورة فيرجين .."

بعد دقيقة او اقل تدخل اسيا مفسحة الطريق لدخول امرأة حيوية في بداية الخمسينات بشعر قصير جدا مصبوغ بلون كستنائي انيق..

ابتسامتها حلوة وهي تلقي تحيتها بعفوية

" السلام عليكم .."

قد تكون تحية دين لا تنتمي اليه لكنه يحمل نفس روح دينها المسيحي المتسامح ويجمعهما عبادة رب واحد..

وقد اعتادت هي على استخدام (التحية) كل يوم حالها كحال كل من ينتمي لأديم هذه الارض منذ قرون في ترابط تلقائي ..

بعض هذه الاطياف قد تعود لآلآف السنين وما زالت الارض تتقبل كل طيف انساني جديد...

انها لوحة فسيفساء نادرة بألوان شتى وأعراق متنوعة كخلطة متجانسة متفردة موجودة منذ الازل على ارض دافئة معطاءة هي...

وادي الرافدين ...

يرد لها رضا التحية

" وعليكم السلام ورحمة الله .."

فتقترب منه تمنحه تلك الابتسامة التي

تعطيها لمرضاها كل يوم في المستشفى

وتسأله عن حاله وحال جرحه فيرد عليها رضا

" بخير الحمد لله .. اظن الجرح التأم تماما.."

فترد الطبيبة " نحمد الله .. الآن دعني اعاينه

وارفع لك الخيوط المتبقية فتشعر براحة

اكبر..."

ولم تمض الا نصف ساعة وكانت الطبيبة

تغادر بعد ان شربت فنجان القهوة ..

حالما عادت اسيا لزوجها بعد أن أوصلت

الطبيبة مودعة حتى باب البيت سألها رضا

" اين عبد الرحمن ؟"

فترد اسيا " لقد نادته امي ليساعدها في نقل

بعض الحاجيات من المخزن الخلفي.."

صمت رضا ولم يعقب لتبادر اسيا بالكلام وهي

تقول " رضا .. ما رأيك ان نزوجهما حالما

تستعيد قوتك ؟ لا احب الانتظار اكثر ..

اظنه بات يجلب المشاكل بينهما اكثر مما

يقربهما .. "

بعد لحظات تفكر رد رضا

" الامر عائد لهما يا اسيا .. لقد اتفقنا بعد

امتحانات رقية .. لم يتبق الا شهر تقريبا.."



أطرقت اسيا وهي تقول " انا كلمت عبد الرحمن صباحاً .. قبل ذهابه لوالدتي .. اخبرته اننا نستطيع الاحتفال بسلامتك وعرسهما معاً .."

فسأل رضا باهتمام " وماذا كان رده ؟"

بدت اسيا متحيرة وهي تقول

" لم يعطني رداً صريحاً يا رضا .. لقد ناور وراوغ فلم يقلم نعم ولا لا ! انه يبدو متجهماً غريباً منذ الحادث ولم أره حتى مع رباب خلال الايام الماضية وكأنه يتباعد عنها عن عمد .. لا افهم ما يجري بينهما واختي الحمقاء تبدو اكثر حيرة مني وهي تسألني احيانا عنه تدعي انها كانت منشغلة ولم تره كثيراً .."

للحظة صمت ثم قال " انا ايضا اراه على غير طبيعته .. صامت شارد .. حزين.. غاضب .."

لم تعقب اسيا بشيء بينما يضيف رضا

" لنرى ماذا ينتظرنا مع هذين الاثنين .. لقد اتعبانا معهما ..."

بيت طارق النعماني (والد مهند) ...

يُعّد لابنته افطارها وهي تتلاعب بشقاوة فتتسلق المائدة وتقف فوقها ثم تبدأ في الرقص و الغناء باحدى اغانيها الطفولية المبتورة ...

يضحك مهند وهو يقلي البيض بينما يقول لها

" لو رأتني امك اسمح لك بهذه الشقاوة وما تفعلينه فوق المائدة الآن ستنتقم مني ضعف انتقامها الحالي.."

تتراقص الشقية بحركات اسرع وكأنها مبتهجة اكثر بكلام ابيها ...

يقهقه مهند فيخرج البيضة من المقلاة للصحن الصغير ويأخذه اليها ، يلف ذراعه حول جسد صغيرته المتراقص ويحملها وهو يقول لها

" المدرسة فتحت عينيك الصغيرتين هاتين على كل انواع الشقاوة "

يميل ليعض خدها فتتوجع وهي تعبس وتعاتبه

" بابا .. انا لست بيضة .."

يعاود مهند قهقهته ثم يقول وهو يجلسها على الكرسي ويضع الصحن امامها " المدرسة فكّت عقدة لسانك ايضا يا ابنة مهند .."

تلتهم بيضتها باصابعها وهو يراقبها بجذل ...

الكل يصر ان ابنته تشبهه لكنه لا يراها الا تشبه امها ... سومريته المكّارة ...

ربما هو يخدع نفسه بوجود هذا الشبه ولا يعلم لماذا يحتاج لهذا الخداع ؟!

ربما لانه يحتاج الاطمئنان بوجود جزء من جوري معه .. يربطها به ..

انه يخجل ان يعترف بأنه يتشمم احيانا ابنته يبحث عن رائحة تخص جوري فيها ..

سرح بنظراته بعيدا عن ابنته ليفكر بحاله الذي بات عليه ..

يرتكب الاخطاء في عمله وذهنه يشرد منه على الدوام.. احساسه بطيء بالايام والساعات وداخله يضمحل من شدة الشوق واللهفة ...

يشعر انه كله يضمحل ..

قلبه .. عقله .. روحه ..

تفاجأ البارحة وهو يقف فوق الميزان انه خسر سبعة كيلوجرامات من وزنه .. وباتت رؤيته للهالات السوداء تحت عينيه اكثر وضوحاً ..

لايعود للبيت الا اخر الليل ويقضي الوقت اما هائما على وجهه في شوارع العاصمة او منزوياً في مقهى يشرب قهوته ويدخن ..

ثم يعود للبيت فتستقبله امه بتذمرها الذي لايتوقف وحنقها الذي لن ينتهي ...

فيفضل الانسحاب لجناحه وهناك يجد الطعام الذي تعده له امه كل يوم وتتركه له على الطباخ ...

فلا يأكل الا القليل ومذاق الطعام في فمه كأنه نشارة خشب ...

ثم يستلقي على السرير الموحش البارد الذي لايحمل اي رائحة بشر ... فيتقلب ويتقلب واسم جوري يضج في كل كيانه فينطقه لسانه يطفئ في احرف الاسم بعضا من لوعته ..

انه يتعذب ببطء ..

عذاب لم يشعره في حياته ..

اشبه بعذاب الاحتراق بلهب شمعة ..

عندما تمد اصبعك تلامس ذاك اللهب

برغبة لا يمكنك ايقافها ...

تلسعك فتتراجع للخلف لكنك تعاود

المحاولة بلهاث أشد .. تدمن حتى رائحة

الاحتراق في جلدك ..

انه العذاب الذي تريد احتماله ..

تريد ان تعيشه لحظة بلحظة ...

يمنحك النشوى ورغبة مجنونة بالانصهار في

تلك الشعلة الفتانة ..

قلبه ينبض بجنون وهو يرفع اصابعه لأنفه

يكاد يتوسل ان يشم رائحة الاحتراق

بجوري...يتوسل رائحة وجودها في حياته..

سأل ابنته فجأة وهو يخفي لهاثه بشق الانفس

" مم..ماذا.. ماذا تفعل ماما ...في البيت ؟"

ترفع الصغيرة وجهها لأبيها وكأنها لا تفهم..

ليبتلع ريقه ويسألها بصوت مبحوح

" هل ..تعمل على الحاسوب ..تكتب .. تقرأ ؟"

اتسعت عينا صغيرته قليلا وكأنها وجدت

الجواب لتهتف به بانتصار " تغني ..."

بدا مهند مصدوماً للحظة وهو يتساءل بغباء

" تغني ؟! ماذا تغني ؟! "

تقف الشقية فوق الكرسي هذه المرة وترفع

إصبعها عالياً ثم تهتف بصوتها الطفولي

" جمالك .. سوملي.. جمالك سوملي.."

هذه المرة صعقته الصدمة ثم شيئا فشيئا اخذت ابتسامة شغوفة نارية تتراقص على شفتيه وهو يردد بدندنة غناء خافت

" يل جمالك سومري .. يل جمالك سومري .. نظرات عينك بابلية .. بابلية ..."

بيت العطار .. مخزن الكراكيب

بصندلها الصيفي تتقدم خطوة وتتراجع خطوة .. يدها اليسرى تحشرها في جيب تنورتنها الجينز القصيرة التي تصل الركبتين ويدها اليمنى تجرجر بها بلوزتها الصيفية الصفراء بنصف كم ..

ترفع شعرها كذيل حصان متراقص خلف رأسها .. ولاتضع شيئا في وجهها الا ملمع شفاه...

تبتلع ريقها وهي تسمع بعض الاصوات الصادرة من المخزن قبل ان تصل اليه ...

تضغط على اسنانها في غيظ ..

تشعر بالحر و.. بالبرد معاً ..

هذا الاختضاض الخفيف في جسدها يغيظها اكثر من نبضات قلبها المجنونة ..

ستموت لترضيه .. وستموت قبل ان تعترف له انها تريد استرضاءه ..

لقد .. لقد اشتاقت له .. اشتاقت النظر لعينيه.. ورؤية تلك اللهفة الحارة فيهما..

اشتاقت لكلامه واهتمامه و.. حنانه الذي باتت توقن انه من نفس منبع حنان اخيه رضا رغم الاختلافات الكبيرة بينهما ...

والاكثر .. اشتاقت ... لغزله الجريء وقلة حيائه معها ..!

عضت طارف شفتها السفلى وقلبها يقرع ووجنتاها تتخضبان بحمرة قانية ..

تنحنحت بغباء ثم اخذت تعلن عن مقدمها بإصدار صوت لخطواتها فيعاندها صندلها فلا يمنحها الا صوتاً خافتاً خجولاً...

رأته يحمل غسالة ملابس قديمة صغيرة ويتحرك بها ناحية احدى زوايا المخزن فهمست بصوت متردد

" هل تحتاج مساعدة ؟ "

دون ان ينظر اليها رد " لا ..."

ابتلعت غصة تعتصر قلبها بينما يرتعش صوتها وهي تسأله مباشرة " لماذا ... تخاصمني ؟"

امام بضع كراكيب يفرزها كان يجلس القرفصاء ببنطاله الجينز القديم وقميص ازرق قد طوى كميه حتى المرفقين ..

وحالما نطقت بعتبها المرتعش ذاك توقف للحظة عن تحريك الاشياء ثم قال اخيرا بتشنج ملحوظ " اتركيني انهي عملي يا رباب"

اقتربت منه لتقف قريبا من موضع جلوسه على الارض فتقول بصوت متحشرج ببكاء مكتوم

" اريد .. ان اتكلم .. معك .."

رفع رأسه اليها فيتصلب فكه وهو يرى الدموع تلمع في عينيها ليقول من بين اسنانه المطبقة

" لماذا الدموع الآن ..؟"

عيناه انحدرتا لساقيها المكشوفتين فيشعر بالحر فجأة ليقف على قدميه يقاوم مشاعر اللهفة اللعينة اليها بينما هي كانت ترد عليه بصوت باكٍ

" ماذا فعلت لك لتخاصمني هكذا ؟! "

تمسح بضع دمعات أفلتت منها بحركة حادة وكأنها ترفضها لتركز على معرفة ما يحصل له ويجعله يتباعد عنها هكذا ...

فيفاجئها هو بالسؤال الأجش

" هل شعرك .. مسرح ؟"

عفوياً ترفع يدها لتلامس شعرها المربوط للخلف فتسأل بغباء " ماذا ؟"

يقترب منها جدا ويسألها بهمس حار

" هل شعرك مسرح ؟"

ردت بوجه محمر ويدها تهبط لعنقها حيث نبض قلبها المجنون

" نعم .. قليلا .. اخذت حماما في الصباح و.. سرحته قليلا بالمجفف .."

اغمضت عينيها عندما رفع يده لخصل شعرها المتراقصة يلامسها قائلا بصوت مبحوح

" اممم لابأس به .. هل تصبغينه يا رباب ام لون العسل هذا طبيعي مئة بالمئة ؟"

تفتح عينيها عابسة لتقول بفورة حنق

" عبد الرحمن لاتغظني ! مؤكد رأيتني منذ الصغر وتعرف هذا لونه منذ ولدتني امي .."

جر شعرها بقسوة حتى اوجعها فتتأوه وهي تنادي اسمه بتوبيخ

" آه .. عبد الرحمن اوجعتني !"

ذراعاه في لحظة التفتا حول جسدها الغض العبق برائحة الاستحمام المخدرة لحواسه ، يشدها ويعتصرها وهو يهتف بها منفجراً

" وانت الا توجعيني ؟! لماذا كنت امامي منذ ولادتك لأتعلق بك هكذا ؟!"

يداها فوق صدره الهادر بينما تنكمش كلها اليه وترتبك حتى ينعقد لسانها وهي تحدق في عينيه العاصفتين ليزمجر هو بالمزيد

" بروحك وألوانك .. بعبثك وشقاوتك .. باختلافك وتميزك .. لماذا ألاحقك هكذا مهدرا كرامتي وكبريائي لاقنعك ان تثقي بي .. وانت .. وانت لا تبادلينني الشعور كما اشاء ؟! لماذا لستِ كآسيا تسند رضا ومعه دوماً مهما حصل وتثق به ثقة عمياء .. تحمل له وفاء منقطع النظير كأنه توأم روحها وسر نبضها ... لكن يبدو ان الامر فيّ انا ..! يؤلمني جدا انك لاتشعرين نحوي كما تشعر اسيا نحو رضا .. يؤلمني ان تطلب اسيا مني اليوم ان نعجّل بزفافنا لنحتفل بسلامة رضا ايضا ولا

املك ان اقول شيئا .. بل اشعر بالحرج امامها وحتى الاذلال .. وكل هذا لان عروسي ما زالت ترفض ارتباطها بي .. لان عروسي باختصار ... لاتملك ما تملكه اختها اسيا.."

بدت كمن طعنها وهي تسأل بعينين لامعتين مجروحتين " هل تظنني اقل ... وفاء ؟"

فيرد وهو يعتصرها بانفعال اكثر

" بل اقل.... محبة ... و.. ثقة "

همست بوجع " هذا .. غير صحيح ..."

فيهدر بها " اذن اثبتي انه غير صحيح .. "

يعاودها الاحمرار فتعض شفتها السفلى متسائلة ببراءة " كـ..كيف ؟"

عيناه تشتعلان وهما تنحدران لشفتيها اللامعتين ولم يحتمل ليهبط نحوهما وهو يدفع بجسدها للحائط يقبلها بعنف الاشتياق الذي يصارعه منذ اسبوع وحالما افلتها ليستعيد انفاسه عاود هديره العاطفي المجنون

" دعينا نتمم زواجنا ونقيم زفافنا قبل امتحانات رقية .. والا اقسم بالله سأفقد اخر ذرة بعقلي وأطفئ ناري فيك الان في هذه الغرفة الخربة واجبرك على القبول بالزفاف مرغمة كما اجبرتك على القبول في كل خطوة من ارتباطنا .. بداية بالخطبة ثم عقد القران .. بدأت اوقن انك حمقاء ولا ينفع معك إلا الاجبار ..! "

الدنيا تدور بها واذناها تطنان ووجنتاها تحترقان ولا تعرف النار التي تحرقها منها ام من انفاسه ...

اخذت تتحرك عفويا تريد الافلات منه وهي تهمس كمن يتعلق بآخر قشة

" امي ستأتي .. رحمن .... دعني .."

يسجنها يقيدها ولم يعد يهتم لما يجري ..

أفلت الامر منه ولم يعد يطيق ..يهزها آمرا

" قوليها يا ابنة العطار .. "

رفعت عينيها الذائبتين كعسل صافٍ ..

فاعترف ان اجمل ما في وجهها لون تلكما العينين .. خاصة وهما تذوبان بمشاعر مفضوحة نحوه هكذا ..

اقسم أغلظ الايمان لن يتركها حتى تقول نعم.. وقبل ان يهدر بمزيد من حمم غضبه وعشقه سمع همستها بضعف واستسلام كامل يفيض عذوبة " نعم ..."

لتتوقف اللحظة بينهما وذراعاه متشنجتان حولها وكأنه لا يصدق اذنيه ...

ولم يعدهما للواقع الا صوت رقية المنادي بنبرة مستفزة ساخرة " رباب .. عبد الرحمن .. تعالا واشربا الشاي معنا .. امي تناديكما.. لقد أعدت حلوى (الشعرية) ايضا .."



بعد ايام ..

حي الشيخ ..

تجلس على اريكتها تلامس قماش عباءتها
الجديدة في حجرها ..

عباءة بعثها لها ... تحسين ...

كان القماش جديد وناعم ..

لكنها لا تألفه.. و كأنه ليس لها ...

نظرت لجانبها حيث العباءة الممزقة مرمية
على الاريكة بعد ان خاطتها بيدها ..

عباءة قديمة ملمسها خشن لكن يكفي انها
كانت نظيفة وتسترها ...

فجأة انفتح بابها بعنف يعلن عن صاحبه ..

انحشرت انفاسها في صدرها وهي تضع العباءة
الجديدة فوق القديمة وتقف على قدميها
ببطء وهي تهمس برعب تلقائي " تحسين ..."

وجهه قذر ولحيته عادت لاستطالها ...

ملامحه لاتفهمها كالعادة ...

يحدق فيها وهو يغلق الباب خلفه وابتسامة
مائلة ساخرة وهو يسألها بتسلية

" افتقدتني ؟!"

لم ترد .. وهل يهم ان ترد ؟!

ماذا سيحصل ان ردت او .. لم ترد ..

لقد تقبلت قدرها وستمشي حتى نهايتها عسى ان يعجل الله بموتها لتلحق بوالديها وزوجها ..

اقترب منها خطوات وعيناه تفيضان بنظرات شريرة ترعبها اكثر وكأنه يقرأ دخيلتها ولا يعجبه ما يقرأه ...

سألها بعجرفة من يملك السلطة بيده

" هل كان فالح يحضر لك .. ما تحتاجينه .."

تمتمت وهي تطرق للارض " نعم ..."

للحظة كان سيذهب اليها يتمرغ بجمالها الذي بات يملكه .. للحظة اوشك ان يطفئ النيران او يحاول على الاقل ..

حُسْنا .. آآه لو تعلمين يا حُسْنا ...

قد تنفرين وتكرهين .. قد ترينني احمل خاتمة حياتك او ربما تنتظرين مني ان اختمها لتتخلصي من قرفي ووساختي ...

لكن والله لن يكون .. حتى أنال فيك ما اتضور جوعاً اليه ...

خطواته حادت جانباً وهو يقول كمن اعتاد على بيته الخاص ومسكنه

" سآخذ حماماً .. اريد بعض الطعام .."

ضمت قبضتها لفمها تطالع خطواته المتراخية ليقتحم لاول مرة حمامها الصغير ..

ها قد طبع بصمات وجوده في المكان بأكمله بمن فيهم هي ...

خرج من الحمام وقد ارتدى نفس الملابس والمنشفة يدلك بها شعره ، تفوح منه رائحة صابون بلدي معروف .. رخيص لكنه يفي بالغرض ..

يستخدم منشفتها البالية التي تجفف بها جسدها ... فتشعر بالقشعريرة تسري في كل خلية من جسدها .. وكأنه ينتهكها مرة جديدة .. مرة بعد مرة ...

رأته كيف يضع المنشفة على أنفه يستنشقها بعمق وجفناه مسدلين ثم فجأة يفتح عينيه ليحدق فيها مباشرة فتتراجع غريزياً للخلف ..

سألها بتهكم والمنشفة ما زالت قرب أنفه

" ألن تسأليني اين كنت ؟"

وجهها يشحب اكثر واكثر وتتلعثم ولا تدري ماذا يجب ان تقول حتى لا تثير غضبه ..

ايام قضتها حبيسة بين اربعة جدران ليس لها سلوى الا النظر من الشباك ...

لاتكلم احدا الا فالح الذي يحضر لها ما تحتاجه ونظراته اليها لم تعجبها ابداً ..

أجفلت وتحسين يقف قبالتها مباشرة ثم تراجعت ليتقدم ويحشرها للجدار فتتلعثم أكثر وتتسارع انفاسها رعباً وهي تقول له

" أعددت لك .. بعض الجبن والخبز .."

نظر في عينيها المرعوبتين وتمنى لو يمد اصابعه فيهما ويقتلع هذا الرعب منهما ..

قال بفتيل غضب بدأ بالاشتعال

" تخافينني لهذه الدرجة يا حسناء ؟"

نظرة متوسلة من عينيها الكحيلتين جعلته

بغتة يتوه فيها ينظر بعمق جائع في وجهها ...

رباه كم هي جميلة ... فتنته مذ كان

مراهقاً.. فتنته وامتلكت جوارح الرجال فيه..

تمتم والمنشفة تسقط من يده أرضا

" حسن .. فعلت خيرا انك لاتسألين ..

لاحتمل المرأة كثيرة التشكي والكلام .."

ثم رفع اصابع كفيه الاثنين غافلا او مغيب

العقل عن ملاحظة ارتجافها امامه ..

لقد كان يفقد السيطرة ..

عشرة ايام مضت لا يفكر الا في لمسها ..

اصابعه تمر بخشونة فوق كتفيها وهو يهمس

بشراسة حيوان ضارٍ " تبدين هزيلة .. "

ثم تنحدر تلك الاصابع التي تنهش في لحمها

حتى مفاتنها فتتألم وتصدر صوتا جريحاً

" ارجوك توقف .. عن لمسي .. هكذا .."

اغضبته كالجحيم واصابعه ترتفع لضفائرها

الطويلة يشدها من الجانبين ويصرخ كوحش

" وكيف تريدينني ان ألمسك ؟ هكذا ؟!"

يشد رأسها اليه وينهال على شفتيها انتهاكاً من

نوع آخر .. انتهاك يصرخ بوحشية جوعه

اليها حتى ابعدها بنفس العنف وهو ما زال

يشد شعرها فتنزل دموعها وترفع اصابعها

بارتعاش كلي تتلمس شفتيها ثم ترى بعينيها اللون الاحمر القاني لتقول له بارتعاب

" لقد أدميت شفتي ...! "

صرخ فيها مرة اخرى وبعنف مضاعف

" ألم يكن الفحل زوجك يفعل ؟!"

شفتاها المكدومتان النازفتان تتحركان والكلمات تخرج من بينهما بضعف

" بل كان يعاشرني بما يرضي اللّه .. باللين والرفق و.. آآآه ..."

كان قد رفع كفه وهبط به على وجهها وهو يصرخ بجنون

" ما زلتِ تعشقينه يا بنت الكلـ..."

تبكي وهي تقاطعه صارخة بلوعة حميتها على ابيها " لاتسب ابي .. حلفتك باللّه .."

تستمر بالبكاء ورأسها ينحني وتعيد نفس الجملة " حلفتك باللّه لا تفعل .. لا تفعل.."

مشاعر غريبة تجيش في صدره ..

مشاعر لايريدها .. مشاعر .. يكرهها !

يشعرها كعذاب لايحتمل ..

يميل نحوها ويهمس بخشونة

" ذلك اليوم الذي هربتِ فيه مني وذهبتِ الى رضا الصائغ .. لما خرجت تركضين من بيتهم تولولين ؟ كنت تبكين بحرقة .. هل اهانوكِ ؟ أم استصغرك ابن الصائغ وحقّرك وطردك؟ "

ما زال وجهها محنياً يكاد يلامس صدره بينما ترد عليه " انا لم أره .. لم اقابله .. كان في صلاة الجمعة .. لكن زوجته اكرمها اللّه هي من استقبلتني في بيت عائلتها لحين عودته .. لكني .. لكني .. اخطأت بالذهاب .. اخطأت بالطلب .. لقد .. لقد ..."

تجهش بالبكاء فتصيبه بحالة هستيرية لايفقهها .. بينما توصال هذرها ذاك

" انا التي أرخصت قيمتي يا تحسين .. صعُبت علي نفسي وقلة حيلتي واهدار كرامتي وانا اطلب .. أطلب .. آآآه يا ربي .. ليتني أموت اللحظة و أدفن وكأني لم أولد يوماً على هذه الارض ..."

لايعرف ما جرى له .. فقد كل سيطرة ..

ما له هو ومال تفسير هذرها الباكي هذا ..

انه فقط يريد .. ويشعر ...

انه فقط انسان معها .. رجل يريد نظافتها ..

يريد ما خلف فتنتها التي ترعبه بتأثيرها عليه .. انها تملكه .. يا الهي .. تملكه ..

كفاه تكفلا بالامر ..

ولثاني مرة يمزق جلبابها ..

ولثاني مرة لا يملك ان يكبح عنفه معها ..

وعلى نفس الارض القاسية كان معها يلهث وهو يناديها (حُسناا) ..

يلهث من غريزته التي ارتوت بجنون لكن
روحه السجينة العربيدة لم تنلها ...

ما زالت حُسْنا بعيدة .. تستسلم له.. يفعل بها
ما يشاء .. لكنها بعد النجوم عنه...

الفصل السادس والعشرون والاخير

جناح عبد الرحمن

تحدق في اثاث غرفة النوم التي تم إكمال تنصيبها للتو بينما تتباعد همهمات عبد الرحمن مع العمال وهو يرافقهم ليغادروا بعد ان اعطاهم اجرهم ...

اثاث الغرفة كان من اختيار عبد الرحمن وهي لم تعارض بل دفعته دفعاً ليختار بمفرده .. كانت تشعر بالخجل الشديد ان تختار اثاثا حميمياً ستتشاركه معه مما جعل السخيفة رقية تضحك منها وتسخر من خجلها المبالغ فيه ..

لكنها لم تبالي باختها وتركت الامر لعبد الرحمن خاصة وهي تثق في ذوقه ولم يخيب ظنها فاختاره على طراز حديث بلون باذنجاني فاتح خفيف وغريب في نفس الوقت مع حركة تصميم ملتوية بارزة في الخشب بلون فضي... منضدة الزينة فقط من كانت فضية بالكامل لكن باقي الاثاث كله كان بذاك التشكيل اللوني ...

أخذت نفساً عميقاً واطلقته ببطء حتى تُهدئ قليلا من مشاعرها ...

انها تشعر بالاثارة ! ليس اثارة عروس مقبلة على الزفاف ... بل اثارة القيام بتلك المخاطرة غير المحسوبة ..

انها المرة الاولى في حياتها التي تفعلها بملء ارادتها .. ان تقدم على ان تخطو في مجهول ما زال يرعبها ...

لكنه شعور مثير .. حتى وهو يخيفها حد الرعب هكذا لكنه في نفس الوقت يمنحها احساسا رائعا انها شجاعة .. جريئة ... مقدامة..

هناك لذة خاصة وانت تواجه لاول مرة اكثر ما يخيفك وقد عشن تتجنبه لسنوات حياتك كلها ...

طعم الشجاعة اجمل بكثير من طعم الأمان..

الأمان خدعة وقتية غير مضمونة ...

لكن الشجاعة هو شعور ثابت يمنحك القوة والقدرة للمواصلة حتى نهاية حياتك...

" هل السرير .. جيد ..."

صوت عبد الرحمن المشاغب سبق اغلاقه لباب الجناح .. فالتفتت اليه رباب لتغلق باب الغرفة بدورها وعن عمد وقصد .. وكأنها تتحدى اي خطط وقحة في مخيلته وهي تراه يقف مستندا للباب و العبث يتلألأ في نظراته..

تتكتف بحركة دفاعية علّها تهدئ نبض القلب المجنون بينما تناديه متجاهلة نواياه التي تميزها جيدا في نظراته..

" عبد الرحمن .."

يقاطعها بنبرة دافئة وابتسامة حلوة قائلا

" يا روح عبد الرحمن لماذا تقفين بعيدا هكذا .. تعالي وسأمنحك هدية صغيرة .. على الشفتين .. "

يتقدم نحوها فتنهره بعبوس وهي ترفع سبابتها

" تأدب والا لا تقترب مني ..."

يهز كتفيه ويبدي ملامح بريئة مغيظة بينما يرد عليها وكأنه يشرح لها تفصيلا في معلومة فيزيائية " (قلة الادب) و (الاقتراب) يتجاذبان بشكل تلقائي عندي .. انهما مادتان متوافقتان تماماً للاندماج الكلي وسريعتا التفاعل و... الاشتعال.."

كان يتحرك نحوها وهي تحبس انفاسها حتى وقف قبالتها ويرفع يده يسندها لباب الغرفة المغلق خلفها .. ابتسامته عابثة حارة منه بينما ينظر لعبوس وجهها الذي تتخفي بخجلها خلفه ليقول بهمس مبحوح وهو يعض طارف شفته " آآآآآه .. يا قلة الادب متى تحضرين بين اربعة جدران عازلة للصوت وباب غليظ مقفول بمفتاح وقفل عتيق صدأ مسروق من عدّة قديمة من العهد الملكي يحتفظ بها مغرفة الحي سعدون منذ عشرات السنين فتحشريننا حشراً انا والقرفة لوحدنا .. تماماً .. فلا خروج لنا ولا دخول لغيرنا .."

كيف تقاومه ؟!

تجلجل ضحكاتها الحلوة التي تثير في قلبه زغزغات من العشق الفاااائر ...

لو كان بيده لحبس تلك الضحكات في قلبه لتكون ملكه وحده ... لايسمعها غيره..

يميل بفمه نحو ثغرها الضاحك فتسبقه رباب لتدفعه رباب في صدره تلملم ضحكاتها وتهرب منه مدعية الحنق بالقول

" افقف منك .. "

يبتسم بخبث بينما يراها تتجه لباب الجناح وهو يلاحقها بالقول " جبانة .. لم أر عروساً جبانة مثلك .. لاتختار غرفة نومها مع حبيبها ولا تتكلم بتفاصيل حفل عرسهما .. "

كانت ستفتح باب الجناح عندما توقف يدها قرب مقبض الباب لتستدير اليه وتقول ببعض الحرج " عبد الرحمن .. هل تظن أننا اثقلنا على الخالة بدرية عندما طلبنا ان يكون العرس في حديقتها .. اشعر اننا تسرعنا وفرضنا عليها الامر ولم نترك لها خيار الاعتذار ..."

اقترب منها عبد الرحمن ليقول بجدية

" هل تريدين ان نختار قاعة خاصة ؟ سيكون الامر صعباً ان نحجز واحدة وننظم العرس فيها خلال ثمانية ايام لا غير.. لكني سأحاول التصرف ان كان هذا يرفع عنك الحرج .."

تحير عبد الرحمن من الحيرة التي تكسو ملامحها ليضيف متسائلا

" ماذا هناك يا رباب ؟"

ردت وهي تنظر اليه مباشرة

" انا طلبت ان يكون الحفل ضيقا .. لا يحضره الا المقربون .. لاجل .. رضا .."

عقد حاجبيه وهو يسأل " ماذا تقصدين ؟"

لتجيب هذه المرة وبعض الخوف يتخلل حيرتها السابقة " هذا اكثر أمانا له ... وللجميع ... اقصد ان ذاك المجرم لا زال طليقاً ولا نعرف غايته حتى اللحظة من مهاجمة رضا ... صحيح ان الشرطة طمأنتنا لكني لا اثق بهم ابدا .. للاسف الشرطة في اغلبيتهم لايؤدون الواجب وقدراتهم وامكانياتهم محدودة .. لقد قيدوا الحادث ضد مجهول وانا لا احب هذا .."

بدت حلوة جدا وهي قلقة هكذا وتفكر في الجميع حتى في يوم عرسها ..

ذابت جدية ملامح عبد الرحمن ليتبسم قائلا

" عروسي المهووسة بالامان ..ماذا افعل بك .."

ثم مال برأسه بغتة ليختطف قبلة من شفتيها مستغلا استغراقها بالتفكير البوليسي مما جعلها تجفل وترفع يدها لتصفعه عفوياً على خده فيضحك منها عالياً وهو يلامس خده المصفوع بينما تحمر رباب حنقاً وخجلا ولا تعرف هل تعتذر للصفعة السخيفة ام توبخه لافعاله المباغتة هذه ...

فاكتفت ان تطلق صوتاً مزمجرا حانقاً وهي تستدير لتفتح الباب وتتركه ضاحكاً مستمتعاً بردود افعالها ...

في اليوم التالي ..

السوق الكبير.. سوق الذهب

شِماغ بخطوط سوداء متقاطعة طولا وعرضا يلفه حول رأسه ويكاد يتلثم به فلا يظهر الا عيناه وانفه ... نظراته حذرة متأهبة وتراقب الوجوه اللاهية عنه ...

لقد جاء خصيصاً للسوق كي يشمشم الاخبار..

حتى اللحظة.. لا يعرف لماذا لم يبلغ رضا الصائغ عنه .. لقد شك انها مكيدة منه او من الشرطة ليجعلوه يطمئن فينصبوا له فخاً اذا ظهر خارج حي الشيخ من جديد ..

ولذلك غاب بعيدا لأكثر من اسبوع حتى يصله خبر من رجاله ان الاوضاع آمنة تماماً ..

يسير متلثما بشماغه القديم في سوق الذهب ..

يتحرك هنا وهناك على غير وجهة محددة تحسباً ان كان هناك من التقط وجوده واثار ريبته ليتبعه ..

بمنتصف سوق الذهب قدماه تسمرتا رغماً عنه امام نافذة العرض الزجاجية لاحدى المحلات الصغيرة ...

عيناه متسعتان وتبرقان وهما تحدقان في .. خلخال ... مجرد خلخال ذهبي تتدلى منه اجراس صغيرة جدا ... قطرة عرق تصببت من جبينه وحواسه تتخدر ...

يتخيلها ترفع جلبابها حتى الركبتين كاشفة
عن ساقيها الابيضين وقدماها الحافيتان
تدبكان الارض في رقصة بلدية ...

ترقص له وصوت أجراس كاحلها يناديه ..

(تعال يا تحسين .. تعال ...)

ثورة تجيش في صدره لينسى ما أتى لاجله
فيتقدم بخطى حثيثة ويدخل المحل ..

خرج بعد خمس او عشر دقائق لا اكثر ..
يحمل خلخالا في جيبه .. لم يكن نفسه الذي
رآه في نافذة العرض .. بل آخر أقل سمكاً
وأخف وزنا وبثلاث اجراس لا غير .. كان كل
ما استطاع شراءه بكل المال الذي لديه ...
مال حرام.. لكن لا يهم ..

المهم انه اشتراه لها ...

يتحسس جيبه وقلبه ينبض بعنف.. يكاد
يلهث يريد العودة في التو واللحظة ليرى
الخلخال في كاحلها .. ليسمع صوت رنة
اجراسه بأذنيه ...

يسير شبه مغيب وقد تراخى الشماغ عن فمه
وكشف وجهه بالكامل ...

يلهث ويلهث وهو يسير في سوق الذهب المشع
باللون المزغلل للعيون ولكن لايزغلل عينيه
الا هدفه بالوصول اليها .. فيسارع ليجد سبيل
الخروج الى الجانب الآخر حيث الشارع العام ..

سيجد اقرب سيارة اجرة ويعود اليها ...

تعثرت خطواته وعيناه تلمحان من بعيد هيبة رضا العطار داخلا السوق ...

البشر تتحلق حوله يسلمون عليه ويقتربون منه وكأنهم يجدون في مصافحته وتقبيل كتفه فوق عباءته انتماء وشرفاً من نوع ما ...

يراقب تحسين الرجل بعينين كالصقر ..

غضب مألوف يجتاحه وغيرة دامية تنهشه ..

رغم هذا كان هناك بقية من عقل تدرس هذا الرجل الذي يرى فيه غريماً ...

شعره اشيب وتجاعيد وجهه تخدع الناظر اليه انه تجاوز الخمسين بسنوات ..

لكن .. حتى وهو يبدو اكبر من سنه الحقيقي الا ان فيه هيبة رجال لا يستهان بها..

ابتسامته لمن حوله تشع بنور محير ..

انه رجل ذو تأثير عجيب ... تأثير لا يعترف بالعمر ولا بشعر شائب وتجاعيد مبكرة ..

ما زال تحسين يقف مكانه بينما رضا الصائغ يقترب ناحيته في خطوات بطيئة نظرا لتدافع الناس حتى تسلم عليه فيتقبل محبتهم بخجل رجولي متفرد ...

ثم ... التقت عيناه بعينيه ... كانت لحظة كأنها نفس اللحظة التي تكررت بينهما سابقاً قبل ان يشق بطنه بالسكين ...

شعّت عينا تحسين بعنجهية اجرامية وأبى ان يتراجع او يهرب امامه ...

هو غباء منه .. وليس عن شجاعة رجل يواجهه..

ولكنه يرفض ان يكون اقل منه فيمنحه درجة اعلى بالهروب ...

اقترب رضا وما زال يسلم على الناس حتى خف تدريجيا تحلقهم حوله ولم يتبق الا شخص واحد سلم عليه حتى وصل قبالة تحسين ...

تنبه تحسين لذاك الخاتم الذي يتلاعب به رضا الصائغ في بنصره الايمن قبل ان يأتي صوته الثابت النبرات

" كنت بانتظار مجيئك .."

رفع تحسين عينيه لرضا يضيق عينيه بشراسة بدائية وهو يقول باستهانة وسخرية

" و هل هناك شرطة تنتظرني معك ؟"

ابتسم رضا الصائغ في وجهه !

لم تكن ابتسامة سخرية .. بل ابتسامة تشع بالسكينة وهو يرد عليه ببساطة " لا ... "

برقت عينا تحسين وداخله يموج بانفعالات متعددة ليقول من بين اسنانه المطبقة غيظاً

" انت رجل غريب .. تكلمني هكذا مبتسماً و لا أرى ذرة حقد في عينيك او ادنى رغبة في انتقام لما فعلته معك .. انك حتى لا تخش موتاً اشتهيه لك الآن .. في هذه اللحظة تحديداً..."

نفس الابتسامة وهو يدحر عنجهيته بالقول

" الموت والحياة بيد الله وحده .. وعندما يحين أجلي لن يتقدم ولن يتأخر .. بسكين منك او نائم في سريري .."

يتنفس تحسين بتسارع ... صدره يعلو ويهبط وعيناه لا تفارقان محيا رضا الصائغ ...

لسانه معقود وافكاره متزاحمة كتزاحم المشاعر العجيبة التي تكتنفه ..

ثم سأله رضا عندما طال الصمت

" هل تزوجت حسناء ؟"

هدير صاخب في صدره ليرد بخشونة وكأنه يستعرض ملكية يتشبث بها حد الموت

" نعم ... هي زوجتي .."

تفاجأ تحسين برضا وهو ينحني قليلا برأسه ويرفع يده اليمنى لداخل عباءته فهدر به تحسين مهدداً بصوت خافت وهو يقترب منه جدا " اخرج يدك في الحال .. لن تتمكن من اخراج سلاحك قبل ان اقتلك بسلاحي .."

" هل هناك شيء يا ابا جعفر ؟ هل تعرف الرجل ؟"

كان هذا احد اصحاب محلات الذهب قد خرج يستفسر وهو يرى رضا يتكلم مع رجل غريب يثير الشبهة ..

يتوتر جسد تحسين ويحرك نظراته حوله في توجس واستعداد للهرب عندما اذهله قول رضا الصائغ

" لا تقلق يا ابا سعيد .. انه رجل اعرفه وجاء ليأخذ امانة له عندي .."

رفع الرجل كفه في تحية سلام قبل ان يعاود الدخول لمحله ...

قال رضا اخيرا وهو يخرج علبة صغيرة من جيبه قائلا بسماحة

" انا لم احمل يوما اي نوع من الاسلحة.. "

نظر تحسين بارتياب وحيرة للعلبة المخملية الزرقاء بينما يمدها نحوه رضا قائلا

" داخل هذه العلبة قرطين ذهبيين.. العلبة في جيبي منذ ايام تنتظر الوصول لصاحبتها .. كنت اشعر انك ستلاقيني هكذا بمنتصف الطريق في السوق .. "

تصلب فكا تحسين وهو يتمتم بغضب متأجج

" قرطين ؟!"

عاد رضا لتلك الابتسامة العجيبة مع لمحة اشفاق جعلت تحسين يتوتر في قلق فجائي بينما يرد عليه رضا الصائغ مفسراً

" نعم .. طلبتهما مني زوجتي ام جعفر وتهديهما لزوجتك بمناسبة زواجكما وتوصيك بها خيرا وسترا ومخافة الله .. كما اوصيك انا بها رأفة ورحمة وحماية .. قل لها ام جعفر تقرؤك السلام .."

باصابع متراخية تقبل تحسين العلبة بينما لعجبه يتركه رضا ويكمل طريقه وهو يقول بصوته الرجولي " استودعك الله .."

حي الشيخ ...

منذ دخوله الصامت وهو يجلس على الاريكة

ويحدق فيها ...

لاتعلم ما به اليوم ليبدو غريبا هكذا ...

تتحرك في المكان تدعي الكنس

والتنظيف بمكنسة السعف اليدوية وهو

يراقبها بنفس الصمت ...

اخيرا قرر مناداتها ....

" حسناء .. اتركي الكنس وتعالي .."

باستسلام تام تركت المكنسة السعفية

تسقط من يدها ارضا ثم وقفت على قدميها

تسير نحوه بتوجس وقلب نابض بالخوف ...

وقفت قبالته تنتظر منه ان يدلي بما يريد ...

فرفع عينيه اليها وقال " اجلسي ..."

فعلت بانصياع ما طلب فتجلس على الاريكة

تاركة بينهما مسافة .. ثم بنفس النظرات

الغريبة قال وهو يربت على الاريكة

" ارفعي قدميك وضعيهما هنا .."

عفوياً سألت " لماذا ؟!"

فهدر فيها بعنف وحاجباه ينعقدان بشكل

مخيف " ارفعيهما ..."

همست بخوف وهي تخلع نعليها وتنفذ

" حا..ضر ..."

تتشبث بحافة جلبابها لتغطي ساقيها ولا تُظهر الا قدميها ، حائرة لا تعرف ماذا تصنع او ماذا تقول ...

انه رجل مجنون .. مجنون كلياً ...

ابتلع ريقه بصعوبة وهو يحدق في قدميها ..

كانتا صغيرتين جدا لامرأة ناضجة !

قال بصوت خشن " ارفعي حافة جلبابك هذا.. اكشفي لي كاحليكِ .. لأختار ..."

ترفع جلبابها قليلا وهي تدعو اللّه ان يرحمها من جنونه ... تراه كيف يحدق في كاحليها ولا تستطيع ان تخمن ما الذي سيفعله بعدها ...

اختار الايمن ومرر اصابعه التي ترتجف بوضوح فوق الكاحل وكأنه يستكشف امرا مذهلا يراه لاول مرة ...

رفع يده الاخرى لجيبه واخرج شيئا ذهبياً لامعا سرعان ما انكشفت ماهيته وهو يرخيه فيصدر صوتا برنين وهو يلفه حول كاحلها ويغلق قفله بصعوبة بعد عدة محاولات خرقاء...

همست حسناء بلا تصديق " خلخال! "



بينما تتذكر وعده يوم زواجهما الاسود ان يشتري لها واحدا ..

ثم صدمها تماما وتجمدت اطرافها وهي تراه ينحني بجذعه حتى وصل بشفتيه لقدمها فيقبل كاحلها فوق الخلخال ..

ملمس شفتيه الخشن هناك شلّ كل شعور فيها حتى شعور الخوف ...

ثم هزها بصوته لتستيقظ من جمودها ذاك عندما أمرها بنبرة خشنة مبحوحة مخنوقة بالرغبة باتت تعرف ما سيعقبها

" فكي .. ضفائرك..."

كان قد رفع رأسه وهو يحدق فيها بعينين محمرتين ويكرر أمره بخشونة أشد

" فكيها يا امرأة ..."

وجهها شاحب تماما واصابعها ترتجف وهي ترفعها لضفائرها وتحلها بارتباك حتى تماوج الشعر البني على ظهرها وكتفيها ...

تنظر في عينيه ولا تعرف كيف سيتصرف معها هذه المرة .. يا الهي .. ماذا سيحدث الآن؟!

عيناه متسعتان بشكل يخيفها بينما يشير برأسه لزاوية المكان الذي تقلص حجمه بوجود قطعة اثاث جديدة ، وان لم تكن جديدة حقاً وقد سبقهم أخرون لاستخدامها ..

مجرد سرير نحاسي مستعمل من سوق الخردة احضره فالح اليوم مع ابتسامة سمجة ملأت وجهه ..

سأل تحسين " ذاك السرير .. هل هو مريح ؟"

كان يميل بجسده اليها ...

رغم ان رائحة نظافة الصابون ما زالت تفوح منه منذ الامس الا ان شعور النفور يلازمها حد الغثيان ... تمتمت حسناء لوجهه الذي بات ملامسا لوجهها " لا ... لا ..اعلم ..."

تأوهت بوجع وذراعاه تمتدان لترفعانها بخشونة مؤذية وهو يردد بلهاث انفاسه المتسارعة " ستعلمين في الحال ..."

لحظات سار بها ثم رماها على السرير وخلع عنه قميصه فوقعت علبة مخملية زرقاء منه لتدحرج تحت السرير فلم يعرها اهتماما بل

همس بحشرجة عنيفة وصوت الأجراس يجعل الدماء تفور في عروقه

" لك هدية اخرى ..مني .. لكن .. الان .. انا وانت والخلخال ... فقط .."

زحف اليها وعواطف جامحة مرعبة تصدر عن كل جسده تنبئ بالقادم ...

كانت تغمض عينيها بشدة وعضلات جسدها تتشنج في استعداد تنتظر تمزيقا جديدا او اي نوع من العنف بات مألوفا منه تحتمله كقدر وابتلاء عندما تفاجأت بعد ثقل جسده الذي يرزح فوق جسدها انه يلامس شعرها فقط ..!

لا تعرف كم أطال الوقت وهو يلثم جدائلها المحلولة ...

ما زال خشنا منفرا في حركاته وأفعاله لكنها مصدومة به وهو يلثم تلك الجدائل بهوس ولا يكف عن مناداتها (حُسنا...)

هذه المرة لم يمزق الجلباب بل حرص ان يخلعه عنها برفق ! ثم عاد لخشونته فينالها بنفس العنف رغم انها مستسلمة له تعتاد نفورها الطبيعي منه دون ان تبديه له ..

لكن الفرق هذه المرة في لحظة .. مجرد لحظة واحدة تساءلت فيها ..

(هل سيأتي يوم وتتغير حال تحسين معها ؟!)

ثم مرت اللحظة سريعا وشعرها يتناثر وصوت اجراس خلخالها تختلط بالصرير الرهيب الذي يصدره السرير النحاسي القديم ...

مساء ..

يقف حذيفة عند مقدمة السلم اللولبي لشقة رضا .. ينتظر بصبر ان يهبط الدرجات على مهله دون ان يستعجله ...

صحيح قد برأ جرحه لكن يجب ان يحذر في تحركاته حتى يعود النسيج لتلاحمه الطبيعي ...

بابتسامة دافئة قال رضا وهو على اخر درجة من السلم " ها قد نزلت اليك كما طلبت مني.. هل سنقف هنا ام ندخل لبيت الصائغ؟"

فاجأه حذيفة بالقول المباشر وعيناه تمعنان النظر في تعابير اخيه الاكبر

" تحسين عاد لحي الشيخ .."

ارتفع حاجبا رضا قليلا وتراجعت ابتسامته

بينما يبادل اخاه حذيفة التحديق للحظات ..

يسبل رضا اهدابه ليتساءل بغموض ومراوغة

" ماذا تقصد ؟ وما لي انا ومال تحسين هذا ؟"

رد حذيفة بنبرة ثابتة وكأنه يشرح واقع

حال بات يخصهم جميعاً " لقد غاب لعشرة ايام

عن ذاك حي ثم عاد البارحة كما علمت .."

مرت لحظات اخر ورضا صامت بينما حذيفة

ينتظر وعيناه تفصحان عن جديته..

قال رضا اخيراً وهو يرفع نظراته لاخيه قائلا

" الى ماذا ترمي بكلامك هذا يا حذيفة ؟"

اقترب حذيفة من رضا اكثر ليسأله وهو يعقد

حاجبيه بنوع من التأهب للرد المحتمل

" ألم يتعرض لك مرة اخرى ؟ "

تبسم رضا وعيناه شعتا بالهيبة وهو يمازحه

بالقول " هل تحاول ايقاعي بالكلام يا يا ابن

والدي ؟ انا لم أقل يوماً انه تعرض لي مرة

ليتعرض لي باخرى ..."

تقلصت تلك العضلة في خد حذيفة قبل ان

يدلي بقناعاته المنطقية

" انا اقول الامور كما يفهمها عقلي يا رضا ..

ولن تقنعني ان هناك رجل غريب يأتي هكذا

فجأة لحينا ويتهجم عليك بالسكين دون

حدث مسبق يدفعه لذلك ..."

ثم يشدد على كلماته مضيفاً " وليس هناك حدث مسبق الا تلك المرأة حسناء التي جاءتنا بحكاويها عن فتوتها تحسين ...."

يتبادل الاخوان النظر ..

الكبير ينظر بجذل وسكينة تثير غيظ الصغير .. والصغير ينظر بتصميم منتظرا الرد الذي يريده بفارغ الصبر ..

وكالعادة يفاجئه رضا بتحويل مجرى الحديث لزاوية اخرى وهو يسأله

" حذيفة.. هل تثق بي؟ "

عبس حذيفة وهو يرد بتململ

" مؤكد .. لكن .."

اصابع رضا تضغط على خاتمه وهو يقاطع تململ حذيفة ويلقي السؤال بحزم" هل تثق ؟"

بيقين راسخ رد حذيفة " نعم .. وانت تعرف كم أثق بك .."

عندها قال رضا بيقين يوازي يقين حذيفة

" ما حصل لن يتكرر .."

بدا حذيفة مذهولا وهو ينظر لذلك اليقين الغريب الذي يشع من عيني رضا قبل كلماته فيتمتم حذيفة متسائلا " كيف تعرف ؟"

فيرد رضا بنفس الهدوء والثبات " فقط إلهام من اللّه .. هكذا دون سبب او تفسير .."



لم يستطع حذيفة مواجهة يقيناً متفرداً كهذا .. يبقى رضا رجل ذو حالة غير مألوفة لمن يعرفه جيداً ...

لكن حذيفة صارحه بالقول " انا لا اجاريك في هذا .. ولن اجاريك يوماً.. لكن رغم ثقتي بك التي لا حدود لها الا اني مجرد رجل عادي اؤمن بوجود ما هو غير المتوقع من قذارات النفوس في بيئات منهكة عنيفة كحي الشيخ .. تنجب فقط امثال تحسين.. الا من رحم ربي ..."

لم يقل رضا شيء بينما بدى واضحاً لحذيفة انه ينتظر منه كلاماً آخر ..

فأضاف حذيفة بقرار قاطع

" أنا سأمتثل لرغبتك هذه المرة .. لن أخالفك وانت مقامك عندي من مقام والدنا عقيل الصائغ.. تأمر فأطيع ... لن أفعل (حالياً) أي تصرف مع ذاك الرجل .. لكن اقسم بالله يا رضا ان تعرض لك بأي شكل من الاشكال فأنا بتّ اعرف اماكن تواجده وسأعرف كيف أصل اليه عند الضرورة وسأتصرف معه بطريقتي ... حتى دون ان ارجع اليك .."

ثم استدار حذيفة بحركة شبه حادة وهو يتمتم بالقاء تحية السلام فيراقبه رضا شارداً وهو يفكر ....

لقد كان رضا موقناً ان تحسين لن يتعرض له بالسوء بعدما جرى بينهما صباح اليوم في السوق ... لكن .. حدسه يخبره انه سيرى ذاك الرجل مرة اخرى...

متى وكيف وأين ... لا يعرف ..

كل ما يعرفه ... ان للحكاية بقية ...

الخميس .. صباحاً

يوم عرس عبد الرحمن ورباب ...

جبينه يتصبب عرقاً وهو يساعد العمال بوضع الكراسي وترتيب المكان في حديقة الخالة بدرية بينما يحشر هاتفه بين أذنه وكتفه وهو يستمع لكلمات صديقه عبر الهاتف الذي يبدو معاتباً لكنه مؤكد متسليا للغاية

" ايها الخائن .. تبيع صديقك المقرب لاجل الاستئثار باكراً بحلزونتك التي لم تعد سرية .. كيف تضيع علي هذه اللحظة التاريخية ولا تنتظرني لأحضرها ؟! انها عشرون يوماً فقط يا رجل .. ماذا جرى لك ؟.."

يضع كرسياً مكانه بينما يمسح جبينه ويقول بأنفاس لاهثة وعيناه عابثتا النظرات

" لا .. ولا ربع يوم سأنتظر .."

ثم يميل برأسه قليلا ويعض شفتيه قائلا بصوت ممازح يفيض اثارة

" في الواقع علي الانتظار ربع يوم تحديداً "

انفجر رعد بضحكة مدوية تميزه ثم قال مستفزاً صديقه عن عمد

" ربابتك افقدتك رزانتك وثقلك الذي كان يذوب قلوب الحلزونات يا استاذ "

تنحنح عبد الرحمن وهو يقول محذراً بغيرة على قرفة العطار خاصته " احم.. لا احب منطق اسمها على لسانك .. كما اني منعتك مراراً من مناداتها (حلزونة) ايضاً .."

فيتمادى رعد باستفزازه قائلا بتفكه

" حقيقة لم يعد لائقا ان نناديها حلزونة وقد عرفنا ان لها اسما جميلا .. موسيقيا .. ربااااب..."

فيهدر به عبد الرحمن ما بين المزاح والانفعال التلقائي " حقيقة .. لم يعد لائقا ان أعرفك من الاصل !.."

يضحك رعد مستفزأ اياه اكثر وهو يدعي البراءة ويقول بحيرة مصطنعة واسلوب ساخر مغيظ

" لقد احترت معك .. بمَ يجب ان اناديها..؟! لا الحلزونة تعجبك ولا رباب ترضيك .. ماذا تراني سأقول لها .. اختاااه ..."

رفع عبد الرحمن وجهه للشمس الساطعة فيغمض عينيه يتقبل حرارتها التي توازي حرارة مشاعره ليردد بعدها بصوت أجش

" رعد .. اشتقت لك جدا .. "

جاء صوت رعد مرتابا بطريقة ساخرة ممازحة

" انت مريب بتعبيرك عن مشاعرك يوم زفافك .. يفترض ان لا يقترب منك احد هذا اليوم وانت في حالتك العاطفية المتفاقمة هذه .. فمن يدري قد تتخيله (أختنا رباب) وتفضحنا .."

انفجر عبد الرحمن ضاحكاً بينما ينهي المكالمة مع صديقه وهو يقول بفرح غامر

" دعني أنهي ما ورائي كفاك تعطيلا لي وانا اتخيلك تستلقي متكاسلا في فراشك ..

أراك بعد عشرين يوماً يا دراكولا .."

شقة مهند ...منتصف النهار..

عند باب شقته القديمة يقف وهو يخرج المفتاح من جيبه ... كان قد ترك عمله وقد تشتت ذهنه تماما ... ففقد التركيز بالكامل ولم يعد يستطيع اكمال نهاره هناك ...

ادخل المفتاح في القفل وبسلاسة أداره ..

ما ان خطا داخل الشقة حتى تيقظت حواسه بالرائحة التي ملأت المكان .. رائحة انثوية مما تستخدمه .. جوري ...

قلبه يقرع كالجحيم وعيناه تمشطان انحاء الشقة في بحثٍ ضارٍ عنها ..

لقد حطمته في هذا الانتظار .. لم يعد يحتمل أكثر .. ابدا لن يحتمل المزيد ...

في فورة انفعالاته ومشاعره المحتدمة المختلطة تقوده قدماه في أرجاء الشقة وكله ينبض بترقب رؤيتها ...

آآآآه ... الشوق ...

آه منك يا شوق الروح والجسد ...

شوقه غاضب .. شوقه يائس ...

شوقه ... شوق السنين التي جهل فيها معنى ان يملك امرأة كـ...جوري ...

صعقة !...

عيناه توشكان ان تخرجا من محجريهما وهو يتقدم عبر باب غرفة النوم ليراها هناك ممددة على السرير وكأنها بانتظاره ...

لم يعد يسمع شيئا الا انفاسها المنتظمة في غفوتها تلك ..

لم يعد يرى شيئا الا وجودها وقد غطى شعرها الكثيف معظم وجهها وتلألأ جيدها ونحرها الابيض من فتحة قميصها الاحمر..

تنساب الرؤيا لتنورتها الكحلية التي انحسرت عن ساقيها في اغراء يهد جبالا لا رجالا ...

لم تعد اصابعه تريد لمس شيء والشعور بشيء الا لمسها هي والشعور بالاحتراق بذاك الملمس ...



ينهار جاثيا على ركبتيه جوار السرير ...

كفاه يختضان كجسده وهو يقترب بكليته
منها واصابعه تلامسها بحرقة الشوق ... فقد
صوابه وهو يغرق في خصلات شعرها البهية
فلم يستوعب حتى أجفالها ويداها اللتان
تدفعان كتفيه وهمسها الناعس المضطرب

" أخفتني حتى الموت .. يا مهند .. ابتعد ..
ابتعد قلت لك .. لقد أفزعتني .. "

كان الامر فوق قدرته على التوقف ..

اصابعه تفك ازرار قميصها دون ان تنجح
جوري في منعه ويلهث بكلمات العشق هادراً

" وانا احبك واعشقك حد الفزع ..! بل حد
الموت ..."

جسده تلقائيا يلتقط انهيارا لها رغم محاولاتها
الواهية المقاومة للافلات منه لكن قضي
الامر ..

كلاهما يعلم ان الامر انتهى وما سيحصل مقدر
له ان يحصل ...

يهدر بالمزيد " قتلتني يا سيدة المكر ..
قتلتني حياً .. كيف تفعلين هذا ؟! "

مع كل قبلة ولمسة واجتياح عاطفي متبادل
بينهما كان مهند يصل لعمق الغرق اللانهائي..

لقد وصل القاع المجهول وضاع في حلكته
كحلكة شعرها هذا ...

قلبه جاور قلبها فيشعر لاول مرة في حياته حلاوة ان يأخذ قلبه النبضات من قلب معشوقته ...

وعلى ذلك السرير .. كان يعرفها كما لم يعرفها يوماً ..

كان يعرف تفاصيلها وكأنه يتذوقها لاول مرة..

يكاد يشهق في انبهار كيف ان كل هذا الجمال في كينونتها كامرأة هو ملكه ..

روح النمرة فيها تبرز في حميمية لهيب الاقتراب ..حتى احترق كله عن آخره ...

استيقظ والظلام يكاد يخيم على المكان ..

ابتسامة شقية تداعب ثغره وهو يرخي اجفانه بتكاسل ..

ذراعه تمتد بحثاً عنها .. فيزعجه ويقلق قلبه ان لا يلاقي الا برودة موحشة جواره ...

استقام بجذعه وهو ينادي

" جوري ... جوري ..."

لكن الصمت المطبق هو الرد الوحيد الذي تلقاه ...

يعقد حاجبيه قليلا بينما يغادر السرير وهو ما زال يناديها بقلب مقبوض !

لساعة كاملة جن جنونه وهو يتصل بها ولا ترد .. اتصل حتى بامها فاخبرته ببعض الحيرة ان جوري اتصلت قبل قليل وقالت انها ستتأخر في مشوار مهم يجب ان تنجزه ...

اخذ يشتم وهو يبعث لها مزيدا من الرسائل حول قلقه عليها وان ترد ولو برسالة ..

كادت اعصابه تنهار بعد نصف ساعة اخرى عندما وصلته رسالة صوتية ...

جلس على الاريكة في غرفة المعيشة وهو يفتح الرسالة ويستمع لصوت جوري ثابتا يضج بنبرة التشفي والانتقام والقسوة !

(شكرا لعلاقة حميمية كانت من حقي ..!

وانا لا اترك حقي ابدا يا مهند .. قد اصبر عليه سنيناً لكني لا أتركه .. منذ ثلاث سنوات وكنت انتظر علاقة حقيقية كهذه تدرك فيها مع اي امرأة انت ... الان بت تعرف.. كيف يكون طعم الشهد متفردا من فمي .. وحرارة العشق برائحة البخور في جلدي .. سترافق ذاكرة جسدك وروحك النار التي ألهبتها بك وانت تلمسني بعذاب خشية ان اضيع منك .. والان ستعيش العذاب الحقيقي لانك لن تعاود ملامستي ابدا .. انا امرأة يصعب طعنها جدا .. نصل السكاكين لم تعرف يوماً طريقاً لاختراقها.. حتى وجدت فيك ضالتها المنشودة .. كنت تلك اليد التي لم تكف عن محاولة الطعن مرارا وتكرارا .. تارة في قلبي وتارة في انوثتي .. حتى .. نجحت ..

جرحتني حتى عمق العمق ان كان هذا يواسي

خسارتك النهائية لي .. اجل مهند .. لقد

خسرتني للابد .. فجرحُ انثى مثلي لا يُغتفر ..

اتمنى لك.. كل الجحيم في فراقي)

عيناه جاحظتان وهو يعيد الاستماع للرسالة

مرارا وتكرارا ...

وكلما استمع لصوتها تأجج لهب جديد في

اعماقه ... لقد أخذت بثأرها منه ..

يكاد لايصدق انها فعلتها حقاً ..

كل تلك الفترة انزاح لثام الغموض

والاهداف المستترة عنها ..

هل سيخدع نفسه ويقول انه صُدم ؟!

انه .. تفاجأ ؟!

لا ... كل يوم مر كان في داخله يعرف اكثر

ما تريد جوري الوصول اليه ..

بل ما تريد سحبه اليه .. انه .. فخ ...

وهو سار لفخها راضيا مستسلما لأي قرار

تتخذه..

كمن يمشي حاملا كفنه بين يديه حتى باب

طالب ثأر عنده .. ويسير في طريق طويل ..

طويل جدا لايعرف متى ابتدأ ومتى سيصل ..

كل ما يعرفه انه يريد الصفح ولو كانت

حياته الثمن ...

وعلى بابها انتظر .. توهم الغفران لبضع

لحظات قبل ان تفعلها وتنحره ..

نحرته وهي تمنيه بالغفران حتى آخر لحظة...

" قاسية شرسة انت يا جوري .. قاسية في عنفوانك وثأرك ..."

ضغط مرة جديدة ليستمع لصوتها مرة جديدة.. واللهب يتصاعد متأججا...

مخطئة .. مخطئة ان ظنت انه سيتقبل موته منحوراً بصمت واستسلام هكذا ..

مخطئة ان ظنت ان الحرب انتهت ..

كل سقطاته في الحياة علمته ان الحروب تنتهي فقط عندما نريد لها النهاية ..

وهو .. في حربه هذه .. لن يعترف بنهاية تختارها هي ...

على اشارة المرور الحمراء تتوقف بسيارتها في سيطرة مذهلة وهدوء يناقض كل هذه العواصف التي تزأر داخلها ..

دموعها تنحدر على وجهها بدون توقف ..

لاتستطيع ايقافها ولم تحاول ...

قلبها كجسدها.. يرتعش منتشياً بالعشق رغماً عنها يتذكر كل لمسة مميزة من مهند ...

لم تكن قد خططت للامر هذا اليوم ..

جاء عفوياً وهي تقرر فجأة الذهاب للشقة..

ثم استسلمت لرغبة في النوم على سرير وهمي كان يشغل مكان السرير الواقعي ..



السرير الوهمي كان يحمل رائحة مغامرات
زوجها مع نساء ونساء قبلها ...

لم يكن لها يوماً شعوراً خاصاً حيال معرفتها
لتاريخ مهند الحافل ... ربما لانها انشغلت بما
هو أهم من مغامرات عابثة انتهت ...

كانت في خضم معارك مستمرة لتنال قلبه
التائه في ماض مع امرأة اخرى لم ينتهي ...

آآآه ...كل هذا لا يهم ولم يعد يهم ..

هي ليست امرأة تغفر بالعشق ...

انها صبورة جلدة .. لكن عندما تصل لآخر
احتمالها ينتهي كل شيء ..

لن تنسى ابدا جرحها ..

حتى بتحقيقها لثأرها هذا لن تنسى...

ولانها لن تنسى عشق مهند كان يجب ان
تتركه وهو عاجز عن نسيانها ...

ولن تيأس ولن تكف يوماً عن ايجاد تلك
القدرة الكاملة لتفعلها .. وتنساه ...

اشتعلت الاشارة الخضراء لتمضي قدماً ...

مساء ... حفل الزفاف ..

في ركن يشعرها بالانعزال عن الزغاريد
والموسيقى والدبكات تبتسم شذرة ابتسامة
آلية غير حقيقية فقط لتواجه المدعوين
بشموخ ادعاء الاكتفاء ...

غضب ينتشر ويتوسع في روحها ...

غضب حزين مريض بالعجز !

فلا يجد الا روحها ليرميها بسهامه النارية...

فستانها الليلة بسيط جدا ... لا يرتقي لاكثر من جلسة عند الجيران وقت العصر ...

قماش ابيض بورود ناعمة .. تفصيل بسيط عادي .. كمين طويلين كالعادة وحافة الفستان تصل حتى الكعبين ..

لا تعرف لم تمردت الليلة ولم تلبس فستانا اكثر أناقة .. ؟! لكنه تمرد مريح .. يطفئ شيئا من الغضب .. وكأنها تثبت لنفسها انها مستقلة كفاية حتى لاتهتم لرأي احد ..

مادحا او ذاما... مهتما او غير مهتم ...

ضحكات الخالة ابتهال علت فذكرتها بضحكة رباب .. الاثنتان تضحكان ضحكة مميزة مجلجلة ملفتة ..

بدت الخالة ابتهال مستمتعة بحديث شيق للخالة بدرية اما الخالة سعاد بدت عابسة وهي تناظر بدرية بغيظ فتميل نحوها الاخرى تقبل خدها في استرضاء ..

النسوة الثلاث بدَوْن محببات للقلب وهن يتضاحكن بينهن ويزغردن سويا احيانا ...

كم تحسدهن على هذه العفوية في الترابط..

ألفة .. مجرد ألفة .. من سنين طويلة للجيرة ..

تمر الوجوه امامها سريعاً على وقع صخب الاعراس المعروف ..

وقد تم تشغيل مكيفات هواء خارجية لتلطيف الحر للمدعوين لتضيف بصوتها مزيدا من الصخب ...

تشعر ان نظرها بات ضبابياً وهي تحدق في تلك الوجوه المألوفة له .. لكنها تبدو بمعزل عنها ...

عبد الرحمن ورباب بدوا ثنائيا متكاملا ..

السعادة كانت تشع منه وهو يتشبث بيدها ويسحبها اليه بين الفينة والاخرى اما هي فبدت في قمة الارتباك والتشوش وهي تدفعه بغيظ وحنق ...

فستان زفافها وطرحتها كانت حديث النسوة في العرس .. وكل واحدة كانت تترجى العروس تصميم فستان بجماله لابنتها ..

رضا في عباءة بيضاء مهيبة يميل بوجهه ليقبل خد كاظم الصغير الجالس في حجر امه ... اسيا بابتسامتها المضيئة تبدو مرهقة بسبب الحمل كما يبدو ..

حذيفة لاتعرف ما يقوله في اذن خلود يجعلها تعبس وتلمع هو عيناه في خبث محبب لينفجر ضاحكاً على حين غفلة وخلود تتورد في حرج..

محسن ورحاب .. نموذج انيق ...

استاذان جامعيان قلباً وقالباً ..



حبيبة تبدو شاحبة بوضوح شديد كمن يقاوم موجات غثيان متتالية بشق الانفس بينما بدا زوجها مراعياً لها طوال الوقت ..

ثم ... رقية ...

تحجرت عينا شذرة وهي تنظر لدلعها الخبيث بفستانها الاحمر وحركاتها المتقنة لتلفت الانظار اليها ..

لم تعد شذرة ترى بها الا كل قبيح ومنفر ..

حتى وهي في دخيلتها تعرف انها تبالغ وان رقية ليست بهذا السوء الذي تحاول رؤيتها به الا انها تصر ان تراها هكذا ...

لم تعد تحتمل منها اي شيء ..

أزاحت شذرة عينيها بحركة حادة عندما ألتقت بغتة بـــ....عينيه .....

كان قريباً جدا منها .. اقرب مما كانت تتخيل .. لكن يقف في ركن مظلل بعيداً عن الاضواء ..

رجولي الوسامة بلحية كثيفة داكنة حتى وكأنه يبدو في الثلاثين رغم انها تعرف انه لايكبرها الا بسنتين او ثلاث ...

عيناه بدتا واسعتين على نحو ملفت ...

نظراته مثبتة عليها ... كمن يقرأ كل افكارها التي جالت وتجول في عقلها ..

لم يكن يكتفي بالقراءة بل بدا كمن .. يسأل.. ؛

قلبها ينبض بقوة وتحمر طواعياً وهي تتذكر بحرج بالغ ما قالته له في اخر مرة رأته فيها في الشارع ..

انفلات الكلمات منها امامه دون سابق ألفة بينهما جعلها تشعر بالخزي فيما بعد ..

وكم كانت ممتنة له لانه لم يخبر اخته بشيء وقد اكتفى باعطاء خلود كيس الحاجيات لتوصله اليها مدعياً امامها انه رآها من بعيد توقعه في الشارع ..

لم تشعر شذرة الا وهي تبتسم له بمودة خالصة .. بامتنان كامل لانه شاركها لحظة مخزية كانت فيها بمنتهى الضعف ..

كانت اكثر من لحظة ضعف ..

كانت لحظة ألم ..

شاركها اياها وكتم الامر ولم يحملها عبء ان يعرف ويحرجها بالمعرفة ..

ابتسامتها تجمدت عندما شب حريق غامض في نظراته اليها .. لماذا ينظر اليها هكذا ؟!

آخر الليل ...

جناح عبد الرحمن و .... رباب ...

يحدق في الفستان الابيض المتفرد ..

مخدوع هو الفستان في بياضه الناصع وقد تسللت اليه في شقاوة حواف ناعمة ذهبية ...

وألتفت حوله على حين غفلة منه جديلة من
قماش بلونين .. ذهبي وازرق صافٍ ... تحدد
خصرها وتبرز قوامها ...

تألقت تلك الجديلة في احتفال مبهرج
بخرزات صغيرة وكفوف ذهبية متراصة
مطرزة على القماش الابيض تسابق التفاف
الجديلة حول الفستان وتلامس نحولة الخصر
والقوام ...

اغلق باب الجناح خلفه هامسا بصوت أجش وهو
ما زال يحدق بالفستان

" للّه درك يا رضا كيف صبرت سنوااات ...
وكأن قروناً مضت وانا اتمناكِ يا قرفة .."

عندها فقط رفع عينيه لوجهها ...

وجه نحيل حلو وهو محمر هذا ولاتنقصان
حلاوته حتى الذعر في هاتين العينين
العسليتين !

غطاء رأسها الذي يغطي شعرها بالكامل ابيض
ومذهب ايضا اما طرحتها الطويلة التي تصل
لنهاية الفستان فقد اثارت اعجاب ودهشة
الجميع بقماش نصف شفاف بلون ذهبي باهت
وقد تناثرت عليها طبعات مضخمة للكفوف...

بدت كأنها تمثل فتاة من عصر ما لاينتمي
لحقبة معروفة ...

غامضة انت يا قرفة العطار ...

التصقت بالجدار عندما خطا نحوها واصابع يديها تشد على طرفي الطرحة المنسابة من الجانبين بينما عبوس طفولي متحفز يداعب محيا وجهها ...

اقترب عبد الرحمن وهو يخلع سترته ويرميها فتزداد ربابا عبوساً وتحفزاً و .. التصاقا بالجدار ...

سيستمتع بكل لحظة ذعر وتحفز منها ..

فلتريه ابنة العطار كيف ستهرب الليلة ؟

بعينين لامباليتين يفك ربطة عنقه واول ازرار من قميصه والعروس المذعورة تبدو على وشك ان تغرز اظافرها بوجهه ان استدعت الضرورة ...

يقف امامها مباشرة ويرفع يده وبدلا من ان يلامسها اخذ يلامس الجدار الملتصقة به وهو ينظر بتركيز لنقطة وهمية وكأنه يمسح بقعة ما التصقت هناك ..

بغتة مال جانباً ليطبع اول قبلة على شامتها اسفل فمها فتشهق وهو يتنهد بخفوت صامتاً..

قبلة واحدة وتراخى تحفزها للنصف ...

لكنها تقاوم وهي ما زالت ملتصقة بالجدار كأرنبة حلوة مذعورة تكاد اصابعها تمزق قماش طرحتها من شدة الانفعال ..

تهذر بنبرة مبحوحة انفعالا

" هل رأيت... مغرفة... الحي ؟ "

يميل ليمر ر شفته في قبلة خاطفة على
خدها الايسر مكتفياً باصدار تمتمة لا معنى
واضح فيها " اممم .."

ترتعش امامه وهي تتشبث بالهذر مدعية
الحديث بجدية ناقمة على العجوز الفضولي
" لم يتوقف عن ... عن ..سرد نفس الحكاية
(البطولية) ...عن... انقاذه لرضا .."

فمه يلمس حاجبها الايمن بقبلة مع نفس
التمتمة وان كان يعبس قليلا متصنعاً
الامتعاض وكأنه يجاريها الكلام " اممم .."

قامتها قصرت وهي تنكمش وتواصل الهذر
بنبرة تكاد تتوسل بمعان مبطنة بعيدة جدا
عن هذرها

" و.... رقية.. المزعجة .. قليلة .. الحياء لم..
تعجبني .. كيف اخذت ترقص ب....."

قطع الكلمة بلمسة شفاه منه على فمها

" امممم ..."

ثم يهز رأسه مدعياً هذه المرة الاستهجان..

عيناه .. والشقاوة فيهما تذيبانها ..

ماذا تفعل الآن ؟!

انفاسها تتسارع بعنف وصوتها يكاد يختفي
وهي تتطلع لعينيه

" أ أ .. حبيبة قالت .. ان فستان العرس جيد ..
اقصد جميل جدا .. اقصد .. قالت خلاب .."

هذه المرة تنهد والحرارة تشع منه فتذيب عظامها هي ..

ترتفع يداه وتفكان حجابها على مهل ثم يرميه .. لتتولى اصابعه حل شعرها العسلي المسرح بعناية وهو يهمس اخيرا

" اممم ... خلاب .."

دمعت عيناها وهو يلف خصل شعرها الناعمة حول وجهها فتهمس باعتراف مخزٍ لشجاعتها

" انا اريد .. العودة .. لبيت ابي .. وامي .."

يميل برأسه قليلا وكأنه يفكر ثم يقول مدعياً البراءة

" لا مانع لدي .. لكن هل تظنين ان سريرك المنفرد سيكون مريحاً لنا نحن الاثنين ؟! "

ابتلعت ريقها لتعبس وهي تقول بجدية تخفي هلعاً متزايدا " لا .. انا سأعود .. بمفردي .. لقد غيرت رأيي.. لا اريد الزواج .."

يمط شفتيه بأسف ويقول مواسيا " قلبي معك.. انها ورطة .. انا بت اعلم الناس بهذا .. تخيلي اني اضطررت للزواج بمجنونة كانت ايام مراهقتها تصبغ شعرها بألوان قزح قزح!!"

ذراعاه التفتا حولها ليرفعها لمستوى وجهه ضاحكاً لشهقتها الناعمة ثم يتحرك بها وهو ما زال يضحك ملء فمه وهي تضربه على صدره وكتفيه وتلهث بكلماتها الحانقة

" انا .. جادة .. أعدني لبيت ابي .. اريد امي .. انا غيرت رأيي .. لا اريد ان اتزوجك .."

ما زال يغيظها ويثير جنونها بضحكاته وفجأة وجدت نفسها تسقط معه على السرير الواسع ..

يتشبث بخصرها وهو يشدها اليه يستمتع بمقاومتها له وضحكات السعادة تنطلق من كل خلاياه ...

ضحكاته غرقت في رقبتها لتتحول لامواج حرارة تضرب حواسها .. تعذبها وتعذبه معها..

يهمس بحرارة انفاسه المرتعشة

" عذابك حلو الليلة يا رباب .. حلو .. آآه يا ربي كم هو حلو ... ربما الليلة سأكتشف سر حلاوتك يا قرفة .."

تدفعه في كتفيه بحركات خرقاء عشوائية وهي تناديه بضعف " رحمن .. "

يهدر وهو يبحث بجنون عن بداية السحاب في الفستان " اجل .. لااااااصق ..ملتصق ... بحلاوتك.."

الخاتمة

الحديقة الخلفية لبيت الصائغ (الملحق)

يوم زكريا (اول يوم أحد من شهر شعبان)

قرابة الغروب ...

على كرسيين متجاورين كانت بدرية وسعاد تجلسان وعلى مائدة صغيرة امامهما تتشاركان بإعداد صينية كبيرة مدورة فضية تراصت فوقها صحون الحلويات والمكسرات والمعجنات وأغصان أشجار الآس داخل الأباريق والأواني الفخارية ..

ولم تنسيا عيدان البخور و الاهم هو الشموع الصغيرة التي لم تشعلاها حتى الآن بانتظار غروب الشمس ...

بصوت بدرية الرخيم كانت تحكي لسعاد الصغيرة قصة يوم زكريا ...

" ترجع عادات وتقاليد طقوس ليلة زكريا والتي تصادف اول أحد من شهر شعبان الى أزمان قديمة قدم الحياة نفسها .. على نفس هذه الارض التي وطأها الانبياء وعاشوا عليها... الى زمن النبي زكريا عليه السلام وقصته عندما استجاب الله تعالى لدعائه ورزقه طفلاً من زوجته العاقر، و كان قد بلغ التسعين عاماً لكنها مشيئة الله ليكون له الولد الذي تمناه .. واختار له المولى اسم (يحيى) لم يجعل له من قبل سميا ... فأضحت ارادة الله مع عبده زكريا تقليداً لدى النساء حتى وقتنا الحاضر .. النساء اللاتي لم ينجبن.."

فتقاطعها سعاد وهي تضع مزيدا من عيدان البخور قائلة باضافة مهمة من وجهة نظرها

" أو من لم يرزقهن اللّه بالذكور من الأبناء.."

تحدجها بدرية بتوبيخ بينما تواصل سرد الحكاية للصغيرة المهتمة " أو حتى لتحقيق أي أمنية أخرى او نذر ، أملاً أن يستجيب اللّه لما يتمنين من خلال إحياء هذه الليلة..لذلك في هذا اليوم يشهد السوق الكبير وسط العاصمة (الشورجة) اكتظاظاً بالمتسوقين ، وعلى وجه التحديد... النساء منهم ... والكل يشتري لوازم إحياء هذه الليلة .. "

تلامس سوسو اغصان الياس وهي تقول

" احب رائحتها ..."

كانت الوحيدة بين الاطفال من تهتم بهذه الحكايات بينما الباقون يتراكضون في ارجاء الحديقة والبيت في هرج ومرج وكل واحد منهم يمسك بطبله المصنوع من الفخار ويقرعون عليه ويرددون الأغنية الشعبية لهذه المناسبة «يا زكريا عودي عليّ.. كل سنة وكل عام ننصب صينية "

لقد يوماً مختلفاً بأجوائه القديمة فيجدون في اختلافه إثارة وتنوعاً ..

قالت بدرية وهي تلتقط علبة الثقاب

" سأبدأ باشعال الشموع قبل ان يؤذن المغرب .."

هتفت سعاد باعتراض وهي تختطف منها العلبة

" لا .. أنتظري .. أنا من سيشعل الشموع .. لا تتسابقي معي يا امرأة .."

فتتنهد بدرية في غيظ بينما تشعل سعاد اول شمعة صغيرة مثبتة على سطح الصينية ثم تميل لتقبل وجنة حفيدتها وسميتها قائلة

" هذه شمعتك يا نور عيني وعين ابيك .."

يتألق لون عيني سوسو وهي تحدق بفرح في لهب شمعتها بينما يراقب ابن عمها عينيها المتلألأتين من بعيد فيكز على اسنانه غيظاً من مجهول ...

تطرف عينا الجدة سعاد للشمعات الكبيرات التي يتعاون ولداها حذيفة وعبد الرحمن في اعداد حفر على طول جانب الحديقة وتثبيت الشموع في التراب..

شمعات بيضاء طويلة وسميكة ... يتراوح طولها ما بين نصف المتر والمتر الواحد .. مزينة بشرائط ملونة ألتفت حولها بتناسق يسر الناظرين ويبهج القلوب التي تبحث عن دفء تجمع العوائل والاقارب والجيران في مناسبات من روح البلد واهله ...

مطّت سعاد شفتها بحسرة وهي تحدق في ولدها حذيفة لتتمتم رغماً عنها وبدعاء من القلب

" رزقك اللّه بالولد يا ابن بطني ... نذرت صوم زكريا العام المقبل اذا انجبت خلود الولد .. سأثبت شمعته بنفسي في التراب .."

تسخر منها بدرية وهي توبخها في نفس الوقت

" ها قد عادت ريمة لعادتها القديمة .. ألن تتوبي ؟ لعن اللّه شيطانك ..."

عبست سعاد وهي تشوح بيدها في وجه بدرية بامتعاض منها ..

فجأة انحسرت سعادة سوسو بشمعتها الصغيرة البيضاء وهي تقارنها بالشمعات الكبيرات الزاهيات ..

سألت بإلحاح " لماذا يجب ان تكون شمعات البنات صغيرة عادية هكذا موضوعة على صينية بينما شمعات الاولاد كبيرة جميلة جدا بالشرائط الملونة ..."

فترد سعاد وكأنه أمر منطقي وبديهي

" لانهم ذكور .. والذكور نحتفل بهم بشكل خاص لانهم مميزون .. فهم سندنا وعزوتنا .. ولانهم .."

قاطعتها بدرية تهتف بها بحنق

" كفاك يا سعاد تسميماً لعقل الطفلة .."

تأففت سعاد وهي تشعل الشمعة الثانية لحفيدتها منة اللّه لتواصل نقارها مع بدرية بينما بدت سوسو عاقدة الحاجبين وناقمة ..

حملت رباب اخر الشمعات بعد ان حفرت عليها بدبوس اسم (عبد الرحمن) لتناولها لـ (زوجها) كي يثبتها في الحفرة المعدة لها سلفاً في التراب جوار باقي الشمعات المتراصة جنب بعض ...

رآها تحفر اسمه قبل ان تسلم الشمعة الكبيرة له .. مضى اسبوعان على زواجهما وحتى اللحظة يكاد لا يصدق انه .. حصل المراد ...

تذكرها صباح اليوم توقظه بلمسات اصابعها فوق وجهه .. في البداية كان مستمتعاً بما تفعله حتى شعر بغرابة احساس الرطوبة على بشرته ..

عبس قليلا وهو يفتح عينيه فيرى وجهها الضاحك العابث مشرفاً فوقه وشعرها العسلي متناثر بعشوائية حولها..

وقبل ان يسألها او يتلمس مصدر الرطوبة على وجهه رفعت اناملها امام ناظريه لتريه الالوان التي علقت بها معترفة دون كلمات بفعلتها ..

ثم قفزت ضاحكة هاربة منه ليلاحقها متوعدا في ارجاء الجناح بعد ان ادرك ما فعلته في وجهه وهو نائم مستمتع بملامستها كغبي رومانسي ...

ابتلع ريقه وهو ينظر لعينيها فيذكرها بما حصل صباحاً وكيف انتهت المطاردة وهو يقبض عليها ليحملها للسرير وهو ينفذ وعيده.. فينتهي الحال بهما ملطخين بالالوان في كل مكان .. هما وشراشف سريرهما ايضا..

احمرت رباب وهي تكتم ضحكتها وتشيح بوجهها جانبا بينما يطلب منها عبد الرحمن بصوت أجش

" اعطني الدبوس لأكتب اسمك معي .. "

تعيد نظراتها اليه وتقول بصوت خافت معترض

" لا .. انت تعرف انها للذكور فقط .."

يمد يده ليختطف الدبوس منها ثم ينفذ ما يشاء بعناد قائلا " انا لا اهتم .. لا احد غيرك تليق به هذه الجدائل الملونة حول الشمعة ..."

فيجلس القرفصاء على الارض ويضع الشمعة في حفرتها ثم يردم التراب حولها وبعد أن أتم مهمته يقف على قدميه فيميل ناحيتها هامسا قرب اذنها من خلف الحجاب " انا الشمعة التي تحترق وانت جدائلي المجنونة التي تحاوطني اينما ذهبت .."

فتجلجل ضحكاتها عالياً حتى تأوهت متوجعة وقرصة مغتاظة من زوجها وتحذير متجدد ان لاتضحك هكذا امام أحد ...

تم اشعال الشموع الكبيرة ذات الشرائط الملونة (للذكور) والصغيرة البيضاء داخل الصينية (للاناث)...

يتوافد الجيران وبعض الاقارب وابتدأ الاعداد للطعام فقد اقترب موعد الأذان وقد كان الاغلبية صيام ... افترشت ارض الحديقة بمشمع طويل كسُفرة للمناسبات احاطت بها المفارش المبطنة بالقطن حولها في جلسة مريحة بسيطة عامرة ...

دخلت الدكتورة فيرجين مع زوجها وابنها الوحيد وهي تعتذر عن التأخر بسبب مواعيد عيادتها ..

لتجلس الدكتورة بأريحية جوار بدرية ..

يلقي الجميع السلام بينما تحاورها بدرية بمحبة " كيف حالك يا دكتورة فيرجين.. مضى زمن لم نرك فيه في جلسة كهذه .."

فترد الدكتورة بتودد " بخير يا ام عبداللّه الحمد للّه .. لكن العمل يأخذ كثير من يومي لذلك اتفرغ لولدي باقي الوقت .."

نظرت بدرية للفتى الذي جلس جوار امه وبدا متململا بعض الشيء ..

لم يكن صغيرا ليمرح مع باقي الاطفال ولا كبيراً ليشارك الرجال في حديثهم ...

ولسبب طفولي ما لم يكن على وفاق مع سامي ابن محسن الذي يماثله بالعمر ...

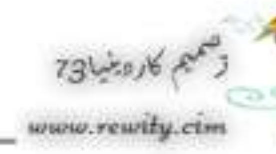
بابتسامة تسأله بدرية

" كيف حالك يا أحمد ..."

فيرد ببعض الخجل " بخير .. خالتي .."

عندها قالت سعاد وهي تتطلع اليه

" بسم اللّه ما شاء اللّه ... لقد كبر الفتى .. وكأنك البارحة كنت تصومين معنا زكريا نذرا لانجاب طفل .."



تتبسم الدكتورة وهي ترد على سعاد بملامح منشرحة وكأنها تستعيد نفس الفرح عندما علمت انها حامل اخيرا وقد كانت قد بلغت الثالثة والاربعين

" اجل يا ام رضا .. هذا شعوري ايضا .. الحمد للّه تحقق الامر وتفاءلت بكم وبالشمعة التي كنت اضيئها عندكم حتى استجاب اللّه لي.. اسميته على اسم النبي محمد .. فاخترت أحمد..."

اطلقت سعاد وبدرية الصلوات على النبي لتسأل بدرية بعدها

" كم اصبح عمره الان حفظه اللّه ؟"

ردت فيرجين وهي تحاوط ولدها بذراعها

" سيُتم اثني عشر في نهاية شهر آب .."

فتعلق سعاد بفرح " ما شاء اللّه لا قوة الا باللّه.. اللّه يبارك به وترينه طبيبا مثلك .."

ثم تلتفت للفتى وتقول له مشيرة بيدها لاحدى الشمعات الكبيرات

" تلك شمعتك ذات الشرائط الصفراء .. اذهب وخذ طبلك من جعفر .."

اشفقت بدرية على وجه الفتى الذي بدا محرجا مغتاظا فتميل بدرية نحو رفيقتها قائلة " أحمد كبر على الطبل يا سعاد .."

ثم عادت لتقول للفتى " اذهب وشارك الرجال جلستهم افضل من جلستنا المملة لك .. "

هز الفتى رأسه وهو يقف على قدميه ويتحرك بخطوات واسعة مبتعدا عنهن.. وكأنه لم يصدق النفاذ بجلده من فقرة (الطبول) هذه..

حول سُفرة الطعام والشموع تمنح ضياء مختلفاً للمكان تتجمع الوجوه والقلوب معاً ..

الاحاديث وضحكات الرجال التي تسيل الدموع من اعينهم احيانا .. مزاحهم الخشن الذي لا يفقدهم هيبتهم بل يمنحهم دفئا وتوددا ..

حوارات النساء واخر الاخبار التي يتناقلنها ..

الاطفال ما بين جلوس ونهوض .. لعب وركض ودق طبول ومناكفات ومشاجرات ومشاغبات..

ووسط كل هذا كانت خلود تأكل بصمت تخنق عبرتها وهي تضع اللقيمات في فمها ..

تدعو اللّه من قلبها ان يحقق لها مرادها ..

فجأة سمعت صوت الدكتورة فيرجين التي تجلس جوارها قائلة بهمس لا يسمعه غيرها

" تعالي الي في المستشفى .. هناك طبيبة نسائية جديدة عندنا .. تعجبني حقاً "

اللقمة في فم خلود تحجرت فلم تبتلعها وهي ترفع عينيها المتأملتين للمرأة لتؤكد لها الدكتورة بدعم جديّ

" لاتيأسي يا خلود .. انا لم أيأس ابدا حتى رزقني اللّه بأحمد .. لم أتوقف عن الدعاء والبحث عن علاج .. "

بأمل جديد هزّت خلود رأسها وهي تهمس باختناق التأثر " سأحضر غداً .."

فتبتسم لها وتمد يدها لتربت على حجرها ..

بعينين مسبلتين يضع حذيفة الطعام في فمه.. يخفي ابتسامته بصعوبة وهو يشعر بما يحدث مع خليل الجالس جواره ..

مستمتع برؤيته يعاني وهو يطرق برأسه بشكل مبالغ فيه تجنباً ان تطرف عيناه ناحية (بغية قلبه) التي تجلس في نهاية الجلسة ووسط النسوة ..

منذ عرس عبد الرحمن ورباب واكتشف حذيفة ماذا يجري ..

الفتى اذن يعشق من بيت العطار ..

يعشق و... يكتم !

ترى .. منذ متى يكتم هكذا ؟

لم يكن ما رآه حذيفة منه قبل اسبوعين مجرد اعجاب جديد يبديه لشذرة العطار ..
لقد رآى فيه عاشقا حتى النخاع يحترق في عشقه الصامت ..

تنحنح حذيفة وهو يطلب من خليل

" ناولني لو سمحت بعض من صحن الكباب المشوي هناك .. الصحن هنا يكاد ينفد.."

يضطر خليل ان يمد كل جسده للجانب حتى يصل الصحن البعيد وعندها لم يملك لعينيه الهروب منه بعد سجن قسري يستنزف طاقته ..

ولا يعلم هل هو حسن حظه او سوئه كي تكون شذرة في تلك اللحظات مشغولة بالكلام مع اسيا العطار وامها ابتهال ..

عاد بالكباب لحذيفة فيناوله اياه في صمت..

ينهي طعامه بحركة خشنة نوعاً ما لم يشعر بها الا حذيفة .. فيبتسم حذيفة بغموض ..

بعد الطعام ..

تتطلع رقية للشموع الكبيرة ببعض اللامبالاة بينما ترتشف من شايها ..

من اكثر الذكريات المحفورة بمخيلتها عن ابيها هو الشموع الصغيرة في يوم زكريا ..

يونس العطار هو من علمها كيف تبتدع الاسرار التي تحتفظ بها لنفسها ..

واول سر ابتدعه الاب بينه وبين اصغر قواريره هو اشعال شمعة ..

في يوم زكريا كان يرفض ان يشعل شمعة كبيرة تمثله .. ويكتفي الاحتفال بشمعات بناته الصغيرات ... قواريره ..

لكنه في اخر الليل كان يتسلل خلسة مع صغيرته كل الرقة كما يدللها بالتسمية فيخرجان عبر الباب الحديدي للبيت ويشعلان شمعة سرية صغيرة .. تمثله ...

لقد اقنعها انه يشاركها سراً مهماً ... وأنه يشعر بالغيرة منهن لانهن يمتلكن شمعاتهن الخاصة يتفاخرن بها بينما هو وحيد لايجبر احد بخاطره ليشعل له شمعة صغيرة ويشعر بالخجل ان يطلب ...

لذلك اتفق معها (ومنعاً لحرجه) ان يتسللا كل ليلة زكريا فيشعلا شمعته خارج البيت دون ان يشعر بهما احد ...

غامت عينا رقية للذكرى .. ذكرى عيني والدها الزرقاوتين الملتمعتين بالحنان الماكر.. رغم انها علمت فيما بعد انه كان يحتال عليها بقصة (الشمعة) الا انها استمرت معه في اشعالها كل سنة وواضبت على فعلها حتى بعد رحيله ... وطيلة هذه الاعوام لم يعرف بسرها أحد ..

لم تكن ملامح رقية تعبر عن شيء وهي تنظر للهيب تلك الشموع ... لكنها ببساطة تعلم انها آخر هذه الليلة ستفعل ما تفعله كل سنة.. ستشعل لوالدها .. شمعة صغيرة ...

آخر الليل ... الملحق ..

فتح حذيفة باب الملحق ليبحث عنها وهو يتمتم بغيظ " لا افهم اين تختفي هذه المرأة فجأة ! "

على ضوء الشموع التي ذابت وتوشك على الانطفاء وجدها تقف هناك ...

كانت... تبكي بنشيج خافت !

تنهد حذيفة وهو يقترب منها من الخلف مناديا اياها بنبرة معتدلة " خلود ..."

توليه ظهرها لكنها يستطيع ان يرى حركة جسدها وذراعها التي تخبره انها توقف نفسها عن البكاء وتمسح وجهها قبل ان يصل اليها ..

وقف خلفها مباشرة وللحظات لم يفعل شيئا وهو يحدق من فوق قامتها الضئيلة لتلك الشموع الذائبة ...

قال أخيرا متسائلا بنبرة خشنة " الا يكفيكِ انك تملكين ولدا مزعجا مثلي ؟ انا اشعر بالغيرة منذ الآن .."

استدارت اليه وعيونها الدامعة وأنفها السائل المحمر يكشف البكاء المرير الذي كانت تبكيه .. قالت له بصوت متحشرج تسأله وكأن لديه كل الاجابات

" هل سنضع يوماً شمعة زيد جوار شمعتك ؟"

ينظر في عينيها للحظات طويلة قبل ان يميل اليها هامسا

" زيد هذا سيأخذك لمستشفى المجانين .. ما رأيك ان تركزي مع ابي زيد حالياً ما دامت الحاجة سعاد تنازلت عنك الليلة .."

فتشق قلبه وهي تضع كفها المرتعش على صدره فوق مكان القلب بالضبط هامسة بكل روحها " كلي لك ... وحدك .."

ذراعه التفت حول خصرها بحركة خشنة واحدة فيحلمها بوضع مائل على جانب جسده كما يفعل مع ابنته عندما يلاعبها ...

تعترض في احراج وحنق " انزلني يا حذيفة .. يال الفضيحة اذا رآني احد اخوتك محمولة كنعجة هاربة هكذا .."

يعود بها حذيفة ضاحكاً وداخله يدعو بكل قلبه ان يستجيب الله لامنيتها .. فقط لاجلها هي .. لم يتمن طفلا كما تمناه الليلة ..

وكله لاجلها هي ولا احد سواها ...

بعد ساعة ...

على باب الصائغ الكبير الذي فتحه عبد الرحمن قبل دقائق كان يتعانق مع رعد في ضحكات فرح تتخللها ضربات موجعة يسددها لكتف صديقه العائد دون سابق انذار ودون ان يعلمه انه غير موعد عودته للوطن ..

توجع رعد من لكمة جديدة على كتفه وهو يعقد حاجبيه المميزين كخطين كثيفين حادين مائلين تمنحه هيئة غامضة مخيفة كانت السبب وراء تسمية عبد الرحمن له بـ(دراكولا) ...

هتف رعد بصديقه " كف عن لكمي والا سأوقظ كل جيرانكم على عراك صاخب بيننا ..."

يضحك عبد الرحمن ملء فمه وهو يهتف به في فرح غامر " متى وصلت ايها المجنون ؟! "

رد رعد بابتسامة شقية " اليوم عصراً .."

عبس عبد الرحمن وهو يعاتبه بالقول " اذن لماذا لم تأت حالما وصلت ؟! كنت ستشاركنا الاحتفال بزكريا واعرفك بعائلتي .."

غامت عينا رعد وتلاعبت تعابير غامضة على وجهه وهو يرد

" لم استطع الفرار من بيت عمي بوقت أبكر .. لكني حالما استطعت النفاذ بجلدي ركبت اول سيارة اجرة واعطيته العنوان ليوصلني اليك .."

سحبه عبد الرحمن من كتفه وهو يقول له بترحاب حار " تعال .. تعال وادخل .."

لكن رعد رفض وهو يقول

" اين ادخل ؟! انه منتصف الليل .. مؤكد لا .. لن ادخل بهذا الوقت .. كما اني اريد ان ألف معك في ارجاء العاصمة .. مضت سنوات لم أرها فيها ..."

ربت عبد الرحمن على كتفه وهو يقول بحماسة

" حسن انتظر هنا ... سأغير ملابسي وأعود اليك .."

بتسلية نظر رعد لصدر عبد الرحمن العاري ولايرتدي الا بنطالا بيتيا .. ليقول له بنبرة مشاغبة

" تغير ملابسك ؟! تقصد ترتدي بعضها .. انت نصف عار يا صديقي .. الزواج افسدك .. يا خسارة تربيتي لك .."

لكمه عبد الرحمن لكمة اخيرا قبل ان يدخل مهرولا لبيته تاركاً صديقه يقف في الخارج بانتظار عودته ..

استند رعد بظهره على سور البيت فحجبته الظلمة وظلال الاشجار القاتمة تخيم فوق رأسه...

مد يده لأحد الاغصان وكسر غصنا صغيرا وضعه بين شفتيه ويعضه باسنانه يتشاغل به مستلذاً بطعم الزرع في فمه...

انفتح الباب في البيت المقابل ...

خرجت منه فتاة قصيرة القامة .. لم تكن ملامحها ظاهرة لرعد لكنه ميّز شعرها المرفوع في عقدة اعلى رأسها وكيفما اتفق .. كما ميزانها .. حافية القدمين !

ابتسامة عابثة شقّت فمه بينما يدقق النظر فيها ..

كانت تلملم ثوبها البيتي حولها بيد وتحمل بضعة امور في اليد الاخرى..

لم يتبين ما تحمله بالضبط ...

ثم اثارت اهتمامه وفضوله وهي تتلفت يمينا ويسارا فاتسعت ابتسامته بخبث لانها لا تراه بينما يدرك مقصدها من التأكد من خلو الشارع..

لم يطل انتظاره ولم تمنحه وقتا ممتعا في تخمين ما ستفعله بينما يراها تتحرك جانبا لتقترب من حافة سور بيتهم من الخارج ثم .. تنحني ارضا...

تجلس على ركبتيها لتعبث بما تحمله ثم فجأة صوت خافت ليضيء وجهها على شعلة عود ثقاب...

كان يحدق في وجهها المضاء وقد بدى كوجه ... دمية ....

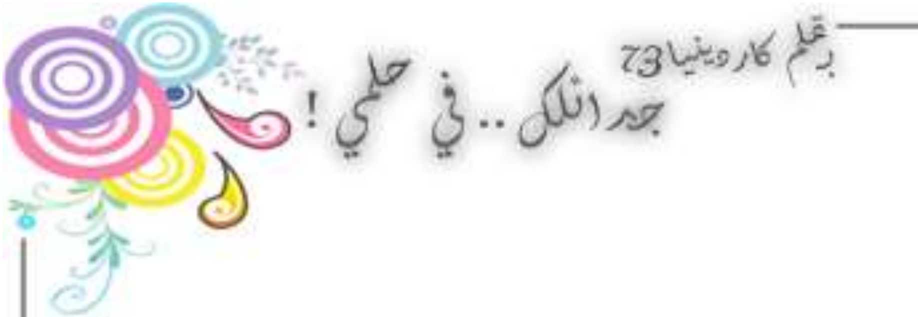
وجهها صغير نحيل بخدين مرتفعين .. عيناها زرقاوان تلمعان كالدمية وفم بشفة سفلى مكتنزة متدلية مميزة .. لايفسد صورة الدمية فيها الا انفها الكبير نوعا ما !

رآها ترفع شمعة لتضيأها عندما انطفأ عود الثقاب فجأة..

سمع تمتماتها فأدرك انها تشتم ...

الامر بات ممتعا حقا ...

غصن الشجرة ما زال بين شفتيه وابتسامته العابثة مستمتعة بينما يراها تشعل عود ثقاب اخر فينير وجه الدمية..



لم يقاوم مشاكستها وهو يراها تعقد حاجبيها

بتصميم وعزم فيقول فجأة بصوت مرتفع

" بووووو .."

و... بووووووو ...تمت القارورة الثالثة رباب في

جدائلك في حلمي

فتابعوا معي تتمة حكاوي أهل بغداد في

القارورة الرابعة رقية والاخيرة

من سلسلة قوارير العطار

